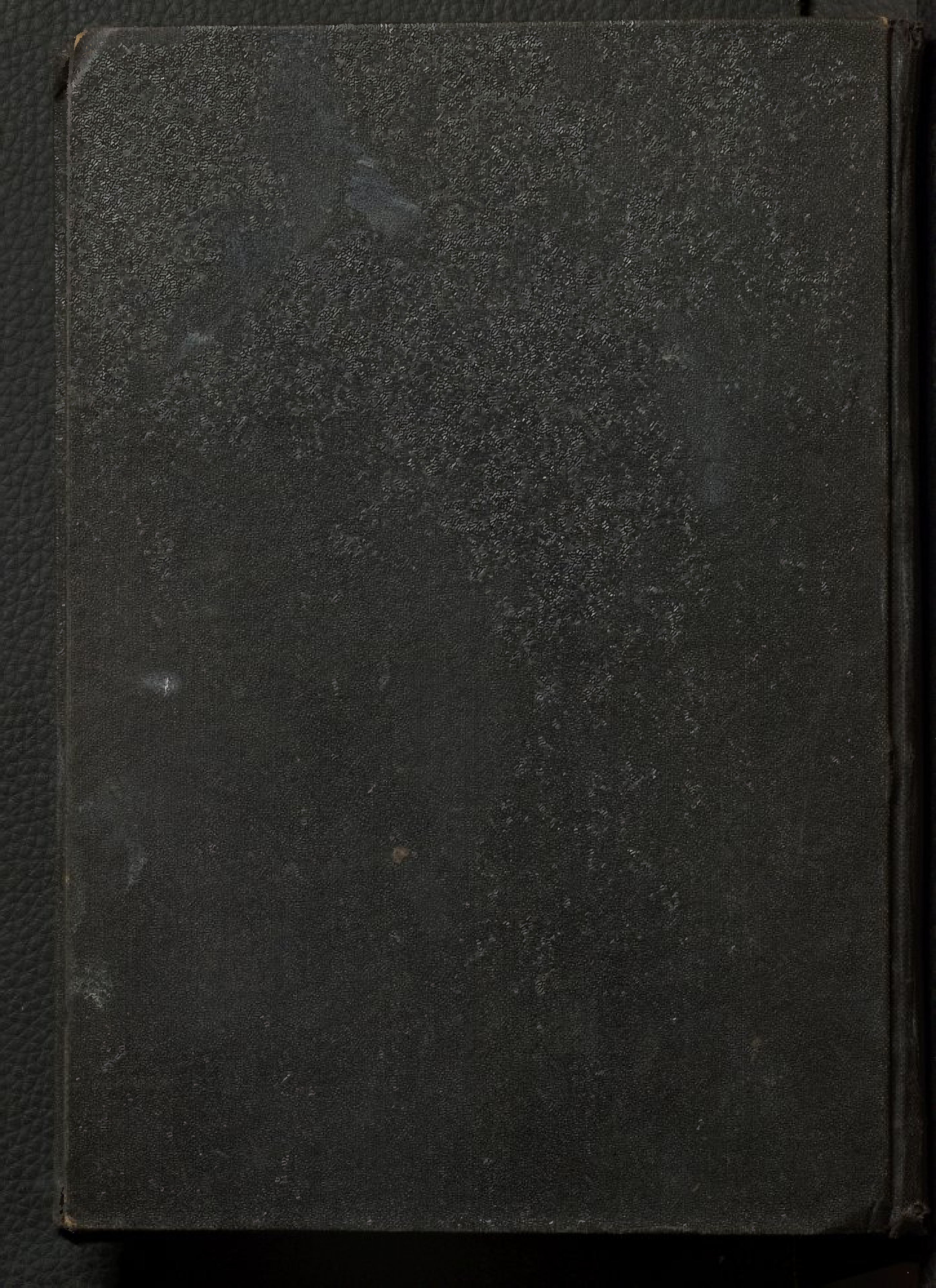
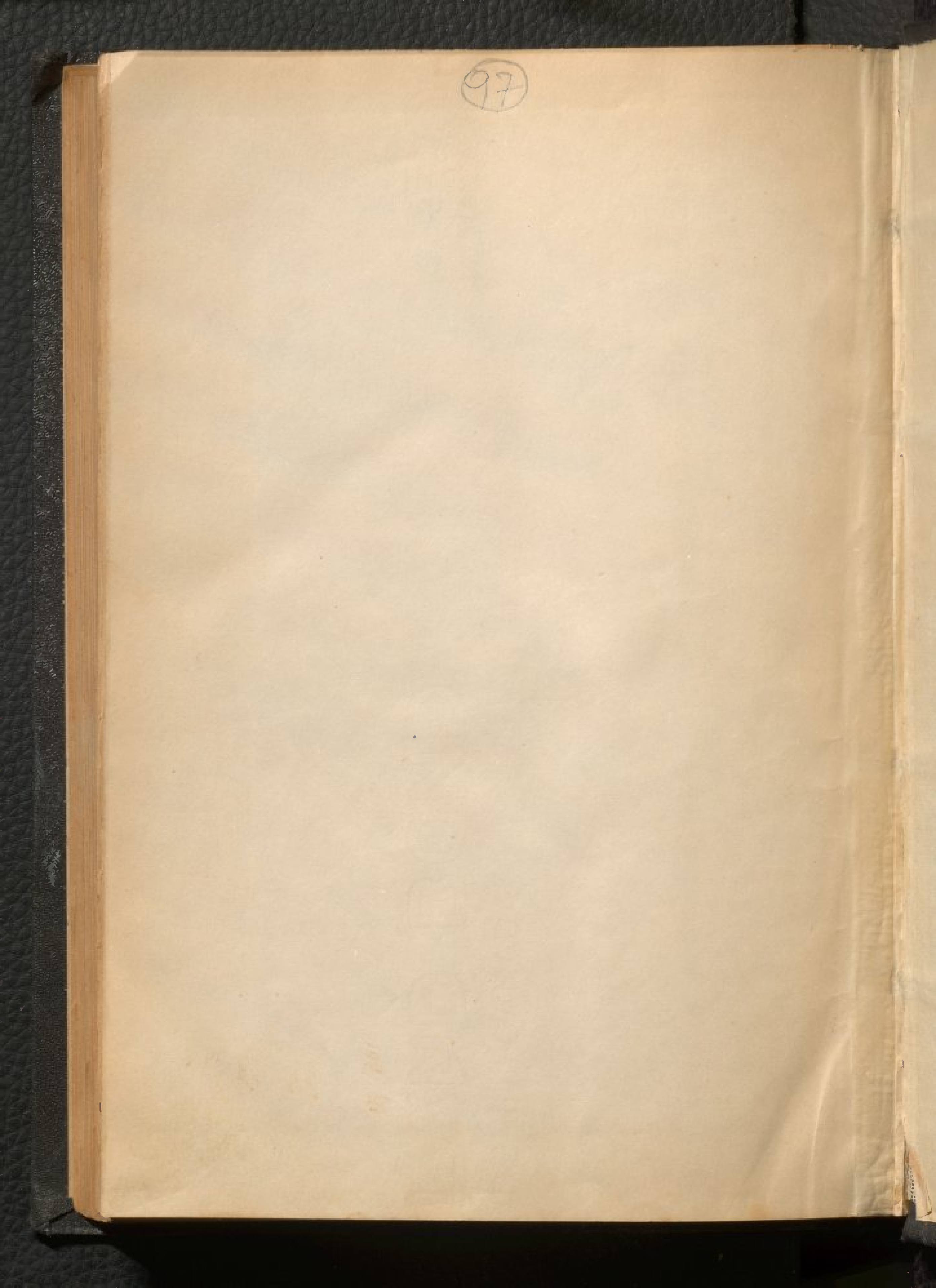
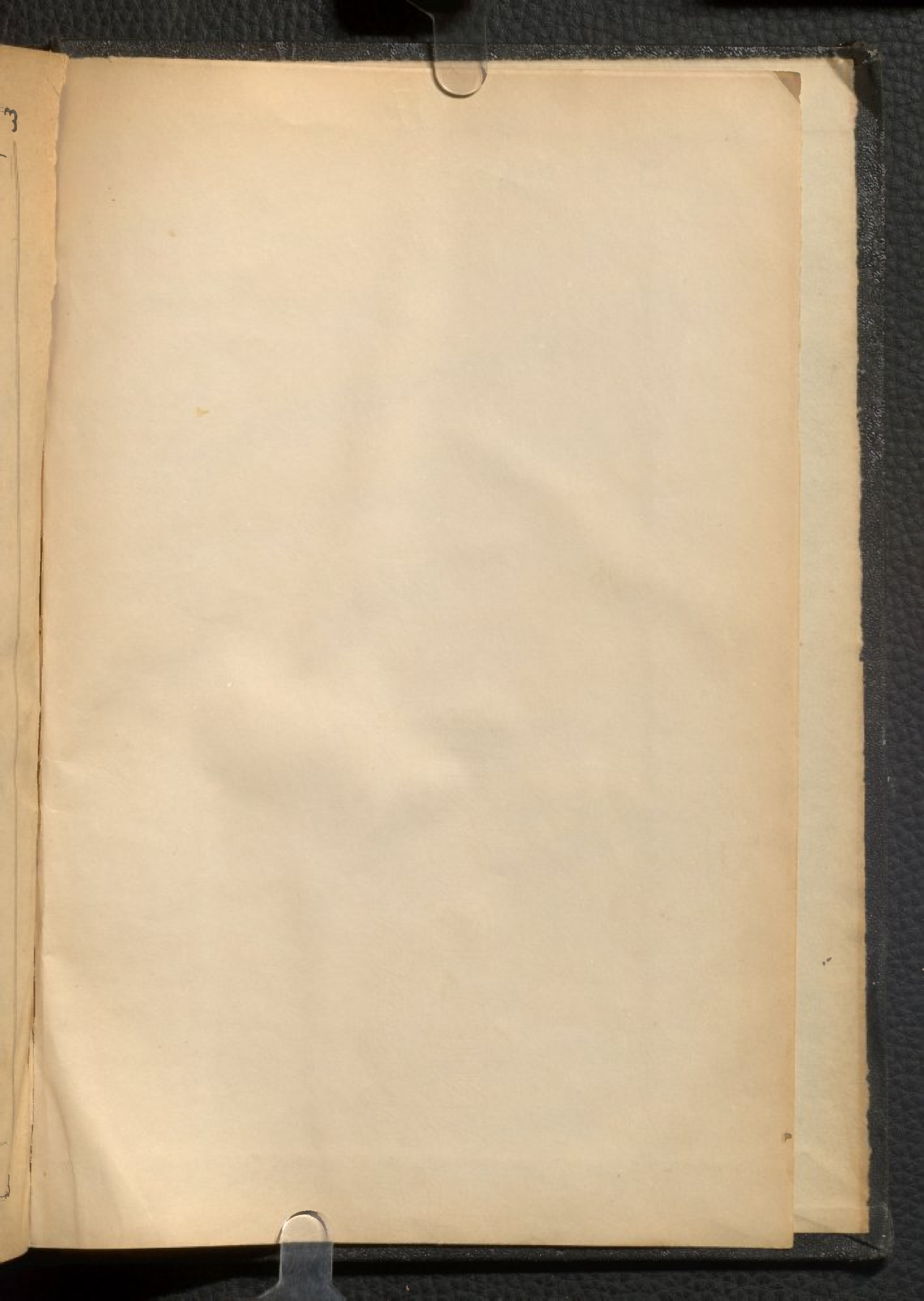
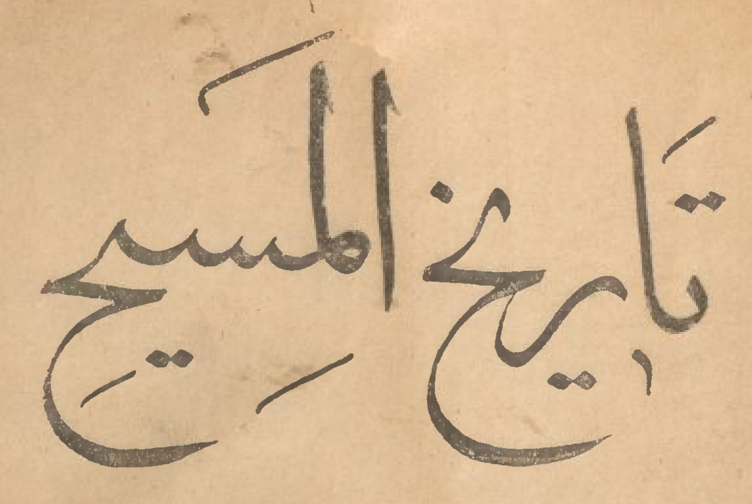






ثمن النسخة الواحدة ٢٠ غرشاً صاغاً



تاريخ المسيح

تاليف الفيلسوف المؤرخ (ارنست رنان)

الذي كان الغلاة من الاكليروس يقاومونه في حياته كما يقاومون تولستوي اليوم

ملخص تلخيصاً يبقى معه موضوع الكتاب ويذهب به ما لا تروق مطالعته وذلك كما فعل رنان في المختصر الذي لخص به كتابه هذا لغرض تاريخي ادبي اراد به اطلاع عامة القراء على مبادىء يسوع الحقيقية وجمال حياته لا البحث الديني. فضلاً عن تاريخ الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه يسوع ووصف البلاد التي نشأ فيها مما لم يُنشر قبل اليوم باللغة العربية

بقلم

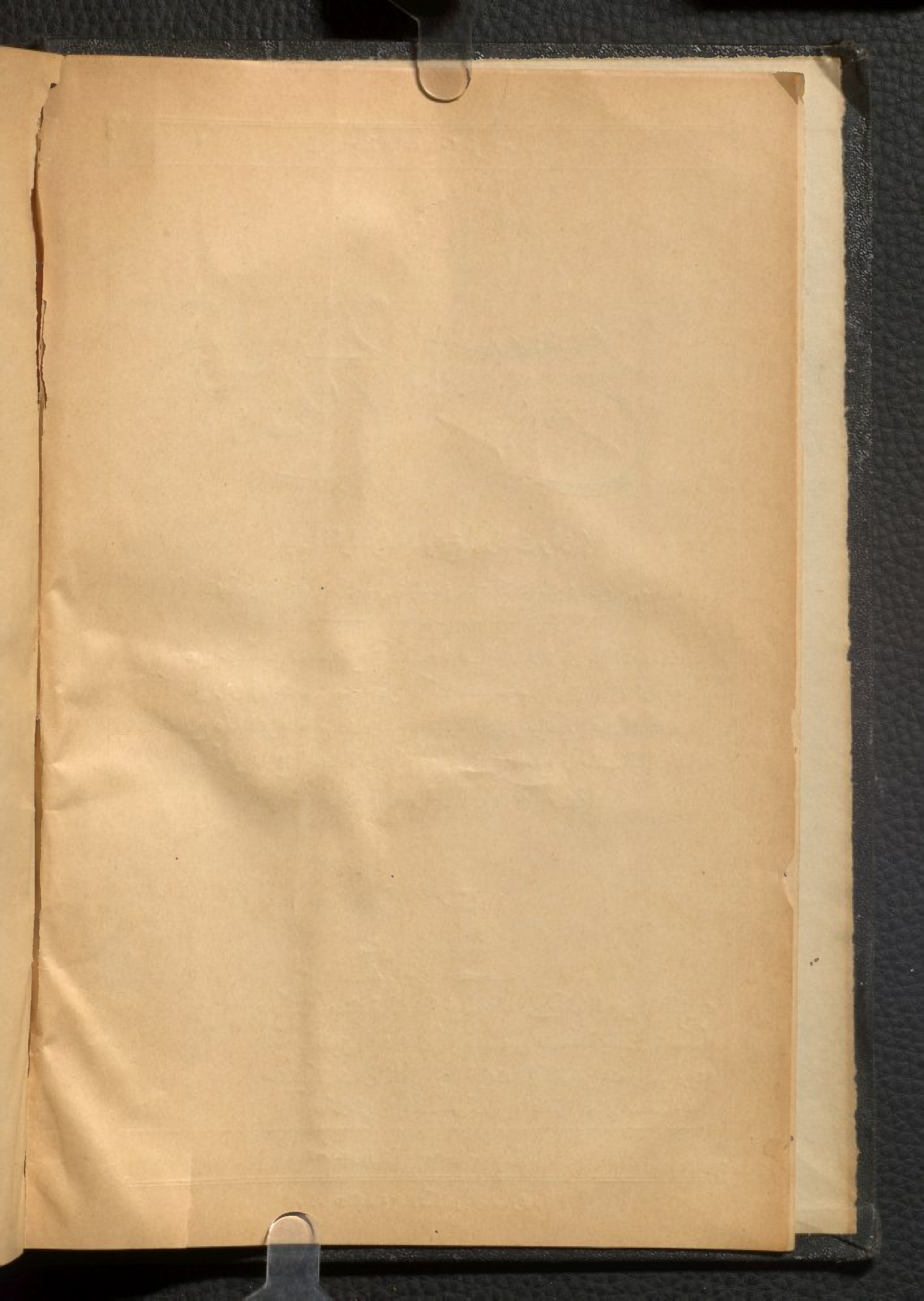
فرح انطون

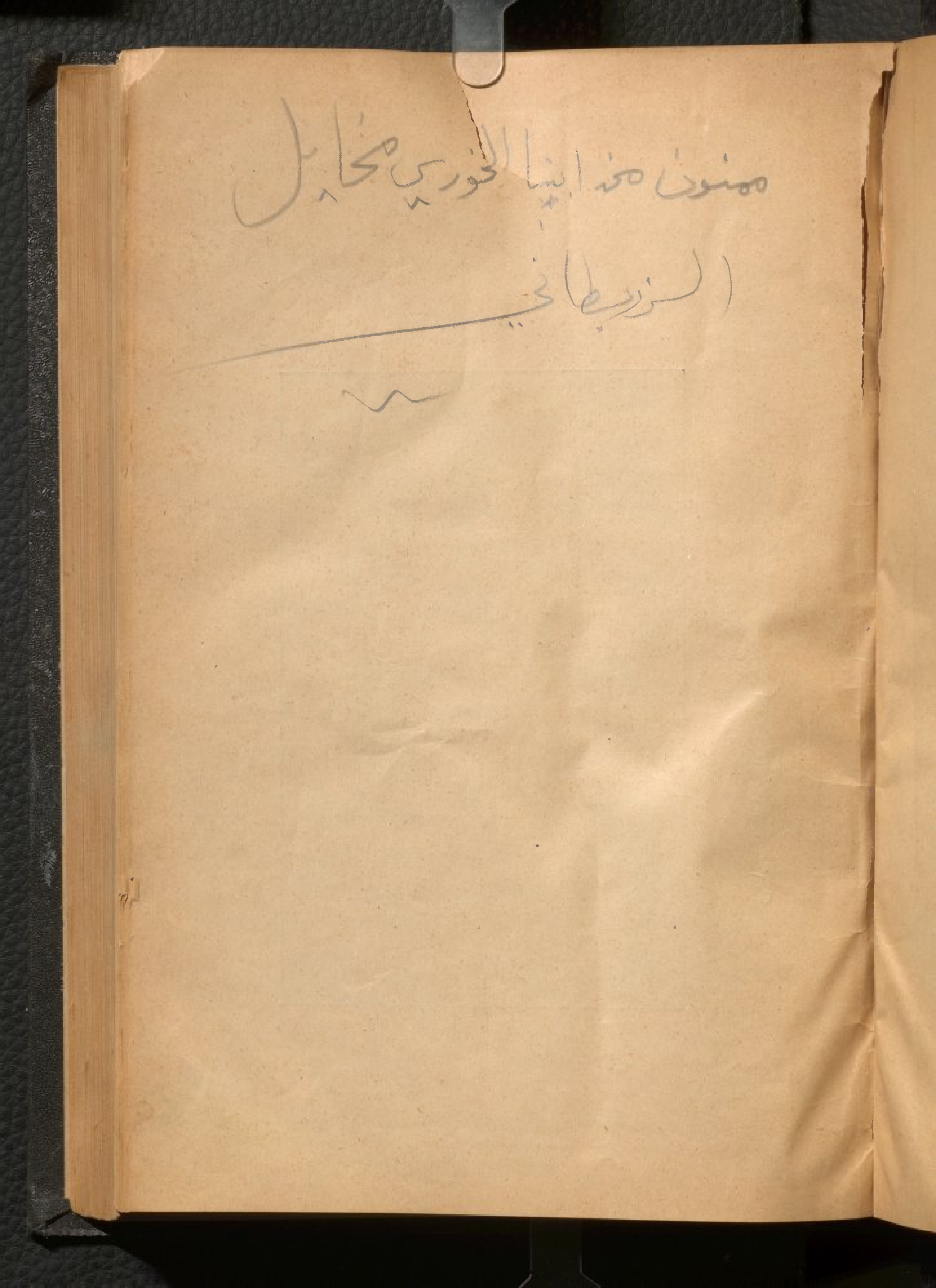
منشىء مجلة الجامعة

«وكنتِ معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش»
«الفكر الضيق الصدر فان كل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً»
«حقيقياً لا بد ان تفضي بها قراءته الى الرضى عنه والسرور به»
«كلام لرنان في المقدمة عن كتابه هذا مخاطباً اخته التي اهداها اياه»

الاسكندرية ٢٠ اغسطس سنة ١٩٠٤

مطبعة «الجامعة» بالاسكندرية بباب رشيد




ممنون من ابينا الخوري ميخائيل
الزريطاني



السيد المسيح

على أتان داخل الى اورشليم في احتفال عظيم قبيل الصلب وهو عيد الشعانين

الباب الاول

مقدّمة المعرّب

(الغرض من تعريب هذا الكتاب)

لكل علم وفن طريقان مشهوران . الطريق الاول (طلب الفن لذاته) بصرف النظر عن نتائجه اذ لا غرض من هذا الطلب سوى ترقية ذلك الفن والبلوغ الى حقيقته . والطريق الثاني (طلب الفن لفائدته الاجتماعية) اي تطبيقه على المجتمع البشري للاستفادة به وتحسين احوال الهيئة الاجتماعية

ولما كتب الفيلسوف رنان كتابه «تاريخ يسوع» هذا سلك فيه الطريق الاول قال في مقدمة كتابه (تاريخ الرسل) بعد صدور تاريخ يسوع ما نصه

« ولقد كتب اليَّ بعض الناس من كل صوب يقولون « ما غرضك من هذا وماذا تريد به » فانا اجيبهم بان غرضي هو كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كان لي عدة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ آثينا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنساوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب ؟ لا يكون لي من غرض سوى وجود الحقيقة واحيائها واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدر ما يمكن من الصدق والتدقيق »

وقال في صلاته على الاكرو بول (١) التي هي اشهر ما كتبه مخاطباً بالاس آثينا الاهة الحكمة عند اليونانيين وهي مرسومة بجانب رسمه :

« ثم انك لا تعلمين كم صارت خدمتك صعبة في الارض (٢) فان كل استقامة ذهبت منها . وقد ملك السكيثيون العالم ولم تبقَ فيه جمهوريات مؤلفة من اناس احرار

(١) راجع الجامعة الجزء الثامن السنة الرابعة

(٢) يعني خدمة العلم الحر المطلق من قيد المداراة والتسنير

بل كل ما فيه ملوك خرجوا من دم ثقيل . جلالات لو وقع نظرك عليهم لضحكت منهم . وكذلك مدّعون ثقلاء يسمون (خفيفي الرأس) كل من يخدمك . وقد تالف من كل الصغائر والدنايا عصبة طوقت العالم بلفائف من رصاص تكاد تخنق النفوس . حتى الذين هم انفسهم يخدمونك كم هم يستحقون شفقتك . هل تذكرين ذلك المكدوني الذي جاء منذ ٥٠ عاماً وحطم هيكلك بالمطارق ليحمله الى « طوله » ؟ ان جميع الذين يخدمونك اليوم يصنعون صنعه . . . فلقد كتبتُ بحسب القواعد التي تحبينها ايتها الالاهة تاريخ حياة الاله الشاب الذي خدمته في صباي فعاملوني معاملة افيميروس . وقد صاروا يكتبون لي ويسالونني ماذا اقصد بذلك . فكانهم لا يرون فائدة الاَّ في ما يثمر لهم ثمرًا ماديًا . ولكن يا ايتها السماء اسالك لماذا يكتب الناس تواريخ الالهة . اليس ذلك لتحبيب ما فيهم من الروح الالهي الى الناس واظهار ان هذا الروح لا يزال حيًا في قلب الانسانية وسيبقى فيه الى الابد»

فيتضح ما تقدم ان غرض رنان من كتابه كان « طلب الفن لذاته » وهو الطريق الاول . الا انه اضطر بعد ذلك الى سلوك الطريق الثاني وذلك في المختصر الذي خصه لعامة الشعب والقراء . والمعرب قد حذا حذو المؤلف في تعريب هذا الكتاب

وقبل ان نأتي على ذكر شيء من الاغراض التي خصنا هذا الكتاب من اجلها وكتبنا هذه المقدمة لبسطها نفكه القارىء اولاً بتاريخ تلخيص الكتاب

لما كنا منذ نحو ١٢ سنة ندرس كتب مشاهير الكتاب والفلاسفة في اوروبا كنا نعثر فيها كثيرًا على ذكر رنان وذكر كتابه تاريخ يسوع . فاوجبنا على نفسنا ان لا نطالع كتابًا لرنان ولا نقف على كتابه هذا الاَّ بعد زمن . ذلك لاننا كنا نجهل رنان ومبادئه ونتصوَّره بعكس ما هو في الحقيقة . وبعبارة اوضح نقول ان اعتقادنا فيه كان كاعتقاد الذين ينفرون اليوم منه دون ان يدرسوا مبادئه ويقرءوا كتبه . فمنذ سنتين دخلنا احدى المكاتب في شارع شريف باشا لنرى ما فيها من الكتب التي تبحث في تاريخ الاندلس لاننا كنا نشتغل بتاريخ تلك البلاد في مقالة طويلة نشرناها في الجزء الاول من الجامعة السنة الثالثة . ففيما نحن نقلب الكتب وقع في يدنا كتاب صغير بقدر الكف وعنوانه « تاريخ يسوع بقلم رنان» وثمنه فرنك و٥٠ سنتيماً . فابتسمنا حين وقع نظرنا على هذا العنوان وابتعنا الكتاب وذهبنا . غير اننا ما قلبنا بضع صفحاته حتى علمنا مما كتبه رنان فيها انه تختصر كتابه الكبير وانه اختصره للشعب وعامة المؤمنين وحذف منه كل ما لا يروقهم مطالعته «١» فعدنا الى صاحب

(١) هذا المختصر من الطبعة السابعة والثانين اي انه طُبع ٨٧ مرة وقال رنان في مقدمته ان غرضه من اختصاره وحذف كل ما لا يروق المطالع المسيحي منه اطلاع عامة الشعب على اجمل صورة ليسوع .

المكتبة واوصيناه بان يستجلب لنا النسخة الاصلية . ولما وردت علينا اخذنا في مطالعتها . وما اوغلنا فيها حتى انقلب رأينا في رنان اشد انقلاب ودهشنا مما رأيناه في كلامه من الاعجاب والثناء الذي لا حدّ له على شارع الدين المسيحي وعلى روح الدين نفسه

ومنذ هذا الحين تركنا كل شغل تقريباً وانقطعنا الى قراءة كتاب رنان . فشغلنا عن الجامعة وادارتها وعن كل مطالعة غيره . وكنا نحمله حيثما ذهبنا لاننا لم نعد نستطيع فراقه . وهكذا زار المنشية حيث قرأنا فصلين منه تحت اشجارها في يوم احد . وزار المكس حيث قرأنا عدة فصول فوق الرصيف البعيد الذي وراءها على نغم الامواج المزبدة . وزار ساحة « وابور المياه » وراء محرم بك خصوصاً احدى الاشجار المنفردة المشرفة على الاستحكامات هناك حيث يخيل للجالس تحتها في ذلك الهدوء التام امام الخضرة والزروع في ذلك الوادي الذي حلت فيه مظاهر السلم الزراعي محل التحصين الحربي انه في البرية والخلاء . وقد تنقلت حروفه حتى في الشاطىء البعيد وراء سان ستيفانو . وكثيراً ما مرت خمس ساعات متوالية ونحن غارقون في قراءة رنان الساحر ذاهلين عن كل شيء حتى عن ميعاد الغذاء

وهنا وصلنا الى السبب الذي دعانا الى تعريب هذا الكتاب .

لم نفرغ من مطالعة كتاب رنان حتى وجدنا اننا اصبحنا نعتقد ان من واجباتنا نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية . وكان ذلك لاسباب جزئية واسباب كلية . اما الاسباب الجزئية فمنها اتحاف اللغة العربية بكتاب لم تبقَ في العالم لغة راقية الا وترجم اليها . ومنها حلاوة كلام رنان واسلوبه البسيط في الكتابة والتأليف . وهذا الاسلوب معروف في فرنسا « باسلوب رنان » وهم يعنون بذلك البساطة والجلاء والحلاوة والمتانة مجموعة معاً . فمن حق الكاتب العربي في (طور الانتقال الادبي) الذي نحن الآن فيه في الشرق ان يوجه الانظار من هذا الوجه الى ما يعده الافرنج ارقى لغة عندهم للعلم والادب والكتابة — نعني لغة رنان

ولكن هناك سبباً اهمّ من هذه الاسباب كلها . فان « تاريخ يسوع » وحياته انما هما عبارة عن بحث في اساس « المسالة الاجتماعية والمسالة الدينية » . ولقد تعودنا منذ امسكنا القلم في الشرق ان ننظر الى صناعة القلم لسوء الحظ نظراً جدياً ونعتبرها عملاً رسمياً . وكلٌّ يعلم اننا بعد اشتغالنا بها عدة سنوات وتضحية ما ضحيناه في سبيلها لم نجمع منها بعدُ ثروة روتشيلد ولا وجدنا الارض مفروشة ورداً في كل طريقنا . فصناعة هذا شأنها في الشرق تكون تعباً عظيماً وعناء عقيماً اذا ضُغط على حريتها وفائدتها الادبية كما هو مضغوط على فائدتها المادية . وحينئذ يكون الاشتغال باية صناعة خيراً من الاشتغال بها . ولذلك عزمنا على

ان نكسر كل قيد غير قيد العقل والحكمة ونشتغل بما نرى نشره ضروريًا مهما قام في سبيله من العثرات . فاما ان يكون القلم حرًا مطلقًا يخطئ ما يوحى اليه واما تركه الى صناعة عناؤها اخف من عنائه وكسبها اكثر من كسبه والتعرض لسخط الساخطين ونقد الناقدين اقل فيها منه في صناعته

ومن اجل هذا وجدنا بعد مطالعتنا كتاب رنان اننا اصبحنا نعتقد ان من واجباتنا نقله الى اللغة العربية كما قلنا آنفًا . وقد يبتسم لهذا القول الذين يحتقرون صناعة القلم ولا يرون فائدة لغير المادة والقوة المادية فنحن لا نجيب على هذا الا بكلمة واحدة وهي اننا لم نصل بعد الى الطور والعمر الذي يشك صاحبه فيه بروح التقدم بعد اختباره حيوانية البشر ووقوف هذه الحيوانية في سبيل كل ارتقاء وكمال وجمال في العالم . ونحن نحمد الله على ذلك . واذا كنا في المستقبل لسوء الحظ سنصل الى ذلك الاعتقاد ونشك بفائدة العلم والادب في تحسين حال الانسانية في الارض وابلاغها طور الكمال في مستقبل بعيد او قريب وتعزيتها وتسليتها في اثناء سيرها الى ذلك الطور فمنذ الآن نقول اننا سنخسر والاسفاه اعظم خسارة وهي (الايمان الادبي) . ومن الآن الى ذلك الزمن دعونا نُخرج ما نستطيع اخراجه بهذا الايمان اذ بدونه يستحيل على الكاتب الذي (يطلب الفن لذاته) ان يفعل ما يجب فعله فيه

فنقلنا (تاريخ المسيح) الى اللغة العربية كان اذًا بناء على هذا الايمان . وغرضنا منه توجيه الانظار في الشرق الى اساس حياة يسوع نعني الفكرة الاجتماعية والفكرة الدينية اللتين خلقهما يسوع وصرف حياته في نشرهما وتايدهما واحتمل الموت والعذاب والاهانة في سبيلهما . وهنا ايضًا لا يعدم هذا الكلام من يهز كتفيه حين سماعه و يضحك قائلاً : اين عصرنا من عصر يسوع و هيئتنا الاجتماعية من الهيئة في زمن يسوع . فنجيب لا تتسرعوا في الحكم فان المبداء الذي وقعت حوله تلك المعركة الهائلة بين يسوع واعدائه ضمن اسوار اورشليم منذ ١٩ قرنًا لا تزال الى اليوم قائمة قاعدة في كل مكان بين هذه الحيوانات الناطقة التي تدعى بشرًا . وهي المسالة الابدية التي لا يعلم احد غير الله كيف يكون حلها في مستقبل الانسانية

انظروا الآن الى العالم نظرًا مجردًا تجدوا ذلك العراك حول ذلك المبداء واضحًا كل الوضوح . ففي العالم الاجتماعي لا يزال المال « الهًا ثانيًا » بل ان عصر المسيح لم يرَ عشر معشار ما رآه هذا العصر الاحتكاري من سلطنة المال وتفرده . فنحن الآن في عصر كل شيء فيه يباع ويُشرى بالمال حتى الضمائر والعقول . ولا تزال ارزاق الامم تجتمع في ايدي

قليلة تحت ستار قانون متساهل والباقون من الامم عبيد ارقاء لاهل المال عبودية اثقل من العبودية الشخصية القديمة . فملايين من البشر يتمرغون في حماءة الفقر والضيق والشقاء وفرد واحد يحشد في خزانته ملايين . ولا تزال القصور كلما ارتفعت وضخمت وامتلأت تحفاً وحلىً وزخارف تفرغ نفوس اصحابها من كل جمال وعلو وحلية وتزداد صغاراً وغلاظة وكبرياء وازدراء لله والناس وطمعاً في ان يكون لها سلطة على كل شيء في الوجود حتى النفوس . وفي اثناء ذلك تفرّ منها البساطة والطبيعة والاخلاص والصداقة والالفة والفضيلة وتأوي الى اكواخ الفقراء والمساكين لعلها تجد فيها ملجاء . فتجد هنالك ضيقاً من وجه آخر . وهكذا تفسد الانسانية بهذه الحالة فساداً مزدوجاً . فساداً فوق بكثرة الرزق كثرة فوق الحاجة وفساداً تحت بالحاجة الى الرزق .

هذا من حيث الامر الاجتماعي . اما من حيث الامر الديني فالخلل فيه ليس باقل مما تقدم . فلا يزال الشيطان الساكن في جوف الانسان — اي شهوته وهواه — يغريه بخرق كل نظام لتقديم مصلحته على كل مصلحة . لا يزال في الدنيا كهنة وفريسيون يتخذون المبادئ سبيلاً الى المصالح فيلثمون ذيول الاغنياء والكبراء ويهملون الفقراء مع انهم سواد الامم . لايزال الدين مقيداً بالهيا كل والكهنة والظواهر فيه مقدمة على البواطن . وبعبارة اخرى نقول لا يزال اصل الدين (الذي هو محبة الله والناس ونقاء العواطف) معدوداً امراً ثانوياً واتباع الفروض والسنن الموضوعة امراً جوهرياً اصلياً . وهكذا يكون الدين سبباً للفساد بدل ان يكون سبباً للصلاح . اذ لاتكون حينئذٍ قيمة الانسان ما يحمله في قلبه من الجمال والخير بل ما يحمله على شفتيه من الكلام الفارغ . ويصير الدين سلعة هينة اكثرهم اقتناء لها صغار النفوس وضيقو الصدور

فهذه الحالة « الاجتماعية والدينية » هي الصخرة التي صدمها يسوع فهدمها في النفوس مدة ولكن الزمان عاد فاعادها . بل ان الزمان زاد عليها امراً اشد هولاً منها . فقد قام بين البشر قديماً وحديثاً قوم يقولون ما خلاصته . ما هو الحق والحقيقة التي يُدعى اليها - ان هي الا وهم وخيال . فالقوة هي الحق . فمن غلب سلب ومن عزّ بزّ . ولذلك يلزم عن هذا ان يكون في المجتمع البشري اقوياء وضعفاء . اغنياء وفقراء . اسياد وعبيد آكلون ومأكولون . وهذه سنة طبيعية وجدت مع البشر ولا تفارقهم حتى يفارقوا الدنيا . فما الفائدة اذاً من هذه التخيلات والتصورات التي يصورها علماء الاديان والآداب . ان الانسان وجد ليعيش في الارض ويتمتع بقواه . فعليه ان يقبل هذه الحياة كما هي ويكتفي بها . والا كان ابله احمق يترك الحقيقة ويتمسك بالخيال . واذا اقتضى الامر ان يعدو على غيره

ويغشه و يغدره ليجر المنفعة لنفسه فهو معذور اذ عليه قبل كل شيء ان يعيش و يجمع ما يعاش به برخاء وسعة . فالثروة هي الغرض من الحياة . اما الدين والآداب فهي امر حسن للشعب . اذ بها يكبح جماحه ويمنع من التطاول الى ما فوقه فتحفظ بذلك راحة الاغنياء والكبراء . ولذلك كان نابليون بونابرت يعجب كل الاعجاب بمبادىء برناردين دي سان بيير . فنادوا اذًا بين الشعب بالمحبة والرفق والاتضاع وانكار الذات وحب الفقر وكراهة الثروة فان هذا يسرنا اذ فيه مصلحة لنا . اما نحن فدعونا وهذا الذي تسمونه محبة وانكار ذات . فاننا لا نريد ان ننكر ذاتنا لاحد . ومن اجل اي شيء ننكر ذاتنا . وما هي المكافأة التي ننالها مقابل هذا الانكار . تقولون الحياة الاخرى . اما هذا فدعونا منه . ومتى وصلنا اليه نبحث فيه . فما نحن ممن يبيعون العاجل بالآجل . خلقنا لنعيش فنريد ان نعيش . وكفى

تلك هي الآفات والشكوك التي تخرب اليوم اساس الهيئة الاجتماعية وتهدم فيها كل نظام وجمال ونقاء والتي وجد يسوع يومئذٍ اكثرها في طريقه وحمل عليها حملاته المعروفة . وبذلك لا يكون تاريخه عبارة عن مسألة دينية فقط بل ومسألة اجتماعية ايضاً كما قدمنا . بل هو عبارة عن تاريخ اعظم حرب اثيرت على تلك الآفات ولذلك قلنا اننا نقلنا هذا الكتاب من اجلها . وليس هنا مجال الكلام على الطرق التي رام يسوع مداواة هذه الآفات بها فان دواءه مبسوط في اثناء الكلام على حياته في هذا الكتاب . ولكننا ندل على الفرق بين مبداءه ومبداء تلك الشكوك بمذهبين فلسفيين يتقاسمان العالم منذ نشأته . فمذهب تلك الشكوك مذهب « النفعيين » Utilitaires او Réalistes ومذهب يسوع مذهب الكمال الفكري Idéaliste فالمذهب الاول يقضي بطلب الفائدة قبل كل شيء اذ لا يعبأ بشيء غيرها والمذهب الثاني يقضي بالتمسك بالمبداء وبقاء العواطف قبل كل شيء فاذا تعارض المبداء والفائدة تداس الفائدة حرصاً على المبداء . وقد قال رنان انه لم يقم في الارض احد داس الارض واشياءها بالقوة التي داسها يسوع بها .

اذًا كل المتعبين وكل الحزانى وكل الثقيلي الاحمال (كما كان يقول) لا يزالون يقدرون حتى اليوم ان يستمدوا من روح يسوع ما يحتاجون اليه في هذه الدنيا من القوة لاحتمال حياتهم والصبر على انتصار الباطل في الارض وسيادة الشر والشراهة والاثرة والدناءة فيها . ونحن يسرنا ان نوزع هذه القوة ونوجه الانظار اليها في زمن سادت به المادة وفروعها سيادة هائلة ونسي من اجلها الله والناس ويسوع وديانته الا ظاهرًا . اجل يسرنا ذلك لاننا لا نعرف لصناعة القلم غير ثلاث وظائف وبدون احداها لا تكون شيئًا مذكورًا .

الاولى الاختراع والاكتشاف وهي في هذا الامر شريكة المعمل الكيماوي ورفيقته. والثانية نقل المعلومات الصناعية للصناع والزراع والتجار لترقية صنائعهم بها. والثالثة بث روح النشاط والقوة والتعزية ومكارم الاخلاق في نفوس الامم خصوصاً الفقراء منها لينهضوا فلا يدوسهم الاقوياء. وهذا الامر عندنا اهمّ من الامرين السابقين لانه مُصلح اخلاق البشر ومعطر ريح الارض ومسلي الانسانية ومعزيها. وليس يساوي منفعته عندنا شيء غير بث روح العدل والشهامة في نفوس الاقوياء ليعرفوا ما يجب عليهم لباقي الناس وللامة التي تتركهم يجمعون قوتهم منها. فكمال الفعل الاجتماعي اذاً انما هو في تقوية نفوس الضعفاء واضعاف نفوس الاقوياء ليلتقي الفريقان ويتساويا امام الله والناس. وهذه نفس الروح التي بثها يسوع في حياته الجميلة.

ولقد قام بعد يسوع في العصر الاخير قوم متحمسون لمبادئهم اشد تحمس ومقتنعون بصحتها اشد اقتناع ووقفوا قواهم وحياتهم لمحاربة الفساد الذي حارب به يسوع بحماسة كحماسته. ولقد اصبح لهم في اوروبا من الصولة والسلطان ما ارجفوا به العروش والقصور وصرفوا الى الشعب وضعفاء الامم قسماً عظيماً من القوات والخيرات والسلطات التي كانت في ايدي الطبقات القوية. وهذه السنوات الاخيرة تُسجل لهم في كل يوم فتحاً جديداً وتقدماً عظيماً. ولا ريب ان القارىء قد علم اننا نعني بهؤلاء القوم جماعة الاشتراكيين. الا ان هؤلاء القوم قد اخطأُوا خطاءً عظيماً مسوقين اليه بمبادىء الغلاة منهم. ونريد بهذا الخطاء «تركهم الفكرة الدينية» قال رنان الذي كان في حياته من خصومهم في كتابه هذا ما نصه) وسيبقى «مبدأُ ملكوت الله» اعظم المبادىء المحركة الى طلب الاصلاح في كل مكان الى ما شاء الله. اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم مالم يلجأُوا الى افكار يسوع نفسها ويعملوا بها. فانهم يطلبون بناءً على مبداء مادي غليظ امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لاخيرات الارض. وهذا المبداء يوجب على طالبي اصلاح الارض التنازل عنها وعن خيراتها» «الباب الرابع الصفحة ٣٢» وقال في كتابه اعمال الرسل في اثناء كلامه على معيشة الرسل والمسيحيين الاولين« وهنا شبه عظيم بين هذه الحالة وحالة بعض المبادىء الاشتراكية التي قامت في هذا العصر. ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية واما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة. وظاهرٌ كالشمس للعيان ان الهيئة التي يقدّم لها افرادها رأس مال ولا ينتظرون منها ربحاً على نسبة هذا المال الذي وضعوه

فيها او العمل الذي يعملونه في معاملها لا يمكن ان تُبنى الاّ على عاطفة دينية توجب على الانسان انكار ذاته الى هذا الحد قياماً بواجبات دينية »

ومما مرّ يتضح ان اشتغالنا بهذا الكتاب بصرف النظر عن المسالة الدينية كان اشتغالاً باساس المسائل الاجتماعية

الى هنا كان كلامنا عن المسالة الاجتماعية فلنتكلم الآن عن المسالة الدينية

وكل ما نقوله في هذه المسالة اننا لا ندخل فيها قطعياً . فاننا ما نقلنا هذا الكتاب لاثباتها او نفيها لان الاثبات والنفي فيها من باب «طلب الفن لذاته» ونحن قد صرحنا غير مرة اننا لم نعرب هذا الكتاب الا لغرض تاريخي اجتماعي

على اننا رغبة في ان يكون الاخلاص التام رائداً لنا في ما نسطره في هذه المقدمة احببنا ان لا نغفل الجواب على الاعتراضات التي يُعترض بها على هذا الكتاب ونحن نذكرها هنا واحدة واحدة

اولاً — قولهم ان تعريب هذا الكتاب يشكك المسيحيين في لاهوت المسيح . وانه يجب عدم البحث في هذه المسائل

والجواب على هذا للذين يفهمون نبسطه ثانية وهو اننا لا نتعرض لهذه المسالة قطعياً . لانها عندنا فرع والمسالة الاجتماعية والمبادىء الانجلية اصل . وقد صرحنا بمثل هذا القول في « اوروشليم الجديدة » في الخطبة على الجبل عند ردنا فيها على الذين اتهموا (الجامعة) بما راموا اتهامها به في جريدة البشير التي يطبعها اليسوعيون في بيروت ومجلة المباحث التي تطبع في الاسكندرية . ونحن نقول بكل حرية ان الخوف من البحث في حياة المسيح خوف في غير محله اللهم الاّ اذا كان الخائفون من ذلك يعتقدون بوهن الموضوع فيخشون عاقبته . اذ ما الباعث على هذا الخوف اذا كان الموضوع قوياً يحتمل كل نقد وجدال ويخرج منه صافياً نقياً خروج الذهب من النار كما خرجت روح يسوع من قلم رنان (١) . ثم اي علاقة بين لاهوت المسيح و بين البحث والنظر العقلي . فان هذه المسالة فوق العقل بدرجات . وقد قال العالم المؤرخ الاب لوازي صاحب كتاب «الانجيل والكنيسة» الذي منعت الكنيسة قراءة كتبه في هذا العام « ان مسالة لاهوت المسيح لا تُدرك الاّ بذات القوة الغير العقلية التي يدرك بها الخالق سبحانه »

(١) راجع الفصل الثالث والعشرين في الباب الرابع ففيه حكم رنان على (نتيجة عمل يسوع)

فاي ضرر في ان يضع الباحث في تاريخ يسوع هذه المسالة خارج البحث والعقل معاً . نحن نعلم انه لا ضرر من ذلك قطعياً . واذا قيل ان ذلك شك فالشك كما يقول « العارفون بالله» اول درجة من درجات الايمان . وانه ليدهشنا تعب الرصفاء والآباء في حملتهم على الجامعة في مسالة لم تجادل فيها بكلمة بدل ان يساعدوها على ما تدعو اليه من محاربة الاثرة في البشر والفساد الاجتماعي والشراهة والدعوة الى الرجوع الى روح يسوع نفسها . فان الدين في الارض الآن لا خطر عليه من الباحثين في روح يسوع لتحليلها ومعرفة مبادئها . فان هذا يجدد الدين ويحييه ويقوي الايمان في العالم . وانما الخطر الحقيقي هو في المبادىء المادية التي تعتبر الروح الديني ومؤسسيه وهماً وخيالاً والمبادىء الدينية التي تتخذ آلة ووسيلة للمصالح المادية . الخطر الحقيقي في الكلام الذي تقدم « الصفحة ٦ » وهو قول القائل (نريد ان نعيش وكفى) فبدل ان تصرفوا قواكم عبثاً في مصادمة من هم في جانبكم اصرفوها في مقاومة عدوكم هذا . فان الخطر من هذا العدو ليس واقعاً على لاهوت المسيح فقط بل على كل شيء: على الله والدنيا والاخرة والاديان كلها والارض والسماء . اما يسوع فلا يناله الا رشاشة منه . فهل تسمح لكم ضمائركم بترك المسائل الكلية والتمسك بمسالة جزئية لا ينازعكم احد فيها . نحن لا نظن ذلك . اللهم الاّ ان يكون لكم مصلحة خصوصية فيه . كالخوف مثلاً من مبادىء يسوع الحقيقية لانها صارت هي والمبادىء الحالية التي يتبعها تلامذته الاعزاء على طرفي نقيض

اذاً فمصدر الخطر ليس في البحث في تاريخ المسيح ولو بحثاً دينياً بل في التيار المادي الذي يجحد كل شيء . ومتى سلم من هذا الجحود « المبدأ الاول » كما يسميه الفلاسفة وثبتت له الصفات التي يجعلها المليون له خصوصاً القدرة على كل شيء التي هي ام المسائل كلها فقد صارت مسالة لاهوت المسيح امراً سهلاً . لان قدرة الله على كل شيء يمكن ان تفعل كل شيء . وحينئذٍ يصح قول شاتو بريان في كتابه « روح المسيحية » (ماذا يمنعنا من الاعتقاد بان الله الذي هو شمس الوجود قد صدر عنه شعاع نور الى الارض فتكوّنت منه نفس يسوع . هل الله يعجز عن ذلك » قلنا ومن هذا يعلم رصفاؤنا الاجلاء اننا لا ننازعهم في هذا الامر اذا كانوا يفهمونه كما نفهمه ويفهمه جمهور العقلاء

ثانياً — قول بعضهم ان المسالة الدينية في الشرق مسالة وطنية . لانه كما قال منذ ثلاث سنوات المسيو دلكاسه ناظر خارجية فرنسا في منبر مجلس النواب حين دفاعه عن رهبانيات الشرق كل طائفة في الشرق تعتبر الدين سياجها وجامعتها وتعلق به املها في المستقبل . فالتي يمس الدين

فيها يكون كمن يحارب آمالها

قلنا ان ذكرنا هذا الاعتراض هنا يدل على الحرية والاخلاص الذي اردنا الردّ به على هذا الموضوع · وقبل كل شيء نحصر هذا الموضوع في مركزه الحقيقي · فنقول ان هذا الاعتراض لا يصح الاّ في قطر واحد يهمنا وهو قطر الشام · اما القطر المصري والقطر الاميركي فلا شبه بينهما و بين قطر الشام في هذا الموضوع · فالاعتراض اذاً مقصور على طوائف الشام

ثم بعد هذه المقدمة التمهيدية ننظر الى مقدمة الاعتراض لنرى هل هي صحيحة لنسلّم بصحة النتيجة التي استخرجت منها · فنجد انها مبنية على (مس الدين) اي ان الذي يمس الدين ويحاربه يضر بتلك الطوائف اذ هو جامعتها الوحيدة وسياجها الوحيد · وهنا الخطأ في المقدمة · فان اظهار حقيقة مبادئ يسوع والانجيل والدعوة الى الرجوع اليهما تخلصاً من ثقل وسفالة المبادئ المادية التي تدير شؤون تلك الطوائف لهو تعزيز للدين الحقيقي واكرام له لا مس ولا محاربة · واذا كانوا قد اصبحوا يعتبرون مبادئ الانجيل نفسها خطراً على المذاهب والطوائف فاخبرونا اذاً بربكم اين اصبحنا من الدين المسيحي ؟ و بعد هذا التحليل ننظر في القضية نظراً عاماً · فنستحسن من وجوه ماذكروه عن وجوب مراعاة مصالح الطوائف في جميع علائقها · ونقول هذا بكل حرية حتى لاولي الامر انفسهم اذ لا شيء يقوم لدى الامم مقام الحرية والراحة والعدل والامن التي هي من حق كل انسان وكل جمهور وليس تحت قبة السماء احد قادراً على ان يسلبه هذا الحق زمناً طويلاً · ولكننا نعلم ان الطوائف لا تستفيد شيئاً اذا زادت عدد ظلمتها ومستبديها · اننا نحترم اماني وآمال كل شعب وكل امة لا شعبنا وامتنا فقط ولكننا لا نطيق ان تتخذ الامة حماة لها فيجعل هؤلاء الحماة انفسهم متجرين بها · وهذا امر ظاهر كل الظهور · فان الامة ليست فقط افراداً منها بل مجموع الافراد اجمالاً · وكل فرد من افراد الامة كبيراً او صغيراً غنياً او فقيراً مساوٍ للفرد الآخر في الحقوق الطائفية العمومية بحسب المبادئ الانجيلية · والعناية بالصغار والفقراء والضعفاء مقدمة في شريعة يسوع على كل عناية · ذلك لانهم هم الانسانية الحقيقية التي تتعب وتعمل وتخدم وتحمل على ظهرها اعباء الدنيا كلها · ومع هذا فانك تجد في كل طائفة بضعة افراد مستأثرين بالنفوذ والسيادة والسلطان يتصرفون باملاك الطائفة واوقافها وارزاقها وجميع شؤونها تصرف المالك في ملكه والشعب كالانعام السائمة فقير شقي جاهل خاضع ذليل ادى مغتصبيه · وبجانب هذا الشعب رئيسه الروحي الذي يقول ان الله اقامه

لرعايته يتقرب من الاغنياء والكبراء طمعاً في مالهم ويهمل باقي الامة اذ لا يرجو فائدة منهم . فاين عيناك يا يسوع لترى هذه الحالة . ان تلامذتك يخونونك في كل يوم . وحينما يقوم قائم لاظهار فساد هذه الحال وتذكيرهم بمبادئك يصيحون ان هذا مضرّ بالطوائف . والحقيقة انه مضر برؤساء الطوائف وزعمائها الذين يمتصون دماءها لانه يفتح عيون الطوائف ويريها حقوقها ويعلّمها ان تطالب بها

فاذا كان المقصود من قولهم (ان الدين جامعة الامة وسياجها) هو ان تكون هذه الجامعة لمنفعة بضعة افراد في الامة فقط على ما تقدم فنحن لا نتردد في ان نصرح باننا ممن ينبذون هذه الجامعة لانها ظلم وغش للامة . والظلم والغش ظلم وغش سواء كانا من الغريب او القريب . والضرر الذي يكون حينئذ من هذه الجامعة اضعاف فائدتها لان الامة كلها تكون تابعة لهوى بضعة من افرادها يتصرفون بها بحسب اهوائهم ومصالحهم . واما اذا كان المقصود من قولهم هذا جامعة مبنية على مبادئ يسوع نفسها اي (جامعة للجميع ترضي الجميع وتهتم بالجميع) فلا اعتراض عليها

قلنا لا اعتراض لنا على هذه الجامعة وقد اردنا بذلك انه لا اعتراض لنا عليها من هذا الوجه . ولكن لنا اعتراض عليها من وجه آخر

وهذا الاعتراض هو الرغبة في ان لا تكون الجامعة الدينية واسطة للبغض والنفار بين العناصر المختلفة . فان الانسانية اصبحت لا تقبل العواطف والمبادئ التي تعلمها البغض بدل الحب والشقاق بدل الوفاق . وليست هذه المسألة عندها مسألة عواطف ومبادئ فقط بل هي مسألة مصالح ايضاً . فان اتفاقها وتآلفها وتعاونها على مصلحة واحدة مشتركة اساس تقدمها وارتقائها . وبدون ذلك تبقى في وهدة الضعف والشقاء الى الابد . فاذا كانت الجامعة الدينية المذكورة آنفاً هي الجامعة التي كان يدعو اليها يسوع فتبني على الحق والعدل بين جميع طبقات الامة وعناصرها . وتقبل كل انسان ولا تطلب منه غير الاخلاص وصفاء الضمير ونقاء العواطف . وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فنعما هذه الجامعة . واذا كانت بخلاف ذلك فلا بد من انحلالها اردنا ام لم نرد . اذ ما بني على غير الحق والعدل فهو مهدوم

نعم . الحق والعدل قبل كل شيء وفوق كل شيء . ولا يقوم شيء ويرسخ في الارض بدونهما لان الباني على ما عداهما كالباني على الرمال . قال المسيو اولار احد اساتذة فرنسا في خطبة القاها حديثاً في حفلة من المعلمين والاساتذة . (انني احب وطني ولكنني احب العدل والآداب والحق والعلم فوقه) بل ما لنا وللاستاذ اولار ففي طلعة البدر ما يغنيك عن زحل .

فان يسوع كان يعلّم مثل هذا التعليم . فانه كان يضع الفكر وحرية الضمير والاخلاص وطهارة المعيشة وحب القريب حتى الوثني والعشار فوق مبادىء الاحزاب وفوق وطنه وفوق دينه . استغفر الله لم يكن يضعها فوق دينه لان هذا هو دينه نفسه . ومن يعلم ما اذا كان لم يسمع الف مرة من مجادليه قولهم ان مبادئه تضر بالامة اليهودية لان الجامعة الدينية ضرورية لها لتجمع شملها بازاء الرومانيين الذين كانوا متسلطين عليها . من يعلم ما اذا كان قلبه لم يقطر دماً كلما كان يسمع هذا الاعتراض لوقوعه به بين امرين هائلين : اما انكار الفكر والحق والعدل واما انكار الوطن . فيا اكمة الجلجلة التي شهدت سفك ذلك الدم الكريم خارج اسوار اورشليم انتِ تعلمين ماذا كانت النتيجة واي امر فضّل الشهيد . ولو كانت لك عين تقرا في الصدور لقرات في قلبه الكريم قبل احتضاره ما خلاصته : ان الوطن والامة والانسانية والارض والحياة — كلها بلا استثناء لا خير فيها ولا اسف عليها اذا كان بناؤها قائماً على قتل الحق والعدل والفكر ترويجاً للاهواء الخصوصية والمصالح المادية الافرادية الدنيئة

فلا تقولوا اذاً بان هذه المبادىء تفرّق جامعة الامة وتحل عراها فانها لا تحل سوى عرى الجهالة والشراهة والاستبداد القديم والاغراض والاهواء . واذا كان في الجالسين في مقدمة الامة ورئاستها رجال كرام منصفون حقيقةً فانهم يرضون عنها ولا شك لانها هي المبادىء التي ترقي الامم وتجدد حياتها ونشاطها وبدونها لا تقدم ولا ارتقاء . ذلك لانها بمثابة منخل ينخل الامة فيسقط الرديء ويبقى الجيد . اما نبهاء الطوائف وادباؤها وافاضلها الذين لا مصلحة لهم في بقاء القديم على قدمه فنحن على ثقة من رضاهم عنها بما لدينا من براهين ودادهم وتنشيطهم . لانهم هم الدم الجديد الذي يرجى منه احياء الامة بنشاط جديد وعلم جديد وايمان جديد بفعل الفكر والعقل والعدل في التقدم البشري . وبايديهم لا بايدي غيرهم سينهدم العالم القديم في الشرق ويقام مكانه عالم جديد تكون جامعته (العقل والعدل والحق) فوق كل شيء . ثم هب ان هذه المبادىء (تحل) كما يقولون فالانحلال غير مقصور على طائفة واحدة بل يتناول كل الطوائف . والطائفة التي تخسر في هذا الانحلال اكثر من غيرها هي الطائفة السائدة الغالبة لان هذا الانحلال بهذه المبادىء بمنزلة التنازل منها عن امتيازاتها وسيادتها وتقاليدها . ولذلك يكون نصيب الطوائف المسيحية من هذا الانحلال نصيب الطوائف الاسلامية والاسرائيلية منه . الا ان خسارة تلك تكون اخف من خسارة هذه عند اولي الافهام والالباب . ولكن ما اضعف الامم وافربها من الانحلال الحقيقي والفناء الاجتماعي اذا كانت تعدُّ الفكر والعدل والحق تفريقاً وانحلالا . بل هي

واسفاه تكون حينئذ منحلة طبعاً فلا شيء يجمعها ولا شيء يحلها

ان العالم قد زحف وتغير ونحن معاشر الشرقيين لا نزال في العصور الوسطى . ان الشعوب في الدنيا كلها قد ابصرت على نور الحقوق والواجبات البشرية ان هذه الحواجز التي توضع بينها وتعليها الانقسام والبغض وكرامة الانسان للانسان لامنفعة فيها الا لافراد معدودين في كل امة دأبهم اذكاء هذه النار لتبقى الشعوب تحت نيرهم منصرفة عن مصالحها الى مصالحهم . ولذلك انتبهت الشعوب وعلمت انه اذا كانت مصلحة بضعة افراد منها في هذا الانقسام والبغض فمصلحتها هي في الاتحاد والالفة والوئام . ولذلك ترى في اوروبا مثلاً العناصر المختلفة والمذاهب المتعددة والجنسيات المتنازعة تمد ايديها من فوق رؤوس روءسائها وحكوماتها لتتصافح وتتحد رضي اولئك الزعماء والحكومات ام لم يرضوا . وهكذا لم يعد عدوهم ذاك الذي لا يدين بدينهم ولا يكون من جنسيتهم بل اصبح عدوهم اثرة حكومتهم وما ليتهم الذين يسمحون لبعض افراد بامتصاص دماء الشعب واستخدامه استخدام البهائم في تحصيل ثروتهم تحت ستار قانون يغض الطرف عنهم . فصار همهم محاربة هذه الاثرة في الحكومات والافراد معاً لاشراك جميع بني الانسان في خيرات الارض والسماء واصلاح احوالهم . فاين نحن في الشرق من اولئك الشجعان الاحياء . نحن في الشرق لا هم لنا الا اذلال بعضنا بعضاً . فكأن كل حزب منا يريد ان يعيش في الدنيا وحده . ولكن هب يا صاح انك قدرت على ان تنبذ من الدنيا من تدعوه خصمك فهل يزول بذلك كل فساد من امتك ويذهب كل عدو لك . كلا فانه لا فساد كالفساد الاجتماعي الذي يقرض احشاء الامم ولا عدو كالاثرة في الحكومات والافراد تجعل الناس ارقاء بعضهم لبعض . فاذا نبذت عدوك الخارجي بقي في احشائك عدوك الداخلي . وضرر هذا اشد من ضرر ذاك . ولذلك ما فتئنا ننادي بتقديم الاصلاح الاجتماعي على الاصلاح السياسي لان ذاك اصل وهذا فرع . وكل امة يحدث فيها الاصلاح الاجتماعي لا تلبث من تلقاء نفسها ان تخلع نير الاستعباد السياسي . والاصلاح الاجتماعي في قدرة جميع الطوائف مسيحية او اسلامية او اسرائيلية اذ لا علاقة لاكثره بروءساء السياسة ولكن بروءساء الروح اي الدين . ومهما زعم الروءساء الروحيون مسلمين كانوا او اسرائيليين او مسيحيين بانهم لا يقدرون على هذا الاصلاح العظيم في طوائفهم لان السياسة تمنعهم منه اولا تساعدهم عليه فان زعمهم هذا لا يدل الا على ضعفهم وقصورهم وعدم كفاءتهم لمناصبهم . ولو كان ليسوع افكارهم هذه لما كان فعل شيئاً لان حالتهم الآن كحالته يومئذ بازاء الرومانيين

فما مر يتضح ان القول بحل الجامعة الدينية بهذه المبادىء قول مردود من اعظم وجوهه وهو النفع الذي من اجله انشئت تلك الجامعة . ذلك لان النفع نفعان . نفع وقتي ونفع مطلق عام دائم . ونحن لانجهل نفع «الجامعة الدينية» الوقتي وفائدتها في جمع الامم في بعض اطوارها الخصوصية . فالكل واحد منكم ان يبقى خادماً جامعته وعاملاً لنفع قومه بها . فليبقَ المسلم ناصباً الجامعة الاسلامية في وجه اوروبا كآلة سياسية يحاربها بها وان اضر ذلك بداخليته . وليبقَ المسيحي متخذاً جامعته الدينية قوة له بين العناصر المسيحية المتزاحمة في بقعة ضيقة وسياجاً له في البلاد الاسلامية التي يلقى فيها ضيقاً وضغطاً . وليبقَ الاسرائلي متمسكاً بجامعته التي ربما كانت اقوى من الجامعتين السابقتين . نعم ليبقَ كل واحد في حزبه ووسطه وقومه وطائفته يدفع عنها الشر الذي يرد عليها من غيرها ويجلب الخير لها . فان هذا امر طبيعي بديهي لاجدال فيه . ولكن هذا (النفع الوقتي) ليس شيئاً مذكوراً في جنب «النفع المستقبل العمومي» في الزمن الذي تسقط فيه الحواجز من بين الشعوب لاشتراك مصالحهم ونقاء عواطفهم وقبض عقلائهم ونبهائهم على ازمة شؤونهم . والمبادىء التي تقولون انها تحل الجامعة الدينية انما هي في الحقيقة تمهد سبل هذا الزمن السعيد . فانتم تعملون للحاضر عملاً ضرورياً وهي تعمل للمستقبل عملاً ضرورياً . فاعملوا انتم في دائرتكم ودعوها تعمل في دائرتها . وكونوا على ثقة من ان هذا العمل قد بدت ثماره ونتائجه في الشرق بفضل العاملين فيه منذ ٥٠ سنة حتى اليوم وامتزاج روح الغرب بالشرق امتزاجاً شديداً . فكل من خالط النبت الجديد في العناصر المختلفة ورأى اشتراك نبهائها في الاميال والآمال وانعقاد اسباب الوداد بينها انعقاداً لا يكون الا بين الاخ واخيه يتحقق ان العالم القديم قد بداء ينهدم انهداماً . فاين ذهبت مخلفات الآباء والاجداد وآثار العصور القديمة ؟ اين ذهب البغض والنفار والعدوان من بين بني الانسان ؟ سقياً لك يا ارض مصر الكريمة فانك تفعلين عجائب وغرائب . ان زوبعة واردة اليك من السماء قد اخذت تكنس منك اقذار الماضي كنساً على نور العلم وضياء المساواة ولهيب نار الحرية . وانت يا ارض الشام لستِ باقل كرامة من مصر اختك . ولكن الاقدار تعاندك فلتكن السماء برداً وسلاماً لك ولاهلك لكي يكثر فيك الذين يحكّمون عقلهم في هواهم ولا يتركون مساغاً للتفريق بينهم . وحينئذٍ يستفيد قومك وعلى الخصوص اضعفهم من ثمار هذه الدعوة السلمية ومن انصارها اضعاف ما يستفيدونه من جامعاتهم المختلفة

الى الذين كان يحبهم يسوع

هذا ما اردنا بسطه في هذه المقدمة . وقد آن ان نختم الكلام لنصل بالقارىء الى

الكتاب نفسه · الاَّ انه خطر لنا قبل ذلك ان نهدي هذا الكتاب الى من يحمل اهداوءه اليه جريًا على عادة بعض المؤلفين · فاقمنا نفكر في ذلك يومين · وفي اليوم الثالث مررنا اتفاقًا في احد الشوارع من امام منزل لا نسميه · فابصرنا في بابه كاهنًا جالسًا بعظمة الى خوان وهو يمدُّ يده بورقة الى جماعة فقراء امامه فيهم الرجال والنساء · ولكنه ما مدَّ يده بالورقة نحو امرأة منهم حتى انحنت هذه المسكينة كأَنَّ شيئًا قصم ظهرها ورفعت يديها الى عينيها وصارت تبكي بسكوت وهدوء بكاءً يفتت القلوب · فلمع حينئذٍ في فكرنا شيءٌ كالبرق وقلنا الى هؤلاء نهدي الكتاب · الى الذين كان يحبهم يسوع وصرف حياته في خدمتهم واتخذ تلامذته ورفاقه منهم ثم صار خلفاء تلامذته اليوم يعذبونهم و يهملونهم

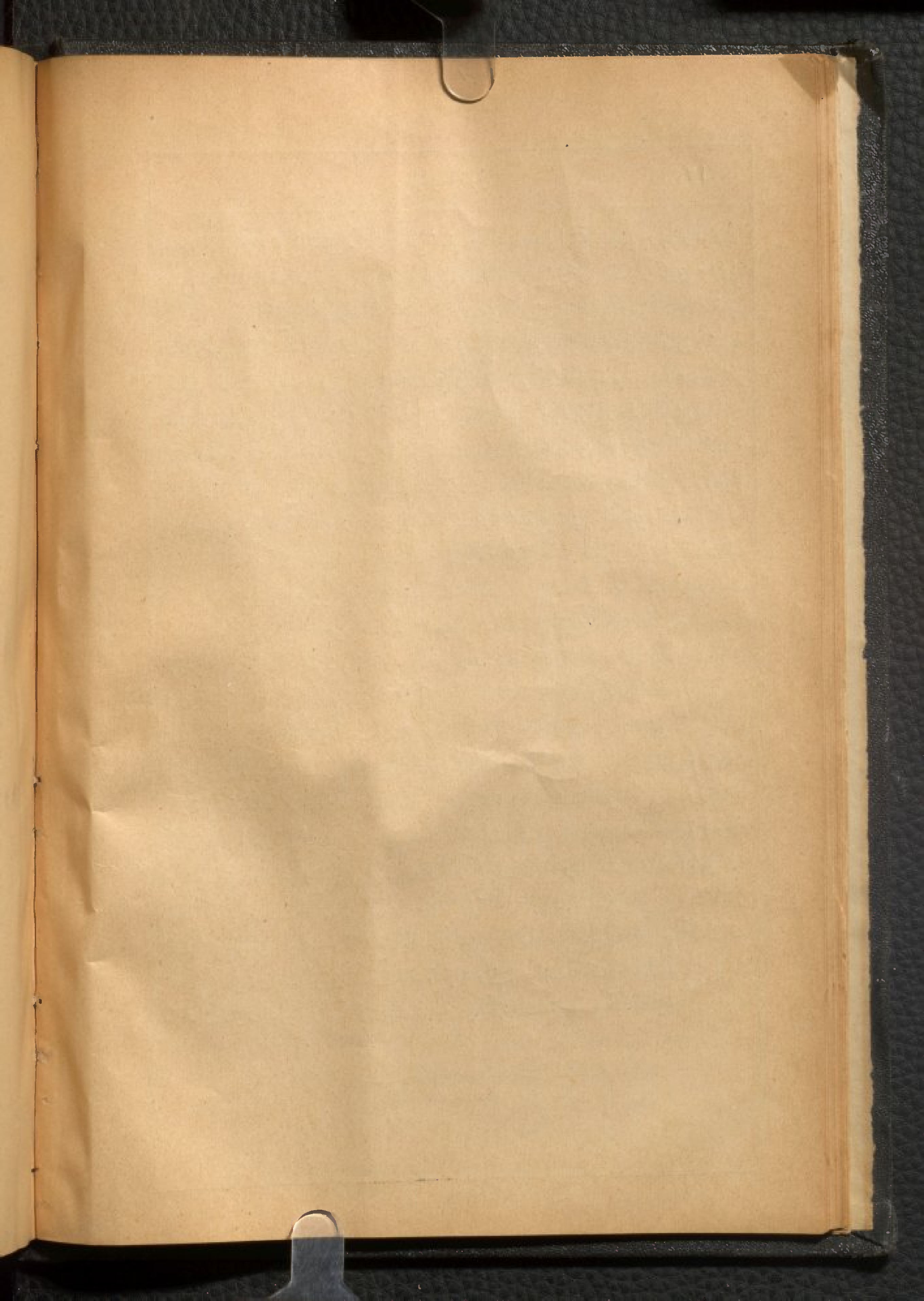
فيا ايها السذج القلوب الانقياء الضمائر المنكسرو النفوس الذين يستغربون تنازع البقاء بين البشر و يستفظعونه · يا ايها الضعفاء الذين تهملهم الحكومات والرؤساء و يتركونهم في الاسواق والشوارع يعانون العرى والبرد والجوع · يا ملايين العملة والمستخدمين النشيطين الامناء الذين يعيشون بشرف واجتهاد من عرق جبينهم وغيرهم يجمع الثروات الواسعة من تعبهم ودمائهم وهو جالس بجبانة وكبرياء علي بساط البطر والكسل والتبذير في الامور التافهة الباطلة · يا اهل الفكر الذين لا تكتفي نفوسهم بشؤُون الارض و يتطلعون دائمًا الى السماء نحو الفلك الواسع الجميل يبحثون عن عالم افضل من هذا العالم — اليكم نهدي هذا الكتاب وان كان اكثركم لا يقرأونه · ففيه تجدون بين مشاق الحياة اليوميَّة وفساد الاجتماع واثرة البشر ومصارعاتهم الحيوانية الدائمة — كوة منيرة مطلة على السماء من حيث يَرِد النور والهواء النقي · فيه تجدون صورة الشخص الالهي الذي عاش عيشكم وتعب تعبكم ومرت في نفسه الكريمة الافكار العادلة التي تمر كل يوم في نفوسكم · اجل ايتها المخلوقات البشرية التي تملاء العالم كما تملاء الرمال شواطيء البحار والتي تستغرق الانسانية كلها الا الوفًا منها — لا صلاح في الارض ولا اصلاح ولا مدنية حقيقية الا بالعود الى مبداء يسوع وهو العناية بك قبل كل شيءٍ · فان فسادك لا يفسدك وحدك فقط بل يفسد الدنيا كلها معك ما فوقك وما تحتك · ولذلك تعود المدنية العصريَّة الى هذا المبداء شيئًا فشيئًا · فشددي عزمك وقوي نفسك وارفعي راسك فقد جاءت نوبتك · واذا كنتِ لا تزالين في الشرق ضعيفة مقهورة مكسورة الجناح فالغرب قد مرَّ عليه قرن (منذ الثورة الفرنسوية) وهو يرفع رايتك · وهذه الراية ستنال اكليل النصر لا محالة فتتعزين حينئذٍ بانك ان لم تغلبي بعدُ فقد غلب اخوتك · ولكن اذا كان من وظيفة خَدَمتك اعطاؤك هذا النشاط وهذه القوة لتنهضي وتحفظي حقوقك فمن وظيفتهم ايضًا ان

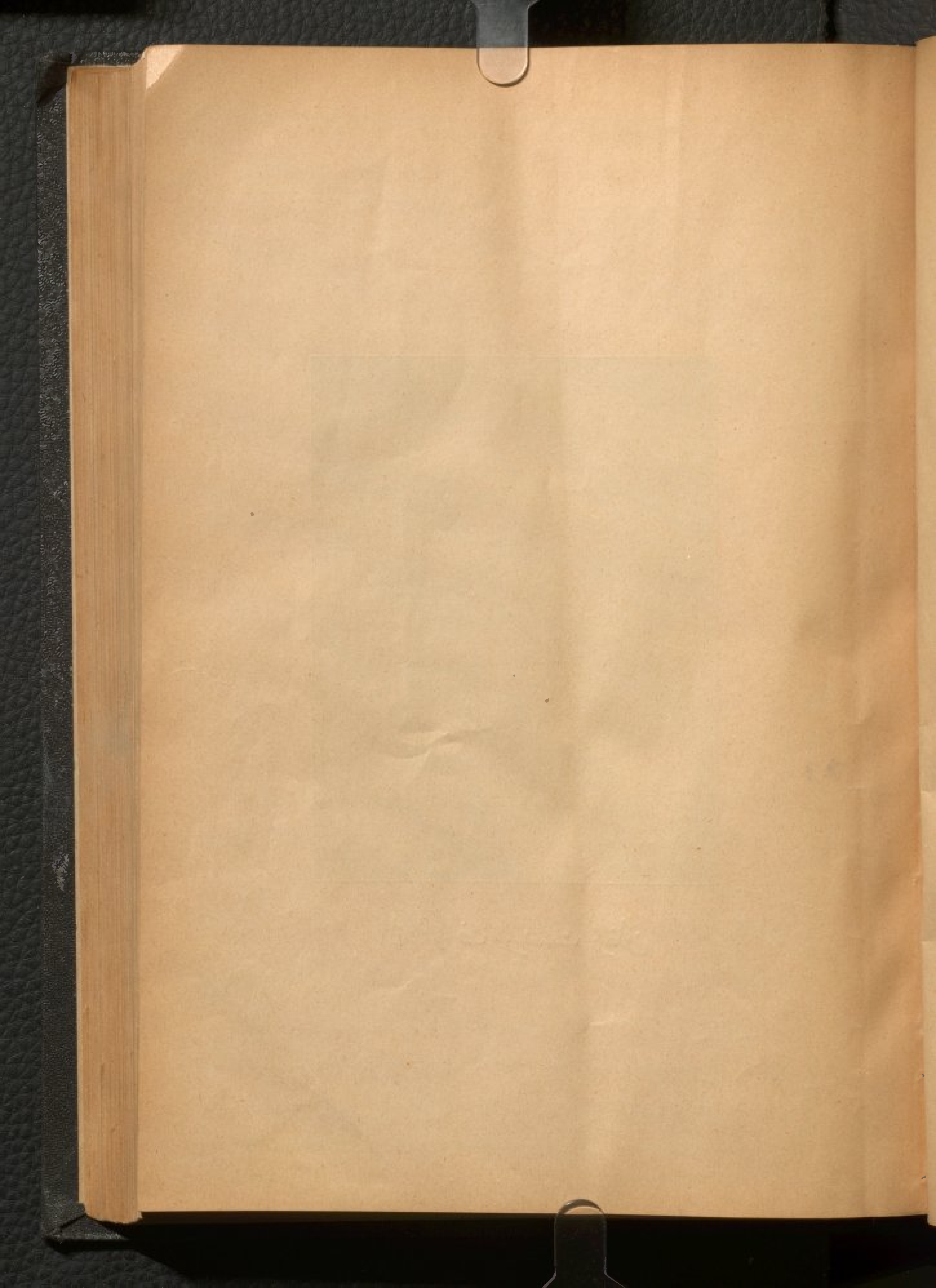
يحذّروك من العثرات في طريقك . فما لك ولتعاليم الاشتراكيين الماديين ايتها المخلوقات الكريمة فانها مضرة بك وبالهيئة الاجتماعية كلها . فانهم يعلّمونك بغض اهل المال ويغرونك باستحلال اموالهم كما استحلوا تعبك . ويقولون لك ان كل ذهب من ذهبهم مصبوغ بدمك ودموعك وعرقك فمن حقك ان لا تحترمي هذا السلب القانوني . يعلّمونك اذا مررتِ بقصورهم الشاهقة ومركباتهم الفاخرة ومشيهم في الارض مرحًا كأنّ الدنيا لهم وحدهم ان تبصقي عليها وعلى الهيئة الاجتماعية التي تساعد هذا الفساد والظلم في بعض ابنائها دون بعض وتتركهم يأكلون بعضهم بعضاً كالحيوانات الوحشية . ولكن يا اختي هذه العواطف لا تليق بمثلك وانا احذرك منها لانها اذا كانت من جهةٍ تُدعى (عدالة اجتماعية) كما يقولون فهي من جهة اخرى تدعى (حسداً وبغضاً واثرة) . واذا قالوا لك (١) ان هذا البغض والحسد امر ضروري لازم في حالتك الآن لانه (يخلق القوة والنشاط) ويكون جامعة للضعفاء فيما بينهم فأنت تعلمين انه يجب محاربة كل جامعة لا تقوم على (العقل والعدل والحق) فضلاً عن ان البغض كريه قبيح دنيء ايًا كان سببه . وما هو غرضك من هذا البغض والحسد يا ترى . هل ذلك لرغبتك في ان تكوني مثلهم . ألا فاعلمي انك يمكنك ان تكوني افضل منهم . وليس يلزمك لذلك غير الرجوع الى مبادىء يسوع نفسه . ان هؤلاء الاشخاص الذين يمتصون دماءك ايتها الانسانية ويعيشون من تعبك هم اخوتك وان كانوا على طريقة قايين . وهم يلقون من المتاعب والشقاء والمصائب في هذه الحياة مثل ما تلقين . ولا يغرنك الظاهر فانك في كوخك الحقير الصغير انعم بالاً منهم واحسن حالا . ذلك لانك فيه لا ترهبين شيئًا لانك لا تخشين ان تخسري شيئًا وهم يرهبون كل شيء . واسمعي ما يقوله برناردين دي سان بيير فيهم (انهم ابتاعوا سعادتهم المزعومة بثمن غالٍ لانهم لا يحصّلون الوجاهة في الدولة والمال الا ببذل شيء من الشرف وخسارة الصحة ودوس الضمير واذية بني جنسهم) (٢) فهل هذا مما يستحق الحسد ؟ انهم مساكين مثلك . وكما انك ضعيفة من جهة فهم ضعفاء من جهة اخرى . سلي الخالق الذي يقرأ في قلوبهم فانه يعلم ما لا تعلمينه منهم . واذا شئت برهانًا صغيرًا على ضعفهم فدعيهم يتجردون شهرًا واحدًا من امتيازاتهم ومراكزهم ولينزلوا امثالك الى ساحة العالم التي تتعاركين فيها فترين حينئذٍ انهم في هذا الزحام الجديد في الحياة اقصر من ان

١) كلام مشهور لجان جوريس زعيم الاشتراكيين في فرنسا

٢) بولس وفرجيني

يسيروا خطوة وحدهم . فاشفقي اذاً عليهم وعلى ضعفهم ومتاعبهم بدل ان تحسديهم . و بما ان مبادئ يسوع تعطيك قوة وقدرة على ان تكوني فوقهم فالجاءي اليها واتركي الاشتراكيين . اعملي بشريعة المحبة والصفح والحلم واحتقار النجاح المادي متى كان يقتضي دوس الضمير . ضعي الاخلاص والسذاجة ونقاء الباطن والصداقة والحرية والخير والحق والعدل والعقل والقناعة بالقليل والمعيشة الروحية فوق كل شيء مادي في الارض كما كان يضعها يسوع . وحينئذٍ تكون الانسانية التي في باطنك ارقى من الانسانية التي فيهم . وتجدين في هذا العيش الساذج النقي الطبيعي من الراحة الباطنية والسعادة الحقيقية ما لا يجدونه هم في ثروات الدنيا كلها . لان الثروة كالماء المالح كما شرب الانسان منها يزداد عطشاً وتعباً وغلظة . وهذا معنى قولهم (جزاء الخير منه وفيه) . ولا تقولي ان هذه الراحة والسعادة وهمية بل تعزية العاجز وتسلية القاصر فانك بذلك تحكمين بنفسك على نفسك . لان من يقول هذا القول يدل على فساد قلبه وتغير طبيعته لكونه عاجزاً عن ان يفهم تلك الحالة . فان هذه المسألة مسالة شعور وقلب لا مسالة منطق وعقل . ومن فقد هذا الشعور يفقد اللذة الحقيقية والراحة الحقيقية في الارض الى الابد . وحينئذٍ لا دواء له غير رحمة الله به او رجوعه الى مهد امه لتربي نفسه تربية جديدة وتصلح طبيعته . فتمسكي اذاً بهذه القوة القلبية التي كانت ليسوع والتي كان يحتقر بها كل امور المادة ولا يعبأ الا بامور الفكر والروح . وهذه هي الحقيقة الابدية التي لا تزول مهما تقلبت الاجيالُ والاحوال حتى ولو اكتشف البشر في المستقبل طرق توزيع خيرات الارض توزيعاً عادلاً عاماً يبطل به الفساد الذي ينشاء في الطبقات العليا بكثرة الثروة فيها كثرة فوق الحاجة والفساد الذي ينشاء في الطبقات السفلى بقلتها فيها عن الحاجة . وهذا هو السبب في تفضيلنا مبادئه على مبادىء الاشتراكيين ونشر صورتها امامك واهدائها اليك . واذا كنت ترتابين الآن في هذه الحقيقة فمتى حان اجلكِ بعد عمر طويل ستتحققين وانتِ على فراش الموت يوم لا ينفع الانسانَ شيء ان هذا هو الحق بعينه . واذا كنتِ قد عملتِ به في حياتك تموتين مستريحة لتذكرك ان حياتك كانت نفعاً للناس اخوانك لا حملاً ثقيلاً عليهم وظلماً لهم وانك تذهبين مبكياً عليك منهم لا مبكياً منكِ .







الفيلسوف ارنست رنان

الباب الثاني

الفيلسوف ارنست رنان

ترجمته وآراء مشاهير العصر فيه

ترجمة الفيلسوف رنان

ولد « ارنست رنان » في (تريجيه) من اعمال فرنسا في ٢٧ فبراير من عام ١٨٢٦ . وكان ابوه ربانًا لاحدى السفن التجارية وهو من مقاطعة بريطانيا . واما امه فانها كانت غاسكونية ولذلك كثيرًا ما قال رنان عن نفسه ان هذا المزج بين البريطانية والغاسكونية انشأ فيه من جهة الاوّل قوّة التصوُّر والتأمل ومن جهة الثاني قوّة الصبر على الحياة والارتياح الى المعيشة كيفما كانت

وقد توفي ابو رنان وعمرهُ خمس سنوات فربتهُ امهُ بمساعدة بعض الكهنة وهي تنوي ادخالهُ في سلك الاكليروس . فتلقى رنان دروسهُ الابتدائية في دير اكليريكي في بلده وقد مال في صغره الى الدخول في هذا السلك رغبةً في الانقطاع الى العلم والفضيلة . وبقيَ على هذهِ الرغبة حتى بلغ السنة الخامسة

عشرة من العمر فانتقل الى دير سان نيقولا في شاردونه لاتمام دروسه فتغيرت افكاره هناك لما كان يجده حوله احياناً من قلة الاحترام للمسائل الدينية كما قال المسيو برتلو الذي نعتمد عليه في هذه الفذلكة · ومنذ هذا الحين تزعزع ايمانه · ثم انتقل في سنة ١٨٤٢ الى دير ايسي ليتلقن الفلسفة فطالع هناك مؤلفات الفيلسوفين الالمانيين هجل وهردر فاجهزت هذه المطالعة على ايمانه وصار يرى حياة العالم عبارة عن نموّ باطني للكون كما ان نموّ الشجرة وحياتها انما هو عبارة عن نموّها الباطني · وفي سنة ١٨٤٤ اخذ يدرس اللغات الشرقية فما تعمق فيها حتى صار يعتقد انه لا يمكن ان تكون التوراة كتاباً منزلاً لما رآه فيها من الاغلاط التاريخية · فعدل منذ هذا الحين عن الانخراط في السلك الاكليريكي وقام حينئذٍ في نفسه نزاع شديد بين النذر الذي نذره من الانخراط في هذا السلك و بين ما حسبه حقيقةً · وكانت له اخت تدعى هنريت رنان وكانت سامية المدارك قوية العقل وهي اكبر سناً منه باثنتي عشرة سنة فاخذت تخمد ثورة فكر اخيها وتهوّن عليه قطع ما كان بينه و بين رجال الاكليروس من الصلات · وزار رنان في ذات يوم صديقه الفيلسوف جول سيمون وهو لابس اللباس الاكليريكي واطلعه على ما قام في نفسه من ترك الاعتقاد القديم والعدول عن الانخراط في سلك رجال الدين · قال جول سيمون في بعض كتبه · وقد بذلت جهدي في إِثناء رنان عن عزمه فكان يجيبني انه لا يستطيع ذلك لان الطائر الذي كان في نفسه قد طار منها · وهكذا نبذ رنان نذره وخلع الثوب الاكليريكي

ولكن رنان لم يخلع الثوب الاكليريكي حتى لبس ثوب الضجر من الحياة واليأس من الوجود لانه لم يكن يجد لهما غرضاً · ولا غرابة في ذلك فان الحالة

التي بلغتها نفسهُ قد البستهُ هذا الثوب المملوءَ حسكاً وشوكا · فمن حسن حظهِ تعرَّف في المدرسة التي كان يدرّس فيها بشاب يُدعى برتلو وهو الموسيو برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور الذي جُعل منذ عامين عضوًا للاكاذيمية الفرنسوية وكان من قبلُ وزيرًا للشؤُون الخارجية الفرنسوية · فعقد رنان مع هذا الشاب صداقة قوية العرى · وكان برتلو منصرفاً الى العلم الحسي او الوضعي فاثرت معاشرته وافكاره في رنان تأْثيرًا شديدًا فصار رنان يعتقد اعتقاده في نفع هذا العلم ومقدرته على اصلاح الهيئة الاجتماعية وتحسين احوال البشر · فصرف افكاره الى هذا الامر قياماً بهذه الخدمة فكأَنَّ برتلو بثَّ فيهِ روح دين جديد · ومنذ ذلك الحين اخذ رنان بالاشتغال بالعلم وصار يجد للحياة غرضاً ومقصدًا

ففي سنة ١٨٤٨ قدَّم لجمعية الفنون كتابه المعنون « تاريخ اللغات السامية » فطارت بهِ شهرة رنان وعُدَّ مستشرقاً عظيماً · ثم كتب في سنة ١٨٤٩ كتابه « مستقبل العلم » غير ان هذا الكتاب لم يُنشر الاَّ في سنة ١٨٩٠ · وكان من اقوالهِ في هذين الكتابين ان العالم ينمو بنفسهِ من نفسهِ وهو سائر الى الكمال سيرًا تدريجياً · وما هو ذلك الكمال ؟ هو قوَّة الفكر والفضيلة وطلب الحقيقة والخير لذاتهما · فعلى العلماء والفلاسفة الذين هم نخبة الانسانية ان يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم الحقيقة للناس ورفع باقي الانسانية اليهم فان هذا الامر مطلوب منهم كما هو مطلوب من رجال الدين · ومن يقوم به منهم فان عملهُ يكون عبارة عن صلاة او افضل منها

وفي سنة ١٨٤٩ عُهد الى رنان بمهمة علمية في ايطاليا فسار اليها وشاهد عظائم فنونها الجميلة فتشرَّبت نفسهُ حبَّ الجمال · وفي عام ١٨٥٢ نشر كتابه « ابن رشد ومبادئهِ » وموضوعه اثبات ان الاضطهاد الديني هو الذي اوقف في الاندلس

والعالم الاسلامي مسير التمدُّن ومنع الارتقاء العلمي والفلسفي الذي كان قريب الحدوث فيها . وكان غرضهُ من هذا ان يُظهر للحكومات والسلطات الدينية ما ينشأ عن اضطهاد الدين للعلم ليكون عبرةً لها فلا تضطهد العلم في اوربا فيحلُّ بهما ما حلَّ بمن تقدَّموها

واقترن رنان في عام ١٨٥٦ بمدموازل شيفر حفيدة المصوّر آري شيفر فانتبهتْ فيهِ عواطف الحب وانعكست الى نفسهِ صورة الجمال الانثوي الذي اتخذهُ رفيقاً لهُ فاحياها وملأَها تصوُّرات وتأَملات عذبة . فصار قلم رنان بعد هذا الزواج كأَنهُ قد غُطَّ في كأْس عسل . وقد حدث مثل ذلك لجان جاك روسو بل اشدَّ منهُ . فانهُ في بعض ادوار عمرهِ وهو الدور الذي تشتدُّ فيهِ زقزقة الطيور ويلمع جنح الفراش في الحقول — اي دور الربيع الانساني — صار يحسّ بنار في داخله و برق في عينيه وجريان في قلمه فاذا كتب خطَّ سحرًا وابرز تبرًا . وقد كتب في تلك المدة القريبة كتابه « هيلويز الجديدة » وكله رسائل حبية فلسفية فكان ابلغ كتبه . و بعد ذلك خمدتْ تلك الثورة وانطفأَت تلك النار فذهبت بذهابها تلك البلاغة التي كانت تتصعد عنها

اما رنان فلم تخمد ناره قبل ابرازه الكتاب الذي طير صيتهُ في جميع اقطار الارض وجعلهُ اوسع علماءِ عصره شهرةً

وهذا الكتاب هو « تاريخ اصل الديانة المسيحية . وهو خمسة اقسام (١) تاريخ حياة المسيح (٢) تاريخ اعمال الرسل (٣) تاريخ حياة القديس بولس (٤) المسيح الدجال (٥) مرقص اوريلوس . وكل واحد من هذه الاقسام كتاب ضخم . وامامنا الآن القسم الاول منهُ وهو تاريخ حياة المسيح وعدد صفحاته ٥٤٩ صفحة كبيرة ماعدا مقدماته الطويلة

ولا ريب في ان هذا القسم اهمّ اقسام الكتاب كله · وقد كتبه رنان في سياحة لهُ في فلسطين وسوريا ولبنان بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ وكان مرسلاً اليها للتنقيب عن آثار الفينيقيين ولهُ فيها كتاب عنوانهُ سياحة في فينيقيه · وبعد عودته من فينيقية جُعل استاذاً للغات العبرانية والكلدانية والسريانية في مدرسة كوليج دي فرانس · غير انه بينما كان يلقي فيها اول دروسه لقب السيد المسيح في كلامه عنه « بالانسان الذي لا مثيل له » فقامت في الجلسة قيامة انصار الاكليروس وخصومهم بعض معهُ وبعض عليهِ فقرَّرت الحكومة الامبراطورية الغاءَ هذا الدرس فترك رنان تلك المدرسة · وقد تلا هذا الحادث ظهور كتاب تاريخ المسيح في عالم الادب (سنة ١٨٦٢) فانفجرَت على موءَلفه ينابيع حارَّة وينابيع باردة

اما الينابيع الحارة فانها انفجرت من نفوس جميع رجال الدين ولا سيما المتطرفين منهم وجميع الذين يقتدون بهم او يعيشون من ورائهم · فسلقه هذا الحزب بالسنة حداد وانهالوا عليه في الجرائد والمجلات بالشتم والسب وحرموه من الكنيسة ولعنوا كل من يقرأ كتبه · وقد اتهمه بعضهم بانه ما كتب ذلك الكتاب الا في مقابلة مليوني فرنك قبضها من بيت روتشيلد الاسرائيلي · ولكن اصدقاء رنان الذين يعرفون حبه المجرد لتقرير ما يحسبه حقيقة ينفون عنه هذه التهمة السوداء · وسنشير في ما يلي الى الردود التي كان رنان يردّ بها على الطاعنين عليه

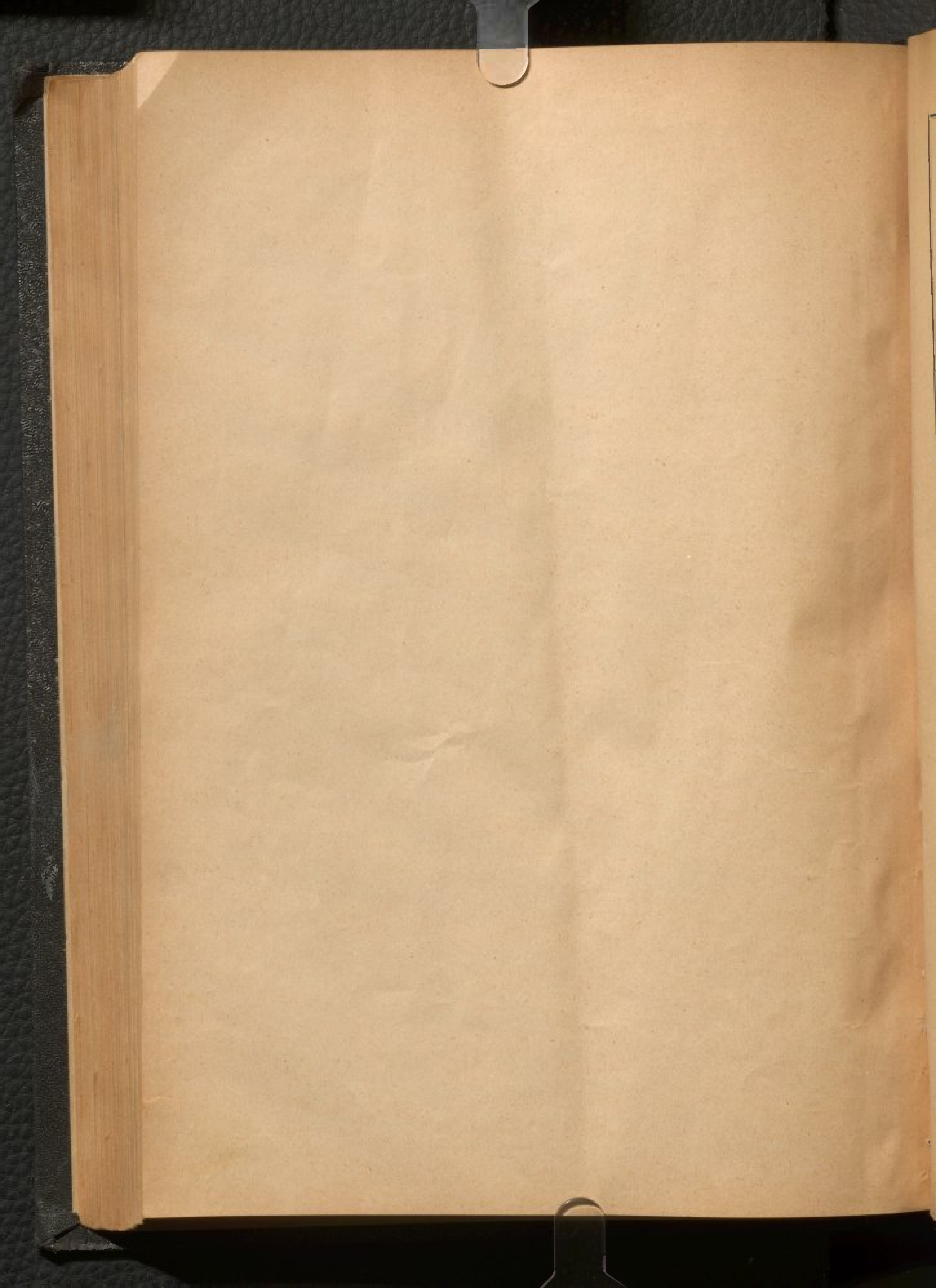
واما الينابيع الباردة فانها انفجرت من نفوس الاسرائيليين في جميع اقطار الارض لان ذلك الكتاب يعزو تمدن العالم اليهم ويقول بخروج المسيحية منهم وان كان يُثبت ان آدابها العليا لم تشتق من آدابهم

ثم حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ فكان رنان من كارهيها وقد كتب يومئذٍ في « مجلة العالمين » الفرنسوية مقالة شبَّه فيها فرنسا والمانيا باختين

في المدنية وقال ان من الجناية على التمدن ان تحاربا . وبعد ما شاهده رنان في هذه الحرب من آثار الهمجية البشرية في ساحة القتال ومن تمرد رجال « الكومون » في باريز وافضاء هذا التمرد الى حرب اهلية بين الفرنسويين جرت فيها الدماء انهاراً تزعزعت ثقته بسير العالم الى محجة الكمال وكره الديموقراطية وشؤونها لانها ادَّت بوطنها الى ذلك الوبال . وصار يرى من الواجب على كل امة ان يكون فيها نخبة من رجال الفضل والعقل لادارة شؤونها بقسط واعتدال فلا يكون للفساد والرشوة من سبيل الى نفوسهم . واخذ يتساءل كثيراً هل ان العقل والعدل يسودان في هذه الارض في مستقبل الزمان ؟ ام يتوصل العلم فقط الى حالة يصبح فيها سواد الناس عاجزين عن الاضرار بكبارهم لما يضعه لهم هؤلاء الكبار من الشكيمة بواسطة معارفهم العلمية . وقد نشر رنان كتاباً في هذا الموضوع عنوانه « مباحثات فلسفية »

وبعد ذلك قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين واعادته الى كرسي التعليم في كوليج دي فرانس وجعلته مديراً لهذه المدرسة . وفي سنة ١٨٧٩ عُين عضواً للاكاذيمية الفرنسوية . فعاد رنان ورضي عن الديموقراطية بعض الرضى . وفي سنة ١٨٩٢ اتمَّ نشر كتابهِ « تاريخ شعب اسرائيل » وهو خمسة اجزاء وصل بها تاريخ المسيح بتاريخ نشأة بني اسرائيل فكان هذان الكتابان تاريخاً شاملاً للحوادث الاسرائيلية من اولها الى ما بعد انتشار الديانة المسيحية

وقد عمَّر رنان نحو سبعين عاماً . وكان في آخر ايامه رزيناً هادئاً مع شيء من التهكم وعدم المبالاة باراء الناس . وبقيَ على هذا الهدوء والرزانة مع ما انتابه من المرض والالم في آخر حياته . وقد قال وهو على فراش الموت « انني اموت سعيداً لانني اتممت عملي . وما الموت الاَّ ناموس طبيعي . فلنخضع لناموس الطبيعة »





التمثال الذي اقيم لرنان في تريجيه وطنه
في العام الماضي

اقامة تمثال لرنان

في العام الماضي

ومنذ سنتين الَّف في فرنسا اصدقاء رنان ومريدوه لجنة لاقامة تمثال له في (تريجيه) مسقط راسه . فنشرت اللجنة اعلاناً بغرضها بين جميع مشاهير الارض فوردتها الاموال ورسائل الاشتراك من كل الجهات . وقد كان المشتركون معها من كل الاحزاب العاقلة المتساهلة كاثوليك وانجيليين واسرائيليين وفلاسفة . وفي جملتهم المؤرخ ممسن اعظم علماء الالمان والعالم جبرائيل مونود اعظم علماء البروتستانت في فرنسا والمسيو ريبو الكاثوليكي الذي امتاز في فرنسا بالعامين الاخيرين بالانتصار للحزب الاكليريكي صوناً لمبداء الحرية والجمهورية وهو من رؤساء الوزارات السابقين . والمسيو والدك روسو المشهور . وكثيرون من علماء الارض من كل البلاد . وكلهم كتبوا الى اللجنة كتباً خلاصتها ان الانسانية وفرنسا يحق لهما ان تفتخرا بظهور رجل فيهما نزيه الاخلاق واسع العلم مترفع عن دنايا الارض مثل ارنست رنان . وقد جمعت اللجنة هذه الرسائل كلها في كتاب ضخم دعته «كتاب رنان الذهبي» لانه عبارة عن شهادة له من مئات من اكابر علماء الارض وعقلائهم بصفات علمية وفلسفية وادبية لم تنسب لغيره من عهد افلاطون . ولذلك دعوه «افلاطون المتأخرين»

ولما قامت هذه الجلبة في فرنسا في العام الماضي نهض الحزب الاكليريكي لمقاومة الشارعين في اقامة التمثال فتصدَّى له الحزب الجمهوري . واصبح اسم رنان عبارة عن راية يتحارب الحزبان حولها . اما اهل الاعتدال فكانوا بين الحزبين يخففون من حدتها . ومنهم جريدة الطان والدبيا . فان جريدة الطان كانت تقول لهما ان رنان الذي كان في حياته (رسول التساهل والسلام) لو حضر معاركتهما حول اسمه لابعدهما كليهما عنه بنزق . ومن رأيها انه ما من احد ساعد على انتشار الروح الديني في العصر الجديد مثل رنان . واما جريدة الدبيا الكاثوليكية التي قصر رنان قلمه على الكتابة فيها في حياته ولم يكن يكتب في غيرها فقد رأت رأياً جميلاً . قالت : ان رنان خدم الروح الديني في العالم خدمة ما بعدها خدمة . فانه هدم «روح فولتير» هدماً . تعني روح التهكم على الاديان والمذاهب واعتبارها اساطير قديمة . وانما هدم رنان تلك الروح بشيئين : الاول اعتماده في

كتابة تاريخ الديانة المسيحية على الكتب المسيحية نفسها . والثاني تعليمه الناس احترام الامور الدينية واظهاره جمال العواطف الصادرة عنها . فان كل قارئ لا يتمالك ان يطير طرباً كلما قرأ ذلك الكلام اللين الحلو الممتلئ روحاً دينياً وتتشبع نفسه منه . وهكذا نشأ متأدبو العصر على احترام العواطف الدينيّة ووضعها في اسمى منزلة في نفوسهم بعد ان كان لا همّ لهم الا التهكم عليها واحتقارها . وبذلك حلت « الروح الرنانية » محل « الروح الفولتيرية » واليك بعض الامثلة لذلك

قال رنان في خاتمة كتابه « اعمال الرسل » ان الانسان حيوان ديّن اي مفطور على الدين . وكلما ارتقت الانسانية ازداد شعوره الديني . وقد شرح ذلك هناك شرحاً وافياً . وهذا الرأي مخالف رأي الماديين والوضعيين على خط مستقيم

وقال في منتخباته ما ملخصه « انه لما كان في غزير (لبنان) نزل ضيفاً على احدى الاسر الكبيرة هناك . فلما قامت الضوضاء في فرنسا بسببه دعا كبير تلك الاسرة نجلاً له وسأله قائلاً يا بني ما بالهم ينسبون الى المسيو رنان ما ينسبون . اخبرني عن اعتقاده . ولنبدأ اولاً بالاب . هل يعتقد بالله . فاجاب الفتى : انه في هذا وطيد الايمان . فاجاب ذلك الشيخ الكريم . هذا شيء كثير هذا شيء كثير » وقد اورد رنان هذه القصة لاثبات ايمانه

وحدّث في الشهر الماضي احد كتّاب الدنيا فقال . بعد دفن اخت رنان في جبيل (لبنان) كان رنان يستدعي الكهنة لاقامة القداسات عن نفسها . ولما قيل له في ذلك اجاب انني استنزل عليها بركة شيوخ صالحين كهؤلاء الشيوخ واحول بذلك دون اهانة قبرها بعد سفري اذا سُمع هنا عني شيء يكرهونه

وقال في مقدمة كتابه « اوراق منثورة » « هل الحاجة الابدية التي في ضمائرنا الى ما وراء الطبيعة هي وهم وخيال ? كلا ثم كلا . فان من ينفي ذلك نفياً قطعياً مَثله مثل من يُثبت ذلك اثباتاً قطعياً . لانه اذا كان لم يثبت عقلياً ان للكون نفساً فايضاً لم يثبت انه ليس هنالك نفس له . فكل ما نعلمه اننا لا نعلم شيئاً . هذا كل ما نقدر ان نقوله عما وراء الطبيعة . فلا ننكرنّ شيئاً . بل فلنتمسك بالامل »

وقال في موضع آخر « ان نفسي ستسكن بعد وفاتي في خرائب كنيسة القديس مخائيل بشكل طائر البحر الابيض وسيبقى هذا الطائر حائماً في الليل حول ابواب الكنيسة ونوافذها تائهاً عن المدخل شاكياً متألماً . وهكذا تبقى نفسي المسكينة حائمة متألمة حول هذه الاكمة الى الابد . فيقول عنها الفلاح حين مروره بها انها نفس كاهن يطلب الدخول الى الكنيسة

لتلاوة قداسه » قال محرر الديبا بعد ايراده هذه الشذرة « ولكن يا للاسف انه لا يجد ابداً اولاداً يخدمون هذا القداس »

وقال رنان في آخر حياته في احدى خطبه وهو من اشهر اقواله . « وددت لو يكون قبري في وسط دير . ولكن الدير فوع عن الكنيسة والكنيسة لا تريدني وان كانت مخطئة في ذلك . واودّ ان يحفروا على قبري هذه العبارة « لقد احبّ الحقيقة » اجل انني احببت الحقيقة وطلبتها وسعيت وراءها الى حيث كانت تدعوني دون ان التفت الى ما اعانيه في سبيلها . ومما لا يحتاج الى بيان ان سرّ الكون لم ينجلِ لاحد بعد . وليس هنالك احد على ثقة من انه وجده . فان اللانهاية التي تحيط بنا وتضغط علينا لا يحيط بها علم وهي تتملص من كل حدٍ وقيد . ولكن هنالك شيء واحد يستطيع الانسان تأكيده ويكون على ثقة منه وهو سلامة النية . ولقد عملت ما عملت بسلامة نية . وانا اقسم على صدق هذا القول بالموقف الاخير في يوم الدينونة »

والآن اليك ما قاله في معلميه واساتذته وكلهم من رجال الاكليروس لانه كان راهباً في شبابه « كان اساتذتي يعلمونني ما هو افضل من الانتقاد والاستنباط الفلسفي . ذلك انهم كانوا يعلمونني حب الحقيقة واحترام العقل والمعيشة الجدية . وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير فيَّ . ولقد صرت بتربيتهم لا اقدر على شيء من الحياة الزمنية فانصرفت الى الحياة الروحية . وصرت ارى كل عمل مأجور عملاً دنيئاً . فيا اساتذتي الاعزاء الذين مات اكثرهم الآن . اني اراكم احياناً في احلامي ولكنني اراكم كتذكار حلو عندي لا كتبكيت وتوبيخ . فانني لم اخنكم بقدر ما تظنون . نعم قلت ان تاريخكم غير كاف وفلسفتكم اضعف من الفلسفة التي تعلمنا ان لا نقبل « شيئاً خاصاً وراء الطبيعة » ومع ذلك فانني لا ازال تلميذاً لكم . فانني مثلكم اعتقد ان الحياة لا قدر لها ولا قيمة الاَّ بصرفها في الاخلاص والحقيقة والخير . الا انكم تفسرون هذا الخير تفسيراً ضيقاً وتجعلون هذه الحقيقة مادّية مجسمة وان كنتم مصيبين من حيث اساس الموضوع . فانا اشكركم لانكم طبعتم فيَّ كطبيعة ثانية ذلك المبدأ الذي قد يمنع نجاح الانسان الدنيوي الا انه يبلغه السعادة والراحة في هذه الحياة وهو ان الانسان عليه ان ينصب امامه غرضاً شريفاً يسعى اليه في الدنيا سعياً تجرداً عن المصلحة الخصوصية »

ولما دخل ١٤ سبتمبر كان تمثال رنان منصوباً في ساحة تريجيه نخف الوزراء والعلماء والكبراء في فرنسا للاحتفال برفع الستار عنه . وهذا التمثال يمثل رنان جالساً على مقعد في تريجيه كما كان يجلس عادةً وهو في سن الستين وفوقه « بالاس آثينا » الاهة

الحكمة عند اليونان تحمل اكيلاً لتضعه على رأسه وقبعته الى جانبه وعصاه في يده وهو غائص في بحر التفكر والتأمل في الحياة والكون والانسان حسب عادته . وهذا التمثال من صنع النقاش جان بوشه . وقد قامت تريجيه وقعدت في ذلك اليوم لكثرة المتوافدين عليها . وحدث بين حزب رنان والحكومة وبين الحزب الاكليريكي الملكي شيء من الاضطراب ولكن من حسن الحظ غلّب الفريقان العقل على الجنون فانتهى الامر على احسن حال . وكانت الحفلة تحت رئاسة المسيو كومب رئيس الوزارة والمسيو شوميه وزير المعارف العمومية ، ولما رُفع الستار عن التمثال صفق الحاضرون وهتفوا فتلت حينئذٍ المدموازل مارينو « صلاة رنان على الاكروبول » وهي ابلغ ما كتبه الفيلسوف . ثم شرعوا في الخطب . وهي ست (الاولى) للمسيو كيس رئيس جمعية «البرطانيين الزرق» صاحبة التمثال . (والثانية) للمسيو كيلدم شيخ تريجية (والثالثة) للمسيو شوميه وزير المعارف بالنيابه عن الحكومة الجمهورية (والرابعة) للمسيو برتلو الكيماوي المشهور صديق رنان الحميم بالنيابة عن جمعية العلوم (والخامسة) للمسيو اناتول فرانس الذي خلف رنان في فرنسا برقة العبارة والجرأة (والسادسة) خطبة شكر تلاها المسيو بسيشاري صهر رنان . وكانت قرينته مدام بسيشاري ابنة رنان حاضرة الى جانبه

ولقد نشرنا في الجزء الثامن من (الجامعة) للسنة الرابعة تفاصيل هذا الاحتفال وترجمة بعض الخطب التي القيت فيه خصوصاً خطبة المسيو اناتول فرانس احد رجال الاكاذميه الذي قال في ختامها مخاطباً تمثال رنان عن لسان (آثينا) الاهة الحكمة التي نُصب تمثالها وراء تمثال رنان يكلله ما تعريبه « فكن مطمئناً واقبل الآن من يدي غصن الذهب الذي استحقه جدك وكدك . عش ممجداً معظماً في انقى القلوب واقوى النفوس . احيي فيَّ لاحيى فيك يا اعظم اصدقائي . فلقد نلت الخلود الذي كنت تصبو اليه . وكل ما ابرزته نفسك من الجمال والخير لا يذهب شيء منه سدى بل يبقى الى الابد . فان الانسانية لا بد ان تحقق احلام الحكماء شيئاً فشيئاً وان كان سيرها بطيئاً »

الباب الثالث

المقدمات

وفيها هدينه الى اخته · وتاريخ كتابه كتابه · والمصادر التي استند اليها ·
ولمحة من تاريخ الحركة الدينية في العالم

مقدمات تاريخ المسيح

ان النسخة التي نلخص منها هنا تاريخ المسيح هي من الطبعة الخامسة والعشرين · اي انه اعيد طبعها ٢٥ مرة · وقد صدَّرها المؤلف بهدية الكتاب وهي الى اخته المدموازل هنريت رنان التي رافقته في سوريا وفلسطين وتوفيت بالحمى في جبيل (لبنان) ثم يلي ذلك ثلاث مقدمات · ونحن نلخصها هنا كلها قبل الوصول الى موضوع الكتاب · قال المؤلف في صحيفة الهدية

الهدية الى اخته

« الى روح اختي هنريت الطاهرة
« التي توفيت في جبيل في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٦١
« اتذكرين وانتِ الآن مستريحة في احضان الله تلك الايام الطويلة ايامنا (في غزير) التي كنتُ فيها واياكِ منفردين نكتب صفحات هذا الكتاب الذي كانت توحيه الينا الاماكن التي زرناها معاً · لقد كنتِ يومئذٍ جالسةً بجانبي ساكتةً تنتظرين الصفحات التي

كنتُ اكتبها وكلما اتممتُ صفحة تناولتِها وقرأْتِها ثم نسختها بعد قراءتها . هكذا كنا نقضي النهار وتحت اقدامنا البحر والقرى والجبال المجاورة . اما في الليل فانكِ كنتِ تلقين عليَّ سؤالاتٍ دقيقة لطيفة كان يظهر فيها شيءٌ من ارتيابكِ فكانت هذه الاسئلة تعيدنا الى الموضوع السامي الذي كان شغلنا الشاغل . وقد قلتِ لي يومًا انكِ تحبين هذا الكتاب لامرين الاوّل لانه كُتب في صحبتكِ والثاني لانه كُتب على ذوقكِ . وكنتِ معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش السريع الحكم الضيق القلب فان كل رجل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً حقيقياً لا بد ان تفضي به قراءته الى الرضى عنه والسرور به . وبينما كنا منصرفين الى هذه التأملات الحلوة جاء الموت ولطمنا كلينا بجنحه . فرقدنا رقاد الحمى في وقت واحد . ثم انتبهتُ فوجدت نفسي وحدي . فانتِ الآن ترقدين بسلام في ارض ادونيس قرب بيبلوس المقدسة (جبيل) في جوار المياه المباركة التي كانت تفد اليها نساء الاديان السرية الماضية ليمزجنَ دموعهنَّ بمائها . فيا ايتها الروح الصالحة . اوحي اليَّ انا الذي كنتُ حبيباً اليكِ في حياتكِ تلك الحقائق التي هي اقوى من الموت والتي تُعلّم الانسان ان لا يخشاه بل ان يتمناه »

المقدمة الاولى

وتلي هذه الهدية المقدّمة الأُولى للكتاب وقد وضعها المؤلف للطبعة الثالثة عشرة من كتابهِ . وقد ردَّ رنان في هذه المقدمة ردًّا مختصرًا على معارضيه . وهم فئتان . الفئة الاولى منكرو الوحي الذين انكروا عليه الاعتماد على الكتب المقدسة في كتابة تاريخ المسيح لانهم لا يعتقدون صحتها . والفئة الثانية المعتقدون بهذه الكتب بلا بحثٍ ولا جدال وهم رجال الدين ورعيتهم من المؤمنين . وقد قال في ختام هذه المقدمة ما ملخصهُ

« اني مسيحي ولكنني لستُ كباقي المسيحيين . فانني اعترف بوجوب ان لا اتكلم عن كنيستي الاَّ برفق ولكن هل ذلك يقضي عليَّ بان اغمض عيني عن الحقيقة . وهل اهين حكومة من الحكومات اذا قلت انها لم تحسن تدبير الاميال المختلفة التي في نفوس الناس او اهين ديناً من الاديان اذا قلت انه لم يسلم من الاعتراضات الهائلة التي يقيمها العلمُ في كل يوم في وجه التعاليم التي من فوق الطبيعة . ان الديانات تسقط الواحدة بعد الاخرى لانها تخضع للقلب لا للعقل ولانه ليس في العالم قوة قادرة على خنق ذلك العقل

« ومع ذلك فاذا تمكن العقل من خنق الديانة فالويل لهُ في ذلك اليوم . صدقوني ان كرتنا الارضية تعمل في عمل عظيم سيؤدي الى نتيجة عظمى . فلا تقولوا ان هذا نافع

وهذا غير نافع بل دعوها تعمل فان الطبيعة التي خصت الحيوان بغريزة لاتخطئ لم تضع في الانسان شيئاً يخدع. ولا تقولوا ان الاديان تخطئ كلما ارادت اقامة البرهان على وجود « اللانهاية » وتحديدها والزعم بانها تمثلها فانها اذا كانت تخطئ في ذلك فانها تصيب جداً كلما اكدت وجودها . واذا مزجت بذلك كثيراً من الاغلاط فليس ذلك بالشيء المذكور بازاء الحقائق التي تنادي بها . **وان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم اكثر معرفة بحقيقة الاشياء من ذلك المادي الذي يفسر كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة»**

وغني عن البيان ان المؤلف لم يوجه القول الاخير الا الى الماديين الذين ينكرون الاديان

المقدمة الثانية

اما المقدّمة الثانية فقد تكلم فيها عن المصادر التي استقى منها تاريخ المسيح . وهي خمسة (١) الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل (٢) الكتب المسماة « ابو كريف » من العهد القديم وهي الكتب التي لا تعتقد الكنيسة صحتها (٣) مؤلفات فيلون الفيلسوف الاسكندري الذي عاصر المسيح (٤) مؤلفات المؤرخ يوسيفوس المشهور الذي عاصر المسيح ايضاً (٥) التلمود وهو كتاب اليهود

قال المؤلف : اما مؤلفات الفيلسوف فيلون فانها خير مرشد الى الافكار الدينية التي كانت تختلج في نفس الامة اليهودية في ذلك الزمان . ولكن من سوء الحظ ان فيلون كان يعيش في اقليم غير الاقليم الذي ظهر فيه المسيح (اي مصر) وكان عمر فيلون اثنتين وستين سنة لما بلغ يسوع اشده واظهر روحه . وكان فيلون شديد الكراهة ايضاً لتعاليم الكتبة والفريسيين وقد عاش بعد يسوع عشر سنوات على الاقل . فيا لها من خسارة ان لا يكون قد ذهب الى الجليل وشاهد المسيح فانه لو فعل ذلك لكتب عنه ما يكفي ويشفي

واما المؤرخ يوسيفوس فانه كان يكتب لليونانيين والرومانيين الذين كانوا اصحاب السلطة على فلسطين ولذلك لم يكتب باخلاص كما كان يكتب فيلون لئلا يلقي التهمة على اليهود ابناء وطنه . وقد كتب ما كتبه عن المسيح ويوحنا المعمدان ويهوذا الغولونيتي باختصار وغموض فلم يفهم اليونانيون والرومانيون حقيقة الحوادث التي كان يشير اليها .

قال المؤلف . اما النقرة التي جاءت في كتابه عن المسيح فانها حقيقية واذا كان يوسيفوس قد كتب عن المسيح فانه لا يكتب الا ما كتب لان ذلك الاسلوب اسلوبه . ولكن القارئ يشتم ان يداً مسيحية قد اصلحت تلك النقرة وحذفت منها وزادت عليها شيئاً

ولا سيما هذه الكلمة التي جاءت فيها وهي« اذا كان يجوز ان يُسمى انسانًا »والتي لولاها لكان كلام يوسيفوس شهادة على رجال الدين لا لهم . ومما يرجح هذا الظن ان المسيحيين في القرون الاولى اتخذوا كتب يوسيفوس تاريخًا رسميًا لحوادث بلادهم فغير غريب ان يكونوا قد نشروا في القرن الثاني للميلاد طبعة منقحة من جميع كتبه . ومهما يكن من هذا الامر فان اهمية هذه الكتب في كتابة هذا التاريخ لا تخفى على احد لان هذا المؤرخ اليهودي يرينا فيها بكثرة تفاصيله هيرودس وهيروديا وانتيباس وفيليبوس وحنانيا وقيافا و بيلاطس كأنهم اشخاص احياء بيننا

ثم تكلم المؤلف عن اسفار الابوكريف وعن الاناجيل والتلمود كما تكلم عن المؤرخين اليهوديين . فقال ان بابياس لم يسمع بوجود انجيل يوحنا ولكنهُ يقول ان الرسول بطرس كتب انجيلاً فلعلهُ هو . اما متى فلا يجاريه احد في نقل خطب السيد ودقة حفظها كما ان مرقص لا يجاريه احد في دقة نقل الحوادث وتفصيلها بتأكيد واثبات . ثم ردَّ المؤلف على الذين لا يعتمدون على الكتب المقدسة فقال ان المسيو سبرنجر كتب تاريخ حياة صاحب الشريعة الاسلامية واعتمد فيها على الحديث النبوي فلماذا لم يعارضه المعارضون فان هذا كذلك . واذا قام غدًا رجل لكتابة تاريخ الفلسفة اليهودية في القرون التي تقدمت ظهور السيد وتلته ببضعة قرون فهل يعترضون على هذا الكاتب اذا نسب الى الفلاسفة اليهود هلل وشاماي وغمالائيل الاقوال التي ينسبها اليهم كتاب المشنا والجمارة مع ان هذين الكتابين لم يُكتبا الاَّ بعد موت اولئك الفلاسفة ببضعة قرون

ثم ردَّ على الذين يقولون بالعجائب فانكرها وقال ان الذي يعتقد بها ويروم جعل هذا الاعتقاد قاعدةً لمباحثتي ومناظرتي فلا يباحثني ولا يقرأ كتبي لاننا لا نتفق ابدًا . ثم وصل الى المصدر السادس الذي اعتمد عليه في كتابة كتابهِ فقال هذا القول الذي يُعدُّ تاريخًا لذلك الكتاب .

« تلك هي القواعد التي بنيتُ عليها كتابي . ولكني اضفتُ الى المصادر التي تقدَّم ذكرها مصدرًا جديدًا وهو زيارة الاماكن التي حدثت تلك الحوادث فيها فكانت لي نورًا مرشدًا . فان البعثة العلمية التي عُهدت اليَّ ادارتها بين عام ١٨٦٠ و١٨٦١ للتفتيش عن آثار فينيقيه وارتياد بلادها اقتضت اقامتي مدة على حدود بلاد الجليل والسياحة فيها مرارًا . فطفت في هذا الاقليم الانجيلي من كل الجهات وزرت اورشليم وحبرون والسامرة وكل مكان لهُ علاقة بتاريخ المسيح . وقد يخيل للبعيد عن تلك الاماكن ان الحوادث

المسيحية الاولى حدثت في فضاء خياليّ لا حقيقة له ولكن لما زرتُ تلك الاماكن تجسمت فيها تلك الحوادث امامي تجسماً ادهشني . فقد كان الائتلاف تاماً بين النصوص الانجيلية والاماكن المذكورة . واذ نظرتُ تلك الاماكن الطبيعية الجميلة وقابلتُ بينها وبين روح الكمال الموصوفة في الانجيل شعرت بانطباق هذه على تلك وحينئذٍ احسست كأنّ وحياً اوحي اليّ . **فتأملت فوجدتُ امامي انجيلاً خامساً مفتوحاً وهو انجيل الطبيعة** . فصرت اقرأ فيه . ولما كنت انتقل منهُ الى انجيلي متى ومرقص كنت ارى بين السطور صورة شخص عظيم حيّ . فلما جاء الصيف صعدتُ الى غزير في لبنان لاستريح قليلاً وهناك كتبت بسرعة وصف تلك الصورة العظيمة التي ظهرت لي فكان منها هذا التاريخ . ثم نزلتْ بي مصيبة اليمة اضطرتني الى تعجيل سفري (وفاة اخته) فسافرت ولم يكن باقياً عليّ من هذا الكتاب غير بضع صفحات . فانا اذاً قد كتبت هذا التاريخ في مكان قريب من الامكنة التي عاش يسوع فيها في كوخ ماروني دون ان يكون حولي سوى خمسة من الكتب او ستة . ولما عدت الى بلادي اخذت اصلح واكمل تلك الصفحات التي سطوتها بسرعة

وفي ختام هذه المقدّمة يقول ما خلاصتهُ « واذا كان يجب على الكاتب ان يكون ميالاً للموضوع الذى يكتب فيه ليجيد فيه ويحسن في شرحهِ فان ذلك لا ينقصني . ولا اجهل انه يجب على الذي يتصدى لتاريخ دين من الاديان امران . الاوّل ان يكون قد آمن به اولاً والاَّ فانهُ لا يفهم شيئاً من محاسنه ولا يُدرك ما فيه من مطمّنات النفوس ومُرضيات الضمير البشري . وثانياً ان يكون قد صار ممن لا يؤمنون به ايماناً مطلقاً من غير شرط ولا قيد لان الايمان المطلق لا ينطبق على العلم والتاريخ لكونه يوجب التسليم والعلم والتاريخ لا يعرفان تسليماً . **ولكن الحب قد ينشأ في القلب من غير ايمان** . واذا كان الانسان لا يعتقد بصور الامور التي تستوجب عند الناس العبادة والايمان فان ذلك لا يمنعه من **الاعجاب بما في تلك الامور من الجمال** . اما الالوهية فانها لا تنفد مهما تكرّر ظهورها لان الله قد ظهر قبل يسوع المسيح وسيظهره بعده . وظهوره سواءٌ كان كبيراً او صغيراً فانه من طريق واحد وهو ارادته المودعة في الضمير البشري . **فليس يسوع اذاً خاصاً بالذين يسمون انفسهم تلامذته ولكنه شرف عام للجميع اي لكل من له قلب انسان** . وما عظمته ومجده ان يوضَع خارج دائرة التاريخ ولكن ان يوضع في داخلها . **وان اصح عبادة تقدم له هي اظهار ان التاريخ البشري غير مفهوم بدونه** »

المقدمة الثالثة

لمحة من تاريخ الحركة الدينية في العالم

وقد جعل المؤلف هذه المقدمة الثالثة تمهيداً لموضوع الكتاب فبحث فيها عن الحركة الدينية في العالم منذ انشائه فقال ان التمدن القديم الذي نشأ في الصين وبابل ومصر قد رقى الاديان بعض الشيء لان الاديان في مصر وسوريا واشور والصين كانت تحتوي كثيراً من المبادىء الادبية ولكن الاوهام والخرافات كانت كثيرة فيها ولذلك لم يكن ممكناً ان يصدر عنها فكر عظيم . وكيف تصدر الآداب والحرية عن نسل ما فتئ ذليلاً مستعبَداً منذ وجوده

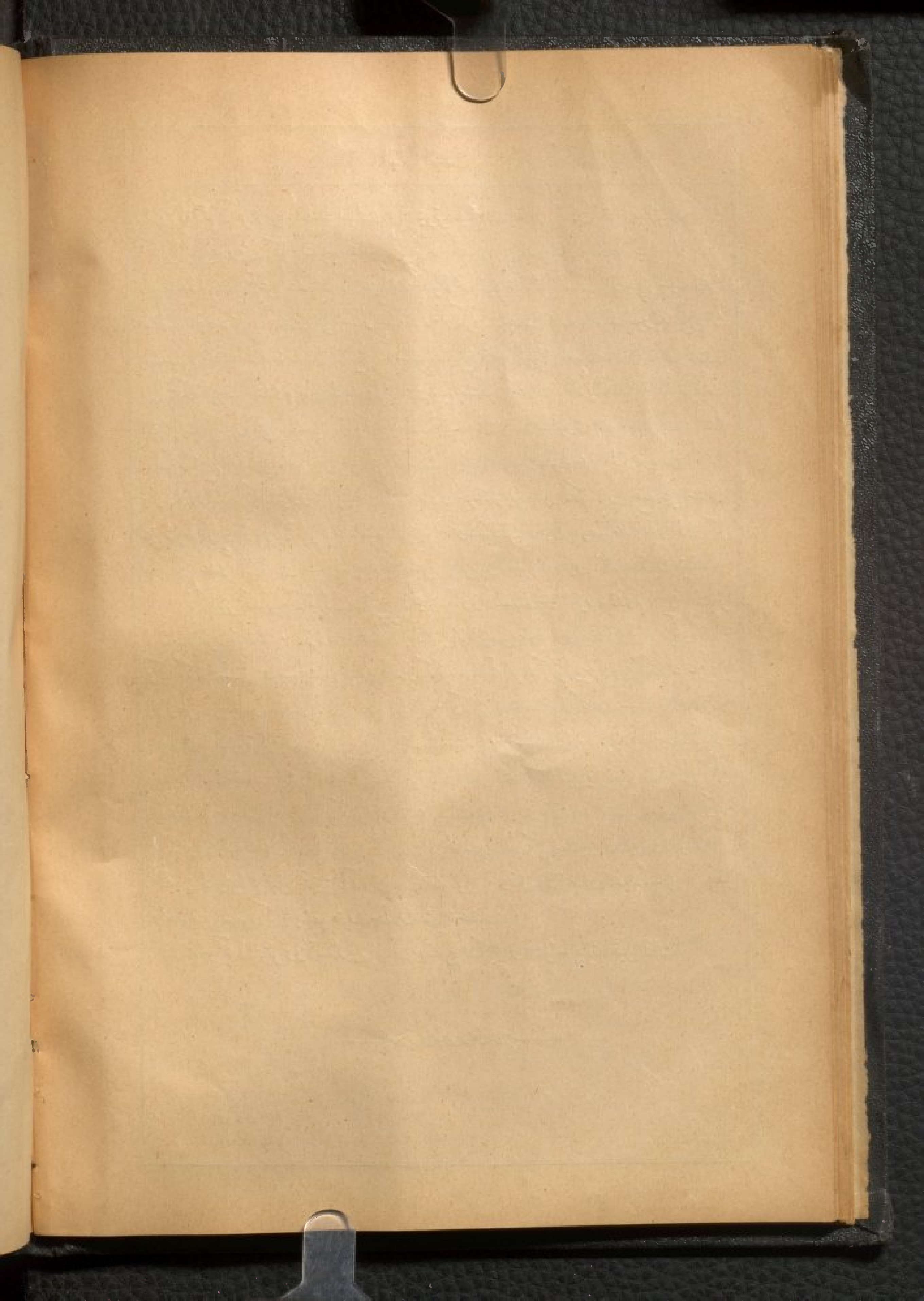
واما النسل الذي صدر عنه الايمان والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزلية فهو نسل هنود اوروبا والساميين . ويريد بالساميين جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية (العربية والسريانية والعبرانية والارامية والكلدانية والاشورية والحميرية) . فمن هذين النسلين (هنود اوروبا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية . اما هنود اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحناناً وعواطف جدية اي عواطف من الزم لوازم الآداب والدين . ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية

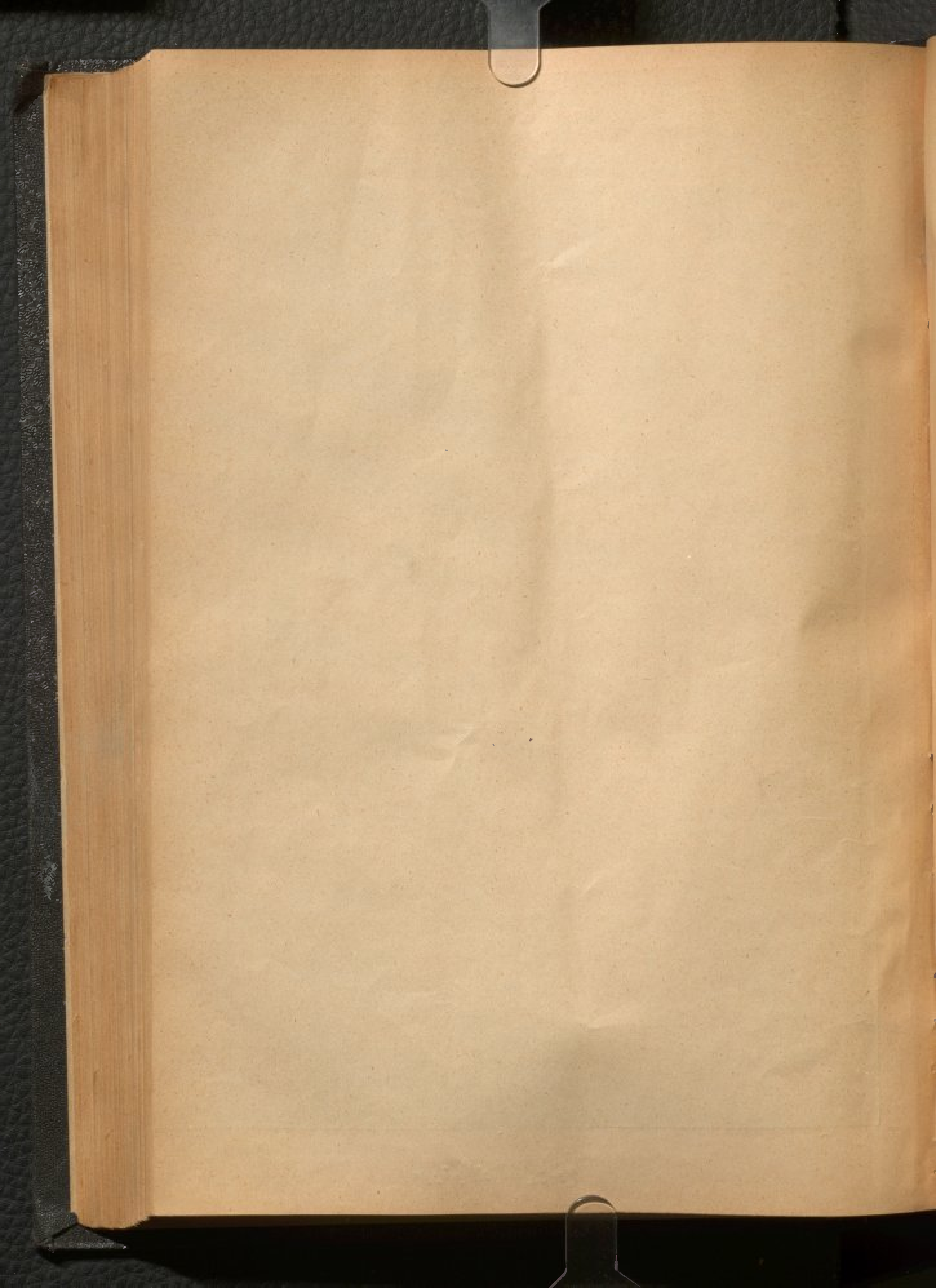
فالذين اعدّوا اذاً سبيل الدين الانسانية في العالم هم **اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته** . وكان من اخصّ مزاياهم انكارهم على سوريا اديانها المادية المبنية على اللذة ثم بساطة العبادة لانهم لم يتخذوا هياكل ولا اصناماً . وكان في جملة قبائلهم قبيلة بني اسرائيل ولا يخفى ان هذه القبيلة كانت ذات صلات قديمة بمصر وقد اقتبست من المصريين اشياء يعسر على التاريخ حصرها وذلك مما زاد في كراهتها الوثنية . فهذه القبيلة تمَّ لها في ذلك الزمن الحصول على «توراة» اي شريعة مكتوبة على الواح حجرية وفيها مبادىء ادبية حقيقية واصول المساواة الاجتماعية . وكان لهذه القبيلة شيوخ ممتازون بالمعرفة والشعب يستشيرهم في المسائل المعضلة وكانوا يُدعون انبياء . اما كهنتهم فانهم كانوا يُشبهون الكهنة الذين تقدموهم ولا يمتازون عنهم الاّ بان الشؤون الكهنوتية عند كل واحد منهم كان مرجعها الى رأيه . وكان الانبياء

الذين تقدّم ذكرهم من حفاظ المبادئ الديموقراطية القديمة التي كانت خاصة بالقبيلة ولذلك كانوا يكرهون كل تنظيم سياسي يُرام ادخاله الى بني اسرائيل لجعلهم كباقي الامم التي تليهم هذا فضلاً عن عدائهم للاغنياء . فهؤلاء الشيوخ كانوا السبب الاصلي في تقدّم الشعب اليهودي في الدين على سائر الشعوب . ولكن لما هجمت السلطة الاشورية على ذلك الشعب وسحقته لاصغائه الى نصائح أولئك الشيوخ قام الشيوخ اصلاحاً لخطاءهم ينادون بان مملكة يهوذا ستدوم الى الابد وان اورشليم ستكون عاصمة الدنيا كلها . ثمّ طرأت انقلابات كثيرة على الشعب اليهودي اخصها قيام الدول الكبرى في آسيا بعضها يتلو بعضاً فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فصرفوا نظرهم عن الارض الى السماء وازدادوا تمسكاً بالشؤون الدينية . وقد صاروا حينئذٍ يرضخون لكل نير يوضع على اعناقهم على شرط ان يحترم وليّ امرهم عاداتهم ودينهم . ومنذ ذلك الحين لم يعد عدواً لهم الا كل من كان عدواً للاله الواحد **ولم يعد لهم من وطن ولا شريعة غير الشريعة الدينية**

ثمّ ظهر كتاب دانيال فهاج اشجانهم وزاد املهم في قرب قدوم المسيح المنتظر لانقاذهم من ضيقهم . فازدادوا تمسكاً بالشريعة الموسوية وصاروا يقتلون كل من يخالفها . وكلما كانت تثقل عليهم يد الوثنيين الذين كانوا اولياء امرهم كانوا يزدادون انقطاعاً عن الارض ويوجهون انظارهم الى العالم الثاني . وكان العالم مشغولاً عنهم في ذلك الزمان بحوادثه الكثيرة فلم يلتفت الى ما كان يحدث عندهم . ولكن الامبراطورية الرومانية كانت حديثة النشأة اذ ذاك وقد قامت بعد حروب واهوال فكان الناس يتوقعون للعالم دوراً اسلمياً في عهدها . واما اليهود فانهم كانوا يتوقعون حينئذٍ بصبر فارغ قدوم « مسيا » المنتظر وكان كثيرون من صلاّحهم يقضون الليالي والايام حول الهيكل صائمين مصلين وهم يسألون الله ان لا يتوفاهم قبل تحقيق آمال شعب اسرائيل . وكان الانتظار شديداً حتى ان كل واحد من الناس كان يشعر بقرب حدوث شيء عظيم »

ثم جاء المنتظر ورقى الدين الى درجة من الكمال والسموّ لم يبلغها قبل ذلك





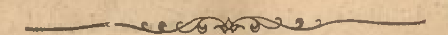


صورة ميلاد الطفل يسوع

الباب الرابع

في تاريخ المسيح

ملخص تلخيصاً ما كتبهُ الفيلسوف رنان



الفصل الاول

التاريخ المسيحي . وصف الناصرة وطن يسوع . مهد الديانة المسيحية

وُلد يسوع في الناصرة . وكانت قبله بلدًا خاملاً لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر لا في التوراة ولا في التلمود ولا في مؤلفات يوسيفوس . ولذلك كان معاصروه يسمونه «الناصري» . وقد كانت ولادته في عهد اغسطس قيصر وربما كان ذلك سنة ٧٥٠ من بناء رومه . اي انه ولد قبل السنة الاولى من التاريخ المسيحي الذي اصطلحت عليه اليوم الامم المسيحية ببضع سنوات .

ومن الراجح ان الناصرة لم تكن في زمن ولادته تختلف كثيرًا عنها اليوم . فان الهواء والجوّ لم يتغيرا في جميع بلاد سوريا عما كانا عليه يومئذٍ ولذلك لم يتغير شيء على الارجح من طرق بناء منازلها واتجاه دوَرها وشقّ شوارعها . ففي تلك الشوارع المفروشة بالحجارة وتلك الساحات الصغيرة التي هي ملتقى شوارع كثيرة تفصل الاكواخ والمنازل بعضها عن بعض كان يلعب الصبي يسوع . ولا ريب ان منزل يوسف كان شبيهاً بتلك الغرَف الصغيرة التي لا يدخلها النور الا من بابها والتي تُتخذ لكل شيء حتى الطبخ والنوم . ولا فراش فيها غير « حصيرة » على اطرافها بعض مساند « مخدات » موضوعة على الارض ووعاء او

وعائين من الفخار وخزانة مدهونة

وكانت الناصرة بلدة صغيرة قائمة في طيّة ارض منبسطة على متن بعض الجبال . اما سكانها فانهم يبلغون اليوم (في زمن رنان) اربعة آلاف نسمة فكأنها الناصرة القديمة لان المؤرخ يوسيفوس يقول ان اصغر قرى الجليل كان عدد نفوسها خمسة آلاف نسمة وان كان هذا القول لا يخلو من مبالغة . والبرد في الناصرة شديد في زمن الشتاء ولكن الهواء جيد جداً . وكانت الناصرة في ذلك الزمن شبيهة بكل قرى اليهود يومئذٍ اي انها كانت مؤلفة من منازل مبنية من غير هندسة ولا نظام ومنظرها شبيه بمنظر القرى الاسيوية . وربما لم تكن منازل الناصرة تختلف عن المنازل الحجرية المربعة القائمة في جهات لبنان العامرة والتي اذا اضيفت اليها اشجار الكرمة والتين المغروسة بجانبها كان لها منها منظر رائق . اما المكان الذي بُنيت فيه الناصرة فانه مكان شائق وليس في الدنيا كلها مكان افضل منه للتأمل في السعادة والراحة . ولا تزال هذه المدينة الى اليوم مقاماً جميلاً . اما سكانها فهم قوم الفوا اللطف والبشاشة . وحدائقها باردة خضراء . وقد وصف « انطونين مارتير » الناصرة في اواخر القرن السادس عشر فشبّه ارضها بارض الجنة من فرط خصبها . ولا يزال في غربي المدينة اودية خصيبة ينطبق عليها وصفه . اما العين التي كانت مركز الحركة في هذه المدينة وكان حولها السرور شاملاً فقد هُدمت ولا يجري الآن من نبعها سوى ماء كدر . واما جمال النساء الناصريات اللواتي يجتمعن حولها في المساء — ذلك الجمال الذي كان مشهوراً عنه في القرن السادس عشر انه هبة للناصريات من مريم العذراء فانه لا يزال يترقرق في وجوههنَّ . فهناك الشكل السوري الجميل في اتم خلقته . ولا شبهة في ان العذراء كانت تقف في صباها بين اولئك النساء حول العين ومعها اناء الماء لتستقي منها . وقد قال انتونين مارتير ان نساء اليهود يُكرمن المسيحيين في هذا المكان مع انهن يكرهنهم كرهاً شديداً في غيره . فكأنَّ هواء وطن السيد لطف اخلاقهنَّ . واذا نظرتَ في البغض الديني وجدته في هذا المكان اخف منه في سائر الامكنة

واما منظر الافق من المدينة فانه قصير ضيق ولكنك اذا صعدتَ الى الآكام المشرفة على المدينة انبسط امامك منظر جميل يسحر الالباب . فانه من الجهة الغربية يظهر لك جبل الكرمل ممتداً الى البحر وداخلاً فيه ويليه غيره من الجبال بينها وادي الاردن وسهول بيريا المرتفعة . اما في جهة الشمال فانك ترى جبال صفد متجهة نحو البحر وهي تستر عنك عكا وتُظهر لك خليج حيفا

فهذا كان افق يسوع · هذا كان في صباه المنظر الدائم امام عينيه · هذا هو مهد ملكوت الله وسرير الديانة المسيحية · فاذا بقي العالمَ مسيحياً في مستقبل الزمان وصار اكثر احتراماً لاصول الدين واشد رغبةً في استبدال الاماكن المقدسة المشكوك فيها باماكن حقيقية فما عليه الاَّ ان يبني كنيسة على هذه الآكام التى كان يسوع يجلس عليها و يشاهد العالم منها(١)هناك يجب ان تُقام الكنيسة الكبرى التي يجب ان يحجّ اليها المسيحيون من جميع اقطار العالم · هناك حيث يرقد يوسف النجار وألوف من ابناء الناصرة المنسيين يحق للفيلسوف ان يقف ويتأمل في مجرى حوادث العالم ليعزي نفسه عما يصادفه الانسان في هذه الحياة من الفشل والخيبة في اعزما يكون لديه ولكي يتحقق ان العالم سائر الى غرض الهي لا يصرفه شيء عنه مهما قام في سبيله من المصاعب والعثرات

الفصل الثاني

التعليم عند اليهود يومئذٍ · لغة يسوع

تلك هي المناظر الطبيعية الجميلة التي ربي يسوع بينها · ولقد نشأ يسوع في قريته وتعلم الكتابة والقراءة (انجيل يوحنا الاصحاح ٨ العدد ٦) وكان معلم المدرسة في القرى اليهودية يُدعى « الحزان » او القارىء في المعبد · ولا يحتمل ان يكون السيد قد تعلم اللغة اليونانية في صباه وانما كانت لغته اللغة السريانية ممزوجة بالعبرانية وهي اللغة التى كان يتكلمها اهل فلسطين في ذلك الزمان · اما اللغة اليونانية فقد كانت محرمة على اليهود · وقد حرم بعض روءسائهم من يتعلمها فقال « ان من يعلّم ابنه علوم اللغة اليونانية ومن يربي الخنازير سواءٌ في النجاسة » وسُئل احد رؤسائهم في اي وقت يجوز تعليم العلوم اليونانية للاولاد فاجاب « يجوز ذلك في كل وقت غير الليل والنهار لانه مكتوب انهُ يجب درس الشريعة في الليل والنهار » فكأنهُ اجابهُ لا يجوز درسها · ومع ذلك فقد كان بعض اليهود يدرسون العلوم اليونانية و يحاولون ادخالها الى الآداب اليهودية · واشهرهم نقولا داماس او الدمشقي الذي كان اشهر علماء عصره و يوسيفوس الذي قال عن نفسه انه مستثنى بذلك عن باقي اليهود · ولقد نشأت في مصر طائفة من علماء اليهود كانت تقتبس العلوم اليونانية وتنشرها ونشأ فيها الفيلسوف العظيم فيلون الاسكندري ولكن يهود فلسطين كانوا يمدون

---

(١) قد بُنيت اليوم هذه الكنيسة كما تمنى رنان

هذه الطائفة مفصولة عنهم . ولقد كان انفصالها تاماً حتى انه لم يرد لها ذكر في التلمود . وقد كان لزعيمها فيلون الذي اشرنا اليه تعاليم شبيهة بتعاليم السيد من حيث الدعوة الى اله المحبة ومحبة الله والاحسان والراحة في حضن الله

واذا كان السيد لم يقف في صباه على الفلسفة اليونانية وعلومها فلا ريب انه وقف على فلسفة هلل الفيلسوف اليهودي الذي عاش قبل ظهوره بخمسين عاماً معيشة الفقر والضعة ودماثة الاخلاق وكان يعارض الكتبة والفريسيين

الفصل الثالث

امل بني اسرائيل في الاستقلال حين فتح بابل . خيبة املهم حين دخول الرومانيين الى آسيا . ابناء هيرودوس حكام فلسطين تحت سلطة الرومانيين في نحو زمن المسيح . ثوران النفس اليهودية لهذه العبودية . حكام اورشليم الرومانيين . خروج الغولونيتي احتجاجاً على الاحصاء

اما الوَسط المضطرب الذي ربي فيه السيد فلا مثيل له في الاضطراب في تاريخ العالم غير الوَسط الذي نشأت فيه الثورة الفرنسوية . فان الشعب اليهودي صار منذ سبي بابل مهضوماً مضطهداً فانتبهت قوى نفسه كلها واتجهت الى غرض واحد وهو الانتقام من اعدائه وبسط جناح سلطتهِ على جميع اقطار العالم طبقاً لما كان يجيء في نبوءات انبيائه . ولو كان الشعب الاسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين احدهما الروح والآخر الجسد وانه اذا تعذبت الروح في هذه الحياة فانها تستريح في الحياة الثانية ليسرى عنه شيء كثير مما كان يجده من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الادبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله . ولكن الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية في نفس هذا العالم . فانه يؤخذ من اقوال انبيائهم وشيوخهم ان الصالحين يعيشون في ذاكرة الله والناس الى الابد وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ويكونون معروفين عند الله . اما الاشرار فلا . هذا كل جزاء اولئك وعقاب هؤلاء . ويزيد الفريسيون على ذلك ان الصالحين يُنشرون في هذه الارض يوم القيامة ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس ويصبحون ملوك العالم وقضاته وهكذا يتنعمون بانتصارهم وانخذال الاشرار اعدائهم . وعلى ذلك تكون مملكتهم هذا العالم نفسه

فلما انتصر قورش الفارسي وفتح بابل خُيل لليهود انه قد انفتح في وجههم باب جديد

وعاد اليهم ملكهم . فتآخى كهنة الفرس وكهنة اليهود . ولكن السلطة اليونانية والرومانية لم تلبث ان دخلت الى آسيا بقوة وشدة فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فعادوا الى احلامهم الماضية من دعوة «مسيا» لانقاذهم واعادة ملكهم وتحقيق نبوءات انبيائهم . وقد اشتدّ ذلك عليهم بعد خروج البلاد من يد اسرة الملك هيرودس الى يد الرومانيين . فان هذا الملك العظيم الذي يشبهه بعضهم بسليمان كان قد ولى ابناءه الثلاثة جميع بلاد فلسطين تحت سيادة الرومانيين فكان شانهم معه شان امراء الهند المستقلين اليوم . فكان ابنه انتيباس واليًا لبلاد الجليل وبيريا وكانت الناصرة تابعة لولايته . وابنه فيليبوس واليـًا لغولونيتيا وباتانيا . وابنه ارخيلاوس واليًا لاورشليم . وقد توفي هيرودس الكبير في نفس السنة التي ولد المسيح فيها . وبعد انقضـاء عشر سنوات على وفاته عزل اوغسطس قيصر ارخيلاوس ابن هيرودس والي اورشليم لانه كان ضعيف الرأي سيء الادارة ثم ضمّ كل ولاية يهوذا الى السامرة وادوم وجعلها تابعة لسوريا حيث كان يقيم بوبيلوس سولبيسيوس كيرينيوس احد اعضاء مجلس الشيوخ الروماني نائبًا امبراطوريا من قبل القيصر وحاكمًا على تلك القطعة كلها . ومن هذا الحين قضي على استقلال مملكة اورشليم . فزاد ذلك في يأس اليهود واثار ثائرهم لانهم كانوا يعتقدون الرجس والنجاسة في التمدن الروماني الذي تسلط عليهم . وقد ولي اورشليم اولاً كوبونيوس ثم جاء بعده ماركوس امبيفوس فأنيوس رَوفوس ففالاريوس كراتوس . ووليها بعدهم في عام ٢٦ للميلاد بنطس بيلاطس صاحب الشان في الحوادث المسيحية الاولى . وكان هؤلاء الولاة تابعين لوالي سوريا ولا شغل لهم غير اخماد نار الفتنة التي كان يضرمها اليهود تحت اقدامهم

ذلك ان غلاة الدين من انصار شريعـة موسى قاموا في ذلك الزمان يعارضون السلطة الرومانية فكانوا يكسرون النسور التي هي اعلام رومة ويحطمون التماثيل التي اقامتها اسرة هيرودس لانها في نظرهم آثار وثنية لاسيما وان الذين نصبوها لم يراعوا في صنعهتهـا الشريعة الموسوية . وكان الموت عقاب كل من يُقدم على اثارة الفتنة ومقاومة السلطة ولكن اولئك المتحمسين في دينهم كانوا يستعذبون الموت في الدفاع عن شريعتهم . فنشأ عن ذلك ظمأ الى الموت والاضطهاد سببه الرغبة في الدفاع عن الشريعة . فالف اثنان من علماء الشريعة يُدعيان يهوذا بن ساريفيا ومتياس بن مرغلوثه حزبًا لمقاومة « اصحاب البدع» الرومانية والحملة على تلك الهيئة فامسكها الرومانيون وعذبوهما وقتلوهما ولكن حزبهما بقي بعدهما . وكانّ النفوس كانت قد بلغت بهذه الاضطهادات اقصى درجات

الهياج والاضطراب فظهرت يومئذ شيعة (الكنانميين) او « القتلة الدينيين » الذين كانوا قد آلوا على انفسهم ان يقتلوا كل رجل يحط من شان الشريعة الموسوية امامهم . وظهر ايضاً اناس يدّعون صنع العجائب وشفاء الامراض فكان الشعب يقبل عليهم لان الافكار كانت مستعدة بالتحمس الديني لتصديق كل ما يجيء من فوق الطبيعة

ومن الحركات التي كان لها تاثير عظيم على سير الحوادث في ذلك الزمان حركة يهوذا الغولونيتي او الجليلي . فان كيرينيوس والي سوريا وفلسطين امر في السنة السادسة من الميلاد باحصاء عدد نفوس اليهود . وكان اليهود لا يجهلون ان الاحصاء مقدمة لوضع الضرائب على السكان واقد اشتدّ هياجهم على الملك والنبي داوود يوم امر باحصاء سكان مملكته وتهدده الشيوخ بغضب الله . وذلك لانهم يعتبرون دفع الضرائب ضرباً من ضروب الكفر بالله لان الله هو سيد الامم وحده واليه وحده تُدفع الضرائب لا الى ملوك الوثنيين . ولذلك كانوا يعتبرون اموال الخزانة العمومية اموالاً مسروقة كما جاء في تلمود بابل

فلما درى اليهود بامر كيرينيوس بالاحصاء بلغ الهياج اشده فقام منهم رجلان احدهما يُدعى يهوذا وهو من قرية جماله القائمة في شرقي بحيرة طبريا وثانيهما فريسي يدعى صادوق ينكران دفع الضرائب ويحرضان الناس على الامتناع عن دفعها . وكان من مبادئهما ان حرية الانسان افضل من حياته فاذا كان احد الحكام يزعم انه سيدي وولي امري ويوجب عليّ دفع ضريبة له فاولى بي ان اموت من ان اعترف بسيادة عليّ غير سيادة الله . وقد فشا امر هذا الحزب في اليهودية ولكن يوسيفوس لم يذكر عنه شيئاً كثيراً مخافة ان يلقي التهمة على ابناء وطنه انما وضع يهوذا الغولونيتي عند كلامه عنه في جملة فلاسفة اليهود واعتبره مؤسساً لمبداء رابع غير مبادىء الصدوقيين والفريسيين والايسنيين مع ان فكرته بسيطة لا تستوجب كل هذا الاهتمام . وذلك مما يدل على انه كان ليهوذا هذا مطامع ومطامع سياسية غير التي تقدمت . ولا يبعد ان يكون قد جعل نفسه رئيس حزب غرضه الاشتغال بما يختص بمجيء المسيح المنتظر . ولقد لقي يهوذا الغولونيتي الموت جزاء هذه الثورة ولكن حزبه بقي حياً بعده . ولا نعلم هل رآه يسوع وشهد نهضته ولكن مما لا ريب فيه انه قد وقف على مبادئه . ولذلك يقول بعضهم انه لما جاء قوم الى السيد ليجربوه وسألوه عن الجزية فاجابهم « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان يريد بذلك ان مملكتي غير مملكة يهوذا الغولونيتي واصلاحي غير اصلاحه

وهكذا كانت بلاد الجليل في ذلك الزمان عبارة عن تنور حام تضطرب فيه العناصر

المختلفة . وكانت السلطة الرومانية لا تطأ على مثيري الخواطر الا متى استفحل امرهم لان الرومانيين كانوا يمنحون محكوميهم من الحرية اكثر مما يمنح الاوروبيون محكوميهم في هذا الزمان . وحسبنا دليلاً على ذلك ان البوليس الروماني لم يعترض السيد المسيح في اثناء تعليمه الا حين رُفعت عليهِ الشكوى من اليهود . فكانت هذه الحرية باعثاً على زيادة الافكار اليهودية انتشاراً

الفصل الرابع

شمال فلسطين وجنوبها . وصف طبيعتها . بدء تعليم يسوع

اما فيما يختص بالافكار المسيحية فيمكن قسمة اليهودية الى قسمين . قسم الشمال الذي فيه الجليل ومن ضمنه الناصرة والقسم الثاني اورشليم . على ان كل الاعمال الحسنة والمبادئ السامية صدرت من القسم الاول وهو الشمال . اما اورشليم فكانت متمسكة بالتقاليد القديمة كل التمسك . من الشمال خرجت الكنعانية المتواضعة ومريم المجدلية و يوسف الرؤوف والعذراء مريم . ولولا الشمال لم تتسلط اورشليم على العالم

وكانت الطبيعة في تلك الجهات الشمالية في غاية الجمال ومنتهى الرونق فكأنها خُلقت لتملي على الناس وتوحي اليهم نور المبادئ الادبية السامية . فانه بينما ترى نواحي اورشليم صلعاء جرداء تقريباً ترى الجليل ونواحيها في غاية الخصب والاقبال . فارضها تكتسي في شهري مارس وافريل (اذار ونيسان) بساطاً جميلاً منتظماً من الازهار الملونة بالوان لا مثيل لها . وحيواناتها صغيرة ولكنها في غاية اللطف والدعة . وربما وقعت بعض طيورها على ساق عشبة صغيرة فلم تُملها من خفتها . بل ربما دنت منك حتى صارت بين قدميك تقريباً وذلك لالفتها وعدم نفورها . وقد ترى في السواقي سلاحف ذوات اعين قوية النظر لطيفة و بطاً ترى عليه لوائح الحياء والرصانة معاً يترك كل خوف ويدنو منك . ولستَ تجد في جميع بلاد العالم بلداً جباله اجمل من جبال تلك الجهات . ولا ريب ان يسوع كان يحب الجبال من حبه لجبال وطنه . فانه كان كثير الصعود الى الجبال وقد القى عليها اسمى خطبه وعمل فيها اعظم اعماله . وكان اذا صعد اليها تغيرت هيئته وازدادت نفسه الكريمة بلاغة وحكمة

ففي وَسط هذه الطبيعة الضاحكة بدأ يسوع يعلّم فكان تعليمه عبارة عن نزهة دائمة وسرور دائم . ويقال انه كان يسير احياناً الى القفار المحرقة التي تلي بلاد الجليل ويقيم فيها

للتأمل والافتكار . ولكنه هنالك كان لا يجد الا اله ايوب اله القوة والصرامة والعقاب .
اما حين رجوعه الى الجليل فانه كان يجد تحت سمائها وَسط آكامها الخضراء ومروجها الفيحاء
اله المحبة والسلامة اباه وابانا الذي في السموات . وكان في كل عام يحجّ مرة الى اورشليم
مع حجاج الناصرة وهناك يختلط بشعبه ويقف على ما كان يجول في نفسه . فكأنّ الحج
كان عبارة عن التقاء ابناء الشعب الاسرائيلي في اورشليم مرة في كل عام

ولما مات يوسف انتقلت مريم العذراء بولدها الى قانا الجليل . وربما كان اصل العذراء
نفسها من قانا هذه . اما هذه القرية فقد كانت قائمة على مسيرة ساعتين ونصف من
الناصرة . وفيها صرف المعلم العظيم قسماً من شبابه وظهرت اول اعماله

وكان السيد نجاراً كيوسف ولم يكن ذلك مما يحط شان الانسان في ذلك الزمان اذ
قد جرت عادت اليهود يومئذٍ بوجوب تعليم كل منقطع الى الشؤون العقلية صناعة ما .
ولذلك كان كثيرون من اكابر علماء اليهود يُحسنون صنائع اليد مثل « ربي يوحنان »
الذي كان اسكافاً « وربي اسحق » الذي كان حداداً والرسول بولس الذي كان صانع
بسط وسجادات . ولا يعلم احد كيف ابتداء يسوع تعليمهُ ولكن الثابت انه اتخذ فيه طريقاً
جديداً . وقد راينا ان يهوذا الغولونيتي كان يفضل الموت على ان يلقب احداً «سيد الامة»
غير الله وحده ولكن يسوع ترك لقب « السيد » لمن شاء ان يتلقب به ولقب الله بلقب احلى
منه اعني : ابانا . وعلى هذا الاساس بنى تعليمه السامي الذي يجعل البشر اخوة على الارض
والخالق في السماء اباً لهم رؤوفاً بهم شفوقاً عليهم تواباً رحيماً يُطلع شمسه على الخطاة
وعلى الصالحين

ولم يكن يسوع يُعلم ضد الشريعة الموسوية ولكن كان يظهر من كلامه عنها انه كان
يراها غير كافية . ومما ساءهُ منها انها تضع وسيطاً بين الانسان وبين الله والاشتغال باعراض الامور
عن جواهرها . ولذلك كان عدواً لدوداً للتفاصيل الدينية التي كانت تخنق الاصل وكان ضد
الكهنة الذين لم يكن لهم شغل غيرها

الفصل الخامس

يوحنا المعمدان وما رواه المؤرخ يوسيفوس عن حادثته

وفي هذا الوقت انتشرت في جميع انحاء فلسطين شهرة رجل عظيم كان يعيش في البرية مرتدياً بجلود الحيوانات ومغتذياً من العسل والجراد البرّي · وهذا الرجل هو يوحنان او يوحنا الملقب بالمعمدان · وكانت اقامته على شاطئ نهر الاردن في القفار التي تليه · وقد بلغت شهرته اعظمها في سنة ٢٨ من الميلاد المسيحي اي بعد انقضاء ١٥ عاماً على ملك طيباريوس · وكان يوحنا مهيباً كبير النفس جريء القلب فكان يذم الكهنة الاغنياء الذين يحبون المال والفريسيين والكتبة ويدعو الفقراء والضعفاء الى التوبة للنجاة من الضيق والذل ولان ملكوت الله صار قريباً · فتهافت الشعب عليه ليعمدهُ في الاردن بحسب طريقته الجديدة · وكان في جملة الذين قصدوه الشاب يسوع وتلامذته الاولون · وقد اقام يسوع حيناً بازاء يوحنا المعمدان ثم دخل الى البرية القريبة من هناك ليفتكر بما كان في نفسه وما كان يقوله يوحنا · وكان مشهوراً لدى اليهود حينئذٍ ان تلك البرية مسكن للابالسة والشياطين فقالوا ان ابليس جاء يجربه · وبعد اقامته في البرية اياماً قضاها في التأمل والافتكار خرج منها فسمع ان الحكومة قبضت على يوحنا المعمدان وزجته في السجن · فعاد بتلامذتهِ الى الجليل لئلا يُتهم بالاشتراك في حركة يوحنا · اما سبب القاء القبض على يوحنا فقد ذكره المؤرخ يوسيفوس بالتفصيل وهذه خلاصته

لما كان يوحنا في الجهات التابعة لبيلاطس لم يمسه بيلاطس بسوء على ما يظهر ولم يضايقهُ · ولكنه لما اقام في جهات الاردن واخذ يعمّد ويعلّم تحمس الشعب لكلامه البليغ وسلطته على النفوس حتى قد حسبوه ايليا عاد ونُشر · فخشي انتيباس حاكم تلك الجهات عاقبة هذا الامر لان الحركة السياسية كانت ظاهرة في اقوال يوحنا من ان اكثرها كان موجهاً الى ذم ملوك العالم وحكامه · فبقي انتيباس يراقبه حتى حدث له معه حادث شخصي حمله على سجنه

وذلك انه كان لهيرودس الكبير حفيدة تدعى « هيروديا » وكانت طماعة قاسية محبة للخلاعة والسلطة فازوجها جدها هيرودس الكبير من عمها هيرودس ابن مريان . وربما كان ذلك بغير رضاها لان زوجها كان محروماً من حق الملك والولاية · فاصبحت هيروديا بذلك احط من نساء اقربائها شأناً لان زوجها ساقط الحق

لا يملك ابدًا وهي لطمعها كانت تريد الوصول الى المُلك مهما بذلت في سبيله · وكانت هيروديا جميلة فعزمت على اتخاذ انتيباس الذي تقدم ذكره وسيلة الى غرضها · وكان انتيباس هذا مقترنًا باميرة عربية وهي ابنة الحارث ملك بتره وامير القبائل الضاربة ماوراء بيريا مملكة انتيباس · فسعت هيروديا لدى انتيباس في ان يطلّق امرأته العربية وهي تتزوج به · فرضي انتيباس بذلك من حبه لها · فدرت بهذا الامر زوجته العربية فعزمت على الفرار · فجاءت زوجها واخبرته انها تريد السفر الى ماكور وهي قلعة حصينة على حدود مملكة ابيها وذلك للسياحة قليلاً في اراضيه فاجابها زوجها الى ذلك وبعث معها جندًا لحراستها · اما ابوها فقد كان اعدَّ لها وسائل الفرار من قلعة ماكور على يد القبائل التي كانت ضاربة هناك على الحدود فاخذت تنتقل من يد قبيلة الى يد قبيلة تليها حتى اوصلوها الى قاعدة مملكة ابيها · ثم اقترن انتيباس بهيروديا وكان الزواج بالاقارب الى هذا الحد محرمًا عند قدماء اليهود وقد سبق لاسرة هيرودس مثل ذلك لان اليهود كانوا لا يزوجونها ولا يتزوجون منها لكراهتهم لها

فلما انتشر خبر زواج انتيباس بهيروديا سخط قدماء اليهود حفاظ التقاليد القديمة ونادى يوحنا المعمدان ان هذا الزواج غير جائز · فامر عند ذلك انتيباس بالقبض عليه وسجنه فسجنوه في قلعة ماكور التي تقدم ذكرها وكان انتيباس قد استولى عليها بعد فرار زوجته العربية منها

وكان سجن يوحنا في السنة التاسعة والعشرين من ولادة يسوع

الفصل السادس

التعاليم المسيحية

ولما عاد يسوع من جهات الاردن اشتدت سلطته على الشعب وعلى تلامذته فاخذ يعلمهم ويعظهم · وقد عدل في تعاليمه عن مقاومة الهيئة الحاكمة وقضى باحترام السلطة والملوك اذ اوجب دفع الجزية الى قيصر ولكن هذا الاحترام كان « سطحيًا » ومقرونًا بشيء من التهكم · ذلك لان الملوك واصحاب السلطة لا سلطان لهم على نفوس الناس · وليس الحرية والحق من شؤون هذا العالم المملوء بالشرور بل من شؤون العالم الثاني · فليس ثمت ما يوجب كل هذا الاهتمام بشؤون هذا العالم بل يجب احتقار الدنيا وملاذها وتوجيه قوى النفس كلها الى الحياة الثانية · وبهذا التعليم وضع للنفوس في هذا العالم اساس حرية

جديدة مستقلة عن كل سلطة وجعلها مستريحة هادئة مهما عصفت بها عواصف المصائب والاحزان . ولا يُنكر ان بعضاً من فلاسفة اليونان كالزينونيين مثلاً استطاعوا انشاء هذه الحرية في نفوسهم وعاشوا بها احراراً في وسط الظلم والاضطهاد اذ لم يكونوا يعبئون بمصاب او يبالون بالم ولكن لم ينقطع احد منهم عن هذا العالم انقطاع المسيحيين و يحسب الدنيا وطناً وقتياً له والآخرة الوطن الحقيقي

ومع ذلك فربما لم يسلم هذا التعليم من اعتراض قوي . وهو ان وجوب اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله قد يكون اقوى وسيلة لمساعدة الظالم واحتمال نير المظالم وفي ذلك ما فيه من انتشار فساد الاحكام والرضوخ للحكام الظلام لانه يقضي باحترام كل سلطة تقوم ولو كانت جائرة فاسدة . ولذلك لا اخطىء اذا قلتُ ان الديانة المسيحية قد اضعفت من هذا الوجه واجبات الوطني لوطنه وساعدت في اسلام العالم الى السلطات الجائرة . ولكنَّ ما انشأته للنفوس من الحرية في العالم وجعلها المسيحيين الاولين في القرون الثلاثة الاولى جمعيات حرة في وسط الاضطهاد لا حاجة بها الى السياسة ولا دخل لها فيها قد محا ذلك النقص

فالذي امتازت به تعاليم المسيح انما هو سموها عن العالم وشؤونه وغلوها في جو الفضيلة والكمال البعيد . وما الحكومات بموجبها سوى قوات مادية ارضية لا قدر لها ولا قيمة . وهي شديدة على العظمة والعظماء والغنى والاغنياء . ولكن اذا كان يسوع قد حارب اولئك وهؤلاء فما حاربهم ليصرف غناهم وعظمتهم الى غيرهم ولكن للاشاة تلك العظمة وهذا الغنى لانهما اصل كثير من الجرائم والشرور . وكان اذا اخبر تلامذته بانه سيكون له شان مع الشرطة تكلم عن ذلك بلهجة تدل على انه لم يكن يحسب نقيصة ولا عاراً الوقوف لدى الشرطة والذهاب للمحاكمة . ولم يوصِ تلامذته قط بمقاومة الشرطة ومقابلة القوة بالقوة لانه كان يعلم ان الشر لا يُقاوم بالشر وان الانسان لا يتغلب الا بالاتضاع والمسالمة وانكار الذات والعذاب . وهذا الفكر فكر تعذب الانسان واحتمال عذابه ليقوى به على القوة المادية التي تعذبه فكر سامٍ خاص بيسوع وحده

ولكن اذا كان العظماء والكبراء والاغنياء والكتبة والفريسيون والكهنة لا يدخلون ملكوت الله لانهم مشتغلون عنه بما في ايديهم فمن يدخله ؟ يدخله ابناء الشعب والمتواضعون والضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . و بمن يُنشأ ملكوت الله اذا كان اولئك الكبراء والاغنياء يحيدون عنه ولا يسمعون لمن يدعوهم اليه ؟ يُنشأ بهؤلاء الضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . بهم يتغير وجه الكرة الارضية . بهم تحدث ثورة عظمى في العالم . وهذه الثورة

تضع الكبار وترفع الصغار وتطأطئ الجباه العالية

الفصل السابع

في كفرناحوم . المعابد اليهودية القديمة

وبعد مدة انتقل يسوع الى كفر ناحوم واقام فيها وكان عمره ٣٠ عاماً

ولم يكن قبل هذا الحين قد علم تعليماً عمومياً بل خصوصياً فاخذ في التعليم العمومي جاعلاً كفر ناحوم مركزاً لتعليمه ووطناً ثانياً له

وكفر ناحوم هذه مشتقة من كلمتين (كفر) (وناحوم) ومعناها قرية ناحوم وكانت قبله قرية خاملة كالناصرة لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر في كتب يوسيفوس الا مرة واحدة ولكنها لم تكن المقصودة بهذه الاشارة بل كانت المقصودة بركة ماء بقربها وهذا يدلّ على شدة خمولها قبل يسوع لان بركة الماء كانت اشهر منها . وكانت كفرناحوم مبنية على الطريقة اليهودية اي انه لم يكن فيها شيء من آثار المدنية الرومانية الشائقة التي اقامتها اسرة هيرودس في نواحي فلسطين كالتماثيل الرائقة والابنية الفخيمة التي لا يزال رجال الآثار يعجبون بها الى هذه الايام . وقد سماها اليهود بعد المسيح « مدينة المينيم » اي الهراطقة . يعنون المسيحيين

وكان سكان تلك البلاد الجميلة يجتمعون مرة في كل اسبوع وذلك في يوم السبت للصلاة ومطالعة كتبهم الدينية . وكان اجتماعهم في كل قرية في مكان يسمونه « مكان الاجتماع » او معبد . وكان هذا المكان عبارة عن قاعة مربعة الزوايا قائمتها وهي مزينة على الطريقة اليونانية اذ لم يكن لليهود طريقة خاصة . ولا يزال في نواحي الجليل الى هذه الايام كثير من بقايا المعابد اليهودية القديمة . وقد كان يوضع في داخلها مقاعد للجلوس ومنبر للقراءة وخزانة لوضع الكتب المقدسة . وكانت هذه المعابد نقطة عمومية يجتمع فيها اليهود مرة في الاسبوع كما تقدم لقراءة الشريعة واقوال الانبياء . وبما انه لم يكن لليهود في خارج اورشليم كهنة فقد كان لكل واحد الحق في ان يصعد الى المنبر ويقرأ للناس ويفسر القراءة لهم كما يريد . وكان لكل واحد من الحاضرين ان يعترض على القارئ وتفسيره وذلك مما كان يجعل هذا الاجتماع عبارة عن مجمع حرّ يتبادل اعضاؤه آراءهم وافكارهم . وكان لهذا اجتماع رئيس وشيوخ وحزان وهو القارئ وقد تقدم انه

المعلم ورسل وهم مراسلون او سعاة يستخدمهم رجال المعبد وشماس او حافظ الاشياء المقدسة والمعتني بها . وبذلك كانت المعابد اليهودية في فلسطين شبيهة بجمهوريات صغيرة مستقلة . وكان لها نظام شامل لكثير من شؤون حياة اليهود حتى انها كانت تصدر قرارات بشان بعض الافراد وتنفذها فيهم على يد الحزان . وكثيرًا ما كان في جملة هذه القرارات العقاب بالضرب . على ان هذه المعابد المنظمة التي كانت منتشرة في جميع انحاء فلسطين هي التي حفظت التقاليد اليهودية منذ الوف من السنين واوصلتها الى هذه الايام دون ان يؤثر فيها ما حلّ باليهود من الاضطهاد في اثناء القرون الطوال الماضية . وكان الجلوس في كرسي في مقدمة الجالسين دليلاً على امتياز الجالس بالغنى او بالتقوى . وكان حق الصعود الى المنبر مطلقاً لكل طالب فكان ذلك باعثاً عظيماً على تسهيل نشر الآراء الجديدة . وهذا مما سهل ليسوع اظهار تعليمه

فانه لما اراد القراءة والتعليم اول مرة في المعبد صعد الى المنبر فقدم له الحزان الكتاب المقدس فقلبه يسوع وهو واقف امام الحاضرين رابط الجاش تارة ينظر اليهم بعينيه المهيبتين وتارة ينظر الى الكتاب . ثم اخذ يقراه ويفسر . ولكن تفسيره كان مختلفاً عن تفسير باقي القراء ونَفَسه جديد على جمهور السامعين . وبما ان الفريسيين كانوا قليلي العدد في جهات الجليل فقد كان ما لقيه منهم من المعارضة في المرة الاولى خفيفاً جدًا ولكنه لو ابتداء تعليمه في اورشليم لما استطاع ان يعلم وقتاً طويلاً بل كان الفريسيون وغلاة الدين اوقفوه عند الخطابة الاولى وحالوا بينه وبين الشعب قبل ان تؤثر فيه كلماته السحرية

ذلك ان كلام يسوع كان عذباً رقيقاً . وكان صوته مؤثرًا في النفوس وبلاغته تتدفق تدفقاً . وكان اسلوبه في الكلام والخطابة واضحاً بسيطاً سهلاً ينمّ على ما في نفسه من الهدوء والرزانة وحب نصرة الضعفاء . فكان صوته يفعل في نفس الشعب فعلاً غريباً وكلامه ينطبق انطباقاً عظيماً على ما في نفوسهم وتصوراتهم البسيطة اللطيفة . وذلك بخلاف ما كان عليه وعاظ اليهود يومئذ من الكلام الجاف الناشف الذي لا يؤثر في النفس ولا يحركها . وهكذا لم يمضِ وقت طويل حتى صار للمعلم الشاب سلطة كبيرة على الشعب . وكان قد حصر تعليمه في بحيرة طبريا وشواطئها وكانت تلك الجهات يومئذ في احسن حالات الخصب والاقبال خلافاً لما هي عليه اليوم من الخراب والجفاف . ويجدر بنا هنا ان نصفها وصف من زارها ورآها

الفصل الثامن

المدن الخمس على شاطئ بحيرة طبريا

كان على شواطئ بحيرة طبريا في ذلك الزمان خمس مدن صغيرة خلد التاريخ اسماءها كما خلد اسمي رومه واثينا . وهذه المدن هي مجدله ودلمانوثه وكفرناحوم وبيت صيد وكورزين . اما الآن فلم يعد معروفاً من تلك المدن الصغيرة غير مدينة مجدلة التي منها مريم المجدلية وهي اليوم قرية حقيرة . واما باقي المدن المذكورة فقد طمس الزمان آثارها . فان دلمانوثه مجهولة المكان وغير بعيد ان تكون كورزين مدفونة تحت التراب في الجانب الشمالي . بقيت كفرناحوم وبيت صيدا وقد ظن بعضهم انهما كانتا حيث اليوم تل حوم وعين التين وخان منيه والعين المدورة ولكن ذلك افتراض لا دليل عليه . فكأنَّ كل شيء في تاريخ الحوادث المسيحية ساعد على اخفاء آثار صاحب الشريعة الاولى . ومن المحتمل ان لا يكشف البشر في مستقبل الزمان تلك الآثار التي تودّ الانسانية ان تفد وتقبل مواطئ قدمي السيد فيها

ولم يبقَ في تلك الجهات من المدن المذكورة غير البحيرة والشجيرات الصغيرة وازهار البرية وجو السماء . اما الاشجار فقد انقرضت كلها مع ان تلك الجهات كانت مشهورة بالخصب حتى ان يوسيفوس عدَّ خصبها في تاريخه من العجائب لانه كان يجتمع في ارضها الشجر التي تنمو في الاقاليم الباردة والشجر التي تنمو في الاقاليم الحارة والشجر التي تنمو في الاقاليم المعتدلة ولذلك كان الزهر دائماً فيها . واما الآن فيكفي للدلالة على ما فيها من الخراب والجفاف ان يُقال ان السكان يبحثون قبل سفرهم فيها بيوم واحد عن المكان الذي يستطيعون ان يجدوا فيه شجرة واحدة تظللهم من الشمس في اثناء سفرهم . وقد اصبحت شواطئ البحيرة قفراء ولم ارَ عليها حين زيارتي لها سوى زورق واحد صغير يروح ويجيء فوق امواجه التي كانت من قبل تجتمع السفن والناس فيها يلعبون ويضحكون ويتنزهون ويتصيدون . ولكن مياه البحيرة لا تزال كما كانت صافية خفيفة . وعلى البحيرة اسراب كثيرة من الطيور السابحة تتداعب فيها . اما حرارة الهواء على شواطئ البحيرة فانها ثقيلة محرقة . وانخفاض هذه البحيرة عن سطح البحر مائة و٨٩ متراً كما قدَّر المسيو فيني . وان الذي يزورها ويحس بما في جوها من الحرارة المحرقة يستغرب انها كانت في الزمن الماضي مركزاً لحركات عظيمة لان حرارة الجو في مكان تخمد همة سكانه . ولكن يوسيفوس

روى ان هواءها كان معتدلاً في ذلك الزمان . ولا غرابة في ذلك فان الخصب الذي كان فيها من حيث نمو الاشجار والنبات جدير بان يلطف الهواء ويخفف وطأة «المناخ» . ولعله قد حدث في جوها من التغيير ما حدث في جوّ برية رومة من هذا القبيل . واما اسباب الجفاف الحالي والخراب الحاضر فهي الحروب والفتن . فانه بعد انغلاب الصليبيين عملت عوامل الخراب في تلك الجهات فاكلت الاخضر والهشيم . فهل درت ارض جنيساره حين كان يمشي عليها السيد وتلامذته ان هذه الاقدام الخفيفة ستكون سبباً في خرابها الآتي . هل علمتْ الاماكن التي كانت وطناً ليسوع انها ستبتاع مجدها وشهرتها الخالدة بخرابها وفنائها من الوجود

فعمل المسيح اذاً كان مقصوراً في بدء الامر على هذه المدن الخمس الصغيرة . ولا يحتمل ان يكون المسيح قد دخل الى مدينة طبرية لان اكثر سكان هذه المدينة كانوا من الوثنيين وفيهم الفينيقيون والسوريون والعرب واليونان . وكانت هذه المدينة مقام الحاكم انتيباس والي بيريا والجليل وساجن يوحنا المعمدان . ولكن يسوع كان كثيراً ما يرحل عن تلك الجهات المحبوبة اليه فيركب زورقاً الى شاطئ البحيرة الشرقي فيزور جرجسه مثلاً او يسير في الجانب الشمالي الى قيصرية فيلبس في سنح جبل حرمون . ولقد سار مرة الى صور وصيدا المدينتين الفينيقيتين وكانتا يومئذٍ في ابان مجدها ونموها . وغير بعيد ان يكون قد زار في قيصرية مغارة بانيوم التي كانوا يزعمون بان نهر الاردن ينبع منها والهيكل الرخامي البديع الذي بناه هيرودس الكبير قريباً من هناك اكراماً لاغسطس قيصر . ولكنه لم يكن يرتاح الى هذه البلاد وان كانت عظيمة ولذلك كان يُسرع الى شاطئ جنيساره المحبوب اليه في وسط تلك الطبيعة الضاحكة التي ربي فيها

الفصل التاسع

التلامذة

ففي هذا المكان الذي يجوز ان يُلقب قطعة من الجنة لان كل شيء فيه كان هادئاً جميلاً لعدم وصول الثورات التي قلبت وجه العالم اليه — في هذا المكان كان يعيش شعب هادئ نشيط مستقيم طروب للحياة ولذتها واخلاقه منطبقة على الطبيعة التي حوله . وكانت بحيرة طبرية مشهورة بكثرة سمكها فكان السكان يصطادون منه كثيراً وقد انشأوا في

كفر ناحوم وبيت صيدا مصائد عظيمة عادت عليهم بسعة الرزق وكثرة الخيرات . وكانت معيشة هؤلاء الصيادين الطف معيشة وابسطها وكانوا مرتبطين بعضهم ببعض برباط القربى لانهم كانوا يتزوجون بعضهم من بعض . ولم يكن قد دخل الى بلادهم شيء من آثار المدنية اليونانية والعالمية ولكن عاداتهم كانت حسنة واخلاقهم هادئة وربما كانوا يشبهون سكان جبل لبنان في هذا الزمان . ففي هذا الوسط اقام يسوع وترك وطنه الناصرة لانه لم يجد فيها الاكرام الذي كان من حقه . وفي ذلك يقول « ليس لنبي كرامة في وطنه »

وكان في كفر ناحوم بيت امتاز باكرام السيد وهو لصيادين يدعيان اندراوس وسمعان بطرس . فاقام يسوع فيه رخيّ البال مكرماً محترماً . وكان فيها بيت آخر لزبدة وكان له ولدان يعقوب ويوحنا وامرأة تدعى صالومه كانت اشد الناس اتباعاً للسيد . ذلك ان النساء كن كثيرات الاكرام ليسوع لان جماله المهيب ولطفه وحسن معاملته لهنّ واحترامه في الكلام معهنّ كانت تجتذب القلوب اليه . ولم يكن الانفصال تاماً بين الرجال والنساء في القرى اليهودية كما كان في المدن ولذلك انضمّ الى تلامذة المسيح ثلاثة من النساء فازداد بهنّ نادي يسوع جمالاً ورواء . وكان فيهنّ واحدة من مجدل وهي مريم المجدلية وكانت من عصبيات المزاج الشديدات التأثر والانفعال فسكّن يسوع بنظره الهادىء اللطيف وجماله الطاهر نفس هذه المرأة المضطربة . ثم انضم الى تلامذته متى وفيليبوس ونثنائيل وتوما وغيرهم وفي جملتهم يهوذا الخريوطي نسبة الى خربوط وهي قرية في اقصى جنوبي بلاد اليهودية على مسيرة يوم من حبرون . وكان جميع تلامذته من اهالي بلاد الجليل الا يهوذا هذا

واما نسبة التلامذة بعضهم الى بعض فقد كانت واحدة . فان السواء كان عاماً في هذه الهيئة الناشئة . وكل واحد يجب عليه ان يلقب الآخر « اخاه » اما لقب « ربي » الذي معناه معلم ولقب « ابي » فقد كانا محرمين بينهم لانه ما من معلم غير يسوع وما من اب غير الله . والكبير فيهم يجب ان يكون خادمهم . ومع ذلك فقد امتاز منهم بطرس باهميته من حيث علاقته بيسوع . فان السيد كان يقيم في منزله وكان يعظ في سفينته فكان منزله وسفينته مركزاً الوعظ والتعليم . وكان بطرس رجلاً مستقيماً مخلصاً بسيطاً يندفع لاول اشارة من السيد . فكانت هذه الاخلاق تعجبه كثيراً . فالظاهر ان صالومه امراة زبدة حسدت يوماً بطرس على مقامه فانفردت بالسيد وسالته ان يجعل

ولديها في المنزلة الاولى بعده . فاجابها يسوع ان الذي يروم الاستعلاء يسقط وان ملكوت الله للمتواضعين . وبذلك صرفها عن طلبها . ولما درى باقي التلامذة بما سالته صالومه استاؤوا جداً منها

فمما مرَّ يتضح ان اكثر تلامذة المسيح كانوا صيادي سمك . ولكن لم يكن لصيد السمك في الجليل في ذلك الزمان الشان الحقير الذي له في هذه الايام . ولم يكن ليسوع تلامذة من العشارين غير لاوي وربما الرسول متى ايضاً . وكانت وظيفة العشارين اي جباة الضرائب مكروهة الى اليهود في ذلك الزمان اشد كراهة لما تقدم من مقتهم الضرائب والاعشار لانها دليل على عبودية الانسان للانسان . وكان احدهم اذا رضي وصار عشاراً قطع اهله ورفاقه كل علاقة لهم به ومنعوا الناس من معاملته والذهاب الى صندوقه لاستبدال نقودهم منه كما ورد في المشنا . وكانوا يعدّون العشارين ومستخدمي الجمرك وما اشبههم من جملة اللصوص وقطاع الطرق . واذا توفي واحد منهم واوصى كانت وصيته فاسدة . وكانت الطريق الرومانية الكبرى الموصلة بين عكا ودمشق الشام والتي هي من اقدم الطرق في العالم تمتد في الجليل بجانب بحيرة طبرية كما روى الانجيلي متى (الاصحاح الرابع عدد ١٣ — ١٥) وكانوا يسمونها في زمن الحروب الصليبية « طريق ماريس » . فكان يمرُّ في هذه الطريق كثيرون من مستخدمي الجمرك والعشارين . وكان في جملتهم عشار يُدعى لاوي فاتى يسوع ودعاه الى مائدته فاجاب يسوع وذهب الى مائدته مع تلامذته . فكان لذلك تأثير عظيم في نفوس كهان اليهود كما جاء في التلمود . اما يسوع فلم يبالِ بهم لانه اراد بذلك ان يدلهم على ان الله لا يطلب من البشر سوى طهارة القلب ونقاء الباطن

الفصل العاشر

التعاليم المسيحية

تلك كانت الحلقة التي كانت تحيط بيسوع على شواطئ بحيرة طبرية . وكانت جودة الهواء في تلك الجهات تجعل حياة هؤلاء البسطاء الودعاء عيداً دائماً . فانهم كانوا في النهار يركبون بحيرة تهزهم امواجها كما تهز الام سرير اولادها وفي المساء يجلسون او يستلقون على شاطئها يتحدثون ويتباحثون . فكانت معيشتهم كلها في الخلاء والهواء . وكان التلامذة يقطفون في ذلك الاوان زهرة تعاليم السيد اول نبتها ويتمتعون بارجها . وكان اذا بدا في نفس احدهم شك او ريب ازال المعلم العظيم ذلك الشك بنظرة واحدة لطيفة

او بيسمة واحدة . وكل غمامة كانت تمر في جوّ السماء وكل حبة كانت تنبت امامهم في البرية وكل سنبلة كانت تنضج وتصفرّ في الحقول كانت دليلاً على تقدم العالم ودنو ملكوت الله . وكانوا في هذه النزهات الجميلة يسمعون من فم المعلم العظيم هذه التعزية الكبرى التي يزول العالم ولا تزول

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات

« طوبى للحزانى لانهم يتعزون

« طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض

« طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون

« طوبى للرحماء لانهم يُرحمون

« طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله

« طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يُدعون

« طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السماوات

وكان تعليمه حلوًا يأخذ بمجامع القلوب وشبيهًا في ريحه بريح الازهار في الحقول . وكان يسوع يحب هذه الازهار حبًا شديدًا و يتمثل بها . وهو اول من ابتدع الوعظ بالامثال اللطيفة الجميلة . نعم انه في الكتب البوذية كثيرًا من الامثال تشبه الامثال المسيحية ولكن لم يقم دليل قط على انه كان للديانة البوذية تاثير على الديانة المسيحية او كان لها علاقة بها

وكانت الطبيعة في الجليل بسيطة والهواء معتدلاً والعمل في زراعة الارض لا ياتي باجرة تساوي التعب فيها فلم تكن تمس الحاجة كثيرًا الى الطعام الكثير واللبس الدافىء والعمل بل كانت القناعة والاكتفاء شعار السكان كلهم . فكان ذلك يوحي الى المعلم العظيم آيات لم يخط مثلها قلم على قرطاس فكان يقول

« لا تكنزوا لكم كنوزًا على الارض حيث يفسد السوس والصداء وحيث ينقب السارقون و يسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صداء وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون . لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضًا . لا يقدر احد ان يخدم سيدين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله وممون (١) . لذلك اقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما

(١) ممون اله المال والكنوز المدفونة عند الفينيقيين والسوريين القدماء

تاكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون اليست الحيوة افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس . انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن وابوكم السماوي يقوتها . الستم انتم بالحري افضل منها . ومن منكم اذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة . ولماذا تهتمون باللباس تاملوا زنابق الحقل كيف تنموا لا تتعب ولا تغزل . ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فان كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويُطرح غداً في التنور يُلبسه الله هكذا افليس بالحري جداً يُلبسكم انتم يا قليلي الايمان . فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس . فان هذه كلها تطلبها الامم لان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذه كلها . لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تُزاد لكم . فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره »

فهذا التعليم وهذه المبادىء كان لها تاثير عظيم على الجمعية المسيحية الاولى . فان التلامذة صاروا يعتبرون الاهتمام بالحياة والمعيشة شراً يخنق في نفس الانسان كل خير . وحسبهم ان يسالوا الله في كل يوم خبز الغد . اما كنز الكنوز وتوفير الاموال فكان امراً قريباً من العبث . ومما كان يقوّي هذه المبادىء انتشار اللصوصية في تلك البلاد وكثرة السلبة وقطاع الطرق كما رواه يوسيفوس . فان الغني لم يكن على ثقة من غناه ولذلك كان في خوف دائم من فقده . واما الفقير فانه كان مستريح البال لانه لا يخشى من اللصوص على شيء يملكه اذ لم يكن يملك شيئاً . وبناء عليه كان الفقير كانهُ اغنى من الغني . واما في هيئتنا الاجتماعية الحاضرة فان حالة الفقير لا تُحتمل . فان الغني عندنا على ثقة من ماله والخيرات والازهار والافياء لاصحاب الاملاك دون سواهم . وذلك بخلاف الشرق فان الازهار والافياء والخيرات شائعة فيه للكل ولا يملك صاحب الملك من الارض الا شيئاً محدوداً . واما الطبيعة فانها ملك للجميع

على ان المسيحية لم تكن في ذلك الامر الا مقلدة لطائفة الايسينيين اليهودية وهذه الطائفة كانت مقلدة لطائفة الفيثاغوريين اليونانية . وكان البخل هو الرذيلة الكبرى في اعتبار الطائفة المسيحية الاولى . والمراد بالبخل هنا اقتناء الملك والمال . ولذلك كان اول ما يجب على الذين يرغبون في اتباع السيد والانضمام الى تلامذته لينالوا ملكوت الله ان يتنازلوا عن املاكهم واموالهم اما هبة للفقراء والمساكين او الى الجمعية المسيحية . واذا لم يصنعوا ذلك لم يكن لهم ان يسموا انفسهم تلامذة المسيح . فكان ذلك بمثابة « اشتراك في الملك والمال » . ولكن لم يلبث ان ظهر ضرر هذه الطريقة . فان اجتماع الاموال لدى الطائفة

المسيحية اوجب تعيين امين لحفظها فاختاروا لذلك يهوذا الخربوطي ولكنه لم يلبث ان اتهم بسرقة المال المشترك

واشد ما يكون ظهور رغبة يسوع في محق الغنى في مَثل الغني ولعازر الفقير الذي كان يأكل من فتات مائدته . فان الغني حُمل الى النار ولعازر الى السماء . ولماذا ذلك ؟ لان الاول غني تمتع بخيرات الارض ولم يهبها الى الفقراء . اما قولهم ان المقصود بهذا المثل هو الغني الشرير فقط فتأويل لا مسوّغ له وهو من الموضوعات بعد يسوع . لا سيما وانه قد قال ايضاً : ايسر للجمل ان يدخل في ثقب ابرة من ان يدخل الغني ملكوت السماوات

على انه اذا كانت هذه التعاليم ملائمة لحالة تلك البلاد يومئذٍ والهيئة الاجتماعية اذ ذاك فانها لم تكن ملائمة للحالة الاجتماعية في كل مكان . وقد جاء وقت رأت فيه المسيحية نفسها مضطرة الى قبول الاغنياء في حضنها . ولكن حسبها فخرًا انها كانت في اول امرها مملكة الفقراء . وقد كان لقب فقير شرفًا لتلامذتها وكانوا يتلقبون به دون سواه . وقد اصبحت الشحاذة بذلك فضيلة وصناعة مقدَّسة . ولا يزال شيء من هذه الحالة في الديانة المسيحية الى هذه الايام . وقد كان تاثير هذا الامر عظيماً جدًا ولا سيما في نفوس الطبقات السفلى الرازحة تحت احمال الحياة . فان الانجيل كان لهذه الطبقات بمثابة ثلمة في سقف سجنها تشمُّ منه ريح النسيم وتنظر وجه السماء . فكان لها اجمل تعزية واعظم تسلية . ولا شبهة في ان هذا الامر لا ينطبق على حالة الاجتماع ولا يوافق قواعد الاقتصاد السياسي ولكن رفع ثوب الفقير الى هذه الدرجة من السمو وجعل الفقر رمزًا الى المحبة والاخلاص امر جدير بكل اعتبار . فان الانسانية ترغب في ان تعلم انها لم تستوف حقها بقبضها اجرتها بل لها هنالك حق آخر . فان ذلك مما يساعدها على حمل اعبائها . واعظم ما تُخدم به تعليمها انها لا تحيى بالخبز فقط بل هنالك شيء سواه

الفصل الحادي عشر

النساء والاولاد والشعب

وكان يسوع محباً للشعب لانه علم ان ملكوته لا يسود الا به فكان يؤثر معاشرة الضعفاء والفقراء والعشارين والمنبوذين على معاشرة السراة والاكابر . وكان يطوف انحاء الجليل راكبًا على بغلة جريًا على عادة الشرقيين الذين يتخذون للسفر بغالاً ذات عيون سوداء حولها اهداب طويله تجعل لها منظرًا لطيفًا جدًا . وكان تلامذته يفرشون ثيابهم تارةً

في طريقه وتارة على ظهر البغلة . ومتى وصلوا الى احدى القرى ونزلوا في بيت صار ذلك البيت مباركاً واجتمع فيه كل اهل القرية لان بيوت الضيوف في الشرق مجتمع لجميع الناس . وكان اكثر الناس اجتماعاً عليه النساء والاولاد . وكان يسوع يحب الاولاد حباً شديداً . واتفق ان تلامذته ارادوا ذات يوم ان يبعدوهم عنه فراراً من ضوضائهم فقال لهم يسوع كلمته المشهورة « دعوا الاولاد ياتون اليَّ لان لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » . وقد حدث في ذات يوم خلاف بين التلامذة بشان التقدم والرتبة فاخذ يسوع ولداً واقامه في وسطهم ثم قال لهم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل هذا الولد (في البساطة والطهارة والتواضع والحب) فلن تدخلوا ملكوت السماوات . وكان الاولاد يزدحمون من كل جانب و يهتفون له « اوصنّا لابن داود » فكان يروقه هتافهم . و بذلك كان بدء ظهوره عبارة عن حركة يقوم بها النساء والاولاد . ولا يخفى ان كل قوى النفس الانسانية وكل ما في القلب البشري من طهارة وحب و بساطة مجموع في هذين الفريقين

فكانَّ مُلك السيد يومئذ كان ملك الاولاد وكأنه رام الاستيلاء بهم على العالم اجمع . فما كان اجمل ذلك الزمان العظيم . ما اجمل ان تنسى الانسانية ولو لحظة واحدة تلك القيود المادية التي تقيدها بهذه الارض وتنزع الى العلى . وما اسعد اولئك الذين شهدوا باعينهم هذا المشهد الالهي واشتركوا في تلك الآمال العظيمة . ولكن اسعد منهم كلهم ذلك الذي ينفض عنه غبار كل وهم وشر ورذيلة عملاً بقول يسوع و يعيد في نفسه بواسطة نقاء باطنه وصفاء ضميره وقوة ارادته تلك الصورة الالهية التي هي ملكوت الله

الفصل الثاني عشر

مقتل يوحنا المعمدان

ولما انتشرت شهرة المعلم العظيم هذا الانتشار بلغت الى يوحنا المعمدان في سجنه فبعث اليه اثنين من تلامذته يسالانه « هل انت الآتي ام ننتظر آخر » فلما قدم التلميذان عليه وجدا حوله ضوضاء الاحتفال والافراح والمآدب فعجبا من ذلك كما نقل الانجيلي متى (الاصحاح التاسع) لان معلمها يوحنا كان لا ياكل ولا يشرب الا ما كان ضرورياً لقيام الجسم . ولسنا نعلم الجواب الذي جاوب به يسوع تلميذي يوحنا . وكذلك لا نعلم اذا كانا قد وجدا يوحنا في قيد الحياة حين عودتهما بالجواب او ان انتيباس كان قد امر بقتله . وقصة مقتل يوحنا مشهورة فان هذا الرجل الصارم كان في محادثاته مع انتيباس يقول له دائماً انه قد اساء

الى الشريعة اليهودية بزواجه من هيروديا . فزاد ذلك في سخط هيروديا عليه . وكان لهيروديا ابنة من زوجها الاول تُدعى صالومه . ففي يوم تذكار مولد انتيباس اقام هذا الملك احتفالاً في قلعة ماكرو في القصر الجميل الذي بناه هيرودس الكبير فيها كما روى يوسيفوس . فقامت صالومه بايعازٍ من امها ورقصت في الحفلة احدى الرقصات المشهورة في الشرق بكونها غير ادبية . فطرب انتيباس اشد طرب من هذه الرقصة وقال لها اطلبي فانني اعطيكِ "ما تشائين . فطلبت رأس يوحنا المعمدان . فاستاء انتيباس من هذا الطلب ولكنهُ كره ان يردّها فامر احد حراسه فذهب وجاء برأس يوحنا على طبق

فكانَ هذا الشيخ الجليل اول شهيد من شهداء الديانة المسيحية . وكانت جثته اول جثة وُضعت في الطريق الدموية التي سلكها تلامذة السيد لتفتحها لهم . وذلك مما جعل يوحنا همزة وصل بين العالم القديم والعالم الجديد

وقد سخط الشعب اليهودي من صنع انتيباس وغزا الحارث امير العرب الذي كانت ابنته زوجة انتيباس قبل اقترانه بهيروديا مملكة هذا الملك للانتقام لابنته واسترداد قلعة ماكرو منه فانكسر انتيباس في هذه الحرب وقد عدّ الشعب اليهودي هذا الانكسار عقاباً له على ما صنعه بيوحنا المعمدان

واما تلامذة يوحنا فانهم اخذوا جثته ودفنوها وقد عاش مذهبه بعده فلم يمت بموتهِ ولكنه لم يعش وقتاً طويلاً بل انطفأ شيئاً فشيئاً بعد انتشار الديانة المسيحية لان المسيحيين اصبحوا يعتبرون انصاره خارجين عن المسيحية . وكان اليهود ينكرون مجيء «مسيا» استناداً الى ان ايليا لم يأتِ كما تنبأ دانيال فكان المسيحيون يجيبون بان يوحنا هو ايليا

الفصل الثالث عشر

يسوع في اورشليم . مباني اورشليم القديمة . الهيكل الكبير ووصفه . اكليروس اليهود والشعب . تعاليمه في الهيكل . رأي حكيم

وكان يسوع يذهب الى اورشليم مع حجاج اليهود في كل عام تقريباً . واول مرة اطال الاقامة فيها كانت على ما يظهر في عام ٣١ بعد ميلاده اي بعد مقتل يوحنا المعمدان . وكان يسوع يحجّ مع حجاج اليهود لانه كره جرح عواطفهم والازدراء بالحج فضلاً عن معرفته ان الواجب للقيام بعمل عظيم الخروج من بلاد الجليل والاقامة في اورشليم مركز اليهود لمهاجمة التقاليد اليهودية فيها

وكانت اورشليم في ذلك الزمان كما هي اليوم اي مدينة الجدال والدعوى والخصام والبغض والامور الصبيانية . وكان الفريسيون متسلطين على عقول اهلها . وكان اهتمامهم مصروفاً الى درس الشريعة اليهودية والمجادلة فيها باسلوب جاف خشن لا يغذي النفس ولا يهذّب العقل . وكان الواحد منهم يقضي السنوات في درس القواعد والاصول القديمة حتى اذا وعى منها شيئاً انتفخ كبرياءً وعظمةً بدعوى العلم . فكان الجليليون الذين يحجون من الجليل اليها لا يجدون فيها شيئاً مما كان في بلادهم من الهدوء الطبيعي والجمال ونقاء العيش . ومما كان يزيد المهم ان يهود اورشليم كانوا يعتبرون يهود الجليل دونهم . وكان قولهم « الجليلي الاحمق » مضرباً للمثل عندهم لاعتقادهم الحمق والبلاهة في الجليليين . وكان من امثالهم ايضاً « هل يقوم من الناصرة رجل صالح » . وبالجملة فقد كانت الجليل محتقرة في نظرهم ولم يكن لها من شهادة في كتبهم غير قول اشعيا الذي اختلف مفسروهم في تفسيره وهو « ارض زبولون وارض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم »

ومما زاد ألم يسوع وتلامذته الجليليين في اورشليم جفاف الطبيعة حول هذه المدينة . فان ارضها كثيرة الحجارة جافة واوديتها لا ماء فيها . ومن يسرح طرفه فيها في جهات البحر الميت واراضيه القفراء يشعر شعوراً غريباً . فان هذا المنظر لو كان في مكان آخر لكان كريهاً منبوذاً ولكنه حول اورشليم جدير بالاعتبار والتامل لما يوحي الى النفس من الافكار العديدة . وكان منظر اورشليم في زمن يسوع كمنظرها اليوم تقريباً . فانه لم يكن فيها من اثر قديم لان اليهود اقاموا حتى المكابيين (الاشمونيين) ولا شيء عندهم من الفنون الجميلة . ولكن لما قام ملكهم وكبير كهانهم هركان في عام ٧٩ قبل الميلاد اخذ يزين المدينة ويجمّلها . ثم جاء هيرودس الكبير فجعلها مدينة شائقة . وقد روى يوسيفوس ان الابنية الجميلة التي اقامها هيرودس الكبير فيها كانت شبيهة بالابنية العظيمة التي تخلفت عن العصور القديمة . وقد كان في ضواحي اورشليم في ذلك الزمن كثير من المدافن الجميلة مبنية على القواعد القديمة . اما يسوع فلم يكن يعبأ بهذه الآثار الجميلة لان عقله كان مشغولاً بالامور الروحية دون سواها ولم يكن له ميل الا الى ما له علاقة بالقلب

اما الهيكل العظيم فانه كان جديداً في ايام يسوع . فان هيرودس الكبير بدأ باعادة بنائه في عام ٢٠—٢١ قبل الميلاد . وقد اتم بناء صحن الهيكل نفسه في ١٨ شهراً كما روى يوسيفوس واقتضى بناء ابوابه واروقته ثماني سنوات . اما ملحقاته فلم يتم بناؤها الا قبل سقوط اورشليم في ايدي الرومانيين بمدة يسيرة . وربما كان البنائون حين زيارة يسوع

لما يبنون فيها . واذا كان قد شاهدهم يبنونها فلا ريب ان ذلك اثار في نفسه عاطفة الاستياء لاعتباره تجديد بناء الهيكل دليلاً على ثقة اليهود بدوام تقاليدهم . وفي ذلك اهانة لتعاليمه

اما منظر الهيكل فقد كان في غاية الفخامة . واذا دخلت الى الحرم وجامع عمر في اورشليم وتاملت في فخامة هذين المكانين تجلى لك جمال الهيكل اليهودي القديم لانهما قسم منه . اما المسيو دي فوكوه الذي ساح في فلسطين وكتب كتابه «هيكل اورشلم» في سنة ١٨٦٤ فانه يشك في ان الحرم والجامع كانا من اجزاء الهيكل

وكانت اروقة الهيكل وساحاته مجتمعاً لجمهور غفير من اليهود وكانت بمثابة محكمة لهم ومدرسة وساحة عمومية . فانهم كانوا يتباحثون فيها ويتجادلون ويتناظرون . وكان الرومانيون في ذلك الزمن يحترمون عادات اليهود فلم يكونوا يدخلون الهيكل . وقد نُقشت في اماكن مخصوصة في الهيكل كتابات باللغة اليونانية واللاتينية لمنع الذين ليسوا يهود من اجتياز حدود معلومة في ساحاته . وكان ضبط شؤون الهيكل الداخلية منوطاً برجال من اليهود دون الشرطة وكانت مفاتيح الابواب في يد ضابط منهم وعليه فتحها واقفالها ومنع الناس من الدخول الى الساحة الداخلية اذا كان في ايديهم عصي او كانت احذيتهم مغبرة او لاختصار الطريق في مرورهم من جانب الى جانب كما ورد في المشنا . ومما كانوا يهتمون به اشد اهتمام ايضاً منع الناس ولا سيما النساء من الدخول اذا لم يكونوا في حالة الطهارة التامة

ففي هذا المكان الواسع العظيم كان يصرف يسوع اوقاته مدة اقامته في اورشليم في ايام الحج . وكان اليهود يتهافتون في المواسم على هذا الهيكل تهافت الجراد ويقيمون في غرف متفرقة تسع كل واحدة منها عشرة اشخاص منهم او عشرين كما روى يوسيفوس . فكان يسوع يدخل بينهم مع رفاقه التلامذة . وكانت اصول العبادة في الهيكل تستوجب بيعاً وشراءً فهناك حيوانات تُعرض للبيع لتقرب ذبيحة وهنالك موائد صيارفة لاستبدال النقود وذلك مما كان يجعل للهيكل منظر سوق عمومية . فهذه الشؤون المادية كانت تؤثر في نفس يسوع تاثيراً مؤلماً لانها عارية عن ديانة القلب والضمير التي جاء للنداء بها . وقد غضب يوماً غضباً شديداً مما كان يجري في الهيكل من البيع والشراء كما جاء في الانجيل فتناول سوطاً وطرد به باعة الحيوانات وقلب موائد الصيارفة وهو يصيح ان بيت الصلاة لا يكون بيتاً للصوص . وبالجملة فانه كان قليل الميل للهيكل وقد ورث تلامذته هذا الميل . ولم يعبأ بالهيكل احد من المسيحيين الا الذين كانوا مع اعتناقهم الدين المسيحي يقيمون

متمسكين بالشريعة اليهودية · ولما قام الامبراطور قسطنطين والامبراطرة المسيحيون الاولون تركوا في الهيكل ما بناه فيه ادريانوس من المباني الوثنية · ولم يهتم بالهيكل بعد سقوط اورشليم غير الامبراطرة الذين كانوا اعداء الديانة المسيحية كالامبراطور جوليانوس · ولما فُتحت اورشليم للعرب كان المسيحيون قد دنسوا الهيكل من بغضهم لليهود فامر الامام عمر باصلاحه واعادة شرفه اليه · كانهُ كُتب لهذا المكان ان يبقى ضد الديانة المسيحية

اما اكليروس اليهود فكان يومئذٍ آخذًا في السقوط بقدر ارتفاع افكار الشعب الاسرائيلي · اي كلما كان الشعب يتهذب وتنضج افكاره كان الاكليروس ينحطُّ في نظره وفي الحقيقة · ومما زاد انحطاطه اعتداء هيرودس الكبير عليه · فان هذا الملك العظيم احب فتاة تُدعى مريم ابنة سمعان بن بويطوس من سكان الاسكندرية ورام الاقتران بها في عام ٢٨ قبل الميلاد · فرغبة في رفع شان عائلتها جاء بابيها وجعله رئيسًا لكهنة اليهود · وبذلك صارت رئاسة الكهنة بمثابة وظيفة تابعة للحكومة · وكانت رئاسة الكهنة قبل ذلك للصدوقيين فلما وليها بويطوس امتزج البويطوسيون بالصدوقيين وتالف من الفريقين اكليروس شرهٌ نهم لا يهتم بالامور الدينية الا في الظاهر وكل قواه مصروفة الى المطامع الشخصية والمطامح الذاتية · وقد بلغ من عدم احترام الشؤون الدينية عندهم ان صاروا يضحكون من الشعب في سرّهم لتهافته على ما كانوا يدعونه اليه و يهزأُون بالحجاج الذين كانوا يفدون من اقاصي البلاد لزيارة الاماكن التي كان زمامها في ايديهم · وكانوا يعيشون من الهيكل وهم يرون بطلان الشؤون التي كانت تدر الرزق عليهم · وكان احب الامور اليهم ان يتركهم الناس وشانهم يغشون من يغشون و يبتزُّون ما يبتزُّون · ولذلك كانوا يكرهون سماع كلمة الاصلاح والقداسة · ولم يكن من عدولهم غير الذي يقوم لتنبيه الشعب فان ذلك يكدر صفوهم و يحول بينهم و بين رزقهم ومطامعهم

فكل هذه الامور كانت تثير نفس يسوع حتى الغضب لكنه كان في بدء الامر يكتم ما يقوم في نفسه ولا يطلع عليه احدًا غير اخصائه · على انه مع ذلك اخذ يتكلم و يعلم في جملة المتكلمين والمعلمين في الهيكل · فلم يكتسب في بدء الامر غير صداقة عائلة في بيت عنيا ولم يتعرَّف بغير مريم ام مرقص التي صار بيتها بعد بضع سنوات مجتمعًا للتلامذة ورجل يُدعى نيقوديموس وهو من الفريسيين الاغنياء · وكان هذا الرجل كريمًا شريف الاخلاق فمال ليسوع ولكنه لم يكن يزوره الا في الظلام فرارًا من تعنيف الفريسيين · ولم يدخل

هذا الرجل يومئذ في الديانة المسيحية لانه خشي الدخول في حركة ثورية جديدة لم يكن قد دخل فيها احد من اكابر اليهود

اما اكابر علماء اليهود في ذلك الزمان فلم يلقَ يسوع احدًا منهم لان الفيلسوفين هلل وشماي كانا قد فارقا الحياة ولم يكن من رجل كبير في الهيئة اليهودية يومئذٍ غير العالم «غمالائيل» حفيد هلل . وكان هذا الرجل ذا عقل مستقل حرّ محب للتساهل العالم بشؤون الحياة اليهودية وغير اليهودية . وكان من علامات تساهله انه كان يمشي في الشوارع مفتوح العينين وهو ينظر الى النساء حتى الوثنيات خلافًا للفريسيين الذين كانوا يمشون في الشوارع مغمضي العيون او ايديهم على عيونهم لئلا يبصروا النساء . وقد سامحه ابناء جنسه على هذا التساهل كما سامحوه على معرفته اللغة اليونانية لانه كان يخالط رجال البلاط . وبعد صلب يسوع وشروع تلامذته في التعليم في اورشليم رام الفريسيون سجنهم فقال فيهم غمالائيل قولاً جميلاً . وقد جاء في اعمال الرسل بهذا الشأن ما يلي

«فقام في المجمع رجل فريسي اسمه غمالائيل معلم للناموس مكرَّم عند جميع الشعب فامر ان يخرج الرسل قليلاً ثم قال لهم : ايها الرجال الاسرائيليون احترزوا لانفسكم من هؤلاء الناس . فما انتم مزمعون ان تفعلوا . لانه قبل هذه الايام قام ثوداس قائلاً عن نفسه انه شيء . الذي التصق به عدد من الرجال نحو اربع مئة . الذي قتل وجميع الذين انقادوا اليه تبددوا وصاروا لا شيء . بعد هذا قام يهوذا الجليلي في ايام الاكتتاب وازاغ وراءه شعبًا غفيرًا فذاك ايضًا هلك وجميع الذين انقادوا اليه تشتتوا . والآن اقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم . لانه ان كان هذا الرأي او هذا العمل من الناس فسوف ينتقض وان كان من الله فلا تقدرون ان تنقضوه . لئلا توجدوا محاربين لله ايضًا»

فما اجدر الاكليروس المسيحي ان يقول اليوم في الذين لا يرون رأيه ما كان يقوله اعداء الديانة المسيحية فيها

الفصل الرابع عشر

ديانة القلب وكراهة التقاليد · حفظ يوم السبت · معاشرة الوثنيين والسامريين · مثل السامري · يسوع والسامرية والديانة الابدية

ومنذ هذا الحين صار يسوع يرى وجوب افناء التقاليد اليهودية لا الاتفاق مع رجالها. فانه كان في هذه التقاليد ان الهيكل لا يدخله احد غير اليهود اما يسوع فاستغنى عنه · وكان فيها ان الشريعة اليهودية لم تسن" الا لابناء ابرهيم اما يسوع فكان يقول ان كل رجل يقبلني ويحبني يصير ابناً لابرهيم · وقد قال يوماً ان الله قادر ان يجعل من هذه الحجارة ابناء لابرهيم · فهو بهذا الكلام كان يقاوم كبرياء الانسان وفخاره بحسبه ونسبه ويدعو كل البشر الى دين مبني على مكارم الاخلاق لا على الحسب والنسب · لقد كان بهذا الكلام ينادي بحقوق الانسان و يعلن للبشر ديانة البشر لا ديانة اليهود خلاص البشر لا خلاص اليهود · فما ابعد هذا عما تقدمه · لقد وُضعت به اسس ديانة القلب والاخاء · لقد صار موسى نسياً منسياً · وقُضيَ على الهيكل بخراب لا مردَّ له

فبناءً على ذلك كان يسوع يحتقر كل شيء لم يكن له علاقة بايمان القلب · وقد كان عدواً لدوداً للمظاهرات المادية التي يقوم بها بعض المتعبدين · وكان يفضل الصفح عن اهانة على الذبيحة · وكل شريعته محصورة في هذه الكلمات : محبة الله والاحسان والصفح · وكان لا يعتبر الصلاة الا اذا كانت خارجة من القلب · وقد كان بعض من صغار العقول يظنون انهم يكرمونه بمناداته « ربي ربي » اي يامعلم يامعلم فكان السيد يقول « ان هذه الشعب يكرمني بشفتيه ولكن قلبه بعيد عني » او « لماذا تدعونني يارب يارب وانتم لا تفعلون ما اقوله »

وكان حفظ يوم السبت (اي ترك كل عمل في هذا اليوم) القاعدة الكبرى التي بُنيت عليها تقاليد الفريسيين · وكان الشعب يعتقد يومئذٍ ان الطبيعة نفسها (تسبت) اي تقف عن كل عمل في يوم السبت · ومن اوهامهم في هذا الصدد ايضاً ان بعض الينابيع تقف عن الجري في يوم السبت · وقد نقل المؤرخ يوسيفوس هذه الرواية · وسبب هذا الزعم ان تلك الينابيع كانت تجري وتقف في مواعيد جرياً مع العوامل الطبيعية وهي تُعرف اليوم « بالينابيع المتقطعة » اي التي تجري حيناً وتنقطع حيناً

اما يسوع فانه لنكاية الفريسيين واظهار اوهامهم كان لا يعبأ بيوم السبت · وكان يهزأ بما ياتونه من غسل واغتسال · فيقول لهم مثلاً · « هل تقدرون ان تغسلوا ارواحكم

ايضاً . ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ان الذي يخرج من الفم هو الذي ينجس الانسان او « ايها العميان الذين يقودون عميان احذروا السقوط في الحفرة » او « يا اولاد الافاعي كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات وانتم اشرار . فانه من فضلة القلب يتكلم الفم »

وكما ان يسوع لم يكن يعبأ بحفظ السبت اظهاراً لاوهام الفريسيين فقد كان يجالس الوثنيين ويقبلهم ويثق بهم اكثر من ثقته باليهود انفسهم مع ان الفريسيين كانوا يبتعدون عنهم . وكانوا اذا لاموه لانه يعاشر الوثنيين اجابهم « اذا كان صاحب كرم مستاء من الذين استاجروا كرمه فماذا يصنع . لا ريب انه ياتي ويعطي الكرم الى آخرين » . وكان ايضاً يضرب الامثال بالسيد الذي دعا الناس الى العرس فلم يجيبوه فارسل عبيده يدعون الى عرسه الناس من قارعة الطريق . ومن اقواله ايضاً في هذا الشان « اقول لكم ان كثيرين سياتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات . واما بنو الملكوت (يعني ابناء اسرائيل) فيطرحون الى الظلمة الخارجية »

ومما لا شبهة فيه انه كان بين تلامذته كثيرون من الذين كان اليهود يسمونهم «هيلانيين» . وقد روى ذلك يوسيفوس . وكان اليهود يريدون بكلمة « هيلانيين » الوثنيين او اليهود الذين تعلموا اللغة اليونانية واقاموا بين اليونانيين او اليونانيين الذين اعتنقوا الشريعة الاسرائيلية كما روى الانجيلي يوحنا (الاصحاح ١٢ العدد ٢٠) وربما كان كثيرون من تلامذة المسيح من العنصر الاخير

وكان يسوع يعامل السامريين كما كان يعامل اليونانيين . وقد كان اليهود يحتقرون السامريين لان هؤلاء كانوا لا يزالون يعتقدون بمذهب (غاريزيم) الذي كان مخالفاً لمذهب اورشليم . وكان اليهود يعتبرون السامريين كالوثنيين ويبغضونهم فوق بغضهم لهؤلاء . وكانت السامرة محصورة بين ولايتي اليهودية والجليل كانها نشأت لتكون مضغوطة بينهما . اما يسوع فاحياناً كان يوصي تلامذته ان لا يذهبوا الى السامرة لان السامريين كانوا لا يحسنون مقابلته لظنهم انه مثل باقي اليهود الذين كانوا يسيئون اليهم واحياناً كان يمرُّ هو بنفسه في بلادهم ويحادث بعضهم وقد نشأ له عدة تلامذة منهم (يوحنا ص٤ ع٣٩) ومن ابلغ الامثال التي ضربها مَثل في السامريين عن الرجل الذي عرّته اللصوص وجرحته على طريق اريحا . فقد مرَّ به كاهن فرآه وذهب في سبيله ثم مرَّ لاوي فرآه وذهب في

سبيله ثم جاء سامري فبادر اليه وضمد جرحه واركبه على دابته الى الفندق · وبذلك كان السامري المحتقر المستهزأ به افضل من الكاهن واللاوي · وعلى هذا القياس يكون الاحسان والرحمة والرفق قاعدة الاخاء بين البشر لا المذهب الديني

وكأن هذه المبادئ كانت مالئة نفس يسوع حين عودته من الجليل الى اورشليم بعد المدة الطويلة التي صرفها فيها مع تلامذته · وكانت الطريق بين اورشليم والجليل تمتد على بعد نصف ساعة من شكيم (نابلس اليوم) · وكان حجاج اليهود يجتنبونها في عودتهم الى الجليل لانهم كانوا يكرهون مخالطة السامريين ومؤاكلتهم · ومن امثالهم في هذا الصدد « ان قطعة الخبز التي تاكلها من سامري هي قطعة من لحم خنزير » · ولذلك كان اليهود يتزودون الزاد قبل سفرهم من اورشليم للمرور في السامرة كما روى يوسيفوس · اما يسوع فانه كان لا يعبأ بهذه الاوهام · فلما عاد من اورشليم الى الجليل ووصل قريباً من نابلس تعب فجلس يستريح على بئر هناك تدعى بئر يعقوب وسار تلامذته الى المدينة لابتياع الزاد

وكان الوقت منتصف النهار والطبيعة ساكنة هادئة في تلك الاماكن الجميلة · واذ خرجت من المدينة امرأة سامرية لتستقي من البئر · فخاطبها السيد وقال لها اعطيني ماء لاشرب · فدهشت السامرية لعلمها ان اليهود لا يطلبون شيئاً من السامريين ودخلت في الحديث معه · فاعجبها حديثه ورأت انه نبي · واذ خشيت ان يبدأ بتعنيفها لانها تدين بدين السامريين لا اليهود سبقت وقالت له « ياسيد · اباؤنا عبدوا في هذا الجبل وانتم تقولون ان العبادة في اورشليم » فاجابها يسوع « ايتها المرأة · صدقيني انه قد حانت الساعة التي لا يعبد فيها في هذا الجبل ولا في اورشليم بل ان العبادة الحقيقية تكون للاب في كل مكان بالحق والروح »

فهذه اول مرة لفظ بها يسوع الكلمة الباهرة التي وضع بها الديانة الابدية · هذه اول مرة سمع بها العالم ان عبادة الله غير مقيدة بكاهن او وطن او زمان او مكان · هذه هي الديانة التي تدوم الى نهاية القرون والاجيال الآتية · واذا كان في الاجرام السماوية اجرام ماهولة واهلها على علم وادب فديانتهم لا تكون ارقى من هذه الديانة مهما بلغوا من الارتقاء الانساني · ذلك ان هذه الديانة هي ديانة الانسانية كلها · وقد كانت كلمة يسوع « عبادة الله بالحق والروح » كبرق عظيم خفق في ظلمة داجية · واذا كانت الانسانية قد تحولت عن هذه الكلمة وصارت تشتغل عنها بالاوهام والخطاء والضلال فانها ستضطر الى العودة اليها لانها اساس كل ايمان ورجاء في هذا العالم

الفصل الخامس عشر

النبوءات · العجائب · العلة المقدسة · ملكوت الله · انتهاء العالم · الفرق بين الاشتراكية والمسيحية · بعد ملايين من السنين

ولما عاد يسوع من اورشليم كان قد قطع في نفسه كل علاقة بمذهب اليهود واخذ يستعد للعمل العظيم الآتي وهو انشاء ملكوت الله · وكان قد عزم عليه وان ذهب فدى الناس وفداه · ذلك ان ملكوت الله لا ينشأ من غير مقاومة ومناهضة ولذلك كان لا بدّ من المقاومة والمناهضة · وكان روح الله فيه يملأه قوةً ونشاطاً · وكان الله في نظره اباً لكل الناس وكل واحد عليه ان يدعو الله « اباه » في صلاته · فبهذا التعليم وثب يسوع وثبة واحدة عن الحفرة القائمة بين المخلوق والخالق و وصل اليه

وكانت نبوءات الانبياء عن قدوم المسيح شائعة بين اليهود ولكن المجامع لم تكن قد جمعتها في صفحة واحدة · ولذلك كان اليهود يطبقون اقوال الانبياء على الحالة في تلك الايام ·
اما العجائب فكان في السامرة رجل ساحر يُدعى سمعان وهو يصنع شيئاً كثيراً منها · وقد كان صنع العجائب امراً شائعاً في القديم · فان الفلاسفة الاسكندريين ومنهم بلوتين كانوا يزعمون انهم يصنعون العجائب · وقد روى ذلك اونابوس و بوفيروس · وكان صنع العجائب محسوباً امراً اعتيادياً لان كل رجل فيه روح الله كان في اعتقادهم قادراً على ان يصنع شيئاً منها

وكانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم (كذا) فان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ ·
وكان من الشائع في كل العالم لا في عالم اليهود فقط ان الشياطين تدخل في بعض الناس وتجعلهم يعملون بالرغم عنهم اشياء يكرهونها · ومن ذلك شيطان ورد ذكره في تقاليد الفرس وهو الذي يدخل في النساء ذوات الاميال الغير المعتدلة · وقد اخذ اليهود ذلك عنهم وورد ذكر هذا الشيطان في سفر طوبيا · فهذا الشيطان صار سبباً في اثارة نفوس النساء اليهوديات وتوليد الهستيريا وغيرها من الامراض العصبية فيها · وكان قد ظهر قبل ذلك باربعة قرون ونصف كتاب لابقراط ابي الطب موضوعه « العلة المقدسة » يعني الهستيريا وفيه وصف اسباب هذه العلة وذكر دوائها · الا ان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب · وكان في اليهودية في ذلك الزمان كثيرون من المجانين وربما

كان ذلك ناشئاً عن شدة الحماس الديني الذي اشعل النفوس . وكان هؤلاء المجانين يأوون الى المغاور والخاريب في الجبال والاودية . وكان قليل من الرفق واللين كافياً لشفائهم . ولا يزال الناس في سوريا حتى عصرنا هذا يسمون « مجنوناً » كل من كان في افكاره شيء من الغرابة . وفي اصطلاحاتهم في الحديث قولهم لمن لا يعجبهم رأيه: انتَ مجنون

اما مدة تعليم يسوع فان الانجيلي يوحنا يجعلها سنتين او ثلاثاً . ومهما يكن من الامر فانها لا تتجاوز سبع سنوات لان بيلاطس قد عُزل قبل عيد الفصح من عام ٣٦ للميلاد . وكان يسوع يكرز باقتراب ملكوت الله . والمراد بذلك على ما في الانجيل قدوم المسيح لدينونة الناس في نهاية العالم . وطريقة ذلك ان يُقسم البشر قسمين قسم الصالحين وقسم الاشرار . اما الصالحون فيدخلون الى الاماكن الهنيئة المعدّة لهم منذ ابتداء العالم وهناك يلبسون النور ويجلسون على مائدة ابرهيم . اما الاشرار فانهم يذهبون الى « جهنّم » . وجهنم هذه هي وادٍ في غربي اورشليم . وكان اليهود يوقدون النار اولاً في هذا الوادي ويحتفلون بذلك على سبيل العبادة . ثم صار الوادي مكاناً للاقذار والنجاسة

ومهما يكن من هذا الامر فان يسوع بنى ملكوت الله وهو يكرز تلك الكرازة . وهذا الملكوت الحقيقي هو ملكوت العقل الذي يجعل كل انسان ملكاً وكاهناً معاً والذي كان كحبة الخردل زُرعت في الارض فانبتت شجرة عظيمة . هذا الملكوت هو : روح الله يرفرف على الارض بعد مجيئه . وخطبة السيد على الجبل . وتقوية الضعفاء بذكر الغبطة والسعادة الابدية . ومحبة الشعب . والميل الى الفقير . واعلاء شان كل ما هو حقير ومتواضع وبسيط وصحيح . وقد تمّ هذا العلو وسيدوم بعده الى الابد . وكل واحد من البشر مديون له بافضل ما في نفسه من المبادئ الشريفة

اما مسالة انتهاء العالم واقتراب هذه النهاية فمسالة صفقت لها الانسانية في فلسطين طرباً في ذلك الزمان . فانه اوّل ما قيل لها انه قد حان اجل كرتك الارضية اقتبلت هذا الخبر بابتسام كالابتسام الذي يقتبل به الاولاد الموت وصارت مسرورة بهذه النهاية سروراً ما بعده سرور . اما باقي العالم فانه كان يزداد تمسكاً بالحياة كلما ازداد ايغالاً فيها ولذلك كان يوم الخلاص الذي كانت تنتظره نفوس الجليليين الطاهرة بشوق وسرور معتبراً من تلك الاجيال الحديدية التي كانت تخشن كلما طالت عليها الحياة كيوم غضب وحرمان

ولكن مع اعتقاد المسيحيين الاولين بقرب انتهاء العالم يومئذٍ كان فيهم كثيرون

يحاربون شرور العالم باسم الانجيل و يطلبون اصلاح الحالة استناداً الى مبادئه · وسيبقى مبدأ «ملكوت الله» اعظم المبادىء المحركة على طلب الاصلاح في كل مكان الى ماشاء الله·
اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلجئوا الى افكار يسوع نفسها و يعملوا بها · فانهم يطلبون بناء على مبداء مادي غليظ امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون · وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لا خيرات الارض · وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التخلي عنها وعن خيراتها لا الاستيلاء عليها

ومن جهة اخرى فانه ربما كانت كلمة « ملكوت الله » تعزية واي تعزية للذين يرون فساد العالم الآن و يعتقدون بحدوث تغيير فيه في مستقبل الزمان · فان الذين لايقدرون على الاعتقاد بوجود عنصرين مستقلين في جسم الانسان لان هذا الاعتقاد مناقض لعلم الفسيولوجيا يطيب لهم ان يؤملوا بحدوث تغيير عظيم في نهاية العالم و ينتظروا في القرون الآتية عالماً صالحاً يكون صلاحه جائزة للبشر على ما احتملوه من الشقاء والفساد في حياتهم الماضية · ومن يعلم اذا كان ذلك لا يتم في بضعة ملايين من القرون فتنتبه حينئذ في الارض كل المبادىء الصالحة و يصير البشر كالملائكة · ان مليون سنة تمرّ كساعة تمر· وقد قال القديس بولس « هوذا سرّ اقوله لكم · لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الاخير فانه سيبوق فيقام الاموات عديمي فساد ونحن نتغير » (كورنثوس الاصحاح ١٥ العدد ٥١ و٥٢)

فيومئذ يُنتقم للصالح من الشرير · يومئذ تسود في الارض انسانية فاضلة كريمة يكون فيها المقام الاوَّل للخير والفضيلة لا للقوة والمال و يكون فيها ابن الفقير الفاضل حاكماً وصدراً · يومئذ تظهر صورة يسوع اكثر جلاء و يخجل كل الذين نظروا تلك الصورة المؤلفة من الفقر والتواضع والفضيلة ولم يؤمنوا بها وكل المتكبرين الذين آمنوا بها ولكنَّ انانيتهم وكبرياءهم وطياشتهم منعتهم من العمل بوصاياها

الفصل السادس عشر

المائدة وكسر الخبز حسب العادة الشرقية . العلم والعمل فيما يختص بالانجيل

وكان التلامذة يومئذ لا يكتبون شيئاً من اقوال يسوع لان « ملكوت الله » صار قريباً فلا حاجة الى الكتابة . وكان من اجمل اوقاتهم وقت الجلوس الى مائدة الطعام. فان يسوع كان يحادث كل واحد منهم على المائدة . وكان من عادات اليهود ان ياخذ كبير البيت الخبز و يباركه بصلاة وجيزة ثم يكسره و يقدمه الى كل واحد من الجالسين . وكذلك الخمر . ولا تزال هذه العادة عند الاسرائيليين الى هذه الايام . وقد غالى الايسنيون في ذلك فجعلوا للمائدة احتفالاً وطقوساً خصوصية . وكان اذا اكل بضعة من الرجال الخبز معاً عُدّ ذلك بمثابة رباط يربطهم بعضهم ببعض بسبب هذا الاشتراك (١) . وكان السيد يكسر الخبز على هذا الوجه و يناوله الى تلامذته . وكان يقول لهم انا غذاؤكم الروحي لانه سيدهم ومعلمهم . ولما كان يناولهم الخبز والخمر كان يقول لهم هذا جسدي وهذا دمي

وكانت هذه المعيشة المبنية على انتظار « ملكوت الله » مما يزيد التلامذة انقطاعاً عن الارض وكراهة للعالم . فكان الميل لاقتناء الملك في الارض يُعتبر نقصاً في النفس وكل ما يُبعد الانسان عن السماء يجب ان يُنبذ نبذاً . وكان بعض التلامذة متزوجين الا ان التلميذ العازب بعد اتباعه السيد لم يكن يتزوج على الارجح لان العزوبة كانت مفضلة على الزواج . وكان يجب على الذين يدخلون في سلك التلامذة ان يتركوا كل شيء في العالم حتى النفس والاب والام والاخوة والمال ويتبعوا السيد . هذا فضلاً عن المبادئ السامية الاخرى التي هي عبارة عن اعلى صورة للكمال البشري

ولكنّ سموّ هذه المبادئ كان لا يخلو من خطر على المستقبل . فانها تجعل الانجيل كتاباً بالغاً من الكمال درجة قلما يهتم كثيرون من الناس للوصول اليها . وبناء عليه تبقى تلك المبادئ غير معمول بها حتى من الاكليروس نفسه . وفضلاً عن ذلك فانه اذا رام احد من الناس الرجوع الى الانجيل والعمل بمبادئه و بروحه عدّ

(١) وفي الشرق يقولون اليوم « من اكل خبزاً وملحاً مع انسان وجب عليه ان لا يخونه » وذلك لان هذا الاشتراك يوجب الصداقة والامانة . ومن اقوالهم « تفضل لو ما لحنا » يدعون به الى مائدة الطعام والصداقة

الاكليروس عمله هذا خطرًا على الناس . واذا قام ملك وكان اكثر الناس تكبرًا وتجبرًا واشدهم حبًا للمصلحة واكثرهم قسوة مثل لويس الرابع عشر مثلاً فانه يجد من الكهنة من يقنعه على رغم الانجيل انه مسيحي لا شك فيه . ولكن كما يقوم اناس كهؤلاء يقوم ايضًا اناس للعمل بمبادئ الانجيل حرفًا بحرف فيضطرون الى المعيشة خارج الهيئة الاجتماعية في الصوامع والديور كما يصنع الرهبان

الفصل السابع عشر

انتيباس ويسوع . مقاومة الفريسيين له . فرق الفريسيين . فلاسفة اليهود ومقاومتهم لهم قديمًا . التهكم وضربات اله

ولما بلغت اعمال السيد الى انتيباس والي الجليل رام مشاهدته فرفض يسوع ذلك لكراهته الدخول في المسائل السياسية وانصرافه الى تعليم الشعب واستمالته دون سواه . ولكن انتيباس لم يلبث ان سمع من الناس ان يسوع هو يوحنا المعمدان وقد بعثه الله فاضطرب لذلك ورغبة في ان يُخرج يسوع من ولايته بعث اليه بعض الفريسيين يقولون له ان انتيباس عزم على القاء القبض عليه وقتله كما قتل يوحنا المعمدان . فلم يعبأ يسوع بهم ولا بحيلتهم . اما انتيباس فانه لما رأى بساطته وكراهته لاثارة خواطر الشعب اطمأن باله وعدل عن اضطهاده

اما الفريسيون فانهم كانوا يقاومون السيد ويعارضونه معارضة شديدة فوجبت مقاومتهم مقاومة شديدة ايضًا . ومن المشهور عن اليهود ان من صفاتهم شدة الوخز في الجدال والمناظرة حتى انه لم يقم يومًا بين الناس مناظرات شديدة كالمناظرات التي كانت تقوم بينهم . وكانت الشدة ضرورية في هذه الحالة لمقاومة القوة بالقوة . ومما لا يحتاج الى بيان ان لوثيروس ورجال الثورة الفرنسوية لو لم يُظهروا شدة وعنفًا في اعمالهم لما كانوا قد عملوا شيئًا

وكان هؤلاء الفريسيون قومًا يراعون الظواهر الدينية دون البواطن . وكانوا اقسامًا . فمنهم فريق يُدعى « نيكفي » وهم الذين يسيرون في الشوارع ويجرّون اقدامهم جرًّا ويصدمون بها الحصى والحجارة . ومنهم فريق يُدعى « كيزاي » اي ذوي الجباه الدامية وهم الذين كانوا يسيرون في الشوارع مغمضي العيون لئلا يقع نظرهم على النساء ولذلك

كانوا يصدمون الجدران في مشيهم فتدمى جباههم . ومنهم فريق يدعى « ميدوكيا » وهم الذين كان كل واحد منهم يعيش مطوياً قسمين . ومنهم فريق يدعى « شيكمي » اي ذوي المناكب القوية وهم الذين يسيرون وظهورهم محنية كأنهم يحملون عليها اثقال الناموس كلها . ومنهم فريق يُدعى « اي عمل يجب عمله لا عمله » وهم الذين كانوا يطلبون قواعد الناموس في كل مكان للعمل بها

ولكن الفريسيين لم يكونوا في الحقيقة يعملون بالقواعد التي تقدّمت ولا بقواعد الناموس بل كانوا يُظهرون انهم يعملون بها . امـا الشعب فكان ينخدع بهم ويصدق اقوالهم . ذلك ان الشعب سهل الانخداع خصوصاً متى كان لرؤسائه مصلحة في خداعه . فانه يرى فيهم اموراً جديرة بالحب فيحبها ولكنهُ لا يرى ما تحت هذه الامور من البواطن الهائلة

فبناءً على ذلك كان لا بدّ من قيام النفور بين نفس يسوع البسيطة ونفوس الفريسيين الجافة اليابسة . فان السيد كان يدعو الى ديانة مبنية على نقاء الباطن وصفاء القلب . اما الفريسيون فكانت ديانتهم عاداتهم وطقوسهم الاعتيادية . وكان الفريسي في اعتقادهم رجلاً معصوماً عن الخطاء فاذا جادل كان الحق في جانبه دائماً واذا دخل الى المجالس طلب المجلس الاوّل واذا مشى في الشوارع راقب الناس اذا كانوا يحيّونهُ او لا واذا تصدّق بشيء بوّق بصدقته تبويقاً . ولقد قام كثيرون من كرام اليهود لمقاومة هؤلاء الفريسيين منهم يشوع بن سيراخ وغمالائيل وانتيكون دي سوكو والرجل الكريم اللطيف الفيلسوف هلل وكلهم علموا تعليماً سامياً يكاد يكون انجيلياً . ولكن الفريسيين استطاعوا خنق تعاليمهم وحرموا من يقرأها . وكانت قاعدة مبادىء الفيلسوف هلل ان الناموس الحقيقي هو العدالة والحق . وقاعدة مبادىء يشوع بن سيراخ ان الديانة الحقيقية هي صنع الخير في العالم

الا ان مبادىء شماي تغلبت على هذه المبادىء العالية وقوي الفريسيون وانصارهم فكان من نتيجة هذه القوة نشأة كثير من التقاليد والعادات التي غطت الناموس الاصلي فلم يعد ظاهراً معها . ولا يُنكر ان ذلك قد كان مفيداً من جهة حفظ التقاليد اليهودية قروناً عديدة لتكون خميرة الديانة المسيحية ولكن الجامع التي كانت امّ تلك التقاليد لم تعد بعد استفحالها الا امّ الخطاء والضلال . ولذلك كان قد قُضي عليها بالسقوط ان لم يكن بالاضمحلال . ومع ذلك فقد كان من الظلم ان يُطلب منها حينئذٍ ان تُنكر ذاتها وتتنازل

عن سلطتها من تلقاء نفسها لان ذلك امر لا يصدر عن البشر في هذه الحياة

وبناءً على ذلك كانت المقاومة مستمرّة بين يسوع وبين الرياء الفريسي الرسمي · ومما كان يُضعف حجج الفريسيين ابتعادهم يومئذ عن التوراة ابتعاد المسيحيين عن الانجيل في هذا الزمان · فنشأ عن ذلك في نفوس الفريسيين بغض للسيد لا ينتهي حتى الموت · فانهم تركوا الشعب يسمي يوحنا المعمدان نبيًا اذ كان امره صغيرًا اما يسوع فان روحه كانت تنقض اساس هيئتهم نقضًا ولذلك كان الخلاف بينهم للموت · ومما كان يفقدهم الرشد سهام التهكم الحادة التي كان يسوع يرشقهم بها · فان هذه السهام كانت تصيب قلوبهم · واذا قيل من الّف هذه الامثال البديعة المملوءة تهكمًا قاتلاً وتلك العبارات الغاصة بسهام حادة تنفذ في لحم المرائين كانها صُنعت من نار ومَن علقها في ذيول الفريسيين وجعلهم يجرونها وراءهم منذ ١٨ قرنًا الى اليوم · فالجواب ان يسوع هو الذي صنعها وعلقها · فيالك من تهكمات هائلة هدمتْ عالمًا وقتلت امة · ان سقراط وموليير قد رشقا بسهام ولكن سهامهما كانت تخدش الجلد خدشًا · اما هذه السهام فكانت تغوص الى القلوب وتضع النار واليأس فيها · فلا ريب ان هذه الضربات ضربات اله

الفصل الثامن عشر

سفره الاخير الى اورشليم · وادي الجثمانية · جبل الزيتون · بيت عنيا · سبب خوف الشعب من اتباعه · تركه المسائل السياسية · حملته على الكهنة والفريسيين

وقد كان السيد يرى الخطر الذي على حياته من الفريسيين ولذلك اقام ١٨ شهرًا في الجليل دون ان يسافر الى اورشليم · وكان الفريسيون قد حاولوا جرّه الى الامور السياسية في الجليل ليتخذوها حجة لدى انتيباس والحكام الرومانيين الا ان يسوع تغلب على مكرهم هناك · ولكنه كان يرى انه اذا بقي في الجليل فانه لا يستطيع ان يتمّ عمله لان اورشليم مركز كل عمل · فرأى بالرغم عن الخطر وجوب السفر الى اورشليم فعاد اليها مع تلامذته للتعليم في الهيكل ومناظرة الفريسيين

وقد اختار يسوع في اورشليم ثلاثة مواضع للاستراحة فيها من عناء مباحثة الفريسيين · الاول وادي «الجثمانية» التي ربما كان معناها معمل الزيت · وكان سكان اورشليم يتخذون هذا المكان للتنزه فيه في كل مساء · والموضع الثاني جبل الزيتون وكان يسوع يصعد اليه بعد التنزه في الجثمانية ويصرف الليل فيه · اما هذا الجبل فهو قائم في شرقي المدينة وهو المكان

الوحيد الذي يظهر فيه الخصب والنبات في اورشليم . فقد كان فيه وفي ما جاوره من القرى كبيت فاجي والجثمانية وبيت عنيا اشجار كثيرة من الزيتون والتين والنخيل . وكان في الجبل ارزتان كبيرتان كانت تعشش فيهما طيور الحمام ويبسط الباعة تحت اغصانهما بضائعهم للبيع والشراء . وقد حفظ اليهود بعد تشتت شملهم تذكار هاتين الارزتين

ففي هذه الاماكن كان يقيم يسوع وتلامذته . اما الموضع الثالث الذي كان يتخذه لراحته فهو قرية بيت عنيا . وهذه القرية قائمة على احدى الآكام المشرفة على الاردن والبحر الميت وهي على مسافة ساعة ونصف من اورشليم . وكان يسوع يفضل الاقامة في هذه القرية الجميلة على ما سواها وفيها تعرّف بمرتا ومريم ولعازر . وكان يسوع اذا اقام في الاماكن التي تقدم وصفها نسي شيئاً من عناء المجادلات الشاقة مع الفريسيين المرائين . وكان اذا اشرق الفجر وطلعت الشمس على جبل الزيتون تنثر تبرها الجميل عليه وقف يسوع متأملاً في تلك المناظر البديعة التي حوله فيسر بها سروراً يخالطه شيء من تذكار مؤلم . فيلتفت حينئذٍ الى اورشليم امامه ويخاطبها قائلاً :

« يا اورشليم يا اورشليم . يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة اردت ان اضم اولادكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدي »

وليس المقصود بذلك ان الشعب اليهودي في اورشليم لم يكن يقبل تعاليم يسوع لانه اغاظ نفساً من رجال الجليل كلاً ولكن التعاليم الفريسية الرسمية كانت تضغط على النفوس الى حد انه لم يكن احد من الناس يجترئ على التصريح بذلك . وفضلاً عن هذا فان اليهود كانوا يخشون اذا تبعوا يسوع ان يُقال انهم خضعوا لرجال من الجليل ولا يخفى ان بلاد الجليل كانت بلاداً مكروهة في اورشليم كما تقدم . ومن جهة اخرى فان اتباع يسوع كان يفضي الى الطرد من المجامع (المعابد) والحرمان من الحقوق الدينية . وهذا الحرمان يستوجب في الشريعة اليهودية حجز الاملاك وفي ذلك ما فيه من الاهانة والخسارة . وزد على ذلك ان الذي كان يخرج من اليهود لم يكن له ان يصير رومانياً بل يبقى بلا حامٍ ولا نصير تحت ضربات سلطة جائرة . وفي ذات يوم جاء اصاغر حراس الهيكل الى كهنتهم بعد ان سمعوا احدى عظات يسوع واطلعوهم على ما قام في نفوسهم من الشكوك وعن رضى الشعب عن تلك التعاليم فاجابهم كهنتهم « هل رايتم احداً من الرؤساء او من الفريسيين آمن به . ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون »

اما يسوع فانه كان يجدّ في الوعظ وتعليم الشعب في الهيكل . وكانت سلطته آخذة

في التعاظم والازدياد واستمرّ الشعب يقبل تعاليمه السامية البسيطة دون ان يُظهر التسليم بها خوفاً من رؤسائه . ففي ذات يوم جاءه الفريسيون بزانية وسألوه بماذا يجب ان تُعامل وقد ظنوا انهم بذلك يُظهرون ضعف تعاليمه امام الشعب . فاجابهم السيد بذلك الجواب الهائل الذي كان كسهم اخترق الرياء وغاص في قلوبهم . فقد قال لهم « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ومنذ هذه الكلمة اضمروا له الشر ونووا قتله ليستريحوا من مقاومته . ولا غرو فان الحمق يكرهون العظمة الادبية اشد كراهة ولا سيما اذا اقترنت بفصاحة اللسان و بلاغة الجنان

وكانت همة الفريسيين مصروفة الى جعل السيد يتداخل في الامور السياسية ليتخذوها حجة عليه لدى اسيادهم الرومانيين كما تقدم . فجاءه بعضهم في ذات يوم مظهراً الحب له وقالوا له « يامعلم . نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي باحدٍ لانك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن . ايجوز ان تُعطى جزيةٌ لقيصر ام لا » وكانوا يتوقعون عند هذا السؤال ان يجيب السيد بجواب يوجب تسليمه الى بيلاطس لقتله كما قُتل يهوذا الغولونيتي الذي كان يحرّم دفع الجزية للرومانيين كما تقدم . اما يسوع فانه اجاب جواباً بديعاً . فانه قال لهم اروني اولاً النقود فاروه ديناراً فسألهم لمن هذه الصورة وهذه الكتابة اللتين على الدينار فاجابوه انها لقيصر . فقال السيد : اذاً اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وبهذه الكلمة وضع يسوع اساس الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وبنى بكلماتها دعائم مستقبل الديانة المسيحية

وكانت بلاغته الالهية تحضره كلما رام محاربة الرياء والمرائين كما تدل على ذلك الاقوال الآتية التي فاه بها في الهيكل ضد كهنة ذلك الزمان

« على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فاعملوا حسب اقوالهم ولكن لا تعملوا حسب اعمالهم لانهم يقولون ولا يفعلون . فانهم يحزمون احمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على اكتاف الناس وهم لا يُريدون ان يحركوها باصبعهم . وهم يعملون كل اعمالهم لكي تنظرهم الناس فيعرّضون عصائبهم ويعظّمون اهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الاول في الولائم والمجالس الاولى في المجامع والتحيات في الاسواق وان يدعوهم الناس سيدي سيدي . فالويل لهم

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون لانكم اخذتم مفتاح المعرفة ولم تستعملوه الا لاغلاق ملكوت السماوات فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم يامن تاكلون بيوت الارامل باطالة صلواتكم ولذلك تكون دينونتكم على قدر ذلك . ويل لكم

يا من تطوفون البحر والبر لتضموا اليكم رجلاً واحداً ومتى حصلتم عليه تصنعونه ابناً لجهنم . ويل لكم لانكم مثل القبور المستورة والذين يمشون عليها لا يعلمون

« ويل لكم ايها المراؤون والعميان لانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتتركون افضل ما في الناموس اي الحق والرحمة والايمان . فقد كان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . ويل لكم ايها القادة والعميان الذين يصفون الكأس عن البعوضة حالة كونهم يبلعون الجمل

» ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءتان سرقة وشراهة . ايها الفريسي الاعمى نقِ اولاً داخل الصحفة لكي يكون ايضاً خارجهما نقياً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسون المراؤون لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة . انتم من خارج تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياءً واثماً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما شاركناهم في دم الانبياء . فانتم اذاً تشهدون على انفسكم بانكم ابناء قتلة الانبياء . فاتموا اذاً عمل آبائكم . فقد جاء في حكمة الله « ها انا ارسل اليكم انبياء وحكماء وعلماء فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة لكي يقع عليكم كل دم زكي سفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم ذكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقوله لكم ان هذا كله يقع على هذا الجيل »

واشد ما كان يغيظ الفريسيين في هذه التعاليم امران . الاول ان ملكوت الله آخذ في الانتقال من اليهود الى باقي الامم لان اليهود يضطهدون ويقتلون الانبياء والرسل الذين جاؤوا ليرشدوهم اليه . والامر الثاني دعوة يسوع الفقراء والصغار الى احتلال محل الكبراء لتأييد ملكوت الله . وقد كان يقول انه جاء الى هذا العالم ليفتح عيون الذين لا يبصرون ويعمي الذين يبصرون (يوحنا الاصحاح ٩ العدد ٣٩) ولكنه في ذات يوم بدرت من فمه هذه العبارة عن الهيكل « انني اهدم هذا الهيكل الذي بنته يد الانسان وابني في ثلاثة ايام هيكلاً غير مصنوع بالايدي » فتمسك الفريسيون بهذه الكلمة لانهم اعتبروها تجديفاً على الهيكل واتخذوها حجة لشكواه الى الحكومة . وكانت حكومة الرومانيين توجب

احترام الديانة اليهودية وتنفذ القرارات التي يصدرها رؤساؤها

الفصل التاسع عشر

السياحة في بيريا · واحة اريحا · اجتماع المجمع · قيافا وحنانيا · مبدأ المحافظين

وقد صرف يسوع فصل الخريف وقسماً من الشتاء في ذلك العام في اورشليم وكان البرد شديداً فيها · وكانت اقامته في رواق سليمان في الهيكل · وبعد شهر دسمبر من ذلك العام ساح سياحة في بلاد بيريا في عبر الاردن حيث عاش يوحنا يعمد · فوجد سروراً وراحة في هذه السياحة ولا سيما في مدينة اريحا · وكانت هذه المدينة قائمة في طرف طريق عمومية كبرى وفيها كثير من الحدائق والحقول الخصيبة ولذلك اقام الرومانيون فيها جمركاً كبيراً · وكان رئيس هذا الجمرك رجلاً غنياً وهو العشار زكا فاحب مشاهدة السيد · وبما انه كان قصير القامة صعد الى جميزة ليراه منها في مروره · ولما درى السيد به رام النزول في بيته دون ان يعبأ بكراهة اليهود للعشارين كما تقدم · اما واحة اريحا فقد كانت بقعة من اجمل بقاع سوريا يومئذ وقد وصفها يوسيفوس معجباً بخصبها كما اعجب ببلاد الجليل ولقبها « البلاد السماوية »

وبعد ان زار يسوع البلاد التي عمد فيها يوحنا المعمدان والتي كان فيها بدء تعاليمه عاد الى بيت عنيا حيث كانت تطيب له الاقامة · وبعد اعجوبة لعازر عاد الى اورشليم

اما الفريسيون فانهم كانوا في اثناء ذلك يتباحثون في شأنه · وقد جمع رؤساء الكهنة في شهر فبراير او في اوائل مارس من ذلك العام مجمعاً وطرحوا فيه هذه المسألة «هل في الامكان بقاء الديانة اليهودية اذا بقي يسوع حياً » واحياناً قد يكون في السؤال جواب ولذلك لم يلبث رئيس الكهنة ان قال « لا بأس ان يموت واحد لتحيى الامة »

وكان رئيس الكهنة يوسف قيافا وقد رقاه الى هذا المنصب الحاكم الروماني فالاريوس كراتوس ولذلك كان مخلصاً للرومانيين · وقد ثبت هذا الرجل في رئاسة الكهنة من عام ٢٥ للميلاد الى عام ٣٦ · اما سلطة هذا الرئيس فقد كانت اسمية على الارجح · اذ قد كان فوقه رجل يُدعى حنانيا او حناس وهو شيخ كان رئيساً للكهنة ثم فُصل وتزوج قيافا بابنة له · ولكنه مع انفصاله عن رئاسة الكهنة بقيت له سلطة كبرى عليها وبقي الشعب يناديه « رئيس الكهنة » وكانوا يستشيرونه في كل المسائل الهامة · ومما زاد سلطته ان رئاسة الكهنة بقيت في اسرته مدة ٥٠ سنة وكان قيافا الرئيس الحقيقي صهراً له ·

ولذلك كان يرد اسماهما معاً في هذه الحوادث . وكثيراً ما كان يرد اسم العم مقدماً على اسم الصهر . وقد ذكر يوسيفوس ان هذه الاسرة كانت مشهورة بالقسوة في الاحكام . ومما يجدر ذكره ان الذي حكم برجم يعقوب اخي يسوع هو من ابنائها . وبناءً على ذلك تكون تبعة الحوادث القادمة على حنانيا لا على قيافا . وهو الذي يجب ان يحمل على عاتقه لعنة الانسانية اكثر من بيلاطس وقيافا .

وكان جمهور الاكليروس اليهودي راغباً في وضع حد لهياج الشعب وثورة الافكار . ذلك انهم توقعوا من وراء هذا الهياج استفحال سلطة الرومانيين في بلادهم . ومتى استفحلت تلك السلطة هدمت الهيكل وقطعت رزقهم . ولا ريب ان الاسباب التي دعت الى خراب الهيكل بعد مرور ٣٧ سنة على هذا التاريخ لا علاقة لها بالامر الذي تقدم ولكن خوف الفريسيين من انقلاب الاحوال كان عظيماً . ولو قبل اليهود يومئذ تعاليم يسوع لسقط الهيكل وسقطت امته معه . ولذلك قال حنانيا وقيافا « خير ان يموت واحد من ان تموت الامة كلها » . ولكن هذا الحكم فظيع وهائل . ويسوءنا ان نقول ان جميع الاحزاب المحافظة التي تسمي نفسها « حزب النظام والامن العام » تحكم احكاماً كهذا الحكم . فانها تعتبر ان اكبر واجبات الحكومة منع تأثر الشعب وهياجه بكل الطرق ولذلك لا يقوم احد قادر على الحركة الا وتقف في وجهه ولو افضى الامر الى سفك دمه . وهي بذلك تشهر حرباً على كل ذي اقدام وكل ذي فكر وتجهل ان هذا الفكر لا بدّ ان ينتصر . ومما لا يحتاج الى بيان ان الحركة السامية التي كان يديرها يسوع كانت حركة روحية لا علاقة لها بالسلطة الزمنية . ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة كافية لاثارة اوهام الرجال الذين يسمون انفسهم رجال النظام والهدوء لانها حركة . ولذلك صنعوا ما صنعوه

الفصل العشرون

يسوع في الاسبوع الاخير . مريم والطيب . دخوله اورشليم على اتان . خيانة يهوذا . عشاء الوداع

وكان هؤلاء الرؤساء قد قضوا على يسوع بالموت منذ شهر فبراير ومارس . ولكن يسوع كان قد سافر مع تلامذته الى مدينة تُدعى افراين او افرون وهي بلدة على حدود البرية في جهة بيتل على مسافة يوم من اورشليم . وقد صرف يسوع في هذه القرية بضعة اسابيع مع تلامذته لعل الزوبعة في اورشليم تسكن قليلاً . ولكن الزوبعة لم تسكن لان الرؤساء

اصدروا الامر بالقاء القبض على يسوع حينما يشاهَد في الهيكل · ذلك ان عيد الفصح اليهودي كان قريباً وكانوا يعلمون ان يسوع سيصرفه في اورشليم

وفي الواقع ان يسوع رام العودة الى اورشليم قبل عيد الفصح · ولكنه عاد اليها مع تلامذته بنفس مضطربة لما كان يتوقع حدوثه فيها · وكان يُحدّث تلامذته في الطريق عن نفسه بحزن ويقول لهم انه قد بلغ النهاية · فساء التلامذة هذا الامر لانهم كانوا يتوقعون تحقق الملكوت الذي كانوا في انتظاره · اما يسوع فانه كان يرى انه مستقبل الموت ولكنه كان يعتقد بان موته يخلص العالم ويحقق ذلك الملكوت

وكانت العادة ان الذين يرومون الحجّ الى اورشليم يفدون عليها قبل عيد الفصح ببضعة ايام ليستعدوا للعيد · فلما اقترب الفصح ولم يأتِ السيد خشي الكهنة من ان يكون قد عدل عن القدوم فيفوتهم القبض عليه · ولكن لم يلبث ان سكن خاطرهم اذ دروا انه قد قرب من اورشليم اذ كان قد وصل الى بيت عنيا في ٢٨ مارس اي قبل عيد الفصح عند اليهود بستة ايام · وكان نزوله في بيت عنيا في بيت مرتا ومريم او بيت سمعان الابرص · وقد احتُفل بعودته احتفالاً عظيماً · وفي هذه الزيارة اقيمت ليسوع مأدبة في بيت سمعان الابرص ورغبة في زيادة اكرامه دخلت مريم في اثناء المأدبة وفي يدها قارورة طيب ثمين فسكبت الطيب على قدمي يسوع ثم كسرت القارورة جرياً على عادة شرقية قديمة توجب كسر الاناء الذي يستعمله ضيف كريم · ثم انها مبالغةً في اظهار حبها واحترامها ليسوع اتت امرًا لم يسبق له مثيل قبل ذلك وهو انها جثت على الارض امامه ومسحت بشعرها الطيب الذي كان على قدميه · فانتشرت عند ذلك في المكان رائحة الطيب الذكية فانشرحت لها صدور الحاضرين الا صدر يهوذا الخريوطي · ذلك ان هذا التلميذ كان امينًا لصندوق الطائفة المسيحية وكان مشهورًا بالبخل والاقتصاد · فلما رأى ذلك الطيب الثمين ضائعاً(بالمعنيين)لم يتمالك من تعنيف مريم على هذا الاسراف بقوله انه كان يجب ان يُباع ويُعطى للفقراء اي ان يدخل في صندوق الجمعية · فلما سمع يسوع هذه الملاحظة قال « ان الفقراء معكم في كل حين واما انا فلستُ معكم في كل حين » ثم وعد تلك المرأة بخلود الاسم الى الابد

وفي اليوم التالي نزل يسوع من بيت عنيا الى اورشليم · ولما صار في منعطف الطريق على قمة جبل الزيتون ورأى اورشليم منبسطة تحت عينيه بكى عليها وخاطبها · ثم وصل الى حي بيت فاجي القائم تحت سفح الجبل قرب اورشليم · وكان هذا الحي من احياء المدينة

المقدسة وفيه يقيم اكثر الكهنة . فاستقبله عند هذا الحي كل الجليليين الذين اتوا يحجون الى اورشليم وجاءوا باتان يتبعها جحش واركبوه عليها . ثم انهم فرشوا الطريق بملابسهم وباغصان الاشجار وحملوا سعوف النخل ودخلوا بيسوع الى المدينة يهتفون « اوصنا لابن داود . مبارك الآتي باسم الله » ولم يكتفِ بعضهم بذلك بل سماه ملك اليهود . فلما سمع الفريسيون ذلك قالوا له « يا ربي اي يامعلم مرهم ان يسكتوا » فاجابهم يسوع اذا سكتوا فان الحجارة تهتف بدلاً منهم

وحين دخول يسوع سأل بعض الجموع مَن هذا فاجابوهم « انه يسوع نبي الناصرة في الجليل » . وكان عدد سكان اورشليم في ذلك الزمان ٥٠ الف نفس . والمادة ان حادثة كهذه الحادثة لا تترك بعدما اثراً وقتاً طويلاً ولكن اورشليم لم تكن لسكانها في ايام الاعياد بل كانت للغرباء القادمين اليها . ولذلك ازدحم هؤلاء الغرباء وتحمسوا يرومون مشاهدة يسوع . وبعض من المتكلمين باللغة اليونانية لم يكتفوا بالمشاهدة بل خاطبوا التلامذة وطلبوا مقابلته . ولا يدري احد بما تم بعد هذا الطلب

اما يسوع فانه عاد في ذلك المساء الى قريته العزيزة « بيت عنيا » فبات ليله فيها وفي الايام الثلاثة التالية اي الاثنين والثلثاء والاربعاء كان ينزل الى اورشليم في النهار وفي الليل يبيت في بيت عنيا او في احدى المزارع القائمة في غربي جبل الزيتون حيث كان له اعزاء كثيرون

وكان الفريسيون والكهنة قد ابتهجوا بعودته الى المدينة . اما يسوع فانه كان سكوتاً مضطرباً . وقد اجمعت على ذلك الاناجيل الاربعة . وكان يقول احياناً « نفسي حزينة حتى الموت . خلصني يا ابتاه من هذه الساعة » واحياناً يصعد الى الجبل مع بعض تلامذته ويصلي فيه ووجهه لاصق بالثرى . فكل ما نقوله في هذا الامر هو ان العمل العظيم الذي اقدم يسوع عليه ظهر له حينئذٍ بمظهر جديد لانتباه الطبيعة البشرية . ولا عجب في ذلك فان من اوقف نفسه لفكر عظيم و بذل في سبيل هذا الفكر كل رخيص وغال حتى راحته وقواه وكل ما تملكه يداه لجدير بان يعود الى نفسه عند ظهور خيبة ذلك الفكر له وييأس من في مصيره . ولكن قوة يسوع الالهية لم تلبث ان تغلبت على الطبيعة البشرية ودفعته الى الامام دون مبالاة بموت . ومنذ هذا الحين دخل يسوع في طور جديد وصارت صورته عبارة عن صورة كاملة فيها تعزية وقوة لجميع النفوس الحزينة المعذبة في هذه الحياة . اما التلامذة فانهم كانوا لا يعلمون شيئاً مما قام في نفس سيدهم

واذا كانت عودة يسوع الى اورشليم قد سرّت الفريسيين واكابر اليهود فقد ساءهم ذلك الاحتفال العظيم الذي اقيم له حين دخوله الى المدينة . ولذلك انعقد مجلس رؤساء الكهنة في يوم الاربعاء عند يوسف قيافا وتقرر فيه القبض على يسوع في الحال . وبما ان عيد الفصح كان واقعاً في يوم الجمعة والناس يزدحمون فيه ازدحاماً شديداً فقد قرروا القبض عليه قبل العيد لئلا يحدث شغب في الشعب لان يسوع كان محبوباً اليه . فعينوا يوم الخميس لذلك . وفضلاً عن ذلك فانهم قرروا ايضاً القبض عليه وهو في احدى خلواته لا في داخل الهيكل فراراً من الهياج . ولذلك ذهب بعض من الكهنة ليجسوا تلامذته و يستعلموا منهم ما يريدون علمه . فوجدوا ضالتهم لدى يهوذا الخربوطي . فان هذا التلميذ التعيس خان سيده لاسباب لا تزال مجهولة . وكان هذا الرجل محسوباً تلميذاً حتى ذلك الوقت وله الحق بلقب « رسول » وكان يصنع عجائب و يطرد شياطين . وكان اميناً لصندوق الطائفة المسيحية الاولى فاذا سلّم سيده وسيدها انفرط عقدها وخسر وظيفته ومكانته . فما الفائدة التي كانت له من هذا التسليم . امبلغ تافه من المال كثلاثين فضة . ذلك امر غير معقول . والراجح انه كان بينه وبين التلامذة منافسات بسبب حبه للاقتصاد وتوفير المال للطائفة . وربما كان في الملاحظة التي لاحظها السيد في بيت عنيا على يهوذا عن الطيب الذي سُكب على قدميه ما اسخط هذا الرجل وابعد قلبه عن سيده . ولكن هذا الرجل لا يستحق كل اللعنات الهائلة التي صُبت على راسه من جراء هذا التسليم لان قلبه لم يبتعد عن سيده الا ابتعاداً وقتياً بدليل انه بعد ارتكابه الجرم ذهب وشنق نفسه . فرجل فاسد السيرة والسريرة فساداً حقيقياً لا يندم هذا الندم على جرمه . وانما كان جرمه نتيجة فساد ساعة طرأ على نفسه ثم عاد ضميرها اليها

والآن قد وصلنا الى الساعة الهائلة التي كل دقيقة منها تُحسب بمثابة قرن في تاريخ الانسانية . وصلنا الى يوم الخميس ٢ ابريل (نيسان) وهو موعد القبض على يسوع . وكان بدء عيد الفصح واقعاً في اليوم التالي وفيه ياكل اليهود حَمل الفصح . ثم يستمر العيد ستة ايام يؤكل فيها الخبز المقدس . فتكون مدة العيد عندهم سبعة ايام واعظمها الاول والاخير اذ يُقام فيهما احتفالات كبيرة . ولذلك اخذ التلامذة يستعدون لليوم الاول من الفصح

اما يسوع فانه علم بخيانة يهوذا ووعده الفريسيين ان يسلمه اليهم . وفي ذلك المساء جلس يسوع والتلامذة الى الطعام الاعتيادي لان الفصح لا يؤكل الا في اليوم التالي . وكان يسوع في هذه الجلسة هادئاً لطيفاً ولا سيما مع يوحنا وبطرس . انما كان في نفسه شيء

من خيانة يهوذا . وكان يوحنا ممددًا على مقعد ورأسه مسنود الى ركبة يسوع .
وفي نهاية الطعام ثقلت خيانة يهوذا في نفس يسوع فقال « الحق اقول لكم ان احدكم سيخونني»
فدهش التلامذة وبهتوا واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض . وربما كان قصد يسوع من
ذلك ان يرى ماذا يكون لذلك الكلام من التأثير على وجه يهوذا . اما بطرس فان نفسه
المستقيمة الكريمة اصبحت عند ذلك في عذاب شديد . فاشار الى يوحنا الذي كان قريبًا من
يسوع ان يساله عن معنى هذا الكلام . فسأله يوحنا همسًا فلم يصرح له السيد باسم احد
من التلامذة لان خيانة يهوذا لم تكن قد ثبتت بعد . وانما قال له ان الخائن هو الذي سيقدم
له لقمة مغموسة بالمرق . وكانت العادة في الشرق ان رئيس المائدة اذا رام اكرام احد
من الجالسين تناول شيئًا من الطعام وجعله لقمة ثم قدمه اليه . ففعل يسوع ذلك وقدم
اللقمة الى يهوذ . فلم يدرِ بهذا السر غير بطرس و يوحنا . و بعد ذلك و بخ السيد يهوذا توبيخًا
لم يفهم التلامذة معناه وخرج (١)

وفي هذه الجلسة غسل يسوع ارجل تلامذته وقال لهم (انتم تدعونني معلمًا وسيدًا
وحسنًا تقولون لاني انا كذلك . ولكن ان كنت وانا السيد والمعلم قد غسلت ارجلكم فانتم
يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض لانني اعطيتكم مثالاً ،، وفيها ايضًا قال لهم ،، وصية
جديدة انا اعطيكم وهي ان تحبوا بعضكم بعضًا كما احببتكم انا . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي »

وقد ترك هذا المساء في نفوس التلامذة اثرًا شديدًا . ولما حدثهم يسوع عن قرب
تسليمه الى القضاة والكتبة والفريسيين قال تلامذته انهم سيتبعونه . فقال لهم بل انكم
تتفرقون . فقال له بطرس بل اتبعك واضع نفسي مكانك فاجابه يسوع انك تنكرني قبل
صياح الديك . فحلف انه يتبعه ولا ينكره وحلف جميع التلامذة معه

---

(١) « فغمس اللقمة واعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطي . ثم قال له يسوع ،، ما
انت تعمله فاعمله باكثر سرعة ،، فظن السامعون ان يسوع قال له اشترِ ما نحتاج اليه للعيد
او ان يعطي شيئًا للفقراء ،، يوحنا ص ١٣ ع ٢٦

الفصل الواحد والعشرون

(القبض على يسوع)

في منزل حنانيا وقيافا · حكم المجمع · يسوع امام بيلاطس · تردد بيلاطس بينه وبين اليهود · مسئولية بيلاطس والاكليروس اليهودي · لا يجب ان تقع هذه المسئولية على كل اليهود · ألم تصنع الكنيسة المسيحية في الاضطهاد الديني ما صنعه اليهود

ولما خرج يسوع والتلامذة من مكان العشاء كان الليل قد اسدل ستائره فعبر يسوع وادي سدرون حسب العادة وذهب مع تلامذته الى بستان الجثمانية في سفح جبل الزيتون · ولما وصلوا الى البستان جلس يسوع يصلي ونام تلامذته بجانبه · وبينما هم في هذه الحال واذا بشرذمة من الجند قادمة على نور المشاعل · وكان هذا الجند من الجند اليهودي الذي يحرس الهيكل وسلاحه العصي وقد ترك الرومانيون لليهود استخدامه في اماكن العبادة · ولكن كان معهم ايضاً شرذمة اخرى من الجند الروماني المسلح بالسيوف · وكان في يدهم امر من رئيس الكهنة والمجمع بالقبض على يسوع · وكان يهوذا في صحبتهم وقد جاء يدلهم على المكان الذي يقيم فيه يسوع في الليل · وقد بلغت منه النذاعة والجنون انه جعل تقبيله يد يسوع علامة بينه وبينهم ليعرفوه · ومما لا ريب فيه انه لما وصل الجنود حدث شيء من المقاومة بينهم وبين التلامذة · وروى الانجيلي يوحنا ان بطرس استلّ سيفاً وضرب به احد خدام رئيس الكهنة فقطع اذنه · اما يسوع فانه ابطل هذه المقاومة في الحال وسلم نفسه الى الجند · فعاد الجند به · واما التلامذة فانهم تفرقوا خوفاً من سلطة اليهود · ولم يتبعه منهم احد سوى بطرس ويوحنا فانهما تبعاه من بعيد · وتبعه تلميذ آخر قال عنه مرقص هذه العبارة « وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشبان فترك الازار وهرب منهم عريان » ولعل هذا التلميذ هو مرقص نفسه

اما التهمة التي وُجهت الى يسوع وصدر الامر بمحاكمته من اجلها فهي تهمة « تضليل الشعب وافساد عقيدته ومخالفة الديانة اليهودية » وكان الرؤساء اذا راموا محاكمة المتهم بتضليل الشعب ومقاومة الشريعة اليهودية صنعوا في التحقيق صنعاً غريباً · فانهم يأتون بشاهدين ويخفونهما في مكان ثم يجيئون بالمتهم ويوقدون امامه شمعتين ليراه الشاهدان من مكمنهما فلا يبقى لديهما شبهة فيه · ثم يسألونه عما اتهم به فيجيب ويجهر بما في نفسه والشاهدان يسمعان · فيطلب منه الرؤساء حينئذٍ تغيير معتقده فاذا اصرّ عليه اخذه الشاهدان الى

المحكمة وشهدا لديها عليه فتحكم برجمه بالحجارة · وقد جاء في التلمود ان رؤساء اليهود فعلوا هذه الفعلة ايضاً بالسيد المسيح وان الحكم الذي حُكم عليه لم يصدر الا بناء على شهادة شاهدين خفيين · غير ان الشريعة اليهودية لا تُجيز هذا الكمين الشنيع للمتهم الا في تهمة التضليل ومقاومة الشريعة دون سواها

ولما القي القبض على يسوع ذهب به الجند اوّلاً الى حنانيا الذي كان صاحب الكلمة العليا بين رؤساء اليهود كما تقدم لان قيافا الرئيس الحقيقي كان صهراً لهُ · فسأل حنانيا يسوع عن تعاليمه وتعاليم تلامذته · فقضت حينئذٍ عظمة النفس على يسوع بترك الدفاع عن نفسه · وانما ردّ حنانيا الى الذين سمعوا وعظه في الاجتماعات العمومية · فلما سمع احد الحاضرين هذا الجواب اعتبره اهانة لحنانيا فلطم يسوع بيده على خده

وقد ذكرنا آنفاً ان بطرس و يوحنا كانا يتبعان يسوع من بعيد · اما يوحنا فقد كان معروفاً في بيت حنانيا ولذلك استطاع الدخول اليه · واما بطرس فان حارسة الباب رامت منعه من الدخول · فجاء يوحنا وسألها ان تأذن له بالدخول فأذنت · وكان البرد شديداً في ذلك الليل فذهب بطرس الى نار موقدة واخذ يصطلي على حرارتها في جملة المصطلين · ولما اخذ يتكلم عرف السامعون من لهجته انه جليلي اي من بلاد الجليل ومن تلامذة يسوع · فسألوه وانت ايضاً من تلامذته · فانكر بطرس ذلك ثلاث مرات وقال انه لا يعرف يسوع ولا علاقة له به · ومما سهل له هذا الانكار ان يسوع لم يكن يسمعه · ولكن طبيعته الكريمة جعلته بعد حين يحس بالغلطة الكبيرة التي ارتكبها · فان الديك صاح في ذلك الحين · فاذكر بطرس صياحه كلام يسوع · فثارت لذلك نفس بطرس واضطربت فخرج من المنزل وبكى بكاء مرًّا

وبعد دخول السيد منزل حنانيا ارسله حنانيا الى صهره قيافا رئيس الكهنة · وقد تقدم ان قيافا كان آلة صماء في يد حنانيا · وكان المجمع معقوداً في دار قيافا · فلما جيء بيسوع تقدم عدة شهود من شهود الخفية الذين تقدم ذكرهم وشهدوا بان يسوع قال « انه يهدم الهيكل ويبنيه في ثلاثة ايام » وكان التجديف على الهيكل في الشريعة اليهودية بمثابة التجديف على الله · فسأله قيافا رئيس الكهنة هل قال ذلك القول · فلزم يسوع السكوت بعظمة وانفة · ذلك انه كان عالماً بان الرؤساء قد قرروا الحكم عليه كيفما كانت الحال فلا يجدي الدفاع نفعاً · وكثيراً ما يكون السكوت في مثل هذا المقام ابلغ واسمى من الكلام

فلما سمع المجمع الشهود حكم باجماع الاصوات بثبوت ما اتهم به يسوع من رغبته في ابطال الدين اليهودي والشريعة اليهودية . ومتى ثبتت هذه التهمة فجزاء صاحبها الاعدام لا محالة . وكان في روءساء المجمع بضعة يميلون الى يسوع فبعضهم غاب ولم يحضر الجلسة وبعضهم لم يعطِ صوتاً . وقد اصدر ذلك المجمع حكمه بطياشة وخفة لان الدماء كانت رخيصة في ذلك الزمان . ولم يكن المجمع عالماً بانه سيقدم حساباً عن ذلك الحكم الهائل للاجيال المستقبلة

ومتى اصدر المجمع حكماً كان تنفيذه منوطاً بالسلطة الرومانية . ومع ذلك فقد حسب الناس يسوع منذ تلك الساعة محكوماً عليه لاختلاط السلطات في اورشليم في ذلك العهد . ولذلك بقي تلك الليلة هدفاً لاعتداء جماعة من الاوباش اللئام الذين كانوا يبصقون في وجهه ويضربونه

وفي الصباح اجتمع روءساء الكهنة ثانية وتشاوروا في رفع قرار المجمع الى بنطس بيلاطس حاكم اورشليم من قبل الرومانيين لانفاذه في يسوع . وكان شان اليهود مع الرومانيين في ذلك الزمن شأن عرب الجزائر مع فرنسا اليوم او شأن المدن الهندية المقدسة مع الاحتلال الانكليزي او شأن دمشق الشام اذا احتلت سوريا احدى الدول الاوروبية . ومقتضى ذلك ان الرومانيين كانوا يحترمون ديانة اليهود ويجارونهم في جميع احكامهم اتقاء للفتن الدينية . وقد زعم يوسيفوس انه اذا تخطى احد من الرومانيين في الهيكل المكان المحرم على الوثنيين ان يتخطوه اخذه الرومانيون انفسهم واسلموه الى اليهود لقتله . ولكن هذا القول لا يخلو من المبالغة

فبناءً على ما تقدم امر الكهنة بشد وثاق يسوع وساقوه الى دار الحكومة التي هي قصر هيرودس الكبير . وكان اليوم يوم جمعة (٣ ابريل) وفي مسائه يأ كل اليهود طعام الفصح . فاذا دخل اليهود في هذا اليوم الى دار الحكومة تنجسوا من مخالطة الوثنيين (اي الرومانيين) وحُرم عليهم اكل طعام الفصح في ذلك المساء . ولذلك لم يدخل اليهود حينئذٍ الى دار الحكومة بل اقاموا خارجاً . فلما سمع بيلاطس الحاكم الروماني بقدومهم صعد الى « البيما » وهي كلمة يونانية دخلت الى السريانية الكلدانية ومعناها « محكمة في الخلاء » . وكانت قائمة في المكان المدعو « جباثا » اي البلاط لان الارض كانت مبلطة فيه . ولما استخبر بيلاطس الخبر وعلم بالتهمة والحكم استاء من ادخالهم اياه في مسألة كهذه المسألة . ثم دعا يسوع وخلا به في دار الحكومة . وهناك جرى بينهما حديث لم تُعرف بعد ذلك حقيقته

ولم يكن بنطس بيلاطس (١) قد شاهد قبل ذلك احدًا من الطائفة المسيحية . ذلك لان هذا الوالي كان مبغضاً لليهود ولم يكن يهتم باضطراباتهم ومنازعاتهم الداخلية . وكان اليهود يبغضونه كما يبغضهم لانهم كانوا يرونه قاسياً شرساً محتقرًا لهم ولذلك اتهموه تهماً شنعاء كما روى فيلون . وكانوا يعتقدون ان ذلك الحاكم اليوناني ينوي ابطال الشريعة اليهودية وانه يعمل لذلك سرًّا . اما بيلاطس فانه كان يستاء اشد استياء من التعصب والبغض والاضطهاد وغيرها من النقائص التي كان يلجاء اليهود اليها لان نفسه الرومانية التي الفت الحكومة المدنية كانت مشربة حب العدل كنفوس اصغر الرومانيين واكبرهم . واول قدومه الى اورشليم كان كلما رام ادخال اصلاح في ولايته من انشاء الطرق واقامة المباني كان يلقى الشريعة اليهودية في وجهه تقاومه وتمنعه كسدّ لا يجتازه احد مهما كانت تلك الاعمال نافعة وضرورية . ذلك ان هذه الشريعة كانت تضغط على حياة الامة ضغطاً يحول دون اقل تحسين او تغيير . وكان احداث الامور النافعة معتبرًا فيها بمثابة ادخال بدع جديدة

وكان لبيلاطس منزل في جوار الهيكل ففي ذات يوم خطر له ان يضع فوق باب منزله شعارًا يدل على ان المنزل منزل والي المدينة . فلما وضع هذا الشعار (وكان شبيهاً بالالواح المكتوبة التي توضع اليوم على منازل القناصل والادارات الكبرى) هاج اليهود وماجوا كما روى فيلون . فاصرّ بيلاطس على وضع الشعار فثار اليهود عليه لاجباره بانزاله . ثم نشأت عن ذلك فتن جرت فيها الدماء . فهذه الحادثة وامثالها جعلت بيلاطس كثير التأني في معاملة ذلك الشعب الغريب . وكان يسوءه ان يكون آلة لانفاذ تلك القسوة الشنيعة من اجل شريعة يكرهها كما روى يوسيفوس . ذلك لعلمه ان التعصب الديني اذا جعل الحكومات الدينية تعمل اعمالاً جائرة فانه يعود ويلقي تبعة تلك الاعمال عليها وحدها . وهو ظلم فاضح لان الجاني الحقيقي انما هو الذي اغرى بها وحرض عليها

وبناء على ذلك فان بيلاطس رغب في انقاذ يسوع . ولا ريب ان هدوء يسوع وثبات جاشه ولطف منظره قد اثرت في نفس الحاكم الروماني . وفضلاً عن ذلك فان زوجة بيلاطس كانت على ما يظهر قد اطلت في ذات يوم من شباك قصرها المشرف على

---

(١) بيلاطس كلمة لاتينية مأخوذة من « بيلوم » ومعناها « قوس الشرف » وهي وسام رفيع عند الرومانيين . وقد سمي بنطس (بيلاطس) نسبة الى هذه القوس التي نالها من الرومانيين هو او احد اجداده

ساحة الهيكل ولمحت منه يسوع فراقها هدوءه ولطفه وطهارته . ولما سمعت بان اليهود سيقتلونه ثقل على نفسها هذا الامر الفظيع فجاءها في الحلم ان تكلم زوجها في شأنه . ومهما يكن من هذا الامر فان الشيء الذي لا ريب فيه هو ان بيلاطس كان ذا ميل الى يسوع حين دخوله عليه

وكان كهنة اليهود قد حكموا على يسوع بالاعدام لانه قاوم تقاليدهم فلما دفعوه الى السلطة الرومانية لم يكتفوا بذكرهم مقاومته للدين اليهودي بل زادوا على ذلك انه سمى نفسه ملك اليهود وحرم دفع الجزية الى قيصر . ومعلوم ان يسوع لم يتلقب بذلك قط وانه كان يعترف بالسلطة الرومانية كما تقدم ويوجب دفع الجزية اليها . ولكن الاحزاب الاكليريكية التي تروم حفظ كيانها لا تُحجم عن الكذب والافتراء والنميمة لانفاذ اغراضها . وقد روى الانجيلي يوحنا ان بيلاطس سأل يسوع : أصحيح ما يقوله الكهنة . اما يسوع فانه وجد جواباً جامعاً . فانه اجاب انه ملك ولكن مملكته ليست من هذا العالم وان مقتضى ملكه الحصول على الحق والنداء به . اما بيلاطس فانه لم يفهم شيئاً كثيرًا من هذا الكلام لان الرومانيين في ذلك العصر كانوا لا يهتمون بالمسائل الفلسفية والدينية وكانوا يرون الانتصار للحقيقة وتكريس النفس لها امرًا خيالياً لا شأن له . فكان البحث في مثل هذه الامور يلقي الضجر والملل في نفوسهم . وكانوا يومئذٍ لا يرون ما هو مخبوء في الخميرة المسيحية من الخطر للامبراطورية الرومانية ولذلك لم يرَ بيلاطس ضررًا في انقاذ يسوع . وقد بقي الرومانيون حتى خراب اورشليم يعاملون اليهود هذه المعاملة اي عدم المداخلة في اضطراباتهم الداخلية

فخطر لبيلاطس خاطر ظنَّ به حلاً لهذه المشكلة . فقد جرت عادة الرومانيين في اورشليم ان يطلقوا للشعب في كل فصح سجيناً اكراماً للعيد . وبما ان بيلاطس كان عالماً بان يسوع لم يُقبض عليه الا لحسد الكهنة له حسب انه يُرضي الشعب باطلاقه لهم في ذلك العيد . فخرج بيلاطس من دار الحكومة الى البيما اي المحكمة في الخلاء واقترح على الشعب ان يطلق لهم في ذلك العيد « ملك اليهود » . وقد دعاه بيلاطس ملك اليهود ليظهر للشعب انه غير مهتم له . اما الكهنة فلما سمعوا ذلك خافوا عاقبة هذا الاقتراح فاندفعوا يغرون الشعب ويحرضونه على طلب (برابا) بدلاً من « ملك اليهود » . وكان برابا رجلاً مشهوراً عند الشعب وقد قبض عليه الرومانيون وسجنوه لاشتراكه في فتنة حدثت في المدينة مقرونة بسفك دماء . فلما سمع الشعب اقتراح بيلاطس وكان قد اثر فيه اغراء الكهنة صاح « لا نريد هذا ولكنا

نريد برابا » فاضطر بيلاطس في ذلك اليوم ان يطلق برابا

ولكن المشكلة ازدادت بذلك تعقداً في عينيه . وخشي اذا بالغ في الرفق بيسوع ان يُتهم بمجاملة رجل يزعم نفسه ملك اليهود وهذا مما يلقي عليه في رومه شبهة سياسية عظيمة . ولا عجب ان يجول هذا الامر في فكر بيلاطس فان كل سلطة في العالم مضطرة الى مسالمة التعصب والمتعصبين . ولذلك ظن هذا الوالي انه يلزمه ان يصنع شيئاً . وبما انه كان يكره سفك الدماء ارضاءً لاناس يكرههم فقد خطر له ان يجعل للمسألة شكلاً مضحكاً لعل ذلك يصرف حقد الحاقدين وغضبهم . فجاء بيسوع وامر بجلده . وكان الجلد في العادة مقدمة للصلب . وربما كان قد خطر لبيلاطس ان يوهم الكهنة بانه عزم على صلب يسوع ارضاءً لهم . ثم يكتفي بالجلد دون الصلب حين رضائهم

وحينئذٍ حادث حدث فظيع تنفطر له المرائر وتدمى القلوب . فان بعضاً من الجنود جاءوا بثوب قرمزي فجعلوه على هامة يسوع ثم وضعوا على رأسه اكليلاً من شوك وجعلوا في يده قصبة واخذوه بعد ذلك الى منبر عالٍ منصوب امام الشعب . ثم صار الجنود يمرون امامه فيجثون لدى المنبر على سبيل التهكم ويلطمون يسوع على خديه ويبصقون في وجهه ويضربونه بالقصبة وهم يقولون متهكمين (السلام ياملك اليهود) — وانه من الصعب ان يصدق الانسان ان الجنود الرومانية المشهورة بالرزانة وسكون الجأش تأتي عملاً سافلاً فظيعاً كهذا . ولكنه ثبت ان الجنود التي كانت لدى بيلاطس لم تكن الا من الجنود الاضافية المساعدة التي يستعملها الرومانيون لحاجاتهم . ولو كانت تلك الجنود من افراد الرومانيين الحقيقيين لما نزلوا الى هذه الدرجة من الدناءة والسفالة

وقد ذكرنا ان بيلاطس امر بان يُفعل هذا الفعل في يسوع اخماداً لحقد اليهود ورغبةً في حل تلك المشكلة حلاً هزلياً بدلاً من حلها حلاً دموياً . ولكنه يظهر ان هذا لم يُرضهم قطعياً . فان دعاة الفتنة ازدادوا زئيراً ونعيراً وصاروا يصرخون « فليصلب فليصلب » . وازداد الكهنة ايضاً شدة في طلب ذبح الحمَل الوديع . فوجد بيلاطس انه لا يستطيع انقاذ يسوع الا اذا جرد جنده وقمع به فتنة تلك الغوغاء . ومع ذلك فانه حاول تاجيل الامر لعل في الاطالة افادة . فدخل ثانية الى دار الولاية وسأل عن يسوع من اي بلد هو ليحتج بذلك ويرسله الى والي بلده . وقد روي انه لما علم انه من الجليل ارسله الى انتيباس والي تلك البلاد وكان يومئذٍ في اورشليم وقد جاء للحج . اما يسوع فانه لم يساعد بيلاطس في سعيه في انقاذه بل كان ملتزماً الرصانة والسكوت التزاماً ادهش

بيلاطس . وفي اثناء ذلك اشتد صخب الشعب في الخارج وكثر صراخ الصارخين ضد اهمال بيلاطس . واخذ دعاة الفتنة يتهمون هذا الوالي الروماني بحماية عدو قيصر . و بذلك جعل اولئك اليهود انفسهم من اكثر الناس دعوة الى طاعة القيصر طباريوس مع انهم كانوا من الد اعداء حكمه . وكانوا يقولون « ليس لنا ملك الا قيصر وكل من يزعم انه ملك فهو ضد قيصر . فاذا كان الوالي يطلق هذا الرجل فهو لا يحب قيصر » فلم يستطع حينئذ بيلاطس الضعيف الرأي ان يثبت على رأيه بعد هذا الكلام . لانه علم منذ تلك الساعة ان اعداءه يغتنمون هذه الفرصة ويرسلون الى رومه تقارير سياسية ضده ويتهمونه بانه يدافع عن اعداء الامبراطور . وقد اختبر بيلاطس اليهود في مسألة الشعار التي تقدم ذكرها فوجد انهم خاطبوا رومه في شانها وتغلبوا عليه فيها . وكان هذا الوالي حريصاً على منصبه فلم يرَ بدًّا من الاذعان لليهود . ولكنه يقال انه القى عليهم تبعة ذلك الحادث حين تسليمه فاجابوه « فليقع دمه علينا وعلى اولادنا »

وبما لا ريب فيه ان ذلك الوالي الروماني لم يكن قادراً على ان يصنع شيئاً غير ما صنعه لان الرومانيين كانوا قد اتخذوا مسالمة اليهود خطة لهم اتقاء للفتن والثورات . وما دروا ان هذه المسالمة ستكون باعثاً على تجريئهم عليهم وقيامهم الى الفتن والثورات . ولا عجب فان السلطات الدينية متى كانت لها سيادة او قوة على الحكومات المدنية فانها تدفعها الى سفك الدماء . وليس من الصعب ان نقول ان ملك اسبانيا الذي كان يُسلم الى النار مئات من رعيته بناء على اغراء الاكليروس لهو اعظم ذنباً من بيلاطس . ذلك ان سلطة هذا الوالي كانت في اورشليم ناقصة فكان عاجزاً عن انفاذها . واما ملك اسبانيا فان البلاد بلاده وكانت سلطته كاملة فيها . ولكن قد يطرأ على الحكومات ضعف يجعلها تضطهد الناس من اجل الاكليروس . واذا كان في هذه الحكومات واحدة عارية عن هذه الوصمة فلترم بيلاطس بحجر . وليس الجاني في حال كهذه الحال اليد التي تضرب ولكن الارادة الاكليريكية التي تختبئ وراءها . وليس لاحد ان يدعي انه يكره سفك الدماء اذا كان يحرض على اهراقها

فليس الذي قضى بقتل يسوع اذاً هو طباريوس او بيلاطس وانما هو الحزب اليهودي القديم اي الشريعة اليهودية نفسها . غير ان الافكار العصرية توجب عدم انتقال الذنوب من الابناء الى الآباء لان كل انسان لا يُسأل لدى عدالة الله والناس الا عن الاعمال التي يكون قد عملها بنفسه . فبناء عليه لا يجب ان يحمل اليوم كل الاسرائيليين تبعة ذلك العمل الفظيع . وهب ان اليهود يجب ان يحملوا اليوم هذه التبعة فما ادرانا ان الذي نكلمه

اليوم منهم لو عاش في ذلك الزمان لما دخل بين الذين كانوا يصيحون حول دار الحكومة « اصلبه اصلبه » . بل ما ادرانا انه لا يكون سمعان القيرواني الذي حمل عن يسوع صليبه . ولكن مع اعتبارنا هذا الامر لا يسعنا الا ان نقول ان مسئولية الشعب تختلف عن مسئولية الافراد . واذا كان في العالم جناية تسمى (جناية امة) فهي هـذه الجناية . لان يسوع لم يُصلب الا بقضاء من الشريعة اليهودية نفسها . وقد قال الكهنة ذلك لوالي الرومان قولاً صريحاً . فانهم قالوا (لنا شريعة وهذه الشريعة توجب موته لانه جعل نفسه ابن الله) " يوحنا الاصحاح ١٩ العدد ٧ " ذلك ان هذه الشريعة كانت توجب قتل كل من يحاول تغيير الدين او مقاومته . وهي شريعة كريهة واثر من آثار الوحشية الماضية . ولقد قدر على يسوع الذي جاء لالغائها ان يموت بها

ولكن واأسفاه كم من قرن ينبغي ان يمرّ قبل ان تُثمر تلك الدماء الزكية الثمار التي سُفكت من اجلها . ينبغي ان يمر ١٨ قرناً للوصول الى شيء من النتيجة . وفي اثناء هذه القرون الطوال كم قد قُبض على الفلاسفة والعلماء باسم يسوع وعُذبوا ايضاً . حتى في هذا العصر لا يزال في بعض البلاد التي تسمي نفسها بلاداً متمدنة عقوبات للذين يخالفون التقاليد الدينية ويرتئون آراء مخالفة لآراء غيرهم . فليتهم يعلمون ان يسوع ما جاء الى الارض ليعلّم الناس ان يجعلوه " مولوخاً " (١) يحبُّ رائحة الدماء واللحم البشري ولكن ليعلمهم المحبة والعدل والاخاء والسلام والصفح والاعتدال . ولقد وقعت الديانة المسيحية في التعصب في بعض الازمان ولكن وقوعها فيه كان امراً طارئاً ثم زال لان التعصب والديانة المسيحية الحقيقية نقيضان لا يجتمعان . وانما التعصب ثمرة يهودية بدليل ان الشريعة اليهودية كانت اول شريعة في العالم وضعت اساس العصمة والحقيقة المطلقة وقضت بلا بحث ولا محاكمة برجم كل من يخالفها ولو ايد قوله بصنع العجائب . ولا ريب ان الشعوب الوثنية كانت على شيء كثير من التعصب ولكن تعصبها لم يبلغ حد تعصب اليهود بدليل انها لو كانت متعصبة الى ذلك الحد لما كانت اعتنقت الديانة المسيحية . فالديانة اليهودية كانت عبارة عن قواعد راسخة كالجبال لا يجب ان يزعزعها شيء او يُعترض عليهـا بشيء وفوقها سيف لحمايتها . فلو ان الديانة المسيحية بدلاً من مطاردة اليهود وبغضها اياهم بغضاً اعمى الغت تلك القواعد والمبادىء التي ضُحي بها صاحب شريعتها لكان عملها هذا اكثر انطباقاً على اصل نشأتها وكانت اعظم فضلاً على الانسانية

(١) اله الكنعانيين والفينيقيين او هو الاله بعل نفسه وكانوا يقدمون له الضحايا البشرية

الفصل الثاني والعشرون

(صلب يسوع)

الجنود الرومانيون والصلب · سيدات اورشليم والخمر لتخدير المصلوبين · طريقة الصلب القديمة · فرار الرجال وامتياز النساء · الصلب غير مميت عطش الصلب · انطفاء النور الالهي

وقد تقدم ان كهنة اليهود لم يسلموا يسوع الى بيلاطس الا بتهمة سياسية مقتضاها انه يقاوم قيصر والامبراطورية الرومانية · ولو كانوا سلموه اليه بحجة دينية لما كان ذلك الوالي الذي كان لا يؤمن بشيء يجاريهم على هواهم · ولذلك جعل الكهنة يحرضون الشعب على طلب صلب يسوع لان الصلب جزاء الجرائم السياسية · اما الجرائم الدينية فقد كان جزاؤها عند اليهود الرجم بالحجارة ثم الشنق بعد الرجم في اكثر الاحيان · ولعل ذلك سبب ما جاء في التلمود من ان اليهود رجموا يسوع اولاً ثم شنقوه · وهو خطاء لان يسوع لم يرجم ولكن صُلب صلباً

وقد روى تاسيت ان الجنود الرومانية كانت تقوم في ذلك الزمن مقام الجلادين في اعدام المتهمين السياسيين · فدُفع يسوع اذاً الى شرذمة من الجند يقودها قائد مائة · وحينئذٍ بدأُوا بالعمل الهائل الفظيع الذي عزموا عليه · ارتجفي ايتها الارض وارتعدي ايتها السماء فان الصالح الذي لا عيب فيه قد دُفع للصلب كاحد المجرمين

وكان الوقت منتصف النهار · وكان في السجن لصان حُكم عليهما بالصلب · فأُلبس يسوع ثيابه التي كانت قد نُزعت عنه من قبل حين عرضه على المنبر امام الشعب · ثم سيق الى مكان الاعدام مع الاثنين اللذين تقدم ذكرهما

وهكذا يُعلق الابن الصالح الذي ارسلته العناية الالهية ليخلّص البشر وينقذ الارض من الغباوة وفظاعة الوثنية — في وسط اللصوص الذين يعبثون في الارض ويُفسدون

وكان مكان الاعدام يُدعى «الجلجثة» وهو كائن في الجانب الشمالي او الشمالي الغربي خارج المدينة قريباً من سورها · ومعنى «الجلجثة» «الجمجمة» وربما سمي ذلك المكان كذلك لكونه اكمة شبيهة بجمجمة الانسان

وكان يجب على المحكوم عليه بالصلب ان يحمل بنفسه صليبه · ولكن جسد يسوع كان ضعيفاً لا يقدر على ثقل الصليب · وكان محرماً على الجنود الرومانية ان تحمل

صليب المحكوم عليه لان ذلك يحط من شأنها . فاتفق انه مرَّ حينئذ رجل يُدعى سمعان القيرواني فجعله الجنود يحمل صليب يسوع . ولم يكن بجانب يسوع في هذه الساعة احد من التلامذة

ولما وصلوا الى مكان الاعدام قدموا اولاً الى الثلاثة خمرًا شديدة الفعل . ذلك انهم كانوا يقدمون هذه الخمر الى جميع المحكوم عليهم قبل انفاذ الحكم وذلك كما روى التلمود لتخدير حواسهم على سبيل الرفق بهم لئلا يشعروا بعذاب شديد . وقد روى التلمود ايضاً ان سيدات اورشليم كن يبتعن هذه الخمر من مالهن ويقدمنها لهذا الغرض . واذا رام الرومانيون صلب احد ولم تقدم له واحدة من النساء خمرًا فان الخمر تُبتاع حينئذٍ من مال الحكومة . فلما قدم الجنود الخمر الى يسوع ذاقها ثم اعاد الكاس دون ان يشربها . ولا عجب فان هذا المخدر قد جُعل للنفوس الصغيرة التي لا تقوى على احتمال العذاب . اما النفوس الكبيرة فانها تود استقبال الموت وهي ممتلكة جميع حواسها وقواها

ثم ان الجنود دنت من يسوع ونزعت عنه ملابسه . وكان الصليب مؤلفًا من جذعين على شكل الحرف T . ولم يكن مرتفعاً كثيرًا لان قدمي المصلوب كانتا تمسان الارض . فاخذه الجنود ونصبوه في الارض . وكانت العادة ان يسمروا يدي المصلوب في الصليب بمسامير واما قدماه فاحياناً يسمرونهما بمسامير واحياناً يربطونهما بحبل . وكانوا يأخذون ايضاً قطعة من خشب ويسمرونها في وسط الصليب بين ساقي المصلوب لتحول دون تمزق يديه وسقوط جسمه عن الصليب . واحياناً يضعون تحت قدميه افقياً لوحاً يسند رجليه ويمنع سقوطه

ولما فرغ الجنود من إعداد الصليب ادنوا يسوع منه وصلبوه عليه كما تقدم . فذاق يسوع كل هذه الآلام الهائلة . وكان صليبه بين صليبي اللصين . وبعد الصلب جلس الحراس بجانب الصلبان ينظرون الى المصلوبين بعد ان اقتسموا ثيابهم . ففتح يسوع حينئذٍ فاه الكريم وهو على الصليب بعد سكوته الطويل وقال ,, يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ما ذا يصنعون ,,

وكانت جرت العادة عند الرومانيين ان يعلقوا كتابة على كل صليب . فعلقوا هذه المرة على صليب يسوع كتابة باللغة العبرانية واليونانية واللاتينية هذه ترجمتها ,, ملك اليهود ,, وربما حمل الجنود هذه الكتابة امام يسوع في طريقهم الى الجلجثة . اما اليهود فلما دروا بهذه الكتابة رأوا فيها اهانة لهم لانهم كانوا يؤملون عودة الملك اليهم فجاء كهنتهم الى

بيلاطس وقالوا له „ لا تكتب ملك اليهود ولكن هو قال انه ملك اليهود „ (يوحنا اصحاح ١٩ عدد ٢١) وكان بيلاطس قد ضجر منهم ومن كثرة طلباتهم فلم يسمع لهم

اما التلامذة فانهم تركوا يسوع ولجئوا الى الفرار كما ذكر جوستينوس . ولكن يوحنا يقول انه بقي هو نفسه مقيماً بجانب الصليب . ومما لا ريب فيه ان النساء الجليليات اللواتي تبعن يسوع الى اورشليم قد تبعنه الى الجلجثة ايضاً ولم يتركنه (١) وهؤلاء النسوة هن العذراء امه ومريم اختها ومريم المجدلية وصالومه وغيرهن . ويقول الانجيلي يوحنا انهن كن واقفات بجانب الصليب . واما الانجيليون الآخرون فيقولون انهن كن ينظرن اليه من بعيد

ولكن ما عدا هئولاء النسوة الكريمات لم يكن امام يسوع وهو على الصليب سوى مناظر الدناءة والهمجية البشرية . فانه كان يسمع حوله التهكم والشماتة من كل صوب . فمن قائل „ يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك „ ومن قائل „ خلص آخرين واما نفسه فما يقدر ان يخلصها . ان كنت ملك اسرائيل فانزل عن الصليب لنؤمن بك „ وغيره كان يقول „ قد قال انه ابن الله واتكل على الله فلينقذه الله لنرى „ (متى ص ٢٧ ع ٤٠ ومرقص ص ١٥ ع ٢٩)

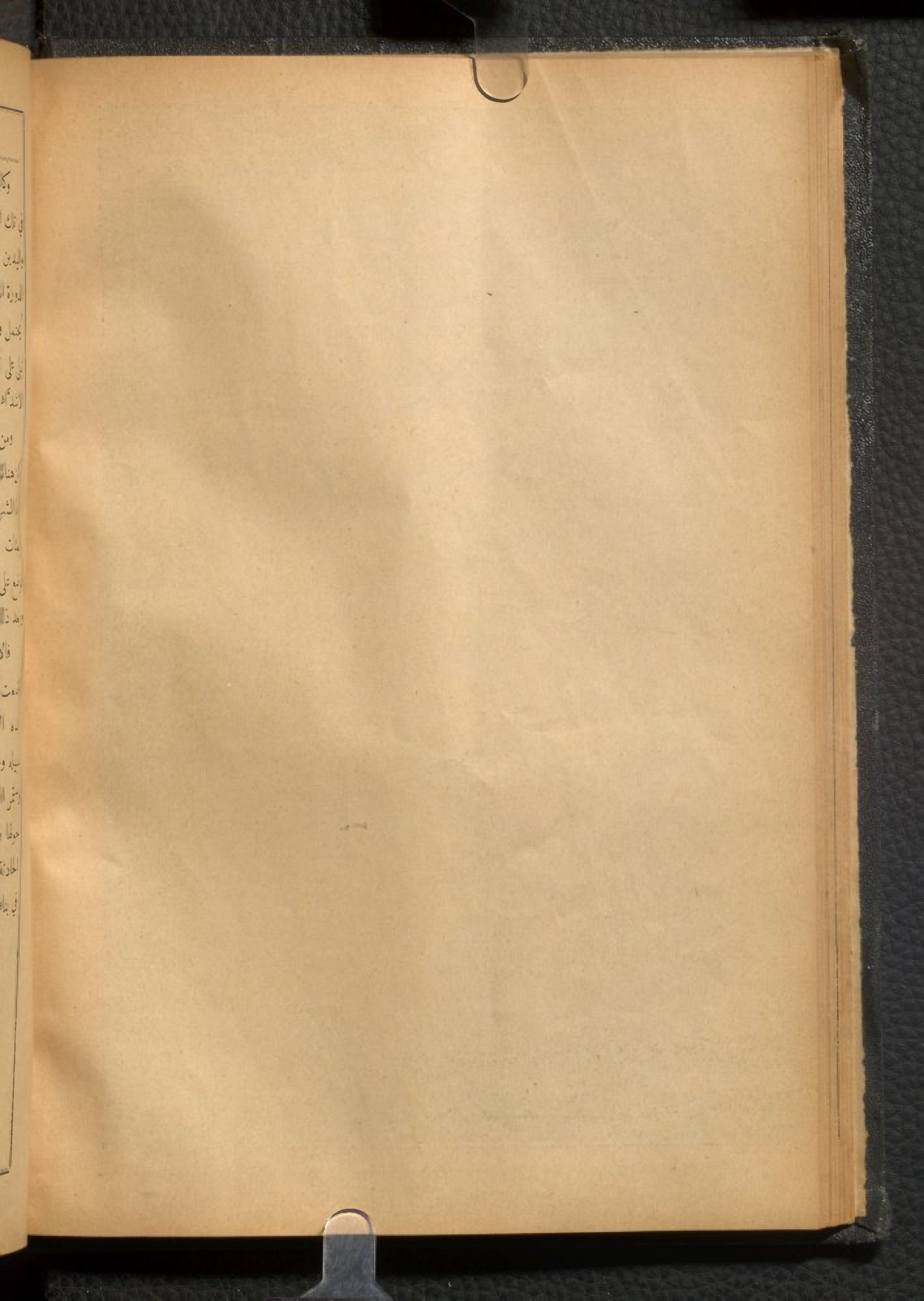
وكانت السماء حينئذ سوداء من الغيوم الملبدة في وجهها والارض في تلك الجهات قاحلة مجدبة . فكأن انحجاب السماء عن وجه ابن السماء اثار في الطبيعة البشرية شكاً وارتياباً . فحسب انه يتعذب ويسفك دمه الذكي من اجل جنس دنيء لا يثمر ذلك الدم فيه . فالتفت حينئذ الى ابيه وقال „ الهي الهي لماذا تركتني „ ولكن هذا اليأس الوقتي لم يلبث ان انقشع عن نفسه وعادت اليه عواطف الواجب الذي جاء من اجله . فرأى من الخشبة التي كان عليها ان موته سيخلص العالم ويحييه وينشر الكرازة والبشارة باسمه في جميع اقطار الارض . ومنذ تلك الساعة بدأت حياته الالهية مع ابيه تلك الحياة التي مرت عليها القرون الطوال وهي في صميم قلب الانسانية

---

(١) وفي ذلك قال لويس مينار قولاً اراد به اظهار اخلاص النساء ورقة عواطفهن وشدة تاثيرهن في المجتمع البشري وهو : ان يسوع أُسلم الى الموت من احد تلامذته وأنكر من تلميذ آخر وتُرك وهجر من الجميع الا النساء فانه وجدهن يبكين على طريقه وهو صاعد الى الجلجثة „



النسوة والتلامذة ينزلون يسوع عن الصليب .



وكان من اشد عذابات الصلب ان المصلوب يعيش على الصليب ثلاثة او اربعة ايام وهو في تلك الحالة . ذلك ان الصلب غير مميت بحد ذاته لان الجروح التي تحدث في القدمين واليدين بسبب المسامير سهلة الشفاء . وانما الصلب يُحدث في المصلوب خللاً شديداً في الدورة الدموية لقيام الجسم قياماً غير طبيعي وقتاً طويلاً فينشأ عن ذلك صداع شديد لا يُحتمل ويعقبه الموت . وكان غرض الرومانيين من صلب المجرمين تشهيرهم وترك اجسادهم تبلى على الخشبة عبرة للناس لا قتلهم . ولذلك كان كثيرون من المصلوبين الاقوياء الاشدّاء ينامون وينتبهون على الصليب عدة ايام ولا يموتون الا من الجوع

ومن نواميس الصلب انه يثير في النفس ظمأً شديداً . فعطش يسوع وطلب ماء . وكان هنالك اناء مملوءٌ من شراب الجنود المألوف. وهو مركب من ماء وخل ويسمي الرومانيون هذا الشراب « بوسكا » . وكان يجب على الجنود الرومانية ان تحمل هذا الشراب في كل البعثات والحملات وفي جملة ذلك بعثة الاعدام . فقام احد هولاء الجنود وتناول قصبة فوضع على طرفها اسفنجة ثم غطسها في وعاء الخل والماء وادناها من شفتي السيد . فامتصها يسوع . وبعد ذلك احنى راسه الكريم على صدره وقال (يا ابتاه . في يديك استودع روحي) واسلم الروح

فالآن قد تمّ كل شيء . قد تمّ العمل العظيم الذي ستبني عليه الانسانية . وقد وُضعت الديانة الابدية بعذاب لم يتجاوز بضع ساعات . وواضعها العظيم ينظر الآن من علو مجده الالهي الى هذه الكرمة التي غرسها . كرمة مبنية على الدفاع عن الحق والاستماتة في سبيله وعبادة الله عبادة روحية وصنع الخير والمحبة والفضيلة والايمان وحب الفقر والرحمة . وستمر القرون والاجيال والعالم تابع له ولها . اما اسمه فانه يكون الراية الكبرى التي تدور حولها رحى اعظم حرب قامت بها الانسانية . وسيكون هذا الاسم الكريم محبوباً بعد هذه الحادثة الف مرة اكثر مما كان يوم مرور صاحبه في هذه الدنيا . بل انه يكون حجر الزاوية في بناء الانسانية حتى ان من يحاول نزعه منه يزعزع الانسانية من اساسها

الفصل الثالث والعشرون

(نتيجة عمل يسوع) (١)

فيتضح مما تقدم ان يسوع لم يخرج عن دائرة اليهودية في حياته . نعم انه كان يعاشر الوثنيين ويقبلهم في ملكوت الله الا ان حياته كلها صرفت في البلاد التي ولد فيها . فان بلاد اليونان والرومان لم تسمع به . ولم يرد ذكر اسمه في كتب المؤلفين الا بعد مرور مائة سنة عند كلامهم على تاريخ الفتن التي كانت تحدث لتعاليم تلامذته . حتى في اليهودية نفسها لم يحدث يسوع تأثيراً عظيماً . فان الفيلسوف فيلون الذي توفي في سنة ٥٠ للميلاد لم يعلم به . والمؤرخ يوسيفوس الذي ولد في سنة ٣٧ والف مؤلفاته في اواخر القرن لم يذكر صلبه الا في بضعة اسطر كأنه امر ثانوي . ولما احصى الفرق والمذاهب في عصره لم يحص فيها « المسيحيين » . ومن جهة اخرى فان كتاب « المشنا » لم يرد فيه ذكر للمذهب الجديد . وما ورد في « الجماره » عن يسوع يرجع الى ما بعد القرن الرابع والخامس

على ان العمل العظيم الذي عمله يسوع جعل تلامذته يحبونه « في حياته وبعد مماته » كما قال يوسيفوس . وهذا ما جعل اهل ذلك العصر يعجبون منه . اما تعاليمه فلم تكن تبنى على قواعد خصوصية وعقائد مقررة ولذلك لم يخطر له في بال ان يكتبها او يستكتبها . وكل من رام ان يكون تلميذاً له لم يكن يطلب منه ان يعتقد بهذا الامر او بذاك بل كان يكفي ان يحبه ويتبعه . ولذلك لم يبقَ من اثر يدل عليه سوى الحكم والخطب التي جمعت بعده ومثاله الادبي والتأثير الذي احدثه في نفوس تلامذته . فلم يكن يسوع اذاً مؤسس عقائد واسرار بل داعية يدعو العالم الى روح جديد . واقل الناس مسيحية هم من جهة علماء الكنيسة اليونانية الذين ادخلوا الكنيسة منذ بدء القرن الرابع في تيه المناقشات الدينية التافهة ومن جهة اخرى علماء السكولاستيك اللاتين الذين رأوا ان يستخرجوا من الانجيل الوفاً من المواد التي سطروها في الخلاصة اللاهوتية . وكل هذا ليس بالمسيحية اذ المسيحية كانت في عصر يسوع اتباعه اتباعاً مجرداً لانتظار ملكوت الله

وبناءً على هذا يمكن الآن ان نفهم السبب الذي من اجله تقدر المسيحية بعد مرور

---

(١) هذا الفصل منقول حرفياً لا تلخيصاً وهو اهم وابلغ فصول الكتاب

١٩ قرناً عليها ان تكون ديانة عمومية ابدية . ذلك لان ديانة يسوع هي من عدة وجوه الديانة النهائية . فان يسوع نادى بحق كل انسان ان يشترك في ملكوت الله « ١ » ومن فضله صارت الضمائر البشرية خارجة عن سلطة الشريعة السياسية والّفت لنفسها سلطة جديدة وهي «السلطة الروحية» . نعم ان هذه السلطة قد خانت اصلها غير مرة فجعل الاساقفة انفسهم امراء عدة قرون وعدّ البابا ملكاً . وقد صدر عن هذه المملكة الروحية في عدة احوال ظلم قبيح واتخذت عذاب التمثيل ونار الحرائق وسيلة لتأييد نفسها . الا انه سيأتي يوم يثمر فيه الانفصال بينها وبين السلطة المدنية ثماراً جيدة فتنفض عنها اسم « السلطة» وتسمى حينئذ « الحرية » . فان الديانة المسيحية التي فاضت من ضمير فرد من افراد الشعب وانتشرت بين الشعب و بالشعب واحبها واعجب بها الشعب قد كان لها صبغة خصوصية لا تمحى ابداً . فهي كانت عبارة عن اول نصر للثورة وفوز للعواطف الشعبية و بلوغ اصفياء القلوب والسذج عرش السيادة وافتتاح مملكة الجمال كما يفهمها الشعب الذي انشأها . و بهذا فتح يسوع في الهيئات الاجتماع الارستوقراتية القديمة الثغرة التي ستهدم ذلك البناء . وكل شيء يرممها

وان كانت الديانة المسيحية حين نشأتها عبارة عن حركة نفوس اختيارية منزهة عن كل عقيدة تضغط عليها وقد اقامت ثلاثة قرون تعارك وتقاوم تحرير الضمائر ومن اجل هذا لاتزال حتى اليوم مع ما طرأ عليها من الطوارىء تجني ثمار هذا الاصل الكريم . ورغبةً في تجديدها واحيائها لا يلزمها غير الرجوع الى الانجيل . وان ملكوت الله كما نفهمه نحن يختلف اختلافاً شديداً عما كان يعتقد به المسيحيون الاولون الذين كانوا يعتبرونه عبارة عن حادثة تحدث من وراء الغيوم الا ان العاطفة التي ادخلها يسوع الى العالم هي عاطفتنا بلا شك . فان كماله الفكري Idéalisme لهو اسمى قواعد الحياة الفاضلة المنزهة عن الدنايا الارضية . فلقد خلق السماء النقية التي لا تجدها النفوس النقية في الارض اينما طلبتها والقداسة المطلقة والنزاهة التامة عن كل دنية والحرية المطلقة التي تعتبرها كل هيئة اجتماعية امراً مستحيلاً والتي لا يمكن اطلاقها الا في عالم الفكر . وان يسوع كان كبير معلمي هذه المملكة الالهية الفكرية ولا يزال كذلك الى اليوم . فانه اول من نادى بسلطان الروح والفكر واول من قال (ان لم يكن بكلامه فبفعله) « مملكتي ليست من هذا العالم » وان تاسيس الديانة الحقة كان من فعله ولا شك . ولم تبقَ بعده حاجة لغير التكميل والتتميم

وهكذا اصبحت تقريباً كلمة « مسيحية » مرادفة لكلمة « ديانة » . وصار كل ما يُفعل

«١» هذا بمثابة اعلان (حقوق الانسان) قبل ان تعلنها الثورة الفرنسوية

خارج هذا التقليد المسيحي العظيم شيئًا عقيماً · فكان يسوع مؤسساً لديانة الانسانية كما كان سقراط مؤسساً للفلسفة وارسطو مؤسساً للعلم الطبيعي · نعم قد وجدت الفلسفة قبل سقراط والعلم قبل ارسطو ومنذ ذلك الحين الى اليوم تقدمت الفلسفة والعلم تقدماً عظيماً الاّ ان كل تقدم وارتقاء فيهما كان على الاساس الذي وضعه سقراط وارسطو لهما · وكذلك الشان في يسوع · فان الفكرة الدينية قد اجتازت ثورات عديدة قبله · ومن عصره الى اليوم قد ارتقت وتقدمت ولكنها لم تخرج ولن تخرج عن القاعدة الاصلية التي خلقها يسوع لها · فانه وضع في الارض الى الابد فكرة العبادة النقية · ومن هذا الوجه ليس لديانة يسوع حدٌّ تقف عنده · نعم انه كان للكنيسة ازمنة وعصور خصوصية حبست نفسها فيها ضمن رموز واسرار مختلفة ولكن هذا امر سيزول · لان الديانة التي وضعها يسوع هي الديانة المطلقة التي لا تنبذ شيئًا ولا تقرر شيئًا غير نقاء العواطف · وليست رموزها بعقائد مقررة بل هي صور مختلفة تقبل تاويلات مختلفة · وفي الحقيقة اننا مهما فتشنا الانجيل فاننا لا نجد فيه تقرير عقيدة لاهوتية وكل ما فيه من المعتقدات مقتبس من افكار يسوع ومؤوَّل تأويلاً · فكان شان يسوع مع تلامذته كشان ارسطو مع علماء السكولاستيك · فان هؤلاء باعلانهم ان ارسطو هو المعلم الوحيد وان العلم الذي وضعه علم كامل لا ينقصه شيء قد ناقضوا فكر ارسطو نفسه · ولو شهد ارسطو مجادلاتهم وسمع قولهم هذا لنبذ هذا التعليم الضيق وكان في جانب خصومهم اي في جانب العلم التدريجي الذي ينكر التقليد الاعمى لا سيما وانه يبني هذا التقليد على سلطته · بل انه كان يصفق استحساناً لاقوال معارضيه ومجادليه متى رآهم قد اصابوا · وهكذا يسوع · فانه لو عاد الينا اليوم فانه لا يعتبر من تلامذته اولئك الذين يرومون حبس فكره في بضع عبارات يسطرونها في كتاب (مبادئ التعليم المسيحي) بل اولئك الذين يحذون حذوه ويكملون فعله في عالمي الروح والفكر

وان المجد العظيم لكل ذي مجد ان يكون قد وضع الحجر الاساسي الاول · فليس ببعيد ان لا يوجد اليوم في كتب العلم كلمة مما قاله ارسطو ولكن ارسطو مع ذلك سيبقى معدودًا مؤسس العلم · وكذلك يسوع فانه مهما تغيرت العقائد والافكار سيكون الى الابد معدودًا في الدين مؤسس (العواطف النقية) · فان خطبته على الجبل لا يفوقها شيء في المستقبل ابدًا · وكل الثورات التي تحدث في الارض لا يمكن ان تمنعنا من ان يكون لنا اتصال في الدين بذلك السالك الفكري العظيم الذى يسطع في مقدمته يسوع سطوع القمر المنير · ومن هذا الوجه نحن مسيحيون حتى ولو افترقنا في جميع الامور تقريباً عن التقليد

المسيحي الذي تقدمنا

وهذا البناء العظيم بناه يسوع وحده · فان تلامذته لم يحبوه ذلك الحب العظيم الا لجاذبية شخصه · فان الحب لا يحدث بلا سبب موجب له · ولو لم نعلم شيئاً عن يسوع سوى ذلك الحب الشديد الذي جذب به تلامذته اليه لكفى ذلك برهاناً على عظمته ونقائه · فان ايمان الجيل المسيحي الاول وحماسته وثباته في ايمانه — كلها امور غير مفهومة الا اذا افترض هناك في اصل الحركة وجود شخص متناهٍ في العظمة والقوة

فلنضعن اذاً شخص يسوع في اعلى قمة العظمة البشرية · ولا ندع لمبالغات المبالغين سبيلاً لان تُنيه افكارنا بحجة ان ذلك التاريخ فوق طور العقل البشري فان حياة فرنسوى دلسيز لم تكن سوى سلسلة معجزات فهل اقتضى ذلك الشك في وجوده · ثم لا نزعمن ان الفضل في تاسيس المسيحية عائد للتلامذة فانه ظاهر كالشمس ان يسوع كان اعلى منهم في كل شيء · فانهم ما عدا بولس وربما يوحنا الانجيلي ايضاً كانوا قوماً سذج بلا فكر · حتى بولس نفسه لا شبه بينه و بين يسوع · وهذا هو السبب في فضل الانجيل على باقي كتب „ العهد الجديد ،، والعلة في الخيبة التي يقع فيها القارىء متى انتقل من مطالعة تاريخ يسوع الى مطالعة تاريخ تلامذته · وان كتبة الانجيل انفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى انهم لعدم وصولهم الى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن افكاره · ففي كتاباتهم كثير من الخطاء والمتناقضات · وفي كل سطر منها يشعر القارىء بان هناك جمالاً الهياً ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وابرازه لانه لا يفهمه ولذلك يبدله بفكره الخاص · وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد اضعفوا جمال صورته بدل ان يزيدوها زينة · وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين ايديهم ضعفاً

واذا كان قد انتفى هذا الزعم فهل يصدق زعم الذين يزعمون ان يسوع اقتبس تعاليمه من كتبة اليهود وان عظمته مستمدة من عظمة الشعب اليهودي

لا اعلم احداً يرفع اكثر مني شأن هذا الشعب اليهودي الوحيد الذي يظهر ان من خواصه اجتماع النقيضين فيه اي اعظم الخير واعظم الشر · نعم ان يسوع نبت من اليهودية ولكنه نبت منها كما نبت سقراط من مدارس السفسطائيين ولوثر من العصور الوسطى ولامينه من الكاثوليكية وروسو من القرن الثامن عشر · فان الانسان في هذه الحالة يكون من قومه ومن عصره حتى ولو قاوم ونبذ قومه وعصره · وعلى ذلك فيسوع بدل ان يُعدَّ مكملاً للدين

الاسرائيلي هو في الحقيقة مقاوم للروح اليهودي وقاطع كل صلة به · ولقد انفصلت المسيحية بعده عن اليهودية انفصالاً تدريجياً · وكلها ليس في العودة الى اليهودية بل الى يسوع · ففضل موءسسها يكون اذاً كاملاً ولا يقبل شريكاً ابداً

وهذا الشخص العظيم الذي لا يزال يرأس امور الدنيا حتى اليوم هو شخص الهي لا بمعنى انه استغرق كل «الشيء الالهي» بل بمعنى انه الفرد الذي رفع نوعه نحو «الالهي» بقوة لم تُعطَ لسواه · فان الانسانية اجمالاً انما هي عبارة عن مجموع مخلوقات واطئة شديدة الاثرة لا تفضل الحيوان الا بشيء وهو ان اثرته عن غريزة واثرتها عن امعان نظر وتفكير · و بين هذه الانسانية الواطئة المتماثلة تقوم اعمدة شاهقة ترتفع نحو السماء طالبة غرضاً آخر غير الارض · فهي عبارة عن دليل يدل الانسان من اين خرج والى اين يجب ان يتجه · ويسوع كان اعلى هذه الاعمدة · ففي طبيعته اجتمع كل ما في طبيعتنا من صلاح وجمال · نعم انه غالب الاهواء التي نغالبها نحن وربما قد صدرت عنه اغلاط كتمها تلامذته كما انهم لم يفهموا كثيراً من افكاره العظيمة ولكن لم يقم في العالم شخص قدَّم مصلحة الانسانية كلها على مصلحة نفسه بالدرجة التي بلغ يسوع اليها · فانه بانصرافه الى افكاره انصرافاً تاماً انقطع عما عداها الى حدّ انه اصبح في آخر حياته لا يرى العالم ولا يرى سواها · ولم يوجد في الارض رجل داس العائلة وملاذ العالم وافراحه والامور الدنيوية بالقوة التي داسها يسوع بها · فانه اصبح لا يعيش الا من ذكر ابيه السماوي وتذكار المهمة التي كان يعتقد انه مرسل من اجلها - وبهذا الغلو في الارادة والاستقلال في تاييد الفكر فتح يسوع السماء و داس قوة الموت دوساً

والآن فلنتساءل ماذا يخبيء المستقبل لنا · ترى هل يتجدد الامر الغريب ام تكتفي الانسانية باتباع الطرق التي فتحها لها جبابرة العصور القديمة · لسنا نعلم شيئاً من ذلك · ولكن كيفما كانت الحال فان يسوع لا يفوقه احد في المستقبل · وديانته ستتجدد على الدوام الى ما شاء الله · وقصته وحديث آلامه يستدران الى الابد الدموع من اجمل العيون وتنفطر لها رق القلوب · وكل القرون والاجيال الآتية ستجهر وتنادي بانه لم يولد في بني الانسان شخص اعظم من يسوع

وقع خطأ في نمرة الصفحة التالية وصحتها ٦٣ وكذلك الفصل التالي وصحته (الرابع والعشرون)

الفصل السادس والعشرون

عودة التلامذة الى الجليل بعد صلب يسوع

اول ما يقصده كل من فقد عزيزاً كريماً زيارة الاماكن التي عاش فيها معه . ولذلك اتجه التلامذة نحو الجليل بعد عيد الفصح ببضعة ايام (١) فكأن الديانة المسيحية عادت في هذا الوقت مع التلامذة الى الارض التي نبتت فيها لتودعها هنيهة ثم تعود فتنتشر في الكرة الارضية

وهكذا التقى مرة ثانية اخص تلامذة يسوع وهم بطرس وتوما ونثنائيل وابنا زبده على شاطئ بحيرة طبريا وعاشوا معاً وعادوا الى صناعة صيد السمك في بيت صيدا وكفر ناحوم كما كانوا من قبل . وقد عادت النسوة الجليليات الى الجليل معهم . بل هنَّ اللواتي حملنهم على هذه العودة لميلهنَّ الى الوطن الاول الذي شاهدن فيه ما شاهدن من الحوادث الجميلة . وهذا آخر عمل عملنه في تأسيس الديانة المسيحية . ومنذ هذا الحين لم يعد يظهر لهنَّ اثر في تاريخ المسيحية لانهنَّ كرهن مفارقة تلك البلاد التي ذقن فيها اعظم المسرات . وهكذا وُضع ذكرهنَّ منذ تلك الحين في زاوية النسيان . وبما ان المسيحية في بلاد الجليل لم تقم لها بعد ذلك قائمة فقد نقصت اهمية هؤلاء النسوة اللواتي كان لهنَّ الفضل العظيم في تاسيس الديانة المسيحية وفني ذكرهن في بعض التقاليد . وهكذا لم تعد مريم المجدلية ومريم كليوفاس وحنه وسوسان ـ هؤلاء الجليليات اللواتي يجب ان يعتبرن المؤسسات الحقيقيات الدين المسيحي ـ الا كقديسات صغيرات لا شان لهن . فان القديس بولس لا يعرفهن (١) وقد بقين مهملات حتى القرون المتوسطة . فيومئذ استرددن المنزلة التي لهنَّ وصار لمريم المجدلية في سماء المسيحية ذلك المقام الرفيع الذي

---

(١) وهناك سبب آخر وهو ما جاء في الانجيل من اعتقاد التلامذة ان يسوع سبقهم الى الجليل

(١) قال الرسول بولس عن السيد المسيح في ص ١٥ ع ٥ من رسالته الى كورنثوس "انه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لاكثر من خمس مئة اخ" وبذلك اغفل الرسول ذكر مريم المجدلية وباقي النسوة اللواتي جاء في الانجيل انهن كن اول من شاهدنه . وهو اجحاف بحقوق النساء

كان من حقها

وكان التلامذة يعيشون يومئذ في الجليل كاخوة وقد اجتمع حولهم نحو خمس مئة نفس من الجليليين الذين كانوا عرفوا يسوع وانجذبوا الى تعليمه . فاقاموا في تلك البلاد نحو سنة وهم يعيشون اجمل عيشة لان روح يسوع كانت ترفرف عليهم وتظهر لهم . فكانت حياتهم هذه عبارة عن تصورات جميلة

الفصل السابع والعشرون

عودة الرسل من الجليل الى اورشليم للشروع في البشارة
« الصعود »

وبعد اقامة الرسل سنة في بلاد الجليل كما تقدم راموا العودة الى اورشليم لان يسوع امرهم بان ينتشروا في الارض للبشارة بالكلمة في جميع الاقطار . وكانت اورشليم اول هذه الاقطار بالطبع . فساروا اليها وهجروا وطنهم الجليل هجرة لا رجوع بعدها اليه . ولا خلاف في انه بقي بعد ذلك في الجليل كثيرون من اتباع الرسل ولكن لم يرد لهم ذكر فيما بعد . فغير بعيد ان يكونوا قد فنيت آثارهم في تلك البلاد كما فني فيها كل شيء في الحرب التي اثارها فيها فسباسيانوس الروماني . ومن المعلوم ان الطوائف التي كانت تعيش في تلك البلاد قد لجأت بعد هذه الحرب الى ما وراء نهر الاردن . فلما سكنت رحى هذه الحرب امتنع المسيحيون من العودة اليها وعاد اليها اليهود فقط . وهكذا صارت الجليل في القرن الثاني والثالث والرابع عبارة عن مركز اليهودية ووطن التلمود . وبناء على ذلك لم تدخل الجليل في تاريخ الديانة المسيحية الا زمناً محدوداً . ولكن هذا الزمن كان اقدس الازمان واعظمها . ذلك لان جمال الدين المسيحي وقوته وسناءه اعني ,, الانجيل ،، لم يبرز الى الوجود الا في هذا الزمن . فالانجيل اذاً من اصل جليلي . وسيرد الكلام على ان الانجيل كان السبب الاول في نجاح الديانة المسيحية في الماضي وسيكون الضمانة الوثيقة لها في الزمن الآتي

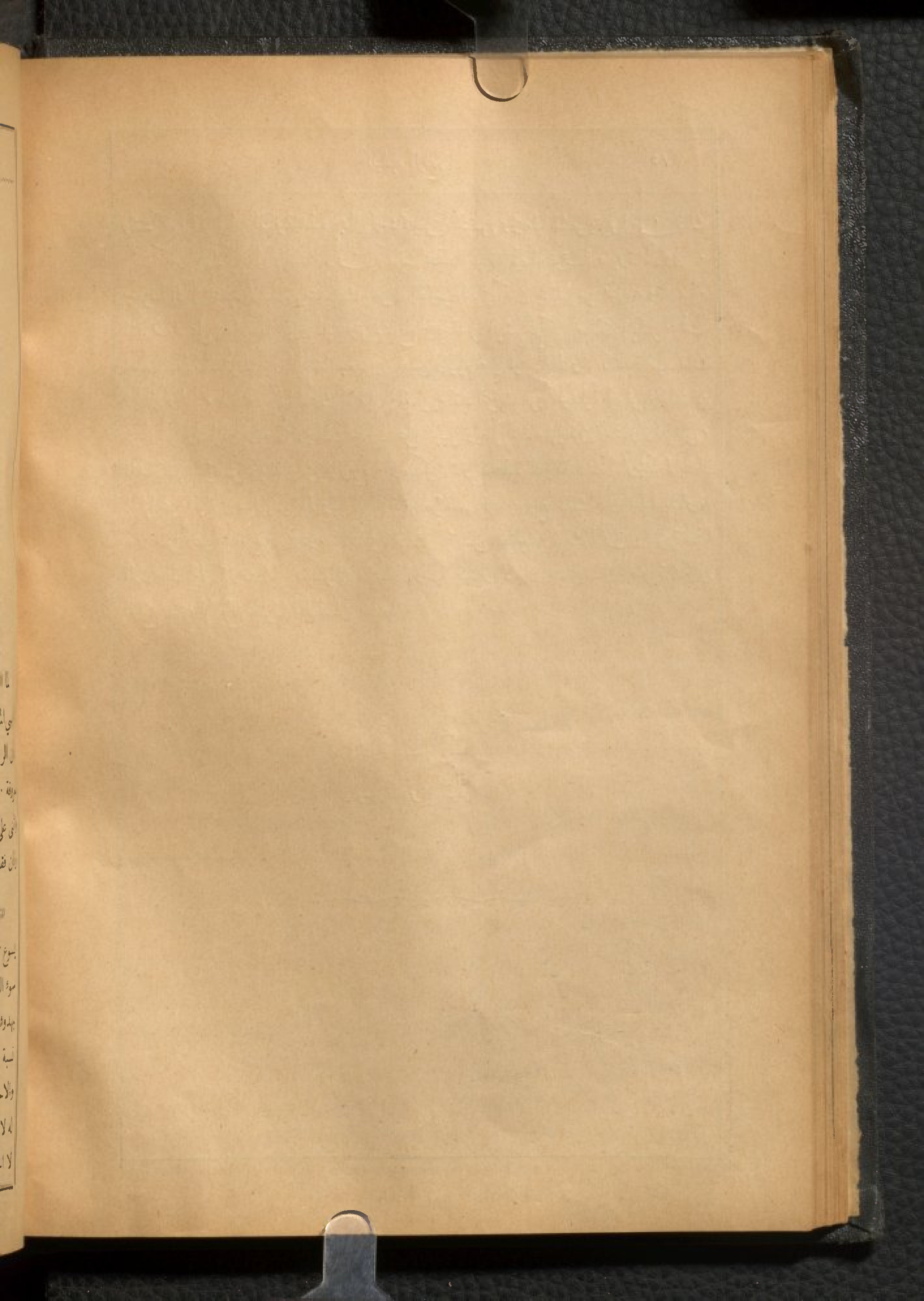
وبعد اجتماع التلامذة في اورشليم كان صعود يسوع كما ورد في الانجيل . وقد قال لوقا الانجيلي في ذلك ,, وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم ،،

اما نحن فاننا نفارق يسوع بحزن عظيم . نفارقه هنا ونودعه لنذكر تاريخ تلامذته .

ولقد كان في حياته الثانية هذه جمال وسناء يعزي النفس ويجعلها تشعر بقربها من ذلك الذي كان مثالاً للجمال والسناء وان كانت هذه الحياة في الحقيقة صورة للاولى . وحزننا الآن عظيم لاننا حُرمنا ذلك العرف الطيب الذي كان ينتشر من شخصه ونفسه . لقد صعد على الغمامة الى يمين ابيه وتركنا مع جماعة من البشر لهم كل صفات البشر . فما اصعب هذا السقوط . وما اشد البعد بين امس واليوم . يا ايتها الارض لقد ذهب مُلك الجمال والسناء فاندبي هذا المُلك المفقود . انظري لقد ازوت مريم المجدلية في قريتها لتدفن فيها تذكاراتها الجميلة . لقد بطلت الخطب على الجبل وبطل شفاء المجانين ومداواة المرضى . لقد ذهب مؤسس ديانة الحق والروح . وسيكون تاريخ هذه الديانة بعده تاريخاً لابتعاد اهلها عن المبادىء الابدية الازلية التي وضعها مؤسسها فيها . ومع ذلك فان هذا التاريخ مهما طرأ عليه فانه يبقى تسبيحاً عظيماً لمجد ذلك المؤسس العظيم . ذلك لان صورة هذا الابن الصالح وكلامه الحي سيكونان دائماً في وسط صغائر الامور وهناتها بمنزلة صورة للكمال الرفيع الذي لا يبلغ طرف الانسان حده

تمَّ تاريخ المسيح

وسيليه تاريخ الرسل



ذيل اول

رد رنان على حارميه ومناظريه

(بعد ظهور كتابهِ هذا)

لما انتشر كتاب رنان هذا صدر امر من الكنيسة بحرمان رنان منها كما حرم المجمع الروسي المقدس الفيلسوف تولستوي في العام الماضي . وانهالت الردود على صاحب الكتاب . وكان الرادون عليه فريقين : فريق الاكليريكيين ولا حاجة الى ذكر براهينهم لانها معروفة . وفريق الماديين وهؤلاء عنفوا المؤلف لانه اعتمد على الانجيل في كتابة تاريخه واثنى على المسيحية وعلى العواطف الدينية ثناء لا يصدر عن اعظم انصار الاديان . اما رنان فقد ردَّ على الفريقين في مقدمة كتابه (تاريخ الرسل) بما خلاصته :

« اني اؤمل ان بعض القراء الذين تحمسوا منذ سنتين ونصف سنة لمطالعتهم « تاريخ يسوع » يطالعون هذا الكتاب بهدوء ورزانة . فان المجادلات الدينية انما تُبنى دائمًا على سوء القصد من طالب المجادلة على غير علم منه ولا قصد . ذلك لانه لا يطلب الحقيقة بهدوء ورزانة حيثما كانت ولكنه يؤكد ان الحقيقة في قبضته ولذلك لا يكون له همٌّ غير نسبة الجهل والافتراء الى مناظره . فالطعن والسب وتزوير الافكار والاقوال والافتراء والاحتماء بعواطف البسطاء والجهلاء — كل ذلك يراه طالب المناظرة الدينية امرًا جائزًا له لانه يزعم انه يدافع عن الحقيقة التي يراها في قبضته . وقد كنت اتوقع ذلك لانني لا لا اجهل حوادث التاريخ وارى في نفسي من الهدوء وثبات الجأش ما يحول بيني وبين التأثر

منه . فانا استقبله بهذا الهدوء كما استقبل بسرور وتلذذ العواطف البسيطة المؤثرة التي حملت مناظريّ على هذه المناظرة . وكما بدا لي ذلك الغضب الصادر بصراحة من نفوس كريمة نقية فانني لا اتمالك ان اصيح « يا للبساطة المقدسة » كما صاح جان هوس (اللاهوتي الذي أُعدم حرقاً) لما رأى امراة تأتي الى محرقته بحزمة حطب والعرق يتصبب منها من التعب . ولكني اسفت كل الاسف لان كل ذلك الصياح والغضب لا يفيد الحقيقة شيئاً . ولا غرابة في ذلك فان الحقيقة لا تنجلي للذين يطلبونها بحماسة وغضب . ولكن للذين يطلبونها بهدوء وتأمل دون غرض ولا بغض . وليس في ذكر الانسان مبدأً من المبادىء اهانة لاحد فان الذين يرون فيه اهانة لمبادئهم يستطيعون التخلص منه بعدم وقوفهم عليه . فحسناً يصنع الجبناء وضعفاء العقول اذا لم يقرأوه

ولقد كتب اليّ بعض الناس من كل صوب يقولون « ما غرضك من هذا . وماذا تريد » فانا اجيبهم بان غرضي كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كان لي عدة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ اثينا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنسوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب ؟ لا يكون لي غرض سوى وجود الحقيقة واحيائها واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدر ما يمكن من الصدق والتدقيق . اما ضعضعة عقائد الناس فهذا امر بعيد عن فكري . ولو كنت اقصده لطرقت هذا الموضوع من باب آخر بان اتناول الاقوال والافعال واظهر ضعيفها دون قويها وابسط التناقض الذي بينها ولا اعطي احداً من كلامي حجة عليّ . ولكنني لا اكتب لذلك وانما اكتب لتقرير الحقيقة . ومتى كتب الانسان لهذا القصد وجب ان لا يعبأ بشيء وان لا يتساهل في شيء بل ان يكتب كأنه يكتب لكرة قفراء لا ناس فيها . والا فان كل تساهل وكتمان يُعدُّ اهانة للحقيقة ولصناعة الكتابة السامية

فنحن اذاً نكتب ما نكتب دون ان نطلب اسكات المبادىء التي تناقض مبادئنا او ان نقتحمها ونحمل عليها . بل نكتب دون التفات اليها كأنها غير موجودة عندنا . واذا قبل احد مبادئنا فذلك دليل على ان عقله مستعد لها اما من كان عقله غير مستعد لها فانه لا يقبلها . وليس يسوءني شيء في العالم مثل ان يقنعني احد بان اجتذب الى هذه المبادىء رجلاً لا يأتي اليها من تلقاء نفسه . وذلك مما يجعلني استنتج انني اما اصبحت مضطرب الفكر بعد الهدوء واما ان شيئاً خصوصياً قد ثقل فيّ حتى صرت لا تروقني بهجة الدنيا ولا

اكتفي بمشاهدة جمال العالم...

فعملي اذاً مقصور في كتبي على البحث عن الشرائع العامة التي تحكم الانسانية وتتدرج الانسانية فيها . ولست اتنازل عن هذا المعمل الى فنّ المجادلة وان كان هذا الفن اكثر ثمرة لصاحبه . واذا لزمت المجادلة فان فولتير يكفي . فانه اذا نُشرت كتبه من جديد كان فيها جواب لكل طالبي المجادلة . ولا انكر انه جواب سيء في ذاته ولكنه منطبق على ما يروم نقضه . فهو جواب متأخر لفن متأخر . اما نحن معشر عشاق الحق وطالبي الحقيقة فعلينا ان نصنع افضل من ذلك . علينا ان نترك تلك المجادلات لمن يطلبونها ونشتغل للفئة القليلة التي تسير في جادة الانسانية والصراط المستقيم

هذا هو سبيلي في كتابة التاريخ . ولست اجهل ان بعض الناس يستبطئون سير الفكر ولا يُمهلونه ولذلك يطلبون منه السرعة في عمله . اما نحن فلا نكوننّ من جملة هؤلاء الناس . بل فلنتجنب العجلة ولا نؤسس شيئاً جديداً . وليبقَ كل واحد منا في قلب كنيسته منصرفاً الى فضائلها القديمة واعمالها الخيرية ومتمتعاً بجمال الماضي . ولا ننبذن تعصب هذه الكنائس بل فلنصفح عنه لان هذا التعصب حاجة من حاجات القلب البشري مثل حب الذات الفطري . ومن المحتمل ان العلائق بين البروتستانت والكاثوليك واليهود تتغير بعد مائة سنة ولكنها لا تتغير كثيراً (ولم يذكر الارثوذكس اذ ليس في فرنسا احد منهم) . الا انه سيحدث انقلاب عظيم من وجه آخر . **فان كل واحد من هذه المذاهب ينقسم اهله قسمين . فقسم يعتقد بقواعد مذهبه حرفياً كما كان يعتقد الناس بها في القرون الوسطى وقسم يعتقد بآدابها فقط لا بكل ما فيها حرفياً . وهذا القسم الثاني يزداد وينمو في كل مذهب . وبما ان الذي يفرّق الناس الآن هو حرفية القواعد لامبادئها الاجمالية فان انصار هذا القسم من كل المذاهب يتقربون بعضهم من بعض الى درجة يرون انفسهم عندها في غنى عن قطع صلاتهم بالقسم الاول من اجل اتحادهم . ويومئذ يغرق التعصب في سيل من التساهل العمومي . وتصبح الطقوس والتقاليد فُلكاً سرياً يتفق الجمع على عدم فتحه . واذا كان هذا الفلك فارغاً فاي ضرر في فراغه .**

على انني اخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا الارتخاء العام في العقائد . ولكنني اعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال للمسالمة . الا انني اخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء . فاذا اختنقت

قضي على الدين الاسلامي . ذلك انه من الثابت الآن امران : الاول ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الاديان القديمة موتاً نهائياً لانه يتخذها آلة له . والثاني انه لا يطيق ان تكون هذه الاديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الاديان اما ان تسالم وتلين او ان تموت

فما الفائدة اذاً من وضع مبادىء الدين الاصلية النقية من كل شائبة في موضع يؤذيها بدلاً من بقائها خارج دائرة الاحزاب والمذاهب ؟ ما الفائدة من اقامة مذهب ضد مذهب وراية ضد راية اذا كان الخلاص ممكناً للجميع وغير متوقف الا على نقاء باطن الانسان وشرف اخلاقه ؟ ومن المعلوم ان الانقسام بين البشر والغلو في المعتقدات يؤديان الى رد الفعل في كل امر وكل مذهب . فانه لولا لوثيروس وكالفين لما قام كارافا وشيسليبيري ولويولا وفيليب الثاني . اما نحن فاذا نبذتنا كنيستنا وجب ان لا نغضب ولا نشكو . وانما يجب ان نذكر بسرور تلطف العادات العصرية وانقلاب الزمان الذي صيَّر هذا البغض بلا تاثير كأنه لم يعد شيئاً مذكوراً . ولنعزِ انفسنا عن ذلك بالتأمل في تلك الكنيسة الغير المنظورة التي تشتمل على رجال الصلاح المحرومين اولئك الرجال الذين هم في كل مذهب نخبة الكنيسة التي تحرمهم . وهؤلاء الرجال هم متقدمون عصرهم وقواد الجيل الآتي لانهم سيكونون في المستقبل بالنسبة الى تطرف الاجيال الآتية اكثر الناس انتصاراً للمبادىء الدينية . ومع ذلك فاي معنى للحرمان وما الفائدة منه . ان الاب السماوي لا يحرم الا العقول الجافة والنفوس الشرهة والقلوب الضيقة . واذا كان معنى الحرم ان الكاهن لا يقبل جثتنا في مدفنه فعلينا ان نمنع عيلتنا من تقديمها له . والله بيننا خير الحاكمين . اما الارض فانها ام حنون لا تفرق بين جثة وجثة . وجثة الرجل الصالح متى دُفنت في حفرة فيها فانها تجلب البركة معها من عند نفسها

ولست اجهل ان اتباع هذه المبادىء صعب على بعض الناس خصوصاً المرتبطين بالنذور كرجال الاكليروس . مثال ذلك ان كاهناً شريف الاخلاق تحقق فراغ الفلك الذي اشرنا اليه واستحالة العمل بحرفية القواعد . فما عليه ان يعمل . هل يجب ان يسيء الى الذين كان يعزيهم ويسليهم بان يطلعهم على اكتشاف لا يفهمونه ؟ معاذ الله ان يكون ذلك واجباً عليه فانه ليس في العالم كله رجلان واجباتهما متساوية . فان مطران كولانسو مثلاً قد صنع صنعاً دلَّ على نزاهة سيرته وسريرته لما دوّن بين اوراقه الشكوك التي قامت في نفسه بشأن معتقداته . وهذا العمل فريد في بابه منذ قيام الديانة المسيحية . ولكن الكاهن الفرنسوي الذي تقوم في نفسه شكوك كتلك الشكوك عليه السكوت في بلاد ضيقة

العقول كبلادنا . ولذلك سكت كثيرون من الكهنة . واذا فتشتَ حول كنائس القرى وجدتَ كثيراً من القبور تضمُّ اسراراً لم يقف عليها احد غير الله . فهؤلاء الذين سكتوا مساوون في الفضل لاولئك الذين نطقوا

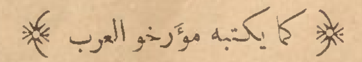
فالعلم اذاً شيءٌ والعمل شيءٌ آخر . والكمال يجب ان يبقى كمالاً في جوه الرفيع والا فانه يتلوث اذا اريد العمل به . وكم من الافكار والمبادئ تكون مفيدة لاهل الفهم واصحاب العقول النيرة ومضرة بالطبقة الواطئة . ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يعمل اعمالاً عظيمة الا اذا كانت له خطة مقررة وطريق مخطوطة . وهذا ناشيءٌ عن ان اقواه حدوداً معينة . واذا كان الانسان مجرداً عن كل وهم وعادة واصطلاح فانه يكون مخلوقاً ضعيفاً . فلنتمتع اذاً بنعمة الحرية المعطاة لنا نحن ابناء الله ولكن لا نجعلنَّ انفسنا شركاء في ما يصيب الهيئة الاجتماعية من تناقص الفضائل اذا ضعفت الديانة المسيحية . اذ ماذا نكون بدون هذه الديانة اذا امَّحت . ومن يقوم مقام تلك الرهبانيات التي هي عبارة عن مدرسة للنظام والجد والاحترام والاخلاص . **وكيف لا يخيفنا حينئذ الجفاف والقسوة اللذان يسطوان على كل القلوب والصغائر التي تستولي على العالم . نحن على اتفاق تام في هذه المسائل مع رجال الدين . وانما الخلاف الذي بيننا علمي لا ديني . فقلوبنا اذاً معهم وعدونا عدوهم . ونعني بهذا العدو المبادئ المادية الواطئة التي لا ترى في الكون شيئاً غير المادة ودناءة بعض البشر (يعني بعض رجال الاكليروس) الذين يرومون استخدام كل امر حتى الامور المقدسة في سبيل مصالحهم الخصوصية**

فنستحلفكم اذاً باسم الله ان نتركوا كل خصام ونزاع . دعوا الاحزاب والمذاهب التي وضعها البشر تعيش بتساهل بعضها مع بعض . ولا تطلبوا من بعضها ان يتنازل عن شيءٍ من مبادئه اكراماً للآخر فان ذلك يحط من قدرها . وانما اطلبوا ان يحمل بعضها بعضاً ويتسامح بعضها لبعض فانه ليس في العالم قوة تستطيع ملاشاة باقي القوات ولا في امكان مبداء ان يعيش دون نقيضه . بل ان الشيء ونقيضه في هذا العالم لا بدَّ ان يعيشا معاً . وانما ينشأ نظام الانسانية من اتحاد اصواتها الكثيرة مهما كانت مختلفة . ولكن هب ان ما يسمونه « استقامة الايمان » قد تمكن من قتل العلم فماذا تكون النتيجة ؟ ان نتيجة هذا القتل معروفة لا تخفى على احد . فان العالم الاسلامي واسبانيا قد قاربا الموت لانهما خنقا العلم وسدا سبيله . وكذلك هب ان العلم المادي رام حكومة العالم من غير التفات الى حاجات النفس الدينية فماذا تكون النتيجة ؟ ان نتيجة هذا الامر معروفة ايضاً وقد

ظهرت في اثناء الثورة الفرنسوية . وهذا مصير كل افراط وكل تفريط في العالم . انظر الى ايطاليا في ايام نهضتها تجد ان ارتقاء الفنون فيها الى اسمى درجات الكمال جعلها مكاناً قذراً لان ذلك الكمال في الفنون لم يكن مقروناً بالفضيلة والحشمة . وانظر الى بعض البلاد البروتستنتية تجد ان الضجر والصغائر والتأخر في الفنون امور تتولد فيها عقاباً لها على الغائها الفنون والزينة وتشديدها على العلم بحجة البساطة وحفظ اصول الدين الحقيقية . فلوكريس وسنت تريزه . واريستوفان وسقراط . وفولتير وفرنسوى داسيز . ورفائيل وسان فنسان دي بول — كل واحد من هؤلاء لا غنى للعالم عنه وان اختلفت وجهاتهم ومقاصدهم . واذا فقدت الانسانية شيئاً من هذه العناصر المختلفة التي تتألف منها صغرت ونقصت نقصاً يظهر فيها » اه

ذيل ثانٍ

تاريخ حياة المسيح واعماله



كما يكتبه مؤرخو العرب

(نقلاً عن التاريخ الكامل للمؤرخ المشهور ابي الحسن ابن الاثير الجزري)

ليس يخلو من فائدة ان نردف تاريخ المسيح كما كتبه رنان بتاريخ المسيح كما يكتبه مؤرخو العرب نقلاً عن الكتب والأخبار الدينية . فاخترنا من كلامهم بهذا الصدد كلام المؤرخ ابن الاثير المشهور . وهذا نصه

(ذكر ولادة المسيح الى آخر امره)

«كانت ولادة المسيح ايام ملوك الطوائف . قالت المجوس كان ذلك بعد خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على ارض بابل وبعد احدى وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين . وقالت النصارى ان ولادته كانت لمضي ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الاسكندر على ارض بابل . وزعموا ان مولد يحيى (١) كان قبل مولد المسيح بستة اشهر وان مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وقيل خمس عشرة وقيل عشرين . وان عيسى عاش الى ان رُفع (الى السماء) اثنتين وثلاثين سنة واياماً وان مريم عاشت بعده ست سنين فكان جميع عمرها احدى وخمسين سنة . وان يحيى قُتل قبل ان يُرفع المسيح . واتت المسيح النبوءة والرسالة وعمره ثلاثون سنة . وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة وكانت هي وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدمة الكنيسة . وكان

«١» يوحنا المعمدان

يوسف حكيماً نجاراً يعمل بيديه ويتصدَّق بذلك ٠ وكانت مريم اذا نفد ماؤها وماء يوسف ابن عمها اخذ كل واحد منهما قلّته وانطلق الى المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان الى الكنيسة ٠ فلما كان اليوم الذي لقيا فيه جبرائيل نفد ماؤها فقالت ليوسف ليذهب معها الى الماء ٠ فقال عندي من الماء ما يكفيني الى غدٍ ٠ فاخذت قلّتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت جبرائيل (الملاك) قد مثله الله لها بشراً سوياً ٠ فقال لها يامريم ان الله قد بعثني اليك لاهب لك غلاماً زكياً ٠ قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً ٠ اي مطيعاً لله ٠ وقيل هو اسم رجل بعينه وتحسبه رجلاً ٠ قال انما انا رسول ربكِ لاهب لك غلاماً زكياً قالت انىَّ يكون لي غلام ولم يمسسني بشر قال كذلك قال ربك (الى قوله امراً مقضياً) فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ في جيب درعها ثم انصرف عنها ٠ وملأت قلّتها وعادت ٠ وكان لا يُعلم في اهل زمانها اعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار ٠ فلما حملت واتتها خالتها امرأة ذكريا ليلةً تزورها وفتحت لها الباب التزمتها فقالت لها امرأة ذكريا اني حبلى فقالت لها مريم وانا ايضاً حبلى قالت امرأة زكريا فاني وجدتُ ما في بطني يسجد لما في بطنك ٠ وولدت امرأة زكريا يحيي (يوحنا) وقد اختلف في مدة حملها فقيل تسعة اشهر وهو قول النصارى وقيل ثمانية اشهر فكان ذلك آية اخرى لانه لم يعش مولود لثمانية اشهر غيره ٠ وقيل ستة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة وهو اشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » عقبه بالفاء ٠ فلما احست مريم خرجت الى جانب المحراب الشرقي فاتت اقصاه فاجاءها المخاض الى جذع النخلة فقالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً ٠ يعني نُسي ذكري واثري فلا يرى لي اثر ولا عين ٠ قالت مريم كنت اذا خلوتُ حدثني عيسى وحدثته ٠ فاذا كان عندنا انسان سمعتُ تسبيحه في بطني ٠ فناداها جبرائيل (الملاك) من تحتها اي من اسفل الجبل : لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً وهو النهر الصغير اجراه تحتها ٠ فمن قرأ مِن تحتها بكسر الميم جعل المنادي جبرائيل ومن فتحها قال انه عيسى انطقه الله ٠ وهزي اليك بجزع النخلة ٠ كان جزعاً مقطوعاً ٠ فهزته فاذا هو نخلة ٠ وقيل كان مقطوعاً فلما اجهدها الطلق احتضنته فاستقام واخضرَّ وارطب ٠ فقيل لها وهزي اليك بجزع النخلة فهزته فتساقط الرطب ٠ فقال لها كلي واشربي وقرّي عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرتُ للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً ٠ وكان من صام في ذلك الزمان لا يتكلم حتى يمسي ٠ فلما ولدته ذهب ابليس فاخبر بني اسرائيل ان مريم قد

ولدت . فاقبلوا يشتدون بدعوتها فاتت به قومها تحمله . وقيل ان يوسف النجار تركها في مغارة اربعين يوماً ثم جاء بها الى اهلها وكانت من نسل هرون اخي موسى كذا قيل . قلتُ انها ليست من نسل هرون انما هي من سبط يهوذا ابن يعقوب من نسل سليمان بن داود . وانما كانوا يُدعون بالصالحين . وهرون من ولد لاوي بن يعقوب . قالت لهم ما امرها الله به بعد ذلك . وقيل انه لما دنا نفاسها اوحى الله اليها ان اخرجي من ارض قومك فانهم ان ظفروا بكِ قتلوك وولدكِ . فاحتملها يوسف النجار وسار بها الى ارض مصر فلما وصلا الى تخوم مصر ادركها المخاض . فلما وضعت وهي محزونة قيل لها لا تحزني (الآية الى انسيّاً) فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء . واصبحت الاصنام منكوسة على رؤسها وفزعت الشياطين فجاؤوا الى ابليس فلما رأى جماعتهم سألهم فاخبروه فقال قد حدث في الارض حادث . فطار عند ذلك وغاب عنهم فمرّ بالمكان الذي ولد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به . فعلم ان الحدث فيه . ولم تمكنه الملائكة من الدنو من عيسى فعاد الى اصحابه واعلمهم بذلك وقال لهم ما ولدت امرأة الا وانا حاضر لاضل به اكثر ممن يهتدي . واحتملته مريم الى ارض مصر فمكث اثنتي عشرة سنة تكتمه من الناس فكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبيها . وقيل ان مريم حملت المسيح الى مصر بعد ولادته ومعها يوسف النجار وهي الربوة التي ذكرها الله تعالى وقيل الربوة دمشق وقيل بيت المقدس وقيل غير ذلك . فكان سبب ذلك الخوف من ملك بني اسرائيل وكان من الروم واسمه هيرودس . فان اليهود اغروه بقتله فساروا الى مصر واقاموا بها اثنتي عشرة سنة الى ان مات ذلك الملك وعادوا الى الشام . وقيل ان هيرودس لم يرد قتله ولم يسمع به الا بعد رفعه وانما خافوا اليهود عليه والله اعلم

ذكر معجزات المسيح

لما كانت مريم بمصر نزلت على دهقان وكانت داره يأوي اليها الفقراء والمساكين فسُرق له مال فلم يتهم المساكين فحزنت مريم فلما رأى عيسى حزن امه قال اتريدين ان اداه على ماله قالت نعم قال انه اخذه الاعمى والمقعد . اشتركا فيه : حمل الاعمى المقعد فاخذه . فقيل للاعمى ليحمل المقعد فاظهر العجز فقال له المسيح كيف قويتَ على حمله البارحة لما اخذتما المال . فاعترفا واعاداه . ونزل بالدهقان اضياف ولم يكن عنده شراب فاهتمّ لذلك فلما رآه عيسى دخل بيتاً للدهقان فيه صفان من جرار فامرّ عيسى بيده على افواهها وهو يمشي فامتلأت شراباً وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة . وكان في الكتّاب يحدّث الصبيان بما يصنع اهلوهم وبما كانوا يأكلون . قال وهب : بينما عيسى يلعب مع الصبيان اذ

وثب غلام على صبي فضربه على رجله فقتله فالقاه بين رجلي المسيح متلطخاً بالدم . فانطلقوا به (اي المسيح) الى الحاكم في ذلك البلد فقالوا قتل صبياً . فسأله الحاكم فقال ما قتلته فارادوا ان يبطشوا به فقال ائتوني بالصبي حتى اسأله من قتله . فتعجبوا من قوله واحضروا عنده القتيل . فدعا الله فاحياه فقال من قتلك فقال قتلني فلان يعني الذي قتله . فقال بنو اسرائيل للقتيل مَن هذا . قال هذا عيسى ابن مريم ثم مات الغلام من ساعته . وقال عطاء : سلمت مريم عيسى الى صباغ يتعلم عنده فاجتمع عند الصباغ ثياب وعرض له حاجة فقال للمسيح هذه ثياب مختلفة الالوان وقد جعلتُ في كل ثوب منها خيطاً على اللون الذي يُصبغ به فاصبغها حتى اعود من حاجتي هذه . فاخذها المسيح والقاها في جب واحد فلما عاد الصباغ سأله عن الثياب فقال صبغتها فقال اين هي قال في هذا الجب قال كلها قال نعم قال لقد افسدتها على اصحابها وتغيظ عليه . فقال له المسيح لا تعجل وانظر اليها . وقام واخرجها كل ثوب منها على اللون الذي اراد صاحبه فتعجب الصباغ منه وعلم ان ذلك من الله تعالى

ولما عاد عيسى وامه الى الشام نزلوا بقرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى فاقام الى ان بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله اليه ان يبرز للناس ويدعوهم الى الله تعالى ويداوي المرضى والزمنى والاكمه والابرص وغيرهم من المرضى ففعل ما امر به واحبه الناس وكثر اتباعه وعلا ذكره . وحضر يوماً طعام بعض الملوك وكان دعا الناس اليه فقعد على قصعة يأكل منها ولا تنقص فقال الملك من انت قال انا عيسى بن مريم فنزل الملك عن ملكه واتبعه في نفر من اصحابه فكانوا الحواريين (١) وقيل ان الحواريين هم الصباغ الذي تقدم ذكره واصحاب له وقيل كانوا صيادين وقيل قصارين وقيل ملاحين والله اعلم . وكانت عدتهم اثني عشر رجلاً وكانوا اذا جاعوا او عطشوا قالوا يا روح الله قد جعنا وعطشنا . فيضرب يده الى الارض فيخرج لكل انسان منهم رغيفين وما يشربون . فقالوا من افضلُ منا . اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا . فقال افضلُ منكم من يأكل من كسب يده . فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة . ولما ارسله الله اظهر من المعجزات انه صوّر من الطين صورة طائر ثم نفخ فيه فيصير طائرًا باذن الله . قيل هو الخفاش . وكان غالبًا على زمانه الطب فاتاهم بما ابراء الاكمه والابرص واحيا الموتى تعجيزًا لهم . فممن احياه عازر وكان صديقًا لعيسى فمرض فارسلت اخته الى عيسى ان عازر يموت فسار اليه وبينهما ثلاثة ايام فوصل اليه وقد مات

«١» رسل المسيح وتلامذته

منذ ثلاثة ايام فاتى قبره فدعا له فعاش و بقي حتى ولد له . واحيا امرأة وعاشت و ولد لها . واحيا سام بن نوح . وكان يوماً مع الحوار يين يذكر نوحاً والغرق والسفينة فقالوا لو بعثت لنا من شهد ذلك فاتى تلاً وقال هذا قبر سام ابن نوح ثم دعا الله فعاش وقال : قد قامت القيامة ? فقال المسيح لا ولكن دعوت الله فاحياك . فسألوه فاخبرهم . ثم دعا ميتاً واحيا عزير النبي . قال له بنو اسرائيل احيي لنا عزيراً والا احرقناك فدعا الله فعاش . واحيا يحيى بن زكريا واحيا غير من ذكرناه وكان يمشي على الماء

ذكر نزول المائدة

وكان من المعجزات العظيمة نزول المائدة . وسبب ذلك ان الحوار يين قالوا له ياعيسى هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء . فدعا عيسى فقال اللهم انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا . فانزل الله المائدة عليها خبز ولحم ياكلون منها ولا تنفد . فقال لهم انها مقيمة ما لم تدخروا منها. فما مضى يومهم حتى ادخروا . وقيل اقبلت الملائكة تحمل المائدة عليها سبعة ارغفة وسبعة احوات حتى وضعوها بين ايديهم فاكل منها آخر الناس كما اكل اولهم . وقيل كان عليها من ثمار الجنة وقيل كانت تُمد بكل طعام الا اللحم . وقيل كانت سمكة فيها طعم كل شيء . فلما اكلوا منها وهم خمسة آلاف وزادت حتى بلغ الطعام ركبهم قالوا نشهد انك رسول الله . ثم تفرقوا فتحدثوا بذلك فكذب به من لم يشهده وقالوا سحر اعينكم . فافتتن بعضهم وكفر فمسخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبي . فبقوا ثلاثة ايام ثم هلكوا ولم يتوالدوا . وقيل كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون اليها تنزل حتى سقطت بين ايديهم . فبكى عيسى وقال اللهمَّ اجعلني من الشاكرين . اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ولا عقوبة . واليهود ينظرون الى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحاً اطيب من ريحها . فقال شمعون (سمعان) يا روح الله أمن طعام الدنيا ام من طعام الجنة . فقال المسيح لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة انما هو شيء خلقه الله بقدرته . فقال لهم كلوا مما سألتم . فقالوا له كل انت يا روح الله فقال معاذ الله ان آكل منها . فلم ياكل ولم ياكلوا منها . فدعا المرضى والزمنى والفقراء فاكلوا منها وهم الف وثلثمائة فشبعوا وهي بحالها لم تنقص . فصح المرضى والزمنى واستغنى الفقراء . ثم صعدت وهم ينظرون اليها حتى توارت . وندم الحوار يون حيث لم ياكلوا منها . وقيل انها نزلت اربعين يوماً كانت تنزل يوماً وتنقطع يوماً . وامر الله عيسى ان يدعو اليها الفقراء دون الاغنياء ففعل ذلك فاشتد على الاغنياء وجحدوا نزولها وشكوا في ذلك وشككوا غيرهم فيها . فاوحى الله الى عيسى اني

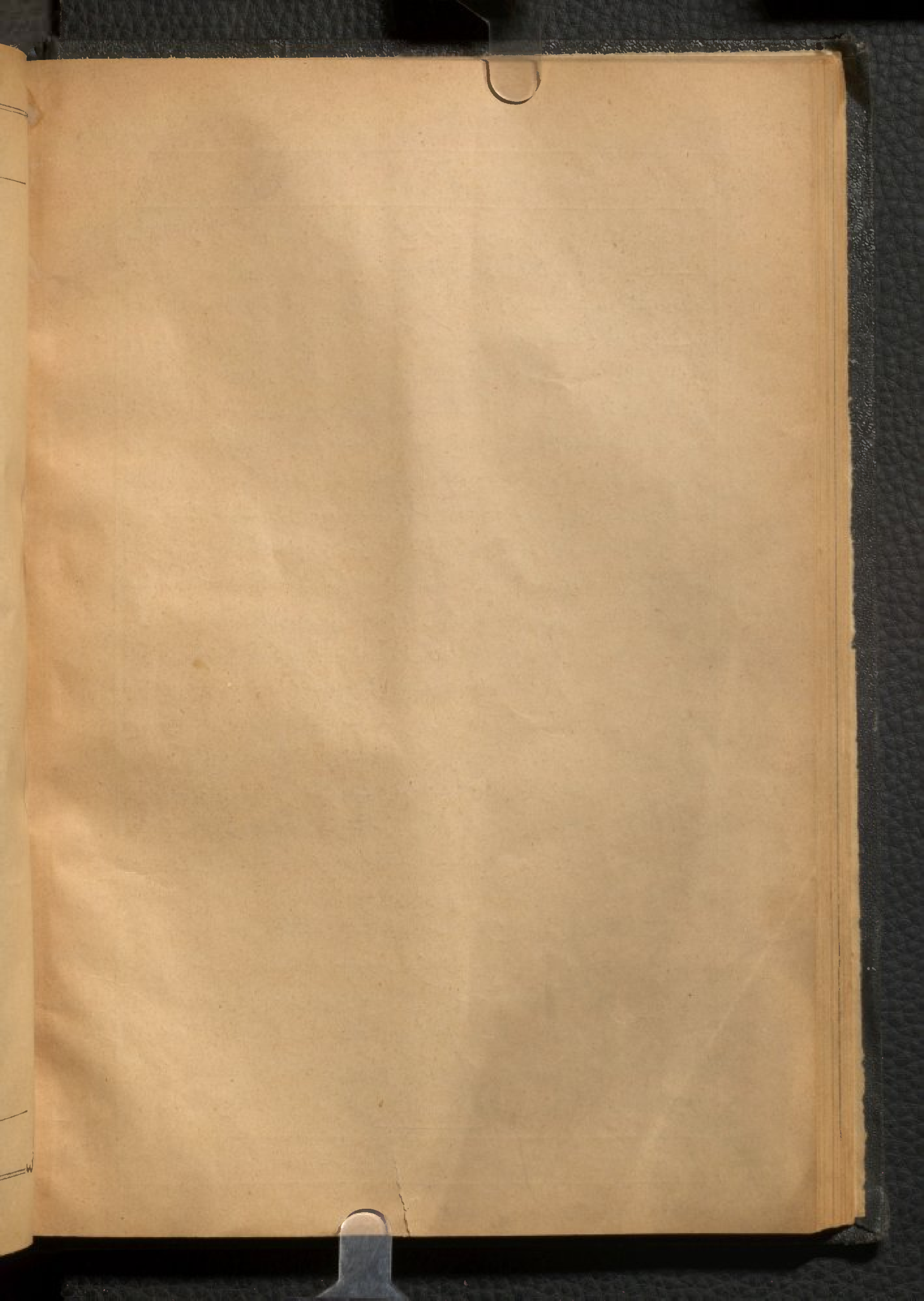
شرطت ان اعذب المكذبين عذابًا لا اعذب به احدًا من العالمين فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً فاصبحوا خنازير . فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا وبكى عيسى على الممسوخين . فلما ابصرت الخنازير عيسى بكوا وطافوا به وهو يدعوهم باسمائهم ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة ايام ثم هلكوا

ذكر رفع المسيح الى السماء ونزوله الى امه وعوده الى السماء

قيل ان عيسى استقبله ناس من اليهود فلما راوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة . فسمع ذلك ودعا عليهم فاستجاب الله دعاءه ومسخهم خنازير . فلما رأى ذلك رأس بني اسرائيل فزع وخاف وجمع كلمة اليهود على قتله فاجتمعوا عليه فسألوه فقال : يا معشر اليهود ان الله يبغضكم . فغضبوا من مقالته وساروا اليه ليقتلوه فبعث اليه جبريل فادخله في خوخة الى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السماء من تلك الروزنة . فامر رأس اليهود رجلاً من اصحابه اسمه نطليانوس ان يدخل اليه فيقتله فدخل فلم يرَ احدًا والقى الله عليه شبه المسيح فخرج اليهم فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه . وقيل ان عيسى قال لاصحابه ايكم يحب ان يُلقى عليه شبهي وهو مقتول . فقال رجل منهم انا يا روح الله . فالقى عليه شبهه فقتل وصُلب . وقيل ان الذي شبه بعيسى وصلب رجل اسرائيلي اسمه يوشع ايضًا . وقيل لما اعلم الله المسيح انه خارج من الدنيا جزع من الموت فدعا الحواريين فصنع لهم طعامًا فقال : احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة . فلما اجتمعوا عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا اخذ يغسل ايديهم بيده ويمسحها بثيابه فتعاظموا ذلك وكرهوه فقال من يرد عليَّ الليلة شيئًا مما اصنع فليس مني . فاقروه حتى فرغ من ذلك ثم قال اما ما خدمتكم على الطعام وغسلت ايديكم بيدي فليكن بي اسوة فلا يتعاظم بعضكم على بعض . واما حاجتي التي استعينكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء ان يؤخر اجلي . فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ما تصبرون لي ليله . قالوا والله ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نقدر عليه الليلة وكلما نريد الدعاء حيل بيننا وبينه . فقال يُذهب بالراعي ويفترق الغنم . وجعل ينعي نفسه ثم قال : ليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني . فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فاخذوا شمعون احد الحواريين وقالوا هذا صاحبه . واختلف العلماء في موته قبل رفعه الى السماء فقيل رُفع ولم يمت وقيل توفاه الله ثلاث ساعات ثم احياه ورفعه . ولما رُفع الى السماء قال الله له انزل . فلما قالوا لشمعون عن المسيح جحد وقال ما انا

صاحبه فتركوه وفعلوا ذلك ثلاثاً . فلما سمع صياح الديك بكى واحزنه ذلك . واتى احد الحواريين الى اليهود فدلهم على المسيح واعطوه ثلاثين درهماً فاتى معهم الى البيت الذي فيه المسيح فدخله فرفع الله المسيح والقى شبهه على الذي دلهم عليه فاخذوه واوثقوه وقادوه وهم يقولون له ان كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا فهلا تنجي نفسك . وهو يقول انا الذي دللتكم عليه فلم يصغوا الى قوله ووصلوا به الى الخشبة وصلبوه عليها . وقيل ان اليهود لما دلهم عليه الحواريون اتبعوه واخذوه من البيت الذي كان فيه ليصلبوه . فاظلمت الارض وارسل الله ملائكة فحالوا بينهم وبينه . والقي شبه المسيح على الذي دلهم عليه فاخذوه ليصلبوه . فقال انا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا اليه فقتلوه وصلبوه عليها . ورفع الله المسيح اليه بعد ان توفاه ثلاث ساعات وقيل سبع ساعات ثم احياه ورفعه . ثم قال له انزل الى مريم فانه لم يبكِ عليك احد بكاءها ولم يحزن حزنها . فنزل عليها بعد سبعة ايام فاشتعل الجبل حين هبط نوراً وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان ابرأها من الجنون . فقال ما شأنكما تبكيان قالتا عليك قال اني رفعني الله اليه ولم يصبني الا خير وان هذا شيء شبه لهم . وامرها فجمعت له الحواريين فبثهم في الارض رسلاً عن الله وامرهم ان يبلغوا عنه ما امره الله به . ثم رفعه الله اليه وكساه الريش والبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم فصار انسياً ملكياً سماوياً ارضياً . فتفرق الحواريون حيث امرهم فتلك الليلة التي اهبطه الله فيها هي التي تدخن فيها النصارى . وتعدّى اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويشتمونهم فسمع بذلك ملك الروم واسمه هيرودس وكانوا تحت يده وكان صاحب وثن فقيل له ان رجلاً كان في بني اسرائيل وكان يفعل الآيات من احياء الموتى وخلق الطير من الطين والاخبار عن الغيوب فعدوا عليه فقتلوه وكان يخبرهم انه رسول الله فقال الملك ويحكم ما منعكم ان تذكروا هذا من امره فوالله لو علمتُ ما خليت بينهم وبينه . ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من ايدي اليهود وسألهم عن عيسى فاخبروه وتابعهم على دينهم واستنزل المصلوب الذي شُبه لهم فغيّبه واخذ الخشبة التي صُلب عليها فاكرمها وصانها وعدا على بني اسرائيل فقتل منهم قتلى كثيرة . فمن هناك كان اصل النصرانية في الروم . وقيل كان هذا الملك هيرودس ينوب عن ملك الروم الاعظم الملقب قيصر واسمه طباريوس وكان هذا ايضاً يسمى ملكاً . وكان ملك طباريوس ثلاثاً وعشرين سنة منها الى ارتفاع المسيح ثماني عشرة سنة واياماً » انتهى كلام ابن الاثير بحذف يسير

وقعت في الكتاب اغلاط مطبعية لم نتمكن من اصلاحها عنا



ثمن النسخة الواحدة فرنكان واجرة البوسطة غرش صاغ

الوحش الوحش الوحش

او

سياحة في ارز لبنان

بقالب رواية فلسفية اجتماعية ادبية

﴿تأليف﴾

فرح انطون

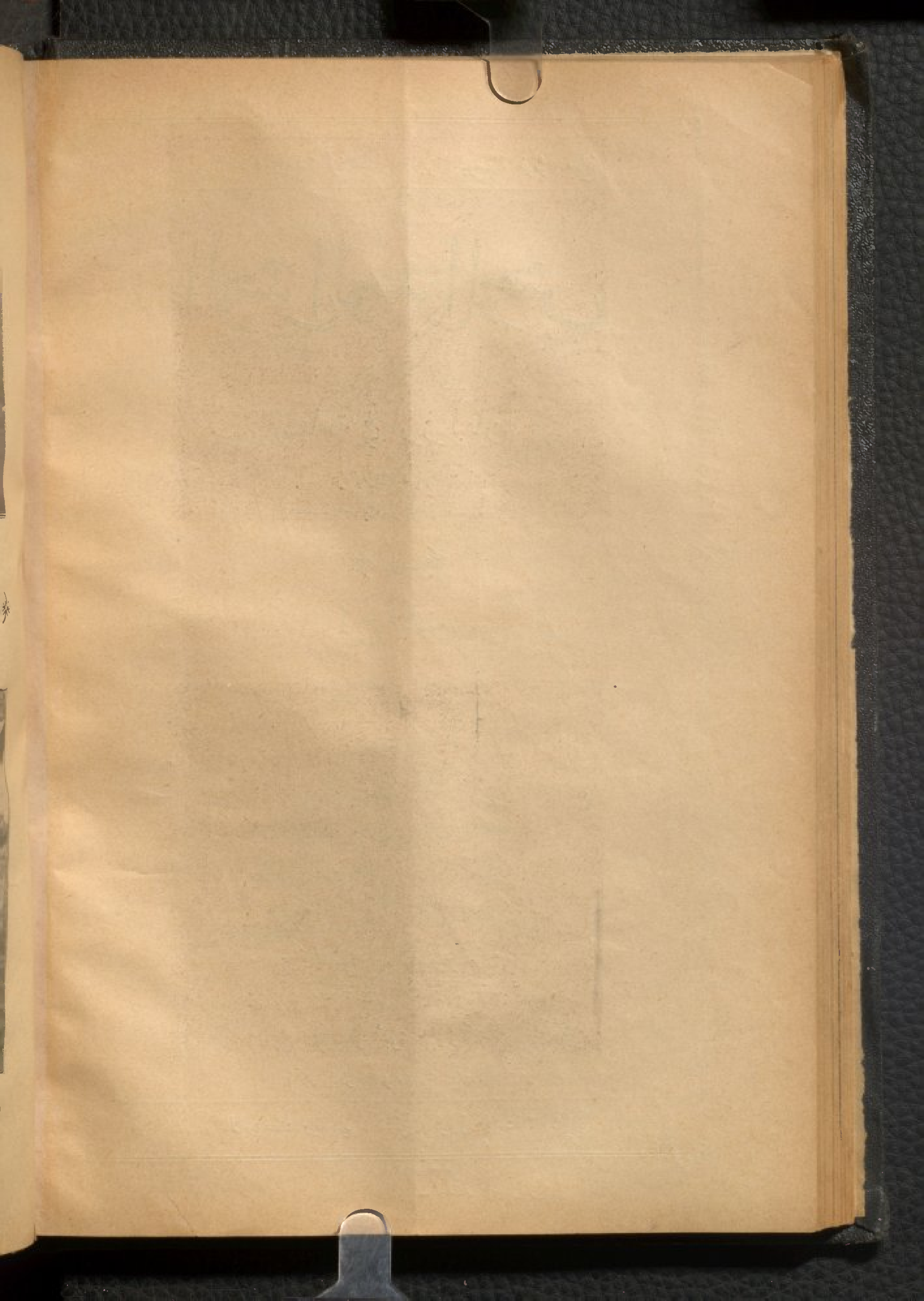
منشئ مجلة (الجامعة)



﴿منظر شجرة الارز﴾

اكبر اشجار الارز مصغرة مئات مرات

الاسكندرية في ١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٣





ارز لبنان

منظر الارز من بعيد وفوقه الجبال وامامه السياح يقصدونه

حرش الارز ظاهر في الوسط



(هذان الرسمان منقولان عن صورتين فوتوغرافيتين مصورتين في العام الماضي)



﴿ الوحش الوحش الوحش ﴾

الفصل الأوّل

﴿ على طريق الجبل ﴾

طرق الارز · سفر سليم وكليم · الشاعر لافونتين والجد جد اللبناني · نادرة عن المكارين والسوقة فيع وقلحات وما يقوم بينهما من الخصام · نفس الحضري ونفس القروي · بعض اغاني لبنانية · نجمة الصباح رفيقة المكارين المحبوبة

أشهر الطرق من البحر الى (ارز لبنان) طريقان · واحدة عن طريق اهدن فبشري · او الحدث فحصرون فبشري — وهي من امام الارز · وواحدة عن طريق بعلبك من وراء الجبال الشامخة المحيطة بهذا الحرش · والطريق الاولى طريق الثغور من طرابلس حتى البترون · والطريق الثانية طريق السياح الذين يصعدون من بيروت الى بعلبك لمشاهدة آثارها ثم يعطفون منها الى الارز لمشاهدة آثاره الجميلة الطبيعية بعد مشاهدة آثار بعلبك الصناعية ·

ففي ليلة ٨ اغسطس من السنة التي نكتب تاريخ حوادثها هنا قرع مكارٍ في آخر الليل باب غرفة عالية كائنة في غربي قرية قلحات فوق طرابلس الشام وهو ينادي ياخواجه كليم ياخواجه كليم · فدوى صوته في القرية في صفاء ذلك الليل دويًا هرت له الكلاب التي كانت راقدة في الشارع قرب تلك الغرفة فساعد هريرها على تنبيه النائمين فيها · ولذلك لم يلبث ان فُتح الباب واطل منه الخواجه كليم وهو يفرك عينيه ويقول : هل ظهر نجم الصباح ياجرجس · فاجابه المكاري اظنه سيظهر بعد نصف ساعة على الكثير والارجح ان الشمس تشرق لنا عند بطرام · فقال كليم فلنعجل اذًا فاننا نروم الوصول الى الجبل قبل اضطرام وطيسها فرارًا من الحر

وحينئذ التفت كليم لينبه رفيقًا له كان نائمًا معه في الغرفة فوجده واقفًا وراءه · فقال

له هلمَّ نركب يا سليم فان مطيتينا حاضرتان ولنلبس ملابسنا اولاً

وبعد ثلث ساعة كان كليم وسليم على جوادين قويين سائرين في صفاء الليل تحت اشعة النجوم الضئيلة ولا انيس لهما غير المكاري يسير وراءهما وهو تارة يحدو فرسيه بكلام مشجع وتارة يزجرهما لانهما صدما حجراً في طريقهما · ولم يكن يُسمع في ذلك الهدوء ما عدا وقع حوافر الجوادين وصوت المكاري سوى اصوات الحشرات الصغيرة التي تنتشر في لبنان على اشجار الزيتون والتوت وتنشد في الليل والنهار اناشيد متواصلة

ويظهر ان جفون كليم وسليم كانت لا تزال مثقلة بالنعاس لانهما كانا يتثاءبان من حين الى حين · فرغبة في طرد النعاس ابتدأ كليم قائلاً : اسمع ياصاح اصوات هذه الحشرات الصغيرة التي تهكم عليها لافونتين تهكماً شديداً (١) حقاً انه ظلمها بهذ التهكم ترى ما عساها كانت تجيبه لو درت بتهكمه

فتثاءب سليم وقال : لا ريب انها كانت تجيبه جواباً جميلاً · فانها تقول له « ليس بالخبز وحده تحيي الكائنات الحية بل الحياة الحقيقية هي الحياة الروحية · وحياة الروح عند هذه الحشرات نشيدها المستمر الدال على انها في حالة الانبساط والراحة · ولو خُيرت في ايهما احب اليها · فقدانها هذه الحياة الروحية التي هي فطرتها وطبيعتها ام فقدانها الخبز اليومي الذي هو حياتها البدنية فانها لا شك تختار فقدان هذه الحياة على تلك · وما الذنب في ذلك ذنبها لانها هكذا صُنعت وهكذا فُطرت · ومع ذلك فان لافونتين لم يقدر على قهرها بتهكمه في ذلك المثل الا لانه قاس معيشتها على معيشة البشر و بذلك جاءت حجته قوية · ولكنه لو امعن النظر لرأى ان هذا الحيوان الصغير لا يحتاج الى القوت بعد مرور ايام الحصاد حتى في اشد اوقات الشتاء · فان قطرة من قطرات المطر كافية لشربه · وورقة واحدة من اوراق الشجر كافية لايوائه وتدفئته · واقلّ حشرة صغيرة او دودة حقيرة كافية لتغذيته · ولو عقل هذا الحيوان لاجاب ذلك الشاعر : عندنا في الطبيعة ليس من حيوان ولا نبات يحتاج الى قوت ويبيت بلا غذاء · فان فظائع كهذه الفظائع لا تحدث الا بين البشر في الاجتماع · نعم نحن

« ١ » La cigale et la fourmie (الجُدجد والنملة) قصة الجدجد والنملة مشهورة وخلاصتها ان تلك الحشرة التي تصرف اوقاتها في الغناء جاءت في الشتاء الى النملة وطلبت منها ان تقرضها شيئاً من القوت حتى يمضي فصل الشتاء · فاجابتها النملة ولكن ماذا كنت تصنعين في الصيف في ايام الحصاد ولماذا لم تذخرين شيئاً لهذا اليوم العصيب · فاجابتها الحشرة · في ايام الحصاد كنت اغني · فضحكت النملة واجابت : كنت تغنين يومئذ · اذاً فارقصي الآن · ــ وقد اراد لافونتين بهذا المثل البديع اظهار وجوب التدبير والاذخار لاوقات الضيق

نأكل بعضنا بعضاً احياناً ولكننا نفعل ذلك حين الحاجة فقط قياماً بسد عوزنا . اما انتم فمع كونكم ذوي عقول تعقل ونفوس تدرك فانكم تأكلون بعضكم بعضاً بحاجة ومن غير حاجة . وكثيراً ما يكون ذلك ارضاء لكبريائكم فقط لا لضرورة : ولذلك قال احد حكمائكم (١) ياوحوش البرّ وافاعي الغابات خذيني اليكِ آكل من طعامك واشرب من مائك لا تخلص من محبة الانسان

فقهقه كليم هنا وقال نعم هذا خير ما يعتذر به عن طياشة ذلك الطويّر المطرب

وكأنّ المكاري ضجر من هذه اللغة التي لم يكن يفهم منها شيئاً فتحول ضجره الى غضب على جواده فصاح به باعلى صوته « ديه سوق . . » وهمّ باتمام عبارته . فصاح به كليم اياك ان تكملها ياجرجس . فقال جرجس وما هذا يا معلمي . فقال كليم انت فهمت كلامي بلا تفسير

فسأل سليم كليماً وما معنى كلامك . فاجاب كليم باللغة الانكليزية : هي نادرة مضحكة تحدث بين بعض هؤلاء المكارين والعائلات المدنية التي تصيّف في قراهم . فانهم يسمون هذه العائلات « سوقه » وحينما يرومون التهكم عليهم في الطريق يقول احدهم لرفيقه « سوق يا اخي سوق يلعن ها لسوقه » يُظهر انه غير راضٍ عن سير الدواب والحقيقة ان مراده « سب » « السوقة » في وجوههم دون ان يدروا بذلك

فضحك سليم وقال : يظهر ان صاحبنا غير راضٍ عنا حتى رام اهانتنا . والذنب في ذلك ذنبنا لاننا لم نهتمّ بملاطفته لنستميله الينا . ثم التفت سليم الى جرجس ليفاتحه بالحديث فقال

ــ لماذا سرتَ بنا يا جرجس على هذه الطريق من الوادي . خذنا من فوق عن طريق « فيع »

فقال جرجس لا يا معلمي لا نستطيع الآن المرور عن طريق فيع لحدوث خصام شديد بين قريتنا واهالي تلك القرية منذ يومين

فقال سليم نعم سمعنا بهذا الخصام ويقال ان قد جُرح رجلان واسقطت امرأة في اثنائه فما سببه

فقال جرجس . سببه يا معلمي خصام بين اولاد فيع واولاد قلحات . فقد كان خمسة اولاد من اولاد فيع يلعبون بازاء حقول العنب الكائنة بين القريتين ويأكلون من العنب بلا حق فاسرع اليهم ثلاثة من اولادنا لردعهم عن الاعتداء على رزقنا ففرّ اولاد فيع ووقفوا بعيداً فصار اولادنا يتغنون بغناء قديم عندهم وهو

---

(١) لابرويير

يا رايح الى فيع دبدب لا تفيع
يابسين قلحات احسن من شيخ فيع

وكان بين اولاد فيع ابن شيخ فيع نفسه فاغتاظ لاهانة ابيه فركض الى شجرة توت قريبة فتسلقها وقصف منها غصناً ثم اندفع نحو أولادنا بينما كان رفاقه يتغنون بغنائهم

يا رايح الى قلعات تمتلي منها .. اط
يابسين فيع احسن من شيخ قلعات

ولما وصل ابن شيخ فيع الى اولادنا امسكوه (وزلوافيه) ضرباً فاسرع رفاقه الى نجدته فدار الضرب بين الفريقين فجرح منهما بضعة اولاد . فركض حينئذ احد اولادنا ووقف فوق القرية وصاح ان اهل فيع قتلوا اولادنا . فهبَّ كثيرون من الرجال الى محل الحادثة . وكذلك ركض احد اولاد فيع وابلغ اهلها مثل ذلك الخبر فاسرع بعض رجالها ايضاً . ولما التقى الفريقان في محل الحادثة دار الضرب بين الكبار بعد ان كان بين الصغار ولو لم يحضر « الآغا » مع نفرين لاشتبك القتال بين اهل القريتين جميعاً . ـ ولذلك لا نقدر ان نمرّ الآن بجانب فيع لئلا يتحرشوا بنا كما انهم هم ايضاً لا ينفردون للمرور بجانب قريتنا

وكان الجوادان قد صعدا في ذلك الحين من وادي قلحاط وجانبا قرية فيع . ذلك ان قرية قلحات كائنة على اكمة منخفضة بين واديين من اشجار السنديان واحد من جهة الشرق وواحد من جهة الغرب . وهي على مسافة ربع ساعة من دير البلمند المشهور المشرف من جبله العالي على مدينة طرابلس الشام . وهواء هذه القرية جاف نقي لانها واقعة بين حرشين من السنديان كما تقدّم

وقطع سليم وكليم الطريق حتى فوق فيع دون ان يطلع نجم الصباح الذي وُعدا بطلوعه قريباً . فقال كليم لجرجس : لم تطلع نجمة الصبح بعدُ ياجرجس . فاجاب جرجس ستطلع قريباً . فضحك كليم وقال لرفيقه : يظهر ان صاحبنا « عملها معنا » فقال سليم واي شيء عمل . فقال كليم : للمكارين عادةٌ وهي انك اذا طلبتَ من احدهم السفر في الغد قبل طلوع نجم الصبح بنصف ساعة يجيئك قبل طلوعها بساعتين ويقول لك انها ستطلع بعد ربع ساعة . وهكذا تركب معه في ظلمة الليل وتقطع الطريق كلها وتصل الى مكان قصدك قبل ان تطلع نجمة الصباح . وبذلك يكفي نفسه ودابته عذاب الحرّ في اثناء الطريق . فالظاهر انه صنع معنا ما يصنعه غيره مع غيرنا . وربما وصلنا الى الجل قبل ان تطلع الشمس مع ان بيننا وبينه نحو خمس ساعات .

فتثاءب سليم وقال اف لاجل هذا أشعر بنعاس شديد واكاد انام على ظهر الجواد
ولما رأى صاحبنا جرجس ان الحديث لا يطول بينه وبين رفيقيه بل هما يتحادثان معاً لوحدهما رأى ان يسلي نفسه بنفسه . وكان الجوّ صافياً كانه مرآة الغريبة والنجوم تسطع فيه كمصابيح بعيدة معلقة في قبة الفلك فلا تكاد تنير طريق الجوادين في سيرهما . ولكن الجوادين كانا قد اعتادا السير في ظلام الليل ولذلك كانا يبصران الطريق المخططة كانهما في نهار . وهذا ما جعل الفارسين يعجبان له . وكان الهواء يهب في خلال نور النجوم الضئيل بارداً ضعيفاً فيشرح الصدر وينعش الفؤاد . وتلك الطبيعة القروية الساذجة كانت ساكنة هادئة كانها تستريح تحت جنح الليل من عناء النهار . فاثار هذا المنظر الجميل في نفس جرجس عاطفة الجمال الكامنة فيها فاندفع ينشد الاناشيد التي يعرفها . فهل درى حينئذ ذلك القرويّ الجاهل الساذج انه بعمله دلّ على ان نفسه كانت في تلك البرهة ارقى من نفسي رفيقيه الحضريين . ان نفسه لدى مناظر الليل البهية ثارت على غير علم منها واندفعت تترجم بالغناء والنشيد عما كان يختلج فيها حينئذ من عاطفة الجمال بسبب تلك المناظر . واما نفسا رفيقيه الحضريين فقد كانتا مشغولتين بالتثاؤب والنعاس عن الجمال الذي كان يحيط بهما . فلا ريب ان ذلك كان من افضل الادلة على ان النفس الاولى ربيت في احضان الطبيعة قليلة الحاجات قوية على كل متاعب الحياة . والنفسان الاخريان ربيتا ضعيفتين بين جدران المدن لا تستطيعان مقاومة سلطان ضعيف كسلطان النعاس الذي هو — لمن نام ساعتين او ثلاثاً — اخف الحاجات الطبيعية

ولما اخذ جرجس في الانشاد اصغى اليه كليم وسليم . وقال كليم اسمع اغاني الجبل . وكان جرجس ينشد

حنيّانا يا حنيانا يا حنيانا   يا قمر سلّم على غيابنا

فضحك كليم وقال „ من سوء الحظ ان القمر غائب ايضاً „ فضحك سليم لهذه الحاشية . اما جرجس فانه كان مستمرًا في الانشاد

ياظريف الطول وقّف نقولك   رايح عالغربه وبلادك احسن لك
خايف يامحبوب تروح وتتملّك   بتعاشر الغير وتنساني انا

فهنا التفت سليم الى جرجس وصاح به : ما هذا ما هذا الغناء اعده . فاعاده جرجس فتنهد سليم وقال لله درّ قائل هذين البيتين فكأنه خرق بنظره حجاب الغيب وتنبأ عمّا يكون من المهاجرة الى اميركا — « خايف يا محبوب تروح وتتملك » نعم قد راح المحبوبون

وتملكوا هناك « بتعاشر الغير وتنساني انا » نعم قد عاشروا الاميركيين وامتزجوا بهم وكثيرون منهم نسوا بلادهم وتجنسوا بغير جنسيتهم · فيا ايها الشاعر العامي الذي كُشف له الغطاء عن المستقبل قبل وقوعه انك شاعر عظيم وان كنت لا تعرف القراءة والكتابة

وفي خلال تبادل هذه الافكار بين سليم وكليم كان جرجس يجدُ في الانشاد في هدوء ذلك الليل فيدوي صوته دويًا

يا ظريف الطول يا سنّ الضحوك   يا مربى الدلال بحضن امك وابوك
جاني خبر يا حبيبي خطبوك   تخطب يا عيني وتتزوج بالهنا

ميجانا عليجانا عليجانا   يا حبائب لا تغيبوا جيت انا

واقفة بالباب والباب صغيّار   تنظرلي بعينها وصرت انا محيّار
ويا اللي مفارق حبيبو كيف حالو صار   ما حد فارق حبيبو غيري انا

وكأنَّ جرجس سئم هذا القدّ بعد دورين فدخل باعلى صوته في القدّ الآتي الذي يحلو لحنه على الخصوص في هدوء الليل

هلولولو ليا هلولولو ليا عيني يامو ليّا   يا نائمين انهضوا جتكم حراميّا

وتقولي صابوني وتقولي صابوبي   مروا عليّ العدى وبالعين صابوني
ولو قطعوني شقف كالواح صابوني   ما بحيد عن عشرتك يا نور عينيّ

هلولوليا هلولوليا عيني يا لابنيّة   يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيّا

ومن هون لارض الدير ومن هون لارض الدير   السرّ اللي بيننا ايش وصّلو للغير
وان كان ما فيه ورق لاكتب على جناح الطير   وان كان ما فيه حبر بدموع عينيّ

وتحوشي بالكمره وتحوشي بالكمره   يا خدود بنت لكم يا زهرة الحمرا
وان عيروني وقالوا محبوبتك سمرا   سمره تشيل الحمل قنطار وشوّيا

هلولوليا هلولوليا عيني يا لابنية   يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيا

والبنت تقول لامها يا امي ظلمتيني   اول عريس طلب ليش ما عطيتيني
وثاني عريس اللي طلب دينو على ديني   وثالث عريس اللي اجا يا نور عينيّ

ثم انتقل الى القدّ الآتي

يــا دوم عيني يا دوم　　تعذبني وتقول اليوم

يا طير ياللي طاير　　يا للي اسمك عبد الله
بوسه مايحصل منك(١)　　ياللي ما تخاف من الله

يا طير فاينك طاير　　قاعد براس الزعروره
جيب من حبي علامه　　الله يخلي هــا الصورة

ولما سئم الفارسان صوت مكاريهما أخذا في الحديث . فقال كليم انني اشعر بانّ جوادي صار بعد الغناء انشط مما كان قبله فهل تظن ذلك لانه طرب لصوت صاحبه . فقال سليم دع المزاح جانباً فانني انا نفسي صرت اشعر بشيء من النشاط وذهب عني النعاس تقريباً بعد سماعي هذا الغناء . ولا شك ان ذلك من تأثير الشعر عليّ فقال كليم وهل اعجبك هذا الغناء . فقال سليم ان الأمر الذي ادهشني في هذا الغناء رقته وتجرّده من الاقوال الباردة التي تخدش الأدب . وظاهرٌ ان هذا الغناء غناء عامي وهو من ملاهي الطبقات الضعيفة . فاقتصاره على وصف العواطف الحبية بكلام رقيق ادبي خالٍ من الالفاظ القبيحة والتلميحات الفظيعــة دليل مدهش على ارتقاء الاداب هنا بين العامة وصلاح نفوسها . لانك تعلم ان الاناشيد العامية قد تكون افضل دليل على اخلاق الامم . وحقاً ان من يسيح في اقطار العالم و يشاهد قبائح بعض طبقات العامة فيه ثم يعود الى بلاد كهذه البلاد و يسمع اناشيد كهذه الاناشيد يفضّل آداب هؤلاء السذج على آداب كثير من عامة الغربيين المتمدنين

وكان الجوادان قد قطعا عند هذا الكلام قرية فيع وانحدرا في سهل بطرام . فالتفت كليم الى المكاري وصاح : يا جرجس لم تطلع نجمة الصبح بعد . فاجاب جرجس وهو يحك رأسه باظافره : ستطلع قريباً يا معلّمي . ثم لطم كفل الجواد بيده صارخاً ديه . ديه . فقال سليم ان سوقك الجواد يركضه هو اما نجمة الصبح فتبقى في مكانها دون ان تركض فركّضها هي اذا قدرت . فتنهد جرجس هذه المرة . ولا شك انه قال حينئذ في نفسه شيئاً لا يحلو للرفيقين .

و بعد سكوت خمس دقائق التفت كليم الى سليم وسأله على اي شيء عزمنا الآن في سفرنا هذا . هل نذهب الى اهدن لمشاهدة اصحابنا فيها ام لا . فقال سليم الأمر اليك

(١) هذا على ما نظن اقصى حد في الخلاعة يصل اليه هذا الغناء العامي هناك

فقال كليم بما اننا ذاهبون الآن الى الارز عن طريق الحدث وهي الطريق الغربية فاننا نعود منه عن الطريق الشرقية طريق اهدن . فسأل سليم اذاً لا نعود الى الحدث بعد مبارحتها ? فقال كليم كلا فان طريق اهدن مقابلة لطريق الحدث . فقال سليم اذاً يجب ان نقيم عشرة ايام في الحدث بدل الخمسة التي اتفقنا عليها وذلك اكراماً لصاحبنا فيها . فقال كليم سنرى ذلك بعد وصولنا . فقال سليم وكم يوماً عزمنا على الاقامة في الارز . فاجاب كليم بقدر ما تطيب لنا الاقامة . فقال سليم هل وزنت نفسك قبل السفر من طرابلس . فقال كليم نعم فكانت زنتي ٦١ اقه . وانت . فقال سليم انا وزنتُ نفسي قبل سفري من بيروت فكانت زنتي ٥٩ اقه : فقال كليم هازاً رأسه . كانما وزننا وزن طيور لرقة اجسامنا . فقال سليم ضاحكاً لا تعبِ الرقيق ولا تستضعفه فالرعود والصواعق لا تنشاء الا عن رقيق السحاب . فقال كليم لا ريب عندي انك بعد نزولك من الارز تتغير رأيك فتمدح السمان لا الرقاق لان كل واحد منا سيزيد على الاقل ٥ اقات .

وبعد نصف ساعة انقضى في سكوت تام لان كل واحد من الرفقاء الثلاثة كان يناجي نفسه واذا بجرجس يصيح ملء صوته : الحمد لله . فقال كليم ماذا فقال جرجس طلعت النجمة فالتفت كليم وسليم الى جهة الشرق وكانت امامها فابصرا « الزهرة » في طرف المشرق من وراء الجبال تتهادى بجمالها الفتان ونورها الباهر تتيه به على جميع النجوم الزواهر التي كانت تزين حينئذ قبة الفلك الدائر . فصاح كليم وسليم لدى هذا المنظر الفخيم : تبارك الخالق . تبارك الخالق . اما جرجس فانه رفع يديه نحو رفيقته في اسفاره وقال « هلاّك ومستهلاّك جعلك علينا يوماً مبارك » فنسي لفرحه ان هذا الكلام يُقال للهلال حين ظهوره في اول الشهر لا لنجم الصباح . ولكن ما الذي يمنع جرجس ان يقول لرفيقته المحبوبة ما يُقال للهلال عادة . هل هو افضل منها . كلا . لانها تهدي في آخر الليل كما يهدي الهلال في أوّله . واذا كان لاحدهما مزية على الآخر فالمزية (للنجمة) الجميلة . ذلك لان صحبة الهلال تنتهي بالاستياء منه لافوله ويبقى المسافر حزيناً بعده لما يجده من الوحشة اما صحبة (الزهرة) فتنتهي بالسرور لانها رسول الصباح ومقدمة النور . وكل الذين عانوا مشاق السفر في الظلام في ليالي البرد والمطر والريح واخطار الطريق يعرفون قدر (الزهرة) متى طلعت تبشر بدنو الشمس التي تنعش وتدفىء والنهار الذي يبعد الاخطار . فهي عندهم رسول الامل وابتسامة الطمأنينة وعهد من الخالق على نفسه ان لا يجعل ظلام الليل ظلاماً ابدياً . فهي اذاً عندهم حاجة وضرورة لا مسرّة يُلهى بها وتُفرّج النفس بمشاهدتها . ولذلك كانت حياتهم

ومعيشتهم مرتبطة بحياتها . وهذا هو السبب في انه بينما كان سليم وكليم يخاطبانها بقولهم (يا الاهة الجمال التي عبدها الاقدمون . يا عروس كواكب السماء . يامضيّعة ابن رشد(١) ـ كان المكاري جرجس ينظر الى دليلته السماوية نظر المرؤوس الى رئيس له تربطه به مصالح ومنافع متبادلة لا لمجرد الاستحسان فقط . ولو مُثلت الزهرة حينئذ فتاة كما كان يمثلها المتقدمون لشوهدت تبتسم للمكاري جرجس وتهتم به اشد من اهتمامها برفيقيه الحضريين الظريفين

الفصل الثاني

﴿ كلام عن الدير امام دير ﴾

عند كسبا . مدخل الجبل الحقيقي . صورتان للدير واحدة عليه وواحدة معه . النذور الثلاثة التي من اجلها اضطهد الفرنسويون رهبانيّاتهم . تغيير وظيفة الدير بعض الشيء تبعاً للعصر الجديد وجعلها التعمير والتمدين

وبعد برهة اخذت ذرات الفجر تنتشر في الفضاء وصارت نجوم السماء تبهت خجلاً من سلطانة النهار القادمة على هودجها الناري ببهائها العادي . وقد طلعت الشمس لاصحابنا الثلاثة عند قرية كسبا حين دخولهم بين الجبلين في الطريق المؤدية الى اعالي لبنان (١) وان من لم تطلع عليه الشمس في ذلك المكان بعد السير اربع ساعات في ظلمة الليل لا يُدرك اللذة التي شعر بها سليم وكليم حين استقبالهما تلك الطريق الصاعدة . فقد كان عن يمينهما جبل عال يمران بجانبه وعن يسارهما جبل آخر عال بعيد عنهما . وعلى قمة هذا الجبل الشمالي بناء حوله اشجار باسقة ولكنها تظهر صغيرة لبعد المسافة والبناء بينها كانه عشّ طائر بني هناك في مأمن من الزوابع والعواصف . وفي الحقيقة انه كان عشاً بُني للامن من العواصف ولكنه عش انساني بناه البشر الذين يحبون الانفراد عن معارك الاجتماع وعواصفه وهو الدير

---

(١) وجدوا في تلاخيص الفيلسوف ابن رشد في حياته هذه العبارة « ظهر ان الزهرة احد الالهة » فكان هذا القول من جملة الاسباب التي اتخذها حساده لنفيه والنقمة عليه . راجع ابن رشد وفلسفته الصفحة ١٧

* ١ * صارت المركبات اليوم تسير على طريق اهدن حتى بشري ولذلك انصرف اليها المسافرون عن هذه

المعروف بدير «حنطوره» — وعلى موازاة الطريق الى اليسار تحت الدير يسمع الراكب هديرًا شديدًا ناشئًا عن مرور نهر ابي علي في واديه المقدَّس منحدرًا الى طرابلس . وكلما صعد الراكب بين ذينك الجبلين على الحان النهر بين نسمات الصباح التي تداعب وجهه باردةً اكثر من هواء السهل يشعر ان جبل لبنان الحقيقي انما يبتدئ من ههنا . وحينئذ يخطر في باله ان سكان هذا القسم من الجبل كانوا في كل الازمنة والعصور قذى في عيون الفاتحين . فان جبالهم كانت تحميهم اكثر من كل الحصون والمدافع . ولذلك كانت تلك الارض عبارة عن حَرَم الحرية المقدس . نعم ان هذا الحَرَم قد فُتح مرارًا وُلطّخ مرارًا ولكن الغلبة كانت دائمًا للمدافعين عنه . ذلك ان الطبيعة نفسها كانت تحارب معهم بين صفوفهم . وربَّ مائة رجل من اهله فقط لقوا بين تلك الآكام والوهاد عشرة آلاف جندي بمدافعهم دون ان يتركوا لهم سبيلاً اليهم — فثارت عواطف سليم وكليم وتصوراتهما لدى هذه الافكار وهذه المناظر الجميلة فاحسا انهما صاعدان الى عالم آخر غير هذا العالم . ويظهر ان نفسهما قد خفّت حينئذ ونشطت عما كانت فيه اوّلاً فنزلا عن جواديهما ليتلذذا بالسير على اقدامهما فوق تلك الارض الجديدة . وكان سرورهما بالمشي في تلك الساعة على تلك الارض المؤدية الى الاماكن التي تنطح السحاب ويعممها الضباب دائمًا يعادل سرور الاولاد حين انصرافهم من المدرسة الى نزهة خصوصيه

وبعد ربع ساعة كثرت العقبات في الطريق فعاد كليم وسليم الى جواديهما فنبههما جرجس ان ينحرفا على ظهر الجواد قليلاً الى امام في عقبة الصعود وينحرفا قليلاً الى وراء في عقبة النزول — فضحك سليم وقال هذا درس في « طريقة الركوب في العقبات » ثم اخذ الرفيقان يتحادثان لقطع الوقت بعد ان وجدا في المشي شيئًا من الراحة . ولا عجب فكما ان السكوت بعد الحركة فيه راحة كذلك الحركة بعد السكون .

فقال سليم : ما رأْيك ايها الصديق في الاقامة طول العمر في هذا الدير الجميل الذي شاهدناه . هل تعرف مكانًا اجمل من هذا المكان للراحة والسعادة

فقال كليم سؤَالك هذا يذكرني سؤَالاً آخر . يقول كتاب العرب ان الحوار يين « الرسل » سأَلوا المسيح « من افضل منا . اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا » فاجاب « افضل منكم من يأْكل من كسب يده » فالافضل والاجمل من الاقامة في هذا الدير الدخول في العالم والاكل من كسب اليد لان خبز الاحسان خبز دنيء كما قال روسو

فثار هنا جرجس وقال : ارجوك يا معلمي ان لاتجدف على الدير والرهبان . فاننا في

طريق . واخاف على افراسي لا على نفسي . وبالامس كان جارنا ابو يعقوب سائراً قرب البلمند قادماً من المدينة (يعني طرابلس) وكان الراكب على حمارته واحداً من (السوقه) لا يحب الرهبان وكان يتهكم عليهم . فبركت الحمارة في الارض قرب الدير ولم تنهض حتى نذر ابو يعقوب للدير نصف الاجرة التي ياخذها من الراكب

فصاح كليم بصاحبه اسمعت قول الرجل ؟ هذه هي المبادىء التي يعلمها للشعب الرهبان الذين نسلمهم ارزاقنا وننفق على تسمينهم كالعجول

فقال سليم : هذه مسالة اخرى غير تلك فاننا لا نبحث الآن في هل هم قائمون بوظيفتهم التي وُجدوا لها ولكني اسألك هل تحبُّ المعيشة في الدير اذا كان الدير قائماً بحسب النظام الذي وُضع له للغرض الحقيقي الذي يجب ان يوضع له . فاجبتني انك تفضل على هذه المعيشة معيشة الانسان الذي يأكل من كسب يده

فقال كليم نعم هذا هو رأيي . لاني اكره الكسل والبطالة ولا استطيع اتصوّر اناساً كالبعوض والبق والعلق والبراغيث يعلقون على جسم الهيئة ليمتصوا دماءها وهم قاعدون بلا عمل بحجة انهم يخلصون انفسهم ويصلون لغيرهم

فسكت سليم برهة يفتكر . ثم قال : كل من يسمع هذا الكلام يوافقك عليه لاول وهلة . ولكن لدى التأمل يظهر انك ظلمت المعيشة الديرية بهذا الوصف الذي لا ينطبق عليها الا اذا كانت بلا عمل ارضي ينفع كما قلتَ . قلتُ « ارضي » لانَّ « السماوي » ليس من بحثنا الآن . وعندي ان معيشة الدير لها صورتان كل واحدة منها جميلة بحد ذاتها . ويطيب لي الآن في هذه الارض ارض الاديرة والرهبان ان ارسم معك هاتين الصورتين . واذا كان في الهواء الذي يحيط بنا اذان خفية تسمع ورامت ايقاف صوتنا فنحن باسم اله الحرية الساكن في هذه الجبال نقوى عليها . ذلك لانها لا تستطيع انكار اله الحرية اذ طالما استنجدت به في هذه الجبال . وبما ان الحرية واحدة لا تتجزاء ولا تنقسم ـ سواء كانت في الفعل او في القول ـ فمن الحق والعدل ان نخضع لهذا الاله بعد ان اخضعت له غيرها

« فالصورة الاولى للمعيشة الديرية هي ما ذكرتَ . بشرٌ ضعفاء من طبقات لا تقدر على كسب رزقها ينسدُّ في وجهها باب الرزق في العالم وترهب معارك الحياة وتنازع البقاء فتطلب مكاناً تلتجىء اليه وتعيش فيه بامان . وهي للحصول على هذه المعيشة تتنازل عن اشرف واثمن ما لدى الانسان اريد حريته الشخصية . فتصبح آلة في يد الرئيس لا ارادة لها ولا قوة . ذلك انها تنذر اول كل شيء الطاعة العمياء . ثم الفقر . ثم ترك الزواج .

وبهذه النذور الثلاثة المشهورة تحرم الهيئة الاجتماعية قوات ضرورية . فبنذر الطاعة تضع ضميرها بين يدي الرئيس وما ادراك ما هو التنازل عن الضمير . فان ذلك يفني شخصية الانسان ويحقّر الانسانية فيه ويجعل تحت سلطة ذلك الرئيس جيشاً كثيفاً مطيعاً يؤثر اشد تاثير علي الهيئة المدنية لفائدة الهيئة الدينية . وبنذر الفقر يحرم الانسان نفسه وغيره ثمار تعبه من خيرات الارض التي حُلل له التمتع بها . فيعيش ذليلاً وضعيفاً . وبنذر العفاف يجني على امته لان الامم يهمها تكثير النسل وهي لا تألو جهداً في الحث عليه بالطرق المحللة . — فالنذور الثلاثة اذاً تعارض المدنية الحاضرة وتعاكسها . لا سيما وان هذه المدنية جلبت معها مبادىء جديدة مناقضة لمبادىء الهيئة الدينية كل المناقضة في كثير من شؤونها الاساسية

« والصورة الثانية للمعيشة الديرية ان ينقطع بعض البشر عن البشر لنفع روحي ومادي . اما النفع الروحي فلا يدركه حق الادراك الا كل من رمته عواصف الدهر بين معارك الحياة اليومية وراى مافي هذه المعارك من الهمجية والخشونة والفظاعة . فهناك واسفاه يكون البشر حيوانات وحشية لا بشراً . هناك الظفر والغلبة لا يكون بالاستقامة والفضل وشرف المبادىء والاخلاق . فان هذه الفضائل التي هي جميلة في المجتمعات الرسمية والنوادي الادبية تكون سبباً لضعف صاحبها في وسط تلك المعارك لا لقوته . وانما يكون الظفر والغلبة للاكثر وقاحة والاكثر ظلماً والاكثر اعتداء والاكثر خداعاً . ولذلك قال رنان : ان الانسان لا يكون دائماً قوياً في الحياة الا متى كان يُظهر دائماً انه كان مغشوشاً في ما صنعه من الخطاء مع انه كان غاشاً . فماذا تصنع النفوس الحساسة اللطيفة التي جبلها الله لا تحب الغش والظلم والاعتداء حين وجودها في هذا الوسط الهائل . هل تسلّم سلاحها خافضة جنح الفضيلة امام وقاحة الرذيلة وتقع في ميدان العراك في جملة الاسرى او القتلى ؟ ام تخلع عنها ثوب الفضائل السماوي الذي البستها اياه اليد الجميلة الابدية لترتدي بدله بثوب الظلم والاعتداء والغش والنهب والسلب وتصنع ما يصنعه غيرها ؟ وهل يجوز ان تبخل عليها الارض والسماء حينئذ بزاوية صغيرة في احدى زوايا الارض لتعيش فيها بامن وسلام دون ان تُضطر الى ذلك الانتحار وهذه الجناية

« ان هذه الزاوية هي الدير . فالدير وُجد لسد فراغ في نفوس فريق من البشر في الارض . وهو موجود قبل الديانة المسيحية بقرون عديدة لان انفراد بوذه وانصاره في جبال الهند نوع من المعيشة الديرية . وستبقى هذه الحاجة لازمة في الامم ما دام فيها نفوس

لنا ألم وجهاد في تحصيل الرزق والطمع يحكي جهاد الفاتحين . وقد احترم صاحب الشريعة الاسلامية هذه الحاجة لانه اوصى بالصوامع والرهبان خيرًا . وكذلك الخلفاء الراشدون . فضلاً عن ان التكايا التي انشأت بعد ذلك في انحاء العالم الاسلامي انما هي نوع من المعيشة الديرية ايضاً . وهذا يدل على ان هذه المعيشة الاشتراكية للزهد والانقطاع الى الله كانت حاجة من حاجات النفوس في كل الازمان

«اما النفع المادي فهو اعتبار الدير عبارة عن قوة ممدنة تستعمر الجهات التي يكون الدير قائماً فيها . والدبور انما تقام عادةً في القفار والجبال والقرى البعيدة . اي في الاماكن المحتاجة اشد احتياج الى تعمير واحياء . فتامل مقدار الخير الذي يستطيع ذلك الدير صنعه في تلك الجهات اذا جعل نفسه عبارة عن شركة عظيمة يجتمع حولها اهل القرى ليتلقوا منها طريقة زراعة الارض و يتعلموا صناعات جديدة و يعتمدوا عليها في جميع شؤونهم العملية اعتمادًا متبادل النفع بين الفريقين . فان الدير يصير في هذه الحالة عبارة عن مركز اعمال القرويين ومستشارهم في جميع اشغالهم . وكيف لا يحلو للمتامل ان ينظر ذلك الراهب الذي كان يصلي الى الله منذ مدة يأخذ معوله وفاسه و يقصد حقول القرية حيث يقابله اهلها كرسول العلم والثروة والمدنية بينهم و يسترشدون بارشاداته التي اكتسبها بالدرس والمطالعة والتي لا تصل الى هؤلاء القرويين بدونه . لا ريب ان هذا الأمر يساوي عندي على الاقل خروجه من الدير و بيده الانجيل لعيادة مريض في القرية او تسلية حزين . واست اعرف شيئاً في العالم يعادل نفعه نفع هذه الدبور في التمدين والتعمير اذا سلكت باخلاص ونزاهة هذا السبيل

«هذا فيما يختص بالاشتراك الخارجي بين اهل الدير واهل القرى في تعمير الاراضي ونشر الخير والثروة حولهم . بقي هناك اشتراك آخر داخلي . وهو تعاون الافراد المجتمعين في ذلك الدير على جعل معيشتهم فيه عبارة عن مثال لارقى حكومة في الارض . فان اهل الدير قد ارتفع عنهم عند دخولهم اليه همّ تحصيل الرزق والطمع والجهاد في سبيله . وذلك مما يسكن النفس و ينقي قواها . ثم اضف الى ذلك الانفراد عن معارك الحياة تجد ان النفس تصفو في ذلك الانفراد عن كدوراتها اليومية وتتملص من كل اهوائها الفاسدة التي كانت تضغط عليها وتعذبها في حالة الاجتماع . وهكذا يصبح اهل الدير عبارة عن بشر فوق البشر لانهم خرجوا عن دائرة البشر . و يصير البشر في الاجتماع ينظرون اليهم نظرهم الى معلمين مرشدين موضوعين فوقهم . فكأنّ الانسانية في هؤلاء المنفردين قد تكررت وتصفّت وصارت انسانية جديدة

لاهمَّ لها في الارض غير صنع الخير ومساعدة الضعفاء . وهذه الحالة تسوقهم بالطبع الى الاشتغال بالعلم والأدب وهنا مسألة المسائل الجديرة بكل اهتمام . هنا مفتاح ترقية العلوم والفنون والصناعات المختلفة . اذ ماذا يصنع الرهبان في كل اوقاتهم الطويلة . وباي شيء يقطعونها . هل من شيء يُقطع به الوقت (ما عدا صنع الخير) انفس من الاشتغال بالعلم والادب . وبذلك يكمّل الرهبان المنفردون في اديرتهم الجميلة نقصاً ظاهراً اليوم في هيئتنا الاجتماعية . انظر الى الحركة العلمية والادبية عندنا تجد انها مطلوبة للمال لا لذاتها . وبما ان طالبي العلم والأدب يهتمون بالمال اكثر من اهتمامهم بالعلم فالعلم يبقى بيننا قاصراً . ذلك لان العلم لا يتقدم ولا يترقّى الا اذا امكن للمشتغلين به الانقطاع اليه انقطاعاً لا دخل لشهوة المال فيه . وهذا امر بعيد الحصول عندنا ما دام اصحاب الثروة لا يشتغلون بالعلم . فالرهبان اذاً عليهم سدّ هذا الفراغ لانهم قادرون على الانقطاع اليه اتم الانقطاع اذ كل حاجاتهم مضمونة عندهم . وفي وسع كل واحد منهم ان ينقطع الى علم او فن في عشرين سنة او اربعين فيرقيه اتم ترقية عندنا دون ان يحتاج شيئاً . وحينئذ تصبح الديور مصدراً لنهضة علمية جليلة ويصير كل واحد منها عبارة عن اكاذيمية كبيرة كل عضو من اعضائها عالم في فن وفي علم . ومجموع الاعضاء يتألف منه مجموع المعارف البشرية . والاختراعات والاكتشافات تتتابع من هذه الاكاذيميات الجديدة لنشر الخيرات في الامة وتحسين شؤونها . فتكون هذه الديور مثالاً « للعلم » كما كانت مثالاً (للصلاح) في ما تقدم . وهي ما عدا ذلك تكون ايضاً مثالاً (للنظام) المطلق . فان معيشتها اشتراكية محضة . الكل اخوة متساوون قولاً وفعلاً . وليس احد فيهم يقول هذا لي لان كل شيء يكون بينهم مشتركاً . ولكنهم مع تساويهم هذا خاضعون لسلطة عليا خضوعاً تاماً بلا مراجعة ولا تردد لعلمهم انها لا تأمرهم الا بالخير وما فيه خير . ولذلك ترى اكبرهم واصغرهم يعفران رأسيهما بابتهاج وسرور تحت قدمي هذا النظام الذي انقذهما واعطاهما هذا الوسط الهادئ النقي — وهكذا بينما تكون الدنيا قائمة قاعدة بالاضطرابات والفتن والثورات بين كل الطبقات . بينما ترى روح الاستفراد العصري الذي ضرب به رنان بسوطه ضربات شديدة (١) يبذر بذور الشقاق في العالم حتى بين الأب وابنه والمرأة وزوجها لرغبة كل انسان في ان يعيش حراً على هواه — ترى الهدوء والنظام والخير عامة شاملة في الدير وما حوله من القرى . كانه صار قطعة من الجنان »

وهنا سكت سليم واخذ يمسح العرق عن جبينه لانه قد تحمس في اثناء وصفه . فصاح

«١» الجامعة السنة ٤ الجزء ٣ الصفحة ٨٧ السطر ٣

جرجس مسروراً : عافاك عافاك يا معلمي هكذا يجب الكلام عن آبائنا الرهبان . اما كليم فانه قهقه شديداً وقال لرفيقه : كفى تحلم كفى تحلم . فهم في واد وانت في واد . ومن كلامك يظهر انك لا تعرف ما هو الغرض من الدير فمسكين انت ايها الجاهل . معنى الدير عندهم اليوم ان يقيم فيه الرهبان يكررون صلوات مألوفة ويجمعون من الناس بحجة هذه الصلوات ما امكنهم جمعه من المال سواء كان نقوداً او اوقافاً ذات دخل عظيم . والسذج يبذلون بسخاء في هذا السبيل ابتغاء للثواب على ما يقولون . وهكذا بدل ان تكون هذه الديور ناشرة للثروة والخير في ما حولها من القرى صارت ممصاً للثروة لنفسها . وقد قلت ان اهل العلم عندنا مضطرون الى الافتكار بالمال قبل العلم والا تعذر عليهم الاشتغال به . فانا اخبرك ان اهل الدين — الذين وظيفتهم نذر الفقر كما ذكرت — صاروا ايضاً يفتكرون بالمال قبل الدين

فقال سليم : لا لست احلم بل انا انظر الى الدير كما يجب ان يكون وانت تنظر اليه كما جعلوه اليوم . وهذا اوضح دليل على ان كل شيء انما يصلح ويفسد تبعاً للطرق التي يُستعمل بها والاشخاص الذين يتولون استعمالها . وهذه مسألة المسائل في كل الشؤون حتى سياسة الامم . واست اظنك تزعم ان الديور كانت في القديم (واعني القرون الاولى لا القرون المتوسطة) على حالتها الحاضرة اليوم . فانها لو كانت كذلك لما قام لديانتها قائمة . وانما كانت الديور يومئذ عبارة عن انقطاع حقيقي الى الله للخلاص من حياة الاجتماع التي تجر الانسان احياناً الى ما لا يهواه . ولا عتب في ذلك على اولئك المتقدمين لانهم كانوا يومئذ في الطور الذي يُسمى « طور الايمان الحار » ولذلك يجب ان لا نلومهم لانقطاعهم عن الناس بقولنا انهم فعلوا ذلك مدفوعين بعامل الاثرة وحب الذات فان الرغبة في معيشة الانفراد الاشتراكية كائنة في طبيعة البشر خصوصاً الضعفاء منهم . ولكننا اذا كنا لا نلومهم اليوم فاننا لانحث الديور في هذا الزمن على ان تنسج على منوالهم بل نطلب ادخال تغيير على حالة الاديرة طبقاً للوصف الذي ذكرته آنفاً . فان الهيئة الاجتماعية قد تغيرت . والنفوس الدينية صارت كما يظهر من قولك لا تكتفي (بالايمان الحار) . فبناء عليه بطلت وظيفة الدير الاولى التي هي البعد عن البشر والانقطاع الى الله انقطاعاً حقيقياً وصار من الواجب ان يحل محل هذه الوظيفة وظيفة مساعدة الناس مادياً وادبياً كما وصفت ذلك آنفاً . والا فلا معنى لوجود الدير في هذا العصر . وانا على يقين ان هذا التغيير أمر سهل وكثيرون من رجال الدين يرضون به لانه يحيي البلاد والعباد بثروات الاديرة والاوقاف الدينية . انما يشترط فيه وجود

رؤساء كرام يفهمونه وينبذون الاطماع جانباً . فلماذا لا يقوم اكابر الطوائف وافاضلها لمراقبة اوقاف الاديرة والاملاك الدينية مراقبة شديدة بواسطة مجالس دائمة خصوصية تُنشأ لهذا الغرض لانفاق دخلها الطائل في وجوه نافعة لجموع الامة؟

الفصل الثالث

عين السنديانة

مجنون ليلى

وبقي سليم وكليم يتحادثان في هذا الموضوع حتى وصلا الى عين السنديانه وهي محطة يستريح فيها المسافرون في طريقهم الى اعالي الجبل . والمكان مؤلف من منزل اتخذه مستأجره حانوتاً يبيع فيه مواد الغذاء للمسافرين . وامامه دكة عالية قليلاً يجلس المسافرون عليها وبجانبها عين ينبع منها ماء بارد يشربه المسافرون بظماء ولذة بعد تعب الطريق وحرها

فنزل كليم وسليم للراحة وتناول الطعام . وبعد حين طلبا بيضاً مقلواً وجبناً وعنباً وجلسا يأكلان . واذا برجل قد دنا من احد الفرسين ومدّ يده الى الخرج الذي كان عليه واخرج منه جريدة انكليزية . فقال كليم لرفيقه . ما شاء الله ان صاحبنا يفعل بخرجنا ما يشاء « بدون تكليف » ثم نهض ودنا من الرجل وسأله . ماذا تريد . فعبس الرجل وقال . لا اريد شيئاً ولكنني احب ان اقراء

ثم انه ادار ظهره لكليم وجلس على طرف الدكة ونشر الجريدة الانكليزية وصار يقرأ فيها .

فاستغرب كليم وسليم أمر هذا الرجل . وكانت هيئته وثيابه مما يزيد الاستغراب . فانه كان في نحو الاربعين من عمره بلحية كثة وخطها الشيب وشعر وافر في رأسه يتدلى من تحت طربوشه القذر . وكان طويل القامة عريض العضل يلبس ثياباً قديمة قذرة ويمشي بحذاء ممزق . الا ان سحنته كانت تدلُّ على الهدوء واللطف والسكينة

وبعد ان قرأ هذا الرجل بضعة اسطر في الجريدة رفع رأسه وضحك ضحكاً شديداً ثم قال: كلهن سواءٌ . ثم التفت الى كليم وقال . اليس حقيقياً ما اقول . فقال كليم عن اي شيءٍ تتكلم . فضحك الرجل ضحكاً اشد من ضحكته الاولى وقال وهو يهزّ رأسه طرباً

جئنا بليلى وهي جنّت بغيرنا   واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم وقع على الارض واغمي عليه .

فذعر حينئذ كليم وسليم . اما صاحب المحل فانه ركض مسرعاً وهو يضحك فنضح وجه ذلك الرجل المسكين وصدره بالماء . ثم التفت الى سليم وكليم وقال : لا تخافا فان هذا الرجل مجنون . بل هو نصف مجنون . وهو يصاب بهذه النوبة مرة كل يوم او كل يومين . فاشتد حزن سليم وكليم على حالة الرجل حينئذ وبادرا اليه يسعفانه بالمعالجة . وبينما كانا يفركان يديه بايديهما سألا صاحب المحل وما قصته واين بلاده فانه غريب عن لبنان على ما يظهر . فاجاب صاحب المحل . الذي سمعته انه غريب عن لبنان و يقال ان سبب جنونه حبه فتاة رام الاقتران بها فرفضت وهجرته . وهو من ذلك الحين يطوف البلاد على قدميه يأكل اذا وجد طعاماً ويصوم اذا لم يجد . واحياناً ينام تحت سقف منزل واحياناً تحت قبة السماء فهو شبيه برجل تائه على وجهه في البلاد . وكل الاهالي يعرفونه

فلما سمع سليم وكليم هذه القصة تأثرا تأثراً شديداً . ومما زاد تأثرهما امتزاج تعاسة الرجل بشيء غزَلي جميل لانه جُنَّ بسبب الحب كما سمعا . فقال سليم لرفيقه : حقاً انني لما كنت أسمع كلام صاحب المحل خيل لي وانا افرك يد هذا المريض ان يدي تمس الآن يد مجنون ليلي او غيره من عشاق العرب المشهورين . ومن العجب ان يبقى اليوم في الارض اناس رقاق الشعور شديدو الانجذاب النفسي حتى انهم يجنون بسبب الحب مع ما هو معروف في هذا العصر من اندفاع تيار الشهوات الحيوانية التي تقتل ذلك الشعور الدقيق

فسأل كليم صاحب المحل وما اسم هذا الرجل التعيس . فاجاب ان الناس يسمونه مخلوف وفي هذه البرهة اختلج مخلوف اختلاجاً شديداً وصار يصرخ صراخاً هائلاً ويخبط بيديه ورجليه . فامسكه بها الثلاثة الحاضرون لئلا يؤذي نفسه . وكان قد اجتمع عليهم بعض من الاولاد وهم يعجبون من دنو سليم وكليم منه لان اكثر العامة في اقطار الشام يخافون كثيراً ممن يغمى عليه ذلك الاغماء لاعتقادهم ان فيه شيطاناً يسبب ذلك الاضطراب . وهم يسمون المغمى عليه « واقع في الساعه »

و بعد حين ارتخت اعضاء مخلوف وتنهد تنهداً عميقاً ثم فتح عينيه وصار يضحك لمن حوله ضحكاً لطيفاً كضحك الاولاد . فقال له كليم كيف حالك الآن يا مسيو مخلوف . فاجاب مخلوف : حالي كما ترى . فقال سليم : هذا امر بسيط وكثيراً ما يقع فيه الناس اما بسبب الحر او ضيق الصدر او التعب . فجلس مخلوف حينئذ وقد ظهر الغضب في وجهه وصاح : لم

يؤثر فيَّ الحر ولا ضيق الصدر ولا التعب وانما هذه الجريدة الملعونة . فكيف تجيز لها السماء والارض ان تتركه وتذهب . هو يحبها كما يحب الهه . هو يطرح تحت قدميها اسمه وميراثه وشرفه لتتنازل وتاخذها وترضى فقط بالابتسامة له . ومع ذلك فانها تردّ هذه الهبات بقدمها وتفرُّ منه كالبرق وتختفي . فما هو جزاؤها ياترى ؟ ! أليس القتل . والخنق . والحرق . والشنق . والدوس بالاقدام . والتقطيع قطعة قطعة

وكان مخلوف قد بلغ به الغضب عند هذه الكلمات مبلغاً عظيماً . فجحظت عيناه وانتفخت اوداجه وصعد الدم الى رأسه فكاد يخنقه وبدا الزبد على فمه كالجمل الهائج . فهال منظره سليماً وكليماً وعلما حينئذ انه قرأ في الجريدة الانكليزية هذه الحادثة فاذكرته حادثته . فتلافى سليم الامر رغبةً في تسكينه وتعزيته وقال . لقد نطقتَ بالحق فان تلك الفتاة تستحق اكثر مما ذكرتَ . ولكن هل قرأتَ ثمة حادثة مس ,, لنهيم ،، التي تشير اليها . فاجاب مخلوف وهو يلهث تعباً من اثر الهياج : لا . فماذا جرى لهذه الخبيثة بعد تركها حبيبها . فقال سليم . لقد لقيتْ عقابها . ـــ فصاح مخلوف حينئذ وشرر الجنون واليأس تتطاير من عينيه « هل ماتت » فارتعدت فرائص سليم وكليم لذلك الصوت الذي حكى صوت وحش جُرح برصاصة . واجاب سليم . كلا كلا . فانه لا يموت احد الحبيبين اذا افترقا وخصوصاً اذا كان احدهما مظلوماً الا بعد اجتماعهما . فبهت مخلوف يتأمل قليلاً ثم قال : وكيف ذلك . فقال سليم روى فرفوريوس عن نيقوديموس عن افلاطون عن ارسطاطاليس ان كل نفس مظلومة لحبها نفساً اخرى لا تموت اذا ثبتت في حبها وصدقت قبل ان ترى النفس المحبوبة . ولذلك فكلُّ فتاة تهجر فتىً يحبها ويثبت الفتى على حبه لها تعود اليه ذليلة من تلقاء نفسها بعد ذلك وتستغفره عن ذنبها وتطلب اليه ان يشاركها في حياتها . وهكذا جرى لمس لنهيم التي قرأتَ في الجريدة حادثتها . فانها عادت بعد مدة ذليلة واستصفحت خطيبها

فهنا استوى مخلوف جاثياً على ركبتيه وابرقت عيناه برقاً غريباً وقال . واذا كان قد انقضى على غيبتها عدة سنوات

فادرك كليم في الحال ما قام في نفس ذلك المجنون التعيس فهمس في اذن رفيقه : انك تحاول نفعه بالامل ولكنك ستضرّه . فاجاب سليم وهل بعد الجنون من ضرر فانني الآن اجرب طريقة لاصلاح شأنه وتسكين جهازه العصبي الى حين

ولما سأله مخلوف السؤال الذي تقدم اجابه سليم بقوله : سواء كان الوقت قصيراً

او طويلاً فانها تعود رغماً عن انفها . ولكنني لم اذكر لك الطريقة التي استعاد بها المستر «ارثور» حبيبته المذكورة . فانه قبل كل شيء ثبت على حبها ثبات الابطال . فكان لا يذكرها بكلمة سوء ولا يحكي قصتها لاحد . ثم كان يتظاهر باللطف والبشاشة دائما ولا يضر احداً من الناس وينفعهم بقدر استطاعته . وكان على الخصوص يعتني بنفسه فيأْ كل من الغذاء ما يكفيه ولا يتعب كثيرًا بالطواف في البلاد ويداري صحته ما امكنه . وبهذه الطرق صار رجلاً جميل المنظر لطيفاً محبوباً من الناس . فما لبثت حبيبته ان عادت اليه تطلب منه الصفح عن هجرها اياه

وكان سليم يتكلم ومخلوف يفتكر . وقد اخذ العرق يقطر من جبينه فدلَّ ذلك على ان نفسه كانت حينئذ في صراع شديد مع نفسها . ولما أتى سليم على آخر كلامه انهملت دموع مخلوف على خديه . فوضع رأْسه بين يديه وصار يبكي بكاءً شديدًا فاغرورقت حينئذ بالدمع عينا سليم وكليم . وازدادت دهشتهما من ان يوجد اليوم في الارض اخلاص كاخلاص هذا العاشق المجنون التعيس .

ولما استغرق مخلوف في البكاء رام كليم تسليته من وجه آخر فقال له انت مصيبٌ في بكائك يا مسيو مخلوف . فبارك الله في عواطفك الرقيقة وقلبك الحساس . انك ولا شك تبكي على جميع الازواج التعساء في العالم . انك تبكي على الزوج المسكين الذي يتزوج ويُرزق اولاداً من زوجته ومع ذلك يرى عين امرأَته ناظرة الى سواه ـ الى شاب اغض منه شباباً فتجعل حياته جحيماً دائماً انك تبكي على الزوج الذي يتزوج اليوم ثم تموت زوجته الفتاة الرطبة الجميلة بعد سنتين تاركة على ذراعيه طفلين يصيحان دائماً « يا اماه » بينما قلبه يصيح معهما يا «حبيبتي» ـ انك تبكي الزوج الذي يموت بعد زواجه بسنتين تاركاً ارملة فتاة وصغيرين لا معين لهما غير الله . انك تبكي الزوج الذي يرى عائلته تكبر شيئاً فشيئاً ـ كل سنة ولد ـ ويرى باب رزقه ضيقاً : فهذه الاحوال الاجتماعية جديرة يا مسيو مخلوف بدموعك . واذا كنتَ لم تتزوج بعدُ فاشكر الله لانك لم تقع في احدها

ولكن يظهر ان المسكين مخلوف لم يفهم معنى هذا الكلام او كأَنه لم يسمعه لاشتغاله عنه بما كان يجول حينئذ في ضميره . فلما سكت كليم تحفز للنهوض فامسك به سليم وكليم ليشاركهما في الطعام فاعتذر ونهض . فحاولا اقناعه بالسفر معهما الى الحدث ومنها الى الارز . فلما سمع كلمة الارز قال لهما بهيئة جدية يضحك منها من يعرف جنونه انه مسافر بعد مدة للارز للسياحة هناك وانه سيقابلهما فيه . ثم تخلص منهما وودعهما باحناء راسه وسار في سبيله

كأنما هو في حلٍّ ومرتحلٍ موكلٌ بفضاء الله يذرعه

ولما غاب عن بصرهما في منعطف المكان التفت سليم الى رفيقه وقال حقاً ان حالته حالة مؤثرة . وبعد ان تناولا الطعام واستراحا قليلاً ركبا وسارا في طريقهما مع جرجس . وكان كل واحد منهما يفكر في مخلوف . وبعد برهة دار بينهما الحديث على الطريق لان الطريق خير محرّك للحديث . فقال سليم هذه اول مرة ارى فيها محباً جنَّ من حبه . فما احسن هذه الاخلاق الدمثة اللطيفة مع الجنون . فقال كليم اما انا فقد شاهدت مجانين عشاقاً قبل اليوم . وعندي قصة اشد تأثيراً من قصتنا هذه . فانني منذ سنتين زرتُ في طريقي مع بعض الاصحاب دير هزقل حيث يُعزل بعض المجانين . فلما اشرفنا على مكانهم وجدنا احدهم منفرداً عن الباقين وهو جالس حزيناً ملوي الراس فقلنا « ان كان فهذا . فوقفنا به فسلمنا عليه فردَّ السلام . فقلنا له ما تجد . فانشأ يقول

الله يعلم انني كمِدُ لا استطيع ابثُّ ما اجدُ
نفسان لي نفس تضمنها بلدٌ واخرى حازها بلدُ
وارى القيامة ليس ينفعها صبر وليس يفوقها جلدُ
واظن غائبتي كشاهدتي فكأنها تجد الذي اجدُ

فقلت له احسنت والله . فاوماء الى شيء ليرمينا به وقال : امثلي يُقال له احسنت . فولينا عنه هاربين . فقال اساءلكم بالله الا ما رجعتم حتى انشدكم . فان احسنت قلتم لي احسنت وان اساءت قلتم لي اساءت فرجعنا ووقفنا وقلنا له قل . فانشاء يقول

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهمُ ورحلوها وسارت بالدمى الابلُ
وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو اليَّ ودمع العين منهملُ
وودعت ببنان عقده عنم ناديت لا حملت رجلاك يا جملُ
ويلي من البين ما ذا حل بي وبها من نازل البين حلَّ البينُ وارتحلوا
يا راحل العيس عرّج كي اودعهم يا راحل العيس في ترحالك الاجلُ
اني على العهد لم انقض مودّتهم يا ليت شعري بطول العهد مافعلوا

فقلتُ له ماتوا . فصاح وقال . ماتوا ؟ وانا والله اموت . ثم تربّع وتمدّد فمات لساعته . فما برحنا حتى دفناه » (١)

☆ ١ ☆ ليست هذه الحادثة تصنيفاً من المؤلف فقد وردث في اخبار المجانين في العقد الفريد جزء ٣ صفحة ٢٤٥ نقلاً عن المبرد محمد بن يزيد النحوي وقد شهدها كما قال في خروجه من بغداد الى واسط في «دير هرقل» الذي كانت تحبس به المجانين . ولذلك وضعناها بين قوسين لانها منقولة حرفياً

فقال سليم يا للعجب وهل روحه في يده حتى يطلقها حين يريد . فقال كليم هذه قصة محزنة عن المجانين . وقد شهدتُ ايضاً حادثة اخرى ولكنها مضحكة . الا انها تدل ايضاً على ذكاء هذه الطبقة التي اذا طمس الجنون عقلها فانه يبقي على نباهتها وحدة ذهنها . وتفصيل الخبر انني كنت ذات يوم ماراً بقرية القلمون الاسلامية الكائنة على شاطىء البحر تحت دير البلمند وقلحات فرأيت اجتماعاً عظيماً خارج القرية فسألت ما الخبر فعلمت ان هنالك معتوهاً يضحك الاهالي منه ويجوزون له ما لا يجوزونه لسواه . وكان هذا المعتوه « يجدّ ليجد السبيل الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) . وكان يركب قصبة في كل جمعة يومي الاثنين والخميس . فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة . فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان فيصعد تلاً وينادي باعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون . اليسوا في اعلى عليين . فيقولون نعم . قال هاتوا ابا بكر الصديق . فاخذ غلام فاجلس بين يديه . فيقول جزاك الله خيراً ابا بكر عن الرعية فقد عدلتَ وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة اذهبوا به الى اعلى عليين . ثم ينادي هاتوا عمر فاجلس بين يديه غلام فقال جزاك الله خيراً ابا حفص عن الاسلام فقد فتحت الفتوح ووسعت الفيء وسلكت سبيل الصالحين وعدلت في الرعية اذهبوا به الى اعلى عليين بحذاء ابي بكر . ثم يقول هاتوا عثمان . فاتي بغلام فاجلس بين يديه فيقول له خلطت في تلك السنين ولكن الله تعالى يقول خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم . ثم يقول اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليين . ثم يقول هاتوا علي ابن ابي طالب . فاجلس غلام بين يديه . فيقول جزاك الله عن الامة خيراً ابا الحسن فانت الوصي وولي النبي بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر وانت ابو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة اذهبوا به الى اعلى عليين الفردوس . ثم يقول هاتوا معاوية فاجلس بين يديه صبي . فقال له انت القاتل عمار بن ياسر وخزيمه بن ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي اخلقت وجهه العبادة . وانت الذي جعل الخلافة ملكاً واستاثر بالفيء وحكم بالهوى واستبطر بالنعمة وانت اول من غير سنة رسول الله ونقض احكامه وقام بالبغي اذهبوا به فاوقفوه مع الظلمة . ثم قال هاتوا يزيد . فاجلس بين يديه غلام فقال له ... انت الذي قتلت اهل الحرة واجحت

☆ ١ ☆ كذلك هذه الحادثة منقولة عن العقد الفريد الجزء ٣ الصفحة ٣٢٩ حرفياً وهي مروية عن العتبي عن ابي عبد الرحمن بشر وقد حدثت في زمن المهدي

المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله وآويت المحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله وتمثلت بشعر الجاهلية

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

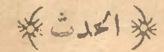
وقتلت حسيناً وحملت بنات رسول الله سبايا على حقائب الابل · اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار · ولا يزال يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال هاتوا عمر فاتي بغلام فاجلس بين يديه · فقال جزاك الله خيراً عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته والنت القلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق اذهبوا به فالحقوه بالصديقين · ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى ان بلغ دولة بني العباس فسكت · فقيل له هذا ابو العباس امير المؤمنين · قال: فبلغ امرنا الى بني هاشم · ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً » (١) فقيل له و بعدُ: فقال اين امويو الاندلس · فرفع اليه غلام · فقال له : ايه عبد الرحمن الداخل ذهبت تخرق خرقاً في الاسلام وتنشيء خلافة جديدة وسلطنة كبيرة لم تحسن انت وقومك الدفاع عنها · اذهبوا به الى النار · ثم قال اين الفاطميون · فرفع اليه غلام · فقال لقد الهتم امراءكم واضعفتم الاسلام بشقه شطرين · خذوهم · فقيل له و بعدُ · فقال بعدُ ماذا · فقيل آل عثمان · فالتفت يمنة و يسرة ومدّ لسانه وحك راسه وهمّ بالكلام · فصاح به صائح : باب السجن مفتوح · فضحك المعتوه وقال : اما بنو عثمان فاننا نؤجل الحكم عليهم · فضحك الجميع وانصرفوا

فقال سليم حقاً ان امر هذا الرجل غريب فانه مع جنونه يصف كل امير الوصف الذي ينطبق عليه كانه من ابصر الناس بالتاريخ · اما صاحبنا مخلوف فانني ارى من القسوة ان نتركه في هذه الحالة ولذلك عزمت على معالجته لعلي اردّ عليه صوابه

---

* ١ * الى هنا انتهت رواية العقد الفريد

الفصل الرابع



«احد اغنياء اميركا العظام فيها»

المذاهب والاديان · مريض لا اكرم منه · شهامة فروي · مرض الوطن

وطوى الفارسان بالحديث المسافة بين عين السنديانة والحدث · ولما وصلا الى هذه القرية دخلا اليها منقبضي الصدر لانهما كانا يعلّلان النفس بان يشاهدا في اعالي الجبل مناظر ابهى واجمل · وهذا شأن كل من يتصوّر شيئاً جميلاً قبل معرفته فانه قلما تكون صورته الحقيقية مساوية لصورته الخيالية خصوصاً اذا كان المتصور شديد الخيال · واشد الناس خيالاً وارقاهم تصوراً واسلمهم ذوقاً من لا يرى في صور الموجودات – مهما كانت عظيمة نفيسة – صورة تفوق او تساوي صورتها التي ارتسمت في خياله قبل ان يراها

وفي الحقيقة ان جمال الحدث لا يظهر للداخل اليها لاول مرة بل تجب الاقامة فيها يومين او ثلاثة لادراك محاسنها · فهي قرية صغيرة قائمة على قمة اكمة في جبة بشري مطلقة للهواء والنور من جهاتها الاربع · فيظهر ان الذين بنوها لم يرهبوا الزوابع والرياح والثلوج في تلك الاعالي ولذلك لم يخفو قريتهم في ظل اكمة مرتفعة كقرية «قنات» القريبة منها الى الجنوب الغربي ولا بنوها في سفح جبل كاهدن التي تقابلها في الشمال ولا في قلب وادٍ كحصرون في الشرق · بل هم قصدوا بها على ما يظهر مصادمة تلك العناصر الطبيعية في تلك الاعالي التي يعممها الثلج و يغطيها الضباب نصف سنة تقريباً · وهذا ما جعل هواءها اجود الاهوية واجفها واجتذب اليها المرضى للاستشفاء فصاروا يفضلونها على سواها

ولما دخل سليم وكليم الى القرية كان اهلها في هياج واضطراب و بعضهم يترا كضون الى منزل قائم فوق حرش صغير بجانب القرية الى الجنوب الغربي · فقال كليم ياجرجس استخبر لنا الخبر · فسأل جرجس احد الاهالي فاخبره ان بعض الاميركان يرومون استئجار بيت في القرية ولكن في الاهالي فريقاً لا يريد تأجيرهم لانهم بروتستنت يحثون الناس على ترك مذهبهم الماروني الى المذهب البروتستنتي · فضحك سليم لما علم بسبب هذا الاضطراب وقال لرفيقه : ان هذه الخلافات في المذاهب والاديان تتبعنا حتى اقاصي البلدان · ثم سأل سليم جرجس · ما رأيك ياجرجس في هذا هل يجوز لهم ذلك ام لا

يجوز . فاجاب جرجس . الحق اقول لك يا معلمي ان الاهالي لا يريدون تغيير مذهبهم الذي ربي عليه اباؤهم واجدادهم وهم يفدونه بدمائهم سواء كانوا في الكورة بناحيتنا او في الجبة بهذه الجهات . فاجاب سليم مازحاً . ولكن لماذا لا تصنعون انتم في نواحي الكورة ما يصنعه اهالي الجبة من طرد الاميركان فانكم قبلتموهم وقد فتحوا عندكم بضع مدارس . فاحتار جرجس في الجواب ثم قال . اهالي الكوره روم يامعلمي واهالي الجبة موارنه . فضحك سليم وكليم لانهما ادركا معنى كلام جرجس . وقال سليم انا ماروني يا جرجس وكن على ثقة انني اكره الاساءة حتى للمجوس . ولكنك قد جهلتَ السبب الحقيقي فاعلم ان لذلك اربعة اسباب (الاول) ان اهل الجبة احرص من اهل الكوره على استقلالهم وارسخ منهم قدماً في الدفاع عن حريتهم . وما برح اهل الجبال اشد استمساكاً بحريتهم المطلقة من اهل السهول . وهم يعتبرون مذهبهم الديني من جملة عواملهم وحاجاتهم الوطنية (والثاني) ان لرجال الدين عليهم سلطة عظمى خلافاً لرجال الدين في الكوره وذلك لما للهيئة البطريركية الدينية من النفوذ الخصوصي في سياسة الجبل (والثالث) ان فرنسا التي تحمي هذه السلطة الدينية يطيب لها ان تُبعد ما امكنها كل اجنبي يروم مخالطة الاهالي واستمالتهم وعلى الخصوص البعثات الدينية الغير الفرنسوية (والرابع) ان الكورة تابعة لاسقفية طرابلس دينياً والروم والاميركان في طرابلس على شيء من الاتفاق . فكيف يستطيع اهل الكوره ان يعاندوا الاميركان ما دامت هيئتهم الدينية في طرابلس مسالمة لهم . — فقال كليم حينئذ وقد ضجر من هذا الكلام لله ما اصبرك على البحث في هذه الهنات

وفي هذا الحين وصل الجوادان الى المنزل الذي كانا يقصدانه في القرية وهو اعلى المنازل في الجنوب وآخرها . وكان اهل المنزل في النوافذ ينتظرون الضيفين ويشاهدون اضطراب الاهالي وصياحهم حول المنزل الذي تقدم ذكره

وكانت العائلة المصيّفة في هذا المنزل عائلة صديق لسليم وكليم يُدعى الخواجا امين وكان مريضاً وهي مؤلفة من امين المريض وابٍ له في السبعين من العمر وامّ في نحو الستين . وكان امين مريضاً بعلة الصدر المشهورة التي كثرت في سوريا ولبنان في هذا الزمان وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر انقضى عليه ثلاث سنوات بهذه العلة فلم ينجع بها دواء ولم يبقَ لها علاج عند الاطباء غير الاقامة في الهواء النقي الجاف في اعالي الجبال . وكان امين وحيد والديه الشيخين وقبلة آمالهما ولكن المرض لا يعرف رحمة ولا يرعى حرمة . وكان ابواه في يأس شديد من حالته يبكيان الليل والنهار على وحيدهما الشاب الذاهب عنهما تاركاً

اياهما في آخر العمر فريدين وحيدين في هذه الحياة . الا انهما مع حزنهما المتصل في السر كانا يظهران امام المريض كل سرور وبشاشة . وكذلك كان المريض امامهما . فانه كان عالماً بعلّته التي كانت تجره الى الموت شيئاً فشيئاً ولكنه كان يحتملها بلا ضجر ولا شكوى لئلا يزيد في عذاب الشيخين اللذين كانا يعتنيان به . ولم يرَ احد قط صبراً على مرض كصبر هذا المريض الكريم وممرّضيه الشيخين

ولما دخل سليم وكايم عليه كان امين ممدداً في سريره لا يقوى على النهوض . فابتسم لهما مسلماً . اما هما فلم يقنعا بهذا الابتسام بل تقدّما منه ليصافحاه بهزّ اليد . فلما رآهما يمدان يديهما نحوه سحب يده واخفاها تحت اللحاف وقال لهما بدمع في عينيه : لا تتعباني بالسلام عليكما فانني في غاية الضعف . فتفرت الدموع حالاً الى عيني سليم وكايم لعلمهما ان ذلك المريض العزيز لم يخفِ يده الا فراراً من ان يعديهما من دائه . فيا ايها المرضى الذين يشكون من فرار الناس منهم خوفاً من العدوى . ويا ايها المصابون بامراض مزمنة يقضون اوقاتهم بالتضجر والتألم والتحسر : تعلموا هذا الشعور اللطيف والصبر الجميل من هذا المريض الكريم .

وما جلس كايم وسليم يستريحان بعد تعب الطريق حتى اشتدّت الضوضاء في القرية وعلا الصياح فهرعا كلاهما الى النافذة واطلاّ منها ثم قال كايم لامين : لم نفهم جيداً سبب هذا الاضطراب . واذا بصاحب المنزل داخل . فسأله امين كيف انتهت المسالة يا ابا مرعب . فقال ابو مرعب حقاً انهم تجاوزوا الحدود . وقد عزمت ان اذهب وادعو اولئك الضيوف الى منزلي هذا وادعهم يقيمون في الجانب الآخر فما قولكم . فقال له امين احسنت يا ابا مرعب وهكذا فلتكن الشهامة . فقال ولكنني اريد ترجماناً بيني وبين الخواجات فهبّ سليم وكايم وقالا نحن نرافقك

وبعد خمس دقائق وصل ابو مرعب مع سليم وكايم الى المنزل الذي كان النزاع عليه فوجدوا حوله نحو عشرين رجلاً من اهل القرية وبضع نساء وعدة اولاد وامام المنزل ثلاثة بغال عليها حوائج السفر وبجانبها ثلاثة من الاميركان وترجمان وخادم

وكان ابو مرعب في نحو الخمسين من العمر وهو رجل كبير الجسم كثير السمن قوي العزم لا يهاب الموت اذا تمثل له في شخص انسان . وكان مشهوراً عنه انه حارب مع يوسف بك كرم وكان من اشد اعوانه حتى ان يوسف بك سماه « كلة مدفع » اشارة الى استدارة جسمه وقوته . فلما وصل ابو مرعب الى المتجمهرين دخل بينهم مع رفيقيه واستفهم منهم عن سبب الاضطراب والصياح . فعلم منهم ان ذلك الجمهور كان مقسوماً قسمين ففريق كان

يقول ليس من آداب الضيافة ان نمنع الاجانب من الاقامة في قريتنا والاّ سبّنا الناس حتى اهل القرى المجاورة . وكان في هذا الفريق صاحب المنزل نفسه . وفريق آخر كان يقول : نحن لا نُبعد هؤلاء الضيوف لانهم بروتستنت فقط بل لان فيهم رجلاً مسلولاً اذ تخاف على قريتنا من العدوى

فرفع حينئذ ابو مرعب صوته وقال مخاطباً الفريق الذي كان يقاوم : يا شباب هل هذا المنزل منزلكم . فاجابوا كلا . فقال وهل لصاحبه الحق في اقفاله او هدمه او تلعيب القرود فيه ام لا . فاجاب احدهم وكان اجراءهم . نعم له الحق في ذلك ولكنه ليس له الحق في ان يضع فيه شيئاً يضر باهل القرية كلهم . فقال ابو مرعب وقد بدا الغضب في وجهه . وماهو هذا الشيء يا ابن طنوس . فقال « المرض » (١) فصاح به الشهم ابو مرعب : هل انت بدون دين يا ابن طنوس حتى تضطهد وتطرد المرضى والضعفاء الذين اوصت ديانتنا بمساعدتهم وزيارتهم . ولماذا لم تطرد القرية اباك لما مات منذ سنتين بعلة الجذام

فسكت ابن طنوس ولكن شاباً بجانبه اجاب : هل الغريب كالقريب يا ابا مرعب . فقال ابو مرعب عافاك الله يا ابن سركيس فانك نطقتَ بالحق . فانتم اذاً تريدون اضطهاد هؤلاء الضيوف لانهم اجانب وبروتستنت لا لحفظ صحة القرية . فانا اخبركم انني الآن آخذهم الى بيتي وكلٌّ من تحدثه نفسه بمنعي فليتبعني

ثم اندفع ابو مرعب الى البغال فاخذ باحدها ومشى في المقدمة يتبعه المسافرون وبجانبه كليم وسليم يعجبان من كرم اخلاق هذا القروي

اما المسافرون الاميركان فانهم كانوا في اثناء ذلك يضحكون وقد افهمهم ترجمانهم كل ما جرى فاجابوا يس يس اي انهم رضوا بالاقامة في منزل ابي مرعب . الاَّ انهم لم يشكروء على ذلك شكراً خصوصياً لانهم لم يعرفوا قيمة العمل الذي عمله معهم ذلك الرجل الكريم

ولما استقرّ بهم المقام في بيت ابي مرعب نادى سليم وكليم ترجمانهم وكان من تراجمة بيروت قدم معهم لهذا الغرض . وبعد ان تعرفوا به سألوه عن رفاقه وقصتهم فاخبرهم ان هؤلاء الثلاثة الاميركان هم من حواشي اميركي كبير قادم للسياحة في جهات الارز . فسأله سليم وما اسمه فاجاب الترجمان . اسمه « مستر كلدن » فصاح سليم مستر كلدن احد اغنياء اميركا العظام . فقال الترجمان نعم فان زوجته مريضة وقد حضر معها للسياحة

« ١ » متى قيل المرض على الاطلاق يعنون به هناك داء السل

في اعالي لبنان . وقد اشار عليهم اطباء بيروت ان يتخذوا الحدث محطة لهم اذا اعجبتهم لان هواءها اجف الاهويه ومنها يزورون كل الاماكن الجميلة التي بجوارها . وهذا ما جعلنا نتقدمهم وننتظرهم

فقال كليم اذاً لستم مرسلين اميركيين كما ظن اهل القرية . فضحك الترجمان وقال كلا . فقال كليم ومن من رفاقك المصاب بداء الصدر . فضحك الترجمان ايضاً وقال لا اعرف احداً مصدوراً بينهم ولكن لون احدهم ضارب الى الاصفرار فحسبوه مصاباً او انهم ادعوا ذلك تأييداً لحجتهم . فضحك سليم وقال لا بأس نحن نحمد هذه الصدفة التي جعلتهم قريبين منا لاننا سنتعرف بالمستر « كلدن » ولا شك . فقال الترجمان وهل تحبون التعرف برجال بطانته . فاجاب سليم . ذلك ما نتمناه

وفي المساء زار سليم وكليم المسافرين الاميركان فاحسنوا استقبالهم وقد سروا لمصادفتهم اديبين مطلعين يحادثانهم بلغتهم حديثاً مفيداً عن المكان السكان . وفي اثناء الحديث سأل سليم احدهم : بلغنا من الترجمان ان مسز « كلدن » مريضة وهذا سبب سياحتها مع زوجها المكرم ولكن ما مرضها . فضحك المخاطب واجاب « مرض الوطن » فاستغرب سليم وكليم ذلك فقال صاحبهما : نعم انا اخبركم الآن شيئاً جديداً وهو يسركما ولا شك . فان مسز كلدن اصلها من بر الشام . ولم تنفك عن الاشتياق الى وطنها الاول . فجاء بها المستر كلدن في هذا العام لعل صحتها تعود اليها في هذه السياحة التي هي متعبة وان كانت جميلة

الفصل الخامس

قصة مجنون ليلى

وهل اخطأت حبيبته ام اصابت في سفرها

وفي ذلك الليل نام كليم وسليم نوم الهناء بعد تعب السفر . ونهضا في صباح اليوم التالي نشيطين مسرورين . الا انهما شعرا قبل شروق الشمس بشيء من البرودة لم يتعوداه في اغسطس لقياسهما الجبل على السهل . لكن لما طلعت الشمس ومازجت ذرات نورها الحار ذرات الهواء البارد شعرا بارتياح شديد لم يشعرا بمثله في حياتهما كلها . ومنذ هذه الساعة بدأت الحدث تكون جميلة في عيونهما

ولما تعالت الشمس فوق المشرق واشتدت حرارتها قليلاً انتبه امين من النوم واوعز الى ابويه ان يستعدا للذهاب الى حرش الصنوبر القريب من القرية ليتناولوا طعام الصباح هناك مع ضيفيهما . فبعد نصف ساعة سار كليم وسليم نحو الحرش وركب امين حماراً لانه كان عاجزاً عن المشي لضعفه وسار ابواه وراءه . والمسافة بين القرية والحرش نحو ٤ او ٥ دقائق . وهذا الحرش قائم بين القرية القديمة وبضعة منازل جديدة بنيت وراءه الى الجنوب وهو مغروس فوق اودية مختلفة تتفرج من الحدث الى السهل فيُرى من ورائه بحر الكوره والبترون وما وراءه من الافق .

فجلس الرفاق هناك في اجمل مجلس وتناولوا طعام الصباح . وقد جعل امين مجلسه بعيداً من مجلس صديقيه وفصل طعامه عن طعامهما . فكان هذا الشعور اللطيف منه يزيد صديقيه رغبة في محو ذلك الاثر من نفسه . ولكن واأسفاه ما الفائدة من محو ذلك الاثر من النفس ما دام باديا في الوجه . فان اميناً كان في تلك الجمعية التي كانت تتمتع بالصحة والعافية في ذلك المكان المشرف على مناظر الجبال الجميلة والمعطر الهواء برائحة الصنوبر الطيبة – عبارة عن شبح وخيال . فان العلة الهائلة اكلت وشربت لحمه ودمه . والهزال افنى قواه واخمد نار عينيه وصبغ وجهه اللطيف بلون الموت . ولم يبقَ من قوة لتلك الروح الصبورة في ذلك الجسم النحيف الذي صار كاجسام الاولاد – سوى قوة الابتسام بشفتيه الرقيقتين تحت شاربيه الاشقرين الدقيقين اللذين صارا لا يظهران كثيراً لامتزاج لونهما بلون الوجه . فبالابتسام فقط كانت تظهر حياة امين وعواطفه وارادته . وكان يجود بالابتسام دائماً اظهاراً للقوة وايناساً لجلاسه . فهنا نقول مرة ثانية ايضاً : ما رأى الممرضون قط مريضاً شجاعاً صبوراً مثل الفتى امين . والعجب من نفس قوية صبورة كهذه النفس كيف استطاعت العلة ان تقوى عليها

وكان لا ينغص عيش سليم وكليم شيء في ذلك المكان الجميل سوى هذه الافكار التي كانت تتردد عليهما . ورغبة في طردها وتسلية المريض دخلا في الحديث معه . فقال كليم الا تذهب معنا الى الارز ايها الصديق . فضحك امين وقال انتَ ترى انني لا اقدر على الركوب من القرية الى هنا . فقال سليم . لا تبالغ فانك بخير والحمد لله وانك تستطيع الذهاب معنا الى الارز اذا أردته . ولك علينا اذا سرتَ معنا ان نريك « فرجة » لم ترها في حياتك . فقال امين وما هي . فقال سليم نريك مجنون ليلى . فقال امين ومن هو مجنون ليلى . فقال سليم هو رجل جنَّ من الحب . فصاح امين : لعلك تريد بهذا الرجل المسيو مخلوف . فدهش سليم وكليم وقالا : هل تعرفه . فقال امين هذا امر بسيط فان كل الناس هنا يعرفونه

و يعرفون قصته · فقال سليم وهل تعرفها بالتفصيل فقال نعم ولكن اين شاهدتموه

فقص عليه سليم كيف شاهدا مخلوف في عين السنديانة وما جرى له وكيف وعدهما بان يقابلهما في الارز · فقال امين : اظن هذا كل ما تعرفانه عنه اما انا فانني اقص عليكما قصته من اولها الى اخرها كما سمعتها من عارفيه واليك تفصيلها

ان اسم مخلوف الاصلي (يعقوب درمان) وهو شاب اديب من بلده صور وكان منذ عشر سنوات مكبًا على الدرس استعدادًا لفن المحاماة · فبينما كان ذات يوم يطالع بعض دروسه على شاطيء البحر واذا به يسمع صراخًا وعويلاً فركض فابصر خادمة تنادي على سيدة لها بين الامواج تكاد تغرق فالقى نفسه حالاً باثوابه في البحر وانقذ السيدة · وكانت هذه السيدة فتاة في نحو الثامنة عشرة من العمر وهي كريمة تاجر كبير في صور · وقد رامت الانتحار غرقًا لاسباب مجهولة · فلما انقذها يعقوب ارسلها الى بيتها وكانت مغشيًا عليها · فكاد ابوها يموت من حزنه ولكن الحياة عادت اليها · ومنذ ذلك اليوم احبها يعقوب درمان حبًا شديدًا يقرب من العبادة ومالت الفتاة اليه لانه انقذ حياتها· لكن الاقدار عاكستهما بعد ذلك · فان اباها على ما يقال توفي في ذلك العام وقد خسر جميع امواله وانحطت كرامته بين قومه بعد ان كان عزيزًا بينهم و بذلك يتمت ابنته وحدها اذ لم يكن في البيت غيرها لوفاة امها · وكان يعقوب درمان فقير الحال ايضًا · فرأت الفتاة انها اذ اقترنت به ازدادت سوء حال على سوء حال · وكانت عزيزة النفس شديدة الانفة لانها نشأت في الترف والغنى والدلال فكرهت ان تقيم ذليلة فقيرة في بلدة كانت فيها العزيزة المبجلة · فغافلت حبيبها يعقوب وفرّت مسافرة مع احدى البواخر التي تمر على صيدا وتركت له ورقة تقول له فيها « انسني واسلني بعد الآن » ويظهر ان دماغ يعقوب ضعيف من فطرته فلم يقوَ على تحمل هذه الصدمة فجنّ من يومها

فقال سليم ولكن كيف سافرت الفتاة وحدها الى بلاد لا تعرفها ؟ فاجاب امين لا تسل عن ذلك فانها نشأت في مدارس الاميركان وانت تعلم انهم يربون البنات في مدارسهم على الجراءة والاقدام والاستقلال · وهو امر احيانًا يكون نافعًا واحيانًا يكون ضارًا

فضحك كليم وقال لا ريب اننا اذا رأيناه نحن في هذه الحادثة نافعًا فان الخواجه مخلوف يراه مضرًا جدًا لانه فقد به حبيبته وعقله

فقال كليم ولكن عندي ان الفتاة لم تخطيء اذ لا اصعب من معيشة الانسان محتاجًا الى الناس في بلدة كان فيها من قبل غنيًا عنهم · فان دناءة الشامتين ولؤم المنتقدين ووقاحة

حديثي النعمة الذين يحلون محل ذلك الانسان بعد سقوطه امور لا تحتملها النفوس

فقال امين بهدوء ورزانة : ما للانسان وكلام الناس انما عليه ان يعيش بهدوء مستوراً واذا كان في الناس قوم « ارديا‌ء » يشمتون وينتقدون ففيهم قوم « طيبون » يؤانسون ويعزون · فقد كان على الفتاة ان تبقى ولا تسافر بهذه الصورة الشنيعة·

فقال كليم ضاحكاً : لو سمعك مخلوف الآن لاعطاك طربوشه من فرحه

فقال امين ضاحكاً : وما نفعي منه فان طربوشه قذر — فضحك الجميع لهذا الجواب

الفصل السادس

حديث في حرش صغير

التصييف في اعالي لبنان فوق بيروت او طرابلس بدل سويسره واوربا · هل يجوز للهيئة الاجتماعية عزل المرضى · السلّ داء الانسانية الاسود · آخر الآراء والابحاث في اسبابهِ وعلاجه · كرنيجي الاول

وقد طابت الاقامة لسليم وكليم في هذا الحرش الصغير فصارا في كل يوم يقصدانه مرّة او مرتين للاستظلال به من حرّ الشمس · ولكنهما لم يكونا يجلسان في الظل ربع ساعة حتى يبردا فينهضا الى الشمس فيسخنا فينهضا الى الظل وهكذا على التتابع · وكانا يصرفان الوقت هناك بالحديث ومطالعة اطايب الكتب

فبعد ان مضى عليهما بضعة ايام في هذه المعيشة نظرا الى نفسيهما ذات يوم وهما في ذلك المكان فاذا بهما قد صار جسمهما ممتلئاً قوة وصحة وتوردت وجناتهما واكتسيا من هواء الجبال ثوباً زاهياً غطى ثوب الاصفرار والضعف الذي كستهما به المعيشة المدنية · وكانا ينظران الى نفسيهما في المرآة ولا يصدّقان · فالتفت سليم الى كليم وقال : ان الذين يعيشون في السهول والمدن في الشام وغيرها يخطئون اشد خطاء اذا كانوا لا يصعدون مرة في العام الى جبال كهذه الجبال لتجديد قواهم ودماءهم · فاجاب كليم انا موافق على رأيك بعد ما شاهدته في صحتي من التحسن · تالله انني احسب نفسي انني كنت ميتاً وبُعثت · فانني آكل ولا اشبع · واشرب ولا اروى · وامشي ولا اتعب · واحياناً اخشى لنشاطي وخفة جسمي ان اطير في الهواء · فضحك كليم وقال : ما رأيك باصحابنا في الشام وفي مصر الذين يقصدون جبال سويسره وبلاد اوروبا في الصيف ويتركون هذه الجبال التي فيها المعيشة ارخص مايكون·

فقال كليم مَن جهل شيئاً لم يحفل به · فهم يجهلون فضائل هذه الجبال · هذا عدا عن ان طريقها وعرة (١)

وفي هذا الحين وصل الى الحرش شابان · فصاح كليم · بهما : اهلاً بالخواجه فاضل والخواجه حنانيا · ثم جلس الشابان بازاء رفيقهما واخذا في الحديث معهما · وكانا من رفاق كليم وابناء وطنه وهما مصيفان في القرية ·

وكان حنانيا شاباً تدلُّ هيئته على « البساطة » ولكن في الزوايا خبايا · وكان بلحية ضاربة الى الشقرة وهو كثير التنحنح كلما فاه بعبارة · وكان رفيقه فاضل يكثر من ممازحته ومداعبته وكذلك كليم · وقد كان حنانيا يُسر بهذه المداعبة على ما يظهر لانه لم يكن يستاء منها ولو جرحته احياناً · وكثيرون وفي جملتهم المؤلف كانوا يعتبرون ان هذا الامر ناشئٌ بالاكثر عن « طيبة » قلبه

اما فاضل فقد كان شاباً هادئاً يحب الجدّ كما يحب المزاح وقد كان في عينيه مايدل على صفاء قلبه · وفي اساليبه وكلامه وسكونه ما يدلُّ على انه ربي في عائلة ذات نعمة · وكان من المشهور عنه انه شديد الاخلاص والرغبة في نفع غيره فلم يكن احد يساله شيئاً في طاقته ويقعد عنه ·

ولما دار الحديث بين الرفاق الاربعة قال فاضل ان رفيقنا حنانيا قد ابتاع اليوم كرماً · فقال حليم وكيف ذلك · فقال فاضل : جرت عادته انه كلما رام ان ياكل عنباً يقصد هذه الكروم الممتدة امامنا من القرية الى حرش الارز الصغير المشرف عليها وكلما شاهد عنقوداً جميلاً جلس كالثعلب بجانبه وتناول منه انضج حبوبه واكبرها · ولا يزال يفعل ذلك حتى يشبع · ففي هذا الصباح بينما كان « يفطر » بهذه الطريقة نظره (ناطور) الكرم فصاح به واسرع اليه فاجابه صاحبنا بكل « برودة » قلب ماذا تريد · فقال له (الناطور) اخرج من الكرم · فقال له بغضب ولماذا · هل هو كرمك · قال بلا شك · فقال له صاحبنا ارني (الحجة) التي بيدك لاتحقق ذلك ـ ولعمري ان هذه خير الطرق للشبع من العنب بدون دفع بارة واحدة ·

فقال كليم اذاً لايظلم اهل القرية كثيراً ضيوفهم بمعاندتهم والرغبة في التخلص منهم

« ١ » كانت كذلك في زمن هذه القصة اما اليوم فالمركبات تسير الى اعالي الجبة كما تقدم · فعسى ان يكون في هذا الكلام ما يحبب الى كرام المصريين والسوريين التصييف في اعالي لبنان فوق بيروت او طرابلس بدل سويسره واوربا

اذا كانوا كلهم « على نسق » صاحبنا حنانيا

فقال حنانيا انا لست سلاً ولا بروتستنت ليستطيعوا طردي فانني قاعد هنا على صدورهم الى ان يحلو لي السفر . ثم فلنترك الآن المزاح هل بلغكم عزم اهل القرية على التجمهر لاخراج المرضى من قريتهم

فقال سليم : وما قولكم في قصدهم هذا الا ترون فيه شيئًا من الحق

فاجاب فاضل بحدة : عفوًا عفوًا . ان لاهل القرية الحق في ابعاد المرضى عنهم كما ان للمرضى وخصوصًا المصدورين الحق في اختيار الحدث للاقامة فيها لان هواءها اجف الاهوية والاطباء يامرونهم بان يسكنوها . ومن الخشونة والهمجية ان يُداس حق الضعفاء ارضاء للاقوياء

فقال سليم فما الحيلة لارضاء الفريقين . اليس هناك يا ترى طريقة جامعة

فقال فاضل كنتُ افكر منذ مدة في هذا الامر حين سماعي ذلك الخبر فحللت هذه المشكلة . وذلك ان يُبنى فوق القرية تحت الارزات التي هناك « مستشفى للمرضى » مؤلفًا من عشرين او ثلاثين غرفة جامعة لكل الشروط الصحية على نسق المستشفيات الصحية للمسلولين في اوربا (سانتوريوم) وحينئذ يجتمع المرضى من تلقاء انفسهم في هذا المستشفى بدل ان ينتشروا في منازل القرية ويخاصموا الاهالي لاستئجارها (١)

فقال كليم لقد اصبتَ فان هذا خير حل . وحينئذ يكون من حق الاهالي اجبار المرضى على الانفراد بذلك المستشفى . والا فكل مقاومة منهم تعد خشونة وقسوة اذ الارض ليست ارضهم ولا الهواء هواءهم بل هما لله . اي انهما مشتركان بين جميع البشر . واذا لم يقم احد لبناء هذا المكان الصحي فانني اؤكد ان الحدث لا يقصدها في المستقبل غير المرضى فتخسر خسارة غير قليلة

فقال سليم . نعم ان السلّ آفة هائلة . والناس يرهبونه كما يرهبون نيران جهنم

فقال حنانيا ولكن من اين تنشأ هذه الآفة المهلكة التي كثرت في بلادنا . ثم اليس من دواء لها

فقال سليم لقد اطلعت منذ اسبوعين على آخر الابحاث والآراء في هذه الافة ومنها يظهر ان السل يصاب به نصف البشر على الاقل . فبعضهم يشفى منه دون ان يدري به (١)

« ١ » بُني هذا الراي على المبداء الذي يجري عليه اليوم جمهور الاطباء والشارعين في الغرب وهو انه ليس للهيئة الاجتماعية ان توجب على الطبيب التصريح بعلة مرضاه لتعزلهم الحكومة عن الناس الا متى بنت لهم الحكومة مستشفيات صحية مجانية يجدون فيها كل عناية

« ١ » عُرف ذلك من تشريح الجثث في مستشفي باريز

وبعضهم يموت . ولذلك سموه « داء الانسانية » وفي فرنسا وحدها فقط يموت به في كل عام ١٥٠ الف شخص . اما سبب هذه الآفة فهو الافراط في كل شيء : الافراط في السكر الافراط في الزواج الافراط في التعب والهم الافراط في السهر وسوء المعيشة وقلة الغذاء وفساد الهواء الخ . . ويقولون انه ينتقل بالوراثة وهذا رأي ضعيف اذ جلّ ما تفعله الوراثة اعطاء الولد بنية ضعيفة . فاذا كان الاهل حكماء استطاعوا تقويتها وانقذوا الولد . والاَّ سقط . فسقوطه اذاً يكون لا من وراثته داء السل بل من وراثته ضعف البنية . وكأنَّ آفة السل تمثال اسود للشقاء والعذاب منصوب في ساحة تؤدي اليها كل طرق الشقاء والغلو والافراط والفساد

« اما دواء هذا الداء فبسيط جداً . وانا احب ان يُنادى على السطوح على مسمع من جميع المرضى المساكين ان داءهم قابل للشفاء خلافاً لما بلغهم . بل ان شفاءه اسهل من شفاء الحمى التيفوئيدية والجدري وغيرهما — لكن على شرط ان يُتدارك من اول ظهوره . فقولوا للمرضى به لا تحزنوا ولا تخافوا ان داءكم بسيط اذا احسنتم مداواته . ولكن اذا اهملتموه قضي عليكم لا محالة . وان قيل كيف تُحسن مداواته فالجواب لا دواء له غير شيء واحد وهو « الهواء النقي والغذاء الكافي » اما ما يُقال عن العلاجات والادوية فهو كله تدجيل في تدجيل . وكثيراً ما تناول المصدورون ادوية فنفعتهم شهراً او شهرين ثم انتكسوا بعد ذلك من فعل تلك الادوية وانتهى أجلهم (١) فترك الدواء اذاً هو كل الدواء . ومعرفة وقت ابتداء الداء هي السرُّ الوحيد في الشفاء . ولا ينبغي للمسلول ان ييأس من شفائه ابداً فان بعض الاطباء داوى بعض المرضى بالسل ٢٠ سنة وكانوا ينفثون الدم مع البلغم ومع ذلك رزقوا اولاداً وعاشوا عمراً طويلاً . ولكن المسلول العازب عليه ان لا يتزوج وان تزوج ولم يكن « حكيماً » غلبه داؤه . اما النساء المسلولات فالحبل فقط يضرهن ضرراً شديداً ويغلّب داءهن عليهنّ . ومن ذلك كله يظهر ان الاعتدال وحسن المعيشة في الهواء النقي الجاف في الجبال مع قليل من الرياضة الخفيفة هي الدواء الوحيد الشافي من هذا الداء

وما انى سليم على هذا الكلام حتى نُظر ابو مرعب راكضاً نحو الحرش ينهب الارض نهباً . فاشرأبت اليه الاعناق وقال كليم خير ان شاء الله ما وراء ابي مرعب . ولما وصل ابو مرعب صاح وهو يلهث تعباً هل بلغكم الخبر . فقالوا ماذا . فقال قد وجدنا كنزاً . فقال كليم وما هذا الكنز . فقال ابو مرعب لاهثاً . كنز كنز عظيم . فقال كليم فاخبرنا ما هذا

---

* ١ * هذه المعلومات عن السل مأخوذة من رسالة مطولة حديثة للدكتور دارنبرج وهي من اهم ما قيل في هذا الموضوع

الكنز . فجلس ابو مرعب وقصّ عليهم ما يلي

كنت الآن هناك مع ترجمان الجماعة واذ كنتُ اسأله عن المستر كدن . نكدن كيف يلفظ اسمه ؟ فاجاب كليم « كلدن » فقال تمام « كلدن » فاجابني الترجمان انه غني عظيم تُقدر ثروته بخمسين مليون ليره . واذ كنتُ اسأله عن اخلاقه وصفاته اخبرني خبراً غريباً . فقد قال لي ان هذا الرجل يخرج في السنة مرة من بيته في شيكاغو الى المدينة وجيوبه ممتلئة باوراق البنك . ولا يزال يوزع منها على الذين يجدهم في طريقه حتى تنفد . فربما وزع مليون فرنك في ذلك النهار . ولذلك يسميه الناس نهار كدن . . نكدن كيف اسمه فقال سليم ضاحكاً « كلدن » فقال ابو مرعب نعم نعم « نهار كلدن » وقد اخبرني الترجمان ان الذي ابتكر هذه الطريقة وحثه عليها شاب مستخدم في محله يُدعى « المستر كرنيجي » وكثيراً ما يرافقه في ذلك النهار . فما قولكم اذا جاء صاحب الملايين غداً وعلم بانني انقذت رجال حاشيته الا (يفتح يده) و يرينا جوده وكرمه .

فضحك الحاضرون وقال سليم اشير عليك ياعمي ابا مرعب ان تطلب منه ان يصنع « نهار كلدن » مرة في الحدث . فقال ابو مرعب والله هذا رأي في غاية الصواب . وسنطلب ذلك منه كلنا . ثم نهض ابو مرعب واسرع ليجتمع ببعض رفاقه من اهل القرية و يتفق معهم على هذا الطلب

فلما غاب عن اصحابنا التفت كليم الى حنانيا وقال ماذا تصنع يا حنانيا اذا صنع المستر كلدن « نهاره » في الحدث

فاجاب فاضل عن حنانيا : اعوذ بالله . ان صاحبنا حنانيا يقطع نفسه عشرين قطعة في ذلك اليوم ليصادفه صاحب الملايين عشرين مرة

وكان حنانيا يضحك في اثناء ذلك وهو ساكت .

ولما عاد الاصحاب الاربعة من الحرش وجدوا خمسين قرويًا جالسين حول ابي مرعب تحت بيته وهم يبحثون في طريقة يقنعون بها المستر كلدن ان يصنع « نهاره » في الحدث . وقد اخذوا منذ تلك الساعه يلاطفون رجال حاشيته و يكرمونهم احسن اكرام . ومابرحت المصالح تغيّر قلوب الناس في كل زمان ومكان

الفصل السابع

لا تريد المرور على بيروت

زوج اميركي وزوجة شرقية · الحسن الاميركي والحسن الشرقي · غلطة فتاة يبكتها ضميرها · كيف احب كلدن امرأته واقترن بها

وفي هذه الاثناء كان المستر كلدن وزوجته وابنتان لهما وحاشيتهما الكثيرة صاعدة عند دير حنطورة في الطريق الموصلة الى عين السنديانة ·

وكانت الابنتان في مقدمة الركب وكل واحدة منهما على جواد ووراءهما امهما على جواد ايضاً يليها الأب على فرسه و بجانبه وكيل اشغاله ووراءهم الحاشية والخيام والبغال تحمل الاثقال

وكان المستر كلدن كهلاً في الخمسين من العمر · وهو جميل الوجه طويل القامة احمر اللون اشقر الشعر متقد العينين بالذكاء الاميركي المعروف وفي كل حركة من حركاته وكل كلمة من كلماته شيء يدل على النشاط والحدة

اما زوجته فقد كانت في نحو الثلاثين · وكانت بيضاء الوجه كالثلج المعمم قمم لبنان سوداء الشعر والعينين رشيقة القوام كغصن البان خفيفة الحركة فوق جوادها الرشيق كانها غزال على غزال

فكان هذا الزوج وزوجته يمثلان ضربَي الحسن في العالم · الحسن الاميركي الاشقر والحسن الشرقي الجامع بين اللون الابيض الناصع واللون الاسود الفاحم

والغريب ان ابنتيهما جاءتا واحدة على شكل امها وواحدة على شكل ابيها · وكانت احداها في التاسعة من العمر والاخرى في السابعة · وكانتا ثابتتين على ظهر جواديهما ثبات الفوارس · ولا عجب في ذلك لانهما ربيتا تربية اميركية

ولما حاذى الركب دير حنطوره كان المستر كلدن في حديث مع امرأته وقد تنحى عنه وكيل اشغاله · وكان يقول لها : لماذا تكرهين بيروت يا اميليا الى هذا الحد · حقاً انني صرت اخجل من قومي فيها لعدم استقبالنا اياهم فاجابت زوجته والحزن بادٍ في وجهها : حقاً انني ندمت ياجورج على سياحتنا هذه · فقهقه المستر كلدن وقال : كيف تندمين الآن بعد ان بكيتِ سنتين على هذه الزيارة · وفي كل يوم كنت تتنهدين وتقولين : هل ارى بلادي مرة قبل ان اموت ؟ فقالت اميليا والدموع في عينيها · لا تمزح يا صديقي في مسألة

كهذه المسالة فان قلبي في غاية الالم . نعم كنت اشتاق في بلادنا الى رؤية البلاد التي ربيتُ فيها ولكني اول ما وصلتُ اليها تغير قلبي فعلمت حينئذ انه قد كتب لي التعاسة على هذه الارض . فانني اذا قمتُ في بلادنا اميركا شعرتُ انني غريبة فيها واذا جئت بلادي الاصلية شعرتُ ايضاً انني غريبة . فشاني شان طائر نسفت الزوابع عشه واستأصلت الشجرة التي كان ياوي اليها فلم يبقَ له أمل في الراحة وان وجد عشاً احسن من عشه الاول وشجرة افضل من شجرته الاولى . وليس معنى كلامي هذا انني غير راضية بحالتي الحاضرة . فانني من فضلك ونعمتك في الف فضل والف نعمة . ولكن ماضيَّ شديد الضغط على نفسي

وهنا انحدرت الدموع من عيني اميليا . فصاحت بها ابنتها الاولى : عدنا الى البكاء يا ماما . اذا لم تسكتي فانني ابكي ايضاً . وقال لها زوجها . الحق اقول لك يا عزيزتي انني لا أعرف سبباً لهذا الحزن واليأس . فانك تعلمين اننا صنعنا كل ما في امكاننا فلم نعثر على اثر لابيك . وقد عرضتُ عليك الف مرة ان ننتقم من اعدائه فكان جوابك ما الفائدة من الانتقام .

فهنا اغرقت اميليا في البكاء وقالت نعم ما الفائدة من الانتقام فانه لا يردُّ لي ابي . ولو عثرت على ابي فربما كنتُ طاوعتك على الانتقام ارضاء له . لانه تعذب كثيراً في اثناء حياته . ومن العدل ان يعذَّب معذبوه وان كنت لا احبُّ عدلاً كهذا العدل . ولكن ماذا كان جواب الباحثين عنه في جهات البرازيل

قال لم يجدوا له اثراً . وانت تعلمين انني نشرت منشوراً في جميع اقطار الارض في الشام ومصر واوربا واميركا وآسيا وافريقيا ووعدت بدفع مليون فرنك جائزة للذي يجد « الخواجه متى حاروم » ويدلنا عليه وها قد مرَّ على هذا المنشور سنوات والوف من الناس يبحثون عبثاً طمعاً في الجائزة . فاعتقدي يا حبيبتي بعد الآن ان اباك الكريم قد توفي الى رحمة الله وسبقنا الى الآخرة . لانه من المحال ان يكون حياً ولا نعثر عليه بعد كل هذا التفتيش . ولا تنسي اننا كلنا ضيوف في هذه الارض وان وطننا الحقيقي فوق . فتعزي ولا تحزني حزن الذين لا رجاء لهم

فاطرقت اميليا برهة تبكي بسكوت . ثم قالت ليس بكائي للموت بل بكائي للغلطة العظيمة التي ارتكبتها . وهذا ما يعذبني ويضغط على نفسي وضميري . فانني تركت ابي في اشد الاوقات عليه حين تخلت عنه الارض والسماء وابتعد عنه الاقربون والابعدون . فكنت اقساهم عليه واجحدهم لجميله لانني كنت اقربهم اليه . وانني اخشى ان يكون قد

مات في الشيخوخة والضعف والفقر والوحدة وهو يلعنني

فهنا رام كلدن ان يصرف فكر زوجته عن هذه التذكارات المحزنة فقال ضاحكاً : اما انا فلا اعتبر سفرك من بلادك الى اميركا غلطة يا اميليا لانني لولا هذا السفر لما التقيت بك واقتنصتك . فانا اشكرك لتلك الحدة التي حملتك على السفر . ولا يزال يحلو لي ان اتذكر معك اليوم الذي لقيتك فيه في واشنطون . فقالت اميليا مبتسمة دعنا من هذه الذكرى . فقال لا بل دعيني اتكلم بحيائك . فقد خرجتُ في ذلك اليوم لأعمل « نهار كلدن » ومعي المستر كرنيجي كاتم اسراري . فبعد ان ذهب نصف ما في جيوبي من الاوراق وصلت الى الساحة القريبة من دار الحكومة فوجدتك سائرة في طريقك مع احدى بنات جنسك . فمددت يدي اليك بورقة قيمتها خمسمائة دولار وقد فعلتُ فيَّ عيناك ما لا يفعله السحر . ذلك انكم انتم الشرقيون لا تعرفون مبلغ التأثير الذي يؤثره فينا الجمال الشرقي الخاص بكم . فكان جوابك انكِ رفعتِ يدكِ ولطمتني على وجهي لطمة ارتني « نجوم الظهر » كما يقولون في لغتك . لانك ظننتِ انني رجلٌ بذيءٌ يقصد اغوائك بماله . فكبر قدرك منذ ذلك الحين في عيني وارتدني بهذا الفعل جمالك الادبي بعد ان رأيت في وجهك جمالك الانثوي . وانتِ تعرفين التتمة . فبالله اخبريني كيف اجترأتِ على لطم رجل قوي مثلي قادر على سحقك بقبضة واحدة

فقالت اميليا تعلمت ذلك من معلمتي في المدرسة فانها قصت علينا يوماً ان احد الوقحين عرض عليها في سوق نيو يورك مالاً فجاوبته بلطمة على وجهه ففرَّ كالهرّ المطرود . فقال كلدن حينئذ رافعاً رأسه افتخاراً : هل من ينكر بعد هذا فضل مدارسنا في الشرق .

وقد سرَّ المستر كلدن من اجوبة زوجته لانه قدر بذلك على صرف افكارها عن موضوعها الاول . ولم يعد يسألها لماذا كانت تكره الاقامة في بيروت والسفر الى صور وصيداء

الفصل الثامن

﴿ الفلسفة والمكاري بطرس ﴾

(قصة امين)

وبينما كان كلدن وزوجته صاعدين مع حاشيتهما الى الحدث كان سليم وكليم يتأهبان للسفر منها الى الارز . لان اصدقاءهما في اهدن سافروا الى الارز وبعثوا يستعجلونهما . فقال كليم لرفيقه ستتعرف بالمستر كلدن بالارز فهلمَّ بنا نسافر لان الاقامة هناك تحت ظل الارز العظيم افضل من الاقامة هنا

ولما دخل كليم وسليم لتوديع صديقهما امين ظهر الحزن في وجهه . وكان قد ازداد ضعفاً وهزالا . فودعهما وهو يقول اظن هذا الوداع هو الوداع الاخير . فقال كليم متأثراً لم نعهد قلبك ضعيفاً ايها الصديق فعلامَ الخوف وانت متقدم الى الصحة ان شاء الله . فهزَّ امين رأسه وقال هل تظن انني اخاف الموت . كلاَّ . فان الموت راحة لمن كان مثلي . وانما انا آسف لامر واحد .

قال ذلك وانحدرت الدموع من عينيه

فترقرق الدمع في عيني سليم وكليم وقال كليم : ما هو هذا الشيء . فقال امين: هو ان اخرج من هذه الحياة قبل ان انتقم من الظالمين

ففهم كليم مراد امين في الحال واجابه : كن على ثقة ايها الصديق انك ستشفى وتنتقم لنفسك . فان الله اعدل من ان يسحق المظلومين ويرفع الظالمين . واذا افترضنا المحال وقويت عليك علتك لعدم مداراتك نفسك فاعلم ان الظالم سيسقط من نفسه لان كل ما يُبنى على الظلم فهو مهدوم . والبغي مصرعه وخيم

فهزَّ امين رأسه وقال : واأسفاه انني لا ارى هذا الامر واضحاً كل الوضوح في الحوادث البشرية . — ثم انطرح على فراشه يفكر والدموع ملء عينيه . وكان منظره حينئذ كمنظر جندي سقط قتيلاً في ساحة العراك في آخر النهار

اما سليم وكليم فانهما ركبا بغلين قويين وانحدرا من الحدث قاصدين وادي حصرون . وكانا هذه المرة ساكتين يفكران بكلام الصديق امين . فسأل سليم رفيقه هل من مانع

يمنعك من اطلاعي على مراد امين بكلامه الاخير . فقال كليم كلا ولكن ليست هذه القصة جديدة في الارض . فانها قصة كل المغلوبين والمقهورين والمظلومين فيها . انها قصة العراك الابدي الذي بين الناس وهو ما يسمونه (تنازع البقاء) فان امينًا كان من موظفي الحكومة وكان محبوبًا مسموع الكلمة لذكائه وعقله . وكان على وشك الاقتران بفتاة يحبها وهي ذات دوطة طائلة . وكان احد تجاركم في بيروت يطمع في دوطتها ليصلح بها احوال محله التجاري المتضعضع . فوشى لدى الحكومة سرًا بان امينًا يعاون حزب تركيا الفتاة ويراسله فعزل وسجن واُهين ولم يطلق سراحه حتى ظهر مرضه . اما الواشي فلم يتمكن من الاقتران بخطيبته لانها تركت الاثنين معًا

فقال سليم ومن هو ذلك الواشي . فقال كليم : هو « الخواجه لوقا طمعون » فقال سليم هذا تاجر اصله من صيدا لا من بيروت وقد سمعت الناس يذمونه كثيرًا لسوء اخلاقه .

وكان مع الرفيقين في هذه المرة مكارٍ من الحدث وهو شاب قوي البنية ربعة الجسم يُدعى (بطرس) فسأل رفيقيه « هل تمرون على الديمان في طريقكم يا خواجات » فسأله كليم هل اليوم غبطة البطريرك في مصيفه هذا . فاجاب بطرس كلا بل هو غائب . فقال كليم فلنمضِ اذًا في سبيلنا

وكانت يومئذ الدار البطريركية في الديمان دارًا يدل ظاهرها على البساطة والقدم . اما اليوم فقد اقيم هنالك قصر فخيم على الطراز الحديث للسلطة البطريركية

وكان سليمًا وكليمًا راما طرد الافكار السوداء التي كانت تتردد على ذهنيهما من كلام امين ووداعه فقال الثاني للاول : لقد سلانا المكاري جرجس قليلاً من قلحات الى الحدث فبماذا يسلينا بطرس . فقال سليم اسمع . ثم التفت الى بطرس وقال له يا بطرس : لماذا تناديننا خواجات . فاجاب بطرس بوجل اذا كنتم بكوات يا معلمي فارجو السماح . فقال سليم ولا بكوات . بل نحن بشر مثلك . فاذا كنا خواجات فانت خواجه ايضًا لان كل البشر اخوان . فتنهد بطرس وقال : هذا في القول يا معلمي فقط . وما ابعد القول من الفعل الا ترى انكم راكبون وانني ماشٍ . وهذا اول فرق بيننا . فضحك سليم وكليم وقال سليم لرفيقه حقًا ان مكارينا نبيه . ثم التفت اليه وقال . ما عنيتُ هذا بقولي . وانما عنيتُ انا واياك متساوون لدى الحكومة ولدى الله وان كان البشر يعطون بعضنا امتيازات دون بعض . فانت لست بمديون لي بشيءٍ سوى ما تقبض اجرته مني . وانا كذلك . فالآن انا راكب وانت ماشٍ باختيارك وطوعك حسب الاتفاق الذي عقدناه على ان اعطيك اجرة تعبك . فلست اذًا

امتاز عنك بشيء سوى انني تعبت وحصلت مالاً اقدر به على ان اريح نفسي من المشي . وبئست هذه الراحة لانني افضل ان اتعب مثلك واكون بصحة كصحتك

وكان سليم يتكلم وبطرس يظهر الدهشة والاستغراب . ثم اجاب . حقاً قلتَ الصواب يامعلمي . فصاح سليم رجعنا الى « معلمي » اما انا بشر مثلك . بل انت الآن معلمي لانك اقوى مني ونفعتني ببغلك اكثر مما نفعتك . فضحك بطرس وقال : حقاً قلتَ الصواب فيما يختص بالاجرة والركوب . ولكن قولك يامعلمي اننا كلنا متساوون لدى الحكومة والله فيه نظر . فانني اصدق كل شيء الا هذا . اما المساواة عند الله فلندعها جانباً . لاننا متى وصلنا الى هناك نبقى نتكلم عنها . واما المساواة لدى الحكومة فاحب ان تدخل على سعادة القائمقام حين يصيف في الحدث (١) وترى الناس كيف يجلسون في حضرته وبعد ذلك تبقى نتكلم عن المساواة لدى الحكومة

فقال سليم هذا ليس ببرهان لان الناس كثيرًا ما يسيئون في تنفيذ الشرائع فلا تلصق الاساءة بالشرائع نفسها بل بمنفذيها

فقال كليم لرفيقه لا بأس بهذا الحديث اذا كان لا يحدث منه ضرر . ولكني كنت اتمنى ان لا تكون هذه التجربة فينا لئلا نكون اول من يجني ثمارها

ثم استمر الرفاق الثلاثة سائرين فقطعوا الديمان وهبطوا في وادي حصرون . وكان بطرس في اثناء ذلك يفتكر في كلام سليم وهو يقول في نفسه : حقاً ما اجهلنا نحن سكان القرى . صحيح . ما الفرق بيننا وبين الخواجات والبكوات والحكام . نحن ناكل كما ياكلون ونشرب كما يشربون ونمشي كما يمشون ونفتكر كما يفتكرون وندفع ما علينا للحكومة كما يدفعون . فلماذا يكون كل الاكرام لهم وعلينا الخدمة والطاعة والذل . والله لما اعود الى القرية ويقول لي البك اعمل هذا او لا تعمل هذا فكل جوابي يكون انني ادير له ظهري واهز رأسي وامشي في سبيلي

وفي هذا الحين كان الرفاق الثلاثة قد قطعوا حصرون ووصلوا الى نبع ماء على الطريق ماؤه كالفضة الجارية صفاء والثلج الذائب برودة . فصاح سليم : يا بطرس ناولنا ماء لنشرب . وكان بطرس يفكر كما تقدم في عباراته الاخيرة . فكان كل جوابه لسليم ان هز راسه وادار ظهره وسار في سبيله

---

(١) كان قائمقام البترون يصيف في الحدث مع دوائر الحكومة لما تكون القائمقامية في غير يد المرحوم اسعد بك كرم المشهور الذي كان يصيف في وطنه اهدن

فقهقه كليم حتى كاد يقع عن ظهر البغل وقال لسليم · تفضل يا صاحبنا وانظر نتيجة مبادئك
اما سليم فانه غضب وصاح ببطرس قلت لك ناولني ماء لاشرب · فاجاب بطرس ولماذا
لا تشرب انت · فقال لان كاس الماء بعيدة ولا استطيع الدنو من النبع وانا راكب · فقال
بطرس هذا امر سهل فانزل واشرب · فقال سليم انا لا امزح واسالك للمرة الاخيرة اتناولني
الماء ام لا · فقال بطرس وانا لا امزح لان مناولتك الماء لم تدخل في الاتفاق الذي ذكرته
فاذا شئت الشرب فانزل واشرب

وكان كليم في اثناء ذلك لا يزال يضحك · فرغبةً في انهاء هذه المسالة قال لبطرس ·
طيب هذا الامر لم يدخل في الاتفاق كما ذكرت · فناولنا الماء ونحن في مقابلة ذلك نسقيك
« خمسينية » من عرق بشري

فضحك بطرس حينئذ وقال الآن تم الاتفاق · ثم دنا وناولهما الماء

وبعد الشرب قال كليم لرفيقه وهما سائران ارايت نتيجة الحرية والاستقلال والمساواة
والاخاء اذا بُذرت بذورها قبل اوانها بين طبقات لم تستعد لها

فاجاب سليم ولكن مع غضبي من صنعه افضّل هذه الحرية التي هي في غير محلها على
العبودية والذل والموت المعنوي · ولولا انني كنتُ شديد الظماء وغلبني غضبي لما لمته بل كنت
اقول له : برافو يا خواجه بطرس فان امثولتنا اثمرت فيك في ساعة واحدة

فقال كليم ولكن هنا مذهبان واحد معك وواحد عليك

فقال كليم ولكن مذهبي هو المذهب الصحيح الابدي الذي انتصر مع الثورة الفرنسوية ·
هو مذهب الحياة والنور والحرية للطبقات الضعيفة التي تئنُّ تحت نير الطبقات القوية

الفصل التاسع

ارز لبنان

وصف الارز · اشجاره · جماله · عناية الحكومة به · زيارة العظماء والامراء له من اوربا
واميركا واهمال جيرانه له · هل هو الحرش الذي قطع منهُ الملك سليمان
خشبًا لبناء هيكلهِ في القدس

ثم جدَّ الرفاق الثلاثة في السير فبلغوا بشري فابتاع منها بطرس « خمسينية عرق » على
حساب رفيقيه حسب الوعد ثم تسلقوا منها العقبة المؤدية الى جبل الارز العظيم

ولما قطعوا تلك العقبات الطويلة التي يلي بعضها بعضاً وصعدوا الى مساواة الحرش بان لهم الارز من بعيد · فاشرق وجه سليم وكليم ابتهاجاً وسروراً وصارا ينظران الى الارض التي تطأُها حوافر بغليهما نظرهما الى اشياء مقدَّسة

وكان وصول سليم وكليم الى الارز عند غروب الشمس · وكانت الطيور تتوافد من جميع جهات تلك الجهات الجرداء الى اشجار الارز لتبيت فيها · وكانت الغربان اشدها ظهوراً · فكان يُسمع صوتها الناعب من حين الى حين كانه صوت الزمان ينعي الاجيال والقرون الماضية

والارز عبارة عن حرش متسع عظيم قائم على آكام متعددة تحيط به نصف دائرة من الجبال الشامخة واشجاره شديدة الاشتباك حتى ان الشمس تكاد لا تعرف ارضه · وفي هذه الاشجار ما هو صغير وفيها ما هو ضخم كبير سامق الى السماء ويكاد عشرة رجال لا يحيطون بجذعه اذا مدوا اذرعهم حوله · وهم يقولون ان هذه الاشجار الضخمة الهائلة ترتقي الى زمن الملك سليمان الذي بنى منها هيكله المشهور في اورشليم وزمن افسس التي بنيت من خشبها بعض اماكنها اليونانية القديمة · ولكن هذا زعم لا يؤيده دليل بل ان علم النبات ينقضه · الاَّ انه من المحتمل ان اولئك المتقدمين قطعوا اخشاباً من هذا الحرش وقامت الاشجار الحاضرة على آثار الاشجار المقطوعة او اشجار تلتها

اما صفة الارز فهي كما تراه في الرسم · فانه عبارة عن جذع شامخ يتوارى عنك رأسه في الفضاء لعلوه · ومن هذا الجزع تتفرع اغصان بخط افقي كما ترى في الرسم · ويبلغ طول هذه الاغصان احياناً عدة امتار · وهي تحمل اكوازاً خضراء حرشوفية كرؤوس الصنوبر بعضها ذكور وبعضها اناث ثم تنقلب عند البلوغ فتصير حمراء · ولها رائحة طيبة ترتاح اليها النفس فتعطر بطيبها وبنشر اشجارها هواء الارز النقي · ويكون في عقبها بزرتان لحفظ نوعها متى بلغت وسقطت على الارض · والارز عدة فصائل وانواع وهو ينمو في جبال سوريا وجبل حملايا في الهند وجبل الاطلس في افريقيه وجبل طورس في آسيا وفي غيرها من الجبال · ولكن أرز لبنان اشهرها كلها

والمقرر ان القطع في الحرش ممنوع اليوم قطعياً بامر من حكومة الجبل حتى ان الزائر لا يستطيع ان يقصف غصناً ليأْخذه تذكاراً من الارز الاَّ في السرّ او بمبلغ يدفعه الى الحارس · ولقد احسنت الحكومة في هذا المنع حفظاً لهذا الاثر الجليل · ومما يُذكر لها بالشكر ايضاً انها سوَّرت الحرش كله بسورٍ من الحجارة والطين لمنع الدواب من الدخول اليه ·

ولكنها مع ذلك تدخله · وهذا السور صار اليوم متهدماً وهو لانخفاضه يتسلقه الولد بسهولة لانه لا يعلو عن متر واحد

ومن الاسف ان الحكومة لا تزرع في هذا الحرش الكبير ارزاً جديداً ليقوم مقام الارز القديم متى شاخ وانقرض في القرون القادمة · والاشجار التي تنبت من تلقاء نفسها في الحرش قليلة جداً · ولكن في جهات اخرى فوق الحدث في وادٍ الى الجنوب وفي اماكن اخرى في اعالي لبنان احراشاً واسعة مؤلفة من ارز صغير آخذ في النمو · فلا ريب انه سيقوم مقام الارز الكبير في القرون القادمة · وربما وقف سائح بعد ٥٠٠ او ٨٠٠ سنة في الحرش الذي وراء الحدث في الوادي وصار يتساءل ويستنطق التوراة وكتب التاريخ ليعلم هل قطع سليمان الخشب لهيكله من ذلك الحرش ام من سواه

وسواء قطع سليمان الخشب من الحرش الكبير او من سواه فان السياح الافرنج من امراء وعظماء وعلماء يتقاطرون على هذا الحرش ويزورونه باحترام عظيم · والغريب انهم يفدون لهذا الغرض من اقصى الاقطار مع ان جيران الارز في الشام ومصر لا يعرفونه · ورجال الدين منهم يصلّون هناك بخشوع زائد ويعتبرون اجر الصلاة فيه مضاعفاً · وجميعهم ينقشون اسماءهم او بعض حروفها على جذوع اشجاره فغطوا بها كثيراً منها حتى صدر الامر بمنع ذلك حفظاً للاشجار · والزائر يشاهد احداها مكشوطة القشرة بفأس او سكين على قدر شبر او اكثر وفيها اسم منقوش · فلا نعلم كيف ان ذلك القاسي البارد ناقش هذ الاسم طاوعته يده على طعن تلك الارزة المقدسة الجميلة هذه الطعنة في صدرها

الفصل العاشر

﷽ ليلة باردة تحت اشجاره ﷽

(بلا فراش ولا غطاء)

فدخل سليم وكليم الى دائرة الارز مشياً على الاقدام وتبعهما بطرس مع بغليه فربطهما وراء غرفة صغيرة مبنية على انفراد بازاء الكنيسة القديمة القائمة في شمالي الارز

وقد افتقد سليم وكليم اصحابهما الذين بعثوا في طلبهما فلم يجدا لهم اثراً فاستغربا ذلك · وكان في الغرفة التي اشرنا اليها عائلة مؤلفة من امرأتين وبضعة اولاد ولم يكن في الارز

غيرهم . فساءلاها فاجابتها ان قوماً كانوا نازلين في الارز قوضوا خيامهم في ذلك الصباح وساروا في جهة الجنوب ليقيموا هناك يوماً او يومين

فاستاء الرفيقان من ذلك لانهما لم يحضرا غطاء ولا فراشاً . ولكنهما تذكرا الكنيسة لان المسافرين ينامون فيها . فقيل لهما ان امين مفاتيحها غائب ولا يعود الاَّ في اليوم التالي

وكان قد أمسى المساء وهبط الظلام وبرد الهواء برداً قارصاً . فصار كليم وسليم يضحكان من نفسهما لانهما سيضطران الى النوم على اديم الارض تحت السماء (١) ولكن جوعهما ذكّرهما بالطعام قبل الرقاد . فاختارا ارزة عظيمة قائمة بجانب الغرفة المذكورة الى الشمال فبسطا تحت جذعها بساطاً كان معهما وتناولا طعامهما من الخرج وجلسا . فجاس بطرس بجانبهما يأكل معهما . وكانت السيدتان صاحبتي ذوق فاحضرت احداها قشاً وحطباً واشعلته بجانب سليم وكليم لطرد البرد والظلام . اما بطرس ففي اثناء ذلك كان يقول للسيدتين وفمه ممتلئ بالطعام « عافاكم عافاكم » كأنَّ السيدة صنعت ذلك اكراماً له

ولما حان وقت الرقاد بسط الرفيقان بساطهما بجانب جذع الارزة ليتقيا به الريح الباردة التي كانت تهب من المشرق واردة عن قمم رأس القضيب وفم الميزاب . ووضع كل واحد منهما احد كيسي الخرج تحت رأسه وادار ظهره لرفيقه وتغطيا بغطاء خفيف احضراه معهما اتفاقاً . ويظهر ان غربان الارز كانت تنظر اليهما حينئذ من اعلى الاشجار لان اثنين منهما اخذا ينعقان . فخيل للرفيقين ان صوتهما عبارة عن قهقهة وضحك من نومهما على هذا الفراش

ولما درت السيدتان ان الرفيقين سينامان تلك « النومة المكربة » خرجتا اليهما ودعتاهما الى النوم في الغرفة خوفاً عليهما من البرد . فامتنع سليم وكليم من ذلك تأدباً اذ لم يكن مع السيدتين رجال . ولكن صاحبنا بطرس دبَّ حينئذ في جسمه برد شديد . وصار لا يطيق النوم في الخلاء . فقال انا اقبل دعوتكما بشكر . ثم حمل غطاءه واتجه نحو الغرفة . فصاح به سليم وكليم يا بطرس كيف تترك بغليك خارجاً الا تخاف عليهما من ذئب او ضبع . فاجاب لا فانكما انتما على مقربة منهما

فقال سليم حينئذ : كثر الله خيرك . اما كليم فانه كان يقهقه ويقول لرفيقه « ضبّط اذا كنت تقدر على مبادىء الديموقراطية التي تدعو اليها »

وهكذا نام بطرس في الغرفة مع السيدتين وبقي سليم وكليم في البرد والظلام يحرسان نفسيهما والبغلين

« ١ » اما اليوم ففي الارز فندق للمبيت والطعام انشئ منذ بضع سنوات

وفي الحقيقة ان الرفيقين لم يناما تلك الليلة نوماً هنيئاً · فكانا كالاسد ينامان بعين ويسهران بعين خوفاً من الطوارىء · وكان ذلك السكون التام في هدوء الليل وسط جبال شاهقة واحراش متسعة وجهات مقفرة مما يجعل نفس اقوى الاقوياء في حذر دائم سواء كان ذلك من اللصوص او الوحوش

ويظهر ان خوف سليم وكليم كان في محله فانه لم تدخل الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى انتبه سليم على صوت قرقعة فرفع رأسه قليلاً فلم يرَ شيئاً ولكنه سمع صوتاً كصوت كلب يقضم عظمة · ثم تلا ذلك صوت البغلين يرفسان ويجفلان وقد قطعا قيادهما واخذا يهيمان بين اشجار الارز · فحينئذ انتبه بطرس وخرج من الغرفة وصاح „ ذئب ذئب " فهبَّ الرفيقان مذعورين اذ لم يكن في يدهما سلاح حتى ولا سكين تجرح · ولكن من حسن الحظ كان لدى السيدتين بندقيتان لرجلهما الذي كان قد سافر الى بشري في ذلك اليوم · فتسلح سليم وكليم بالبندقيتين · وبذلك عادت اليهما قوة الابطال

ولما لم يُرَ للذئب اثر قضى الجماعة بقية الليل في السهر خوفاً من غدره · فلم يلبث الصباح ان ذر قرنه وهبَّت نسماته ابرد من الثلج · وانتبهت الطيور في اعالي الاشجار تستقبل الفجر باصواتها المختلفة · فقال سليم لرفيقه لا اعلم كيف تطلع علينا شمس الغد فاننا تعبنا وسهرنا ونمنا في البرد · ولكن لما اصبح الصباح وتعارفت الوجوه هبَّ سليم وكليم يمشيان بقوة ونشاط فوق العادة · فاستغربا ذلك · وعجبا من جودة ذلك الهواء النقي الخارج من يد الله كما صنعه الله يجدد القوى و يملأ النفس نشاطاً وارتياحاً

وبعد ان غسل الرفيقان وجهيهما بماء يُستقى من نبع قريب من الارز قال سليم : ان هذا الذئب قد اخافنا في الليل وانا من المغرمين بالصيد · فهلم بنا ناخذ البندقيتين وشيئاً من الرصاص ونصعد الى الجبال التي فوقنا فاننا نصطاد فيها ونتفرج بمشاهدتها ونروض اجسامنا باجتيازها ونتغذى من لبان المواشي التي ترعى بها · واذا وجدنا الذئب في طريقنا فالويل له

فطاوعه كليم على ذلك فاخذا البندقيتين وسارا وقد تركا بطرس في الارز في احسن رفقة على ان يعودا في المساء · وكان اتجاههما الى جهة الشرق نحو راس القضيب وراء الارز وهو جبل مشرف عليه وعلوه نحو ٩ آلاف متر عن سطح البحر · وهو مقابل „ لفم الميزاب " الذي يعلوه الف قدم

الفصل الحادي عشر

الوحش الوحش الوحش

ملك راس القضيب وفم الميزاب

وقطع الرفيقان المسافة بين الارز وسفح الجبل يصطادان ما يجدانه فاصابا غرابين وثعلباً. وبينما كانا واقفين على احد الرعاة يحلب لهما لبناً واذا بالراعي صفر صفيراً شديداً. فهبت كلابه كالبرق الخاطف . ثم اشار الراعي الى سفح الجبل وقال انظرتم ذلك الذئب

فابصر الرفيقان حينئذ شبحاً بعيداً هيئته كهيئة الكلب يثب من صخرة الى صخرة في سفح الجبل

فشرب سليم وكليم لبن الشاة على عجل ثم اتجها نحو الذئب

وكانت الشمس قد ظهرت حينئذ من وراء تلك الجبال العالية فصار الجبل يدخن من تأثير حرارتها. فضحك كليم وقال اصعد فهذا طور سيناء يعممه الضباب . فقال سليم لا تشغلنا بالمزاح الآن والا فاتنا الذئب. ويظهر ان الذئب قد رآهما لانه اخذ يعدو عدواً سريعاً موغلاً في الجبل. فجد سليم وكليم في طلبه وهو تارة يظهر وطوراً يغيب . واستمرا على ذلك نحو نصف ساعة حتى كلّت قواهما . وكان الذئب يتلفت ثم يجدّ في العدو فيخيل لهما حين لفتته انه يضحك منهما ويقول لهما (أراه غباري ثم قال له الحق)

ولكن هذا الطراد لم يستمرّ وقتاً طويلاً . فان الضباب كان قد تكاثف على الجبال المجاورة وصارت الريح تسفيه نحو سليم وكليم. فلم يمض ربع ساعة حتى اقبل عليهما مسرعاً. فقال سليم هذه مصيبة ما كانت في الحسبان . وفي الحقيقة انه مصاب ذو شأن . فان الضباب غطى الجبل واحاط بهما من كل جانب فلم يعودا يعرفان الطريق (١) وكانا قد قطعا ثلثي الجبل والذئب امامهما ولا تخلو تلك الاماكن المقفرة من غيره من الوحوش. فصارا يسيران رجوعاً على غير هدىً راضيين من الغنيمة بالاياب سالمين من مفاجئة الوحوش والذئاب لانهما كانا لا ينظران شيئاً ابعد من عشرين قدماً . فاشبها في هذه الحالة رجلين مكتوفين

«١» يسمون هناك هذا الضباب غطيطه لانه يغطي الارض . والطرابلسيون يرونه من مدينتهم يعمم جبال لبنان كالغيوم

ملقيين لسباع البرّ لان سلاحهما وايديهما التي كانا يعتمدان عليها لم تعد تجديهما نفعاً . وبذلك صارا ضعيفين كطفلين

وكانا من حين الى حين يطلقان بندقيتهما في الفضاء ارهاباً وابعاداً للوحوش عنهما وبينما هما سائران كعميان يتلمسون الطريق وقد تكاثف الضباب فيها حتى لم يعد يرى احدهما موضع قدمه واذ هوت اقدامهما في واد صغير فسقطا وانطلقت البندقيتان في سقوطهما ولولا رحمة الله لقتلتهما . ولكنهما لم يكادا ينهضان مترضضين حتى سمعا طلقاً نارياً قريباً منهما في بطن الوادي وصائح يصيح بصوت اجش — « الوحش الوحش الوحش »

فانقطعت حينئذ انفاسهما وجمدا في مكانهما يتوقعان امراً جديداً

فلم يلبث ان لاحت لهما من خلال الضباب المتكاثف على قيد ذراعين منهما صورة هائلة فان وحشاً هائل الجثة منتصباً على قدميه مغطى جسمه بالشعر وله وجه كوجوه البشر حوله شعر كثيف طويل ولحية مخيفة كان واقفاً امامهما وقفة الاسد ينتظر فريسته

فكاد دمهما حينئذ يجمد في عروقهما خوفاً وجزعاً . ومدّ سليم يده الى بندقيته ولكنه ذكر انها كانت فارغة

اما ذلك الشخص الهائل فكأنه فهم فكر سليم فرفع بندقيته في الفضاء كتهديد وانذار وصاح بصوته الاجش « الوحش الوحش الوحش »

فعجب حينئذ سليم وكليم من ان ذلك المخلوق الغريب قادر على النطق كالبشر . فرأيا حينئذ وجوب المجاملة فاخفيا جزعهما وابتسما وقال كليم (العوافي يا عمّ)

فاجاب ذلك المخلوق الهائل (الله يعافيك ماذا تصنعون هنا)

فثاب الرشد حينئذ الى سليم وكليم وتحركت نفسهما للدخول في الحديث معه فاجابا نحن نتصيد وقد فاجأنا الضباب وادركنا الجوع فهل معك طعام

فقال الرجل عندي طعام . ولكن لماذا دخلتم الى هنا من غير اذن مني

فقال سليم كنا قادمين لاستئذانك فالحمد لله اننا لقيناك هنا

فقال الرجل . فاياكم مرة اخرى ان تدخلوا هذا المكان من غير اذني

فاجاب سليم وكليم . امرك يا عم

وفي هذا الحين هبت ريح شديدة من جهة الشرق فكنست الضباب عن الجبل ودفعته الى جهة الارز فانجلى المكان للانظار فوجد سليم وكليم نفسيهما في وادٍ صغير واسع الاديم وعليه في جانبه العالي كوخ صغير مستور عن الانظار لانه على مساواة الجبل .

فمشي الرجل الهائل نحو الكوخ قائلاً : تعالوا لاطعمكم .

فخيل لسليم انه قال : تعالوا لآ كلكم لانه خاف عاقبة السير معه الى حيث يقصد . وذكر في تلك اللحظة حكايات الغول والجن التي سمعها في صغره من العجائز والشيوخ وكيف انها تاكل الناس فقال لرفيقه مازحاً في ابان الخطر اظهاراً للقوة : ما جئنا نسمن اجسامنا في الارز لكي نجعلها طعاماً لوحش كهذا الوحش

وكان الرجل الهائل قد بلغ كوخه في طرف الوادي ودخله ثم خرج ومعه بيضتان وكسرتا خبز فوضعهما على حجرين بازاء الكوخ واوماء الى الرفيقين قائلاً : تعالوا كلوا

وكان سليم وكليم لا يزالان جامدين في مكانهما يتشاغلان باصلاح ملابسهما . فلم يريا مناصاً من اجابة الرجل الى دعوته . فتقدما نحو الحجرين بجانب الكوخ وجلسا . اما الرجل فانه جلس بازائهما بعيداً عنهما نحو ثلاثة امتار

فحدق به الرفيقان هذه المرة جيداً فذهب عنهما حينئذ شيء من الجزع والخوف . فان ذلك الرجل كان انساناً لا يختلف عن باقي البشر الا بكونه يلبس رداء مصنوعاً من جلود الغنم الى ركبتيه وليس على جسمه لباس غيره . وكان وجهه محاطاً بشعر كثيف طويل شاب اكثره ولكن في عينيه وملامحه دلائل الهدوء والتأمل والانكسار وما هذه بعلامات الوحوش او قطاع السبيل . فسكن حينئذ بال الرفيقين وقال سليم لكليم هلم ندخل معه في الحديث فانني ارى لهذا الرجل شاناً يُذكر

فالتفت اليه كليم وقال : هل مضى عليك وقت طويل في هذا المكان يا عمّ

وكان الرجل حينئذ مطرقاً الى الارض يتأمل ويفتكر بما قام في نفسه لدى مشاهدته هؤلاء البشر القادمين من المدن . فرفع رأسه لسؤال كليم وادار فيه عينين متحمستين واجاب . اقيم هنا من حينما جئت الى هنا . فقال سليم ومتى جئت الى هنا . فتنهد الرجل واجاب . من حين تكوين العالم

فنظر سليم الى رفيقه بدهشة . فقال الرجل : مالك لا تصدقني قلتُ لك انني هنا من حين تكوين العالم . فاذا كنتَ نبيهاً فافهم والا فاسكت وارحني

فقال كليم : عفواً يا عم واسمح لي ان اكلمك بحرية . اننا لما نظرناك اول مرة دهشنا لاقامتك منفرداً في هذا المكان . اما الآن فيظهر لنا من كلامك انك في شأن عظيم فهل تكرم علينا وتفيدنا شيئاً

فلما سمع الشيخ هذا الكلام اللين اطرق الى الارض بانكسار وصار يفكر . ثم رفع رأسه

وقال : انني مسرور من لطفك ولين كلامك · وهذه اول مرة في حياتي ارى فيها رجلاً عاقلاً · ولكن اعذرني فان سري هائل

فازداد سليم وكليم رغبة في الوقوف على خبر هذا الرجل الغريب فقال سليم : نحن اولادك ياعم فلا تحذر منا

فلما سمع الشيخ كلمة « اولادك » اجفل ونهض كأنَّ افعى لسعته · وبدا الغضب في وجهه فقال : لا لا ليس لي اولاد ولا اريد ان يكون لي اولاد

فقال كليم لرفيقه : لقد هدمتَ ما بنيناه · ثم التفت الى الشيخ وقال : الحق اقوله لك ياعم انني لا استطيع كتمان ما في نفسي · فلا تغضب علينا ودعنا نستفيد منك · انني ارى في امرك شيئاً مدهشاً ويخيل لي انني اقرأه في عينيك · فاستحلفك باسم الله ان لا تحرمنا من الفائدة

فلما فاه كليم بكلمة « الله » احنى الشيخ عنقه وجثا على الارض وعفر خده بالتراب وهو مطبق العينين

فقال كليم لرفيقه همساً : لقد قبضنا على شيء · ثم قال للشيخ · فالله سبحانه وتعالى قد هيأ لنا اليوم فرصة لقياك · ولا ريب ان ذلك بتدبير منه وعناية خصوصية · فهل لك ان تطلعنا على سبب اقامتك هنا انفاذاً لارادة الله

فرفع الشيخ راسه واستوى جالساً · ثم قال · نعم ربما كان لله ارادة بهذا الامر · ولا اخفي عنكم انني في الليالي الاخيرة سمعت مراراً صائحاً يصيح · لقد انتهى لقد انتهى

« اجل يا اخوان لقد انتهى ملك الشر والظلم والكذب والرياء والاعتداء في العالم الفاسد · ان الفأس قد وضعت على اصل الشجرة فكل شجرة لا تثمر ثمراً صالحاً تُقطع وتلقى في النار

« انظروا هذه المملكة الواسعة التي امامنا · هذه هي العالم الحقيقي · ولذلك قلت لكم انني ههنا منذ تكوين العالم · فانا الآن هنا اكوّن العالم الحقيقي الذي يسود فيه الخير والصلاح · وقد مرت عليَّ سنوات عديدة اهذبه واؤدبه · فتم لي ذلك بمعونة الله تعالى · واذا فتشتم هذه الاقطار كلها لا تجدون فيها بين سكانها اثراً لفظائع العالم وشروره الهائلة

فقال سليم همساً · نعم لا نجد فيه شيئاً حتى ولا سكان · فاجاب كليم همساً ايضاً · يظهر ان صاحبنا مجنون

ثم التفت كليم الى الشيخ وقال · انني اعجب ياعم كيف استطعت تهذيب هذه المملكة مع ان الملوك عجزوا حتى الآن عن تهذيب ممالكهم

فصاح الشيخ حينئذ بغضب · ويل للملوك ولترتجف عروشهم من غضب الله · ولو كان اصغر الملوك يصنع بمملكته ما صنعته بمملكتي لما بقي فيها شرٌّ · فانني سألت نفسي حين سلمت

هذه المملكة ما هو اصل الشر؟ فرايت ان اصله الوحش الذي في الانسان . فانكم تعلمون ان في الانسان شيئين . الوحش والانسان . فالوحش يطلب كل شيءٍ لنفسه ولو مات غيره والانسان يشفق على نفسه وعلى غيره ايضاً . فقلتُ ان رأس واجباتي كملك لهذه الديار قتل الوحش لاستئصال الشر . فاقتنيت هذه البندقية وقد اشتريتها بجلود عشرين ذئباً واسدين وخمسين ثعلباً وعشر ضباع . وكنتُ اجلس على هذه الرابية وكلما رايت احداً يعتدي على غيره — اي كلما رأيت الوحش يطمع في ما هو لغيره — قتلته برصاصة واحدة . ففي بدء الامر قتلت مئات ثم عشرات اما الآن فقد تناقص الشر وقلما اقتل في الشهر واحداً

فارتعدت حينئذ فرائص سليم وكليم لهذا الكلام وتحققا جنون ذلك الشيخ التعيس . وصار همهما اظهار التقوى والصلاح والقداسة لئلا يلحقهما بن فتك بهم جنونه من قبل . اما الشيخ فكان في هذا الحين يسرّح نظره في مملكته الواسعة . واذا به قد صرخ بغتة بصوت كصوت الوحوش «الوحش الوحش الوحش» وقام يعدو وبندقيته في يده . فالتفت كليم وسليم وهما مدهوشان الى الجهة التي سار فيها فنظرا على اكمة قريبة ذئبين يتقاتلان . فلما خرج الشيخ من واديه اطلق على الذئبين طلقين فصرعهما بالحال . ثم اسرع اليهما فاجهز عليهما وجرّهما الى كوخه وطرحهما امام سليم وكليم وهو يضحك لفوزه ويقول . كلاهما معتدٍ فارحنا المملكة منهما

فتنفس سليم وكليم حينئذ الصعداء لانهما علما انه انما كان يقصد بكلامه الحيوانات لا البشر . وقال كليم حينئذ للشيخ الذي كان يحشو بندقيته . «لقد ادهشتنا يا عم بقوتك ونشاطك وصلاحك . فلماذا لا تذهب معنا الى المدن لمحاربة الشر هناك وتكوين العالم الحقيقي فيها . ان مدننا الفظيعة القبيحة محتاجة الى هذا الاصلاح . فلماذا تحرمها من مساعدتك

فعبس الشيخ حينئذ وقال وشرر الغضب تتطاير من عينيه «المدن ويل للمدن . وويل لي اذا دخلت المدن . فانني لا اقدر على جميع الوحوش التي فيها اذ ليس لي غير يدين ولا اقدر ان امسك بهما اكثر من بندقية واحدة . وبندقية واحدة لا تكفي لاخضاع الوحوش الذين فيها . اه من المدن ومن العذاب الذي ذقته في المدن . لا تصدقوا انني ولدت هنا بل انني ولدت في المدن وعشت في المدن . ولكن الوحوش فيها اكلتني وطحنتني ففررت منها . كلا يا اخوان ان صحبة الذئاب والضباع والنمورة في البر افضل من صحبة الانسان في المدن . ولكن لا بأس ستاتي نوبة المدن . وحينئذ ادخل اليها باذن الله دخول المنتقم لله من وحوشها الضارية»

فقال سليم ومتى يكون ذلك يا عماه فقال الشيخ : اما سمعت ما قلته من ان الأمر قد انتهى . فمنذ هذا الحين وقف كليم وسليم على حقيقة حالة ذلك التعيس . فعلما انه رجل اضاع صوابه لظلم اصابه فبرح بلدته واقام في تلك الجهات المقفرة وهو يعتقد ان الله ولاه عليها لمحو الظلم والشر ثم يملكه المدن لاستئصالها منها ايضاً . وقد افتقد سليم وكليم كوخه ومعيشته فوجدا انه يعيش في اشد الحالات ورب يوم لا يتناول فيه غير كسرة خبز اسود يصنعه من دقيق يعجنه ويشويه على النار او قطعة من لحم الوحوش (المعتدية) التي يصطادها . وكان يمر عليه في زمن الثلج والشتاء عدة ايام مخبوءاً في كوخه الحقير لا يخرج منه لتراكم الثلج عليه في ذلك الجبل . وكان قد تعود احتمال البرد كالحيوانات . فاذا ذاب الثلج قليلا زحف من كوخه وخرج على الثلوج يسير عليها زلقاً لا مشياً . كانه سائح فوق ثلوج القطبين

فاشفق كليم وسليم اشد اشفاق على ذلك الرجل الذي يعيش في شيخوخته هذه المعيشة القاسية . فصارا يفكران في سبيل لنفعه . وقبل توديعه عرضا عليه نقوداً وسألاه ماذا يتمنى . فردّ النقود بعظمة ضاحكاً وقال : ماذا اصنع هنا بالمال . اما حاجتي فهي ان لا تطلقا النار في مملكتي على احد الاّ اذا كان ظالماً معتدياً والا اضطررت الى تاديبكما . فاخبره حينئذ سليم وهو يضحك في نفسه انهما لم يطاردا الذئب الاّ لانه هجم عليهما تلك الليلة في الارز . قال له الشيخ انني اعرف هذا الوحش وهو يسمى (ابا اليد الحمراء) فساؤدبه قريباً

الفصل الثاني عشر

✵ الجميع في الارز ✵

الحقيقة في افواه المجانين . توافد اهل الجبة الوفا علي الارز . عود الى مجنون ليلى ورأيه في الاخاء البشري . امين . رأي روسو في التربية

ونزل سليم وكليم من رأس القضيب بعد ان وعدا ذلك الشيخ التعيس بان يعودا اليه لزيارته ما داما مقيمين في الارز

وفيما هما منحدران اخذا يتحدثان في امر هذا الرجل . فقال سليم لم تبقَ لدينا شبهة في انه مجنون ولكن هل رأيت كيف ان جنونه منصرف الى اهم مسألة . فقال : اي مسألة تعني فقال . مسألة رفع الظلم والاعتداء والضغط عن الناس . فهو يسمي « الوحش » كل عاطفة

رديئة تحمل الحيّ على اضرار حيّ آخر والاعتداء عليه طمعاً في الفائدة لنفسه . فيا للحكمة والفلسفة في افواه المجانين وعندي ان هذا الرجل لم يدرك هذه الحقيقة الاّ بالاختبار والمصائب . فيظهر انه كان تعيساً جداً في حياته في وطنه كما قال حتى انصرف جنونه الى هذه الجهة فقال كليم سننبش ذلك في زيارتنا الثانية .

وما قرب الرفيقان من حرش الارز حتى سمعا ضجة عظيمه وابصرا الناس جماهير جماهير حول الحرش وداخله . وكانوا بين فتيان وفتيات ورجال ونساء . وهم يبلغون نحو الف شخص فعجب الرفيقان من ذلك ولما وصلا الى الحرش دخلا بين الناس واستخبرا الخبر فعلما حينئذ ما يلي

لما وصل الخواجه كلدن وزوجته الى الحدث لم يعجب المكان السيدة اميليا لانها كانت مضطربة النفس من سياحتها لا يعجبها شيء . فتضجرت وقالت : ان جبال كاليفورنيا اجمل من هذه الجبال . فامر زوجها رجاله بالمبيت في الحدث تلك الليلة للراحة فقط و بالسفر الى الارز في مساء اليوم التالي لانه كان على ثقة من رضى اميليا عن الارز اكثر من الحدث . وفي المساء بلغ اميليا رغبة بعض الاهالي في ان يصنع زوجها (نهاره) عندهم فضحكت وابلغت زوجها هذا الخبر . وكان كلدن يعلم ان ذلك يسرّ زوجته جداً لميلها بالطبع الى الشرقيين ابناء وطنها . فامر وكيله ان يعدّ له ريالات عثمانية بقيمة الف جنيه وقال لابي مرعب وقومه (يس يس سنامل يووم كلدن في الحرز) يعني (سنعمل يوم كلدن في الارز)

فمنذ هذا الحين طار هذا الخبر بسرعة البرق الخاطف بين السكان والقرى في الجبة كلها . فضحك له الخاصة وسرّ به العامة . واذ عُلم ان ذلك الغني الاميركي مسافر في اليوم التالي الى الارز اخذ القرويون ينسلون الى الارز من كل حدب وصوب ليستقبلوه استقبالاً عظيماً وينتظروا يومه . وكان اكثر القادمين من الطبقات المحتاجة . ومع ذلك فقد كان اكثرهم يُظهرون انهم قادمون لاكرام غني كريم كهذا الغني ومشاهدته لا لنواله . فيا لعزة نفس الشرقي الذي يرى توزيع المال عليه من غير عمل يتعب فيه نقيصةً وعاراً

وبينما كان الرفيقان يجولان بين الجموع التي اجتمعت في الارز واذا برجل يناديهما من بعيد « يا خواجات يا خواجات » فالتفتا فابصرا رجلاً غريباً لا يعرفانه . ولكن هذا الرجل ضحك ودنا منهما . ولما اقترب صاح سليم وكليم معاً : مسيو مخلوف . فقال المجنون العاشق مبتسماً : نعم مسيو مخلوف . هل علمتم متى يحضر الاميركي

فلم يجب الرفيقان عن هذا السؤال لانهما كانا مشتغلين بالدهشة من حالة مخلوف الجديدة . فقد كان لابساً ثياباً نظيفة مرتبة وفي رجله حذاء ليس بقديم وعلى رأسه طربوش نظيف

وشعره ولحيته مقصوصان ومزينان وكانت هيئته وكلامه واشاراته كلها تدل على انه معتنٍ بنفسه اشد عناية . ففطن سليم في الحال الى ان هذا الانقلاب الجديد فيه نتيجة الدرس الذي القاه عليه في عين السنديانة . فسرَّ بهذا الخير الذي قدر على صنعه مع هذا المسكين . ومن هذا الحين ازدادت عنايته به لاتمام عمله

واذ انفرد سليم بمخلوف سأَله اين بدلتَ ملابسك يا خواجه مخلوف . فنظر اليه المجنون بلطفٍ كلطف الاولاد واجاب بدَّلتها في حصرون . فقال وهل تعرف احداً فيها . فحدق مخلوف فيه واجاب : وهل نحن نحتاج لمعرفة الناس . اما نحن جميعاً اخوان . انني حيثما اكون ادخل اول بيتٍ اراه في وجهي واطلب من صاحبه او صاحبته ما اكون في حاجة اليه . فآكل واشرب والبس ثم انطلق على شرط انني لا احمل معي شيئاً حتى ولا كسرة خبز لان الله يرسل خبز الغد . فدهش سليم وساله : واذا منعوا عنك ما تطلب . فغضب المجنون واجاب : كيف يمنعون عني ذلك اما نحن اخوان . اليس لي مالهم ولهم مالي . الا يعلمون انهم اذا امنعوا عني شيئاً فالله يمنع عنهم اضعافه

فضحك سليم وقال له : اذا بقيتْ لك هذه الافكار الجميلة يا خواجه مخلوف فانك تبقى سعيداً وتنال امنيتك ...

وما اتى سليم على هذه العبارة حتى شوهدت الجموع في الارز تتحرك كلها مسرعة نحو الطريق فقال مخلوف لعل صاحبنا الاميركي قد اتى

وكان قد امسى المساء واشعة الشمس لم تعد تصل الى الارز لانها توارت وراء آكام بشري والديمان والحدث . الا ان عصابة منها كانت تزين رؤُوس الجبال فوق الارز دلالة على انها لم تغب بعد . وكان القادمون في هذه الساعة رجال المستر كلدن سبقوه لنصب الخيام فاجتمع عليهم الناس . وقد نصبوها في شرقي الارز تحت اشجاره على اكمة عالية تشرف عليه . اما المستر كلدن وزوجته وابنتاها ووكيل اشغاله فكان وصولهم بعد هبوط الظلام

و بعد وصولها بساعتين اذا بثلاثة بغال داخلة الى الارز . وعليها امين وابواه . فدهش سليم وكليم لذلك . وكان امين في اضطراب وانزعاج شديد . ثم علما من ابويه ان عدوه القديم الخواجه لوقا طمعون وصل الحدث للتصييف فيها ولذلك فرَّ امين منها . هذا فضلاً عن رغبته في حضور « يوم كلدن » في الارز

ولم ينتصف الليل حتى صار عدد المتوافدين على الارز نحو الفي شخص فلما رآهم سليم وكليم يتمددون على الارض للرّقاد بدون غطاء ولا فراش قال سليم لكليم . نحن حسبنا

انا صنعنا امس صنع الابطال بنومنا تحت هذه الاشجار على خرج تحت غطاء خفيف فانظر الى اصحابنا القرويين فانهم ينامون بلا خرج ولا غطاء كأنّ الامر عندهم في غاية البساطة

فاجاب كليم هذا مصداق لقول روسو يجب ان لا يربى الانسان كشجرة تعيش في هذا الاقليم ولا تعيش في ذاك بل يجب ان يُجعل قادراً على المعيشة في كل الاقاليم فحيثما القيته جاء واقفاً على قدميه نشيطاً قوياً قادراً على احتمال كل تقلبات الحياة

الفصل الثالث عشر

﷼ كيف يكون غضب النساء ﷼

تاجر في بيروت يطلب وكالة الاشغال في الشرق · حلمُ اميليا · غضبها · قصتها

وفي الصباح انتبه المستر كلدن مع غربان الارز لانه كجميع الرجال النشيطين اعتاد التبكير · ولما نهض استدعى كاتم اسراره المستر كرنيجي وساله هل انتبهت لادي كلدن · فاجاب كلا · فقال كلدن خذ كرسياً يا مستر كرنيجي واجلس · هل ورد البريد الاخير · فاجاب كاتم الاسرار نعم يا سر قد اخذناه في الحدث وهذه بضع رسائل تقتضي الجواب · فتناولها المستر كلدن بنشاط واجال نظره فيها

وبعد حين سأله من هو كاتب هذا الكتاب · فاجاب كرنيجي هو تاجر مشهور في بيروت وهو يقول في ختامه انه قادم لمقابلتكم للترحيب بكم والاتفاق معكم على الشروط · فقال كلدن وما رأيك في طلبه · فقال كرنيجي بما انكم عزمتم على احتكار الشرانق والحرير في العالم فمن الصواب ان تجعلوا لكم وكيلاً وطنياً في سوريا ولبنان لابتياع الموسم · فقال كلدن وهل هذا الرجل مشهود بامانته واستقامته · فضحك كرنيجي وقال لقد ارسل مع كتابه شهادات من اعظم الرؤساء الدينيين والمدنيين حتى من بعض قناصلنا · وهذه هي الشهادات

ثم ان كاتم الاسرار القاها على مائدة في وسط الخيمة

وكانت هذه الخيمة منصوبة بجانب خيمة لادي كلدن وابنتيها · فيظهر ان حديث الرجلين نبّه اللادي من نومها · فانها في ذلك الحين ازاحت باب الخيمة وظهرت بثوب النوم باسمة موردة الخدين كانها وردة رطبة برزت من وراء غصنها · فقام اليها المستر كلدن مسروراً لسرورها فقبلها قبلة شهية في الصباح وادخلها خيمته لان البرد كان قارصاً في الخارج

فخرج حينئذ كرنيجي من الخيمة · فسألها كلدن كيف ترين الارز · فاجابت هذه اول مرة سررت فيها بسياحتنا · ولولا هذا المكان الجليل الجميل لاسفت على انتقالنا من اميركا · فقال كلدن الحمد لله الحمد لله · وهل ذهبت الافكار السوداء · فعبست اميليا وقالت بحياتك لا تذكرني بها · آه لو تعلم الحلم الجميل الذي رايته في هذا الليل · فقال ماذا رأيتِ · فقالت وقد بدت الدموع في عينيها رأيته في السماء لابساً ملابس الملائكة وهو يبتسم لي ويقول · رضي الله عنكِ رضي الله عنكِ · لا تحزني فانني استرحت هنا بعد عذابي في الارض

وهنا استخرطت اميليا في البكاء فاكبت على المائدة التي كانت في وسط الخيمة وصارت تذرف الدموع · فلام المستر كلدن نفسه لانه فتح هذا الباب · ورغبة في صرفها عنه مال اليها ملاطفاً ومتوجعاً وهو يقول · بحياة عينيك يا حبيبتي لا تنغصي عيشنا في هذا اليوم الجميل ولا تهيجي عينيك بالبكاء فعليك مقابلة الناس · فرفعت رأسها وقالت اي ناس · فقال انك ستصنعين « يوم كلدن » بيدك · فتكون الهبة اكثر قيمة واشد تاثيراً · اذ شتان بين يدك البيضاء الجميلة ويدي الخشنة · وفضلاً عن ذلك فان تاجراً مشهوراً من ابناء وطنك سيزورنا اليوم · فقالت بدهشة اي تاجر · فقال هو تاجر من بيروت يطلب ان يكون وكيل اشغالنا التجارية في الشرق كله وهذا كتابه وشهاداته امامك على المائدة

فمدّت اميليا يدها الى الاوراق وادارتها لترى التوقيع الذي على الكتاب

وحينئذ صاحت صيحة من اعماق قلبها ووثبت مجفلة كان حية لسعتها

فاجفل المستر كلدن وعرته دهشة عظيمة فصاح ما بكِ ما بكِ

اما اميليا فكانت منتصبة بهياج شديد وراء المائدة ووجهها كوجوه الاموات لاصفراره فهال منظرها المستر كلدن وحسب انها جُنت · فصاح بحياتك اميليا قولي ما بكِ

فصاحت حينئذ اميليا بصوت كصوت لبوةٍ هوجمت اشبالها : من اوصل هذه الاوراق الى هنا

فقال كلدن : هل تعرفين صاحبها

فصاحت اميليا : يسألني هل اعرفه · ومن ذا الذي لا يعرف الذئاب والوحوش الضارية · ماذا يريد هذا الرجل منا · اما كفاه انه سم اول حياتي فجاء الآن يسمم آخرها

ففهم كلدن حينئذ ان في المسالة سرًا : فقال لها بلطف · عفواً يا اميليا · هدئي بالك واجلسي لنتحادث في هذا الشأن بهدوء · ولا يكون الا ما تحبين

فقالت اميليا · لا لا · لا اريد ان اتكلم عن هذا الرجل ولا ان اسمع اسمه ولا ان

ارى وجهه . حبيبي جورج اقتلني ولا تجعل له في حياتي ذكرًا بعد اليوم . لانه يسمم حياتي . انني ارى دهشتك الآن واعلم ماذا تقول في نفسك . انك تقول لم اعهد اميليا رديئة القلب الى هذا الحدّ . فانها من الذين يصفحون ويحلمون ويحبون اعداءهم ويباركون مبغضيهم فما بالها الآن عمدت الى الرداءة والخبث . لا لا ياحبيبي لست رديئة ولا خبيثة . وانما انا فتاة ذاقت من هذا الرجل ما لم تذقه الفرائس من الوحوش فانا اغتفر كل الذنوب والآثام واصفح عن كل الاساءات الا عن اساءة هذا الوحش . واذا كان الله يكتب عليّ هذه العاطفة الرديئة فانني افضل دخول جهنم على الصفح عن هذا الرجل

وكانت اميليا حينئذ في حالة لو رآها رافاييل لعض اصابعه تحسرًا على انه لم يظفر بمثلها في حياته ليصوّر بتصويرها اجمل سيدة في اجمل غضب . ولو سمعها الناصري لعلم مبلغ ظلامتها من مبلغ تأثرها وحينئذ يقول لها : ايتها المرأة مغفورة خطيئتك

اما كلدن فانه صار يضحك بعد وقوفه على حقيقة المسألة . فقال لها . انا لا اسيء الظن بك لانني اعرف قلبك . فاجلسي وقصي عليّ القصة من اولها . ثم ان غضبك في غير محله فان الغضب يكون عادةً سلاح الضعفاء المغلوبين لا الاقوياء . وهو الآن ضعيف بالنسبة الينا لانه جاء يرجو منا ان نجعله وكيل اشغالنا . فصاحت اميليا . كما كان وكيل اشغالنا . فقال كلدن اذاً فاضحكي يا عزيزتي ضحك القوي الواثق بقوته وبحقه . المنتصر على خصمه . بدل ان تغضبي غضب الخوف والاهتمام بما لا يستحق الاهتمام

فسكن حينئذ جاْش اميليا شيئًا فشيئًا وجلست تقصُّ عليه قصتها . فعلم كلدن ان الخواجا لوقا طمعون هو الرجل الذي كان سبب مصابها ومصاب اهلها . فانه كان اولاً من اصدقاء ابيها وكان يتزلف اليه ويتقرب منه طمعًا في الفائدة . وكان يتظاهر بانه يريد الاقتران بابنته . فاصطفاه ابوها واطلعه على اشغاله واسراره وصار يعوّل على نصائحه وآرائه ويمدّه بمساعدته نفعًا له وترويجًا لاعماله . فاغتنم لوقا هذه الفرصة وغدر بالرجل ليبني اشغاله على انقاض اشغاله ويحلّ محله في بلده ويجمع لنفسه راسمالاً من راسماله . فادت دسائس لوقا لابيها الى خسارة ابيها امواله كلها وخراب محله وسقوط منزلته . فماتت امها قهرًا من هذه الحالة . وهي نفسها عزمت يومًا على الانتحار تخلصًا من الفقر والضيق والجوع فالقت نفسها في البحر ولكنها أُخرجت قبل فراق الروح . فعدلت حينئذ عن الانتحار وعزمت على الفرار من بلدها ففرت وتركت اباها وحيدًا فريدًا . وهذا ما كان يطير صوابها . الا انها كانت تؤمل ان اباها يقدر ان يعيش براحة وحده في منزله . فخاب املها من سوء الحظ

ونكد الطالع لان اصحاب الديون بتحريض لوقا استولوا على المنزل وباعوه وطردوا الرجل منه . وكان قصد لوقا من ذلك محو كل اثر لهذه العائلة واثرها القديم لانها تذكره بحالته القديمة . ومنذ هذا الحين لم تعد الفتاة تسمع شيئاً عن ابيها . فكيف تستطيع الآن ان ترى وجه ذلك الرجل الذي كان سبباً في كل هذه الفظائع والمصائب

ولكن ما اتت اميليا على آخر الكلام حتى علت في الارز جلبة شديدة وكثر الصياح والصراخ فخرج المستر كلدن من خيمته ليعلم السبب فلقي سكرتيره المستر كرنيجي داخلاً فسأله ما الخبر . فاجابه قوم يتخاصمون ويتضاربون

الفصل الرابع عشر

مجنون ليلى وملك راس القضيب

احتماع جنونهما على واحد

وكان لتلك الجلبة والصياح سبب في غاية الاهمية . واليك بيانه

كان الخواجه لوقا طمعون المذكور آنفاً تاجراً صغيراً في صيداء يرتزق من معاملة كبار التجار . ولكن لم تمض عليه عدة سنوات حتى انتقل الى بيروت لان صيداء ساقية لا تحمل سفينة كبيرة . فوسع اشغاله في بيروت ما شاء التوسيع ولكن دولاب حظه كان واقفاً في تجارته مع ذكائه ومهارته . ولولا اعتماده على اهل له في بيروت لما قامت له قائمة ولا قدر على ان يعمل شيئاً . فلما سمع بمجيء المستر كلدن الغني الاميركي المشهور الذي يملك الملايين وعزمه على اقامة وكيل له في الشرق للاعتماد عليه في تجارته الاميركية صادراً و وارداً علم انه اذا نال هذه الوكالة كانت له غنيمة عظيمة . فلم يذخر وسعاً في ذلك ولا ترك واسطة الا استعملها . ولكن لما قدم كلدن الى بيروت لم يستطع لوقا مقابلته لان لادي كلدن ابت استقبال احد في بيروت كما تقدم وسافرت منها في الحال . فعلم الخواجه لوقا ان صاحبه مسافر الى الحدث فركب مركبة من بيروت قاصداً البترون ومنها امتطى فرساً الى الحدث . فلما وصل اليها قيل له ان الاميركي سافر الى الارز فتبعه على الاثر

وكان الخواجه لوقا كهلاً في نحو الاربعين من العمر وهو بدن ذو جسم قوي ولسان طلق . وكان جريئاً مع الضعفاء ولكنه ضعيف مع الاقوياء شأن اهل السياسة الجبناء . الا انه مع ضعفه مع الاقوياء كان قادراً على مقابلة رجل كالمستر كلدن واستمالته وارضائه

وكان وصوله الى الارز قبل بزوغ الشمس وكان كليم وسليم وامين جالسين عندئذ على اكمة صغيرة مشرفة على الطريق خارج الارز

فلما ظهر الخواجه لوقا في الطريق ارتجف امين وقال لكليم : لا حول ولا قوة الا بالله ان هذا الرجل الذي قطع حبل حياتي يتبعني اينما ذهبت

وكان مخلوف المجنون قادماً من الارز في هذه الساعة نحو الرفاق الثلاثة . فلما وصل اليهم كان الخواجه لوقا قد صار على مقربة منهم

فالتفت مخلوف الى القادم وهو ينشد حسب عادته

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ولكن ما وقع نظره على القادم حتى جمد في مكانه كانه صنم اصم . ولولا تقليبه عينيه في الرجل القادم لظن رفاقه انه فارق الحياة وهو قائم على قدميه

وبعد هذا الجمود برهة أسرع مخلوف وعينه تستطير شررًا فنزل عن الاكمة ووقف على الطريق . فلما وصل اليه الراكب صاح مخلوف صيحة كعواء الكلاب والذئاب . وقال «هذا هو» ثم اطبق على لوقا فاخذ به وشدّه فالقاه عن جواده على الارض كالجذع الممدود وبرك فوقه

فهجم حينئذ المكاري وسليم وكليم ليرجعوه عنه فكان مخلوف يصيح كالوحوش والزبد على شدقه «لا يرجعني عنه احد غير الله ... قد اهلكني ... قد حرمني حياتي ... لولاه لما فرّت حبيبتي ... الانتقام ... الانتقام»

وكان عند كل كلمة من كلامه يضرب لوقا بقبضته ضربًا شديدًا وهو كالجمل الهائج وناهيك بغضب المجانين . فاسرع الناس من جهات الارز على صوته عشرات ومئات مئات فتكاثروا عليه وانهضوه عن خصمه بعد جهد شديد . فانقلب مخلوف من الغضب على خصمه الى الغضب على نفسه وهو في اشدّ حالات الجنون . فتناول حجرًا وصار يضرب به نفسه ويلقي نفسه على الارض ويقوم وهو يهذي بهذا الكلام «مسكتك يا ظالم ... دعوني معه لاحاسبه ... مضت سنوات وانا افتش عليه ... هل يموت حق حبيبتي ... ابعدوا والاَّ قتلتكم كلكم ... اليوم يوم الثار ... يا الهي ارسل الآن صواعقك اذا كنت عادلاً ... صاعقة واحدة فقط .. تقتلني وتقتله»

وكأنّ الله اجابه الى طلبه في هذه الساعة . فان الناس الذين كانوا يمنعون عنه فريسته تركوها واجفلوا راجعين القهقرى اجفال العصافير حين ظهور الباشق . ذلك انهم شهدوا امامهم مشهدًا مريعًا . فان وحشًا بشريًا هائل المنظر كان قادمًا نحوهم وفي يده بندقية

فالتفت سليم وكليم وصاحا : هذا صاحبنا . ما جاء به

اما مخلوف فانه لم يهمه شيء من كل ذلك . بل انه لما راى الجموع قد فرّت من وجهه وتركت الخواجا لوقا وحده مشغولاً باصلاح ملابسه هجم عليه كالذئب واخذ بخناقه

فحينئذ خرج من فم الوحش البشري القادم وفي يده بندقيته صوت اجش سمعه القارىء ... الآن في رأس القضيب وهو صراخه « الوحش الوحش الوحش » — ثم انه سدّد بندقيته نحو مخلوف ليطلقها عليه

فعلم سليم وكليم ان صاحبهما ملك رأس القضيب سيقتل مخلوف ولوقا معاً اذا لم يدخلا بينهم لاعتباره ان مخلوف ظالم معتدٍ كما كان يقتل الحيوانات التي تعتدي على رفاقها . فدخل سليم وكليم حينئذ بين الفريقين وواريا مخلوف ولوقا وراءهما وصاح كليم . ياعمّ دعه فنحن نؤدبه ونأتيك به

وكان مخلوف وخصمه يتصارعان حينئذ بقوة هائلة والناس لا يجسرون على الدنو منهما للدخول بينهما . ولكن حانت من مخلوف التفاتة فابصر ذلك الوحش البشري ينظر اليه وبندقيته مسددة نحوه . فانتبهت فيه عاطفة الحرص على البقاء . فترك خصمه وخطا خطوتين نحو الشيخ الهائل غضوباً فتبعه سليم وكليم لئلا يقتله الشيخ

ولكن ما تقدم مخلوف بضعة امتار حتى وقف مدهوشاً هذه المرة ايضاً وصرخ صرخة دوت لها الجبال . ثم هجم على الشيخ صائحاً « متى حاروم حنا حاروم . . . جئت في وقتك . . . وفي يدك بندقيتك . . . انظر صاحبك لوقا طمعون . . . »

فلما سمع الشيخ الهائل اسم (لوقا طمعون) ظهرت الرعدة في جسمه وجحظت عيناه واصطكت ركبتاه . فهجم كالذئب نحو لوقا . واذ عرفه زمجر كالاسد صائحاً « ياالعيني اميليا . . حقاً لقد انتهى » . . . ثم سدد البندقية نحو لوقا واطلق نارها عليه

فصاح سليم وكليم وهجما نحوه ولكن من حسن الحظ لم ينطلق الرصاص لان الضباب كان قد رطب بيت البارود

فحينئذ القى الشيخ بندقيته وهجم على لوقا طمعون فتبعه مخلوف هاجماً لهجومه

فكل من رأى ذئاباً تهجم واسوداً تثب وضباعاً تغضب يمكنه ان يتصور هجوم هذين التعيسين على ذلك التعيس

فصاح كليم وسليم بالجموع التي كانت تنظر اليهم من بعيد . الينا يا شباب وساعدونا فهذا وقت المروءة . فهجم الناس لمساعدتهما ولكنهم لم يستطيعوا الفصل بين المجنونين وفريستهما

الا بجهد شديد . فذهب لوقا طمعون نحو خيام المستر كلدن والدماء تسيل من وجهه والجماهير تتبعه ليغسل جروحه . اما مخلوف والشيخ فقد ادركتهما نوبة الجنون حنقاً لعجزهما عن خنق الخصم فسقطا على الارض مصروعين بلا حراك . فقيدهما سليم وكليم لئلا يضرا نفسيهما ثم نقلاهما الى الغرفة المقابلة للكنيسة واقفلا الباب

هذه هي الحادثة التي كانت سبباً في الجلبة التي سمعها المستر كلدن بينما كان يحادث امرأته

الفصل الخامس عشر

﴿ ذئب لدى لبوة ﴾

موقف حرج

فهنا وا اسفاه لم تبقَ حاجة الى شرح الحادثة التي تقدمت لان القارىء اللبيب فهم كل تفاصيلها وروابطها واسبابها . وعرف مبلغ تعاسة اميليا

وما استقرّ المستر كرنيجي برهة في الخيمة مع المستر كلدن وزوجته حين دخوله عليهما كما تقدم حتى دخل الترجمان يقول ان رجلاً يُدعى الخواجه لوقا طمعون قد حضر من بيروت للسلام على حضرة السر . فعاد الاضطراب حينئذ الى اميليا ونهضت لتخرج الى خيمتها . فاوماء اليها المستر كلدن ان تبقى لتلتذ بمشاهدة خصمها تحت قدميها . ثم همس بضع كلمات في اذن سكرتيره ليطلعه على طرف من المسالة . وبعد ذلك قال للترجمان قل للرجل ان يدخل

فدخل لوقا طمعون باشاً ضاحكاً كانه لم يُصب بمكروه . فحيا اجمل تحية . فجاوبه المستر كرنيجي . اما المستر كلدن فقد كان يتشاغل بتقليب الاوراق على المائدة واما اميليا فقد ادارت ظهرها للباب وانحرفت نحو الظل وهي ترتجف من الغضب والحقد

فساء لوقا هذا الاستقبال البارد فجلس منقبضاً . وبعد ان دام السكوت دقيقة قال المستر كلدن بنزق وهو ينظر في الاوراق لا في وجه ضيفه : ماذا تريد حضرتك . فاجاب لوقا . لقد كتبت لجناب السر اعرض عليه خدمتي في كل ما يريده في الشرق اذ بلغني انه يطلب وكيلاً . فقال كلدن . وكيف تريد ان اتخذك وكيلاً من غير ان اعرف امانتك واستقامتك

فانجرح هنا لوقا في صميم شرفه التجاري والادبي فصعد الدم الى رأسه واجاب : لقد

قدمت لحضرتك الشهادات الكافية وفي جملتها شهادة رئيس ديني كبير

فقهقه حينئذ كلدن بصوت عالٍ وقال : شهادات ؟ هل تريد ان اجعل احد خدامي يجلب مثل هذه الشهادات بعشرة ريالات فقط . ثم التفت الى اميليا وقال : ما قولك مسز ... تقبل منه هذه الشهادات

فلم تجاوب اميليا لانها كانت غير قادرة على الكلام . اما لوقا فعدل حينئذ عن مطايبه فقال بشيءٍ من عزة النفس : عفواً يا سر . انا سالت حضرتكم سؤالاً فاذا قبلتموه شكرتكم واذا رفضتموه عدتُ من حيث اتيت مسروراً باني تشرفت بمعرفتكم

فحينئذ دبت الحماسة في صدر اميليا لانها شعرت بان الخصم لا تزال له قوته التي سحقتها في ما مضى . فعزمت على سحق هذه القوة للانتقام منها . فجمعت قواها كلها وقالت

— ان طلب المستر كلدن حق اذ بلغته اعمالك في صيداء

فقال لوقا في نفسه الآن علمتُ سرَّ المسأَلة فان اعدائي ومزاحميَّ سعوا بي لدى هؤلاء الكرام ولذلك اساؤوا استقبالي . ثم اجاب مبغوتاً ومظهراً الدهشة . عفواً ياسيدتي الكريمة اية اعمال تعنين . ان جميع اهل صيداء يشهدون لي بحسن السيرة والسريرة والشرف . واذا تفضلتِ واطلعتِ خادمك الامين على الاقوال التي بلغتكم من حسادي واعدائي فانني انقضها كلها قولاً قولاً

فاجاب المستر كلدن حينئذ بحدة : انا لا احب كثرة الكلام يا مستر لوقا . فاذ شئتَ ان تكون وكيلاً لاشغالنا فجئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجا متى حاروم في صيداء

فلو ان الصاعقة وقعت تحت قدمي لوقا لما اثرت فيه تأْثير هذا الكلام . فنهض بحدة وصاح . لا تصدق ياسيدي لا تصدق كل ما سمعته . فان هذا الرجل جاهل سيء التدبير خرب نفسه و . . . .

فهنا لم تعد اميليا تستطيع السكوت فقطعت كلامه وصاحت بحدة رغماً عنها . لا تهن الناس ياخواجه بل اجب اتأْتي بالشهادة المطلوبة ام لا

فقال لوقا في نفسه حينئذ . انني اذا ذكرت لهم ان متى حاروم موجود الآن في الارز بحالة الجنون والهول وقد كاد يفتك بي فتلك اقبح شهادة . فانهم يسأَلونه ويعلمون منه ما يريدون علمه . فاجاب . ان متى حاروم ياسيدتي لم يوقف له على اثر منذ عشر سنوات

فقالت اميليا والدموع ملءُ عينيها . ومنزله . فقال قد بيع . قالت واهله . قال كان له زوجة

فتوفيت وابنة طائشة فرّت وتركته

فحينئذ وثبت اميليا كمن لسعته افعى في صميم قلبه وصاحت باعلى صوتها : يا ظالم تخرب بيته وتميت زوجته وتهرّب ابنته وتبيع منزله وتمحو اثره ثم لا تكتفي بكل ذلك بل تطارده بحقدك و بغضك فتهينه وتهين ابنته امامنا الآن .

فغضب لوقا عندهذا الكلام وقال : الوداع يا سادتي . وهمّ بالخروج . فوثب اليه كدمن وثبة الاسد فاخذ بذراعه وقال بحدة . مستر لوقا قبل ان تخرج من هنا اجث واطلب الصفح من مسز كلدن ابنة الخواجه متى حاروم

وان القلم ليعجز عن وصف ماجرى حينئذ وكيف استقبل لوقا هذه الصاعقة التي انقضت على راسه ولكن لما انقضت دهشة لوقا وعلم خطارة موقفه وهوله جمع قواه وكبرياءه التي كانت قد فارقته . و بعد السكوت برهة قال . الآن فهمت ياسيدتي سبب ماجرى . فصار يجب عليّ تبرئة نفسي لا للحصول على وكالة اشغال بل حفظاً لكرامتي لديك . فكل ما بلغك عني يا سيدتي كان معكوساً او مبالغا فيه . اذ اي عمل عملته في معاملتي ابيك ولا يعمله كل الناس اليوم . والمستر كلدن زوجك المحترم لا يستطيع تكذيب كلامي . اسأليه اذاشئتِ كيف جمع ثروته الطائلة وملايينه العديدة . اما افلست بنوك خصومه وقامت بنوكه . اما امتصت سككه الحديدية ثروة سكك اعدائه . اما خربت في الاحتكارات التي احتكرها الوف من المحلات وافلس في مضاربته الوف من المضاربين . فما الحيلة اذا كانت هذه طبيعة التجارة نفسها . وكيف نستطيع جمع الثروة لننفع بها الناس اذا كنا نحذر من ضرر هذا ونخاف مزاحمة ذاك . فهذه سنّة العالم وقد قال جوت « الى الامام الى الامام ولو فوق الجثث »

فدهش المستر كلدن لثبات جأش الرجل بعد تضعضعه وللطريقة التي حوّل بها الموضوع عن محوره . اما اميليا فقد خلعت عن نفسها لدى هذا الكلام ثوب الحاضر وارتدت بثوب الماضي واجابت بحدة

ـ كل هذا الكلام يا سيدي لا يبرىء السرقة والاحتيال والدسائس والسلب والنهب . تقول التجارة والاصول التجارية ولكن اي تاجر شريف يزعم ان اله التجارة يطلب دائماً ضحايا بشرية ودماء بشرية . اي تاجر خال من عواطف الشرف والانسانية يرضى بان يجمع ثروة من طعام الاطفال ودموع البنات وموت الاولاد وخراب البيوت . اذا وجد في العالم هذا التاجر فلا اسميه تاجراً بل لصاً وقاطع طريق . بل هو ادنى من اللصوص لان اللصوص يهاجمون الانسان من وجهه اما هو فانه يغدر به لانه يباغته من وراء ويغمد خنجره في ظهره .

كلا يا سيدي ليست التجارة هي التي دفعتك الى صنع ما صنعت بل طمعك ورغبتك في الثروة باية طريق كانت . وانا الآن لست آسفة على ما ضاع من الاموال والارزاق لان الله عوضني خيراً منها وانما اسفي على شيء واحد لا يعوض وهو فقد ابي

وهنا ترقرق الدمع في عيني اميليا . فتأثر لوقا لهذه الدموع وهذا الكلام وان كان فيه اهانة له لانه رآه ممزوجاً بشيء من اللطف . لاسيما وانه كان ينتظر اشد منه ففكر قليلاً ثم قال باسماً : سيدتي انني اعرف مكان ابيك . وساجيئك منه بالشهادة المطلوبة

فرفعت اميليا حينئذ يديها وعينيها الى السماء وصاحت بجنون « ماذا تقول » فقال الرجل نعم انني اعرف مكان ابيك . فنهض حينئذ المستر كلدن مدهوشاً وصاحت اميليا « اين اين قل فاملاء فاك دراً . ردّه الي فانسى كل اساءاتك . وا ابتاه واابتاه . أصحيح ما تقول . . قل قل مالك لا تتكلم . متى نظرته ؟ » فاجاب لوقا (اليوم) فصاحت اميليا « اليوم ؟ واين ذلك اين » فقال لوقا هنا في الارز

الفصل السادس عشر

صوت الابنة الكريمة

يحيي العظام الرميمة

فحينئذ ذهلت اميليا عن نفسها وعن زوجها وعن مقامها ووثبت خارج الخيمة كالبرق الخاطف وهي تصيح « اين اين »

فتبعها المستر كلدن وسكرتيره ولوقا . وحينئذ عرف المستر كلدن من لوقا تفصيل ما جرى فرام كلدن تسكين جأش زوجته واقناعها بالانتظار الى ان يصلحوا ملابس الشيخ ويحسنوا حالته وينقلوه من تلك الغرفة . اما اميليا فلم تصغ لاحد بل مرقت كالسهم قاصدة الغرفة فلم يكن لوقا ولا كلدن يعرفان وا اسفاه انه كان مجنونا

* * * * * * * *

فلما وصلت اميليا الى باب الغرفة دفعته وهي ترتجف ودخلت فابصرت على الارض شخصين مقيدين راقدين ـ والحقيقة انهما كانا في نوبة الصرع كما تقدم

فصرخت اميليا صرخة الجنون واليأس حين وقع نظرها على ابيها بتلك الحالة ورجعت

القهقرى خوفاً . ولكنها كالبرق عادت اليه واكبت عليه

وكان الناس قد اجتمعوا في الخارج فنادى كرنيجي اثنين منهم وحمّلها مخلوف فنقلاه الى الكنيسة فبقيت اميليا مع ابيها

فانحنت الابنة حينئذ تقبل قدميه ويديه . وكانت تبكي وتناديه بصوتها اللطيف «ابتاه ابتاه . انتبه فقد جاءت اميليا .. ابتاه . افتح عينيك وانظر اليّ .. لقد جئتك بحفيدتين معي . قم وانظر اليهما فانهما تذكرّانك اميليا صغيرة .. ابي هل غضبتَ عليّ ولعنتني لما تركتك . هل خطر في بالك انني فررتُ من خدمتك .. قم واخبرني انك لم تسيء الظن فيّ .. ان ضرباً من الجنون استولى علي ودفعني الى السفر .. فلعل الله هو الذي اراد ذلك لاعود اليك بالخير والغنيمة والظفر .. ابي مالك لا تجيبني .. ما هذا الرباط الذي في يديك ورجليك .. ما هذا الجلد الخشن الذي يستر جسمك مع انه كان يلبس الملابس الناعمة . ما هذا الشعر الهائل الذي يغطي جبينك الذي كان صافياً هادئاً . وما هذه الشقوق التي في قدميك .. آه لقد تعذبتَ في شيخوختك كما تعذبتُ في صباي . ولكننا استرحنا الآن . فقم وعانقني . ابتاه ابتاه مالك لا تجيب . »

فيا لتأثير الحنان البنوي . يا لفعل القلب في القلب . يا للعدالة الابدية التي لا تسمح بموت « الحق » في العالم

فان الشيخ الهائل لم يلبث ان تحرك لذلك الصوت الملائكي اللطيف وانتفض وفتح عينيه . فجمدت اميليا في مكانها جمود الصنم . فادار الشيخ نظره في المكان متحيراً كانّ على عينيه غشاوة . ثم صاح ماذا تريدون . فغصت اميليا بدمعها واجابت . « ابي . هل انتبهت . » فبهت الرجل وقال متحيراً من انتِ . فقالت « انا اميليا اميليا »

فحينئذ جلس الشيخ متثاقلاً وصاح غاصاً بدموعه . اميليا متى جئتِ يا حبيبتي . — فانطرحت الفتاة بين ذراعيه وصارا يبكيان بكاء اللقاء بعد طول الفراق

ولم يدوّن علم الطب قط في تاريخه حادثة شفاء من الجنون كهذه الحادثة الغريبة . وكل من سمع بها رجح ان الشفاء كان من فراغ جنون الشيخ في تهييجه الاخير على لوقا وان كان لصوت ابنته دخل في ذلك ايضاً

واذ سألت اميليا اباها عن حالته وسبب وجوده هناك ولبسه تلك الملابس وجدته اشد منها عجباً ودهشة من ذلك . لانه بعد رجوع عقله اليه نسي كل ما كان

☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وبعد ساعة ونصف حضر « مزين » من بشري فاصلح شعر الخواجا متى وأُلبس ملابس نظيفة ونُقل الى صدر خيمة اميليا . وكان الناس في الخارج قد ضجروا وهم ينتظرون « يوم كلدن » فلما بلغ ضجرهم الى المستر كلدن قال لاميليا باسماً « لا انا ولا انتِ بل ان اباك هو الذي سيعمل يوم كلدن »

فجيء بكيس كبير فيه ريالات بقيمة الف جنيه فحمل مفتوحاً على حمار وسار وراءه الخواجا متى بملابسه النظيفة المرتبة وشعره المصقول وصار يفرق في الجماهير الحاضرة ريالاً ريالاً لكل واحد من الاولاد وريالين ريالين لغيرهم . وكانت الجماهير تزحمه من كل جانب

فلما ابصر سليم وكليم صاحبهما « ملك راس القضيب » بتلك الحالة الجديدة اعتراهما العجب الشديد . فكانا يدنوان منه ويتأملان فيه . اما هو فلم يعرفهما . ولم تفارقهما الدهشة حتى اطلعهما الترجمان على تفصيل الحادثة

* * * * * * * *

وفي المساء عزم كلدن وزوجته على السفر من الارز للرجوع الى اميركا بعد وجودها ضالتهما المنشودة . فقوضا الخيام وعزما على الركوب . وكان لوقا طمعون قد انفرد عنهما بعد الحادثة ولم يلتقِ بمتى . فقبل السفر قصد اميليا وسألها ضاحكاً اتسمح له الآن بوكالة الاشغال التي طلبها . وكان كلدن حاضراً فاجابه هذه المسألة صارت متوقفة على رضى الخواجا متى

واذ قُصت هذه القصة على الخواجا متى وطُلب رأيه فيها ضحك اولاً ثم اطرق مفكراً وبعد ذلك قال « رأيي ان الصفح اولى . فان الوحش الذي في الانسان لا تذلله المقاومة والعناد بل الحلم والصفح . ولذلك يكون الاقل حيوانية والاكبر عقلاً اكثر صفحاً وحلماً »

فلو سمع سليم وكليم هذا الجواب لقالا ان فلسفة صاحبنا في « الوحشية » وهو مجنون مخالفة من حسن الحظ لفلسفته فيها وهو عاقل

* * * * * * * *

وقبل السفر استدعى كلدن سكرتيره وقال له وهو يطوف معه بين اشجار الارز : مستر كرنيجي اما تعلمت شيئاً من هذه الحادثة . فاجاب كرنيجي : تعلمت وجوب الرحمة يا سر للضعفاء الذين يسقطون في جهاد الحياة . والا لم يكن هنالك فرق بين البشر وبين الحيوانات . فقال صدقت ياصديقي . اذاً خصص في كل عام مليون فرنك لمساعدة العيال التي تسقط . واكتب لمحلنا يقرض مليون دولار لمحل خصمنا « ارميس » الذي افلس من مزاحمتنا ومليوناً آخر لمحل « ودن » الذي خسر ثروته في احتكاراتنا . فانني بعد الآن صرت ارى ان البشر لايكونون

بشرًا اذا كانوا يصرفون كل ما اعطاهم الله من النباهة والعقل والقوة في مجاهدة بعضهم بعضًا ليستأثروا بأقوياؤهم بالمنافع والخيرات دون الضعفاء ويدوسونهم كما يدوسون الحيوانات الدنيئة (١)

* * * * * * * *

وفي المساء ركب الجميع مسرورين قاصدين بيروت عن طريق بعلبك وكان سليم وكليم وامين جالسين على اكمة ينتظرونهم فلما مروا بهم وشاهد امين خصمه لوقا يحادث متى ويضاحكه واميليا تنظر اليهما وتبتسم مسرورة لتقلب الزمان صار امين يبكي ويقول : اين العدالة في العالم . فتنهد سليم واجابه : العدالة ياصاح موجودة ولكن المهمّ الجدّ والانتظار والثبات . الم تنظر كيف انتصرت اميليا ولوقا بهذه الصفات . فلا تجدف على النواميس الابدية فانه ليس بالامكان ابدع مما كان . وكل ظلامة مهما كانت عظيمة تُكشف عن صاحبها اذا تسلح بهذه الفضائل . فان الله اعدل من ان يخذل الحق . وهو لنصرته لا يطلب من البشر غير الصبر والجد والانتظار

فقال امين متأوهًا : وما الحيلة بمن لا يستطيع الانتظار لان ايامه معدودة

فاجابه سليم . هذا وهمٌ يا صاح وعلى افتراض صحته فان المظلوم يكون اقرب الى الله في الآخرة مما لو انصفه الله هنا

فهزّ امين راسه وقال ، كلام حلو للتعزية ، كلام حلو للتعزية

الفصل السابع عشر

حب المجانين

لوقا يأكل الحصرم ومخلوف يضرس

وكانت الاكمة التي جلس عليها الرفاق الثلاثة قريبة من الكنيسة . واذا هم يسمعون حينئذ صراخًا عظيمًا فيها ففطنوا حينئذ الى مخلوف الذي سجن فيها فنهض سليم ليراه . ولكنه لم يخطُ خطوتين حتى كان مخلوف قد كسر الباب وخرج منها وعينه تستطير شررًا . فلما رأى سليم صاح به اين متى ، حاروم . ولوقا طمعون . فاجابه سليم قد رحلا . فوثب حينئذ مخلوف راكضًا الى الطريق ليتبعهما واذا به يرى الدواب والاحمال امامه لانها لم تكن قد بعدت

(١) من هنا تعلّم كرنيجي توزيع امواله بعد ان اثرى ثراء عظيمًا كسيده كلدن

بعد . فاطلق ساقيه للريح وراءها . فثار سليم وكليم وراءه ايضاً . فوصل مخلوف الى المسافرين وصار يقلب نظره فيهم ، فلما وقع نظره على اميليا صاح صيحة دوت لها الجبال وانطرح على الارض صارخاً : لقد صدق سليم . عادت اميليا

فضحك كلدن وقال لم تخلص من الاسرار بعد . فاخبره حينئذ متى انه شاب مجنون انقذ في زمانه حياة اميليا . فمد كلدن يده الى جيبه واخرج منها ورقة بخمسمائة دولار واوماء بها الى مخلوف قائلاً . خذ هذا تذكاراً من اميليا . فصاح به ومن انت . فقال كلدن ضاحكاً انا زوجها

فيا ليتك يا مستر كلدن لم تلفظ هذه الكلمة . فان مخلوف ازدوج حينئذ جنونه فصار يضرب الارض بيديه ورجليه وراسه و يصيح «زوجها ، زوجها ، وانا اذاً من انا ، من اذنك ان تتزوجها ، كيف تسلبني حقي ومالي ، هاها متى حاروم ،ما شاء الله ماشاء الله ، ثياب جديدة وشعر مقصوص ، وراكب على بغل ، قه قه قه ، بغل على بغل ، لو لم تكن بغلاً لما زوجت ابنتك هذا البغل وتركت رجلاً مثلي ، ولكن اظنكم تضحكون ، اميليا اميليا انسيتِ يعقوب»

فقال كلدن حينئذ لزوجته مسز سوقي جوادك الى الامام واتركينا

فوثب حينئذ مخلوف وثبة الذئب وصاح « بل انت تتركها » ثم مدّ يده الى جيبه واخرج منها سكيناً وهجم على كلدن

فلم يكن كلمح البصر حتى اطبق عليه كليم وسليم من وراء وقبضا على يده فاسرع البغالون وشدوا وثاقه بحبل غليظ . فانكسرت حدة مخلوف حينئذ فصار ينوح و يصيح متذللاً باكياً (اميليا ، اميليا ، بحياتك لا تتركيني ، ماذا صنعت لك حتى تعذبيني ، اما انقذتك من الموت . هل انقذتك لغيري ، اما احببتك عشر سنوات دون ان انساك ، اميليا اميليا ، يقولون انه زوجك ، فلا باس ، هو زوجك تخذيني انا خادماً لك ، انني اتبعك ماشياً لا راكباً ، لا اكلمك ولا ادنو منك وانما احرسك واخدمك واقبل قدمك . اميليا اميليا انظري انا صديقك تعيس الآن ولوقا طمعون عدوك سعيد . يا لنكران الجميل . يا للظلم . هو يركب بجانبك مسروراً وانا يشدونني بالحبال و يعذبونني . اميليا اميليا . خذيني معك . لا تقتلي نفساً بريئة فان الله يحاسبك)

فاثرت هذه الكلمات في نفس اميليا حتى بكت لها شفقة على ذلك التعيس فخاطبت زوجها مستاذنة في امر ثم وجهت جوادها نحو مخلوف فدنت منه وهو مشدود الوثاق . فكان روحه عادت اليه . فمدت يدها البيضاء اللطيفة ووضعتها على كتفه وقالت له بنغمتها الساحرة . عزيزي مستر يعقوب . فصاح مخلوف : بلا مستر بلا مستر بحياتك قولي عزيزي يعقوب

كما كنت تقولين . فقالت عزيزي يعقوب لا اقدر على اخذك الآن معي . ولكن اعدك انني ساطلبك . فصاح مخلوف . متى يكون ذلك . فقالت حين وصولي الى بلادي . فبكي مخلوف وصاح بلادك ولكن بلادك هنا . فقالت بل بلادي اميركا يا عزيزي مستر يعقوب . فعش هذه المدة مسرورًا راضيًا بغيابي لانني سأتذكرك دائمًا وارسل اليك كل ما تحب الى ان يتيسر لي استدعاءك »

وهكذا هداء ذلك المجنون العاشق التعيس بشيء من اللطف والوعود . ولكن هدوءه كان وقتيًا فانه ما تحرك الركب وسار حتى اشتد به الجنون وشرست اخلاقه فاضطروا الى شد وثاقه وارسلوه الى دير قزحيا ولا يزال في الدير الى اليوم ينشد الاشعار و يترنم بذكر حبيبته اميليا

فمسكين انت يا مخلوف . تخاصم البحر والريح فكان الصلح عليك . ولكن اما سمعت ما قال سليم . ان العبرة بالانتظار والثبات . وانت لم تقدر على الانتظار لان عقلك رحل عند اول صعوبة . على انك لو انتظرت وكنت الآن عاقلاً فربما كنت نلتَ الآن اسمى منزلة عند اميليا بعد منزلة زوجها

* * * * * * * *

اما سليم وكليم فقد اقاما في الارز بضعة ايام وكان تخلصهما من مكار بهما بطرس الثقيل بواسطة امين الذي عاد على بغله الى الحدث . وحين عودتهما من الارز ممتلئين صحة وقوة كان سليم يقول لكليم كلما مرّا بالاديره : اما اقتنعت الآن بعد ما رأيناه من تقلبات حوادث الحياة وقصصها المضحكة والمبكية انه خير للانسان الذي يريد الراحة ان يعيش منفردًا عن العالم في دير او في نفق

فتنهد كليم وقال ليس الانفراد عن الناس هو الذي يريح الانسان . فان مخلوف منفرد الآن عنهم في دير ولكنه تعيس جدًا . فراحة الانسان وسعادته في داخله اي في نفسه . فلا يبحث عنهما خارجًا عنها . والنفوس القوية العادلة المستقيمة تقدر ان تكون مستريحة سعيدة حتى في وسط تقلبات الحياة

تمت

ثمن النسخة الواحدة اربعة فرنكات

أورشليم الجديدة

او

فتح العرب بيت المقدس

والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها

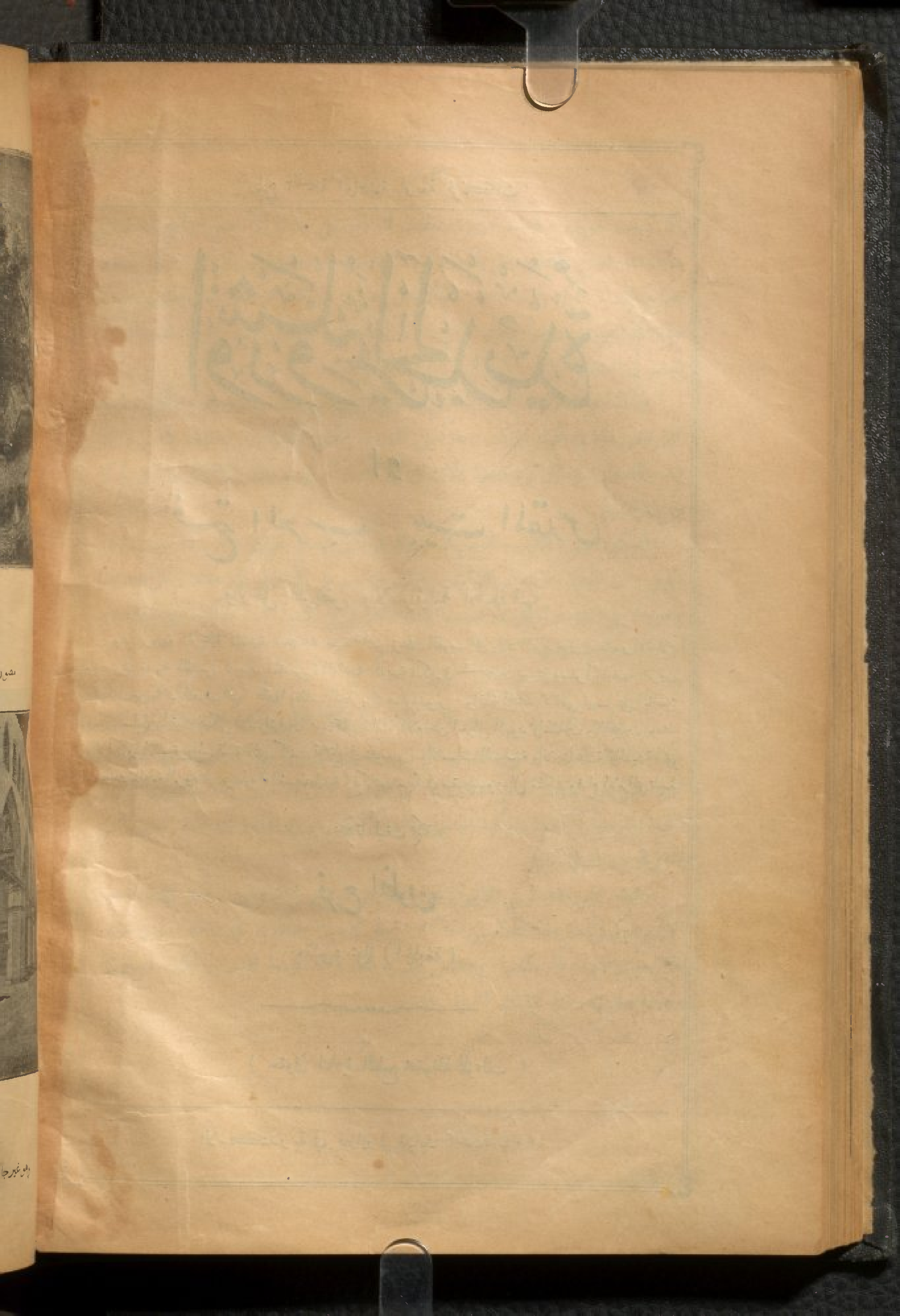
وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية حبية تتضمن زحف العرب الى بلاد الشام حين ظهور الاسلام وحصرهم مدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين يومئذ وسفر الخليفة عمر بن الخطاب من بلاد العرب اليها لفتحها بطلب البطريرك صفرونيوس . واقامة المسجد الاقصى فيها على انقاض هيكل سليمان القديم هيكل الاسرائيليين . ويتخلل ذلك كلام عن احوال اليهود والمسلمين والمسيحيين يومئذ والافكار الدينية والسياسية التي كانت تختلج في نفوسهم . والاسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي اضعفت سلطنة الروم في بزنطيه (القسطنطينية) فكانت سببًا في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الامم التي تليهم

﴿تأليف﴾

فرح انطون

منشىء مجلة (الجامعة)

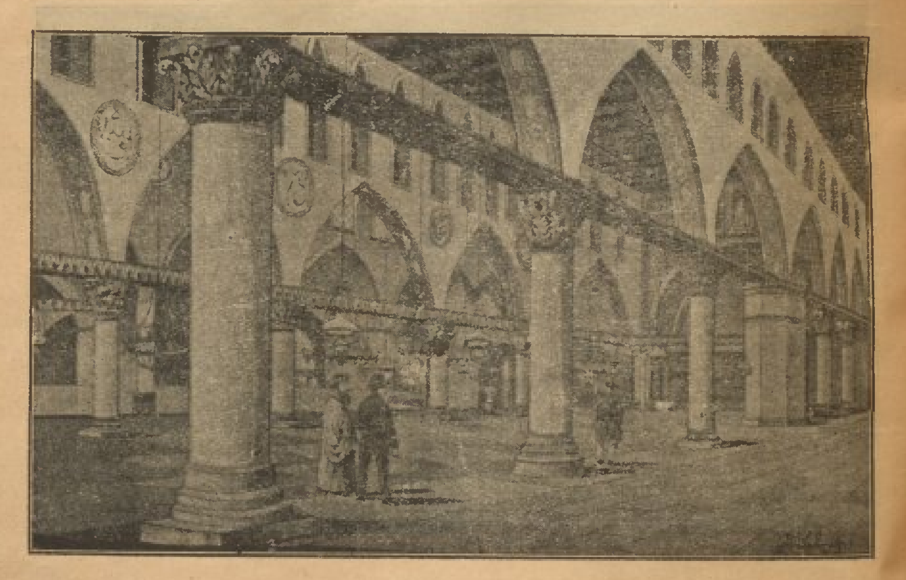
الاسكندرية في فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤





اورشليم (بيت المقدس)

مصورة كما تظهر من جبل الزيتون وايليا وارميا تحت شجرة في سفح الجبل



داخل المسجد الاقصى

وهو غير جامع عمر المعروف بجامع الصخرة انظر الصفحه ١٣٢ في الكتاب والصفحه الثالثة في الغلاف



جبل الزيتون المشهور

الوارد ذكره كثيرًا في هذا الكتاب . وعليه الكنيسة الروسية الكبرى في القدس



مغارة بيت لحم

التي وُلد فيها المسيح وفيها المزود . انظر الصفحة ٤



قبر المسيح

في داخل كنيسة القيامة وامامه القسس والرهبان يحتفلون بعيد القيامه والدخول الى القبر من الباب في صدر الصورة حيث ترى كاهناً واقفاً فيه والناس جالسون في شرفات الكنيسة حول القبر

المقدمة

اهمّ انواع الروايات ثلاثة (الاول) الروايات الاجتماعية والاخلاقية وهي افضلها لانها تبحث في اصلاح اخلاق الامة وتكوينها وتنبيه نفسها الى ما فيه منفعتها (والثاني) الروايات التاريخية وغرضها بسط تاريخ الامم اي ذكر اسبابه ومسبباته لاستخلاص النتائج منها بحرية تامة بلا تزلف ولا تحامل للوقوف على الفواعل في تقدم الامم وتأخرها . «والثالث» الروايات البسيكولوجية وتدخل فيها الروايات الحبية التي يُصوَّر فيها احتكاك العواطف وتنازع القلوب والاهواء

على ان هنالك نوعًا آخر من الروايات افضل من هذه الانواع الثلاثة وهو الذي جمع بينها في سياق واحد فيكون تاريخيًا لمحبي التاريخ فلسفيًا اجتماعيًا لمحبي الفلسفة والاجتماع ادبيًا حبيًا لمحبي الادب والعواطف الحبية الطاهرة المنزهة عن الخلاعة والغرام البارد ــ ومن هذا النوع اشهر الروايات الخطيرة التي كان ظهورها عبارة عن حادثة وطنية كبرى لانها رفعت مبادئ وخفضت مبادئ "كالبؤساء" لفيكتور هيغو "والجحيم" لدانتي وغيرهما

ولقد سلكت «الجامعة» هذا المسلك في روايتها الجديدة «اورشليم الجديدة» فجمعت فيها بين الفلسفة والاجتماع والتاريخ والحب والادب . وفوق ذلك ضمّت اليها «الدين» لان العصر الذي تبحث هنا في شؤونه عصر ديني محض سواء كان ذلك عند المسيحيين او عند المسلمين . فالكلام عنهُ يشمل الدين بالطبع والضرورة وبدونهِ يكون الكلام ناقصًا اهم وجوهه

وهي على يقين من ان ابناء العصر وكتابه الافاضل الذين يرومون تنبيه الشرق من سباته وان يمحوا عنهُ عار الاستسلام للسلطات المضرة ويطلبون الحقيقة اينما وجدوها سينظرون الى هذا الكتاب نظرًا يُنسي مؤلفه شيئًا من التعب الذي عاناه في تأليفهِ . لانه لو لم يكن على ثقةٍ من رضاهم وتنشيطهم قياسًا على ما مضى لما وجد في نفسهِ القوة اللازمة للاقدام على كتاب كهذا الكتاب مع ما هو معروف في بلادنا عن بضاعة العلم والادب وما هو مشهور من تهشيم حرية الفكر ونزاهة النشر تزلفًا للسذج وذوي المصالح خصوصًا في الشؤون الوطنية والمسائل الشرقية

والمؤلف لا يدعي في هذا الكتاب فضلًا او مزية ولكنه يصرح بانه بذل جهده للجهر بحرية تامة بكل ما يجب الجهر به عند الاشتغال بمسائل مهمة خطيرة كالمسائل التي في هذا الكتاب وطلبِ الحقيقة بين

كل الاحزاب باستقلال تام كان الكاتب غير منسوب الى احدها . فاذا كان اخواننا الرصفاء والقراء الكرام يرون بعد مطالعة هذه الرواية ان المؤلف قد قام بهذه الوظيفة فهذا خير جزاء يريده منهم وافضل ثناء يقبله على الطريقة التي اقدم عليها مع معرفته صعوبتها في بدء الامر في بلادنا الشرقية التي فيها سلطان الجبن والذل والمصلحة اقوى من سلطان عزة النفس وحرية الفكر وجرأة المبداء

* * *

ويجدر بنا في هذه المقدمة ان ننبه القارئ الكريم الى امرين (الاول) الطريقة الانشائية التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب . فاننا عنينا هنا بما يسميه الافرنج «جمال التاليف» عناية خاصة لان المجال في هذا الكتاب واسع لفكر المؤلف وقلمه ولا قيد يقيدهما البتة . وهذا الذي يسمونه جمال التاليف عليه المعوّل في كل الكتب الجليلة التي هزّت نفوس البشر في الارض ورقتها وامالتها نحو الخير والكمال . وبدونه لا يكون للكتابة اثر في النفوس ولا جاذبية تجتذب القراء للاقبال عليها وتأليف جمهور مفكّر يميّز غث الامور من سمينها وجميلها من دميمها وهو ما يعبّرون عنه بالرأي العام . وهذا الاسلوب الذي اعتمدنا عليه هنا يعتمد على عاطفة الجمال التي في نفس الانسان والتي بها يميَّز عن الحيوان حتى عرّفوا الانسان "بانه حيوان يعرف الجمال ويشعر به" . ويقول كثيرون من علماء العمران ان "الجمال" في الفنون والصنائع الجميلة "وصناعة القلم في جملتها" هو اساس نهضة اوربا . فان ارتقاء هذه الفنون الجميلة في ايطاليا كان ناشئاً عن ارتقاء عاطفة "الجمال" فيها . وهذا الارتقاء لطّف الاذواق ورفع النفوس وكبرها ومن هنا نشأ الميل للحرية والارتقاء فسرى الى اوربا كلها . وبناء على اهمية عاطفة الجمال هذه ترى الناس يبتاعون صورة من صور المصور رفائيل مثلاً بملايين فرنكات . فهم يبتاعون بابتياعها ثمار ارقى نفس لان عاطفة الجمال بلغت فيها اقصى درجات الارتقاء الممكن في الارض . فاذا قابلنا بين هذه العناية "بالجميل" في بلاد المتمدنين وبين اعتبار بعضهم عندنا الجمال في الكتابة وغيرها شيئاً ثانوياً بل تخيلات وتصورات وادبيات جاز لنا ان ناسف لاننا في الشرق لم ندرك بعدُ ماهية الارتقاء الحقيقي لكوننا لا نزال نذم الورد على اسلوب ذلك الشاعر العربي الذي شبهه ذلك التشبيه المشهور (١)

ولكن من حسن الحظ ان عاطفة الجمال الطبيعية الموجودة في نفوس الناس في الارض اقوى من ان تُخنق اذا لم يفهمها بعض الناس . ولذلك ترى (جمال صناعة القلم) يؤثر في الناس في الشرق من غير ان يدروا به . وهذا سبب نهضة الشرقيين الى الكتابة والمطالعة وتعلقهم بهما . وكلما ارتقت فيهم عاطفة الجمال اي كلما ارتقت «نفسهم نفسها» ارتقى فيهم الميل الى هذه الصناعة وجميع الصنائع الجميلة على نسبة واحدة . فمقياس ارتقاء الامم اذاً انما يكون بالنظر الى ما تقدر على ابرازه من عاطفة الجمال هذه مقرونة بشقيقتها عاطفة الخير "لان الجمال الحقيقي لا ينفصل عن الخير مطلقاً" لا بالنظر الى ما تقدر على تقليده من

١) قال اناتول فرانس احد اعضاء الاكاذمية الفرنسوية في خطبته امام تمثال رنان في هذا العام عن لسان الاهة الحكمة آثينا «ان قريحة اليونان انزلتني الى الارض . ولما قضت خرجتُ منها . فجاء بعدهم البرابرة واجتاحوا العالم . وكانوا يخافون «الجمال» ويحسبونه شرًّا . فلما رأوني "جميلة" شكّوا فيّ ولم يعلموا انني الحكمة . فطردوني الخ" "الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٢١٠" قلنا وبذلك تتصل حلقة الارتقاء الايطالي بحلقة الارتقاء اليوناني ولهذا قالوا ان هذا اصل ذاك كما ترى في الخطبة المذكورة وفي خطبة رنان التي تقدمتها

شؤون غيرها · والفلاسفة يضيفون الى " عاطفتي الجمال والخير ،، " عاطفة الحق ،، التي مقتضاها الجهر بالحقيقة وطلبها باستقلال تام ونزاهة عن كل مواربة وجبن · و يقولون ان هذه الثلاثة هي اغراض العلم العليا ومواضيع الفلسفة السامية · وهو قول حق · ولذلك نتمنى ان يكثر في بلادنا العزيزة كل ما ينمي هذه العواطف الثلاث لانها اساس كل ارتقاء ونزاهة وفضيلة ومصدر كل شيء عظيم · والامم التي لا تؤسس على هذا الاساس المثلث تتعب وتبني عبثاً لانها لا تبني الاَّ على المصالح المادية والقابلية الحيوانية

* * *

(والامر الثاني) الذي احببنا التنبيه عليه ان الروايات التاريخية لا يُقصد بها سرد وقائع التاريخ وارقامه · فان طالب هذه الوقائع والارقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المنال لتجردها عما ليس منها لا في الروايات المطولة التي تشتبك وقائعها الخيالية بها ولا يصبر طالب التاريخ البحت على مطالعتها · وانما المقصود من الروايات التاريخية (فوق سرد الوقائع والارقام وتصوير الوسط المراد تصويره وابراز العواطف والافكار التي كانت تختلج في هذا الوَسط) تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » ان يضع المؤلف نفسه موضع الاشخاص التاريخيين الذين يتكلم عنهم ويعبر عن افكارهم وآرائهم في المواقف التي يصورها لهم والتي لا اثر لها في التاريخ مستدلاًّ على ذلك بما يعرفه عنهم · وهذا الامر في روايات « دياس » المشهور كان اهم الامور · فكانه به يحيي الابطال الذين يتكلم عنهم ويجعلهم يشعرون بالامور التي كانت تنطبق على تاريخهم ومقاصدهم ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم · ولقد سلكنا هذا المسلك ايضاً في هذه الرواية · غير اننا خشينا ان يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه فيضلّ القارئ سيما القليل الاطلاع فوضعنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال · واليك هذه العلامات ·

« هذه العلامة ☆ (اي النجمة) تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ · والعلامة (— تدلّ على عكسه اي انه تصنيف او استدلال من المؤلف لا اثر له في التاريخ · والكلام الموضوع بين قوسين هكذا « » او ( ) او ضمتين " " ومعه نجمة ☆ هو نص تاريخي بحرفه · واما اذا كان الكلام بين هذه الاقواس بلا نجمة او كان بلا اقواس ولا نجمة فليس هو من التاريخ في شيء خصوصاً اذا كان بين اشخاص الرواية الخياليين — هذا الاَّ اذا نُبه عليه في الحاشية »

وسنتابع هذه الاصطلاحات في كل رواياتنا التاريخية ليتسع لنا مجال الاستنباط والاستدلال التاريخي في امثال هذه المسائل · اذ بدون هذه الاصطلاحات يشوه الكاتب التاريخ اذا حرص على الاستنباط والاستدلال ويهمل اهمّ ما في التاريخ الروائي اذا اهملها · والقراء في الشرق على الخصوص يعرفون ان الكاتب في شؤون المسلمين والمسيحيين في بلادهم لا غنى له عن هذا الاحتياط لحرج الموقف وصعوبة الطريق

اما المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب فهي عدة لمؤلفي العرب والافرنج وقد رجعنا في شؤون العرب الى كتب العرب وفي شؤون الروم الى كتب الافرنج كما يجب ان يكون ذلك لان كل قوم ادرى بتاريخهم · ولقد اشرنا في الحواشي الى اكثر تلك المصادر

هذا ما قصدنا ذكره في هذه المقدمه · والان نأخذ بيد القارئ الكريم لنسيح معه في هذا الكتاب سياحة طويلة

مدخل

على الارض السلام

على جبل الزيتون فوق بيت المقدس كان في سنة ٦٢٦ قبل عيد الميلاد بثلاثة ايام طيف يمشي عناً ملاً في المدينة تحتهُ وهو يقول كانه يخطب في الدنيا كلها :

منذ نحو الفي سنة رنَّ في فضاء هذه الارض التعيسة صوت خارج من جهات مجهولة يقول « المجد لله في العلي وعلى الارض السلام وفي الناس المسرَّة »

ومنذ الفي سنة والبشر يبشرُ السلام على شفاههم لا في القلوب

***

منذ الفي سنة هجمت المادة الترابية في عالمنا الدنىء للاتحاد بالجوهر الالهي · فقبضت يومئذٍ الارض على قسم من السماء · ولكن السماء عادت فافلتت منها فعاد الى الارض ما هو من الارض والى السماء ما هو من السماء واختفى عنا ذلك النور الذي اضاء تاركاً البشر في ظلمة ليلاء

***

منذ نحو الفي سنة ثارت بين اسوارك يا « ابنة صهيون » (١) الحرب الابدية بين الحق وبين التقليد الذي يضع نفسه موضع الحق · بين المبادىء وبين المصالح · بين الفكر وبين

(١) بيت المقدس

المادة . بين القديم الذي يظن نفسه قويًا راسخًا ابديًا لا يزعزعه شيء و بين الجديد الضعيف المسلح بمعول العقل والفكر ولا سلاح له سواه . فزلزلت الجبال واندكت الاسوار ونسف الفكر معالم التقليد والمصالح والمادة نسفًا فقلب عالمًا واقام عالمًا

ولكن ماذا جرى بعدذلك ؟ هل حفظ الغالب السلاح الذي تغلَّب به ؟ اخبرونا يا رجال صهيون الجديدة يا جند اسرائيل الجديد . وأَ اسفاه ان الغالب عاد الى عادات المغلوب . انَّ المادة قويت على الروح . والمصالح على المبادىء . والتقليد على الفكر والعقل . فهاتوا لنا معولاً آخر للهدم مرة ثانية . الينا يا ملائكة السماء بجرَّاح جديد لمداواة هذه الحسناء المريضة . ولكن رحماكم فلتكن سكين هذا الجرَّاح نحيفة . اننا نشفق على جسمها النحيل وقلبها الرقيق وجمالها الساحر ونفوس الملايين العديدة المتعلقة بها . هات روحك يا بوذه لنعلّمها الصبر والقناعة . هات فكرك يا كونفوشيوش لتعلّمها الحكمة . هات بلاغتك الالهية يا افلاطون لندخل الى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالانوار السماوية . هات عقلك يا ارسطو لتقوية عقلها . هاتوا يا حكماء منفيس والاسكندرية وآثينا وبناريس ورومة كل حكمتكم وفلسفتكم لعلها تشفى بها . واياكم ان تقولوا انها في غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادىء الفطرية الساذجة فانها نسيت ما لديها ونسيت الفطرة والسذاجة . نعم ان فاها لا يزال يردده ويترنم بالفاظه ولكن يا للاسف ان قلبها لم يعد يفهمه ولا يقنع به . ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها . اجل يا بيت الحكمة الفطرية الساذجة . يا قدس الاقداس القديم . يا مأْوى الفكر الحرّ المطلق والروح المجرَّد . ان حمامة الروح السماوية قد طارت من بين جدرانك . وهذا هو سبب مرضك . فهلاَّ استعدتِ روحك لتحيي بها نفسك ويؤهل منزلك . هلاَّ نظرتِ باخلاصٍ ونزاهةٍ الى مرضك

انك لم تريدي ذلك يا ابنة صهيون فهوذا جرَّاح وخصم شديد قادم نحوك . ولكن وا اسفاه ان سكينه ليست بنحيفة كما طلبتُ بل هي عبارة عن سيف قوي . ومع السيف رمح ونبلة وترس وجواد عربي . ان رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون وزحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فاوسعوا اوسعوا المكان في الارض لامة جديدة عظيمة ومدنية جديدة . ان الدنيا تتمخض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . ان ابناء اسماعيل الاقوياء خرجوا من قفارهم الجدباء لملاقاة ابناء اسحق الظرفاء . ولكن يا للاخوة يا لحرمة النسب ان ملاقاتهم كانت للاقتتال على سلطنة الارض كأنَّ هذه الدنيا الواسعة تضيق عن اخوين كريمين . فسدّوا آذانكم يا ايها البشر فان ارضكم ستصير ميدانًا واسعًا للحروب والمجازر المختلفة . ناموا

ايها الموتى الشرقيون بامان واحمدوا الله لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها على بعض ليفني بعضها بعضاً · ويا سلطنة بزنطية التي ملات الدنيا ابهةً وسطوة وجلالاً استعدي فقد دنت آخرتك · ولا تلومي احداً غير نفسك · لماذا اهملتِ شعبك لتشتغلي بالمجادلات الدينية العقيمة · لماذا جهلتِ ان كل بناء لا يُبنى على « اصلاح احوال الشعب » بناء ضعيف يتداعى في مدة قصيرة · لماذا حصرتِ كل قواك في الاختلافات على خلافة الملك وانتقال السلطنة · لماذا رمتِ الاستيلاء على الدنيا كلها بدل اصلاح شؤونك الداخلية فجزأتِ قواكِ بتجزئة اهتمامك على غير فائدة · لماذا هجرتِ الروح والفكر الذي يجعل الافراد اقوياء والشعوب منيعي الجانب سعداء · ان الشعب الشاب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذي هجرتِيه وهجم عليك بسلاحك بريئاً في اول نشاءته من تلك النقائص التي اودت بكِ · لقد زحف يمثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحيّة والمعيشة الطبيعية والمساواة والاخاء والحرية ومن فرط ثقته من نفسه ومن مبدإه يظن انه وحده يمثل الوحدانيـة · وبهذه المناقب سيستولي يوماً على الكرة الارضية · وسيبقى له هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما فارقتكِ فيصيبه حينئذٍ ما اصابك · وفي ذلك الوقت تنطرحان كلاكما على الارض اخوين في المصاب تنظران الى الامم والمبادىء الاخرى التي تجيء بعدكم وتقوم على آثاركم

فيا ايتها الامم المختلفة التي تقوم وتسقط وتتطاحن كحبوب الحنطة تحت الرحى لكِ ان تقولي « المجد لله في العلى » لان الله خالقنـا عظيم · ولكن لا تقولي « في الارض السلام وفي الناس المسرة » فان الارض ليس فيها اليوم شيء غير السيف والنار وليس بين البشر شيء يسرُّ بل السائد بينهم الفساد والاضطراب والبغض والشقاء والدمار

الفصل الأوّل

عيد الميلاد في بيت لحم سنة ٦٣٦

حالة الامبراطور هِرَقْل والسلطنة البيزنطية في صدر الاسلام

« البيت الاحمر »

بيت لحم في يوم عيد الميلاد المسيحي كعبة يحجّ اليها المسيحيون من كل اقطار العالم كما يحجون الى كنيسة القيامة الكبرى في القدس في عيد الفصح الذي هو عيد القيامة · ففي سنة ٦٣٦ للميلاد المسيحي ليلة عيد الميلاد خلت القدس من اهلها ومن الحجاج لزحفهم الى بيت لحم لحضور العيد · وقد بدأُوا بالسفر الى بيت لحم منذ يومين رجالاً ونساءً واولاداً بعضهم يقيمون عند اقاربهم ومعارفهم وبعضهم يستأْجرون غرفاً خصوصيّة لذلك · فامتلات بلدة بيت لحم على صغرها باجناس القادمين اليها من نواحي فلسطين والثغور وسوريا ومصر والاناضول والقسطنطينية وقبرص ورودس وغيرها · وكان اختلاف ازيائهم ووجوههم مما يروق النظر فيخيل للناظر ان اجناس البشر كلها تُعرض له في تلك البلدة الصغيرة

وكانت كنيسة المغارة التي هي عند الناس مكان ولادة المسيح قائمة في وسط البلدة · وكانت مؤلفة من قسمين · فقسم هو كنيسة المهد نفسه وهي عبارة عن مغارة منقورة في الصخر مكسوة الجدران بالاغطية الثمينة المزركشة والمزينة افخر زينة وفي سقفها عدة مصابيح بعضها يضيء ليلاً ونهاراً · وقسم هو كنيسة فاخرة كبرى قائمة فوق تلك الكنيسة الصغرى لاجتماع الناس فيها وقد بنتها هيلانه ام الامبراطور قسطنطين الكبير (١) وكانت الكنيستان منارتين في تلك الليلة بالمصابيح والشموع المتعدّدة وروائح البخور تنبعث عن المباخر والناس داخلون

«١» لا تزال الى اليوم وهي الكنيسة الكبرى في بيت لحم

الى الكنيسة الكبرى وخارجون منها ولوائح السرور على وجوههم

فلنترك الناس خارجين وداخلين ولنذهب بالقارىء الى منزل كبير قائم تجاه الكنيسة في الجهة الغربية وهو مدهون بلون احمر ولذلك يسمونه « البيت الاحمر » . وقبل الدخول الى هذا البيت نقرأ على خشبة مسمَّرة فوق بابه هذه الكتابة باللغة اليونانية « لا شراب رديء يُزعج معدتك ولا رفيق السوء يزعج نفسك » ذلك ان هذا البيت كان معداً لنزول الضيوف في الاعياد والمواسم والاحتفالات المختلفة

فاذا دخلنا هذا الفندق وجدناه قسمين . فقسم للرجال وكان يجتمع فيه ضيوف من بيت المقدس وغيره . وقسم للسيدات وكان يجتمع فيه اجمل واذكى سيدات اورشليم (١) وكان امام القسمين حديقة واسعة الجوانب مزروعة بالنباتات والازهار والشجيرات المختلفة وفي وسطها قاعة المائدة وهي قسمان ايضاً واحد للرجال وواحد للنساء

وكان البرد في ذلك اليوم شديداً والغيوم متلبدة في السماء تنذر بالمطر والهواء يهب من الجهة الجنوبية الغربية هبوباً عنيفاً ومع ذلك فقد كان في الحديقة في جهة قسم الرجال رجل يتمشى وفي يده كتاب خطي وهو تارة يقرأ وطوراً يتأمل . وربما يظن القارىء ان ذلك الكتاب كان نسخة من كتاب ديني ولكن اذا دنونا من الرجل وجدنا على غلاف كتابه هذه الكلمات « كتاب في النفس — تأليف ارسطو »

وكان الوقت مساء وصاحب الكتاب يقرأ في كتابه على ذرات ضوء النهار الاخيرة بين مداعبة الريح وقرص البرد وقهقهة الرجال والنساء خارجة من داخل الفندق بينما صراخ الناس في الشوارع امام الكنيسة واصوات الباعة وضوضاء المغنين تصمّ الآذان . وكان هذا الرجل القارىء كلما زادت تلك القهقهة والضوضاء الداخلية والخارجية ينظر باشمئزاز وانفة الى الجانب التي خرجت منه ويقرن اشمئزازه بابتسام الاحتقار . الا انه في ذات مرة اشتدت القهقهة والصياح من داخل ومن خارج فمدّ يده الى جيبه وتناول دفتراً وكتب فيه ما يأتي

« الطبقات العالية لا همّ لها الاّ ملاذها . فهي تفرح وتطرب لانّ الامبراطور يترك لها حرية التمتع بها . فكانّ الدنيا كلها عندها اكل وشرب ولذة . والطبقات الواطئة ترضى باقلّ شيء ولذلك يلهونها باصغر الامور ويعملون على ظهرها كل الاعمال . فهل تنفتح عيونها يا ترى يوماً من الايام »

١ اورشليم وابنة صهيون والقدس والمدينة المقدسة وايليا اسماء مختلفة لبيت المقدس

وما اتى صاحب الكتاب على هذه العبارة حتى اندفع من قسم النساء في الفندق نحو عشرين سيدة ضاحكات مقهقهات وتفرقن في الحديقة . فالقى صاحب الكتاب اليهنّ نظرة ثم عاد الى كتابه بانفةٍ وكبرياء . اما السيدات فلم يصرفن انظارهنّ عنه بل اخذن يتأملن فيه . فقالت احداهن مَنْ هو هذا البارد الذي يقرأ في هذا الظلام والبرد يا اخواتي . اظنه راهباً من رهبان دير ايليا . فضحكت رفيقاتها . واجابت سيدة اخرى وحياة العذراء يا اخواتي انني نظرت هذا الرجل قبل اليوم . فانه في كل مساء يخرج من باب يافا وفي يده كتاب فينحدر الى الوادي ويغيب فيه

فرسمت احداهن علامة الصليب على صدرها وقالت « كيريا لايسون » (يا رب ارحم) اظنه يختلي ببعلزبول . فصاحت بعض رفيقاتها : باسم الصليب الكريم يا تيوفانا انك تذكرين بعلزبول دائماً فيظهر انه بينك وبينه شيء من الصحبة . فضحكت السيدات . واما تيوفانا فانها رسمت علامة الصليب على صدرها وبصقت على الارض موجهة هذه البصقة الى بعلزبول

اما صاحب الكتاب فانه لم يسمع من حديث السيدات سوى هذه الكلمة « دير ايليا » فظن انهن يقلن « اسمه ايليا » فقال في نفسه من اين يعرفني هؤلاء السيدات

ومن البديهي انه لا يخرج النساء الى الحديقة ويبقى الرجال في الداخل . فخرج الرجال على صوت النساء وتفرقوا في الحديقة محيّين السيدات برؤوسهم . وما زالوا يتمشون حتى التقت طلائع الفريقين فتبادلوا التحيات والابتسامات وتداعوا الى الجلوس على مقاعد الحديقة مع شدة البرد . فجلس النساء في صفوف والرجال في صفوف . ودار الحديث بين الفريقين وصاحب الكتاب في زاوية يصغي ويعي

فقالت احدى السيدات متى يصل مولانا البطريرك . فاجابها احدهم سيصل في الليل فقالت اخرى : الظاهر ان هذا العيد سيكون بهيجاً لكثرة الحجاج والوافدين . فهزّ احد الرجال رأسه وقال ان اكثر هذه الجماهير فرّوا من وجه العرب * ولم يقدموا للعيد . فقالت تيوفانا اذا قصدتم الكلام في السياسة فاخفضوا اصواتكم وانظروا الى ما حولكم . فرفع حينئذ احد الرجال صوته وصاح مم نخاف لقد اضاعوا الامبراطورية بطياشتهم . وها ان العرب قد صاروا على ابواب المدينة * فبغتت النساء وصاحت تيوفانا : وهل انكسر مانويلس . فهزّ الرجل رأسه وقال ان قائدنا مانويلس الظريف قد انكسر في « اليرموك » شرّ كسرة * وهذه الواقعة فتحت سوريا كلها للعرب كما فتحت لهم واقعة القادسية بلاد الفرس * ومن ذلك يظهر ان

الامبراطور كان مصيباً في ما فعل . قال الرجل ذلك ثم نظر الى ما حوله . فقالت احدى السيدات ولكن يظهر ان مولانا البطريرك مستاء جداً من صنعه هذا . فقال ذلك الرجل ولكن ما الحيلة انه لم يكن يستطيع ان يعمل غير ما عمل . فانه بعد ان فتح العرب دمشق لانكسار اخيه تيودوروس امامهم في اجنادين (١) لم يبقَ له الا ترك سوريا وشأنها تدافع عن نفسها بنفسها للعودة الى القسطنطينية قاعدة مملكته لان المغول والسلافيين وفيهم البلغار والسرب كانوا يتهددون حياة السلطنة وقد كسر السلافيون جنده وراء القسطنطينية شرّ كسرة * وقد بلغني انه لما خرج من سوريا قادماً الى هنا لاخذ الصليب المقدس من الجلجلة الى القسطنطينية خوفاً* من ان يأخذه العرب كما اخذه الفرس لما فتحوا مدينتنا (٢) وقف على نشز في حدود سوريا مودعاً وقال " السلام عليك ياسوريا سلام لا اجتماع بعده " (٣) ذلك لانه علم انه لا قبلَ له على حفظ سوريا ووراءه من ذكرنا من اعدائه . ومما زاد الطين بلة ايضاً ان الجيش تمردّ * واعلن خلعه . فكيف يبقى في هذه البلاد ليدافع عنها بنفسه وتلك حال سلطنته وعاصمته . ان البطريرك مخطىء في استيائه .

فقال رجل آخر وهناك سبب آخر يوجب على البطريرك ان لا يستاء من ترك الامبراطور سوريا وفلسطين وشانها تعتمدان على قواتها الداخلية فقط . وهو اعتلال صحته واضطراب عقله . فانني شاهدتُ الامبراطوار مرتين . المرة الاولى منذ ثماني سنوات لما عاد الينا من حرب الفرس ظافراً منصوراً بعد ان سحق سلطنة كسرى الكبير وهدم معابد النيران واستردّ الصليب وجاء لاعادته الى الجلجلة * فانه كان يومئذ في اوج عزه وعظمته . وكانت الامبراطورية كلها تتحدث يومئذ بسطوته وشاعره « الراهب جاورجيوس بيسيديس » الذي هو معلم اعترافه ايضاً ينشر فيه القصائد الرنانة التي تثير الافكار ويشبهه بالبطل اشيل وقسطنطين الكبير * فيومئذ كان الامبراطور معبوداً عند شعبه وكانت لوائح السعادة تظهر على وجهه . ولست انسى في حياتي منظره لما حمل في كنيسة الجلجلة في مدينتنا الصليب بنفسه وصعد به وحده الى موضعه في الجلجلة لنصبه بيده * فقد كانت لوائح القوة والصحة ظاهرة عليه . اما المرة الثانية التي شاهدته فيها فهي منذ مدة لما عاد الينا من انطاكية

«١» سنة ٦٣٤ للميلاد

«٢» سنة ٦١٤ الميلاد

«٣» رواه ابن الاثير واثبتهُ درابيرون . وهذه عبارة ابن الاثير بالحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي ابداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم)

بعد استيلاء العرب على دمشق لياخذ الصليب الى القسطنطينية وينصبه في كنيسة هاجيا صوفيا * ففي هذه المرة كان الاضطراب والضعف بادبين في وجهه . وصحته كانت في اسواء حال وهذا ما منعه من قيادة جيوشه بنفسه * للدفاع عن دمشق والقائه عهدة ذلك الى اخيه ثيودوروس الذي اساء في الدفاع فناله غضب الامبراطور * ثم نظر المتكلم الى ما حوله كأنه خائف ان يسمعه احد وقال : وهناك اخبار جديدة وردت في هذا الاسبوع من القسطنطينية تثبت ان الامبراطور اصبح في حالة صعبة لطف الله به . فان عقله صار مضطرباً * لكثرة مشاكل السلطنة . ويُخشى ان يفقد صوابه * وقد علمت عن ثقة انه لما وصل الى قصره في القسطنطينية اضطر رجاله ان يبنوا له على البوسفور امام قصره حواجز خشبية على صفين من الجسور وتغطيةهذه الحواجز بالخضرة والنباتات * لاخفاء منظر البحر عنه لانه اصبح يخاف خوفاً شديداً المجرَّد وقوع نظره على البحر * فهل من حق البطريرك ان يلوم رجلاً هذه حالته العقلية والصحية

وكان بين الرجال رجل يتشاغل عن هذا الحديث بفرك يديه ووجهه من البرد فلما فرغ المتكلم من كلامه التفت الى الحاضرين وقال : هل تعتقدون انَّ البطريرك مستاء من الامبراطور من اجل مسألة الدفاع عن سوريا وفلسطين فقط . كلا فان الاستياء بينهما قديم

فقال الرجل الذي تكلم سابقاً نعم نحن لا نجهل ما قام بينهما من الخلاف في المسألة الدينية * ولكن ما هذا وقته الآن . فان الواجب علينا لوطننا وديانتنا ومملكتنا ان نكون كلنا يداً واحدة ونفساً واحدة امام العدو . والا كانت العاقبة وخيمة علينا

فانبرت هنا احدى السيدات وصاحت . يا لله اننا قدرنا على سلطنة عظمى كسلطنة الفرس فسحقناها واحتللنا عاصمتها * وقبائل بدو ضعاف حفاة كقبائل العرب لا نقدر عليها

فساد السكوت حينئذ بين الحاضرين لان هذا السؤال البسيط نقل الحديث الى اهمّ المواضيع اي الى اسباب ضعف الامبراطورية يومئذ مع قوّتها في ما سبق . فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وابتسموا . وكان فيهم السوريون واليونان بين شرقيين وغربيين * فكأنهم ارادوا بابتسامهم ان يقولوا ان ذلك العيد يوم فرح وسرور لا يوم مناقشات ومخاصمات في امور سياسية دينية جنسية * فقد كفى الناس مخاصماتهم في هذه الامور في باقي ايام الاسبوع *

الفصل الثاني

يهودي يهودي

في ان العامّة في كلّ مكان تصدر احكامها بلا تحقيق ولا محاكمة

اما ايليا فانه كان يضحك من زاويته لترك الرجال سؤال السيدة بلا جواب . وكان السيدات شعرن حينئذٍ بقرص البرد لانقطاع الحديث فنهضن مبتسمات مرتجفات من القرّ واسرعن الى داخل الفندق . وكان صاحبنا ايليا قد مدّ يده الى جيبه ليتناول دفتره ويجاوب فيه عن ذلك السؤال . واذا بصيحة شديدة علت في الشارع وصار الناس يصرخون ويجلبون . فهرع الرجال الى الباب وفي مقدمتهم صاحب الكتاب وجمدت السيدات في مكانهنّ مرعيات السمع لمعرفة سبب ذلك الصياح . فسمعن العامة يصيحون « غضب الله غضب الله » « يهودي يهودي في المدينة » فلما سمع صاحب الكتاب وقد عرفنا ان اسمه ايليا كلمة « يهودي » وثب الى الشارع وهو يقول في نفسه « هذه رواية جديدة لم نمثلّها منذ زمان » فوجد الناس في هياجٍ شديد لا مزيد عليه وهم يروحون ويجيئون باحثين مفتشين عبثاً . فهذا يقول « رأيته مرّ من هنا وهو بلحية طولها كالذراع ووجه اصفر كوجه الاموات » وآخر يقول « لا بل هو بلا لحية ولكن قامته بطول اربعة اذرع وراسه صغير صغير كالرمانة » وذاك يقول « لا لا لم ارهُ هكذا وانما رايته قصيرًا لا يتجاوز الذراع ولحيته تكنس الارض من قصره » فضحك ايليا من هذه الاقوال المتناقضة واستوقف احد الصارخين وكان من اكثرهم تحمساً وقال له : اخبرني ايها الرفيق ما سبب هذا الاضطراب . فاجاب الرجل وهو يلهث من تعبه في الصراخ : الا تعلم السبب . ان يهودياً اجترأ ودخل بيت لحم ليلة العيد فيجب ان نمسكه ونصلبه . فقال ايليا وقد ارتعدت فرائصه من ذكر الصلب . ومن اين علمتم ذلك اذا كنتم لم تمسكوه بعد . فاجاب الرجل علمنا ذلك باعجوبة سماوية . فان المصباح في مغارة المهد انطفاء من تلقاء نفسه وكما راموا اشعاله لا يشتعل . وهذه علامة قطعية على وجود يهودي في المدينة يُغضب وجوده اهل المقام

فهزّ ايليا راسه وقال في نفسه : الويل للبريء الذي يشتبه به العامة ويقبضون عليه بدعوى انه يهودي فانه يذوق العذاب والاهانة قبل ان يستطيع ان يُثبت انه ليس بيهودي . ثم قال للرجل : اتريد ان ابرهن لك انه لا يهودي في بيت لحم الآن . فقال الرجل محملقاً

وما برهانك · فقال ايليا اذهب معي الى مغارة المهد وهناك اصبّ امام عينيك شيئاً من الزيت في المصباح الذي انطفاء من تلقاء نفسه فتعلم حينئذ انه لم ينطفيء الا من نفاد زيته

فرسم الرجل حينئذ علامة الصليب على صدره صائحاً «باسم الصليب الكريم» ثم صرخ مشيراً الى ايليا «هذا هو اليهودي فانه ينكر العجيبة» (اي المعجزة)

فلم يكن كلمح البصر حتى تاءلب حول ايليا جمهور من العامة واخذوا بثيابه ويديه وعنقه · وكان احدهم يلطمه في كتفه وآخر يدفعه في صدره وثالث يصفعه على قفاه وهم يصيحون باعلى اصواتهم «مسكناه مسكناه يهودي يهودي» وكان ايليا في اثناء ذلك يتملص منهم ولكن على غير فائدة · وما زالوا يجرّونه ويدفعونه والجماهير تزداد التفافاً حوله حتى وصلوا به الى باب الكنيسة امام البيت الاحمر · وكان الضيوف في البيت الاحمر قد خرجوا الى الشارع حين سماعهم تلك الجلبة والسيدات وقفن في الباب ينظرن الى هذا الاضطراب · فلما وقعت انظارهن على ايليا بين تلك الجماهير في تلك الحالة شهقن شهقة واحدة من الاستغراب والدهشة · وصاحت تلك التي قالت في ما تقدم انها كانت تنظره يخرج من باب يافا : وحياة العذراء مريم ان هؤلاء الناس معتدون على هذا الرجل · فانني متحققة انه ليس بيهودي لانني نظرته مراراً ينحني امام الصلبان والرهبان حين دخولهم في بعض الاحتفالات من باب يافا · وانا انظره في المدينة منذ سنوات · فازدادت النساء حناناً وشفقة على الرجل · وقد قالت تلك السيدة هذا القول دون ان تخشى لائمة فيه مع معرفتها انه يحتمل التاءويل عليها · ولكن قلبها كان في تلك الساعة كبيراً لرغبتها في انقاذ رجل بريء فافتكرت بغيرها لا بنفسها

وبينما كانت هؤلاء السيدات مشتغلات بالاسف والكلام كانت واحدة منهنّ وهي تيوفانا التي تقدّم ذكرها قد ركضت الى داخل الفندق اول ما وقع نظرها على ايليا بين الجموع · وبعد بضع دقائق عادت ووراءها رجل غريب المنظر وهو يفرك عينيه من النعاس كانه كان نائماً واستيقظته · وكان هذا الرجل كبير الهامة عريض الاكتاف طويل القامة شعره منتشر على كتفيه كشعر الرهبان وفي عينيه لوائح الغلظة والحدّة والذكاء · فلما راته السيدات صرخن «اهلاً وسهلاً بالنبي ارميا» وقالت له تيوفانا مشيرة الى ايليا بين الجموع «انظر الى هذا المسكين فاذهب وخلصه»

ولكن ما وقع نظر النبي ارميا على ايليا حتى اسرع اليه متفرساً فيه من بعيد · ثم صاح باعلى صوته «النبي ايليا» فالتفت حينئذ ايليا واذ ابصر الرجل القادم صاح به «اليّ يا صديق»

فهجم النبي ارميا على الجموع صائحاً اليكم عنه اليكم عنه . فانزاحت الجموع من طريق الرجل القادم وهم يصيحون مسرورين « اهلاً بالنبي ارميا . سلموه اليهودي ليصلبه » فسلمه العامة ايليا وهم يحومون حوله وايليا يلهث من التعب والالم لا من الخوف . فاخذه ايليا من يده ودنا منه فقبَّله امام الحاضرين ثم قال على مسمع منهم « اذا كنتُ انا يهودياً فهذا الرجل يهودي » فدهش الحاضرون حينئذ واخذوا يتفرقون عن ايليا وهم نادمون لاسائتهم اليه . اما ايليا فاخذ يصلح ملابسه ثم انه شكر للنبي ارميا مساعدته واوصاه ان يُبلغ السيدات شكره وبعد ذلك استأذن ارميا بمفارقته للتفتيش على الرجل الذي كان السبب في الاساءة اليه . وعاهده على ان يلاقيه في المكان الذي اعتاد ملاقاته فيه

وبينما كان ايليا يفتش في ذلك الشارع عن الرجل الذي حرَّض الناس عليه وهو لا يزال في اشد هياج كان العامة قد عادوا الى الاضطراب والحركة واخذوا يتصايحون قائلين « فتشوا على اليهودي ... والاَّ لم يُقم عيد ولا احتفال لان المصابيح « تأبى » الاشتعال ... هل وجدتم اليهودي ... هل بحثتم في ذلك الشارع ... هل قلبتم الحجارة في الطريق لعله مختبئ تحت احدها »

فمن هذا المزاح يظهر ان العامة كانت بذلك تقصد الهزل على الاكثر اذ لم يكن لديها شيء يلهيها . وهذا ما يحدث في اكثر الفتن والاضطهادات . فان المضطهد (بكسر الهاء) والمضطهد (بفتحها) كثيراً ما يكونان كالهر والفأر الاول يلعب والثاني يتعذب

وكان ايليا قد بلغ حينئذ طرف الشارع دون ان يجد الرجل الذي كان يبحث عنه . وكان ذلك الجانب يكاد يكون خالياً من الناس لبعده عن الكنيسة . فلما وصل الى منعطفه همَّ ان يقفل راجعاً واذا به يسمع هامساً يقول « اسرعي يا استير »

فما سمع ايليا اسم « استير » حتى اجفل وهرع نحو الصوت . فشاهد شبحي رجل وامرأة يسيران في الشارع الثاني . فوقف مبهوتاً ينظر اليهما وقد اشتبه في امرهما من اسم « استير » اليهودي . فقال في نفسه ترى هل صدق ظن العامة ودخل بعض الاسرائيليين الى هذه البلدة في ليلة العيد لمشاهدته مع ما هو مشهور من تحريم الدخول عليهم الى اوروشليم ونواحيها . ولما كاد الشبحان يتواريان اسرع ايليا فقطع عليهما الطريق من شارع الكنيسة ثم عطف على الشارع المقابل لشارعهما فصار امامهما . فسمع الرجل يقول للمرأة باللغة العبرانية همساً « لا تخافي لا تخافي » فتحقق ايليا حينئذٍ ان الرجل والمرأة اسرائيليان لا شكَّ فيهما . فاضطرب لذلك اضطراباً شديداً . ووقف في زاوية ينتظر مرورهما عليه في ذلك الشارع

الخالي . وكان سبب اضطراب هذا الشاب يدلُّ على اخلاقه . فانه لم يضطرب لمنظر الدم الذي سفك دماً زكياً عنده . فان نفسه كانت ارقى من نفوس العامة بكثير . بل كان اضطرابه لعلمه انَّ العامَّة اذا ظفروا بهذا الرجل ورفيقته فانهم يقيمون الدنيا ويقعدونها عليهما لمخالفتهما امر الحكومة بمنع دخول الاسرائيليين الى بيت المقدس ونواحيه . وربما لقيا من الحكومة اشد عقاب من اجل امر صغير كهذا الامر

وبعد دقيقة وصل الرجل والمرأة الى محاذاة ايليا فامعن ايليا من زاويته النظر فيهما فاذا به يرى رجلاً في نحو الستين او السبعين من العمر وفتاة في نحو العشرين . وكانت ملابسهما كملابس رجال وسيدات اورشليم . وكان الخوف بادياً على وجهيهما الا ان خوف الفتاة كان يطبع على وجهها جمالاً سماوياً ساحراً . وكانت الزفرات تتصاعد من صدرها وهي سائرة فتخنقها ولكنها تتمالك نفسها رغماً عنها لئلا يُسمع صوتها في هدوء ذلك الليل

فلما لمح ايليا في ذلك الليل هذا الجمال الخائف وطرقت اذنه تلك الزفرات المتصاعدة عن قلب مضطرب متألم من عدوان البشر شعر الشعور الذي يشعر به كل رجل كريم يعرف واجباته الانسانية في حال كهذه الحال . فقال في نفسه انني ساكون الزم لهذين الخائفين من ظلهما . فساتبعهما واحرسهما من بعيد واذا طرأ عليهما سوء وقيتهما منه بنفسي . — وعلى ذلك اخذ يسير وراءهما

اما الشيخ والفتاة فانهما ما قطعا البلدة حتى وصلا الى الطريق العمومية الموصلة الى القدس فهناك تنفسا الصعداء قليلاً . وكان في ذلك المكان محطة للخيل والبغال فاستأجرا بغلين الى القدس وركبا قاصدين المدينة . فجاء ايليا بعدهما واستأجر جواداً وسار وراءهما

الفصل الثالث

❊ على الطريق ❊

في ان الفتاة قد تكون اشد تمسكاً بمبدءها من الشيخ لان نفسها عذراء لم يلوّثها الخوف والجبن ورجاء الفائدة

وكان الناس لا يزالون يفدون على بيت لحم من القدس وهم منتشرون على طول الطريق بين مشاة وركاب وفيهم المغنون والعازفون بالآلات الموسيقية . فلما راى الشيخ والفتاة ذلك علما انهما ما زالا في خطر . وفي الحقيقة ان الناس كانوا ينظرون اليهما حين المرور

بهما نظر الاستغراب لعودتهما في تلك الساعة من بيت لحم مع ان جميع الناس كانوا حينئذٍ ذاهبين اليها

ولم يصل الشيخ والفتاة الى محاذاة المكان المعروف بقبر راحيل حتى سُمع للفتاة شهيق وزفير ضعيف · فصاح بها الشيخ همساً اياك والبكاء يا استير والاَّ تفضحينا · فقالت الفتاة· استُ ابكي على راحيل بل على انفسنا وعلى حياتنا التعيسة (١)

ولقد أحسنت الفتاة بترك البكاء في ذلك الحين اذ بعد دقيقة سُمع على الطريق امامهما جلبة شديدة · وكان السبب في ذلك قدوم شرذمة من الجنود الفرسان مسرعة من القدس لان والي المدينة بلغه خبر الاضطراب في بيت لحم وهيجان الشعب لظنهم أن في المدينة رجلاً اسرائيلياً فرأى زيادة الجند هناك · فلما نظرت الفتاة لمعان السلاح في الليل وسمعت ضوضاء الخيل ارتعدت فرائصها وغار الدم الى قلبها · فشجعها رفيقها بكلام رقيق تظهر فيه القوة مع انه كان خائفاً مثلها · اما الجند فمرَّت خبباً بانتظام جميل · فتنفس الاثنان الصعداء · وكان ايليا قد دنا منهما اكثر حين سماعه تلك الحركة

فلما مرت الجنود صار الناس يتساءلون عن سبب ارسالها بسرعة كهذه السرعة · ولما عرفوا السبب انتشر بينهم بسرعة البرق فضحك منه الراكبون لعدم تصديقهم اياه واما المشاة فانهم جدُّوا في السير لمشاهدة المصابيح التي ابت ان تشتعل واليهودي الذي امسكه الناس · وكانوا في اثناء سيرهم يتهددون ويتوعدون ذلك اليهودي الذي كدر صفوهم في ذلك العيد· فلما وصلت طلائع هذه الجماعات الى الشيخ والفتاة وسمعا حديثهم عراهما حينئذ خوف شديد · اما الناس فلما ابصرا الشيخ والفتاة اخذوا يحدقون فيهما و يعجبون بعودتهما في تلك الساعة قبل الاحتفال بالعيد · وكانت تصوراتهم ملتهبه للقصة التي سمعوها عن بيت لحم فاخذوا يقتربون من البغلين و يتفرّسون في صاحبيهما وهم سائرون · فاصاب الفتاة ضعف شديد فمدَّت يدها وغطّت بها وجهها لتخفي لوائح الاضطراب والاصفرار وفي الوقت ذاته بدرت منها زفرة رغماً عنها لان صدرها ضاق بما كانت تجده من الاضطراب · فازدادت شبهة الناس فيهما وصاروا يلتفتون نحوهما من كل جانب· ثم قوي قلب بضعة من المتحمسين

---

(١) راحيل هي امراة يعقوب ويُقال ان قبرها هناك وان كان ذلك يحتاج الى اثبات · وهو اليوم مزار مبني للاسرائيليين · وقد دخلنا اليه منذ نحو ١٣ سنة فوجدنا فيه عشرات من النساء الاسرائيليات يبكين فيه وينحن ويلطمن حزناً على راحيل وعلى اسرائيل وهنّ بحالة تشبه حالة النساء فوق الميت تماماً من حيث البكاء واللطم والهياج

منهم فاتجهوا نحو البغلين وامسكوهما ليسأَلوا الراكبين عن حادثة بيت لحم وبذلك ينبشون حقيقـة امرهما

فلما رأَت الفتاة ذلك لم تتمالك ان اجهشت بالبكاء واطلقت لزفراتها العنان . اما الشيخ فقد صار وجهه كوجوه الموتى من الاصفرار لانه تحقق الخطر . واما ايليا فانه اعمل المهماز في شاكلة الجواد وبوثبتين صار بجانب البغلين

وكان الناس قد تأَلبوا حول الشيخ والفتاة من كل صوب حتى سدَّت الطريق وصار كل قادم ينضم اليهم مستخبرًا مستعلمًا . وكان هذا يقول انهم قد القوا القبض على اليهودي الذي فرَّ من بيت لحم . وذاك يقول بل هذا رفيقه لا هو نفسه لان ذاك مسجون في بيت لحم الى ان يحضر البطريرك . وهكذا شبهات العامة وتصوّراتها احيـانًا تكون مصيبة واحيانًا مخطئة . فاذا اصابت اكتشفت ما لا يستطيع احد غيرها اكتشافه لان اكتشافه انما يكون بالشبهة والتهمة اي بالصدفة . واذا اخطأَت فالويل للبريء الذي ينشب فيه سهم خطاءها

فلما وصل ايليا الى الجموع المتأَلبة صاح بها بلغة يونانية فصيحة . افسحوا الطريق يا اخوان فاننا نريد المرور . فقال له احدهم ولماذا تركتم بيت لحم في هذه الساعة هل تكرهون حضور العيد والقداس في الصباح . فقـال ايليا انا سائر الى المدينة في شأن خصوصي وساعود قبل الفجر لحضور القداس معكم (١) فساله الحاضرون ورفيقاك هذان . فاجاب انا سائر وحدي ومن هما هذان المسافران . ثم التفت الى الشيخ وساله ايها الاخ هل انتَ ذاهب مثلي الى المدينة لتعود قبل الفجر . فقالـــ الشيخ حينئذٍ بلغة يونانية عامية نعم ايها الاخ الكريم . فقال ايليا انت اكرم يا اخي فهلمَّ بنا نسير معًا . فافسحوا الطريق يا اخوان ولتهنئوا بالعيد المجيد

ولكن الجمهور لم يتفرق بل كانت انظاره متجهة الى تلك الفتاة الحسناء التي بكت منذ حين بكاءً يدل على الخوف . فقال احدهم . ولكن لم تخبرونا شيئًا عن اليهودي الذي قبضوا عليه في بيت لحم فماذا صنعوا به . فهنا ظهر الارتعاد على الفتاة رغمًا عنها . وما الحيلة باعصاب النساء فانها ضعيفة . فازدادت شبهة المتحمسين وصاح احدهم : الحق نقول لكم اننا لا نترككم تمرّون الاّ اذا وجدنا بيننا من يعرفكم وقد رآكم في المدينة . فهلموا بنا الى دير مار الياس القريب على الطريق *وهناك نراكم على النور

فهنا علم ايليا ان الجبانة مضرَّة ولا يفيد شيء مثل الجراءة والشجاعة . فقالـــ بنزق

(١) المسافة بين بيت لحم والقدس خمسة اميال

وحدّة لاسيما وانه كان يعلم تأثير بعض الالفاظ على اذهان العامة : الا تخجلون ايها الاخوة من القاء الشبهة على مسيحيين مثلكم « باسم الآب والابن والروح القدس » قال ذلك ورسم علامة الصليب على صدره . ثم قال للشيخ والفتاة برهنا لهم مثلي على انكم مسيحيون ايضاً

فعند هذا الكلام اتجهت جميع الانظار الى الشيخ والفتاة . اما الشيخ فانه مدّ يده بكل تأن ورسم علامة الصليب على صدره كما رسمها ايليا . واما الفتاة فان يدها لم تتحرك . بل عاودها البكاء

فهنا علم ايليا الخطأ العظيم الذي حدث . وزاده علماً به تهيج العامة حينئذ ونداؤهم « فلتصلّب الفتاة فلتصلّب الفتاة » اي فلترسم علامة الصليب على صدرها . فرأى الشيخ حينئذ ان الخطر قد وقع ولا سبيل لرده . فقال بصوت يرتجف من التأثر والانفعال . نعم هي تصلّب يا اخوان . صلّبي يا بنيّة واسألي الهنا ان يعينك على المرض الذي تبكين منه

فشعر ايليا بما في هذا الكلام من المعنى . وحدّق في يد الفتاة ليرى اتخلّص نفسها ورفيقها ام لا . فاذا بيد الفتاة قد بقيت جامدة وزاد بكاؤها

فهنا اشتد اللغط والهياج بين العامة وصار المتحمسون منهم يصيحون « يهودية يهودية » وسرى كالبرق بين القادمين والحاضرين انهم امسكوا يهودياً ويهودية . فاشرأبت الاعناق وتطاول الناس لرؤيتهما . وفي هذه الاثناء دنا ايليا من الشيخ وحدّثه ملياً والناس لا يسمعون حديثهما . وبعد حين التفت ايليا اليهم وقد عدل عن الخطة الاولى الى خطة جديدة فقال ضاحكاً مخاطباً الجمع : الآن ايها الاخوان عرفتُ حقيقة المسألة . ويكفي ان اقول لكم انّ هذه الفتاة الصغيرة السن قد قدمت منذ اسبوعين من بُصرى (١)

فصاح الجمع حينئذٍ باصوات متقطعة متتابعة « بُصرى بُصرى ... هاهـا فهي اذاً وثنية ... بصرى بُصرى ... صحيح صحيح . لذلك هي بهذا الجمال . ان « باكوس » الملعون قد كساها كل جماله ... كيريالايسون كيريالايسون ... هلموا بنا الى بيت لحم لتعميدها في هذه الليلة ليلة العيد »

ثم صاح احدهم . ورفيقها هذا أهو من بُصرى ايضاً . فاجاب ايليا لا بل هو من المدينة ولكنه جاء بها لارشادها وتعميدها

«١» بُصرى مدينة ادومية مشهورة في فلسطين كانت آخر المدن الفلسطينيّة التي عُبدت فيها آلهة الرومان واليونان الاقدمين وكان فيها هيكل للاله « باكوس » وهو ابن جوبتير واله الخمر . وكانت في مقدمة المدن التي فتحها العرب عند حملتهم على الشام . وقد اخرنا تاريخ الوثنية فيها للرواية .

هذه هي الحيلة التي دبرّها ايليا لانقاذ الفتاة . فانه كان يعلم انّ العامة يتساهلون مع الوثنية اكثر من اليهودية اذ ليس بين المسيحية والوثنية دمٌ زكي وثأر عظيم فضلاً عن ان الاولى كانت على ثقة من ان مصير الثانية اليها . ولم يكن محرماً على الوثنيين دخول اورشليم . ومن جهة اخرى فقد كان يعلم ايضاً بناءً على ما ظهر له ان تلك الفتاة قد تفضّل اسم « وثنية » على اسم « مسيحية »

و بينما كان الناس يتحدثون و يلغطون مسرورين بانهم سيعيّدون في تلك الليلة عيدين عيد الميلاد وعيد هداية نفس بشرية واذا بالمشاعل والمصابيح قد ظهرت في الطريق من جهة القدس . فعلم الناس حينئذ ان البطريرك قادم بموكبه الى بيت لحم استعداداً لصلاة العيد . فسرّ الحاضرون بذلك لرغبتهم في ان يدفعوا الى البطريرك الفتاة الوثنية يداً بيد . ولذلك انتظروا جميعاً وصول الموكب . اما ايليا فقد لبث واقفاً بجانب الشيخ والفتاة يفكّر في طريقة لحلّ هذه المشكلة وقلبه يتفطر شفقة على تلك الفتاة كلما وقع نظرها الفاتر الكسير على نظره . ولكن الحق يُقال ان عاطفة الشفقة هذه كانت ممزوجة بعاطفة اخرى ايضاً . .

الفصل الرابع

البطريرك صفرونيوس

الذي فتح العرب بيت المقدس في زمنه

و بعد عشر دقائق وصل البطريرك

وكان جالساً في مركبة خصوصية له تتقدمه المشاعل والمصابيح وشرذمة من الجند وراء المركبة وامامها . ووراء الجند حاشية من الرهبان يركبون جياداً كريمة . وكان الجميع سكوتاً كانّ على رؤُوسهم الطير الاّ جماعة الرهبان في المؤخرة فانهم كانوا يتحدثون همساً اذ من طبعهم انهم لا يستطيعون السكوت

ولما ظهرت مركبة البطريرك للجموع تتقدّمها الانوار اخذ الحاضرون يستقبلونه متغنين بهذا النشيد الذي هو نشيد عيد الميلاد « المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرّة » وكانوا في اشد حالات الهياج من التحمس الديني . وكان بعضهم سكارى لان يوم العيد يوم فرح وشراب عند العامة . فقال ايليا حين سماعه ذلك النشيد

الجميل « نعم . السلام في الارض لقسم من سكان الارض . اما هذا الشيخ والفتاة فاين السلام منهما الآن »

ولما وصل البطريرك كان النشيد والهتاف متصلين فمدّ يده و بارك الحاضرين في الجانبين اي انه رسم بيده علامة الصليب في الهواء بجهة الحاضرين . ثم وقفت المركبة واستفهم البطريرك عن سبب ذلك الاجتماع والضوضاء فابلغه احد الرهبان السبب . فطلب ان يرى الفتاة فقدّموها اليه ووراءها الشيخ وايليا . فاجال فيها البطريرك نظره بدون اهتمام ثم امر بان تُعاد الى بيت لحم حيث هم ذاهبون وهناك يرى رأيه

فلما سمع ايليا ذلك رأى ان الخطر قد ازداد شدة . فان البطريرك اذا دخل في موكبه مع تلك الفتاة الى بيت لحم في تلك الليلة فان المتحمسين يقيمون الدنيا و يقعدونها بتحمسهم وتجمهرهم . واذا عرفوا الحقيقة بعد ذلك فالله يعلم العاقبة . فخطر له ان يجرّب تجربة لعله ينجح فيها . فانفرد عن الناس وكشف راسه وانحنى للارض امام البطريرك ثم تناول يده فلثمها وقال بيونانية سليمة من كل شائبة : هل تسمحون غبطتكم لابنكم المطيع بان يحدثكم على انفراد

وكانت على وجه البطريرك لوائح الضجر واشتغال البال . ومع ذلك اشار بيده اشارة فانزاح الحاضرون عنه وبقي منفرداً مع ايليا

فقال له ايليا : مولاي ان الهياج شديد في بيت لحم كما بلغكم ولا شك . والشعب كاد يفتك بي انا ابنكم بمجرد الشبهة . فكيف يكون حاله اذا دخلتم بهذه الجماهير مع الفتاة الغريبة وهو لم ينسَ بعد ما لقيه المسيحيون من امبراطرة رومة انصار الآلهة

فاجاب البطريرك وهو يفرك انفه بمنديل اسود لتدفئته : ايها الشاب ان ارسال الفتاة الى بيت لحم حيث نحن موجودون اصون لها من ارسالها الى المدينة وحدها

فعلم ايليا ان حيلته لم تجدِ نفعاً فلم يبقَ له الا مصارعة الحقيقة وجهاً لوجه . فقال للبطريرك بصوت يرتجف : وان ظهر هناك للشعب يامولاي ان الابنة ليست بوثنيّة

فاجاب البطريرك متضجراً فلتكن مسيحية فان هذا يسرّ كل واحد منا

فقال ايليا : وان لم تكن مسيحية

فهنا بهت البطريرك وحدّق في ايليا . ثم راجع نفسه فتظاهر بانه لم يفهم كلام ايليا . فقال له اركب يا ولدي اركب وسنتباحث في هذه الامور هناك

فحينئذٍ تنفس ايليا الصعداء ورجع باسماً نحو الشيخ والفتاة لانه قرأ في عيني البطريرك

ما يريد معرفته

وفي ذلك الحين تحرك الموكب تتقدمه وتتلوه الجموع والجنود والمصابيح والرهبان . وايليا والشيخ والفتاة على مطاياهم في المقدّمة والناس ينشدون حولهم نشيد العماد المشهور مشيرين الى الفتاة وطالبين تعميدها

« باعتمادك يارب في نهر الاردن . ظهرت السجدة للثالوث . وصوت الآب تقدم لك بالشهادة مناديًا اياك ابنًا محبوبًا . والروح كهيئة حمامة يؤكد تجسيد الكلمة . فيا من انقذت العالم من الخطيئة يارب المجد لك »

وما زالوا بهذا النشيد والهتاف والضجك حتى وصلوا بيت لحم فدوت البلدة من جهاتها الاربع وانضمّ المجتمعون فيها الى القادمين ودخلوا بالبطريرك وايليا والشيخ والفتاة على نغم هذا النشيد المشهور

« اوصنا في الاعالي . مبارك الآتي باسم الرب . اوصنا في الاعالي »

وكان للبطريرك قصر رحب قائم وراء الكنيسة يقيم فيه مع حاشيته كلما قدم الى بيت لحم . فبعد ان استراح فيه هنيهةً امر بان يستدعوا اليه الشاب ايليا . اما الشيخ والفتاة فانهما أُدخلا الى احدى غرف القصر وأُقفل عليهما الباب

فلما مثل ايليا بين يدي البطريرك امره البطريرك بالجلوس بازائه فجلس ايليا محتشمًا وكان البطريرك صفرونيوس مهيب المنظر جميل الهيئة وهو في نحو السبعين من العمر . وكان شعره الابيض يكلل هامته العالية ووجهه الناصع البياض الشديد الحمرة تلمع فيه عينان زرقاوان حادّتان لم تكسر السنون قوتهما . وكان له فوق هاتين العينين القويتين حاجبان كثيفان واسعان كانهما حرشان مشتبكان فاذا قطبهما خلتَ ان العينين صارتا بركانين يقذفان نار الغضب والحدّة . وكان بدنًا ممتلىء الجسم وعليه ثوبه الكهنوتي الحريري الاسود يعاكس لون وجهه الابيض فيزيده جمالاً وجلالاً

فلما جلس ايليا سأله البطريرك ان يقصّ عليه القصة من اوّلها وان لا يكتمه شيئًا . فقصّ عليه ايليا حادثته وكيف خاصه النبي ارميا . فابتسم البطريرك لذكر النبي ارميا لانه كان مشهورًا . ثم استطرد ايليا من ذلك الى حادثة الشيخ والفتاة لحين وصول البطريرك . فاصغى اليه البطريرك ساكتًا . وبعد ان تامل قليلاً ساله وما هو غرضك يا بني من المداخلة في هذا الامر . فاجاب ايليا مضطربًا لي غرضان واحد للدفاع عن النفوس البشرية التي حرَّم الله اذيتها . وواحد للدفاع عن ديانتنا

ولكن من يعرف اسرار ايليا فانه لا يشك في انه كتم غرضاً ثالثاً وهو الميل الذي بدا يشعر به نحو تلك الفتاة الحسناء

فحدّق البطريرك في وجه الشاب مدهوشاً وقال فسر كلامك يابني

فقال ايليا وقد بدا يتحمس : يظهر ان غبطتكم يسرّكم ان تسمعوا من فمي ذلك والا لاكتفيتم بما تعرفونه من هذا القبيل . وحسبي ما فهمته منكم على الطريق . فانه من المشهور يامولاي ان الخصم لا يُستمال بالعنف والشدة والبغض . فاذا وقع بين ايدينا كان حكمه علينا تابعاً لمعاملتنا له . فاذا احسنا معاملته واغضينا عن اساءاته قال اننا قوم كرام متمدنون وربما عاد وانقلب فصار ميالاً الينا . وان عاملناه بالعكس قال بالعكس وازداد بغضاً لنا . فيجب علينا في رأيي ان نحسن معاملة غيرنا لنثبت له فضل مبدئنا . والاّ كان محقاً في كرهه لنا ولمبدئنا

فاطرق البطريرك يفكر . ثم سأل الشاب هل اسمك الخواجا ايليا يابني . فقال الشاب مدهوشاً من نقل الحديث ومعرفة البطريرك اسمه : نعم يا مولاي . فقال له وهل انت الذي يراك رهباني هائماً على وجهك في جبل الزيتون ووادي سدرون وحول المدينة المقدسة . فقال الشاب وقد زادت دهشته . تلك طريقي يا مولاي الى المزرعة التي انا مستخدم فيها . فقال البطريرك وقد هزّ رأسه انك تعني مزرعة الشيخ سليمان الذي حرّم على الكهنة الدخول اليها وجعلك «كاهناً عامياً» لها ولذلك يسميها «اورشليم الجديدة» بدل اورشليم مدينتنا. فاطرق الشاب هنا خجلاً واستحياء من شيخوخة البطريرك ورقته . فقال البطريرك مظهراً الاستياء . لا بأس لا بأس . ولكنني انصحك يا بني ان تخفف على نفسك فلقد نظرتك امس من نافذة قصري في المدينة تنظر الى القصر وسكانه بهيئة الازدراء والاحتقار . وكنتُ في تلك الساعة اقرأ تقريراً فيك مقدماً من احد عارفيك . فما لنا يا بنيّ وللاهتمام بما لا يعنينا . انما علينا ان نعيش بحب وسلام مع جميع الناس . فان الصغار اخوة لنا كالكبار وكلنا عائلة واحدة بالرب . وانت لا تزال شاباً ولذلك يغلي دمك في عروقك . وحسبي دليلاً على ذلك اللهجة التي سمعتها منك الآن . فان غيري لو كان في مكاني لما قَبلها منك. فهل تعدني انك تعدل عما مضى وتترك ما لا يعنيك

فلما سمع ايليا هذه العظة الصغيرة التي لم يكن يتوقعها اسقط في يده . واحتار في الجواب . فادرك البطريرك اضطرابه فمدّ يده وامرّها على راس الشاب تحبباً وقال . حسن حسن سنترك كل ما مضى ولا شك . فلنعد الى امر الشيخ والفتاة . هل تعرف منزلها . فاجاب

الشاب . كلا يا مولاي . فقال ومن أين قدما . قال لا أعلم . فقال وما سبب مجيئهما الى هنا مع معرفتهما ان الدخول الى المدينة المقدسة محرّم قطعياً على اليهود . فقال لا اعلم يا مولاي . فقطب البطريرك حينئذٍ حاجبيه وقال : انك لا تعلم شيئاً من امرها ومع ذلك تتوسط لهما بالعفو بحجة الرفق والرحمة . فالرفق والرحمة يا بني فضيلتان واجبتان ولكن يجب ان نبحث هل وراء هذين الشخصين دسيسة لنا ام لا

فضحك ايليا في نفسه من هذا الفكر ونظر الى البطريرك مبهوتاً . فقال له البطريرك لعلك لم تفهم كلامي بعد . انني اريد قبل كل شيء ان اعلم هل الشيخ والفتاة هما جاسوسان للعرب او الفرس ام لا

فلما لفظ البطريرك هذه الكلمة استنار عقل ايليا بغتةً فرأى انَّ صاحبيه قد وقعا في ورطة جديدة اشدّ من الاولى . فاصغى قليلاً ثم اجاب . لم افطن الى هذا قبل الآن والاَّ فانني ما كنت اتوسط في اطلاق سراحهما قبل تحقيق امرهما . الاَّ انني استأذن مولاي البطريرك في ابداء ملاحظة صغيرة . وهي ان الفرس مشتغلون عنا الآن بمصائبهم مع العرب الذين يفتحون بلادهم * وفضلاً عن ذلك فانهم علموا من حروبنا معهم منذ بضع سنوات وهدمنا مملكتهم انه لا قبل لهم بنا* وحسبهم عدوّاً واحداً الآن . ولذلك لست اظنهم يتحرشون بنا بالتجسس علينا . واما العرب فان اليهود غضابى عليهم لان اول عمل عمله اميرهم عمر بن الخطاب بعد وفاة اميرهم ابي بكر هو اجلاؤه اليهود والمسيحيين عن نجران وسائر بلاد العرب * لكي لا يبقى فيها الاَّ دين واحد . وغبطتكم تعلمون ان بعض النجرانيين المسيحيين قد لجئوا الى مدينتنا هذه . فكيف يمكن بعد هذا ان يأتمن العرب يهودياً على اسرارهم مع معرفتهم استياء اليهود منهم

فهنا تنفّس صفرونيوس الصعداء وقال هذا برهان ضعيف . فان اليهود كانوا اكبر اعوان الفرس والعرب علينا في جميع حروبنا معهم* وقد بلغت بهم الجرأة ان ثاروا بانطاكية وقتلوا بطريركها كما تذكر * وثاروا ايضاً بصور ليقتلوا المسيحيين ليلاً * فرد الله كيدهم في نحورهم . ولا يزالون يتآمرون سرّاً في فلسطين مع يهود سوريا للثورة علينا * واعظم من ذلك كله انهم اشتروا من الفرس عشرات الوف من اسرانا وذبحوهم انتقاماً منا * فبغض كهذا البغض يا بنيّ لا يحول ولا يزول . ولذلك اعتقد ان اليهود يحالفون علينا كلَّ الامم التي تقوم لانتزاع البلاد من قبضتنا لانهم لا يزالون يحلمون باعادة مملكتهم . وما ادرانا ان العرب لم يعدوهم بمساعدتهم على ذلك اذا هم ساعدوهم علينا

فهمَ ايليا بان يجيب البطريرك بان اليهود ما تطرفوا هـذا التطرف القبيح الاّ لظلم المسيحيين لهم واضطهادهم اياهم ولكنه رأى الاختصار اولى في هذا المقام فاجاب : ان مولانا البطريرك ادرى منا بهذه الشؤون . وله رايه الموفق . انما ما زلت أرى ان هذا الرجل لا يمكن ان يكون جاسوساً لانه لو كان كذلك لما جاء بابنته معه ليلقيها بهذه النار اذا كشف امره

فابتسم البطريرك وقال ان الجواسيس لا تكمل جاسوسيتهم الا بالنساء . خصوصاً النساء الحسان

فاجتهد ايليا حينئذٍ في ان يقنع البطريرك باطلاق سراح الفتاة على الاقل ويبقي الشيخ لديه ليفحص امره فرفض البطريرك ذلك رفضاً قطعياً لان الشعب كان يطلب تعميد الفتاة في حفلة عمومية . وقد قال البطريرك للشاب في هذا الشأن كلمة جميلة وهي «ايليا ايليا انك ملقٍ بنفسك في مضيق لا مخرج منه . فدع الفتاة وشأنها فان بينك وبينها هاوية عظيمة . ثم الا تعلم انني الآن مسئول لدى الله ولدى ضميري عن هذه الفتاة وان كانت يهودية . فكيف تريد ان اطردها وحدهـا الى معترك العالم واسجن عندي حارسها وسندها

لكن يظهر ان البطريرك كان يرغب في استمالة ايليا اليه لمآرب له فرضي ان يُطلق سراح الشيخ ويبقي الفتاة في دير الراهبات في جبل الزيتون حتى يسكت الشعب عنها وتنتفي الشبهة عن ابيها . وقد قال لايليا ان هذا كل ما يمكنه صنعه . وبعد ذلك بعث يسأل في « البيت الاحمر » عن السيدة تيوفانا المشهورة في القدس برقة عواطفها وخدمة الاديرة وقد تقدم ذكرها . واذ وجدوها وكل اليها البطريرك ان تأخذ في صباح الغد تلك الفتاة الى دير العذراء في جبل الزيتون وتوصي بها الراهبات خيراً

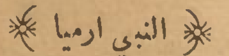
فلما بلغ الفتاة انها ستنفصل عن ابيها وتقيم بين راهبات مسيحيات في دير مسيحي اخذت تبكي وتنوح ولكن اباها اقنعها بان اسرها لا يتجاوز الاسبوعين وانه لا سبيل الى غير ذلك نظراً لهياج الشعب بشأنها وطلبه تعميدها . فسكتت الفتاة ونامت مع ابيها في احدى غرف القصر في تلك الليلة لتذهب في صباح اليوم الثاني معه الى دير الراهبات في جبل الزيتون . وقد صرف ابو الفتاة نصف الليل وهو يوصيها بما اراد ان يوصيها به لتتمكن من اجتياز المصاعب التي كانت امامها

ولما خرج ايليا من لدن البطريرك وجد في الباب راهباً ووراءه رجل يروم الدخول على البطريرك . فدهش ايليا حين مشاهدة الراهب ووقف حائراً لظنه انه يعرفه . اما

الراهب فابتسم ابتسام الازدراء لانه عرف ايليا وصار يقلب فيه نظره بجسارة وتهكم. فقال ايليا في نفسه وهو خارج: لا ريب في ان هذا هو اخو الراهب متى" لان فيه ملامح منه وهو سكرتير البطريرك على ما اعلم. فلو كان الشيخ سليمان مكاني لاراد عاقبة مقاومته لاخيه

وكان الرجل الذي وراءه الراهب رسولاً قادماً من اجنادين حيث يقيم قائد الروم* وهو يحمل كتاباً منه الى البطريرك. فلما رآه البطريرك عبس لانه تشاءم من ارسال الرسول في اسبوع العيد. ولكنه تناول الكتاب باهتمام لا مزيد عليه وصار يقرأه بعينين متقدتين غيظاً واملاً. وما اتى عليه حتى صار يرتجف من الغضب فالقاه بنزق الى المقعد واشار الى الرسول ان يخرج. فجثا الرسول ثلاثاً ودنا فلثم ذيل البطريرك ثم خرج باحترام ظهره الى الباب ووجهه الى البطريرك وهو يمشي القهقرى. فلما خرج صاح البطريرك بالراهب بغضب: مرهم ان يعجلوا في صلاة العيد لنعود الى المدينة والا خفنا ان يباغتنا العرب هنا وان كانوا لا يزالون بعيدين عنا. ثم اطرق البطريرك يفكر. وبعد حين صاح: ان الله سينتقم منهم لتركهم مدينتنا المقدسة بلا مدد جديد لتعزيز حاميتنا. فانحنى الراهب باحترام موافقةً على كلام رئيسه

وفي اثناء ذلك كان الشعب في الاسواق لا يزال يضج ويلعب ويطلب تعميد الفتاة. فابلغوه انهم قرروا ارسالها الى الدير وبعد ذلك يرون رأيهم فيها



الفصل الخامس

﴿ النبي ارميا ﴾

ومشروعه العظيم

في السبب الذي لاجله أحب ايليا حباً فجائياً

وانقضى ذلك العيد في بيت لحم بفرحٍ وسرور بين طبقات الشعب الا ان البطريرك صفرونيوس وقائد الحامية في القدس وواليها كانوا في شغل شاغل وهمٍ شديد. وفي يوم العيد بينما كان الناس منتشرين على طريق بيت لحم عائدين الى القدس كان ايليا على طريق جبل الزيتون فوق القدس صاعداً الى الجبل بخطى ثقيلة ورأسه الى الارض كانه يعد" خطاه او يفتش عن شيء امامه. والحقيقة انه كان يتأمل ويتفكر –

وانما كان ايليا يفتكر بحوادث امس وسوء حظ تلك الفتاة اليهودية . وكان ايليا كلما افتكر بها شعر بذوبان في قلبه وشفقة لا حدّ لها . وقد يستغرب القارئ ان يحب هذا الشاب تلك الفتاة من اول نظرة ويخاطر بنفسه وبراحته في سبيلها . ونحن نشاركه في هذا الاستغراب لو لم يكن هنالك سرّ صغير بثّ في دمه سمّ الحب بقوة الصاعقة وسرعتها . واليك هذا السرّ الصغير الحقيقي الذي لم يطلع عليه احد قبل الآن

منذ عشر سنوات كان ايليا في يافا لحاجة له . ولما قصد العودة منها الى القدس ركب في قافلة وسار معها . ولكنه قبل المسير رأى في المحطة قافلة اخرى تستعدّ للسير وراء قافلته وفيها رجل يهودي ومعه فتاة في نحو العشرين من العمر . وكان ايليا يومئذ في السادسة عشرة من العمر . وكان هوائياً اي شديد التصوّرات والانفعالات . وقد قرأ بامعان التوراة وتاريخ يوسيفوس في حروب اليهود واخبارهم فصار يرى في اليهود معاصريه بقايا امة عظيمة . ومما كان يفتنه منها على الخصوص قوة نفوس نسائها وجمالهنّ الذي حلّ في التاريخ محلّاً كل كثيرة . . فخيل له ان للمرأة الاسرائيلية نفساً خصوصيّة جاذبيتها اشد من كل جاذبية . فما وقع نظره على تلك الفتاة التي هي من ذلك الدم القديم حتى شعر بانجذاب شديد اليها . وكان جمال الفتاة ولطف عينيها الهادئتين الصافيتين مما ساعد على اسر ذلك الفتى الصغير . وكان على جبينها عصابة بيضاء مزركشة تزيد وجهها بياضاً وجمالاً . فسار الفتى ايليا في قافلته تاركاً قلبه الصغير لدى تلك الفتاة الكبيرة . وكان كلما نزلت القافلة على الطريق يشخص في انوار القافلة القادمة بعدها ويودّ لو تصل الى قافلته لتسيرا معاً . وكان يخيل له حين رؤية اشباح تلك القافلة في الظلام من بعيد انه يرى تلك العصابة البيضاء ذات الزركشة اللامعة وتحتها العين اللامعة . وبالحقيقة انه كان يراها بعين بصيرته . ولما سمع انّ احد اللصوص هاجم على القوافل افتكر ايليا الصغير بذات العصابة البيضاء قبل افتكاره بنفسه . وعلى ذلك كان حب ذلك الفتى الصغير حباً حقيقياً لان هذا هو مقياس الحب الحقيقي . وقد بقي ايليا على هذه الحال وبهذه الاماني حتى غابت القافلة ولم يعد يرى لها اثراً فعلم انها حادت عن طريق القدس الى بلدة غيرها . فاطرق الصغير حينئذ يتأمل في ذهاب حبه سدى . فكان ذلك اول همّ دخل قلبه الخلي . فيا حب الملائكة انك لا تكون ابداً اطهر من هذا الحب ولا اثبت منه . لان ايليا الصغير بقي يتذكر حتى في احلامه تلك الرؤيا التي مرت امام عينيه كشهاب اضاء فكان نوره اول نور دخل الى قلبه

ولكن بعد عشر سنوات لما وقع نظر ايليا في بيت لحم على الفتاة استير في ظلمة الليل وهي

مضطربة خائفة وعلم انها من دم تلك الفتاة التي احبها في احلامه في صغره ثارت نفسه دفعة واحدة واحبها من اول نظرة . وخيل له انه يحبُّ في هذه الفتاة حبيبين . الحبيب الحاضر الذي يستحق كل حب والحبيب الغائب الذي ذهب في اوقيانوس العالم ذهاب حجر في البحر فلم يعد يظهر له اثر . وكأنّ اله الحب قصد ايليا بسوء فارسل اليه استير شبيهة بفتاته الاولى في كثير من ملامحها وسنّها وقوامها . ولم تكن تنقصها واسفاه غير العصابة البيضاء المزركشة . .

فصعد ايليا الجبل وهو يفتكر بالفتاتين معاً . ولكن استير — وهي الحاضرة — بدأت تحتلُّ محلّ الخيالية الغائبة . وكان يتساءل كثيرًا عن سبب وجودها مع ابيها في بيت لحم في تلك الليلة ويعد نفسه بلقاء ابيها في ذلك اليوم للوقوف على سر هذه المسأَلة

وما زال ايليا صاعداً حتى انتهى الى اعلى الجبل فقصد ارزة كانت قائمة هناك كملجاء الطيور السماء في ذلك المكان الجاف (١) ولما وصل اليها عطف الى جهتها الشرقية حيث بني كوخ صغير مستند الى جذعها . وكان في الكوخ رجل جالس ورأسه بين يديه متأَملاً متفكرًا وامامه كتاب مفتوح . فلما تحقق ايليا وجود الرجل صاح : السلام على النبي ارميا . فنهض الرجل وقال اهلاً بكبيريه ايليا . هل تذهب مرة ثانية الى بيت لحم . فضحك ايليا لهذا السؤال وقال جئت اشكرك يا صديقي لانك انقذتني امس . مالك جالس هنا وظهرك الى المدينة المقدسة

فتنفس ارميا الصعداء وخرج من كوخه الى مقابلة اورشليم . وبعد ان القى اليها نظرة قال : اذا كان الله قد غضب عليها افلا اغضب عليها انا ايضاً . انني صرت اكره النظر اليها ولذلك نقلت كوخي من امامها الى جهة الشرق . نعم لقد صرتُ مجوسياً استقبل الشمس بدل مدينة داود

فضحك ايليا وقال له : ماذا هل جدّ شيء . فقال ارميا متعاظماً : ماذا تريد اكثر من ضياع بلادنا وخراب مملكتنا كما خربت مملكة اليهود قبلنا . فها العرب زاحفون الينا ليأْخذوا املاكنا . وها المسيح الدجال يتركنا ويذهب كانه يسرُّ بسقوط مدينتنا وديانتنا . فقال ايليا مدهوشاً ومن تعني بالمسيح الدجال . فصاح ارميا والجنون ظاهر في عينيه : الامبراطور . فصرخ ايليا : اسكت . اخفض صوتك يا ارميا والاّ الحقوك بسميّك القديم . فهنا بلغ الغضب من ارميا مبلغه فصاح ونار الجنون تستطير من عينيه : دجال والف دجال . فان سقوط ديننا ومملكتنا سيكون على يده . وهل تريد دليلاً على انه

«١» كان على جبل الزيتون في زمن مملكة اسرائيل ارزة وقد حفظ الاسرائيليون تذكارها بعد تشتتهم

المسيح الدجال اعظم من مقاومته بطريركنا صفرونيوس حتى في المسائل الدينية التي لا يفهم هو منها شيئاً . ان بطريرك اورشليم يجب ان يكون ارفع البطاركة كلمة واصدقهم رأياً لانه قريب من المهد والقبر والجلجلة — تلك الاماكن التي توحي الى النفس الحقيقة والحكمة . ولذلك يجب ان لا يُتبع رأي غير رأيه . واما صاحبنا الامبراطور فانه استمال اليه بطاركة القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية وكذلك اسقف رومه وقرروا مسألة الطبيعتين والمشيئة الواحدة * وانا اقول الآن لك ولهم وللارض والسماء انهم مخطئون جانون على الكنيسة . والحق مع البطريرك صفرونيوس الذي يعلّمنا ان المسيح بطبيعتين ومشيئتين *

فهنا تنفس ايليا الصعداء وقال رجعنا يا ارميا الى المجادلات الدينية . بالله دعنا منها فقد عافتها نفسي

فابتسم النبي ارميا ابتسام الاحتقار وقال هل تظن اذا تركناها انها تتركنا هي . هيهات هيهات . فانها قابضة علينا وعلى روح مملكتنا بمقبض من حديد . فاما ان نحلّها او تحلّنا . فضحك ايليا لهذه التورية في كلام المعتوه وقال له : انك اليوم بليغ يا ارميا فما سبب بلاغتك . يظهر انك لا تزال صائماً لانك ذكرت لي يوماً انك لاتكون حسن البلاغة الاّ اذا كنت صائماً . فقال ارميا نعم ما زلتُ صائماً ولم اتناول طعام العيد بعد . ولكنني اهزاء بطعام العيد وبكل طعام . الا يكفينا خبز الروح الذي هو غذاء النفس . نعم هو يكفي كل رجل صالح واما الاشرار والخنازير البشرية الذين آلهتهم بطونهم فلا يكفيهم خبز الروح . ولكن لا تنقل الحديث الاول فانني اريد اتمامه لابلغك امراً مهماً . هل تريد ان تسعى معي سعياً عظيماً

فحدّق ايليا في المعتوه وقال ما هذا السعي . اخبرني عنه وانبئني اولاً هل حديثك طويل فان لي حديثاً مهماً معك

فضرب ارميا يده في الهواء وقال لا حديث اهم من الحديث الذي اروم الدخول معك فيه فتعال نجلس في الشمس امام الكوخ وهناك اطلعك على مشروعي

فقال ايليا وهو يضحك في نفسه من مشروعات ايليا بل دعنا نجلس هنا امام المدينة المقدّسة فان المنظر في غاية الجمال

وفي الحقيقة ان منظر القدس تحتهما كان مما يروق النظر في تلك الساعة . فان الشمس اطلّت على المدينة في صبيحة عيد الميلاد من وراء غيومها السوداء تنثر على ارض القدس نورها الذهبي . وكانت المدينة تحت الضباب الرقيق المخيم عليها بين اسوارها السمراء

الشاهقة المحيطة بها تشبه حمامة بيضاء في قفص مكمد اللون عليها غلالة من القطن المندوف. وكان الناس في سفح الجبل على الطريق يسيرون ذهاباً الى المدينة واياباً منها وهم كلما التقوا صافحوا بعضهم بعضاً تقبيلاً وتبادلوا التهنئة بالعيد. وكان منظر الافق وراء المدينة والى جوانبها متسعاً للجالسين على الجبل فكان ايليا يسرح طرفه فيه مبتهجاً. واما ارميا المسكين فان نفسه كانت لا تشعر بذلك الجمال الطبيعي ولا تلتفت اليه

ولما جلس الاثنان تجاه المدينة كان ارميا يفكّر باهتمام. فقال له ايليا باسماً هات الآن ما عندك واختصر بقدر الامكان

فقال ارميا بجدٍ ورزانة: ان العلة متى استعصت صار شفاؤها متعذراً الاّ بعملية جراحية كبيرة او بعناية الهيّة. اما العناية الالهية فيظهر انها غضبى منا لانها لا تساعدنا في شيء فيجب ان نستعمل العملية الجراحية. فانا قد بدا لي امر عظيم. فانك تعلم ان الامبراطور قد ايّد الطبيعتين والمشيئة الواحدة * وهو يتداخل في شؤون الكنيسة * مع ان ذلك ليس من وظيفته. فقال هنا ايليا: انك تتكلم الآن يا ارميا كلام عقلاء. فقال ارميا لا تقطع حديثي واسمع التتمة. وانا متحقق ان البطريرك صفرونيوس مستاءٌ من مداخلات الامبراطور هذه. والكلام بيني وبينك ان هذه المسألة ليست بمسألة دينيّة فقط فانها مسألة جنسية ايضاً * فاننا نحن السوريين قد سئمنا النير اليوناني * وقد مضت علينا عشرة قرون واليونان متحكمون فينا منذ فتح الاسكندر بلادنا * فلماذا لا نكون امة مستقلة بديانة مستقلّة وحكومة مستقلّة. ان نفسي تحدثني الآن بهذا الامر. وها العرب قد كادوا يملكون فلسطين وغداً يصلون الى مدينتنا. ففي نفسي متى وصل ملكهم الى اسوارنا ان اذهب اليه واعرض عليه ان نتفق معه ونكون من حزبه على شرط ان يحمي بطريركنا ويجعله ملكاً مستقلاً في سوريا كالامبراطور. وحينئذٍ يمكن البطريرك ان يقاوم الامبراطور ويؤيد مذهبه في الطبيعتين والمشيئتين. ولا ريب عندي في انه سينتصر عليه انتصاراً عظيماً ويتبعه كل اصحاب العقول في الامة. واول انتصاراته تكون في مصر لان الاقباط فيها مثلنا يئنون تحت نير اليونان * وقد اغتنموا فرصة القول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة للانفصال عن الكرسي الاسكندري والقسطنطيني * والمقوقس كبيرهم وواليهم يجامل العرب الآن نكاية بالامبراطورية * (١) فما قولك في هذا المشروع العظيم

(١) لما كاتب صاحب الشريعة الاسلامية قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس والحرث بن ابي شمر الغساني يدعوهم الى الاسلام اجابه المقوقس صاحب مصر جواباً لطيفاً واهدى اليه اربع جوار منهن «مارية» التي ولدت للنبي ولداً سماه ابرهيم «ابن الاثير»

فعجب ايليا من هذا الرأي الذي ارتآه رجل معتوه كارميا . فسأله . وهل اظهرتَ رأيك هذا لاحد قبل الآن . فقال ارميا نعم لواحدٍ فقط . فقال ايليا مستغرباً . ومن هو . فقال ارميا : الله . فضحك ايليا بعد اهتمامه وقال انك تحسن صنعاً بابقائه بينك وبينه والاَّ اخذوك يا ارميا الى القسطنطينية والقوك للاسود لتلغ بدمائك . فقال ارميا مزمجراً وهل مثلي يرهب الموت فانهم يقتلون جسدي واما نفسي فلا يقدرون عليها . وحسبي فخراً ان اموت في سبيل رفع شأن المملكة وانقاذها من الهلاك . فضحك ايليا وقال اؤكد لك يا صاحبي انه اذا اجتمع اهل الارض طرًّا لرفع شأن المملكة من الطريق التي تذكرها فانهم يخيبون سعياً ويضلون سبيلاً . وساطلعك في فرصة اخرى على الطريقة الحقيقية لرفع شأن المملكة . فاكتم مشروعك هذا لئلا يضرك افشاؤه واصغِ اليَّ الآن لاحدثك في الامر الذي جئت اليك من اجله . فقال ارميا وهو غير راضٍ عن جواب ايليا . وما ذاك . فقال ايليا هل بلغك خبر الفتاة الوثنية التي وجدوها امس على طريق بيت لحم فقال ارميا ضاحكاً . نعم نعم قد شاهدتها اليوم هنا في الجبل حين مجيئهم بها الى دير العذراء لادخالها فيه هدايةً لها . وكان معها سيدة وشيخ وراهبان . ولكن يالله ما اجملها . حقاً لا اعلم لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا . فقال له ايليا فاسمع الآن لاذكر لك ما اطلبه منك

ثم دنا ايليا من ارميا وانحنى نحوه وصار يحادثه همساً حديثاً سرياً . فلم يكن يُسمع من حديثه سوى كلمات متقطعة مثل : ابواها وثنيان . . . ايصال رسائلها اليها . . . جائزة سنية لك . . . هل يمكن دخول الرجال الى الدير . . . هل ترضى بان تصير مسيحية ام ترفض . . . اية راهبة هي اشد الراهبات تقوىً واطلاهنَّ حديثاً . . . ـ وكان ارميا يجاوب باهتمام شديد وايليا مرتاح الى اجوبته وعلى وجهه لوائح الرضى

الفصل السادس

امام دير العذراء

في ان الحبّ ليس بنبتة تُغرس طوعاً وتُقلع طوعاً

ولما فرغ ايليا من مسارَّة ارميا نهض وودَّعه وانصرف فبقي ارميا وحده مفكّراً تحت الارزة . وسار ايليا في طريقه يقصد دير العذراء القائم على مقربة من الارزة في جهة الشمال على منبسط من الارض فوق الجبل . وكان هذا الدير مبنياً هناك لينقطع

الراهبات فيه الى الله وهو اكرم اديار اورشليم لقيامه على جبل الزيتون المشهور في تاريخ المسيحية في عصر المسيح . وكان محظورًا على الرجال ايًّا كانوا الدخول اليه قطعيًا لاختصاصه بالنساء(١)

فلما وصل ايليا الى الدير اخذ يقلّب طرفه في جدرانه البيضاء الشاهقة ويسترق النظر من ثقب الباب الكبير . ثم قصد الحديقة الممتدَّة وراء الدير والمسورة بسور عالٍ فصعد الى اكمة تقابلها من بعيد والقى نظره على نوافذ الدير الخارجية التي تطل على الحديقة فلم يرَ احدًا . فتنهد ونزل عن الاكمة وصار يدور حول الدير وكأَن لسان حاله ينشد

امرُّ على الابواب من غير حاجةٍ لعلي اراكم او ارى من يراكم

وبعد برهةٍ سمع صرير قفل الباب فالتفت نحوه فابصر سيدة خارجة منه ووراءها مكارٍ معه حمار . فتأَمل ايليا فيها جيدًا ولكن اول ما وقع نظره عليها عرفها فخطا نحوها مسرعًا بهيئة جدية . وكانت السيدة قد عرفته ايضًا فوقفت له مبتسمة . فلما وصل ايليا اليها قال سلام على السيدة الشريفة وكل عام وهي بخير وعافية . فقالت السيدة وكل عام وجنابك بخير ايها الرجل الكريم . ارجو ان لا تكون الغوغاء قد اساءت اليك ليلة امس في بيت لحم . فضحك ايليا وقال انني اول ما نظرتك ايتها السيدة الكريمة اسرعت لاهديك شكري على مساعدتك لي امس بواسطة ارميا فانني لولا هذه المساعدة لاصابني ما لا احب . فقالت السيدة وقد نظرت اليه بعينين براقتين لهما حديث سرّي اشكر مريم العذراء التي انقذتك من ايديهم

فلا ريب في ان القارىء عرف السيده تيوفانا التي كانت في البيت الاحمر ليلة امس وعهد اليها البطريرك ان توصل الفتاة اليهودية الى هذا الدير . وكانت تيوفانا في نحو الثلاثين من العمر وهو عمر النساء الكامل الذي تصبح فيه السيدة سيدة تامة لامتلاكها عقلها وعواطفها ومعرفتها طرق السيادة على قلوب الرجال وعقولهم . وكان كل شيءٍ في وجهها يدلُّ على انها يونانية عريقة في اليونانية . فانها كانت حنطية اللون مذهّبته من فعل شمس الشرق الكاوية . بعينين زرقاوين نافذتي السهام فيهما الابتسام دائم . وشفتين رقيقتين وراءهما لؤلوء الاسنان لا يختفي ابدًا لاشتراك الشفتين مع العينين في ذلك الابتسام المستمر . كأَنَّ النفس التي توحي اليهما ذلك الارتياح الباطني نفس طفلٍ لا تعرف الهم والغم بل هي في ربيع ابدي . وتحت ذلك عنق لو نظره العربي لشبه اعناق الغزلان به بدل ان يشبهه باعناق الغزلان

والحق يُقال ان ايليا لم ينتبه كثيرًا الى هذا الجمال الفتان ولا الى تلك الابتسامات

(١) في جبل الزيتون اليوم في القدس دير للنساء على هذا المثال يسمونه « دير الاميرة »

الجذابة لان الفتاة اليهودية — الموجودة والخيالية — كانت قد ملكت زمام قلبه . والقلب النقي الذي يعرف الحب الحقيقي لا يسع اثنين . فرام سؤال تيوفانا عنها لعلمه انها هي التي اتت بها الى هذا الدير . فسألها هل ارسلوا الفتاة الوثنية الى هذا الدير ايتها السيدة . فقالت تيوفانا وقد غضت من طرفها بدلال نعم ايها الاخ المحبوب بالرب وهل رأيتها قبل ان جئنا بها

وكان سؤال تيوفانا هذا سؤالاً جديراً بان يصدر عن امرأة في شأن امرأة اخرى يسأل احد الرجال عنها . ولا ريب في انه كان فيه شيء من الحسد والاستفحاص . لان المرأة لا تقدر ان تسمع رجلاً يسأل عن امرأة اخرى باهتمام الا وتحب ان تعرف سبب ذلك السؤال وذلك الاهتمام . فاجابها ايليا انه هو الذي توسط لها لدى البطريرك ليحسنوا معاملتها ولا يسيئوا اليها . فضحكت تيوفانا وقالت فاذاً انت تعرفها . ثم قالت متهكمة : فياليتك تستعمل معرفتك لها لاقناعها بترك العناد والشراسة . فحملق ايليا وقال وماذا صنعت : فضحكت تيوفانا في نفسها وقالت : لما وصلنا الى هذا المكان مع الشيخ والراهبتين صارت الفتاة تبكي ورفضت الدخول . فخرجت اليها الرئيسة ولاطفتها وادخلتها بعد ان اجبرتها على ترك الشيخ . فعاد الشيخ والراهبان اذ لا يُسمح للرجال بالدخول الى الدير . وكان الشيخ يبكي ايضاً حين فراقه لها مع انهم قالوا انه غريب عنها . فلما دخلنا ذهبت بها الرئيسة وحولها الراهبات بالشموع والزينات الى كنيسة الدير . وكانت الفتاة تظن انهن ذاهبات بها الى احدى الغرف . فلما دخلت باب الكنيسة كان اول ما وقع عليه نظرها رسم سيدنا المسيح مصلوباً على صليب صغير معلق في صدر المكان تجاه الباب . فصاحت صياحاً هائلاً وسقطت على الارض مغشياً عليها . فاسرعنا ونضحنا وجهها بالماء ونحن مسرورات باغمائها لظننا ان الشيطان الذي فيها قد صُرع ومات اول ما وقع نظره على الصليب . ولكنها لما انتبهت زاد بكاؤها وزفيرها . وصارت احياناً تلطم نفسها وتهمّ ان تنطرح من النافذة كانها تريد ان تنتحر . وقد رفضت الاكل والشرب رفضاً قطعياً . فباسم الصليب الكريم ايها الاخ بالرب . انني ما رأيت في حياتي وثنيّة شرسة متعصبة كهذه الفتاة . وقد قالت لي الرئيسة انها تشك في اهتدائها ونزول السلام المسيحي والوداعة المسيحية عليها بعد ما ظهر من عنادها وشراستها

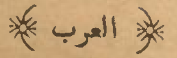
وقد ظنت تيوفانا انها بهذا الذم والتنديد تجعل الشاب يزدري الفتاة وتبعد قلبه عنها وما درت انها بهذا الوصف الذي آلم قلب ايليا قد زادته تعلقاً بالفتاة وشفقة عليها . فاطرق يفكر ثم قال للسيدة جواباً على سؤالها الاول . نعم انني ابذل جهدي لمساعدة الرئيسة على

تسكين هياج هذه الفتاة التعيسة اذا شاءت واذنت لي بالدخول لانني كنت من مساعدي البطريرك على ذلك . فضحكت تيوفانا ضحكة معناها « لست ساذجة الى هذا الحد لاسعى لك في ذلك » ثم قالت . ولكن يا للأسف ان دخول الرجال الى الدير ممنوع قطعياً

ولكن ما اتت تيوفانا على هذه الكلمات حتى سُمع صوت بعيد ينادي نداء شديداً . فالتفت ايليا وتيوفانا فاذا برجل يعدو كالبرق من جهة الارزة وهو يخبط الهواء بيديه ويصيح بجنون — ايليا . ايليا . العرب العرب . . لقد وصلوا الى المدينة

فصاحت تيوفانا : هذا ارميا ماذا جرى له . اما ايليا فهرع نحوه وسأله ما بالك . فصاح ارميا وشعره منتشر على كتفيه ونار الجنون تتقد في عينيه : لقد وصل العرب . لقد وصل العرب . فذعرت تيوفانا عند اسم العرب وصاحت بخوف متراجعة نحو باب الدير .

وفي هذه الاثناء كانت الضجة والجلبة حول اسوار اورشليم . وكانت جنود العرب تهتف هتافاً طبق السماء « الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله » * وكثيرون من اهل المدينة حول الاسوار * يشاهدون القبائل البدوية الهاجمة عليهم وبعضهم يضحكون وبعضهم يتاملون — وما دروا ان كثيراً من الضحك عاقبته البكاء



الفصل السابع

العرب

في بيت المقدس

وفي تلك الساعة كان البطريرك ووالي المدينة وقائد الحامية فيها منفردين في احدى قاعات المقام البطريركي بجانب كنيسة القيامة في القدس . وكانت لوائح الغضب بادية في وجه البطريرك وهو مطرق يفكر ويده تعبث بلحيته البيضاء الطويلة المنتشرة على صدره . وكان الوالي وقائد الحامية يتحادثان همساً احتراماً له

وكان الوالي يقول للقائد هل اذا هاجمونا وعدتهم مائة الف يقدرون على اخذ مدينتنا . فاجاب القائد ان القدس لا تُفتح ابداً الا صلحاً خصوصاً في هذا الفصل فصل الثلج والبرد والمطر . فقال الوالي قد قيل لي ان العرب حفاة فلنطاولهم ما استطعنا فان البرد يهرأ اقدامهم فتسقط اصابعهم . فهزّ القائد راسه وقال اما هذا فلا سبيل اليه لان اصابع

رجالنا مع احتذائهم تسقط من البرد واصابعهم هم لا يصيبها اذى لالفة اجسامهم المشقة وشظف العيش * فقال الوالي لا شك ان ذلك كان من اسباب قوتهم

وبينما هما يتناجيان واذا براهبٍ قد دخل مسرعاً وقال للبطريرك ان الرسول في الباب فامر البطريرك بادخاله على عجل . فادخل عليه بدويٌّ بملابس العرب وهيئتهم . فسأله البطريرك باليونانية هل عرفت ما نريد معرفته يا يوحنّا . فاجاب البدوي باليونانية ايضاً نعم يامولاي . فقال البطريرك اجلس وقصَّ علينا كل اخبارك

ولا ريب ان القارئ قد ادرك ان هذا البدوي العربي الذي يتكلم باللغة اليونانية واسمه يوحنا انما كان من الغسانيين وهم عرب الشام النصارى * الذين كانوا يعاونون الروم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم * وقد حاربوا في اليرموك في جيش الروم حرباً شديدة *

فجلس البدوي يوحنّا على مقعد بعيد . وكان قد تزيا بزي البدو ليسهل له الاختلاط بالعرب اخوانه بالنسب والجنس تنسماً لاخبارهم . ثم اخذ يقول (١)

لما توفي نبي المسلمين وخلفه ابو بكر انفذ الخليفة وصية النبي في استعمال اسامة بن زيد على جيش وارساله لفتح الشام * وكان العرب قد اخذت ترتدّ عن الدين الاسلامي لموت النبي * فلما رات مسير الجيش للشام هابوا الخلافة وقالوا * « لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش . فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه » (٢) فكانَ جيش الشام كان عوناً شديداً للعرب في الداخل . وبعد اخضاع المرتدّين من العرب ابلغ ابو بكر عدد هذا الجيش الى ١٢٤ الف مقاتل * وقد قسمه الى جيشين . جيش لمقاتلة الفرس وجيش لمقاتلتنا * ومن فرط دهائه اوصى الجيشين بان يلبثا دائماً احدهما على مقربة من الآخر ليتمكنا من الاتحاد في ساعة الخطر * وقد فتح جيشهم في الفرس بلاد بابل كلها ودعوها العراق العربي * وكان قائدهم فيها خالد ابن الوليد الذي يلقبونه « سيف الله » * وهو الذي وثب بعد ذلك بامر ابي بكر من العراق الى الشام ففتح غزة وكتب الى الامبراطور يطلب منه ان يسلّم اليه دمشق فاجابه الامبراطور بهذا الجواب « ملكك القفر فعد اليه » * ولكن لما توفي ابو بكر بعد ان استخلف عمر بن الخطاب عزل عمر خالداً وولى الشام اباعبيدة الملقب بامين الامة * ويظهر

---

(١) نعيد هنا القول ان هذه العلامة * تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ . والعلامة (— تدلُّ على عكسه اي انه تصنيف لا اثر له في التاريخ . والقول الموضوع بين قوسين هكذا « » او ( ) او بين ضمتين " " ومعه نجمة * هو نص تاريخي بحرفه

(٢) ابن الاثير

ان ابا عبيدة يقصد دولتنا اكثر من دولة الفرس * لانه بعد اسقاطنا دولة الفرس يعلم انه اذا اسقط مملكتنا لاسمح الله استولى على الكرة الارضية كلها . وهذا ما سمعته من احد رجاله . ولذلك يريد الاستيلاء على مدينة القدس عاصمة المسيحيـة بعد استيلائه على دمشق عاصمة سوريا

وقد تحققتُ ان العرب سلموا من الاضطرابات والفتن الداخلية التي كانت تتهددهم . وذلك بامرين : الاول شدة اميرهم عمر وحزمه وعدله . والثاني انصرافهم الى فتح الشام وفارس . وهذا ما كان من اكبر اسباب اتحادهم وقوتهم . لانهم لو اقاموا في بلادهم ولم يشتغلوا بمقاتلتنا لانصرفوا الى مقاتلة بعضهم بعضاً كما كانوا من قبل ، وهذا من دهاء ابي بكر وعمر ابن الخطاب وسياسته *

فهزّ البطريرك هنا رأسه وكان الوالي والقائد مصغيين كثيراً فاردف الرسول بقوله : اما ما علمته عن زحفهم الينا فهذا (١)

بعد ان فتح ابو عبيدة دمشق واقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمناظرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع اليه امراء المسلمين وقال لهم « اشيروا عليَّ بما اصنع واين اتوجّه » فاتفق رأي المسلمين اما الى قيسارية (قيصرية) واما الى بيت المقدس (٢) فقال معاذ بن جبل « اكتب الى امير المؤمنين فحيث امرك فسر واستعن بالله » فقال « اصبتَ الرأي يا معاذ » فكتب كتاباً الى الامير وارسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي . فلما قرأ اميرهم الكتاب جمع اليه اعوانه ومشيريه فاستشارهم في ذلك . فقال له علي بن ابي طالب « يا امير المؤمنين مر صاحبك ان يسير الى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا اهلها فهو خير الراي واكبره . واذا فتحتْ بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعدها ان شاء الله تعالى . كذا اخبرني رسول الله » * فقال له الامير « صدقتَ يا ابا الحسن » * فاننا اذا ملكنا بيت المقدس خارت عزائم الجند والشعب وفتحها يعدل فتح القسطنطينية من هذا الوجه (— وكان عثمان بن عفان حاضراً فقال (— رأي

---

(١) نعتمد هنا على الواقدي في ما كتبه عن فتح بيت المقدس وان كان تاريخه يكاد يكون في اكثر اقسامه قصة عنترية . والتناقض في الروايات والتفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيما بين هؤلاء ايضاً . وانما فضلناه عليهم لانه اكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعة في هذا الفصل بين قوسين اوضمنين دون ذكر مصدرها هي له

(٢) لعل الاصح اما حمص وحماة وانطاكية واما فلسطين وبيت المقدس لان قيسارية تابعة لفلسطين

الامير صائب وموفق ان شاء الله . الا انني اخشى امراً . فقال الامير (— وما هو ايها الناصح النصوح . فقال ان الروم لم تدب فيهم الحماسة وينهضوا على مملكة الفرس نهضة واحدة الا لاخذ الفرس صليبهم من بيت المقدس واحراقهم كنيسة القيامة * فاخشى ان نثير حميتهم التي خمدت اذا اخذنا بيت المقدس فنكون كاننا اضرمنا النار بيدنا (— فقال علي (— والله انني لا ارى مناسبة بيننا وبين الفرس . فان الفرس يدخلون المدن هادمين مخربين منتقمين واما نحن فندخل مسالمين مصلحين . فقال الامير (— اجل ان الفرس هجموا على الشام لسحق الروءساء والشعوب معاً اما نحن فندخل الشام للانصاف بين الشعب والرؤساء فدخولنا نعمة للشعب لا نقمة . ثم تناول الامير حينئذٍ رقاً وقلماً وكتب الى ابي عبيدة يقول * « باسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام ابي عبيدة . امابعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه . وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في اي ناحية نتوجه اليها . وقد اشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك »

فلما عاد الرسول بهذا الكتاب الى ابي عبيدة وجده في الجابية * فقرأه ابو عبيدة على المسلمين فهللوا وكبروا وفرحوا بسيرهم الى بيت المقدس * ثم « دعا ابو عبيدة بيزيد بن ابي سفيان (١) وعقد له راية على خمسة آلاف وامره ان يزحف الى بيت المقدس وفلسطين . وقال له . يا ابن ابي سفيان ما علمتك الا ناصحاً . فاذا اشرفت على بلد ايلياء (اي بيت المقدس) فارفعوا اصواتكم بالتهليل والتكبير . واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الانبياء والصالحين ان يسهل فتحها على ايدي المسلمين . فاخذ يزيد الراية وسار . ثم دعا ابو عبيدة شرحبيل بن حسنة الذي كان كاتب وحي نبيهم وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من اهل اليمن وقال له سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك . ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وضم اليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على اثر شرحبيل بن حسنه وقال له : انزل على حصنها وانت بمعزل عن اصحابك . ثم عقد راية رابعة فسلمها للمسيب بن نجية الفزاري وامره ان يلحق باصحابه وضم اليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل . وعقد راية خامسة وسلمها الى قيس بن هبيره المرادي وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه .

(١) حذفنا هنا اسم خالد ابن الوليد لان الواقدي وغيره يقولون انه بقي مع ابي عبيدة ولم يرحل في مقدمة الجيش

ثم عقد راية سادسة وسلمها الى عروة بن المهلهل بن زيد الخيل وضمّ اليه خمسة آلاف فارس وسيّره وراءهم — فكان جملة من سرّحه ابو عبيدة الى هذه المدينة خمسة وثلاثين الفاً » وقصده بذلك ارهابنا بنزول امير علينا في كل يوم · وهذه مقدّمة جيشهم · وقد سمعت واحداً منهم يقول بعد وصولهم « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا اكثر زينة ولا احسن عدة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم الاّ وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع واخذتهم الهيبة الاّ اهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم احد ولا ينطقون غير ان حارسهم شديد وعدتهم كاملة » (١)

فهنا ضحك الوالي ونظر الى القائد فابتسم القائد افتخاراً بشهادة العدو بثبات جأش الجند والامة · فقال الوالي ليوحنا وماذا سمعت عن باقي مدن فلسطين · فقال الرسول ان جند العرب تفرقوا فيها وهاجموها من كل صوب · فبيسان وطبرية واللد والرمله ويافا وقيسارية (قيصرية) وغزه ونابلس وعمواس وبيت جبرين واجنادين — بعضها وقع وبعضها سيقع في قبضتهم · فقال القائد · وهل سمعت شيئاً عن الشام · فقال الرسول ان ابا عبيده قصد حمص من دمشق بعد ارساله الجند الى فلسطين · فلما علم جيشنا بذلك ظن انه قادر على استرداد دمشق فزحف اليها فعاد ابو عبيدة وخالد بجندهما ولاقياه في مرج الروم قرب دمشق فكانت الغلبة لجيش العرب ايضاً * ويُقال ان قائد العرب ابا عبيدة سيقصدنا في وقت قريب

وما أتى الرسول على هذا الكلام حتى دخل راهب واخبر البطريرك ان في الباب سيدة وشيخاً يستأذنان بالدخول · وكانت السيدة هي ام تيوفانا قدمت وهي تبكي خوفاً من العرب على ابنتها التي ذهبت لتوصل الفتاة الوثنية الى دير العذراء · واما الشيخ فهو ابو استير وقد جاء خائفاً على ابنته ايضاً ليلتمس من البطريرك الاذن له بالذهاب الى الدير لافتقاد ابنته · فتضجر البطريرك من مقابلتها وامر الراهب ان يبلغهما ان العذراء تحمي ديرها وتسهر عليه · ثم اردف بقوله : ان العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ولذلك يحترمون المنقطعين اليه تعالى (٢) فلا تخافوا منهم على الدير

«١» رواه الواقدي عن المسيب بن نجية الفزاري

(٢) لما ودع الخليفة ابو بكر جيش اسامة بن زيد حين زحفه الى الشام اوصاهم فقال (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له) ابن الاثير

الفصل الثامن

﴿ تاريخ حياة ايليا ﴾

قبل الحوادث التي تقدمت

ولما رجعت تيوفانا القهقرى الى الدير عند ذكر العرب جرّت معها ايليا بيدهـا وهي تقول : هلمّ بنا الى الدير يا كيريه ايليا فاننا نخشى ان يقصد احد منهم هذا المكان . ولكن رئيسة الدير لما سمعت من تيوفانا خبر وصول العرب هزّت كتفيها غير مبالية وقالت بتسليم ملائكي لدينا جيش اقوى من جيش الروم والعرب وهو حماية الله . ثم رفضت قبول ايليا وارميا رفضاً قطعياً وادخلت الى الدير تيوفانا وحدها

فبعد اقفال باب الدير قال ايليا لارميا هل تذهب معي الى المزرعة يا كيريه ارميا ام تبقى هنا للسعي كما ذكرتُ لك

فقال ارميا كنت في هذا الصباح في المزرعة فلستُ اعود اليها . وقد سمعت فيها ان الجميع كانوا ينتظرونك لتتناول معهم طعام العيد في الصباح . ولكن بعيشك قل لي ماذا يصنع كيريه سليمان اذا وصل العرب الى مزرعته . فقـال ايليا ساسأله عن ذلك الآن . اما انت فدبرّ شغلك كما اخبرتك

ثم انّ ايليا ودّع ارميا واخذ في الانحدار عن الجبل لا من جهة المدينة بل من طريق وراء الجبل تؤدي الى مزرعة كانت قائمة في الجهة الشرقية

وبينما ايليا سائر نحو المزرعة يحسن بنا الآن ان نذكر شيئاً من تاريخ حياته فقد آن ذلك لا سيما وان ما يلي متعلق بما تقدم

***

كان ايليا ابن فلاح من الناصرة يكسب رزقه من حراثة الارض · فربي ايليا بين النباتات والازهار والحقول · وكانت امه قد نذرته للعذراء ورغبةً منها في ان تخصه العذراء بعنايتها كانت في كل مساء يوم احد تاخذه الى البيت الذي قيل انه كان منزل العذراء في الناصرة والذي كان قد أُقيم عليه كنيسة احتراماً له وهناك تجعله يفرّق بين الفقراء المجتمعين حول الكنيسة ارغفة خبز تصنعها له امه خاصةً لهذا اليوم · وكان كلما ناول الصغير ايليا احد الفقراء رغيفاً وهو يبتسم ضاحكاً بفمه الوردي كانت امه تقول للفقير « ادعُ لايليا » فيقول الفقير متحمساً بالدعاء لذلك الولد اللطيف « ان شاء الله سيصير بطريرك القدس » فكان ايليا يقرع كفاً بكفٍ من فرحه والدموع تترقرق في عيني الام من حنانها وتأثرها · وفي ذات يوم قدم الناصرة عالم عظيم من القسطنطينية ليزور الاماكن المقدّسة · فلما شاهد ايليا يفرّق ارغفته الاسبوعية وسمع دعاء الفقراء له اخذ العالم رأس الصبي بين يديه وقال « نعم يا بني ستكون بطريرك اورشليم الجديدة »

وكان الناس في فلسطين يتزاحمون على هذا العالم من كل صوب لانه كان منجماً عظيماً · وكان تلميذ اسطفانوس الاسكندري الذي كان يُلقب « معلم المسكونة » * والذي اقامه الامبراطور في قصره في القسطنطينية مع اثنى عشر عالماً من العلماء لتعليم الفلسفة والطب والموسيقى والهندسة وباقي فروع العلوم * (١) فلما سمعت ام ايليا نبوءة العالم وتنجيمه زاد اعتقادها بعظمة مستقبل صغيرها · فصرفته عن الامور المعاشية الى الوظيفة الدينية التي تجتمع فيها اعظم الاشياء واشقها · اي الرئاسة والخدمة

اما العالم القسطنطيني فانه لم يتنبأ تلك النبوءة للصغير ايليا عبثاً · بل كان له منها غرض اسمى من الغرض الذي فهمته امه · فانه كما تقدم الكلام كان قادماً من القسطنطينية وكان لا يزال يدوي في اذنيه ما رآه وسمعه فيها من المجادلات الدينية الفارغة والانقسامات السياسية وضوضاء المدنية البالغة حدود التهتك والافراط · فلما رأى ذلك الصغيرَ

---

(١) رواه المسيو برتلو الكيماوي المشهور وزاد عليه ان الامبراطور هرقل كان من اكبر المشتغلين بالتنجيم والكيمياء التي يُراد بها تحويل المعادن الى ذهب وقال ان لاسطفانوس هذا سبعة دروس كتبها للامبراطور ولا تزال محفوظة الى اليوم · والعرب يضعون اسم هرقل بين اسماء المشتغلين بالكيمياء

الناصري على ابواب الكنيسة يوزّع الخبز على الفقراء مع انه يكاد يكون فقيرًا مثلهم شعر حينئذٍ بعظمة التدين الحقيقي . فقال في نفسه ان هذا الطفل وامه اقرب الى الله من كل اصحاب تلك المجادلات والمشاحنات التي يدّعون بها التقرب من الله . واعجب بصدق العواطف الدينية في الشرق وبساطتها بازاء القسطنطينية التي صارت فيها العواطف الدينية آلات للسياسة والرئاسة والربح . فقال حينئذٍ لايليا ما قاله مشيرًا الى ان صنع الخير المجرد عن كل مصلحة خصوصية ونقاء العواطف وصدق الضمير وسذاجة القلب هذه هي المبادىء التي ستكون في المستقبل اساس اورشليم الجديدة . والا فلا يكون هنالك اورشليم . . .

اما ام ايليا فانها لما بدأت تدفع ابنها في الطريق الاكليريكية صارت تجلب له الكتب لمطالعتها فكانت لا تلقى رجلاً من رجال الدين حتى تطلب منه كتابًا . وكان ايليا يقرأه كل ذلك بلذة وصبر عجيب . وكانت امه امية لا تحسن القراءة . ففي ذات يوم لقيت في كنيسة الناصرة راهبًا غريبًا فطلبت منه كتابًا لابنها واخبرته انها ستدخله دير القدس : فقال لها الراهب ساعطيه كتابًا يعلمه ويجعله اكبر من اكبر بطريرك . ففرحت الام ووثقت ثقتها بابنها . وكان عنوان الكتاب الذي اخذته من هذا الراهب الغريب « ثلاثة في المسيح » فدفعته الى ابنها دون ان تعلم بموضوعه . وكان ذلك الراهب نسطوريًا وموضوع هذا الكتاب تعاليم نسطوريوس واوتيشيوس وآريوس الذين مذاهبهم في المسيح اقلقت الكنيسة وضعضعت المعتقدات فاضطر الامبراطرة ان يجمعوا المجامع للحكم فيها تسكيتًا الاضطراب الذي حدث في المملكة

فلما وقع هذا الكتاب في يد ايليا همّ ان يصيح بموضوعه امام امه ولكنه كتم الأمر الى ما بعد الاطلاع عليه . وكان ايليا يومئذ في التاسعة عشرة من العمر . وكان قد اصبح فتىً قوي البنية رقيق العود طويل القامة ابيض اللون اسود العينين جميل الهيئة قليل الحركات كثير السكنات . وكان يلذ له الصعود الى الجبال التي فوق الناصرة للتأمل فيها . حتى انه لو كان رنان في عصره ونظره يتأمل من تلك الجبال في المناظر الشائقة التي تحت قدميه لظن انّ الناصري عاد الى الارض مرة اخرى فولد من عذراء وشبّ حتى صار فتىً وجلس على تلك الجبال التي كان يلذ له الجلوس عليها للتفكير بانقاذ العالم مرة اخرى

فقرأ ايليا هذا الكتاب واكثر كتبه الاخرى هناك في ذلك المكان البديع . وما فرغ من كتابه هذا حتى تغيّر رأيه في الثلاثة الذين تقدّم ذكرهم . فانه كان قبل قراءة الكتاب يبغض اثنين منهما بغض الشيطان لما قرأه وسمعه عنهما حتى انه كان يرى الناس اذا

ذكروا امامه احدها فانهم كانوا يصلّبون استعاذة منه بالله . واما الآن بعد قراءة تاريخ حياتهم فقد ذهب بغضه لهم لانه لم يرهم سوداً كما وُصفوا له . بل انه اعجب بجرأتهم على الجهر بما اعتقدوه حقاً وذكر لهم فضل العمل والصدق في الفكر والقول . ولكنه لم يقتنع بمذهبهم لان امه ارضعته مع اللبن حب كنيسته وامه الحنون التي سيندمج في سلك ابنائها بعد حين . ولذلك اطبق الكتاب بعد الفراغ منه وتنهد قائلاً « لا تدينوا لكي لا تُدانوا » الا انه بقي في ذهن الفتى برق من هذه المطالعة السرّية وهو حب البحث وحرية القول والفكر

وفي العام التالي اخذته امه الى القدس ليندمج في السلك الاكليريكي . فذهب اليها ايليا بسرور وشوق كما يذهب الى الفردوس الارضي لو علم بمكانه . ودخلها كملاك خَلقاً وخُلقاً وقلبه يرقص طرباً لانه سيكون في المستقبل من اولئك الرجال الضعفاء الذين تُحنى امامهم رؤوس القياصرة والملوك والكبراء ولا سلاح لهم غير ثوبهم الاسود

في القدس لقيت ام ايليا في كنيسة القيامة الراهب النسطوري الذي اعطاها الكتاب الذي تقدّم ذكره . فقدّمت اليه ابنها المحبوب واطلعته على نيّتها . وكان ذلك الراهب يُدعى « ميخائيل » وهو شيخ في الخمسين من العمر اصله من بلاد الكلدان ولكنه يقيم في بيت المقدس . فلما وقع نظره على الفتى وآنس في وجهه الروح الملائكي الذي تقرأ النفوس الكبيرة آياته في عيون النفوس الكبيرة التي لا تزال صغيرة قرع ظهره بيده تحبباً وقال « فلتكن روح سيدنا المسيح معك يا بني . انني ارى نوراً الهياً في وجهك . ولو لم ينقضِ عصر الانبياء لقلت انك ستكون النبي الذي تنتظره المسيحيّة »

فبكت ام ايليا من هذا القول المؤثر ولم يبقَ لديها شكٌ في ان ابنها فوق البشر تقريباً . ولا نكتم القارىء انها فتشت في السر كثيراً في التوراة والانجيل لتعلم هل هنالك نبوءات عن ظهور نبي جديد من الناصرة ام لا . ولولا مجيء ابن الانسان منذ نحو ٦٢٨ عاماً فربما كان حنانها الوالدي اطلق على صغيرها النبوءات الواردة في التوراة بشأن مجيئه

وكان الراهب ميخائل قد اهتم بايليا اهتماماً شديداً . فلزمه ايليا وصار يزور الآثار المقدسة معه . وفي عيد الامبراطور في ذلك العام اقيم قداس حافل امام القبر فذهب ايليا والراهب لحضور هذه الصلاة وكانت هذه اول مرة يحضر بها ايليا صلاة هيئة دينية كبيرة . وكان اسقف بيت لحم هو المتولي رئاسة القداس وحوله الكهنة والشمامسة والرهبان صفوفاً صفوفاً وكلهم متجهون الى القبر المقدس وحولهم الجموع . فلما حان وقت تلاوة الانجيل مدّ الاسقف يديه ليتناول الكتاب المقدس . فتقدم شماس ليفك

ازراركمه فاضطرب وابطأ . فغضب المطران ولطمه على وجهه بيده اليمنى الممدودة . ويظهر ان الشماس الذي ذهب ليأتي بالانجيل ابطـأ ايضاً واضطر الاسقف ان ينتظر قليلاً فلما جاءه بالانجيل لطم بيده اليسرى ذلك الشماس لئلا تغار من اليمنى وهو يقول له باليونانية كاسد يزمجر « دياولي » (١)

فلما رأى ايليا ذلك المشهد الغريب ارتعدت فرائصه وصبغ الدم وجهه حتى كاد يخنقه . ثم نظر الى الاسقف ليرى هل يجترئ بعد صنعه هذا على مس الانجيل بيده الضاربة فوجد انه تناول بها الكتاب بكل قوة — ذلك الكتاب الذي يحرّم عليه الصلاة بعد ذلك ان لم يستغفر اخاه الشماس الذي اساء اليه — وصار يتلوه بصوت جهوري

اما الراهب ميخائيل فانه لما نظر تأثر ايليا ابتسم ابتسامة هو وحده يعرف معناها

ولما انتهى القدّاس وخرج الناس نظر ايليا الى صفوف الرهبان الخارجين فوجدهم وقد تفرقوا شتاتاً في فنـاء الكنيسة كانهم اسرى واُطلق سراحهم . وكانوا يضاحكون بعضهم بعضاً وهم خارجون ويثبون وثباً كانهم مبتهجون بانطلاقهم من قيـد النظام الذي كان يجعلهم امام رؤسائهم كاصنام جامدة (٢) فزاد استغراب ايليا لانه كان يظن ان ذلك الهدوء والرزانة والمعيشة الجدية والاحتشام حلفاء لهم في غيبة رؤسائهم وفي محضرهم

فخرج ايليا من اول حفلة حضرها ونفسه الدينية قد جُرحت جرحاً اليماً . وفي خروجه استوقفه على الباب صراخ كاهن يبكي ويصيح عند مرور الاسقف . وبعد الاستخبار ظهر له ان هذا الكاهن كان من القائلين بالطبيعتين والمشيئة الواحدة وقـد اغضب البطريرك صفرونيوس بشدة مقاومته فعاقبه البطريرك بان « ربطه » اي قضى عليه بالامتناع عن اقامة القداديس والصلاة فوق المذبح . فتأمل ايليا في الكاهن وهو خارج ورثى لحاله لان ذلك الضغط لا يقطع رزقة فقط بل يلقي عليه وعلى اسمه شبهة عدم الاستقامة في الايمان ويقيد حريته

وكان كثيرون من اكابر القدس قد حضروا هذه الحفلة . فاخذ ايليا والراهب ميخائيل يتأملان في سيدات اورشليم الجميلات الخارجات من القداس وشبانها الذين كانوا في الظرف واللطف والكياسة اشبه بالسيدات . . وكانت الاطالس والاثواب الحريرية

---

(١) ليست هذه القصة تصنيفاً من المؤلف بل رآها بعينيه في قداس امام القبر المقدس كان القائم به بطريرك مشهور بشدة الوطأة قبل بطريرك القدس الحاضر . ودياولي معناها شيطان . وكان البطريرك يومئذ يقدس لاحد الملوك في يوم عيد

(٢) هكذا كان ايضاً بعد صلاة البطريرك الذي تقدم ذكره في الحاشية السابقة

والتيجان اللؤلؤية التي تكلل شعور السيدات في شبكة خصوصية * والروائح العطرية التي تفوح من تلك الملابس الجميلة والغضاضة البادية في الاجسام البضة النقية التي تحتها ـ كل ذلك كان يدل على امة سعيدة في الظاهر غنية متمتعة بالملاذ والاطايب . الا ان الفقراء الذين كانوا صفوفاً صفوفاً تجاه الكنيسة وحول بابها وجدرانها وهم بحالة يرثى لها من الشقاء والضعف والفقر كانت حالتهم تدلّ ايليا الفتى الساذج على ان في تلك المدينة العامرة بغناها وابهتها انسانيتين واحدة سعيدة وواحدة تعيسة . والمضحك انه ظن لسذاجته ان الاولى مسيحية والثانية غير مسيحية . لانها لو كانت مسيحية لشاركت اخوتها المسيحيين السعداء في خيرات الارض ونعمها وكانت مساوية لهم في المملكة

فبقي ايليا مفكراً بعد كل هذه المناظر المختلفة يمشي بجانب الراهب ميخائيل الذي كان يفكّر مثله ايضاً . وكان يقول في نفسه وهو ماشٍ مفتكراً بضرب الاسقف الشماس . ماذا اصنع بعد ما رأيته ? هل ادخل تحت يد هذه السلطة التي لا تخجل من الاساءة اليّ واهانتي حتى امام الناس مع انني في دخولي تحت يدها اتنازل لها عن اثمن شيء عندي واعطيها اكثر مما تعطيني . هل ارضى لنفسي ان تكون في المستقبل في منزلة ذلك الكاهن المسكين الذي اهانوا ايمانه وقيدوا حريته من اجل شيء صغير . لا لا . انني احب الرهبانية . احب معيشتها الهادئة الاشتراكية . احب الاناشيد جماعات جماعات تحت سقوف الكنائس الكبرى والاديرة العميقة حيث تتجاوب الاصداء فيها كأنّ الجو مأهول بملائكة تردد اصوات النشيد والصلاة مع المنشدين والمصلّين — ولكنني احب قبل كل شيء حريتي وشرف نفسي . فانني ربيتُ في الحقول بين الازهار والطيور حرّاً مطلقاً مثلها . فاذا قيدتُ نفسي الآن هذا التقييد الذي يجعلني رمة هامدة حرمت نفسي اعظم نعم الله واكبر اللذات الروحية واعني بها الحرية . فماذا اصنع ياترى . ماذا اصنع . أأترك هذه ام اترك ذاك . واذا تركت الرهبانية فماذا اصنع في العالم . ومن اين اعيش . واين اذهب في معترك هذه الحياة

ولما علم الراهب ميخائيل باضطراب نفس ذلك الفتى في هذا الشان اشفق عليه اشفاق من سبقه الى هذه الافكار في صباه . واذ ساله الفتى الارشاد والنصح تردّد الراهب وبقي ساكتاً . فبكى الفتى وقال انني وحيد فريد في الدنيا وقد جعلك الله في طريقي لتكون لي مرشداً فلماذا تضنّ عليّ بثمرة اختبارك . اما انت انسان ومسيحي مثلي . انسيتَ قول الانجيل : من طلب منك فاعطه ومن سالك فلا ترده . انني لا اطلب منك ذهباً ولا فضة

ولا اكافئك عناءً وانما اطلب رايك . فقل لي ماذا اصنع في هذه الحياة التي تركني الله فيها وحدي

فاغرورقت حينئذ عينا الشيخ ميخائيل بالدمع فقرع كتف الفتى بيده تحبباً اليه واجاب . هل تحب ان نشهد معاً بزوغ الشمس غداً يابني . فاجاب ايليا نعم احب ذلك . نقال الراهب وافني غداً بعد الفجر الى جبل الزيتون وهنالك نشهد بزوغ الشمس ونتحادث على انفراد في الموضوع الذي طلبتَ رأيي فيه

الخطبة على الجبل

قصة الراهب الشيخ ميخائيل ـ طلوع الشمس على ايليا (١)

وفي فجر اليوم التالي بكَّر ايليا الى جبل الزيتون لانه لم ينم في الليل الا قليلاً . فوجد الراهب الشيخ ينتظره تحت ارزة هناك . وكانت الشمس لا تزال بعيدة وجيش النجوم في السماء الصافية آخذ في الفرار امام عروس النور . وكان البرد قارصاً وريح الصباح تهبُّ شديدة على الارزة فتئنُّ أغصانها لذلك انيناً شديداً

فاشار الراهب الشيخ الى الفتى بجدٍّ ورزانة ان يجلس بجانبه واذ جلس اخذ الشيخ يقول والطبيعة كلها في اواخر ذلك الليل مصغية مع الفتى الى كلامه اللطيف

***

. — يا بني : لا تزال الشمس بعيدة فلنتحادث قليلاً قبل ان تشرق . فاننا لا نحتاج الى نورها لبث الحرارة في نفوسنا فان الروح الالهية التي اودعها الله في داخلنا كافية لذلك . ولقد سرتْ امس حرارة نفسك الى نفسي فرأيتُ ان احادثك هذا الحديث بعد ما شهدته امس من اضطرابك وبكائك

يا بنيّ . نعم انك لم تطلب مني فضةً ولا ذهباً . ولم تكافئني عناءً . ولكن فاعلم انك طلبتَ مني ما هو عندي اهمّ من الفضة والذهب . لقد طلبتَ مني امرين عظيمين . الاول ان امدّ يدي الى ضميرك في باطن نفسك واديره الى حيث اشاء . والثاني ان احكم لك على هيئتنا ومعيشتنا الحاضرة الحكم الذي اراه

هذا ما يجب ان يدور عليه محور جوابي اذا اجبتك على سؤالك . ولذلك رأيتني

(١) وجدوا في وصيّة الراهب الشيخ ميخائيل انه كشرقي محب للشرقيين يهدي هذه الخطبة الى كل من كان منهم ذا فكر سليم ونية حسنة وعقل مطلق من قيود الجبن والتقليد يطلب الحقيقة المطلقة والفضيلة المجرّدة

ترددت اولاً عن تحمل هذه التبعة العظمى . ولكن دموعك واضطرابك غلبتني فجئت معك الى هنا على هذا الجبل المقدس الذي دوت في فضائه تعاليم الهية لاذكر لك فيه ثمرة اختباراتي في هذه الحياة كما طلبتَ مني

يا بني انك تسألني بعد ما شاهدته في المدينة وفي القداس امام القبر المقدس هل تنخرط في سلك الخدمة الدينية كما كنتَ تنوي ام تعدل عن ذلك الى خدمة اخرى . وما هي الخدمة التي تليق بك . فاجيبك انك اخطأت في تركك تلك الامور الجزئية تؤثر على عقلك . والارجح ان سبب خطائك توقعك من لبس الثوب الاسود الوصول الى الراحة والهناء والسعادة في هذه الارض . ولذلك اجفلتَ لما رأيت الاسقف يلطم شماسه امام الناس والكاهن يبكي وينوح لانهم قطعوا رزقه وضغطوا على حريته . ولكن فاعلم يا بني انني لا احثك على ترك الثوب الاسود للفرار من الاذى والاهانة والضغط والاضطهاد . لان هذا الثوب ما خُلق الا ليتحمل هذه كلها . فاذا كنتَ تشعر في نفسك بالقوة على تحملها والترفع عن الاهتمام لها فاقدم عليه . والاَّ اذا كنت تطلب به الراحة والهناء فاتركه لانك تكون ضعيفاً يجب ان يخدمك الناس لا ان تخدم الناس

نعم يا بني . لا تدع فساد اعمال الروءساء يمنعنا من صنع الخير والقيام بواجباتنا في هذه الحياة . وهل الارض للروءساء لنتركها لهم حالما يظهر لنا انهم عادون عليها وعلينا . كلا . ان كل اساءاتهم وظلمهم وسوء تدبيرهم وعماهم واضطهادهم وعدوانهم لا ينبغي ان تمنعنا من اتمام ما علينا للبشر الذين يعيشون معنا . فنحن نكون خدَمة لله والناس حتى بالرغم عنهم . واذا اصابنا في حياتنا ابان الخدمة ما اصاب ذلك الشماس من رئيسه امام القبر فاننا نقبل اللطمة ونتعزى باننا اقرب الى المسيحية وكتابها من ذلك الرئيس اللاطم . وحينئذ يرى الله والناس اننا نحن الصغار المساكين انما نحن الروءساء الحقيقيون بالفعل اذ في نفوسنا قوة الرئاسة التي هي قوة المبادىء والعمل بها على حين انه لا يكون من الرئاسة لذلك الاسقف الرئيس وامثاله غير ملابسها المزخرفة . .

أجل يا بني . انني لا أرى في تلك الصغائر ما يمنعك من الخدمة لانني اهمل اساءآت الناس واعتبرها كانها غير موجودة . ولكنك هنا تسألني ولا شك : اذاً انت تشير عليَّ بالاقدام على الخدمة ونبذ الهواجس من نفسي ؟

يا ولدي العزيز . هنا وصلتُ الى موقف صعب انا فيه بين نارين . فمن جهة يعزُّ عليَّ ان اجهر بما في ضميري لانه موْلم ومن جهة اخرى يعزُّ عليَّ ان اكذب واخادعك . ولكن

الحقيقة هي عندي يا بني اثمن من كل شيء . ولذلك انا اصرّح لك بها

نعم انني لا اخشى عليك من اساءات الرؤساء وظلمهم فان نفسك القوية لا تبالي بهم لانك لا تخدمهم وانما تخدم الله والناس تحت رئاستهم . وانما اخاف عليك شيئاً آخر

انظرتَ يا بني تينك الانسانيتين اللتين التقتا بعد الفراغ من القداس امام باب الكنيسة . هناك رأيتَ ولا شكّ انسانية سعيدة وانسانية تعيسة . هناك بشر يلبسون الحرير والديباج و يتحلون بالجواهر و يسكنون القصور و يشربون الخمور ويحشون بطونهم حتى حيواناتهم بكل ما في الارض من اطايب وملاذ . وهناك انسانية اخرى تعيسة شقية تطلب خبزاً لتاكل فلا تجد فتنام على الطوى بلا اكل . وتطلب ملجاءً تأوى اليه فلا تجد فترقد على تراب الاسواق والشوارع تحت قبة السماء . وتسال ثوباً يقيها البرد و يستر اجسامها الهزيلة الصفراء من المرض والحاجة فلا تجد ايضاً فتعيش عارية الاجسام كالحيوانات . يا بني . هنا اعيد عليك قولي السابق : انني لا اخاف عليك من اساءآت الرؤساء وظلمهم اذا صرتَ خادماً للارواح : وانما اخاف عليك من الله والناس ان تمدّ يدك يوماً الى تلك الانسانية السعيدة وتباركها فتبارك بذلك الظلم الاجتماعي الذي يسبب هذا الفساد

أجل يا بني . اننا عدنا الى الحالة التي حاربها المسيح منذ ستمائة سنة وبذل دمه لهدمها . انه جاء ليعلمنا الرفق والمحبة والمساواة . ويجعل الجميع اخوة . مبطلاً قسمة الناس الى قسمين اسياد وعبيد . كبار وصغار . اغنياء وفقراء . اقوياء وضعفاء : وهوذا نحن اليوم كما كان اليهود لما صلبوه . — انه جاء لمحاربة الفريسيين الذين يعرّضون اكمامهم ويشمخون بانوفهم ويحبون المتكئات الاولى في المجامع وان يناديهم الناس سيدي سيدي و يتخذون وظيفتهم الكهنوتية آلة لكسب المال من الاغنياء والاقوياء مهملين الفقراء والضعفاء اذ لا يُرجى منهم نفع ولا ربح : وهوذا الفريسيون عائشون في هذا العصر ايضاً ولم ينقرضوا بانقراض اولئك . — انه جاء لمحاربة الدين الذي يُدعم بالمصلحة والمادة وعبادة المحسوسات . وصرع رجاله المرائين الذين يصلّون بشفاههم صلاة لا تصدّقها قلوبهم . ومقاومة جعل الكنيسة ادارة واسعة فيها رئاسة ضاغطة وكهنة خصوصيون يرتزقون من وظيفتهم لان كل انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . ومعارضة الذين يقيّدون الله بالهياكل فلا يعتبرون الصلاة في غيرها صلاة حقيقية : وها نحن يا بني نكاد نعود الى هذه كلها . ولو عاد الآن سيدنا المسيح الذي لبسنا من حبنا له هذا الثوب الاسود المتعب لاضطرّ ان يصلب نفسه على يدهم مرة اخرى للدفاع عن المبادىء التي دافع عنها في المرة الاولى

يا بني · عفواً اذا وجدتَ في كلامي شيئاً من الحدة · اذ كيف تريد ان اكون هادئاً رزيناً حين تذكّري هـذه الامور كلها · انني كاهن ويحقّ لي ان استشيط غضباً لالقاء جوهرتنا في وحل العالم · وقد غضب يوماً سيدنا مع كثرة صبره وحلمه فحمل السوط وطرد الباعة والصيارفة من الهيكل · فلي اسوة به اذا غضبتُ وارسلتُ سوط الكلام الى ظهور باعتنا وصيارفتنا · · ·

انك ربما تستغرب كلامي هذا يا ايها الفتى الساذج النقي لانك لم تعرف شيئاً من فساد العالم ولم ترَ قبل الآن بلداً غير الناصرة وطن سيدنا · ولكن فاعلم الآن — ولا استغراب — ان كل الناس يعرفون هذه الحقائق التي ذكرتها لك ولا يجهلونها · وكم من مرةٍ سمعتُ بعضهم يقول على نغم رنين النقود في الكنيسة وباقي المظاهر اليهودية القديمة ان المسيح لو جاء الآن لما دخل علينا الا وهو حامل سوطاً · اجل يا بني · اننا كلنا لا نجهل هذه الحقائق ولكن ما الحيلة · فاننا سائرون بالرغم عنا الى طور الهرم · وهذه سنّة كونية لا تردّها الا سنّة مثلها · وفعلها عامٌّ على كل المذاهب والاديان في كل زمان ومكان لا علينا وحدنا

اسمع يا بنيّ لاخبرك خبراً مهمّاً · انك سمعتَ ولا شكّ شيئاً عن العرب · فهذه القبائل البدوية قام فيها رجلٌ همام يدعوها الى ترك الاصنام وعبادة الله تعالى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وايتاء الزكاة وهو النبي العربي الذي شاع خبره · وقد تمكن هذا النبي من التغلّب على القبائل المشركة بقوة السيف المؤيدة بقوة الاعتقاد والثقة من افضلية المبداء فجمعها كلها تحت لوائه استعداداً لغزو العالم وفتحه بها · وقد كنتُ منذ مدة في تلك البلاد لاننا نحن النساطرة لنا حظوة عند النبي العربي ورجاله وقد عرف بضعةً منا وحادثهم * فلما شاهدتُ النبيَّ وسمعتُ ما سمعته عنه من الحلم والشجاعة والعدل والرفق والمساواة والعناية بالضعفاء قبل الاقوياء عرفتُ السرّ في تأييد العناية الالهية له في نهوضه · وسررت سرور الطفل لانني عاصرتُ زمناً عظيماً وعصراً ذهبياً · اجل يا بني انّ عصر الانبياء عصرٌ ذهبي · لان الشرائع التي يضعونها تكون عذراء طاهرة لم توضع عليها يد غير اليد الكريمة التي وضعتها · ولكن لا بدّ بعد واضعيها ان ياتي المفسرون والموءولون والرواة والناقلون · وليس ذلك فقط بل ان الطبيعة نفسها تبدأ بفعلها الابدي · فان الليل والنهار يتعاقبان · والقرون والاجيال تمر · فالامم والمذاهب التي تكون اطفالاً في البداءة تشبّ وتنمو وتتغيّر احوالها فلا تعود تكفيها شرائعها الفطرية الاولى — وهذا ما حدث لنا وسيحدث لغيرنا بعدنا

ولما كنتُ في بلاد النبي العربي يا بنيّ وقفتُ في ذات يوم خارج « المدينة » وكانت خيام جمهور من الحجاج مضروبة في الخلاء والنبيُّ يفتقد الحجاج ويلاطفهم ويزوّدهم رضاه وهم امامه خشّع خضع احتراماً واكراماً. فسرّحت نظري في حالتهم البدوية الجميلة واعجبتُ بالفطرة الانسانية التي يكون فيها البشر بلا همّ ولا حزن غير الاهتمام بمعتقدهم . فتذكّرت حينئذٍ منظراً آخر . تذكّرت سيدنا المسيح وتلامذته حول بحيرة طبريا في حقول الجليل الجميلة يتمشون بين الازهار وسنابل الحنطة وهم منقطعون عن هموم الدنيا . فاطبقت حينئذٍ عيني من لذة الذكرى لتتمتع كل حواسي بها . وصرت اقول في نفسي لدى هذين المنظرين : هذه هي فطرة الانسانية . هذه هي المعيشة الهادئة التي تنطبق على الحياة الروحيّة . ثم تساءلتُ : ايّ افضل : ان تبقى الانسانية هكذا طفلة صغيرة تعيش في وسط الطبيعة والنباتات والازهار والاطيار وهي محافظة على اصول شرائعها الساذجة الاولى — ام تصير امة عظمى فتبني المدن وتجمع الخيرات والثروات وتحيي الفنون والعلوم وتشيد الدول والممالك وان تركت تلك الشرائع الساذجة الجميلة . وا اسفاه اننا جرّبنا ورأينا . رأينا ان الانسانية متى خرجت عن طور الفطرة والطفولية صارت رجلاً خشناً يهتمّ بمعدته اكثر من نفسه . رأينا ان مبادىء الدين اذا غلبت بعد الانغلاب وصارت سائدة بعد ان كانت مسودة تسلّحت بالقوّة وعاملت من لم يكن منها كما كانوا يعاملونها لما كانت ضعيفة . ولذلك يا ايتها الفطرة الضعيفة الصغيرة انما يتحرك قلبي حنيناً اليك . وافضّلك على كل المدنيات الكبيرة والممالك الواسعة . لان هذه انما هي عبارة عن « كرش » واسع فيه اقذار الهضم مقدّمة على كل شيء

يا بني . عذراً لتحمسي هذا . فانني صرفتُ شيخوختي في التفكير في هذا الموضوع . وقد وصلتُ الى آخر العمر وانا اعتقد اعتقاداً هدم آمالي كلها . وهذا الاعتقاد هو اننا في الهيئة الاجتماعية الحاضرة لا يمكن الاصلاح بواسطة الدين الاّ اذا كانت الانسانية تعود الى طفوليتها وفطرتها الاولى . فان الدنيا قد زحفت وتغيرت . وصار يلزم نبيٌّ جديد للانسانية الجديدة

يا صديقي الصغير . لا تستغرب هذا الكلام الذي اقوله لك وانا كاهن فانني تعوّدت ان اقول الحق ولو كان على نفسي واعز شيء عندي . ان الدين لم يقدر على اصلاح الفساد الاجتماعي الذي وصفته لك في مقدّمة الكلام . ولا يزال يباركه منذ مئات سنين بركةً لا احبّ لك ان تشترك فيها . نعم انه يشجب الرذائل والشهوات . ويحتقر المال ويسميه الهاً مبالغةً في اذلاله وتنفير الناس منه لئلا يشركوا بالله . ويوجب المساواة بين جميع

طبقات البشر · ويدعو الى الفضيلة والصدق والرفق والمحبة والتواضع والاخاء · ولكن يا صديقي اي تاثير لهذه الالفاظ في النفوس اذا لم تعمل بها · انها تبقى الفاظاً فارغة من المعنى كالبندق الفارغ · ويكون اصحابها الذين يقولون بها ولا يعملون بما يقولونه مؤمنين في الظاهر وثنيين في الباطن · وكثيرون منهم يزعمون انهم معذورون لاقتصارهم على القول دون الفعل · فانهم يقولون مثلاً : كيف نستطيع القيام بما يفرضه الدين علينا قبل ان تُعدّ لنا لوازم حياتنا · كيف نكون امناء مع الفقر والحاجة · وصادقين مع الضغط والظلم · ومحبين صافحين مع الحقد والبغض · وهادئين مطمئنين مع زوابع الحياة التي تعبث بنا من كل جانب · افلا يجب على الاقلّ ضمانة معيشتنا اليومية لنا لنتمكّن من التزام الحدود وقتل صلّ الطمع والحيوانية في داخلنا · فلتضمن لنا الهيئة الاجتماعية رزقنا اليومي وترى بعد ذلك هل يخفّ الشقاء والفساد في الارض ام لا

واسفاه يا بني · ان في هذا الكلام شيئاً كثيراً من الحقيقة كما فيه ايضاً شيء كثير من الباطل · فانه يجب علينا ان نطالب الفضيلة لذاتها بالرغم عن فقرنا وحاجتنا وضعفنا · والاّ فان الفضيلة لا تكون فضيلة ولا يكون لنا فضل فيها (١) · ولكن الباطل الذي في هذا الاعتراض لا ينبغي ان يستر ما فيه من الحق : فانه على الهيئة الاجتماعية ان تهتم بكل واحد من الناس لتضمن رزق من لا رزق له وبذلك تكون عملت على تخفيف الشقاء والفساد · وهنا الخطاء العظيم الذي وقعت فيه الكنيسة · فانها ماذا تعلمنا اليوم (٢) ? تعلمنا ان الفقراء والجياع والعطاش والمرضى والمتعبين والضعفاء والمحتاجين يجب ان يكتفوا في هذه الحياة بالشكر على بلواهم لانهم اهل ملكوت الله · فكل المساعدة التي تمدّهم الكنيسة بها قاصرة على تقوية نفوسهم لتتحمّل مصائبها · وليس هذا حقهم وحده · بل هم كبشر من مخلوقات الله لهم هنالك حق آخر

أَجل يا اخي الصغير ان لهؤلاء البشر حق المساعدة والاسعاف على الهيئة الاجتماعية لانهم اخواننا في الانسانية · وهذا دَين لهم علينا · ولا تقل ان الكنيسة والهيئة توصياننا

---

١) اجمل تعريف للفضيلة تعريف برناردين دي سان بيير وهو : ان الفضيلة هي مغالبة الانسان نفسه لاجبارها على صنع الخير للغير لوجه الله لا من اجل مكافأة من الناس

٢) قال الراهب الشيخ « اليوم » لان الكنيسة في صدر المسيحية اي في زمن الرسل لما كانت طائفة ضعيفة صغيرة كان كل اهتمامها مصروفاً الى العناية بالضعفاء والمحتاجين وكان كل واحد يبيع املاكه ويدفع ثمنها الى صندوق الطائفة ومنه يُنفق على الجميع

بالاحسان اليهم فان هذه الكلمة المهينة « الاحسان » يجب ان تُمحى من قاموس البشر ويحلّ محلها في هذا الباب كلمة « دَين » لان جميع البشر يجب ان يكونوا متضامنين متكافلين · اذاً فالاقوياء والاصحاء والاغنياء والكبراء مديونون للضعفاء والفقراء والمرضى والعاجزين دَيناً اجتماعياً لان هؤلاء هم عملتهم واعوانهم في جميع مشروعاتهم ولولاهم لما استطاع اولئك ان يعملوا شيئاً · فنحن نطلب قوةً عادلة تستوفي هذا الدين من الاقوياء للضعفاء · وفوق ذلك تضمن لهؤلاء رزقهم الذي تقدّم ذكره لتهدأ زوابع الحياة وعواصفها المهلكة ·

ولكن تُرى ما هي هذه القوة المطلوب منها ضمانة رزق الضعفاء في الارض وهم سواد الامم تقريباً · ومن اين الاعمال والاموال لاتمام ذلك في ملايين البشر العديدة · ايها الشاب انك لا تزال فتىً صغيراً · ولكنك غداً ستشب وتكون رجلاً كبيراً · وكذلك العلم الذي خلقه الله حياة ونوراً للانسانية : ان العلم لا يزال في الارض طفلاً صغيراً يا بني · ولكن سيأتي يوم يسود فيه هذا الصغير الدنيا كلها · ان امبراطورنا يشتغل اليوم بالعلم لانه يظن انه يمكنه به قلب المعدن الدنيء معدناً كريماً * اما نحن معاشر الناس الذين ننظر الى المستقبل ونتطلع الى ما وراء الفضة والذهب فاننا ننتظر من العلم ان يقلب الانسانية التعيسة انسانية سعيدة · وكأنّ غطاء المستقبل يُكشف الآن عن عينيّ وارى الانسانية الآتية الجديدة · ارى الانسان يسير في البرّ والبحر والهواء بسرعة الطير ويحمل المصنوعات والمزروعات لامم بعيدة · ارى البشر يتخاطبون من قارة الى قارة كانهم في غرفة واحدة · ارى الشعب يرتقي باختراع الآلة الميكانيكية لان المصنوعات لا غنى لها عنه وعنها فيصير شريكاً لصاحب العمل فيها وبذلك ترتقي طبقته وتُملأ الهاوية التي بينه وبين سيده صاحب العمل(١) ارى العملة الضعفاء الفقراء يصيرون قادة الممالك بالانتخاب العمومي وتقديس الانسانية اي اعتبار كل فرد من البشر مساوياً لاي فرد كان في الحقوق والواجبات العموميّة لدى الهيئة الاجتماعيّة · ارى الحكومات تخجل امام الله والناس من ترك الكبار على الصغار والاقوياء على الضعفاء بحجة ان البشر احرار يصنعون في معاملاتهم ما يريدون صنعه ولذلك توجب على نفسها المداخلة بين الفريقين لضمانة حقوقهما (٢) ارى ملاجىء الشيوخ

---

١ » راي برتلو ٢ » هذا هو المبدأ الذي يتنازع عليه الاحزاب في العالم · فالاحزاب القديمة تقول انه ليس للحكومة حق المداخلة بين العملة واصحاب الاعمال والاحزاب الجديدة تقول بل ذلك من واجباتها · والقول الاول قول انصار حرية العمل في العالم بناء على ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل · اي ان الحكومات يجب ان تطلق حرية العمل للبشر وبذلك ينهض الاقوياء الذين في نهوضهم فائدة ويسقط الضعفاء الذين لا يقدرون ان يفيدوا شيئاً · وقد كانت انكلترا مصدر هذا المبدأ العلمي الذي ايّده دروين وسبنسر وواس ·

والمرضى والعاجزين والمستشفيات المختلفة عامـة في كل بلدة لايواء الضعفاء وسد حاجاتهم واكابر الامم يتفاخرون بزيارتها وصنع الخير فيها . ارى كل شبر في الارض يُحرث ويزرع وينبتُ خيرات لسكان الارض ولذلك تُكسر السيوف والرماح والتروس وتُصب محاريث ومعاول . ارى الضغائن والاحقاد بين عناصر البشر المختلفة تهمد وتخمد بهذا التداخل العظيم بعضهم في بعض وبتحقّقهم انهم انما كانوا يتحاربون على لا شيء . ارى الطب يطيل عمر الانسان الى ما بعد المائتين (١) ويتغلب على الامراض والشيخوخة فاذا جاء الموت كان نوماً لطيفاً هادئاً . ارى الرزق الذي يقتتل عليه الناس اقتتال الحيوانات الضارية قد رخص وخفّ فصار الرجل الواحد يحمل منه في علبة في جيبه ما يكفيه اياماً (٢) ويأخذه من الهيئة الاجتماعية مجاناً . ارى اجناس البشر في الشرق والغرب فرساً ويونانيين ورومانيين وسوريين وعرباً ومصريين ويهوداً وسلافيين ولومبارديين وفندالين ومغوليين واتراكاً وهونيين وقوطاً وفرنكاً وهنوداً وصينيين (٣) وبرابرة مختلفة تتكرر فيهم الانسانية على مر القرون والاجيال وتُنتقى من الحيوانية والجهالة والشهوات المفسدة فيمدون ايديهم بعضهم الى بعض متصافحين متصالحين بعد طول الشقاق والنزاع ويعيشون في الارض بسلام وامن وسعة وفضيلة تامة كانهم اخوة في عائلة واحدة . — يا بني . هذا ما اراه في احلامي واوهامي منذ الآن .

ولكن يظهر ان الافكار في انكلترا تغيّرت في هذا العصر وقام الاحرار يناوئون هذا المبدأ منهم شارلس بولنس وروتري وهـ . صموئيل وتريفيلين وهيربت وموراي وهيموند وكلهم من مشاهير احرار الانكليز وقد حصل هذا التحوّل في انكلترا على اثر كتابات رسكين وكرليل وجورج اليوت الذين اثروا على فكر الامة فصرفوه عن مبداء الاستفراد individualisme الذي اشتهرت به انكلترا الى مبداء الاتحاد والتعاون وتأليف الجمعيات ومن هنا قويت في انكلترا المبادىء والجمعيات الاشتراكية . وخلاصة حجّتهم ان ناموس (تنازع البقاء وبقاء الافضل) هو ناموس بيولوجي طبيعي لا يصلح ان يكون قاعدة هيئة اجتماعية مختلفة المصالح والمشارب . فانه قد ثبت في المدنية الحاضرة انهُ ليس كل من ينهضون اقوياء وليس كل من يسقطون ضعفاء . فكم من الاقوياء المستقيمين المدرّبين تذهب بهم عواصف البورصات والافلاس ونظام التجارة الجديد دون ذنب جنوه . واحياء الفساد في لندن وباقي العواصم لا تتقلّص مع الوقت وتموت تبعاً لنظام بقاء الافضل بل انها تزداد اتساعاً . وعلى ذلك فالضعيف في مدنية كالمدنية الحاضرة يُفسد القوي بدل ان ينقرض لمجاورته . وبناء على هذا يوجبون مداخلة الحكومة لمنع الفساد . ولذلك كاد البرلمان الانكليزي في العام الماضي يبطل التزام احد معامل التجارة اي يناقض مبداء حرية العمل لان الملتزم عاند عملته بما اطال اعتصابهم وافسد احوالهم . وقد انشأت جريدة الطان يومئذٍ لذلك مقالة افتتاحية للدلالة على اهمية هذه المداخلة .

١) راجع رأي مشنيكوف في الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٢٢٩ «٢» هو الغذاء الكيماوي الذي يقول برتلو انه سيكون في المستقبل حبوباً في علب . . . «٣» اسماء اشهر العناصر البشرية التي كانت موجودة يومئذٍ

ولذلك قلت لك ان اصلاح الارض مسالة علمية لا مسالة دينيــة واورشليم القديــة يجب ان تفسح مجالاً لاورشليم الجديدة . فيا ايتها الاحلام الذهبيّة والاوهام الخياليــة اتكونين يوماً حقيقة مجسّمة . يا ايتها الانسانية التعيسة اتبلغين يوماً طور الكمال هذا ام تبقين الى الابد في اضطراب وبغض وفساد وحروب وشقاء كما انت الآن . ويا اورشليم الجديدة اتضمنين يوماً ما عجزت عنه اورشليم القديمة

الله يعلم ذلك يا بني ولا يعلمه أحد غيره . ولذلك لا اذكر لك ما ذكرته كحقيقة مطلقة بل كرأيٍ لي لك ان تبحث فيه وترى فيه رأيك . فيا ولدي العزيز . كانا في هذه الارض عرضة للخطاء وهدف للضلال . وربما اثبت المستقبل بعد مليون سنة مثلاً او نصف مليون ان هذا القصر العلمي الذي رسمته معك الآن انما هو قصر في الهواء . وان الحقيقة الحقيقيّة هي ما نودي به في حقول الجليل على شواطىء بحيرة طبرية منذ ستمائة سنة من ان المعيشة في الطبيعة بلا هم ولا غم هي المعيشة الانسانية الحقيقية وان البعد عن صلّ المــال وافاعي الجاه والعالم لهو الخير المطلق . وهذا ما يصبو اليه قلبي كما ذكرتُ لك آنفاً وان كان عقلي متعلقاً بذاك . اجل يا صديقي ان هذه الصورة الجليليّة لهي الصورة السماوية التي تقبض على نفسي بمقابض من حديد بالرغم عنها . وكل ما حاولتُ ان اقول ان ذلك فيَّ من تأثير العادة والتربية ينادي منادي الطبيعة في داخلي هذا النداء الطويل :— كلا كلا . هذه هي الطريق المستقيمة . هـذا هو سبيل السعادة الممكنة . اخرجوا اخرجوا الى الطبيعة يا ابناءها وعيشوا فيها بعيدين عن مفاسد الثروات والمدنيات . كونوا كطيور السماء وزنابق الحقل لا تهتمُّ بشيء لانها تجد في الطبيعة كل شيء . اهدموا القصور حيث تعشش الرذائل المختلفة . اخربوا المدن حيث تسود الشرور . مزقوا الكتب وانبذوا العلوم والفنون فانه يكفينا منها كلها علم النفس الذي يشعر به كل واحد منــا . ولا تطمعوا في السعادة والراحة والكمال والاصلاح من طريق الدنيا فانها كالماء المالح كلما شرب منه الانسان ازداد عطشاً — وعلى هذا يخيّل لي عند سماعي هذا الصوت الهائل انّ العالم الآن خارج عن محوره شاذ عن طريقه فترتعد فرائصي لذلك واهمُّ بان افرَّ منه الى البرية لاعيش هادئاً سعيداً مطمئناً . واعرف من ذلك الصوت السري الخارج من دمي السببَ الذي من أجله كان واضعو الشرائع الدينيّة يحرّمون على الانسان التمتع بالدنيا

فيا صديقي العزيز . هذان طرفان لا اتفاق بينهما الا في النهاية . احدهما يمثل اورشليم الجديدة والآخر يمثل اورشليم القديمة . ونفسي تتردّد بينهما متألمة منذ تحرّر عقلي وحصلتُ

على قوة الفكر · فلما ساءتني عن رأيي في دخولك الى اورشليم القديمة اثرتَ الاضطراب في نفسي لانك ذكّرتني مصارعاتي الباطنيّة بيني وبين عقلي · فاضطررتني الى الجهر لك بكل ما في ضميري بالرغم عني

ولقد اطلتُ عليك الكلام يا بني ولكن شجعني على ذلك اصغاؤك اليَّ بكليتك · اما الآن فقد فرغتُ تقريباً · فلك الخيار بعد كل ما ذكرته لك ان تكون من جنود اورشليم القديمة او جنود اورشليم الجديدة · انما بقي عليَّ بعد كل ما ذكرته لك وما رايته في الصلاة امس امام القبر وعلى باب الكنيسة ان اكمل هذه الملاحظات بما يوجب ضميري عليَّ ذكره لفتى مثلك تحدثه نفسه بالانتظام في سلك الخدمة الدينية

قصة الشيخ الراهب

يا بني انك ولا ريب تحب ان تعرف شيئاً من تاريخ حياتي · فانك ترى انني شيخ بيضت السنون شعره ومن كان بسني هذا وهو يعتقد بما بسطته لك آنفاً فانه يدلُّ بذلك على انه لقي في زمانه اضطهاداً شديداً من البشر · وهذا شأن المصائب يا بني فانها اعلى المدارس واسماها لانها هي التي تشحذ همم النفوس وتقطعها عن صغائر هذه الدنيا وتصرفها الى المعيشة الجدية التي يكون فيها للانسان غرض شريف عمومي يسعى اليه · ففي السنّ الذي انت فيه الآن تقريباً كنتُ مثلك يا بني وحيداً فريداً في هذه الحياة · بل انك انت الآن اسعد مني لما كنتُ في سنك اذ لك امّ تضمك وتدفئك تحت جنحي حنانها · واما انا فقد كنتُ بلا امّ ولا نسيب ولا صديق · فكأنني خرجتُ من الارض او نُحتُّ من صخورها · ولكن مع انفرادي هذا في الحياة يا بني لم اجبن ولم اشكُ لانني اعرف مراحم العناية الالهية التي لا تترك من يجعل نفسه اهلاً لمساعدتها وحمايتها · ولم اسبّ البشر الذين تركوني من كل صوب لان سذاجتي كانت ترى حينئذٍ انني لم اعمل بعد عملاً يستحق اهتمامهم والتفاتهم · فاذا أُهملتُ فالذنب لي وحدي لا لهم · ولذلك عزمتُ على ان أعمل ما يستوجب اهتمامهم بي ويرفعني من وهدتي · ولكنني قلتُ في نفسي ماذا أعمل · هنا كنتُ في حيرةٍ كحيرتك الآن · هل أجعل غرضي الوحيد نفسي فقط فاتاجر وازرع واُصنع ام اجعل غرضي في الحياة محبة الناس ونفعهم فاضحي حياتي كلها من اجلهم · والسفاه يا بني انني كنتُ اجهل يومئذ ما اعلمه الآن من ان للخير ابواباً عديدة · كنتُ اجهل ان الذي يُخرج من الارض قبضةً من الحنطة مثلاً او يصنع للناس آلة يحتاجون اليها انما ينفع الناس كما ينفعهم الذي ينقطع الى ارشادهم وتعليمهم · وهذا ما جعلني اختار

الخدمة الروحية . فدخلت احد الاديرة في بلادي بلاد الكلدان . ونفسي تتلهّب شوقاً للعمل ونفع الناس . وكنتُ قد رايت ما في الهيئة الاجتماعية من الفساد والظلم لاستئثار فئة من الناس بكل خيرات الارض وقوى البشر فعزمتُ ان اكون سيفاً ذا حدين . فكنت اذهب حافياً مكشوف الراس بحالة ٍ يُرثى لها الى منازل الاغنياء وقصور الكبراء وهناك مثل يوحنا المعمدان كنتُ اقرعهم بسوط التاديب وآخذ منهم مالاً لاخوتهم الفقراء . وكان الذي يمتنع منهم عن اعطائي انادي باسمه على السطوح انه ليس بمسيحي ولذلك كانوا يعطونني خوفاً ورهبة لا سخاء . وكنتُ بعد جمع ما اجمعه كل يوم انطلق الى الاحراش والطرق واكواخ المساكين وهناك اوزّعه على مستحقيه وقلبي في غبطة وسعادة من صنعي هذا . يا بني ان من لم يعطِ شيئاً في زمانه لا يعلم لذة العطاء . نعم انني كنتُ لما آخذ الشيء اتلذذ باخذه لانني لا آخذه لنفسي ولكنني كنت اجد ان لذة العطاء اضعاف لذة الاخذ . ذلك ان العطاء فعل من افعال العناية الالهية لانها مصدر كل عطاء فالذي يُعطي يكون نائباً عنها ورسولاً من قبلها . وهذا سبب لذته العظمى . ولذلك لا نجد في الكون كله شيئاً اجفّ واثقل من قلوب الذين لم يتعوّدوا العطاء . والمشفق على هؤلاء المساكين يا بني لان العناية الالهية لم تجدهم اهلاً لان يكونوا من رسلها . وكنت عاهدتُ نفسي على ان لا اترك الشمس تغيب على قطعة نقود في جيبي . فلما كنتُ اعود من سياحاتي اليومية في الاحراش والطرق والاكواخ وجيبي فارغ كنتُ اشعر بلذة الذي قضى واجبه وفرّغ جيبه ليملأ قلبه . ولكن لما كان يبقى في جيبي ولو فلس واحد كنت اشعر انه نارٌ يحرقني لانني كنت اعتبر انني سرقتُ ما ليس لي . يا بني هنا احد مصادر الفساد ومنابع الشرور . فان اليوم الذي نرى فيه نحن خدَمة الله تعالى ان كل فلس يدخل في يدنا انما هو ملك الفقير لا ملكنا ونعطيه اياه بامانة وشرف بدل جمعه في صناديقنا فذلك اليوم يوم ملكوت الله المنتظَر في عالمنا هذا . لاننا يومئذ نكون من حزب الضعفاء والفقراء لا همّ لنا الاّ اسعاد شعبنا بدل التزلف للكبراء والاغنياء مشاركةً لهم في الاموال التي يستقطرونها من دماء الامة

فلما مضت عليّ بضع سنوات في هذه الحالة تضجر الاغنياء مني وسخط رفاقي ورؤسائي عليّ . وكان ضجر اولئك لانني كنتُ انغّص عيشهم واذكّرهم بالموت الذي نسوه في اندفاعهم في هذه الدنيا وانبّه نفوس الصغار عليهم . وكان سخط هؤلاء لكراهتهم صنع الخير على غير ايديهم . فلم يلبث ان انتشر بين الناس ان الراهب ميخائيل يجمع المال من الناس بحجة الفقراء ويخبئه في الاحراش . ففي شيخوخته سيجتمع لديه ثروة عظيمة . يا بني انني لما

سمعت هذه التهمة لاول مرة سقطت على الارض جاثياً باكياً وسالت الله ان يقويني على احتمالها ولا يعاقب اصحابها . وبعد التفكر ملياً وجدت ان الناس معذورون بتصديق هذه التهمة لقياسهم عملي على اعمال باقي الناس . فلم اعد اقدر ان اصنع شيئاً مما كنت اصنعه قبلاً . فعدلت عن جمع المال من الاغنياء للفقراء . ولم استاء من عدولي هذا لتركي فقط مساعدة المساكين الذين تعوّدوا مساعدتي بل ايضاً لتخلّص الاغنياء من سوط الحق الذي كنت اقرعهم به واجبرهم على وفاء ديونهم لبني جنسهم (١) يا بني ان البغض قديم بيننا وبين اهل المال . واساسه ليس في الانجيل فقط بل في قلب الانسان . لماذا نبغض الحاكم المستبد والظالم والمعتدي واللص والفاجر والشره والحسود . انما نبغضه لان غرضه الاول اشباع « انانيته » اي تسخير كل ما في الوجود « للأنا » التي فيه . « فالأنا » هذه هي عنده كل شيء في كل شيء . ومن طبع البشر ان لا يتحملوا « انا » كبيرة الا اذا كانت في مصلحتهم العمومية (٢)

فبعد تركي يا بني مساعدة اخواني الضعفاء والفقراء بجمع المال لم انفتح امامي باب آخر . وخيل لي حينئذٍ ان العناية الالهية هي التي اغلقت في وجهي ذلك الباب لتفتح لي هذا . فانني رايت ان المساعدة التي كنت اقوم بها ليست مساعدة حقيقية . لان المساعدة الحقيقية تقوم بانتشال المحتاج من وهدته وايجاد عمل دائم له . واي فائدة في جمع المال لمن ينفقه في يومه ويبقى بعده محتاجاً ضعيفاً كما كان قبله . فخطر لي ان ابني بناء ارسخ من هذا واعظم . ولكن اياك يا بني بعد قولي هذا ان تقع في الخطاء العظيم الذي يقع فيه غيرك من اعتبار العطاء مضعفاً لقوي المعطى له ومعوّده الكسل والبطالة . لا لا . انبذ هذا القول نبذاً . فانه انما هو ستار خشن يقصد به تغطية انانية الانسان وقسوته وبخله . ومن حق الانسانية الضعيفة ان تطلب من الانسانية القوية عذراً للبخل والقسوة غير هذا العذر . لان هذه

---

(١) اليهودية تقضي على الاغنياء بتعشير اموالهم اي دفع عشر دخلهم للفقراء . والمسيحيّة توجب دفعها كلها لصندوق الطائفة لانشاء اخوية اشتراكية جميع اعضائها متساوون في كل شيء . والاسلام يقضي بالزكاة وهو اصل من اصوله . قال ابو بكر لجيش خالد بن الوليد حين زحفه لمحاربة المرتدين من العرب «ان اجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان اقروا فاقبلوا منهم وان ابوا فقاتلوهم» «ابن الاثير»

(٢) ان البابا لاون الثالث عشر المتوفي في هذا العام كان مثل الراهب ميخائيل يحمل على الاغنياء الذين لا يفيدون الهيئة الاجتماعية بغناهم . فقسم الاغنياء الى «غني طيب» و (غني ردىء) وهي قسمة واجبة اذ في كل طبقات البشر في كل زمان ومكان اناس كرام يستحقون نعمهم ويعرفون واجباتهم واناس لا يستحقونها ولا يعرفونها

اذا رامت ترك العطاء لانه ليس بمساعدة حقيقية لزمها اذًا المساعدة الحقيقية . لان الذى لا يريد اعطاء الغريق خشبة ليبقى عائمًا عليها في البحر بدل ان يغرق يلزمه ان يرسل اليه زورقًا ينتشله وينقذه . والا فاذا تركه يغرق دون هذا ولا ذاك لم يكن انسانًا

وعلى ذلك حملت معولاً يا بني بدل الفضة والذهب وسرت الى الاحراش والطرق والاكواخ . وكان كل من رآني بهذه الحالة يضحك ويظنني راهبًا معتوهًا . ولما شاهدني من بعيد اصحابي الذين الفوني هرعوا اليَّ كالعادة . فخرج الاطفال من اكواخهم لاستقبالي وهم يتسابقون اليَّ وزحف المرضى والشيوخ والعجزة لملاقاتي وتحرَّك الفقراء الجالسون في الطرق تحت السياجات ماشين نحوي . فصرت حينئذ ابكي لانني ما كنت احمل لهم هذه المرة ما اعتدت حمله . ولما وصلوا اليَّ وقفت والدموع في عينيَّ وقلت لهم : يا اخوتي وابنائي . ان خبث البشر قضى بحرمانكم من مساعدتكم الماضية . ولكن الله ارسلني اليكم بمساعدة جديدة . ان خبز البطالة خبز مالح مرٌّ يا اولادي . فهلموا الى العمل رجالاً ونساءً واولادًا . ان العاجزين والشيوخ يعملون في الاكواخ عمل النساء والنساء تنزل مع الرجال الاقوياء للعمل في الحقول . والله يبارك ثمرة اتعابنا جميعًا لانه اله الجد والنشاط والعمل

ومنذ هذا الحين انصببنا على الفلاحة والزراعة . فقلعنا الصخور ومهَّدنا الآكام وعزقنا الحجارة وازلنا الاحراش وحرثنا الارض على مسافات بعيدة . فلم يلبث ان قام في وَسط مزارعنا قرىً صغيرة عديدة يعيش اهلها في وسط الطبيعة وهم يتغذون من نباتات الارض التي يزرعونها وأَلبان المواشي التي يربونها . وكانت امور هذه القرى يدبرها عدة من الشيوخ معي اذ بعثتُ كل قرية شيخًا من قِبلها ينوب عنها وينظر في حاجاتها وتوزيع الارزاق والبذور عليها . وكان اكثر شغلي وشغلهم مصروفًا الى زيارة الاكواخ حيث كانت تقيم فيها تلك الانسانية الصغيرة في احضان الطبيعة الجميلة تحت حماية الله . يا بني . وكنتُ ادخل هذه الاكواخ النظيفة المرتبة التي كانت تحرقها الشمس طول النهار فتطهرها من مواد العفن — براسٍ شامخٍ وسرورٍ في القلب لا على الشفتين فقط . ذلك لانني داخل لاعطي لا لآخذ . ولم يكن عطائي يومئذٍ فضة ولا ذهبًا بل ما هو اثمن واجمل من الفضة والذهب . انني يا بني كنتُ اعطي اخلاص قلبي وصدق ضميري وصحة اشتراكي . فاذا دخلتُ وكان في الكوخ ولد يبكي او ام منزعجة لهموم منزلها او شيخ عاجز مريض يئن من مرضه وعجزه فانني كنت ابكي لبكائهم واتوجع لاتوجعهم واقول لهم : يا اولادي فلنشكر الله لان مصائبنا اصغر من مصائب غيرنا . انظروا الى العالم فيزداد بكاؤكم ولكن لا على انفسكم بل على اهله .

في هذه الساعة التي اخاطبكم بها كم من ام واب واخت واخ يبكون ويبأسون في العالم اما من ضيق رزقهم او فقد اعزائهم او اضطهاد الاشرار لهم او لامراض هائلة يقعون فيها لسوء تدبيرهم او لوراثتهم اياها من اهلهم او لوقوع الاقدار عليهم . يا اولادي فلنصلِّ الى الله من اجل هولاء التعساء ولنحمده لان تعاستنا لا تُذكر بازاء تعاستهم لانها لم تنشأ الا عن الضجر وضيق الخلق . ثم اننا كنا يا بني نرفع ايدينا وعيوننا الى السماء ونصلي « ابانا » فقط . فلا نفرغ منها الا والامل قد عاد الى نفس الشيخ والام ضحكت ونسيت انزعاجها وتعبها والولد صار يضحك ويغرّد كانه هزار في بستان .

ولما كنت اخرج من هذا الكوخ بعد تحويل الضعف والضجر فيه الى قوة وسرور كانت نفسي في حالة لا اقدر على وصفها لك . انما يكفي ان اقول لك انني كنت حينئذٍ سعيدًا سعيدًا اذا كان في هذه الارض سعادة . فكنتُ اذهب مشروح الصدر الى كوخ آخر وهناك اسمع قهقهة الضحك والسرور من الباب . وبعد دخولي كنت اجد الام والجدّة والجدّ مثلاً حول موقد النار وامامهم طفل لهم يلاعبونه ويداعبونه وهموم العالم في معزل عنهم . فكنت ادخل ضاحكًا باشًا فآخذ الطفل بين ذراعي واجلس مخاطبًا الطفل واهله بقولي : اسأل الله ياولدي ان يبقي لك ولاهلك هذه البشاشة وهذا السرور . فانهما غنى النفس الحقيقي وثروتها العظمى وقوة هذه الحياة . أجل يا اولادي ان البشاشة قوة الهيّة اذا كانت ناشئة عن الرضى باحكام الله والتسليم الى ارادة الله . ولكن فلنذكر الذين يحزنون ويهتمون ويتعبون ولنفتكر بهم ولنصلِّ الى الله من اجلهم . ان الانسان الكريم في هذه الحياة يخجل ان يكون سعيدًا بازاء تعاسة باقي الناس (١) فلنكن من الكرام يا اولادي . لنشكر الله لاعطائه ايانا قوة البشاشة والصبر والمسرّة . ولنسأله ان يقينا من طوارىء المستقبل ويقوّينا على احتمالها حين وقوعها علينا . اذ لا بدّ منها يومًا من الايام -- فبعد هذه الكلمات يا بني كنتُ ارى اولئك السعداء قد هدأت نفوسهم بعد خفّتها وترقرقت عيونهم بدموع ذكراهم تعاستهم الماضية والآتية . ولم اكن لآسف على هذا لانني انما كنت اقصده . لان غرضي كان في كوخ التعيس تذكيره بشقاء الناس لتخف عليه تعاسته واُريه انها سنّة على الجميع . وفي كوخ السعيد ان اذكّره بالتعاسة والمصائب لئلا يقسو قلبه وتُبطره النعمة فيشرس ويخشن وينسى الله والناس . وهكذا كنتُ بيسير من العناية والتدريب

---

١ قال الحكيم الفرنسوي لابروبير Il y'a de la honte à être heureux وهو بالمعنى الذي ذُكر هناك

والاخلاص اجعل اولئك التعساء والسعداء بشرًا هادئين راضين باشين مسلّمين امورهم الى باريهم لا تبطرهم نعمة ولا تسحقهم نقمة ولا غرض لهم غير مساعدة بعضهم بعضاً على عبور نهر هذه الحياة

يا بني . هنا وصلتُ الى ما لا يزال تذكاره مزعجًا لنفسي . ولكن لا بدَّ من اتمام حديثي . فبعد مدةٍ انتشر خبر مزارعنا في البلاد كلها . فكان الفلاحون والناس يفدون علينا من كل جانب للانضمام الينا . فكأَنَّ قرانا الهادئة اللطيفة ومعيشتنا الطبيعية الانجيلية الاشتراكية كانت مغناطيساً يجذب النفوس الينا في وسط هذا العالم المضطرب . ولكن وا اسفاه يابني ان شيطان الحسد والطمع والبغض كان يترصدنا . وهذا من اقبح مفاسد الحياة . فانه لا يكفي الانسان ان يُخلص في عمله و يفرغ جهده ويشق نفسه ليتقنه و يقوم بواجباته بل عليه ايضاً ان يفكّر في ان يصرف عنه حسد الناس حين نجاحه والا اودى هذا الحسد به وبعمله . وهذا ما حدث لنا . فانه لم يلبث ان انتشر عنا في المدن والقرى اخبار هائلة . فقوم قالوا اننا كنا نؤلف جمعيات سرية غرضها محالفة الفرس لطرد اليونان من سوريا . وقوم قالوا اننا اردنا ان نبرز « جمهورية افلاطون » من حيّز القوة الى حيز الفعل فننشيء هيئة اجتماعية لا تتألف من العائلة ولا يعرف الاولاد انسابهم فيها(١) و بعضهم قالوا اننا نادينا برفع سلطة الكنيسة وفررنا اتباع آريوس . يا بني انك لا تتصور ما كان من التاثير لهذه التهم الهائلة على اناس سذج فضلاء مثل فلاحينا خصوصاً التهمة الثانية والثالثة . فقد بقي النساء يبكين اسبوعين من تاثير التهمة الثانية . وقد صلينا مرارًا الى الله ان ينير عقول بني عصرنا و ينبذ من صدورهم ذلك الخبث الذي راموا محاربتنا به . اواه يا بني . ان بني عصرنا كانوا ابرياء من ذلك الخبث وان كانوا شركاء فيه اذ لا ذنب لهم غير تصديق تلك الاشاعات . وانما كان مصدر الخبث حسد رفاقي ورؤسائي الذين كانوا يغضبون من مشروعي لانه جعل رعيتهم تطالبهم بمثله وكثيرون منها هاجروا الينا . وهكذا اجبرني خبث البشر مرة ثانية على ان اترك ما تعبتُ ببنائه . فصدر اليَّ امر رئيسي ان الزم الدير وان اقتصر على الوعظ في الكنائس . فعدت الى الدير بنفسٍ مسحوقة وظهر مقصوم وقلب متفطر . ويا ايتها السماء يا ظلمات الليل يا كواكب الفلك - انت وحدك كنتِ تشهدين على ما قاسيته في ذلك الزمن في ليالي المظلمة الطويلة . ولكن الله كان معي يا بني . وهو يكون دائماً مع جميع الذين يضطهدهم البشر ظلماً وعدواناً . ولذلك شعرت بعد مدة بعودة الثقة والامل والقوة الى نفسي . وفي ذات

(١) جمهورية افلاطون هي كتابة الفلسفي الاجتماعي المشهور

ليلة وانا على سطح الدير انظر البدر يطلع تماماً من وراء الجبال البعيدة واشاهد بعضاً من رؤسائي ورفاقي يتمازحون ويتضاحكون في حديقة الدير وهم يتغنون باناشيد روحيّة — استغرقت في بحار التأمل والتفكير . واخذت اخاطب نفسي قائلاً : لماذا ايتها النفس لا تصنعين صنع هؤلاء . لماذا لا تكتفين بغذائهم ومشاغلهم واحوالهم . ماهذه النار الدائمة التي تحرقك فلا تدعك تستريحين ابداً . افرحي وكلي واشربي وانعمي بالرئاسة والكرامة والجاه مثل غيرك . انني آسف عليك وعلى جهدك . آسف لانك تتعذبين والاشرار يتنعمون . آسف لانك تسهرين وتقلقين وترزحين والاردياء ينامون ملء الجفون . تخفني عنكِ . واريحي نفسك . — يا بني . ولكنني سمعت تلك النفس التي كنت اتهكم عليها حينئذ بهذا القول كانها تناديني في هدوء ذلك الليل وتقول : يا رفيقي الحيوان في باطن هذا الانسان . مالك رفعتَ راسك وانتبهت بعد طول رقادك . انني كنتُ اظنك قد متَّ وقضي عليك . الا فاعلم الآن انني لا اصغي اليك ابداً . نعم انت تحكم في غيرى فتجعل همهم الاول في هذه الارض الاكل والشرب واللذة اما انا فقد امرتك وكبحتُ جماحك من زمن بعيد . وكن على ثقة من انني ساخنقك ولو خنقتُ نفسي . فانا في هذه الارض كذلك اليهودي الذي تمنع عن حمل صليب المسيح فبات يتيه في الارض ويمشي فيها الى الابد . نعم نعم الى الابد الى الابد انا اعمل . الى الابد الى الابد ساخدم بني جنسي . الى الابد ساضحي نفسي من اجل غيري . وهذه هي لذتي . تقول انني لا انفع شيئاً وان جهدي ذاهب ادراج الرياح بدليل تخريب البشر عملي مرتين . ولكن يا رفيقي الحيوان الجاهل انني لا ادع النملة تكون افضل مني . فانك اذا خربتَ بيتها مرتين او عشر مرات فانها تعود الى بنائه بصبر اشد وجلد اقوى . فدعني اذاً وشأني . انني ابذر بذور الحقيقة والفضيلة والعمل ومحبة الله والناس في ارضنا الشرقية الخصيبة فاذا لم تنبت هذه البذور في حياتي فلا بدَّ ان يأتي بعدي من يعتني بها او يفتقدها . وكن على ثقة من انه ليس تحت قبة السماء قوة قادرة على منعي من بذرها . لا اتقل الاضطهاد والفقر والطعن والشتم والتهمة فانني ابارك هذه الامور واضحك منها لانها تزيدني قوة وتضاعف صبري وشوقي الى العمل . فهي كالحطب تُلقى على النار المتقدة في باطني فتزيدها اضطراماً . ولست اخاف الا من شيء وهو اجبارهم اياي على الخروج عن الحدود التي اريد التزامها

يا بني ومنذ تلك الليلة شعرت بقوة جديدة . وكان اليوم التالي يوم احد وكثيرون من اهل القرى قدموا الى كنيسة الدير للصلاة فيها . فصعدت الى كرسي الوعظ ووعظت عظة موضوعها « احبوا اعداءكم باركوا مبغضيكم » ولكن لم ينقضِ ذلك اليوم حتى صار

الدير كله مع ما حوله من القرى في اضطراب شديد بسبب هذه العظة . وتتالت الرسل من الدير واليه بشأنها

ولماذا كل هذه الضوضاء يابني . هل علمتَ سببها ؟ سببها تهمة وفرية اخرى وهي ان الراهب ميخائيل يجحد في الكنيسة لاهوت المسيح

فيا بني لا تصدّق هذا القول القبيح . فانني لستُ ساذجاً الى هذا الحدّ لابحث في امر يجب عليَّ التسليم به او انسى راحة نفوس المؤمنين او اعطي من نفسي حجّـةً على للخصوم . بل كن على ثقةٍ من انني لم ابحث بالعقل في هذه المادة ولا ابحث فيها ابداً . فهي موضوعة عندي خارج دائرة البحث والعقل قطعياً . وهبني بحثتُ فيها عقلياً فهل يقدر العقل ان يدرك كنهها . فما الفائدة اذاً في البحث فيها . ثم هل تظن كل من يبحث في لاهوت المسيح جاحداً له . كلا يا بني . فان هنالك من يقول باللاهوت ولكنه يقول بانفصاله عن الناسوت ولكل منهما مشيئة خاصة . ومنهم من يقول بروح الله وكلمته وغير ذلك . فهل يُكفَّرُ اصحاب هذه الآراء مع اعتقادهم باللاهوت تصريحاً او تلميحاً . اما انا يا بني فانني اكتفي من مسالة اللاهوت بالتعاليم السامية التي تتعلق بها وتدلُّ عليها . وهذا سبب بلواي في هذه المرة . فانني بعد الخطبة التي ذكرتها لك جاءني بعض السامعين وقالوا : قلتَ ايها الاخ في خطبتك انه يجب علينا ان نحب جميع الناس لانهم اخوتنا ولذلك يجب ان لا نضطهد اليهود في سوريا وفلسطين . وقلتَ ان تكفيرنا بعضنا بعضاً من اجل معتقداتنا مخالف لروح الانجيل الذي يقول « لا تدينوا لكي لا تدانوا » فماذا تقول في رجل يجحد لاهوت المسيح ولكنه يعمل بوصاياه ورجل يعتقد به ولكنه لا يعمل بوصاياه بل يعتبرها مبادىء جميلة لا تخرج عن دائرة الكتب . هل تبارك الاول ام الثاني . ففكّرت هنيهة ثم اجبتهم ابارك الاول والثاني يا اولادي . لانني بمباركتي الاول ابارك الفعل دون القول وبمباركتي الثاني ابارك القول دون الفعل(١)

فهذا القول وحده كان كافياً يا بني لاتهامي بجحود سيدي . فيا لظلم البشر . يا لرغبتهم في اتخاذ المعتقدات الدينية تروساً يتسترون وراءها لمحاربة من يريدون محاربته . يقولون لاهوت المسيح ويخالفون اشرف ما في اللاهوت وهو فضيلة المحبة . يقولون لاهوت المسيح ويراؤون ويفترون . لاهوت المسيح ويبغضون ويشرهون . لاهوت المسيح ويظلمون ويعتدون .

١ جمع فاتح غير مسلم يوماً بعض علماء الاسلام واستفتاهم في ايهما افضل وطاعته اوجب « السلطان الكافر العادل » ام « السلطان المؤمن الظالم » فافتى العلماء بافضلية وطاعة الكافر العادل

لاهوت المسيح ويسبون ويشتمون · فيا ايتها السماء الاوروشليمية الصافية التي ظللت « الكلمة » ازماناً هل يوجد اللاهوت ليتستَّر وراءه كل صغار الارض الذين لا يقدرون على الارتفاع اليكِ بنفوسهم الالهية او الذين يرومون التسلط على الضمائر والعقول بحجة نفعها والغرض نفعهم الخصوصي · وا اسفاه يابني هذه علتنا الكبرى وآفتنا الهائلة · نحن نتمسك بالالفاظ ونترك المعنى · نطلب القشور ولا نسأل عن اللباب · نقول لاهوت المسيح ولكن لا نعمل بوصايا المسيح التي هي اول شروط لاهوته · وهكذا لا يكون عندنا من المسيحية ـ وا اسفاه ـ الا ظواهرها · ويكون عملنا هذا مشجعاً لكل ذي فكر جامد يكتفي من الدين بالاعتقاد بهذه المادة بشفتيه وقلبه بعيد عنه وعنها بُعداً شديداً

كلا ثم كلا · اننا لا نبحث يا بني ولا نجادل قطعياً في اصل من اصول الدين ولا في فرع من فروعه · فان الباحث بعقله في الاديان لاثبات هذا الاصل او ذاك الفرع كالباحث على صفحات الماء · ولذلك نحن نحترم كل اصل وكل فرع احتراماً مطلقاً ونسلّم به · ونجثو بخشوع مع باقي اجزاء الانسانية على تراب الاتضاع والخضوع امام الموادِ والاشياء التي جعلها البشر مذكّرة باللانهاية · اننا لا نطفئ شمعة من الشموع الموقدة امام الايقونات والتماثيل ولا نرفع اكليلاً من الاكاليل الموضوعة عليها · اننا نجيز القداس بالخمير والفطير معاً · والعماد رشاً او تغطيساً · والصوم وعدم الصوم · والاستحالة حقيقيةً او رمزية · ووحدة الرئاسة وتعددها · والعصمة وعدم العصمة · والصلاة وقوفاً او سجوداً او قعوداً · والاعتراف وعدم الاعتراف · وتفسير كل واحد الكتاب المقدس بعقله او رجوعه فيه الى الرئاسة الدينية لاعتقاده ان لها وحدها حق تفسيره(١) نعم نحن باصدقي وصغيري نجيز كل ذلك ولا ننكره ولكن على شرط واحد وهو انّ فعل هذه الامور يُقرن دائماً باخلاص القلب اخلاصاً حقيقياً وطلب الخير والعبادة النقية طلباً مجرّداً · ذلك انني اعتقد يا بني انه متى اريد طلب الخير والعبادة الحقيقية النقية فكل الطرق المؤدية اليهما حسنة متى كان القلب مخلصاً نقياً · ولست ممن يضيّقون عقولهم وقلوبهم الى حدّ ان يعتقدوا ان الله يقبل العبادة مثلاً بهذا الشكل ولا يقبلها بذاك · فان الذين يضعون هذه الاقوال يقصدون بها تأييد مصالح لا تأييد مبادئ اي مصالحهم السياسية والقوميّة او مصالح رئاستهم لرغبتهم في الاستئثار بالسلطة والسيادة · وهذا هو السبب في تكفير الطوائف بعضها بعضاً وقيامها بعضها على

(١) هذه الامور كلها من مواضع الخلاف بين الطوائف المسيحية

بعض وتشعب المسيحية (١) فالاخلاص الاخلاص يا بني الطهارة الطهارة الخير الخير : هذه هي آلات العبادة الحقيقية . وبدونها لا تجدي العبادة شيئاً ولا يغني الاعتقاد باللاهوت فتيلاً

يا بني . لقد وصلت بك الى منتهى عملي . فان تلك التهمة اجهزت وا اسفاه على قواي لان اعدائي اغتنموا هذه الفرصة وطردوني من سلك الرهبانية . فرحت يا بني في الدنيا هائماً على وجهي ابكي وانوح لاساءة الناس الظن بي واهانتهم لي وقطعهم رزقي . ومما كان يفتت كبدي فرار احبائي وابنائي القدماء مني . فكأنني اصبحت وحشاً ضارياً لا يقربني احد . وكان الفقراء والضعفاء الذين كنت اساعدهم من قبل اذا شهدوني قادماً حادوا عن طريقي واختبئوا مني . يا ولدي وصغيري ان من لم يقع في زمانه في حالة كحالتي لا يعرف مبلغ الشقاء الذي عانيته . وان فرائصي كلها لترتعد الآن لمجرد ذكره . ماذا؟ هوذا رجل باع نفسه من بني جنسه فتنازل عن راحته ووقته وقواه ووقفها كلها عليهم . وصار يخدمهم بعينيه وكل نفسه مشاركاً لهم في السراء والضراء مدبراً لاقويائهم مساعداً لضعفائهم مرشداً لاولادهم معزياً لمرضاهم — ومع كل ذلك يكون هذا جزاءه من الله والناس . يا بني لا اكتمك ان عقلي وايماني قد اضطربا في ذلك الزمن الهائل . فصرت اخشى من النظر الى السماء لئلا تبدر مني عاطفة او كلمة تورثني الندم في باقي حياتي . اما البشر فاذا وقع نظري على احدهم اتفاقاً فانني كنت اراه وحشاً اسود ضارياً . ولولا بقية من روح سيدي في نفسي لهجمت عليه وعضضت عنقه لامتص دماءه انتقاماً من الانسانية . اواه يا بني صفحاً عن هذه الافكار الوحشية التي كانت تتردد يومئذ في ذهني . فانني اؤكد لك انها لم تصحبني اكثر من اسبوع واحد . فان الله لم يتخلَّ عني لانه كما قلتُ لك يكون دائماً مع المظلومين المضطهدين في هذه الحياة . ولذلك ارسل الي رجلاً انساني كل مصائبي

ففي ذلك العام يا بني هاجم امبراطورنا مملكة الفرس لاستخلاص الصليب المقدس منها وسحق قوتها لكي لا تعود الى مهاجمتنا مرة اخرى . فوصل الجيش الامبراطوري الى بلادنا الكلدانية ومر بها . ففي ذات يوم وانا ابكي من ظلم الناس تحت شجرة في الحرش حيث كنت انام مع حيوانات البر وآكل من البلوط لسد جوعي واذا بفارس طلع عليَّ ومعه شرذمة من الجند . فخيل لي انه قادم بامر من الحكومة للتفتيش عليَّ . فلما رأيته ثار دمي كله غضباً على البشر الذين يطاردونني حتى في وسط الاحراش فهجمت عليه كالذئب الكاسر وانا بحالة الجنون اصيح وازمجر بلا وعي . فامر الفارس رجاله بالاحتيال للقبض عليَّ من

١ لم تكن المسيحية يومئذٍ قد تشعبت التشعب الحاضر انما كان قد بداء فيها

غير اذيتي لانه ظنني مجنونًا آوي الى الاحراش · فتكاثروا علي وقيدوني وانا اكاد اقتلهم واقتل نفسي · ولكن بعد برهة اخذ الفارس يلاطفني ويجاملني وسألني عن خبري فقصصت عليه قصتي من اولها الى آخرها وانا ابكي · فما سمع شيئًا منها حتى هجم علي فقطع وثاقي وصافحني واقبل علي يسألني التتمة · ومنذ هذه الساعة بدأتُ اصعد من الهاوية التي القاني البشر فيها · فان هذا الفارس كان قائد مائة وهو من هـذه المدينة · وقد تطوّع في الجيش لمقاتلة الفرس انتقامًا منهم لانهم حين استيلائهم على القدس وطنه قتلوا ابنه · فاخذني هذا الفارس وقدمني للامبراطور وقصّ عليه قصتي · فهزّ الامبراطور رأسه وقال : هذا شأن السوريين فانهم متى حُكموا في انفسهم كانوا اقرب الى الجور منهم الى العدل لكثرة تحاسدهم وتنافسهم ولعدم وجود جامعة قوية عادلة تساعد الجيّد فيهم وتخذل الرديء

فصحبت يا بني جيشنا في فتوحاته في بلاد الفرس جيراننا · ولم اكن راضيًا عن هذه الحرب وان كنا فيها مدافعين لا مهاجمين لانني اكره الحرب ايًا كان سببها حتى مع المجوس · ذلك لان الدم الذي يسيل فيها يا بنيّ هو دم بشري مقدس سواء كان صاحبه مسيحيًا او وثنيًا ابيض او اسود يونانيًا او سوريًا او فارسيًا · فاننا كلنا اخوة في الارض ومن الفظاعة ان يقتل الاخ اخاه · الاّ انني لا اكتمك انني كنتُ رغمًا عني مسرورًا لفرار كسرى برويز من وجه امبراطورنا من مدينة الى مدينة حتى من عاصمته فرار العصفور من وجه النسر * ذلك لانني كنتُ اعلمه معتديًا لانه هو الذي كان البادىء بمهاجمتنا · ومهما كان الانسان ميالاً للسلم والصفح والحلم فانه يطرب عنـد ما يرى المعتدي مغلوبًا مخذولاً على شرط أن لا يتجاوز الغالب حدود الدفاع ويجعل نفسه عاديًا ظالمًا

ولما انتهت الحرب اتى بي ذلك الفارس الكريم الى هذه المدينة · ووضع بين يديّ مالاً طائلاً وابتاع مزرعة وراء هذا الجبل وقال لي اصنع فيها ما صنعته في مزارعك القديمة · فاعدتُ في هذه المزرعة يا بني ما كنتُ اصنعه هناك تحت حماية هذا الشهم · فجمعنا فيها نحو مائة عائلة كبارًا وصغارًا وصرنا نعيش على زراعة الارض بامن وسلام · ولم يكن ينغص عيشي شيء سوى تذكري الشقاء الذي حلّ بين احبائي في بلادي بعد سقوطي ورحيلي عنها · ولذلك كنت ارحل في كل سنتين مرة اليها وجيوبي مملوءة لمساعدة ابناء وطني · وانا الآن اقيم تارة في المزرعة هنا وطورًا في بلادي مسرورًا بان الله اوجد لي في آخر عمري عشًا آوي اليه واقدر على صنع الخير فيه بمساعدة انسان فاضل يستحق ان يسمى انسانًا · ولقد سكنتْ نفسي وهـدأت بعد ذلك الاضطراب فندمتُ على انني ابغضتُ البشر يومًا

وعاديت اعدائي . يا بني ان القلوب الطيبة يجب ان لا تعرف العداء، وان نتركه للقلوب الرديئة . وعلى القلوب الطيبة ان تصلي دائماً الى الله من اجل القلوب الرديئة ليرحمها وننبذ الرداءة منها

والحق اقول لك يا بني انني بعد ان شبتُ وادَّبتني المصائب وعاشرت البشر زمناً طويلاً علّمني الاختبار ان الخير الذي كنتُ اطلبه متشعّب الطرق صعب من عدة وجوه . ولذلك ندمتُ على اطلاقي لنفسي العنان في مقاومة رؤسائي ورفاقي دون تروٍ ولا امعان . نعم يجب علينا محاربة كل شيء في الارض لصنع الخير وقتل الشرّ ولكن يجب ان لا نتعامى عن المصاعب والعثرات التي في طريق من نحاربهم . واول هذه المصاعب شراهة نفوسهم التي تطلب كل شيء لها تحت ستار الغيرية . نعم انّ هذا ليس بعذر مقبول ولكن ما الحيلة بالنفس الصغيرة المقيدة باهوائها ولا تستطيع الانطلاق منها ؟ لا حيلة في اطلاقها يا بني غير الصلاة الى الله من اجلها ليغسلها وينقيها ويطلقها . وثاني هذه المصاعب رسوخ بعض المبادىء والاراء والاوهام في نفوس العوام ولذلك يضطر الرؤساء رغماً عنهم الى مداراتها . واذا لم يداروها لم يعدموا من قومهم ومرؤوسيهم من يقوم وينادي بكفرهم لخروجهم في زعمهم عن الشريعة الدينية . لان كل متعصب لرايه لا يُعدم ان يجد في من تحته او فوقه من هو اكثر تعصباً منه . لا سيما وان المصالح والاهواء تتخذ في اكثر الاحيان هذه الامور ذرائع تدعم نفسها بها . اذاً فاغضّ الطرف قليلاً يا بني عن تلك المداراة لان اصحابها قد يكونون معذورين فيها . واذا لمناهم فليكن لومنا لهم ببشاشة واعتدال وحلم لان تدبير النفوس وظيفة صعبة لا يعرفها الاّ من عاناها . ولو كان بعضهم يسمعني الآن معك لاستصفحت منهم عن الحدة التي ظهرت رغماً عني في بدء كلامي لانني كنتُ متحمساً لذكرى مصائبي الماضية

يا بني لا تدع عقلك يضلّ كما ضلّ كثيرون من ابناء هذا العصر * لسئامتهم الخلافات الدينية . فان فوق هذه الخلافات كلها حقيقة يجب ان تكون اساس كل هيئة اجتماعية . وهي ان الحقائق الدينيّة راسخة في الارض الى الابد لانها عبارة عن نزوع الانسان الى المنزل الاول ومصدره الاعلى . واي شيء غير الدين يضع اسمى آيات الفلسفة والعلم والادب في افواه وقلوب السذج والمساكين . انتَ وانا مثلاً لا نسأل عن اديان البشر لان في باطننا الديانة المطلقة النقية التي هي ديانة القلب ومحبة الله والناس والتسليم اليه تعالى في كل شيء . ولكن هل يفهم العوام هذه الامور . هذا امر بعيد . ولكن مع ذلك علينا ان نحذر من جعل هذا الامر يوآدداء قاتلاً . فان الظواهر الدينية التي

يُزيّن الدين الحقيقي بها ليصير مفهوماً من العوام لا يجب ان تكون مخنقاً له . والجاني على الدين والانسانية في الارض انما هو ذلك الذي يوجد التضامن والتكافل بين تلك الظواهر وما تحتها من البواطن الصحيحة . وحينئذ لا يجب ان يلوم احداً غير نفسه .. لان العقل اذا احترم الحقيقة فهيهات ان يحترم لباسها . خصوصاً اذا كان هذا اللباس مما يمنع وصول نور الحقيقة الى الناس ويكون عثرة في سبيل خير الانسانية واتفاقها وتقدمها

لقد فرغتُ الآن يا بنيّ وآن ان اُريحك واستريح من هذا الكلام الطويل . ولكنني اذا اعدت في ذهني كل ما قلته لك ارى ان كلامي لا يزال ناقصاً امراً مهماً لا يحسن ان يُختتم بدونه . وبعبارة اخرى اقول انه ناقص التاج الذي يجب ان يتوج به . اجل يا بني ان اول وآخر دعامة من دعائم الفلسفة والدين والفضيلة والادب والحكمة هي هذا التاج البديع وهو « الرفق والمحبة والصفح » للجميع . فديانة الرفق والمحبة : هذه هي الديانة التي سيجتمع عليها البشر في مستقبل الزمان . الرفق والمحبة لجميع مخلوقات الله حتى الحيوانات . الرفق والمحبة لجميع البشر حتى الوثنيين والارديناء والاشرار واللصوص في السجون . لانه اذا كان يجب علينا احتقار ضلالهم وشرورهم فيجب علينا ايضاً محبة الانسانية فيهم والشفقة عليهم . يا بني اذكر ان سيدنا غسل ليلة تسليمه للصلب قدمي يهوذا الذي اسلمه مع معرفته انه عدوه ومسلمه وجاحده . اذكر انه قال للذين جاءوا اليه بالخاطئة « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » . وبعد هذه الذكرى اخبرني اذا كنتَ تجد في العالم احداً يسمح لك قلبك باخراجه من ناموس الرفق والمحبة

فيا ولدي العزيز ضع هذا الناموس نصب عينيك . احيَ فيه ومن اجله . اجعله القاعدة الكبرى لاعمالك وافكارك . اعتبر كل تعاليم تخالفه تعاليم باطلة ايّاً كان مصدرها . واعلم انه ليس في الهيئة الاجتماعية كلها شيء ارقى واعظم منه . واذا سلكت طريقه في حياتك كلها امكنك ان تموت في آخر العمر موتاً هنيئاً هادئاً لانك تكون قد قمت بواجباتك للانسانية في هذه الحياة وعشتَ انساناً كريماً محباً ومحبوباً

يا صديقي واخي الصغير . هذا ما اردت اطلاعك عليه من تاريخ حياتي لعلك تجد فيه فائدة لنفسك . فاختر الآن ما يحلو لك . واعلم ان ابواب مزرعتنا مفتوحة لشاب عامل نشيط مثلك اذا كنتَ تشرفنا بالانضمام الينا

طلوع الشمس

وهنا سكت الراهب الشيخ بعد كلامه الطويل . وكان قد طلع الصباح وفرّ جيش

الظلام · ومن غرائب الاتفاق ان الشمس اطلعت قرنها في هذه اللحظة حين سكوت الراهب · فوثب الراهب وقال هلمّ هلمّ نشهد طلوع الشمس · تبارك الخالق تبارك الخالق · فنهض الفتى ايليا لنهوض الشيخ وهو مبهوت مذهول · ولكن ايليا كان بعد نهوضه لا ينظر الى الشمس بل الى الفضاء وهو مبهوت جامد النظر كمن لا ينظر الى شيء · وفي الواقع انه كان ينظر الى داخله لا الى خارجه · ذلك لانه كان ينظر الى الشمس الادبية الجديدة التي اطلعها الراهب الشيخ بخطبته هذه في داخل نفسه · وكان يخيّل له بعد كل ما سمعه انه في حلم لا في يقظة · فان عالماً جديداً انفتح امام عينيه واتسعت دائرة فكره اتساعاً لا حدّ له · وفي هذه البرهة بلغ التأثر من الراهب مبلغه لدى منظر قرص الشمس البارز للخليقة يحييها بنوره وحرارته المنعشة · فجثا على الارض جاراً الفتى معه ايضاً · وبعد ان سجد وقبل الثرى رفع يديه الى السماء صائحاً من اعماق قلبه : اللهمّ شكراً للنور بعد الظلام · اللهم شكراً للحرارة بعد البرد · اللهم شكراً لعنايتك الكاملة الكريمة التي ترسل نعمها وخيراتها الى الصالحين والاشرار معاً لتعلّم الانسان الاقتداء بها · اما الفتى ايليا فقد رفع يديه الى السماء كما رفعهما الشيخ واشترك في هذه الصلاة ولكنه لم يكن حينئذ يصلي شكراً للشمس الطبيعيّة التي كان قرصها الجميل امامه بل كان يصلي شكراً للشمس التي طلعت في باطنه · وهكذا كان ذلك المنظر في غاية البهاء والجلال · فانه كان على قمة جبل الزيتون في صبيحة ذلك اليوم شيخ هادىء مطمئن في آخر العمر يشكر الله لانه يدفئ شيخوخته الباردة بوافر نعمه · وفتى في اول عمره قلقاً مضطرباً يشكر الله لانه انار نفسه واراه طريقه في اول حياته

فيا ايها الفكر الحر المطلق الذي يقوده العلم وتسنده الفضيلة انك كالطبيعة العظيمة تخلق نوراً وتُطلع شموساً

المزرعة

وفي مساء ذلك اليوم نُظر الراهب ميخائيل سائراً بالفتى ايليا الى المزرعة التي ذكرها · وكانت قائمة وراء جبل الزيتون على مسافة عدة اميال فرحّب صاحب المزرعة الشيخ سليمان بالفتى لما توسمه في وجهه من الذكاء والنباهة · واستقبله كما يستقبل ابناً له واخبره انه سيكون وارث الراهب ميخائيل في « اورشليم الجديدة » اي في مزرعته · وبما ان الرجل كان يعلم ان الزراعة لا ترتقي الا بالاختبارات الزراعيّة والدروس الطبيعيـة جاءه بكتب بلينيوس العالم الطبيعي الروماني ليستخرج منها كل ما يختص بالشؤون النباتيّة

والزراعــة (١) فاكبّ ايليا على درس هذه الكتب ثم استطرد منها الى مؤلفات ارسطو في الطبيعة وفي النفس . فكان هو يفتكر ويدرس ويطالع لاهل المزرعة واهل المزرعة يعملون بايديهم بجدٍ ونشاط : فكملت بذلك الحركة التي يخرج منها الارتقاء والمدنية وهي « الفكر والعمل » (٢)

وكأنّ المصائب التي وقع فيها الراهب ميخائيل في كهولته قصرّت اجله مع قوة بنيته . فبعد بضعة اعوام رزح وعجز عن العمل والمشي . فلما رأى صاحب المزرعة ذلك هزّ رأسه وقال : قد دنا اجل اخينا ميخائيل . ثم اردف ذلك بقوله : ان هذا الرجل قديس فانه لم يمت حتى جاءنا بشخص نافع مثله يقوم مقامه . — ثم قصد الرجل ايليا وقال له قارعاً ظهره بيده : تأهب يا بني لخلافة اخينا ميخائيل فانك ستكون كاهننا ديناً وعلماً اي مرشد معاولنا ونفوسنا معاً

وفي الواقع توفي الراهب ميخائيل بعد خمسة ايام فحزنت عليه المزرعة كلها وكان ايليا تلميذه اشدهم حزناً وبكاء . وقد اجتمع رأيهم على دفنه في وسط المزرعة بين الحقول والاشجار فاقاموا له هناك قبراً بسيطاً . وكان ايليا في كل صباح يأتي بشيء من الزهر الطيب الرائحة وينثره عليه باحترام وخشوع ويقبّل بلاط القبر بدموع . وقد نقش ايليا على قبر استاذه الراهب الشيخ هذه الكلمات « السلام على رسول الرفق والخير وحبيب الله والناس »

وقد فاتنا ان نقول ان ام ايليا توفيت في ذات العام الذي دخل فيه ابنها الى المزرعة فدفنت في مقبرتها . ولكن حزن ايليا على الراهب مرشده لم يكن باخف من حزنه على امه الحنون

وبعد وفاة الراهب ميخائيل رفض الشيخ سليمان قطعياً ادخال أحد من رجال الدين

(١) توفي بلينيوس في سنة ٧٩ للميلاد بمقذوفات البركان بزوف في ايطاليا بينما كان يدرس البركان وثورانه . وقد دفن البركان مدينتي بومباي وهركيلانيوم بمقذوفاته في ذلك العام

(٢) هنا موضع نزاع بين الفلاسفة والباحثين . فالـ Réalistes منهم يقولون (العمل العمل) فانهُ افضل من كل شيء في هذه الحياة . ومنهم اميل زولا الذي كان داعية العمل في بلاده وله فيه روايته المشهورة « العمل » فلمّا صدر هذا الكتاب تناول الفيلسوف تولستوي موضوعه وقال : العمل ؟ نعم لا ريب في انهُ مرقي البشر ونافع الناس . ولكن ايّ عمل ؟ فان صانعي الديناميت والمدافع والمسكرات واصحاب بيوت المقامرة والفساد كلهم يعملون بجد ونشاط . فهل يُستحسن عملهم ؟ كلا . فمن ذلك ينتج ان الفكر مقدّم على العمل . اذ على الانسان ان يفتكر ليحسن اختيار عمله واتقانه . فالفكر اذاً قائد العمل واصحاب الافكار Idéalistes انفع من اصحاب الاعمال Réalistes — وهذا نزاع قديم بين هذين المذهبين

الى المزرعة لانه لم يجد راهباً فاضلاً كالاخ ميخائيل ليسلمه المزرعة ونفوس اهلها . الاّ ان اكثر اهل المزرعة استاءوا من ذلك وخصوصاً النساء فكان الشيخ سليمان يقول لهم : لكي يكون الكاهن فاضلاً ويستطيع القيام بواجباته يجب امران الاول ضمانة رزقه وحسن معيشته والثاني حسن اخلاقه وكمال استعداده النفسي ليتخذ وظيفته سبيلاً لنفع غيره لا نفع نفسه . ولا يفسد السلك الاكليريكي في بلاد الا بفساد هذين الشرطين . فنحن نقدر على ضمانة الاول ولكن من يضمن لنا الثاني . فلديكم يا اولادي التوراة والانجيل ولكم عقول خلقها الله لتعقل فاقرءوا كتبكم في اجتماعاتكم وطهروا قلوبكم واحسنوا صنعكم فالله يقبل منكم هذه العبادة لان كل انسان يمكنه ان يكون كاهن نفسه طبقاً لدعوة الانجيل . — ولكن اهل المزرعة كانوا يسكتونه بهذا الجواب : وما الحيلة بالعماد والاكليل والوفاة

وفي ذات يوم الحّوا عليه في ذلك بالتماس ورجاء فقال الشيخ سليمان في نفسه لماذا لا نسيم لهم ايليا كاهناً . فانه جامع للشرطين المتقدمين

وكان ايليا لا يزال مشتغلاً بخدمة المزرعة بعقله ويده الا ان همته كانت قد ضعفت كثيراً . ففي ذات يوم قصده الشيخ سليمان في حرش من الصنوبر في المزرعة واخبره بالحاح اهل المزرعة في شأن الكاهن وانه يود لو يقبل هذه الوظيفة . فدهش ايليا اولاً . ثم اجاب بما خلاصته : كانت لي في صباي هذه الاحلام الجميلة . اما الآن فقد تغيَّر فكري . نعم انني لا « اطفىء شمعة من الشموع الموقدة ولا ارفع اكليلاً من الاكاليل » كما علمني استاذي الراهب ميخائيل الا ان نفسي صارت تطلب شيئاً فوق هذا . وهي اذا جثت مع جمهور الجاثين على تراب الخضوع للمواثيق البشرية والعادات الارضية فان روحها ترفرف فوق الجموع الجاثية — في أعالي لا تصل هذه الجموع اليها

فترك الشيخ سليمان ايليا بعد هذا الجواب ولم يعد يخاطبه بهذا الشأن ولا بحث فيه مع انه كان في نزاع دائم مع بعض الكهنة الذين كانوا يرومون الدخول الى المزرعة رغماً عنه وفي جملتهم اخو سكرتير البطريرك الراهب متى

ولكن ما هذه الاعالي التي ذكرها ايليا في جوابه وكانت سبباً في رفضه ان يكون كاهناً للمزرعة ؟ هي السم الجديد الذي دخل الى نفسه بعد خطبة استاذه الراهب ميخائيل على الجبل واطلاعه على كتب ارسطو وافلاطون وبلينيوس . هو الانسانية الجديدة التي تكوَّنت في باطنه بعد ان رُفع الغطاء عن عينيه في هذه المطالعات المختلفة . وهذا هو السبب في الضعف الذي حدث في نفسه بعد بضعة اعوام من دخوله الى المزرعة وانكبابه على هذه

المطالعة . فانه صار اميل الى الانفراد منه الى الاجتماع . ولم يعد يلذّ له مرافقة الفلاحين في حقولهم ومساعدتهم على حرثها بل كان يلذّ له بالاكثر الاستلقاء بكسل على ظهره تحت شجرة والتأمل في الفضاء الذي امامه . وقلما كان يُرى ضاحكاً في هذا الطور بعد ان كان عصفور المزرعة وابتسامتها . اما صحته فتبعت افكاره ايضاً . فانه صار نحيلاً اصفر الوجه قليل الكلام كثير الضجر فكأنَّ النار التي كانت تتقد في نفسه لمصارعته مع مبداء الكمال الخيالي والحقيقة المحجبة قد جففت ما كان فيها من ماء القوة والعافية . وهكذا تغيّر ايليا في بضع سنوات تغيرًا كليًا

وكان كثيرًا ما يقول في نفسه وهو سائر بين الحقول واشجار المزرعة : ما هذه الحياة الباردة والوجود المضجر . لماذا خُلق الانسان في الارض وما هي الحكمة من خلقه جاهلاً قاصرًا محدود العقل كما هو الآن . انني لما جئتُ من الناصرة الى المدينة لأدخل في الخدمة الدينية كنتُ اسعد مني الآن . لانني كنت قادماً وانا معتقد انني ساقبض بيدي على الحقيقة والراحة والسعادة . ولكن الخطبة على الجبل غيرت فكري . فطلبتُ بعدها الحقيقة والراحة في العمل والكتب . وها قد مرَّ عليَّ بضع سنوات وكلما تقدَّمتُ ازدادت الحقيقة بعدًا عني وازددت بعدًا عنها ولقد صرت أرى كل شيء في الحياة اسود ثقيلاً باردًا . فالبشر باجسادهم الضخمة الغليظة وعقولهم الجامدة وقلوبهم القاسية وافواههم واجوافهم المملوءة اقذارًا مختلفة لا يختلفون كثيرًا عن وحوش البرية . وكل ما في الارض من مناظر طبيعية والوان مختلفة واشكال منتظمة لا يساوي جماله جمال حلمٍ واحد من الاحلام الوهمية . نعم لا انكر جمال صنع الخير كما وصفه استاذي الراهب ولكن ماذا يقدر شاب ضعيف مثلي في وسط اوقيانوس العالم المضطرب . هوذا اننا نصنع الخير الآن في هذه المزرعة وكل اهلها آمنون على رزقهم وراحتهم ولكن الا يوجد بشر اشقياء تعساء خارج المزرعة . لا ريب في ذلك لان الارض كلها خارج هذه الدائرة في شقاء وعذاب ونزاع وخصام . فماذا تنفع حياتنا اذا كانت عاجزة عن ابطال كل ذلك . وما قيمة المعيشة التي يتنعم فيها عشرة ويشقى الوف . حقًا ان الحياة لا تسوى ما فيها من الهم والعناء والتعب . والسعداء انفسهم لا يجدون فيها ما يروي غليلهم ويشفي نفوسهم . فالموت خير منها لانه راحة الراحات

وهكذا تدرَّج ايليا في دركات الملل واليأس في مدة قصيرة وصار يرى الخدمة الروحية والعملية عبثًا ولغوًا لان الفائدة التي تخرج منهما لا تساوي القوة التي تُبذل فيهما .

ولو كان غيره في مكانه لافضى به هذا الامر الى تنبيه انانيته وادى به الى الاقتصار بعد ذلك على خدمة مصلحته الخصوصية ما دام لا شيء في الحياة يستحق ان يضحى له شيء من الذات. ولكن من احتقر الحياة والدنيا بنفس كنفس ايليا فانه يبداء باحتقار المصلحة الخصوصية قبل المصلحة العمومية

ولذلك كان الشيخ سليمان كلما شاهد ايليا بحالة التأمل والانقباض بعد نشاطه السابق يقول مع باقي اهل المزرعة : ماذا اصاب صديقنا ايليا

وا اسفاه ان ايليا كان مريضاً مرضاً روحياً . ان ايليا كان ينقصه الزحام والعراك في الحياة لتتنبه همته بالمقاومة وتشتغل بتنازع البقاء والحركة الى العلاء بدل الاشتغال في نفسها بنفسها . ان ايليا كان ينقصه الغذاء القلبي الذي يريه محاسن الحياة ويزينها له . كان ينقصه ابتسامات كابتسامات الفتاة اليهودية التي رآها على طريق يافا منذ سنوات وكانت صورتها تتردد عليه في احلامه المضطربة

***

هذا هو تاريخ حياة ايليا قبل ان عرفناه وهكذا كانت حالة نفسه لما لقيناه في بيت لحم ليلة امس . فلنعد الان اليه بعد مفارقته ارميا وتيوفانا امام دير العذراء

الفصل التاسع

عقل الشيخ ينبه ضمير الشاب

عود الى استير

وانحدر ايليا من امام دير العذراء نحو المزرعة وهو يتفكر بثلاثة امور . الاول حصر العرب مدينة القدس والثاني سجن استير في الدير والثالث ما وجده من رقة البطريرك وعقله خلافاً لما كان يعتقده

ولاريب ان ايليا كان شديد الاهتمام بحصر العرب مدينة القدس ولكنه كان قد الف انكسارات قومه امام جيوشهم . وكعارف للداء الذي كان يودي بالمملكة لم يكن يدهش منه كثيراً فضلاً عن ان تعدد حروب الفرس قبل ذلك عوّد الناس اعتبار الحرب امراً مألوفاً فيوم معهم ويوم عليهم . ولذلك كان كل اشتغال ايليا بحبيبته استير المسجونة التي جاءته وهو في ضجر من الحياة لتلقي في نفسه شيئاً من شعاع الامل والسرور

ولما وصل ايليا الى المزرعة هرعت اليه كلابها تهزّ اذنابها . وكانت المزرعة منبسطة في سفح الجبل بين آكام وسهول على مسافة عدة اميال . وكان فيها الكرمة والتين والزيتون والحبوب والبقول المختلفة . ويظهر لكل من تأمل الارض الجبلية القاحلة الجافة في النواحي ان صاحب المزرعة قد اتى ضروب المعجزات ليجعل تلك الارض صالحة للزراعة

وكان اهل المزرعة في ذلك اليوم في زينة وابتهاج لانه يوم عيد الميلاد كما تقدم فحيّا ايليا الذين وجدهم في طريقه منهم وعايدهم ثم دخل

ولما وقع نظر الشيخ سليمان على وجه ايليا من بعيد صاح به . اهلاً وسهلاً بمعلمنا حاجّ بيت لحم . انني ارى في وجهك شيئاً جديداً

فاجاب ايليا . نعم يا ابتِ فقد وصل العرب الى المدينة

فعبس الشيخ سليمان وقال كنت انتظر هذا الامر بعد فتح دمشق فليكن الله معنا والا ذهبت مملكتنا بسوء تدبير رجالنا . ثم ابتسم الشيخ قليلاً متناسياً ذلك الحديث المزعج وقال : الا انني لا اظن هذا سبب خفة حركاتك وبرق عينيك في هذا الصباح فانك ذهبت كسولاً فاتراً ضعيفاً حسب عادتك في المدة الاخيرة وعدتَ نشيطاً فائراً قوياً . فاخبرني ما ذا جرى لك

فابتسم ايليا ابتسامة معناها انت مصيب في ظنك ثم اخذ يد الشيخ ودخل به الى منزله . وجلس يقص عليه كل ما جرى له

وكان الشيخ سليمان في سن الستين تقريباً بلحية بيضاء منتشرة على صدره الواسع . وجسمه الكبير الظاهر عليه لوائح القوة والصحة يحمل رأساً كبيراً فيه عينان كبيرتان كسرت السنون حدتها . وكان لون وجهه الاسمر الذي لفحه حر الشمس والقوة التي تبدو منه مع شيخوخته في كل حركة من حركاته يدلاَّن على ان هذا الرجل قد عارك الدهر في حياته عراكاً شديداً

ولما كان الشيخ يسمع قصة ايليا من حين قبض عليه العامة في بيت لحم الى حين مفارقته تيوفانا امام الدير كان تارة يضحك وطوراً يعبس وآونة يقوم ويقعد . ولما استوفى ايليا قصته بهت الشيخ وبقي مبهوتاً . وكان ايليا يقرأ حينئذ في هيئته وعينيه دلائل التأثر الشديد ويرى في نظره بروقاً ورعوداً . وبعد برهة وثب الشيخ سليمان وصار يتمشى بغضب في الغرفة . ثم صاح على حين بغتة : يا ولدي ايليا لقد اخطأتَ خطاءً عظيماً

فدهش ايليا واجاب وما ذنبي فانني قد بذلت جهدي لاقناع البطريرك باطلاق سراح الفتاة فرفض ذلك لان الشعب كان يطلب تعميدها

فهزَّ الشيخ سليمان رأسه وصاح : هذه احدى آفاتنا يا ولدي . الشعب الشعب الشعب انهم يأتون كلَّ ضروب الظلم والاضطهاد والرياء بحجة الشعب كما كان يقول اخونا ميخائيل . فاذا رام أحدٌ فهم اصول دينه بعقله لا بعقل غيره (١) صاحوا عليه صياحاً شديداً خوفاً على ايمان الشعب . اذا اعترض احد على الجزئيات الدينية التي ليست في شيء من جوهر الدين اقاموا القيامة عليه بحجة لزوم ذلك للشعب . اذا اثنى احد على دين غير ديننا قاموا وقعدوا بحجة ان ذلك يضعضع ايمان الشعب . اذا وقع في يدنا مثلاً فتاة ضعيفة وطلب الشعب تعميدها رغماً عنها جاروه على هواه واهانوا الانسانية في تلك الفتاة ارضاءً للشعب . وعلى هذا القياس يا ولدي تؤتى ضروب الظلم والافتئات والشرور والفساد صيانةً لاوهام الشعب . ويكون اجهل رجل في الشعب اقدر من رئيسه واقوى سلطةً منه في كرسيه لانه يُحرك الشعب عليه كلما رام تحريكه . وهكذا يكون الشعب محسوباً عندهم عبارة عن ولد جاهل ابله يدارون جهله وشهواته واوهامه ولو ادى ذلك الى الشر والفساد وخنق كل ذكاء ونباهة واصلاح في الامة . ومن هذا الضلال والضعف يا بني يخرج التأخر للامم

١ هو الاجتهاد عند المسلمين ونقيض العصمة عند فريق من المسيحيين

لانك لم تنسَ ان الرهبان في مملكتنا كانوا في اكثر الاحيان اقوى من رؤسائهم لتحريكهم الشعب عليهم * وكم حالوا دون اصلاحات مهمة بهذا السبب الصغير * (١)

ثم سكت الشيخ . فقال ايليا بعد ان تأمل قليلاً . ولكن ماذا كنتَ تريد ان يصنع البطريرك يا ابتِ . فهنا لطم الشيخ الجدار بقبضته لطمة شديدة وصاح : كنت اريد ان يكون رئيس الشعب لا مرؤوسه . قائده لا تابعه . فاننا نريد رؤساء يواجهون الشرّ والفساد وجهاً لوجه بلا خوف ولا رياء ويضربونه ضربة قاتلة بدل ستره واخفائه جبناً وضعفاً . اننا نريد رؤساء يربون الشعب تربية جديدة اساسها العدل والحق والصدق ومكافأة اصحاب الكفاءة الشخصية لكي يتقدم القادرون العادلون الصادقون النافعون وينزوي العاجزون والمتزلفون . ولا تقل ان الشعب يسخط ويغضب من الضغط عليه فان هذا ليس بضغط بل هو تدريب وتربية . واذا كان الطفل يغضب من ابويه لتأديبهما اياه في صغره فانه متى كبر وصار رجلاً عاقلاً يجثو باحترام امام ابويه شكرًا لهما لانهما درّباه على الرجولية ولم يتركاه طفلاً جاهلاً . فلو كنتُ مكان البطريرك لقاومت العامّة وفحصتُ امر الشيخ والفتاة . فاذا وجدته جاسوساً عاقبته واطلقت فتاته واذا وجدته بريئًا اطلقتها معاً انتصارًا للعدالة والحق ولو قامت عليّ الدنيا كلها . اذ بدون هذا لا يتمّ اصلاح في الامة

وكان الشيخ سليمان قد تحمّس عند هذا الكلام تحمساً شديداً . فسكت هنيهة . ثم صاح ثانية : وهل تظنُّ يا ايليا انك غير مشتركٍ في الذنب الذي حصل . الا تعلم ان شاهد الشر شريك فيه اذا لم يبذل جهده لازالته . فهل صنعت حتى الآن شيئًا لاخراج الفتاة من سجنها حيث تتعذّب عذابًا شديداً . يا ايها الشاب ان ضميرًا بشريًا يتألم الآن في دير العذراء لانهم يضغطون عليه . ان نفساً بشريه تطلب الآن الموت ولا تجده فرارًا من تغيير معتقدها المجبول بلحمها وعظامها . ان صوتاً يستغيث الآن بالله ولا مغيث له . وانت من اسباب هذا كله . فضع نفسك يا ايليا مكان هذه النفس . افترض ان اليهود سجنوك في هيكل لهم ليجبروك على جحود دينك ومسيحك ويعلموك ان مبادىء المشنا والتلمود والتوراة اسمى من مبادىء الانجيل لانها مصدره ويكرهوك على ترك المبداء السامي الذي تتمسك وتحيا به

(١) قال بابيت في الانسيكلوبيذية الفرنسوية «ان الرهبان تكاثروا يومئذ في الاديرة كثرة متصلة حتى صار لهم على الشعب سلطة عظيمة فكانوا يتخذون هذه السلطة لزيادة جذبه اليهم وذلك بحمله على التمسك بالظواهر الدينية كالصور وغيرها ولذلك كانوا قادرين على تهييجه ضد الاساقفة والبطاركة والموظفين حتى ضد الامبراطرة . وهذا ما جعل همّ الامبراطرة المصلحين منصرفًا الى اضعاف نفوذ الاكليروس خصوصاً الرهبان وتقوية السلطة المدنية الامبراطورية وتنقية الديانة»

نفسك . فماذا كنت تصنع ؟ اما كنتَ تقتل نفسك او تقتل سجانك اذا لم تجد في وجهك غير هذا الوجه ؟ واذا سمعتَ ان احداً هجم على الهيكل لانقاذك الا تراه عادلاً ذا حق بذلك بل من واجباته ذلك لانه يرفع الاضطهاد عن ضمير بشري

وكان الشيخ يتكلم وايليا ينتفض من التأثر . فلما اتى الشيخ على كلامه ضاق الشاب ذرعاً وكاد يخنقه غيظه وانفعاله فوثب وخرج من الغرفة كالسهم المارق . ثم اتجه نحو باب المزرعة وخرج منه عائداً الى جبل الزيتون وهو شارد الفكر لا يعي على شيء . ويظهر ان ضميره انتبه بعد كلام الشيخ انتباهاً شديداً ولذلك كان يعضُّ اصابعه وهو سائر في طريقه ندماً على انه لم يأخذ على البطريرك عهداً ان يوصي الراهبات بان لا يتعرضن لمعتقد الفتاة

وهكذا بقي ايليا في ذلك النهار يتيه في جبل الزيتون من مكان الى مكان حائماً حول الدير ومستنقطاً نوافذه وجدرانه طالباً ارميا ليسأله ماذا صنع ومتسائلاً ماذا يصنع . ولما خيَّم الظلام اشتدَّ وخز ضميره وجزعه لعناء حبيبته وخيل له انه يسمع بكاءها وصوتها يستغيث على ما ذكرته له تيوفانا . فجلس الشاب في الظلام والبرد الشديد على اكمة تجاه الدير . ولبث هناك شاخصاً في نوافذه المشرفة على الحديقة . ولكنه قُبيل منتصف الليل بعد التفكير طويلاً نهض على حين بغتة وتسلَّل نحو الدير فتسلَّق جدار الحديقة وهبط الى الداخل ونفسه في اشد حالات الاضطراب والانفعال

الفصل العاشر

انا اعرف الله

وفي تلك الدقيقة برز القمر من وراء الافق يعمّم نوره الابيض اللطيف سطوح الدير فاستاء ايليا من ذلك لان النور فضّاح . الا انه رأى في ظل الاشجار التي كانت مغروسة بجانب نوافذ الدير في الحديقة مخبئاً حسناً

فانسلَّ ايليا نحو تلك الاشجار واخذ يصغي بكل جوانحه لعله يسمع شيئاً في داخل الدير . فلم تمضِ عليه دقيقة حتى ارتعدت فرائصه لاصوات هائلة بعيدة كانت واردة من جهة المدينة . فخشي ان يكون العرب هاجمين حينئذ على الدير . ولكن الحقيقة كانت ان جيشاً ثانياً وصل الى المدينة بعد الجيش الاول وكان صراخه هذا لارهاب اهل المدينة كما اوصاه ابو عبيدة

وبعد انقضاء دقيقة اخرى لم يسمع ايليا في اثنائها شيئاً انتقل متسللاً متنصتاً كلصوص الليل من نافذة الى نافذة وكانت كل النوافذ مغلقة لفصل الشتاء . وما زال سائراً حتى وصل الى آخر نافذة فسمع فيها صوتاً ضعيفاً كزفير وبكاء

فهنا جمد ايليا في مكانه وصار كله آذاناً تصغي . فبعد حين سمع في الغرفة باباً يُفتح وصوت اقدام . ثم سمع قائلاً يقول باللغة اليونانية

— يا اختي المحبوبة . خفّفي عنكِ فقد ازعجتِ ضميري ببكائك وجزعك . ولذلك لم أقدر على الرقاد حتى الآن . فبحياة اهلك اذا كان لك اهل ووطنك اذا كان لك وطن ان تريحي نفسك وتريحينا . انظري اننا هنا كلنا اخواتك . وكل ما تحتاجين اليه يُقضى في الحال . فتعيشين معنا بهناء وسرور لا ينقصك شيء ولا يزعجك شيء . ولا نطلب منك في مقابلة ذلك الا شيئاً واحداً

ثم سكت الصوت فلم يجاوبه احد بل اشتدّ صوت الزفير قليلاً . فاستأنف ذلك الصوت الكلام قائلاً — ما بالك لا تجاوبين يا اختي . اننا لم نطلب منك الا ما فيه خلاص نفسك . وهل مثلك تدنس نفسها بعبادة باكوس وجوبيتير وجينون وتترك الاله الواحد الذي لا آله الا هو . الا تخجلين يا اختي من عبادة الاصنام والتماثيل الحجرية التي يكسرها اضعف انسان بيده

ولكن هذا الصوت لم يأتِ على هذا الكلام حتى اجاب صوت آخر صارخاً بحدة وبكاء

— انا اعرف الله اكثر منكم

فصاح الصوت الاول بابتهاج قائلاً — شكراً لله شكراً لله . فلقد انار عقلك . وياما احيلي اسم «الله» في شفتيك يا اختي المحبوبة . الآن ارحتِ بالي وعلمتُ ان النور قد بدأ يدخل الى نفسك . ولكن من اي ساعة بدأتِ تعرفين الله يا اختي المحبوبة

فاجاب ايضاً الصوت الثاني بنزق وحدة وبكاء — عرفته منذ ولادتي . فهو الهي واله آبائي واجدادي . هو الذي اخرجنا من مصر ووهبنا هذه الارض ارض الميعاد وحمانا في خلال القرون والاجيال ولولانا لما عرفتموه . وهو لم يسمح لكم ان تستولوا على هذه الارض حيناً الاّ عقاباً لنا كما سمح بذلك للبابليين من قبل . ولكن كما حدث للبابليين سيحدث لكم ايضاً فيعيد الينا الهنا مملكتنا ويخذل اعداءنا

وكان ايليا يصغي الى المتخاطبتين بانتباه شديد لانه من بدء الحديث فهم ان الصوت الاول صوت احدى الراهبات ولعلها الرئيسة والصوت الثاني صوت استير حبيبته . فازداد

قلبه نبضاً للجرأة والتهور اللذين ظهرا من الفتاة ، وقال في نفسه انها لو فاهت بهذا الكلام امام احد من العامة لما بقيت حية زمناً طويلاً

اما الراهبة فانها لما علمت ان الفتاة لم تكن وثنيـة بل اسرائيلية قالت بلطفٍ مساوٍ للطفها الاول — يا اختي سواء كنتِ يهودية ام وثنيّة فان ضميري يوجب عليَّ ان اسعى لهدايتك . ولكن لماذا لم تخبرينا من قبل بذلك . انني الآن عرفت سبب اغمائك حينما وقع نظرك في الصباح على صليب المخلّص في الكنيسة . فيا بنيّة ارقـدي الليلة بهدوء وسلام وغداً سنتباحث في شأنك . الا تريدين ان تاكلي شيئاً فانك لا تزالين صائمة منذ الصباح

فبكت الفتاة وصاحت لا انام ولا آكل قبل ان ترفعوا هذا من هنا فانه لا يدعني استريح ابداً

ثم اشارت بيدها الى زاويةٍ فيها صليب صغير عليه السيد المسيح مصلوب وذلك دون ان تنظر نحوها

فلما سمعت الراهبة ذلك حمقت وكادت تستشيط غضباً لهذا الكلام الذي جرح صميم قلبها ولكنها كانت طويلة البال كثيرة الحلم فاجابت وقلبها يقطر دماً من كلام الفتاة — يا اختي . هذا البيت بيتنا . ونظامنا ان نضع في كل غرفة فيه صليب مخلصنا . فلا تتحكمي فينا في بيتنا . لماذا تغلقين قلبك الى هذا الحدّ يا بنية . انظري الى المصلوب فهو يمد يديه نحوك . انظري الا يخيّل لك انه يبتسم استقبالاً لك . انه حنون صفوح فلا تخافي ان يذكر لك جناية آبائك . اسمعي اسمعي . فانه يخاطبك بلساني قائلاً : اذا كان التبن الذي يُذرُّ في الريح العاصفة يعود ويجتمع فمملكتك تعود وتجتمع . لقد تشتتت اورشليم القديمة وقامت مكانها باسم الله يا اختي اورشليم الجديدة . ونحن بنات اسرائيل الجديد نستقبل فيك الآن بنت اسرائيل القديم . فيا له من يوم جميل يوم تضعن ايديكن بايدينا لنمجّد كلنا معاً اختنا الام العذراء التي اختارها الله ونفخ روحه في احشائها . نامي نامي يا بنية هذه الليلة على تذكار هذه الآمال الجميلة وغداً سنتباحث ملياً في امرك . وليكن الله معك

وهنا انقطع الصوت وسُمع صوت الباب يُغلق . ولكن ما أُغلق الباب حتى علا صوت الفتاة بالنحيب والزفير وقد اشتد جزعها حينئذ لانها صار يخيّل لها ان تينك اليدين الكريمتين الممدودتين اللتين ذكرتها الراهبة انما هما ممدودتان اليها . فكادت تجنُّ من الخوف . فقصدت النافذة وهي تبكي وتطلب منفذاً لخوفها وفتحتها بعنفٍ . فلطمت النافذة رأس ايليا فادمته ولكن ايليا لم يبالِ حينئذ برأسه الدامي بل دنا من النافذة وقلبه يخفق خفقاناً شديداً وقال

باللغة العبرانية همساً — انا آتٍ من قبل ابيك ايتها السيدة

وقد نطق ايليا بالعبرانية وذكر للفتاة اباها لكي يطمئن قلبها عند سماع كلامه ولا يهولها منظره في ذلك الليل على حين فجأة

فلما سمعت استير لغتها واسم ابيها تركت البكاء بالحال واصغت . ثم دنت من النافذة وقلبها يخفق خفقاناً شديداً فوقع نظرها على ايليا . فعرفته من اول نظرة . فدنا ايليا وقلبه يكاد يفجر صدره من شدة خفقانه وهمس قائلاً — ايتها السيدة . انا منتظر هنا . فبعد ساعتين ينام الجميع . فاخرجي بتأنٍ من باب الحديقة او من احدى النوافذ

فهنا تنفست استير الصعداء لتحققها الخلاص من أسرها والانضمام الى ابيها . ولم تعد تخشى من اليدين الممدودتين لعلمها ان رجلاً بجانبها . فبعد ساعتين تقريباً قرعت على النافذة مرتين دلالة على استعدادها للخروج ثم خرجت تتسلل كأنها طيف . وبعد خمس دقائق ظهر شبحها في الحديقة

فهرع ايليا حينئذ مضطرباً ومسروراً معاً . فقال لها اتبعيني . ثم اتجه نحو جدار الحديقة . فلما وصل اليه خالج ذهنه وذهن استير فكر واحد : وهو كيف تتسلق استير ذلك الجدار . فارتعدت لهذا الفكر فرائص الفتاة وبقي الفتى مبهوتاً . ذلك ان استير لا يمكنها تسلق الجدار بدون مساعدة ايليا كحمله لها او انهاضها . وكيف يجوز ليهودية ان يمسها مسيحي خصوصاً اذا كان ذلك في ظلمة الليل على انفراد . الا ان ايليا انتبه بسرعة الى حلّ لهذا المشكل فانه شاهد على احد الاشجار في طريقه سلماً صغيراً . فركض مسرعاً الى السلم فحمله وتسلقا الجدار عليه دون ان يشعر احد من اهل الدير بخروجهما منه

الفصل الحادي عشر

الصليب اهون من هذا

قصة استير

ولما خرج الاثنان من الحديقة كان قلب الفتاة يرقص مسرة بالنجاة وقلب ايليا يرقص اضطراباً لعاقبة صنعه هذا وفرحاً بانقاذ فتاته واراحة ضميره . لكن ما خطت استير بضع خطوات حتى سألت ايليا بصوتها اللطيف : اين ابي

فتلجلج ايليا واجاب : ستلقينه غداً ايتها السيدة

فلما سمعت استير هذا الجواب اجفلت ووقفت . ثم تأملت في الهدوء الشامل حولها في ظلمة ذلك الليل في ذلك الجبل المقفر فخارت قواها وهلع قلبها لانها كانت تظن ان اباها ينتظرها خارجاً . ولولا ذلك لما رضيت بالانفراد مع شاب في ذلك الليل . ثم تذكرت ان ذلك المسيحي قال لها على النافذة انه قادم من قبل ابيها فخيّل لها حينئذ انه احتال عليها بذلك لاخراجها . فرجعت القهقرى صائحة : انا عائدة الى الدير . فالصليب اهون من هذا

فصعق ايليا لهذا الجواب واسرع وراء استير فجاءها من امامها وقال بادب وجد : يا ايتها السيدة . انك لا تجهلين انني خاطرت ليلة امس بنفسي في سبيل انقاذك مع ابيك من ايدي العامة . فاي غرض كان لي حينئذ مع انني لم اعرفكما من قبل . ولقد خاطرت بنفسي ايضاً الليلة لانقاذك ولا غرض لي غير راحتك وراحة ضميري لانني عجزتُ امس عن انقاذك . فهل من العدل ان تجزيني على هذا الصنع بسوء الظن والاهانة الى هذا الحد

فسكتت استير حينئذ تفكّر بنفسها وتتساءل هل هذا المسيحي صادق في ما يقول . ثم اجابت . واين تذهب بي الآن . فاجاب ايليا الى مزرعة قريبة في سفح الجبل حيث تنتظرك كثيرات من الفتيات مثلك وغداً يلاقيك ابوك اليها . فقالت ولماذا لا نذهب الى المدينة . فاجاب ايليا لان جيوش العرب تحصرها فضلاً عن ان الابواب لا تُفتح في الليل . فتنهدت الفتاة وسكتت . ولكنها بقيت ترتعد من انفرادها بالفتى في ذلك المكان

وكان القمر في تلك الساعة ملتحفاً بالغيوم السوداء المنذرة بالمطر والريح تهب باردة برداً يدل على قرب مطر مثلج . ولكن كان القمر كان له غرض في الارض في تلك البرهة فاطل من وراء الغيوم ينظر بعينه البيضاء الواسعة الى الجبل والشخصين الواقفين عليه . وكان وجه استير مستقبلاً القمر فلما وقع عليه اول شعاعه ورأى ايليا برقه في عينيها سرت في جسمه كهربائية فتاته الغائبة التي احبها عشر سنوات متوالية . وكانت هذه اول مرة وقع فيها نظر ايليا على نظر استير وجهاً لوجه . فذابت حشاشة ايليا لقسوة قلب استير وعدم فهمها عواطفه وعلم حينئذ ان اصعب شيء على القلوب الكريمة التي تستحق الحب الصادق لشرفها وصدقها وكرامتها هو ان تحب ويبقى المحبوب جاهلاً او متجاهلاً حبها وكرامتها لا يثق بشيء لها حتى ولا باخلاصها

لكن يظهر ان استير بعد ان فكّرت ملياً اقتنعت بالذهاب مع الشاب لانه اهون الشرين . فقالت له وهل المزرعة بعيدة من هنا فانني اخشى المطر والبرد . فتنفس ايليا الصعداء حينئذ وقال نعم ايتها السيدة ان المزرعة بعيدة ولكننا سنصل اليها في ساعة بعون الله

ثم انه سار امامها يدلها على الطريق وسارت وراءه بخطى سريعة

ولكن يظهر ان السماء رامت الانتقام من استير لانها اساءت الظن بايليا . فهبت على الجبل في تلك اللحظة زوبعة شديدة تمازجها رعود وبروق وثلج ومطر شديد كافواه القرب . وكانت استير بثياب النوم . فجزع ايليا لهذا المصاب الجديد فخلع عنه رداء شتويًا كان عليه والقاه على جسمها . الا ان ذلك لم يجدها نفعًا فان المطر بلل جميع ثيابها والبرد قلّص وجهها واطرافها والتعب افنى قوتها فسقطت على الارض ضعيفة واهية القوى . فجزع ايليا جزعًا شديدًا لذلك فدنا من استير وقال : ايتها السيدة استندي الى ذراعي لاحمل عنك شيئًا من مشقة السير فنصل في وقت قريب . فترددت استير اولاً اذ كيف يجوز ان تمس يدها يد مسيحي . ولكنها رأت انها بدون ذلك لا تستطيع السير فنهضت وهي ترتعد من الخوف واسنانها تصطك من البرد . فوضعت ذراعها اليسرى في ذراع ايليا اليمنى اي اخذ ايليا جانب قلبها ثم سار بها . فشعر ايليا حينئذ بسرعة نبض ذلك القلب اللطيف لخوفه وتعبه فازداد نبض قلبه ايضًا كانما سرى بين القلبين نوع من الكهرباء

ولكن الفتاة لم تخط خطوتين حتى سقطت لعدم استطاعتها الوقوف . فازداد قلق ايليا فدنا منها ثانية بوجل وقال : هل تسمحين لي ان احملك

فعند هذا السؤال نفرت استير بانفة واشارت برأسها اشارة سلبية . وكان قلبها يقول حينئذ : الموت بردًا اسهل من ان يخالط جسمي جسم رجل خصوصًا اذا كان مسيحيًا

وفي هذه الدقيقة سُمع على الطريق من جهة المزرعة صوت اقدام تعدو بسرعة شديدة فخاف ايليا ولكنه لما ظهر صاحب الصوت صاح به — ارميا ارميا اسرع اليّ . فاجاب ارميا كيريه ايليا . ماذا تصنع هنا . ولما وصل ارميا وشاهد استير فهم سر المسألة . فوقف مبهوتًا يتأمل . ولكن ايليا لم يُطل وقفته بل انه صنع من بعض ثيابه وثياب ارميا ملفًا فلف به جسم استير دون راسها ثم حملاها كل واحد منهما من طرف . وكانت المسافة بينهم وبين المزرعة ساعة والمسافة بينهم وبين كوخ ارميا تحت الارزة عشر دقائق فقط ولذلك اسرعا بها الى هذا الكوخ لانقاء المطر والبرد

وعند وصولهم ادخلت اليه استير واغلق عليها الباب وبقي ايليا وارميا خارجًا يوقدان النار لتدفئة الفتاة وتجفيف ملابسها . وبعد حين كتب ايليا ورقة واعطاها الى ارميا ليوصلها الى المزرعة ويعود منها بملابس جافة وفرس للركوب

فسار ارميا وهو يتلفت الى الكوخ ليرى هل يبقى ايليا خارجًا ام يدخل اليه . وفي طريقه كان يردّد في نفسه قوله السابق لايليا تحت الارزة : يا لله ما اجملها . حقًا لا اعلم

لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا

وكان المطر لا يزال شديداً في الخارج وايليا لاجئ منه تحت الارزة لان استير لم تدعُه ليدخل احتماءً منه في الكوخ وايليا لا يمكن ان يدخل بدون اذنها. فازداد استياء ايليا لاساءة الفتاة ظنها به . ولكن مع ازدياد استيائه هذا ازداد حبه لها. اذ لا شيء يزيد الحب مثل التمنع والجفاء

ويظهر ان استير قد شعرت بخشونتها. لانها لم تلبث ان اخرجت راسها من باب الكوخ وفتحت الحديث بقولها : هل الفجر بعيد يا كيريه ايليا

فتنهد ايليا ودنا نحو الكوخ واجاب . اظن ايتها السيدة انه لم يبقَ من الليل سوى اربع ساعات . فقالت ولمن هذه المزرعة التي سنذهب اليها. فاجاب هي لرجل كريم يدعى الشيخ سليمان وهو الذي ساءه خبر سجنك في هذا الدير . ثم قصَّ عليها شيئاً مما جرى له معه

فعجبت استير من ذلك في نفسها. لانها بناءً على ما سمعته من قومها وما راته من هيجان العامة امس في طريق بيت لحم لم تكن تعهد ان يوجد بين المسيحيين رجلان كايليا والشيخ سليمان يساعدان المظلوم وان كان من غير دينهما ولا يعرفان عنه شيئاً

وهذا وا اسفاه داءٌ من ادواء البشر فان كل فريق منهم يخص قومه بالفضائل دون سواهم

ثم دار الحديث بين ايليا والفتاة . وكان اول ما سالها عنه سبب وجودها مع ابيها في بيت لحم في ليلة امس . فعلم منها ايليا قصتها وهي

كانت استير من عائلة اسرائيلية مقيمة في مصر . وقد شاع يومئذ في المملكة البيزنطية كلها ان المنجمين قالوا ان السلطنة ستصير الى قوم مختونين * (١) فثارت تصورات بعض الاسرائيليين وانتشر بينهم ان المسيح اي المسيح الذي لا يزال اليهود ينتظرونه قادم لاعادة مملكتهم والاستيلاء على العالم . وفي ذات يوم ورد على ابي استير كتاب من بلاد العرب مع رسول من ابناء جنسه فتأهب بعد هذا الكتاب للسفر الى فلسطين مع زوجته وابنته . وكانت زوجته في نحو السبعين من العمر وهي مقعدة لمرض عضال اصابها وكانت اقصى امانيها ان تموت في اورشليم وتطلق روحها في فضائها بجانب هيكل سليمان . ولذلك فرحت فرحاً شديداً بسفرهم الى فلسطين . وقد شاركتها ابنتها استير في هذا الفرح لانهم قالوا لها ان المسيح سيظهر في ذلك العام في فلسطين . فجاءوا الى اورشليم متخفين متنكرين

١ لذلك يقول بعض ادباء العرب ان هذه النبوءة انطبقت عليهم . وهو من الغرابة بمكان . ولكن لعل هذه النبوءة لم تظهر الا بعد ظهور العرب

لينتظروا المسيح فيها ويكونوا اول من يستقبله من ابناء اسرائيل . وقد استأجروا في القدس منزلاً صغيراً بازاء الجدار الذي كان المسيحيون يلقون عليه فضلات منازلهم (١) وكان الثلاثة كثيراً ما يخرجون في ظلمة الليل سراً ويقفون هناك ويصلّون باكين الصلاة التي يصليها بنو اسرائيل دائماً امام جدار هيكلهم القديم في اورشليم وهي :

(يقول واحد) من اجل الهيكل المقدس العظيم (فيرد الجماعة) نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل اسوار هذه المدينة الساقطة (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل مملكتنا التي بادت (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل رؤسائنا الذين ماتوا (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") آه تحنن على صهيون (" ") واجمع شتات اورشليم
(" ") اعد سابق مجدك لصهيون (" ") وانظر مترحماً اليها الخ

وقد مرت عليهم ثلاثة اشهر على هذه الحال وفي كل يوم كان يذهب ابو استير لمشاهدة آثار المدينة ويختلط باهلها متزياً بزي اليونانيين والسوريين . اما استير فانها كانت تخرج احياناً من المدينة مع ابيها وتجلس على رابية عالية لترى منها هل المسيح آتٍ ام لا . وفي اكثر الاحيان كانت تلازم امها العجوز المقعدة في البيت وتخدمها . ففي ليلة أمس اشتهت استير ان تشاهد عيد المسيحيين في بيت لحم فغضبت امها من ذلك ولكن اباها رضي باخذها الى بيت لحم فذهبا للتفرج فيها فجرى لهما ما جرى

فلما سمع ايليا هذه القصة صار يسائل نفسه هل هذه العائلة ساذجة الى هذا الحد حتى خاطرت بنفسها في القدس من اجل هذه المسالة ام هنالك امر آخر كتمته عنه استير او كتمه اهلها عنها ولم يظهروا لها منه غير المسالة الدينية . الا انه كان يظهر في كلام استير انها مخلصة في قولها كل الاخلاص ولذلك رجح ايليا السذاجة على السياسة

وبعد السكوت حيناً ابتدر ايليا الكلام فقال : فامك اذاً الآن في المدينة يا اختي

فلما سمعت استير كلمة « اختي » من فم الشاب حصل ارتياح في نفسها لازدياد طمأنينتها. انما تساءلت في نفسها هل يجوز لمسيحي ان يدعوها اخته . ثم اجابت والدموع في عينيها لذكر امها : نعم يا كيريه ايليا وهي مقعدة لمرضها

وكان استير بعد هذا الحديث رأت انها فعلت ما كان عليها ولذلك انزوت في احدى

١ هو بقية هيكل هيرودس الذي اقامه على هيكل سليمان ووراءه اليوم حي اليهود في القدس على ما في الخريطة التي امامنا وهو احد جوانب الحرم المشهور

الزوايا بداخل الكوخ . فعاد ايليا عن الباب متنهداً . وبقي الاثنان بعد ذلك ساكتين ولكن «الهوى» في قلبه و«الهواء» في الخارج على اغصان الارزة كانا يتكلمان ويزأران زئيراً شديداً

وبعد نصف ساعة سُمع صوت حوافر جواد ينهب الارض نهباً فنهض ايليا لعلمه ان ارميا قد عاد من المزرعة . ولكنه عجب من هذه السرعة . لانه لم يكن يدري ان ارميا سار في ذهابه بسرعة الجواد وعاد بسرعة الجواد لكي لا يترك استير مع ايليا وقتاً طويلاً

وكانت استير قد دفئت قليلاً في داخل الكوخ فغيرت ملابسها بالملابس الجافة التي جاءها بها ارميا ثم ركبت الجواد وهمت بالمسير . فقال ايليا لارميا خذ بقياد الفرس يا ارميا وسر سيراً سريعاً . فحكّ ارميا راسه واجاب . بل دعني اسير على مهل وراءه يا كيريه ايليا لانني تعبت . فاخذ ايليا بقياد الفرس وسار امامه دون ان يدري بالسبب الذي من اجله طلب ارميا ان يكون وراء . وهكذا سار الثلاثة بين العواصف والقواصف ايليا امام واستير في الوسط على ظهر الفرس وارميا وراء . وكان ارميا لا يرفع نظره منها

ولما وصلوا الى المزرعة كان الشيخ سليمان ينتظرهم فدنا وقبّل راس ايليا سروراً بفعله ثم دفع استير الى بناته فاستقبلنها استقبال اخت وصديقة قديمة . وقد خصصن بها غرفة بجانب غرفتهنّ فنامت استير بقية الليل نوماً هنيئاً بعد ان عجبت كثيراً من هؤلاء المسيحيين

الفصل الثاني عشر

بين مسيحي ويهودية

وفي فجر اليوم التالي قبل ان تتعارف الوجوه تقريباً كان على قبر الراهب ميخائيل الكائن في وسط المزرعة كما تقدم شخص جالس يتأمل والبرد قارس والريح شديدة . وكان هذا الشخص ايليا لانه لم ينم بقية ذلك الليل . وكان يقول وهو جالس على القبر: يا استاذي ميخائيل . ان خطبتك على الجبل كانت حداً فاصلاً وطوراً جديداً في حياتي . وها انا الان قد وصلت الى طور جديد آخر . انني لم اكن افهم لذة الوجود وبهجة الدنيا ولذلك سئمتها وضجرتُ منها . اما الآن فصرت افهمها . انما ارجو من روحك الكريمة التي ترفرف في فضاء هذه المزرعة دائماً ان تمس قلب استير وتجعلها تشعر شعوري

ولما طلع الصباح وانتبه اهل المزرعة عاد ايليا اليها فوجد بنات الشيخ سليمان عند استير

يلاطفنها ويتناولن طعام الصباح معها . وكانت هذه اول مرة يري فيها ايليا استير وجهاً لوجه على ضوء النهار

فرأى ايليا استير فتاة في نحو العشرين من العمر وكانت بقدّ رشيق طويل كأنه غصن بان ووجه ممتلئ ناصع البياض كالثلج تخالط بياضه حمرة الصحة والعافية كأنما اجتمع فيه كل ما في الورد من اللون الزاهر . وفوق وجهها التفاحي الجميل شعر ابنوسي يؤلف سواده الفاحم مع ذلك البياض وتلك الحمرة منظرًا عجيبًا . اما العينان فقد انفردتا بلون رابع وهو اللون الازرق الصافي صفاء بديعًا وهو ما يندر تحت الشعر الاسود . فكأنَّ هذا الراس الملائكي الجميل آلى خالقه على نفسه ان يجمع فيه كل بياض الزنبق وحمرة الورد وسواد المسك وزرقة السماء باشد جمالها ومعانيها ليكون مثالاً للجمال الذي يمكن ان تدركه عين بشرية

فلما شاهد ايليا في ذلك الصباح وجه استير على نور الشمس سجد قلبه في صدره لصانع هذا الحسن . وادار نظره الى السماء من النافذة ليرى ايّهما اعمق واجمل زرقة عيني استير ام زرقتها

وبعد الطعام طلبت استير محادثة ايليا فهرع الشاب اليها وخرج معها الى الحقول . فلما رآهما الشيخ سليمان سائرين قال : لقد آن انْ يكون لايليا شمس تبدّد همومه الدائمة . فاظن ان استير ستكون من بنات المزرعة بعد الآن

ولما انفردت استير بايليا ابتدرت الكلام قائلة : ماذا نصنع الآن يا كيريه ايليا هل اذهب الى المدينة ام ياتي ابي الى هنا لاخذي . فتنهّد ايليا واجاب . يظهر ايتها السيدة انك غير مسرورة بالاقامة هنا . ولكن ما الحيلة انك لا تقدرين على الذهاب الى المدينة لان جيوش العرب تحصرها كما ذكرتُ لك وابوك لا يقدر ان يأتي الينا لانه لا يستطيع ترك امك وحدها

فاغرورقت هنا عينا استير بالدمع لدى ذكر امها وتنهدت بكآبة وحزن . فكاد قلب ايليا يتفطر لعنائها . وبعد السكوت برهة قالت استير والى كم يطول حصار المدينة . فاجاب ايليا لا اعلم فعلينا ان ننتظر منتهى هذه الحادثة

وفي هذا الحين التفت ايليا نحو المزرعة فابصر ارميا راكضاً نحوه . ولما وصل اليهما حيّاها ببشاشة واخبر ايليا ان اهل دير العذراء دروا في الصباح بفرار الفتاة فاضطربوا وكاتبوا البطريرك وارسلوا يسألون ارميا هل رآها فاجابهم ارميا انه ما رأى احدًا

وفي الحقيقة ان جواب ارميا لهم كان ان شاباً يُدعى ايليا في مزرعة الشيخ سليمان هو الذي اختطفها

وبعد وصول ارميا الى ايليا واستير لزمها ولم يعد يفارقها . وكان كثير المراقبة لاستير على الخصوص . فلاحظ منه ايليا هذه المرة ما لم يلاحظه من قبل . فاستاء في نفسه وعاد بالفتاة الى المزرعة

وبقيت استير كئيبة حزينة طول النهار فحاول الشيخ سليمان كثيرًا ان يزيل كآبتها فلم يقدر فاحال عليها ايليا قائلاً : هل انت جماد لا تتحرك . فكيف تترك هذه الفتاة تذوب كآبةً لفراق اهلها ولا تحاول تعزيتها

فوا اسفاه ان الشيخ سليمان لم يكن يدري ايضًا ما كان في نفس ايليا

مجيء المسيح وصلبه

وفي ذلك المساء قبل غروب الشمس بساعتين عرض ايليا على الفتاة ان يذهب بها ليريها الحقول والبساتين في المزرعة . فرضيت الفتاة بذلك وذهبا يتنقلان بين تلك الطبيعة الجميلة التي زادتها عناية يد الانسان ثمارًا وجمالاً

وما زالا سائرين حتى بلغا قبر الراهب ميخائيل . وكان ايليا قد نثر الزهر في الصباح على القبر حسب العادة . وكان حول القبر عدة مقاعد من حجر فجلس على احدها وجلست الفتاة بعيدة عنه . وبعد ان جلست سالت ايليا عن صاحب ذلك القبر . فلما سمعت اسم « راهب » اجفلت ونهضت . فاستاء ايليا في نفسه لهذه الاهانة لاستاذه ولكنه اظهر الابتسام والضحك فقال . اجلسي اجلسي يا اختي لنتحادث في موضوع نفورك . وارجو ان تسمحي لي بذلك فان هذا الامر قام في نفسي منذ رأيتك على الطريق تمتنعين عن انقاذ نفسك وابيك بعلامة ترسمينها على صدرك

فهنا جزعت استير جزعًا شديدًا وصبغ الاصفرار وجهها من شدة الجزع . فثارت نفس ايليا لذلك وصاح : يا اختي اقسم لك بخالق السماء والارض الهكم والهنا انني لا اقصد الاساءة اليك او الى معتقدك بشيء . فانني من الذين يحرّمون الضغط حتى على ضمير النملة اذا كان لها ضمير . فعلامَ هذا الجزع والخوف من لا شيء

فدمعت عينا استير واجابت باضطراب شديد . لا اريد ان اباحث احدًا في هذه المواضيع فانني رأيتُ اسلوبكم في البحث اول امس في طريق بيت لحم وامس في الدير

فهنا ابتسم ايليا واجاب . اسمعي ايتها الفتاة الكريمة لازيل سوء ظنك واهانتك بكلمتين . انك تقيسينني ايتها السيدة على العوام الذين شاهدناهم في طريق بيت لحم وعلى الراهبات

اللواتي رمن اجتذ ابك في دير العذراء . ولكنك تخطئين بهذا القياس . فان العامة اناس لا رأي لهم غير ما تلقنوه وهم لا يفتكرون بعقولهم بل بعقول غيرهم . والراهبات وغيرهن من المنقطعين الى الله في الاديرة وغيرها لا يُلامون اذا تمسكوا بمعتقدهم تمسكهم بالحقيقة المطلقة لانهم لو لم يكونوا يعتبرون انه الحقيقة المطلقة لما انقطعوا اليه عن كل ملاذ الدنيا . اما نحن باقي البشر الذين لنا عقول نعقل بها وعلينا ان نعيش مع عناصر مختلفة في الارض فان حالنا غير حال اولئك . فاننا انما نحن تلامذة البحث والتنقيب والاخذ والرد . ثم ابتسم ايليا وقال . فابحثي معي يا ايتها السيدة ولا تخافي اذ ما ادراكِ انك لم تُرسلي من السماء لهدايتي . ما ادراك ان العناية الالهية لم ترسلك اليّ لاعطائي ما ينقصني الى الان

فابتسمت استير لهذا الكلام اللطيف وظنت ان ايليا يريد به الجهة الدينية . وفي الحقيقة انه كان يريد به الجهة القلبية . . . اذ ما كان ينقصه معلوم مما تقدم

ثم ان ايليا اردف كلامه السابق بقوله : ومصداقاً لقولي ايتها السيدة الكريمة اذكر لك شيئاً عن صاحب هذا القبر الكريم الذي اجفلتِ منه لمجرد معرفتك انه راهب . هل سمعت يا سيدتي بمبادىء واخلاق الراهب ميخائيل . هذا الراهب صرف كهولته في جمع المال من اهل المال ولكنه توفي ولا فلس في صندوقه لانه كان يوزعها كلها على الفقراء والمساكين . وكان عنده جميع الفقراء على السواء مسيحيين ويهوداً ومجوساً لانهم كلهم عيال الله كما كان يقول . هذا الراهب اضطهده بعض الناس حسداً وبغضاً واساءوا اليه وقطعوا رزقه ولكنه كان يباركهم الى آخر نسمة من حياته . وفي ساعة موته اشار اليّ فدنوت منه فقال لي وهو يجود بنفسه : اذا سافرتَ الى بلادي يوماً ورأيت احداً منهم فقل لهم انه يقرئكم السلام ويطلب ان تصلّوا من اجله . هذا الراهب طُرد من سلك الرهبانية لانه خطب خطبة لام فيها الحكومة ورجال الدين لاضطهادهم اليهود في سوريا وفلسطين . وكان كلما مرّ في طريقه بيهودي فاذا كان فقيراً يحسن اليه بشيء من المال واذا كان غير فقير استوقفه وحادثه وآنسه وذلك على سبيل الاحتجاج على اضطهاد الحكومة لبني جنسه . وقد قلتُ لكِ انه كان « يحسن » الى الفقير والصحيح كما كان يقول انه كان يفي له « الدَّين » الذي عليه . هذا الراهب عاش في هذه المزرعة عشرين سنة وليس بين الناس هنا وفي القدس واحد يقول انه اساء اليه بشيء ما طول حياته حتى ولا الكهنة الذين كانوا في خلاف معه . هذا الراهب اذا جادل الناس بعضهم بعضاً امامه في الدين كان يعبس ويقطع حديثهم بقوله : فلنبحث يا اولادي في ما نعلمه ونفهمه من شؤون السماء اما شؤون الارض

فاننا لا نعلمها. وحسبنا ان نكون صالحين طاهري القلوب مسلمين امورنا الى الله تعالى فنعيش كلنا في الارض اخواناً في اخوان مهما اختلفت مذاهبنا. — هذا ايتها السيدة هو الراهب الذي اجفلتِ من ذكر اسمه . افكنتِ ترفضين مباحثته كما رفضتِ مباحثتي لو كان حياً

وكانت استير مصغية الى ايليا اشد اصغاء . فلما فرغ من كلامه قالت : اذاً لم يكن هذا الراهب مسيحياً ؟

فقهقه ايليا قهقهة تكاد تُسمع من المزرعة واجاب : بل كان مسيحياً يا اختي لان هذه هي المسيحية الحقيقية

فسكتت استير هنيهة ثم اجابت ، حقاً هذه اول مرة اسمع بها مثل هذا الكلام عن مسيحي . ولكن كيف كان ايمانه به . . .

وقد نطقت استير بهذا الكلام على غير وعي تقريباً . فترك ايليا حينئذ الضحك وصار يفكّر بجدٍ واهتمام في الجواب الذي يجيبها به . ذلك لانها انما قصدت بسؤالها السؤال عن ايمان الراهب ميخائيل بالمسيح . والبحث في ذلك معها صعب لعدة اسباب منها رغبته في ان تكون مسيحية والاّ فلا يمكنه الاقتران بها وهذا يقتضي مباحثتها في ذلك بحثاً دينياً لا بحثاً عقلياً . فشرع اولاً في البحث الديني فاجاب : يا سيدتي تسألينني سؤالاً غريباً اذ كيف يكون الانسان مسيحياً ولا يؤمن بالمسيح

وكانت استير قد تحمّست من كلام ايليا الذي قال لها فيه انه يحتمل ان تكون مرسلة اليه من العناية الالهية لهدايته . فجمعت قواها كلها لمباحثته في امر كانت قد سمعت كثيراً من المباحثات فيه لعلها تهديه . ويا للغرابة . ان هذه هي اول مرة بدأت بها تميل الى ايليا . ولكن لالا . لا غرابة في ذلك لان هذه هي اول مرة بدأت بها تهدم الحاجز الاجتماعي الذي كان بينها وبينه . ومتى انهدم هذا الحاجز مسّت نفسها نفسه بحكم الطبع فتتآخيان بأمن وسلام

اما نفس ايليا فانها لم تكن محتاجة هذا الهدم ليحصل التآخي بينها وبين نفس استير لان هذا التآخي حصل لها من النظرة الاولى

فلما سمعت استير جواب ايليا ابتسمت وقالت : وانت يا كيريه ايليا اصدقني . اتؤمن به ايضاً . فاجاب ايليا برزانة : بلا شك ايتها السيدة . وانني آسف لانك لاتؤمنين انتِ به ايضاً . فابتسمت استير واجابت . هل تغضب اذا جهرتُ بكل رأيي كما يغضب ابناء مذهبك او تريد ان اسكت . فقال لالا تكلمي ياسيدتي . فقالت استير انني اؤمن

بالمسيح يا كيريه ايليا ولكنني اؤمن بالمسيح الحقيقي الذي لم يأت بعد ولا بد ان يأتي

فنظر ايليا حينئذ ضاحكاً الى تينك الشفتين الورديتين اللتين كان يخرج منهما هذا التجديف على الاسم الذي يفديه بدمه . وقال في نفسه : لو خرج هذا التجديف من شفتين غير هاتين الشفتين لعضضتهما وقطعتهما باسناني . لانني اذا كنت ابحث في الكائنات والفلسفات بحثاً عقلياً مجرداً عن كل تقليد فانني اضع دائماً فوق كل بحث وكل علم اسم الذي مس يوماً باصبعه الالهية صورة الكمال السماوية فكان مثالاً لها في هذه الحياة المملوءة بالصغائر والنقائص والشرور

فبعد ان فكر ايليا هنيهة اجاب : يا ايتها السيدة أأنت اسرائيلية ام لا . فقالت استير نعم اسرائيلية . فقال الا تعتقدين بصحة التوراة . فاجابت استير بلا شك اعتقد بها . فقال ايليا . فالتوراة كتابك المقدس يشهد ان المسيح قد اتى

فهمت استير ان تجاوبه فابتدرها ايليا بقوله . دعيني اكمل اولاً وبعد ذلك قولي ما تشائين . اسمعي يا استير . هل قرأت الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين . اسمعي ماذا يتنبأ يعقوب لابنه يهوذا . قال « يهوذا اياك يحمد اخوتك . يدك على قفا اعدائك . يسجد لك بنو ابيك — لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون » اي المسيح لان هذا احد اسمائه . فيا استير ان قضيب الملك قد زال من يهوذا وتفرقت مملكته ايدي سبا . وهذا يدل على ان « شيلون » قد اتى

فهمت استير ان تجاوبه ثانية فصاح ايليا : دعيني اكمل اولاً . ماقولك يا استير بنبوءة اشعيا في اصحاحه السابع . اسمعي ماذا يقول « يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الذي تفسيره الله معنا) فيا استير ان العذراء قد حبلت وولدت في بيت لحم الصبي المنتظر طبقاً لقول ميخا النبي في الاصحاح الخامس حيث يقول « اما انت يا بيت لحم فانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على اسرائيل . ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل » فيا اختي استير هل من شهادة افصح وابلغ من هذه الشهادات

وكانت استير قد بدأت ترتعد من غضبها وتأثرها خصوصاً لان ايليا لم يكن يترك لها سبيلاً للجواب . فتأثر ايليا اشد تأثر لذلك فقال : يا اختي سكني روعك ولا تخافي من الحقيقة اذا لمستها اصبعك . ولا يسوءنك تأثرك الآن اذ ما هذا العناء بالقياس على العذاب الذي لقيه غيرك . اسمعي ماذا قال اشعيا في الاصحاح الثالث والخمسين عن عذاب « شيلون » « محتقر ومخذول من الناس . رجل اوجاع ومختبر الحزن وكمستر عنه وجوهنا . محتقر فلم

نعتدّ به » الم يكن يسوع هكذا يا اختي. ثم انه يقول « ليس مبغضي تعظم عليّ فاختبيء منه بل انت انسان عديلي . الفي . وصديقي الذي معه كانت تحلو لنا العشرة » فلماذا يا اختي صنع قومك هكذا مع صديقه وصدّيقه . اسمعي ايضاً نبوءة النبي داود في مزموره الثاني والعشرين « احاطت بي ..... (عذراً فلا اذكر هنا الكلمة يا اختي لئلا تسوءك) جماعة من الاشرار اكتنفتني . ثقبوا يدي ورجليّ . أحصي كل عظامي . وهم ينظرون ويتفرّسون فيّ . يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون » — افما تمّ كل هذا يا اختي بصلب شيلون . وكيف نستطيع انكار مجيئه بدون مناقضة التوراة كتابك

وكانت استير تبكي في اثناء هذا الكلام وتعضّ شفتيها من شدة تأثرها . فلما فرغ ايليا من كلامه صاحت من صميم قلبها : يا كيريه ايليا لقد ظلمتني . فانك انتَ تقول كل شيء وانا لا اقدر ان اقول كل شيء . وهذا سبب شدة تأثري وبكائي . فانا اكتفي اذاً بشيء واحد . انكم تظنون ان نبوءات التوراة تنطبق على يسوع الناصري ولكن رجال ديننا يقولون انها لا تنطبق عليه . وحسبي ان اذكر لك نبوءة واحدة دليلها فيّ الآن . ان رئيسنا وملكنا داود قال في مزموره الثاني والسبعين متنبئاً عن زمن المسيح « يشرق في ايامه الصدّيق وكثرة السلامة الى ان يضمحلّ القمر » اي الى نهاية العالم . فهل الصدّيق هو المنتصر في العالم الآن . واين هذه السلامة الموعودة . انظر فانني انا ابكي امامك الآن واضطرب كريشة في مهب الريح . ثم ان يوئيل النبي يقول في اصحاحه الثاني « ويكون بعد ذلك — اي بعد سعادة اسرائيل بمسيحه — اني اسكب روحي على كل بشر » فهل روح الله الآن في اولئك الذين يضطهدون ويظلمون ويملأون الدنيا بالشرور . وقال ميخا في اصحاحه الرابع مشيراً الى المسيح « يقضي بين شعوب كثيرين . ينصف لامم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل . لا ترفع امة على امة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » فيا صديقي ايليا هل جرى شيء من هذا الى الآن لتقول بمجيء المسيح . انظر ان السيف والنار ياكلان العباد والبلاد في كل الجهات . وهوذا اورشليم نفسها محصورة الان بنطاق من الرماح والسيوف . وقال اشعيا في الاصحاح الستين والخامس والستين مخاطباً اورشليم بعد مجيء مسيحها « لا يُسمع بعد ظلمٌ في ارضكِ . ولا خراب او سحق في تخومك . بل تسمين اسوارك خلاصاً وابوابك تسبيحاً — الذئب والحمل يرعيان معاً والاسد ياكل التبن كالبقر . اما الحية فالتراب طعامها . لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي » — فيا اخي ايليا هل تمّ هذا كله . هل ساد السلام في الارض بين البشر والحيوانات كما تنبأ اشعيا ليجوز

لك ان تقول بمجيء ملك السلام · ماذا تجيب عن هذا

فعجب ايليا في نفسه من اخراج استير الموضوع عن محوره الاول ومهاجمتها له بدل الدفاع · فتأمل هنيهة ثم اجاب : اذاً انت لستِ باسرائيلية يا اختي ؟ فصاحت استير وقد تركت البكاء كيف ذلك · فقال ايليا لانك لو كنتِ اسرائيلية لكنتِ تؤمنين بالله تعالى خالق هذا الكون ومدبّره · فصاحت استير كلبوة جُرحت : بلا شك انا اؤمن بالهنا واله آبائنا واجدادنا · فقال ايليا حينئذٍ : فكيف تؤمنين بوجود الله يا اختي ولا تؤمنين باعماله · اتظنين انه يقوم شيء في الارض ويعمّ الدنيا كلها بدون ارادته · دعينا من النظر في الكتب فان كل فريق منا يؤولها تأويلاً ينطبق على مذهبه ومصلحته ولننظر في الاشياء بعقولنا فقط · الا يجب ان تعتبري انتصار المسيحية في الارض وتغلّبها على الاديان القديمة وعقول ملايين البشر دليلاً على انها من افعال الله تعالى · فهذا برهان واقعي بسيط على ان تأويلي للتوراة اصح من تأويلك · ولا ينقض هذا البرهان الا القول بان الله لا يدبّر شؤون الكون بل ليس هو بموجود اصلاً وهذا الامر اجلّك عن ان تقولي به او تفكري فيه · يا اختي كلنا عباد الله ولا تسقط شعرة في نظام الكون ومسير الدنيا بدون ارادته · ومتى اعتقدنا هذا الاعتقاد ثبت لنا ان انهدام اوروشليمكم القديمة وقيام اوروشليمنا الجديدة كان بارادة الله وفعله لانه رأى ذلك افضل لنظام الدنيا · فيجب علينا اذاً ان نسلّم لارادة الله ونعترف بافعاله · ولا نعارض في احكامه

فعند هذا الكلام تحول ضعف استير الى قوة وغيظ فنظرت الى ايليا بعينين ثائرتين وصاحت :

يا كبريه ايليا لا تتهدّدونا بالهنا وربنا · فانه لم يُسقطنا الاّ لينهضنا · اسمع قول هوشع النبي في اصحاحه الثالث « لان بني اسرائيل سيقعدون اياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا افود وترافيم · وبعد ذلك يعود بنو اسرائيل ويطلبون الرب الههم وداود ملكهم ويفزعون الى الرب والى وجوده في آخر الايام » ونحن الآن بلا ملك لان مملكتنا زالت وبلا ذبيحة لان هيكلنا قد هُدم ولكن سنعيد مملكتنا وهيكلنا طبقاً لوعد الهنا · نعم ان الله يستحيل ان يترك شعبه · واذا تركه حيناً فما ذلك الا لتأديبه · وقد كفانا يا الهنا هذا التاديب الهائل · لقد اخذوا بلادنا وسلبونا ارثنا واقتسموا كل مالنا · حتى انت نفسك صاروا يدعونك الههم لا الهنا · وبذلك اصبحنا غرباء ضعفاء في الارض التي عاهدتَ نفسك على اعطائنا اياها لنا ولاولادنا · انظر الينا اننا متشتتون في جميع اقطارها

كالسلك المنشور . اولادنا يبكون وآباؤنا يحزنون وبناتنا يلبسن السواد لانك نصرت الاعداء علينا . ولا نكاد نجد لدى هذه الامم القاسية ملجئاً ناوي اليه براحة وسلام مع عيالنا ولا حجراً نضع عليه رؤوسنا . اسمع كيف يتهكمون علينا ويضحكون منا . يقولون انك اقمت اسرائيلاً جديداً بدل اسرائيل القديم . ولكن هل انت قاسٍ الى هذا الحد لتهمل القديم بعد اقامتك الجديد . لماذا لم ترشد القديم الى هذا الجديد اذا كانوا صادقين في ما يقولون . وبناء على هذا اردُّ اليك يا ايها الفتى ايليا الكريم سهام برهانك قائلة : لا يمكن ان يكون الله هو الذي هداكم لانه لا يمكن ان يضلنا

اما ايليا فلما سمع هذا الكلام اثر فيه اشد تاثير وخيّل له انه يسمع صوت امة باسرها ينادي هذا النداء . فعلم انه يستحيل عليه بعد كل ما بذله من الجهد ان يُقنع الفتاة من طريق الكتب والدين ما دام كل واحد يرى الامور بعين تختلف عن عين الآخر . فترك ايليا الكتب والدين جانباً ورام البحث من وجه آخر . وقد قال في نفسه ان استير اذا تحركت احشاؤُها وتأثرت من هذا الوجه فانها تكون كانها صعدت اول درجة من درجات الايمان ولذلك قال للفتاة وهي في اشد اضطراب

يا اختي استير انني اندب معك حالة قومك . وآسف للاضطهاد الجائر الذي يصيبهم من عدوان الناس وبغضهم . وكوني على ثقة من ان المسيحيين الذين يصنعون هذا يخرجون عن حدود المسيحية لان المسيحية انما هي حب الاعداء ومباركة المبغضين . ولكنّ اشتراكي هذا معك لا يمنعني يا اختي من تذكيرك بامرٍ جدير بالذكر في هذا الموضوع . وهو ان الذي داس الحق في زمانه لا تؤثر كثيراً في النفوس شكواه من دوس الناس حقه . ولنضرب لذلك مثلاً

لنفترض ان العامة في ليلة عيد الميلاد في بيت لحم وجدت فتاة يهودية تُدعى استير فثارت تصوراتها وطلبت اما تنصير الفتاة او قتلها لانها خالفت اوامر الحكومة بالدخول الى بيت المقدس . فارسلت الفتاة الى دير على جبل الزيتون لاقناعها بجحود دينها . فرفضت ذلك رفضاً قطعياً وفضلت الموت على ترك دين آبائها . فقام اولو الامر وصلبوها على خشبة واهانوها وقتلوها . ثم بعد الوف سنين صارت اوروشليم الى اليهود وقام محل الدير المسيحي في جبل الزيتون معبد يهودي كان اليهود يصلبون فيه الفتيات المسيحيات اللواتي يأبين جحود دياناتهن . فاي تاثير يكون في النفوس لكلام المسيحيين اذا كانوا يقولون يومئذ ان اليهود برابرة لانهم يصلبون الفتيات المسيحيات . الا يردّ حينئذ اليهود عليهم بقولهم اننا تعلمنا هذه البربرة منكم

فهمت استير ان تجاوب ايليا فصاح ايليا : دعيني اكمل اولاً وبعد ذلك تقولين ما تشائين . فيا استير لو صلبوك — لا سمح الله — في دير العذراء فماذا كان يقول اهالك وقومك . انظري انني لا ابحث هنا في مسألتنا من وجه ديني قطعياً بل انني اضع الدين والتوراة والانجيل جانباً واسالك كفتاة رقيقة القلب تبغض الشر والقسوة والظلم . فاجيبيني . اي ذنب جناه المصلوب الذي سفك دمه اجدادك . . . . اسمعي ولا تقطعي حديثي فانني اعرف اعتراضاتك . انك تقولين انه خان وطنك وجدّف على دينك ورام هدم هيكلك . ولكن كل هذا لا ابالي به ولا يلتفت اليه اليوم احد . وانما يجب ان نسأل من كان المحق والمحقوق في تلك الحادثة الهائلة . فصاحب الحق وحده هو الذي يجب ان يعطى الحق بقطع النظر عن كل شيء

واسمعي من كان صاحب الحق في هذه الحادثة — ما ذا كان يقول المصلوب ? — اليك خلاصة مطاليبه يا اختي بصرف النظر عن المسألة الدينية فانني لا انظر معك هنا الآن الا في ناسوته نظرًا بشريًا

جاء ابن الانسان يا اختي من دم يهودي . فنظر قومه وشعبه شاردين عن كتابهم . ان كتابكم التوراة يا اختي مفعم بمبادىء العدالة والرفق والصدق والمساواة والحكمة . ولكن هذه المبادىء كانت لا تتعدى الكتاب . اي انه لم يكن منها شيء في النفوس . فالكهنة ألفوا في الامة طبقة ممتازة لها السيادة والقوة والثروة والجاه . وكان الشعب تحتهم يئن من الفقر والذل والضيق وهو ينظر شزرًا الى الاغنياء والعظماء لان غناهم وعظمتهم مخالفان لمبادىء المساواة الاجتماعية المعلنة في التوراة . وكأنّ هذا الخلل الاجتماعي لم يكن كافياً وحده لعذاب الشعب المسكين فجاء مقروناً بخلل ديني ايضاً فوضعوا ان العبادة الحقيقية لا تكون الاّ في هيكل اورشليم . اي انهم جعلوا بين نفوس البشر وبين خالقها تعالى حاجزًا عظيماً لا يرفعه الاّ الكهنة خدَمة ذلك الهيكل . ولا عجب في ذلك لانّ دخل الهيكل كان المورد العظيم لرزقهم وثروتهم . ثم استطردوا من تقييد الدين بالمكان الى تقييده بالجنس . فقالوا ان كل الامم كلاب ولا انسانية الاّ في شعب اسرائيل . ولذلك كانوا يعتبرون باقي الناس نجسين لا يجوز لليهود معاشرتهم ولا الاحسان اليهم . وبما ان العبادة قد تقيّدت بالمكان والجنس لزم ان يجرّ هذا القيد قيودًا اخرى ومن هنا بدأوا يدخلون على دين موسى ما ليس منه في شيء . فاصبحت الظواهر الدينية الذي يسهل العمل بها مقدمة على البواطن لصعوبة العمل بها . فصار مثلاً الفريسي يمشي في الشوارع

مغمض العينين لئلا يرى الشر والنساء * ومع ذلك فانه كان يأتي في السر اكثر ضروب الشر . واذا كانت جبهته تدمى احياناً من لطمه جداراً في طريقه * لمشيه مطبق العينين فان كثيرين من الناس كانت قلوبهم دامية من اساءآته وقسوة قلبه وسوء معاملته . وهكذا الصائم ايضاً فانه كان اذا صام عدَّ عمله فضيلة وان كان ينقض بافعاله ومعاملاته كل اصول الفضائل . وهكذا حافظ السبت وهلمَّ جرّاً

فماذا فعل ابن الانسان يا اختي لدى هذه الامور الجافة الباردة . هل اعترض على الدين . كلا . انه قال « ما جئتُ لانقضَ بل لاكمل » وانما نفسه اللطيفة كانت لا تستطيع قبول هذا الخروج عن الشرائع الالهية الابدية . لذلك نادى ان العشّار الغريب المنبوذ افضل من الكاهن الفريسي اذا هو استقبل الله بقلب نقي . والسامريّ المضطَهَد المحتَقر افضل من اليهودي اذا هو اغاث غريباً جريحاً على طريق اريحا ولم يغثه اليهودي . وبذلك وضع اساس الاخاء والمحبة بين جميع اجناس البشر على الاطلاق هادماً الحواجز الاجتماعية الموضوعة بينهم وجاعلاً مقياس الفضل والصلاح ومحبة القريب صنعَ الخير المجرَّد لاي انسان كان . ولما قالت له المرأة السامرية على بئر شكيم (نابلس) ان اليهود يقولون ان الصلاة لا تجوز الا في اورشليم صاح بها قائلاً : « ايتها المرأة قد جاءت الساعة التي فيها يُعبد الله في كل مكان بالحق والروح » اي ان كل انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . وعبادته يجب ان تكون في كل مكان « بالحق والروح » اي بطهارة القلب دون شعوذة لربح المال ودون ظواهر مادية محسوسة . فيا اختي ان هذه العبارة وحدها هدمت العالَم القديم لتنشىء عالماً جديداً . ووا اسفاه ليت العالم الجديد يبقى متمسكاً بها

فمن ذلك يا اختي استير تفهمين السبب العظيم الذي من اجله ثار قومك على ابن الانسان . فانَّ البشر لا يؤلمهم شيء مثل التعرض لمصالحهم وكبريائهم للاضرار بها . وهم اول ما يشعرون بالضرر والألم يتسترون بالدين وينادون بان تلك المبادىء التي تضرُّ مصالحهم تضرُّ الدين وتهدمه . وهذا ما جرى يومئذ . فانه لما قويت سلطة ابن الانسان على الشعب ورأى الكهنة والفريسيون ان تلك المبادىء الجديدة ستهدم مبادئهم ومصالحهم اذا استمروا ساكتين عنها قاموا يفترون على صاحبها بخيانة الملة والامة والتجديف على الدين . ولكي يتمكنوا من بلوغ اربهم منه كذبوا عليه لدى والي الرومان بيلاطس بانه يقول انه « ملك اليهود وهم لا يريدون ملكاً غير قيصر » فيا اختي هل رأيتِ في زمانك قط ظلماً كهذا الظلم ورياءً كهذا الرياء . ان قومك كانوا يكرهون الرومان

وقيصر كل الكراهة ويطلبون الى الله ان يخلع عنهم نيره ومع ذلك لم يأنفوا من تسليم واحد منهم للصلب بحجة انه يقاوم قيصر مع انه هو القائل لمن استفتاه في طاعة قيصر « اعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر »

وماذا فعل ابن الانسان يا اختي عند ما راى كل هذا الافتراء والظلم والرياء . اسمعي ماذا فعل . انه لم يغضب ولم يحقد . وفي ليلة صلبه جمع تلامذته وودّعهم وغسل اقدامهم وفي جملتها قدما جاحده وعدوه يهوذا الذي اسلمه . ولما قبضوا عليه للصلب لطموه على خده وبصقوا في وجهه ووقفوا حوله يعرضونه للناس ويستهزئون به . ومع كل ذلك بقي ساكتاً هادئاً ثم اخذوه خارج المدينة وهناك صلبوه بين لصين فسمروا يديه ورجليه واقتسموا ثيابه واجتمعوا حوله يضحكون منه . وكان قد تركه كل الناس حتى تلامذته الا النساء يا اختي فانهنّ مثال الرقة والحنان ومعرفة الجميل . ومع هذا وهذا بقي المصلوب يا اختي ساكتاً هادئاً . وهل تعلمين يا اختي اول كلمة قالها على الصليب بعد ذلك ؟ هي هذه مخاطباً الخالق « يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يصنعون » يا اختي انظري الى دموعي . فلقد مضت على هذه الحادثة اكثر من ستمائة سنة وقرأتها اكثر من ستمائة مرة ومع ذلك فانني ابكي لدى ذكرها لك الآن بكاء يفتت كبدي . ويا ما ارق قلبك يا اختي واشرف عواطفك . انني اجثو الآن باحترام لدى هذه الدموع التي اراها نازلة من عينيك لانها دليل على طهارة الانسانية في داخلك . نعم يا اختي ان كل انسان فيه ذرة من طينة الانسانية الطاهرة يتألم لهذه الحادثة التي انتصر فيها الباطل وخُذل الحق بصرف النظر عن كل مسالة دينية . والانسان الذي يتالم لها لا يتالم فقط شفقة على عذاب الصدّيق بل لمصلحة نفسه ايضاً . اننا في الارض يا اختي كلنا عرضة لاعتداء الظالمين والاشرار والمفترين . فواجب علينا ان يكون لنا مبداء يحمينا من الظلم والافتراء لنتمسك به في ظلمات هذه الحياة تمسك الغريق بخشبة في البحر . وهذا المبداء هو (العدالة) — العدالة المطلقة لكل انسان كبيراً او صغيراً قوياً او ضعيفاً مؤمناً او وثنياً اذ بفقدان العدالة المطلقة تفقد الحياة اساسها واثمن ما فيها . وكل واحد من الناس يصير حينئذ في خوف على نفسه لئلا تجعله التقادير المظلوم الذي لا بدّ من ظلمه لمصلحة طائفة او امة او دولة . وهذا ما يسمونه « بمصلحة الدولة » (١) وبهذا المبداء يا اختي صُلب الصديق اذ قال قومك في مجمعهم يوم قرروا صلبه « خير ان يموت واحد من ان تموت الامة » فيا اختي فلننبذنّ هذه القاعدة القبيحة التي تحتجّ بها

(١) Raison d, état

كل امة او حكومة تريد الخروج عن جادة الحق . ولنتمسك بالعدالة المطلقة كما تقدم . فان التمسك بالعدالة المطلقة هو الذي يجيز الآن مثلاً لك ولقومك ان تحتجوا على ظلم المسيحيين لكم حتى لو كان في هذا الظلم مصلحة كل الامم المسيحية . ولكن هذا التمسك بالعدالة المطلقة يوجب يا اختي الاعتراف بالجناية الهائلة التي حصلت على الجلجلة . وبدونه يكون كل تظلم رياء وكلاماً فارغاً ذاهباً في الهواء . فان الحق حق لا يتجزاء . وسواء في ذلك لدى العدالة المطلقة حق فردٍ او حق امة . فيا اختي فلنعترف بالجناية الهائلة التي حصلت . لنجثُ كلانا معاً امام الصليب لانه رمز ابدي لا يفنى الى « الحق » الذي يجب ان لا يُداس في العالم واذا داسه احد فانه ينتصر ابداً . لنضع شفاهنا على نقط الدم التي جرت عليه لنمحوها بالقبلات والدموع . لنبكِ بحزن واُلم امام الذي تحمّل الآلام بصبر الهي بلا ضعف ولا شكوى . ولذلك قيل فيه « اذا كان موت سقراط موت رجل حكيم فموت يسوع كان موت اله » (١) وفي الحقيقة يا اختي اي بشر يستطيع تحمّل ما تحمله يسوع بقوة كقوته . اي انسان وصلت فيه الانسانية الى هذا الحد من الكمال الالهي . استير استير . هنا ارى يد الله ظاهرة كالشمس . هنا أرى الارض تتوارى مدهوشة لان اشياءها واشخاصها لا تستطيع ان تصل الى هذا الحد من الكمال . فاذا انكرنا هذا المثال الالهي الذي شاء الله اعطاءه للارض الناقصة التعيسة زعزعنا الكرة الارضية كلها . لانه بنفس العقل الذي يُنكر به هذا المثال يُنكر كل ما في الارض من السماء . تُنكر التوراة حينئذٍ ويقال عنها انها اساطير قديمة جُمعت في ازمنة مختلفة بناء على شريعة منسوبة لموسى مع ان موسى لم يكن له وجود في العالم كما يقول كثيرون من اكابر العلماء (٢) تُنكر نبوءات اشعيا ودانيال وغيرهما في مجيء المسيح لانهم يقولون انها صُنفت تصنيفاً لعدم وجود رجلين باسم اشعيا ودانيال في الارض قط وان تلك النبوءات ليست الا هذر وهذيان شيوخ كانوا مغتاظين من البابليين الذين اسروهم وسبوهم الى بابل ولذلك كانوا يعللون نفوسهم في احلامهم وضيقهم بمنقذ يعيد مملكتهم اليهم . تُنكر ايضاً حينئذ كل ما في الارض من آثار العناية الالهية يا استير ونصير كلنا في ظلام ابدي . فما الداعي الى كل هذه الخسارة يا اختي . وماذا نربح في مقابلتها . لا شيء . اذاً فلنعترف بقدرة الله على كل شيء . فلنعترف بافعاله الظاهرة في مخلوقاته . فليعترف كل فريق منا بفضائل ومزايا الفريق الآخر . انني يا اختي احب قومك حباً شديداً واعرف فضلهم على

(١) قول لجان جاك روسو في كتابه اميل

(٢) اسم موسى في الانسكلوبيذية الفرنسوية

العالم . فهم الذين كانوا مهد الدين والوحدانية . هم الذين كانوا اول من بذروا في الارض مبادئ المساواة الاجتماعية والعدل والعبادة النقيّة المنزّهة عن عبادة الامور الحسية . وتاريخهم تاريخ الصلة الاولى بين الله والناس . ولكن هذا الاعتراف يا استير يجب ان يكون كاملاً . وكماله ان نعترف ايضاً بالسيئات بعد اعترافنا بالحسنات . فنقول ان شريعة قومك بعد التحول الجديد الذي طرأ عليها كما وصفته لك لم تعد بكافية للانسانية . لان ارتقاء الانسانية كان يستوجب شريعة ارقى منها . ولذلك جاءت الشريعة المسيحية بآدابها النقيّة وقداستها السماوية . فتشي وابحثي يا اختي اين تجدين في الكتب القديمة مبادئ كالمبادئ الانجيلية انظري يا عزيزتي ان المعطلين والوثنيين انفسهم ينحنون باحترام امام هذه المبادئ بصرف النظر عن المسائل الدينية لانها ارقى صورة للكمال في هذا العالم . وكثيرون من قومك العقلاء المنصفين يعترفون بذلك . واؤكد لكِ انني سمعتُ ذلك منهم باذني . ولا تقولي ان تلك المبادئ مستمدّة من التوراة فانّ المنصفين (١) الذين يطلبون الحقيقة المجرّدة دون انتصار لحزب دون حزب يثبتون انها منقطعة عما قبلها انقطاعاً حقيقياً . ومتى ثبت هذا فقد ثبت الحق في جانب واضعها والمحقوقية في جانب الذين اضطهدوه من اجلها

فيا اختي استير . فلنضع كل جدال ديني جانباً . لنترك المماحكات التي لا فائدة فيها لبشر بعقول قاصرة محدودة كعقولنا . انتِ يهودية وانا مسيحي . ولكن لا انتِ يمنعك دينك ان تعترفي بالحق ولا انا يمنعني ديني ان اعترف به . والاَّ فان الاديان تكون اديان فساد لا اديان صلاح وصدق واخاء ومساواة . فانا اعجب بتاريخكم وبشعبكم وبحكمائكم وبقوة نفوس امتكم . ولكن اعجابي هذا سابق لصلب الصدّيق . واما ما بعده فانني آسف لانكم لم تجدوا في نفوسكم وحبكم القديم للصدق والحق والعدل من القوة ما يمكّنكم من الاعتراف بالخطاء الهائل الذي حدث على يدكم . فيا استير اخبريني . ايطاوعك قلبك اللطيف الرقيق بعد الآن ان تخافي من الصليب الذي هو رمز انتصار الحق وانكار الذات والآلام والمصائب الارضية . بالله قولي . ماذا طلبوا منكِ على الطريق لكي تظهري كل ذلك النفار والاباء من طلبهم . طلبوا منكِ ان ترسمي في الهواء على صدرك باشارة يدك شكلاً كشكل هذا الرمز . فلو رسمتِ هذا الشكل لما كان لذلك من معنى لديك سوى هذا « انني اذكر بهذه الاشارة ان الحق لا يُداس في الارض بل ينتصر ابداً » ثم هل علمتِ معنى اليدين الممدودتين اللتين خفتِ منهما في الدير ? معناهما « يا اختي يا بنت دمي ولحمي انني متُّ وانا

«١» في جملتهم الفيلسوف رنان في كتابه تاريخ المسيح

اغفر لكم فاذا لم تشائي الايمان بي فلا اقلّ من التألم لحادثتي » — فيا استير مدي يدك بجرأة الى هاتين اليدين وخذي بها ولا يروعنكِ امرها · هوذا انظري · منذ طفوليتي اعتادت امي ان تعلّق في عنقي صليباً صغيراً ُعلّق اياماً على الصليب الكبير القائم في الجلجلة والذي لا يزال حتى اليوم بختمه كما ختمته الملكة هيلانه ام قسطنطين * (١) فاليك هذا الصليب الصغير لنرى ألا تزالين تخافين منه · خذيه في يدك · نعم هكذا · · انظري اليه بحنو لا بخشونة · · لماذا تبكين يا اختي · هل هذه الدموع للغيظ ام للحنان · اذا كانت للغيظ فرديه اليّ · وان كانت للحنان فبالله ضعيه على شفتيك · · آه ما اشد حنان قلبك وارق عواطفك · · اسمحي لي الآن بعد وضعه على شفتيك ان اقبّله انا ايضاً · · وبذلك لا اقبّله فقط بل اقبّل ايضاً · · · · شفتيك · استير استير انني الآن في اشد حالات الهياج ولم اعد قادراً على ضبط نفسي · فانا اصيح على مسمع منك والله يسمع كلامي ويشهد عليّ : انني احبك احبك · · بحياتك لا تنفري واسمعي · · انني منذ وقع نظري على نظرك سرت في نفسي كهربائية نفسك · · قد كنت مللتُ هذه الحياة الباردة الجافة وسئمتُ كل ما فيها لان كلّ ما فيها صغير دميم خشن دنيء اما الآن بعد أن عرفتك فقد صرتُ اراها جميلة مثلك · نعم ما اطيب العيش وما ارغد الحياة معك · ان كل الاشياء فيها تستمدّ حينئذٍ بهاءها من بهائك · وكل الوانها تصبح حمراء زرقاء بيضاء بلون خدك وعينك وعنقك · واما لون شعرك فلا تستمدّ منه ايامي شيئاً معك · فيا جميلتي ان الله ارسلك اليّ كما ارسلني اليكِ · فلا تتركي الحواجز الصناعية التي يضعها البشر تحول بيني وبينك · يا استير · لا تظني انني قدّمتُ لك كل تلك المقدمة الطويلة لاحوّلك عن مذهبك · كلا يا اختي انني احترم مذهبك وكل مذهب يجد فيه صاحبه راحة وسلاماً وحقاً وفضيلة · وانما قصدتُ ان اعلمك احترام مذاهب غيرك · قصدتُ ان اريكِ انه من المضحك في الحياة ان يأكل الرؤساء الحصرم والمرؤوسون يضرسون · فالرؤساء يضعون الترتيبات والنظامات التي تفرّق بين البشر والبشر يتبعونهم مغمضي العيون كعميان يقادون الى حيث لا يعلمون · فما لنا ولهم يا استير فلندعهم في اعمالهم ومصالحهم ولنعمل نحن ايضاً ما فيه مصلحتنا · لنضع اديان البشر جانباً في مكان مقدّس محترَم ولنجتمع على دين جديد يقبل كل الاديان الفاضلة ولا يرفض احدها · وهذا الدين هو دين العدالة التي تقدّم ذكرها والحق والمحبة والصفح للجميع (٢) · ونحن الصغار المرؤوسون المظلومون بهذه الحياة في اشد حاجة الى اقامة

« ١ درابيرون « ٢ هنا يظهر في كلام ايليا اثر تعليم الراهب كما ورد في ختام خطبته على الجبل

« الحق والعدالة والمحبة » مقام كل شيء . فيا استير ضعي يدي في يدك لنعيش بسلام في هذه الارض على هذا الدين الجديد الذي تُحترم فيه كل الاديان . فانتِ تحترمين مذهبي كما أَحترم انا مذهبك ونترك الزمان يفعل فعله . واذا اقتضت الحال عرض مسأَلتنا على البطريرك فلا اطلب منك شيئاً اكثر من تقبيل هذا الصليب الصغير امامه كما قبلتهِ الآن امامي »

هذا ما خاطب به ايليا استير لدى قبر الراهب ميخائيل . وكانت استير مصغية اليه اشد اصغاء في اثناء كلامه . وان القلم ليعجز عن وصف ما قام حينئذٍ في نفسها

الفصل الثالث عشر

﴿ حلم استير ﴾

في ان للتجاذيب قلوباً تتحرك ايضاً

ولما رجعت استير من سياحتها في المزرعة مع ايليا كانت صفراء اللون بعد الاحمرار مبهوتة تفكّر كثيراً وتتنهد كثيراً . وفي تلك الليلة لم تتناول طعاماً ولا نطقت بكلمة . وكان الشيخ سليمان يعجب من هذه الحالة ولكنَّ ايليا كان يراقبها مراقبة شديدة ليعلم ما وراءها لانه كان على ثقة من انها نتيجة حديثه معها

فكأَنَّ هذا الحديث هدم الحواجز التي كانت في نفسها فاشتغلت هذه النفس بالخرائب التي حصلت فيها . وهذا شأْن الهدم اذا لم يُقرن بالبناء . وقلّما يُبنى على انقاض الاخربة المهدومة

ولما هبط الظلام استأْذنت استير في الدخول الى غرفتها للنوم طلباً للراحة . وقبل ان دخلت اليها أَلقت في خلال كآبتها وانقباضها نظرة الى ايليا وابتسمت له . فطار صواب ايليا لهذا الابتسام الملائكي وقال في نفسه لعله جواب ايجابيٌّ عما تقدَّم

واتفق ان غرفة ايليا كانت بجانب غرفة استير . فلما مضى الهزيع الاول من الليل دخل ايليا الى غرفته ايضاً . وبعد ان خلع ملابسه ورقد في فراشه سمع تقلُّب استير في فراشها في غرفتها . فعلم انها لم ترقد بعد . فبقي ايليا ساهراً في فراشه لا يزور الكرى جفنيه حتى سكنت حركات استير ورقدت . وكان ذلك بعد منتصف الليل . فالوى ايليا حينئذٍ رأْسه على وسادته وتنهّد تنهداً من صميم قلبه ثم استسلم الى الكرى فطارت روحه الى عالم الاحلام لتلتقي بروح استير التي سبقتها اليه

وكانت عين ايليا آخر عين رقدت في المزرعة في تلك الليلة

الا ان عيناً اخرى من غير المزرعة كانت حينئذ في ظلمة الليلة ترصد المزرعة من خارج وتحوم حولها كما يحوم النسر على الفريسة . ولذلك لم تمر نصف ساعة بعد منتصف الليل حتى كان شبح يتسلّق جدار المزرعة ويهبط اليها

وكأنّ هذا الشبح كان يطلب في المزرعة غرضاً معلوماً لانه لم يهبط الى ارضها حتى سار متلصصاً نحو غرفة استير ووقف على نافذتها المشرفة على فناء المزرعة

وهناك بقي جامداً هامداً يصغي بكل جوانحه

لكن هذا الشبح لم يكد يستقر في مكانه وراء النافذة حتى علا من غرفة استير صراخ وبكاء . فاجفل الشبح وصار ينظر حوله خوفاً من ان يفاجئه احد . ثم اشتدّ البكاء مقروناً بزفير وشهيق متصلين . فيظهر ان ايليا انتبه على صوت بكاء استير فهبّ من رقاده مهرولاً وخرج من باب غرف المزرعة قاصداً نافذة استير الخارجية ليتنصت عليها . فما كاد يصل الى النافذة حتى لمح الشبح الاول الذي كان واقفاً هناك

وكانت زوبعة امس قد سكنت والريح هادئة والظلام دامس . فهجم ايليا بشجاعة نحو الشبح ولا سلاح في يده غير قبضته . ولما وصل اليه اخذ بيديه اخذاً شديداً وصاح به . من انت (١) فضحك حينئذ الشبح ضحكاً شديداً واجاب : اما عرفتني يا كيريه ايليا . فحينئذ عبس ايليا واجاب : وماذا تصنع هنا يا ارميا

اما ارميا وهو عين الشبح المذكور فانه زاد ضحكاً واجاب : انا اصنع كما تصنع انت . فغضب ايليا حينئذٍ وقال : يا ارميا ان نزولك الى المزرعة تحت جنح الدجى أمر غير حسن . ثم تركه ايليا ودخل فايقظ الشيخ سليمان واخبره ببكاء استير في الليل ووجود ارميا في المزرعة

اما الشيخ سليمان فلم يبالِ بهبوط ارميا الى المزرعة في تلك الليلة لان ايليا لم يوقفه على سبب ذلك . ولهذا لم يهتمّ الا بامر استير . فذهب في الحال ونبه بناته . وبعد ثلاث دقائق اجتمعوا في غرفة استير يؤانسونها

اما استير فانها لما وقع نظرها على ايليا زاد بكاؤها حتى كاد يُغمى عليها . وكان ارميا من خارج يسمع صوتها . فقال في نفسه : اذا لم تكن ذلك الليلة فغداً

«١» قال روسو في كتابه «اميل» اذا تعرّض لك في ظلام الليل الدامس شخص على حين فجاءة فاول ما يجب عليك دفاعاً عن نفسك ان تقبض عليه من جانب يديه وان تضغط عليه بكل قوتك وتسأله من هو وماذا يريد ولا تتركه الاّ بعد طمأنينة نفسك

ولما سألت البنات استير عن سبب بكائها اجابتهن انه حلم مريع . ولكنها لم تقص لهن شيئاً من هذا الحلم . وفي الحقيقة انه كان مؤثراً . فان استير لم تكد ترقد حتى رأت نفسها في كنيسة جاثية امام الصليب وهي تقول « انني اكفر يا سيدي عن جناية امتي » لكنها لم تلبث ان رات امها العجوز المقعدة قد دخلت الى الكنيسة ركضاً لانها كانت تفتش عنها . واذ أبصرتها صاحت بها « أهكذا تتركينا يا استير . اهذه ثمرة اتعابنا فيكِ » فانتبهت استير مذعورة مرتعدة واندفعت تبكي بكاء شديداً دون ان تمالك نفسها كما يحدث كثيراً للذين يرون احلاماً مؤلمة

وكانت حينئذٍ قد دخلت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبينما كان الفتيات يسكنّ روع استير في داخل الغرفة جاء ارميا وطلب الانفراد بايليا . فخرج اليه ايليا عابساً ، فاخذه ارميا الى جانب في ساحة المزرعة وابتداء الحديث بقوله : يا كيريه ايليا على اي شيء عزمت الآن . فدهش ايليا واجاب اي شيء تريد . فقال ارميا المعتوه انت تعلم ان الصيد لمن صاده . وانا وانت قد اصطدنا صيداً فلماذا تنفرد به انت وحدك . فحمق ايليا وصاح به ما معنى كلامك هذا . فضحك ارميا ضحكة شديدة واجاب : انظرت يا كيريه ايليا . انه لا يغضب الا المخطئ . واما الذي يكون ذا حق مثلي فانه يكون هادئاً دائماً . واسمع لافسر لك كلامي . يا كيريه ايليا . ضع يدك على صدري فتعلم ان لي قلباً مثل قلبك . وهو يتحرك ايضاً كما يتحرك قلبك . فانا احب كما انت تحب . واول ما وقع نظري على هذه الفتاة الوثنية احببتها من صميم قلبي . وصرت ارى من واجباتي هدايتها الى الايمان الحقيقي . ثم لما اصطدناها معاً على الطريق ليلة امس صار لي حق فيها . وانت ايضاً لك فيها حق لا ينكر . فماذا تريد الآن هل تبيعني حقك ام تشتري حقي

فعند هذا الكلام تحوّل غضب ايليا الى ضحك رغماً عنه ولكنه بقي يظهر الجدّ فقال ومن اخبرك انني احبها ثم ما هي طريقة هذا البيع والشراء

فقهقه ارميا واجاب : اما حبك فقد عرفته . واما البيع والشراء فله ثلاث طرق . الاولى ان نقترع على الفتاة فالذي يربحها تكون له . والثانية ان نتناظر في الدين فالذي يغلب رفيقه تكون من نصيبه . والثالثة ان تكون الفتاة للذي يتنازل للثاني عن وظيفته . فانا وظيفتي حراسة ورثاء اوروشليم على الجبل وانت وظيفتك رئاسة هذه المزرعة . فاما ان تبقى في وظيفتك وتكون الفتاة لي او تأخذ وظيفتي على الجبل تاركاً المزرعة لي فتكون الفتاة لك

فهزَّ ايليا حينئذٍ رأسه وعجب من نفسه لاصغائه لكلام هذا المعتوه . فاجابه باستخفاف ظاهر في وجهه : سنتباحث في هذا ايها النبي ارميا . ثم تركه وعاد الى منازل المزرعة

اما ارميا فانه تامل فيه وهو عائد عنه وقال في نفسه : انك تضحك مني ولكني اقسم بالله انني ساحرمك اياها

وكان الهدوء قد عاد الى المزرعة ودخل كل واحد الى غرفته للرقاد بقيَّة الليل . وكذلك ارميا دخل الى احدى الغرف لينام . ولكنه كان ينام بعين ويسهر بالاخرى وهو يقول في نفسه ضاحكاً ضحك المجاذيب « ان ايليا سيخسر الفتاة من ذات الباب الذي ربحها منه »

الفصل الرابع عشر

الكتاب

في ان عواطف المراة قد تنقلب بغتة وتنفيض دفعة واحدة

وفي صبيحة اليوم التالي استغرق ايليا في الرقاد ولم ينهض باكرًا . الاَّ انَّه وهو في الفراش سمع ضوضاء شديدة وحركة اجتماع . فنهض من فراشه ليستخبر الخبر . فعلم حينئذٍ ما جمَّد دمه في عروقه وجعله يثب عن الارض ذراعاً . وهو ان استير قد فرَّت من المزرعة في الليل وتركت له على مائدتها كتاباً بخط يدها . فصاح ايليا في الحال منادياً : ارميا . فقيل له انه لم يطلع عليه الصباح في المزرعة . فصاح ايليا حينئذٍ لقد فرَّ بها ابن اللئام . ثم عمد الى كتاب استير ففتحه بيد مرتجفة وقلب ملتهب وقرأ فيه ما يأتي

« يا صديقي ايليا

« أرجو منك أنْ تسامحني لتركي المزرعة بدون علمك . واشفق عليَّ لانني في غاية التعاسة . انني لم اعد أُطيق الاقامة في المكان الذي تقيم فيه يا ايليا ولذلك افرُّ منك . فانسني ولا تتذكَّرني بعد الآن . ولا تحاول كشف مكاني فانك لا تعلم به ابداً . ان بيني وبينك هاوية عظيمة . فاذا قطعتها اليك صرتُ تعيسةً لفراقي دين ابائي واجدادي واذا بقيتُ بجانبك بعيدةً عنك كنتُ اشد تعاسةً وعذاباً لانني اخاف ضعفي . فياصديقي ساعدني على نسيانك و بعدي عنك بنسياني و بعدك عني . وبحياة عينيك يا ايليا لا تخالف ارادتي هذه . انا اعلم ما تعانيه لاتباعها ولكن كن على ثقة من ان كل عنائك لا يساوي

شيئاً من العناء والعذاب الذي وجدته حين فراقي هذا المكان . فانني خرجتُ منه باكية . وهوذا يدي ترتجف وانا اكتب لك . وكن مطمئناً من نحوي فانني لم اذهب وحدي بل ان صاحبك الذي تسميه « ارميا » يصحبني . وسيوصلني الى حيث اشاء . الوداع الى الابد . كن سعيداً بعدي يا ايليا وحبّ غيري . اما انا فساذكرك ما عشتُ . لم اكنْ لاظن قبل معرفتك انه يوجد بين البشر الغير الاسرائيليين قومٌ باخلاقك وافكارك . وثق يا ايليا ان سلوكك معي اثّر فيَّ اكثر من خطبتك نعم صرت اعلم اننا نحن البشر كنا اخوان ولكن ما الحيلة بالعادات والتقاليد . ربما كان لي قوة على خرقها لو استسلمتُ الى نفسي ولكنني اذا خرقتها وجاريتك قتلتُ ابي وامي . فانّ روح امي تجلّت لي بالحلم يا ايليا وارجعتني بكلمة واحدة الى الطريق التي حدتُ عنها . وانا لا اخالف امي ولو جنيتُ على نفسي . ولاريب عندي انك بعد هذا القول تثني عليَّ بدل أن تلومني . يا ايليا ان امهاتناهنّ ارواحنا الحقيقية التي خرجنا منها . وقد كوّنّنا وربيننا بالدماء والدموع . فمهما صنعنا ومهما انكرنا ذواتنا من اجلهنّ فاننا لا نفيهنّ الدّين الذي لهنّ علينا . وفضلاً عن ذلك يا ايليا فانك تعلم ان المعتقدات المجبولة بلحم الانسان وعظامه لا تتغيَّر بالوعظ والكلام . فان معتقدي يبقى قائماً في وجه معتقدك الى الابد . فيكون تنغيص عيشك على يدي بدل مسرتك . فدعني اذاً وشأني . اعتبرني كحلم ذهبي مرَّ في مخيلتك في احدى ليالي الصيف المضطربة التي يشتدُّ فيها اضطراب المنفردين . احسبني كعروس الجنّ التي تظهر لبعض البشر في بعض الليالي لتعذبهم بالشوق والوجد . ولكن يا ايليا اغفر لي فانني لم ارد تعذيبك عمداً . والدليل على ذلك انني شريكتك في هذا العذاب . انظر الى هذا السطر فانك تجد فيه اثر دمعة نزلت من عيني وانا اكتب اليك . وكفى ذلك برهاناً على صدق عواطفي من نحوك . نعم يا عزيزي ايليا انني صرتُ ... اميل اليك كما ملتَ لي .. وأخجل ان اقول احبك لان هذه الكلمة تحرق يدي وفمي .. ويخيّل لي انني اذا سطرتها على الورق فانه يلتهب بها ايضاً . ولكن يا عزيزي ما قيمة الحب والميل اذا كان الانسان يضحّي من اجلها « الواجب » والضمير . انه حينئذ يشتري راحة صغيرة بتعب كبير . ولذة خفيفة بالم شديد . فيا ايليا انت تحبني ولكن كن متيقناً انك اذا تركتني وحدتَ من طريقٍ تحسن اليَّ والى نفسك اضعاف حبك لي . فانه حينئذ يجوز لضميرك ان يقول انك لم تكن لي عذاباً واضطهاداً ونقمة دائمة . واذا كانت المسيحية هي ترك الاساءة كما قلتَ فبالله اذكر الآن انك مسيحي ... ايليا ايليا . انني اردتُ ان اطلعك على حقيقة نفسي في هذا الكتاب لتعلم انني لستُ بدون قلب ولا انا بجاحدة

للجميل . فعذرًا عما اصرّح لك به هنا . اسمع . انني اكاد اندم لطلبي منك ان تحيد من طريقي . وها انني اكاد امزّق هذا الكتاب وابقى في المزرعة بجانبك الى ما شاء الله . . ولكن صوت دمي وصوت امي يصيحان دائمًا في اذني . ويخيّل لي انني ارى في هذا الظلام الدامس يد امي تشير الى باب المزرعة تدلني على طريقي . فيا ايليا صفحًا وحلمًا ولا تتبعني . وان تبعتني فانك تقتل نفسك وتقتلني . ذلك انني لا استطيع ان اراكَ بعد الآن الا وانطرح بين يديك . ولكن ثق انني بعد هذا الانطراح اموت في لحظة واحدة . آه انك لم تعرف حب بنات اليهود ولا قوة نفوسهنّ . فهنيئًا لك لانك لا تُبلى بهذه النار الآكلة . فاختر الآن يا عزيزي بين حياتي بعيدة عنك وبين موتي معك . واذا متُّ انا فلا اسف عليَّ لانني لستُ الا فتاة مسكينة خانها دهرها وربط نفسها بنفسٍ لا سبيل لها للاقتران بها . اما انتَ فاحرص على حياتك لانها ثمينة لقومك . وكن في بلادنا التعيسة رسول المبادىء والافكار المعتدلة التي بسطتها فانه متى سادت هذه المبادىء بين قومي وقومك لم يبقَ سبيل لشقاء نفسين كنفسينا

« يا عزيزي ايليا . لا اوصيك الا بشيءٍ واحد وهو ان تذكرني ببشاشة وسرور امام المرأه السعيدة التي ستكون شريكتك في مستقبل حياتك . ومتى اتاك طفل فوصيتي امام الله والناس وصيةً اطالبك بها في اليوم الاخير ان يكون اول ما تعلّمه اياه النطق باسمي . . بل اسمع يا عزيزي . . سمِّ باسم « استير » اول ابنة يرزقك الله اياها . واذا وضعتَ ذلك نصب عينيك . . . فلا ريب عندي في ان الابنة تجيء مثلي . ومن يعلم المستقبل يا عزيزي . . فانني ربما اكون متُّ في ذلك الزمان . وحينئذ يكون الذّ واشهى شيء عند روحي الاتحاد بشيء منك والسكنى في جسم ابنتك

« يا عزيزي ايليا انسني ما استطعتَ . ولكن اذا كنتَ سائرًا بين البساتين في مزرعتك ورأيت يمامة قادمة ترفرف حولك فاعلم انها رسول من قِبلي يحمل اليك تحيتي . واذا نفر من امامك في احد الحقول عصفور جميل وحلّق في الجو مغرّدًا فاعلم انه رقيب مني عليك ارسلته ليجيئني باخبارك . واذا داعبت الريح شعرك في مرورها عليك مطيّبةً فلا تظن ان طيبها ماخوذ من شذا الازهار بل هو مرسل معها اليك من استير عزيزتك . واذا رفّت عينك يومًا فاعلم ان عيني تنظر اليك مع غيبتك . واذا طنّت اذنك يومًا فاعلم انني اتحدث عنك واناجي نفسي بذكرك

« وهذا وحده يدلك يا ايليا على انني لا انساك ابدًا ما بقي لي من الحياة بقية .

فتعزّ ياعزيزي عن فقدي بصدق وثبات عواطفي واندب معي مسرّات البشر وآمالهم الحلوة التي يجترفها تيار الحياة بلا شفقةٍ على الاحياء ولامبالاة بعذاباتهم ليحملها الى هاوية النسيان الهائلة « استير »

حاشية — أرجو منك ان تنثر من قِبَلي في كل يوم شيئاً من الزهر على قبر الراهب ميخائيل

فليتصوَّر القارىء حالة ايليا بعد قراءته هذا الكتاب . اما نحن فنضرب صفحاً عن وصفها وبعد ان ثاب الى ايليا رشده كان اول ما طلبه فرساً مسرجاً . فلما درى بذلك الشيخ سليمان جاءه مستخبراً فاخبره ايليا ان ارميا اختطف الفتاة وذهب بها . فاطرق الشيخ سليمان ثم قال اذهب واخطف روحه . واذا لم تجده تحت الارزة ولا في الدير فابحث عنه في بيت لحم ومغارة الرعاة القريبة منها* فانه يتردد كثيراً الى هناك :

فركب ايليا وسار ينشد ضالَّته . وكان اذا مرَّ بالطرق التي وقف فيها مع استير اول أمس يقف عليها مبهوتاً متذكراً . وما زال سائراً حتى اشرف على كوخ ارميا تحت الارزة فلم يجد فيه احداً . فقصد دير العذراء وسأل خدمته عن ارميا وفتاة معه فاجابوه انهم لم يروا احداً . وكان ايليا يرى من قمة الجبل حركات العرب حول سور المدينة فوقف متحيراً في ماذا يصنع . هل يهبط الى المدينة ويستأذن العرب في الدخول اليها لمقابلة ابي استير وامها وسؤالها عنها ام يذهب الى بيت لحم . لا سيما وانه كان خائفاً على الفتاة من جنون ارميا . ولكنه بينما كان يفكر في هذين الامرين واذا بشرذمة من فرسان العرب هاجمة على الجبل لارتياد ضواحي المدينة وطلب الزاد والميرة منها . فلما ابصرهم ايليا اصفرَّ لونه وجمد على فرسه في مكانه . اما الفرسان فلما رأوا ذلك الفارس على الجبل قصدوه جميعاً . فشاهدهم ايليا يهجمون عليه دون ان يفرَّ من وجوههم فراراً من عار الفرار . فقبض عليه فرسان العرب وارسلوه اسيراً الى قائدهم لظنهم انه رسول او جاسوس . وهكذا اصبح ايليا المسكين في همَّين . همّ استير وهمّ نفسه

الفصل الخامس عشر

حصر بيت المقدس

اقتراح الاسلام او الجزية او السيف قبل الشروع في القتال · استشارة ابي عبيدة في القتال · حديث نساء العرب عن فضائل بيت المقدس · الزحف والشروع في القتال · مقدم ابي عبيدة واضطراب المدينة

فلنترك ايليا الان اسيرًا في خيام العرب ولنعد الى المدينة وحاصريها لنرى ماذا حدث فيها

« اقام جند العرب على بيت المقدس ثلاثة ايام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولاً يأتي اليهم ولا يكلمهم احد من اهلها · الا ان اهل بيت المقدس حصنوا اسوارها بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخر » * (١) « فلما كان اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة (٢) « ايها الامير · كأن هولاء القوم صمٌ فلا يسمعون او بكم فلا ينطقون او عميٌ فلا يبصرون · ازحفوا بنا اليهم · فلما كان اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان اول من ركب من المسلمين من الامراء لسؤال اهل بيت المقدس يزيد بن ابي سفيان (٣) فشهر سلاحه وجعل يدنو من سور المدينة وقد اخذ معه ترجمانًا (يعرف اليونانية والعربية) ليبلغه عنهم ما يقولون · فوقف بازاء السور بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون وقال لترجمانه « قل لهم امير العرب يقول لكم ماذا تقولون في اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهي كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم · وان ابيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو اعظم منكم عدةً واشد منكم · وان ابيتم هاتين الحالتين حلَّ بكم البوار وكان مصيركم الى النار » * فتقدم الترجمان اليهم وسالهم من المخاطب عنكم * فكلمه قس عليه مدراع الشعر * وقال ماذا تريد · فابلغهم الترجمان ان امير العرب يدعوهم الى احدى هذه الخصال الثلاث : اما الدخول في الاسلام او اداء

(١) كل ما وُضع في هذا الفصل بين قوسين ووراءها نجمة * فهو نص حرفي للواقدي

« ٢ » القائد الثاني في الترتيب المذكور في الصفحة ٣٢

« ٣ » القائد الاول في الترتيب المذكور انفًا

الجزية واما السيف. فبلّغ القس مَن وراءه ما قال الترجمان وكان فوق السور جمع غفير من الروم وراءهم والي المدينة وقائد الحامية والبطريرك. فضحك بعضهم ثم عادوا اليه بالجواب انهم يختارون السيف لانه خير الحاكمين * فعاد يزيد بن ابي سفيان الى معسكر العرب واخبر الامراء بجوابهم. ثم قيل لهم « ما انتظاركم بهم. فقالوا ان الامير ابا عبيدة ما امرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم. ولكن نكتب الى امين الامة (يعني ابا عبيدة) فان امرنا بالزحف زحفنا. فكتب يزيد بن ابي سفيان الى ابي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر » *

وفي ليلة ارسال هذا الكتاب كان بين خيام جند يزيد بن ابي سفيان خيمة خاصة بنساء العرب وهنّ مجتمعات حول فتاة غريبة في نحو العشرين من العمر وكانت اسيرة في الخيمة وكان النساء يخاطبنها بالعربية وهي لا تفهم لغتهن. فلما اعياهنّ امرها قالت احداهنّ وكانت هي خولة بنت الازور الفارسة المشهورة اخت ضرار بن الازور الفارس المعروف: هل ترين يا اخواتي ان ابا عبيدة ينهانا عن قتال اهل بيت المقدس حرمةً للمكان. والله انني لارد ان اكون اول المقاتلين والداخلين الى بلد الانبياء. فقالت خولة بنت ثعلبة الانصارية: هل نظرتِ قبل اليوم صخرة بيت المقدس يا خولة. فاجابت خواة وهل دخلنا بيت المقدس قبل اليوم. فقالت كعوب ابنة مالك بن عاصم وهل سمعتِ بصفتها. فاجابت خولة « كانت صخرة بيت المقدس في السماء اثنى عشر ميلاً وكان اهل اريحا يستظلون بظلها واهل عمواس مثل ذلك. وكان عليها ياقوتة حمراء تضيء لاهل البلقاء وكان يغزل في ضوئها اهل البلقاء » (١) فدهش النساء من ذلك وقالت لبنى ابنة جرير الحميرية. وهل اذا دخلنا المدينة غداً نرى المسجد ومربط البراق. فاجابت خولة مربط البراق تحت ركن المسجد (٢) اما المسجد فخربٌ وسناخذ المدينة بحول الله وقوته ونعيد بناءه وان أغاظ ذلك الروم واليهود. فلما لفظت خولة كلمة « اليهود » ظهرت البغتة على وجه الفتاة كانها كانت تفهم كلمة « يهود » العربية. ولكن النساء لم يلتفتن اليها

فساءلت امراة اخرى وهي سلمى ابنة هاشم (٣) اصحيح يا خولة ان كل الناس سيبعثون

---

١ » العقد الفريد. وغني عن البيان ان هذه الاقوال من آراء العوام وان وردت في العقد

٢ العقد الفريد

٣ النساء العربيات المذكورات هنا كنّ في جيش الشام وقد حضرن وقعة اليرموك المشهورة وكن فيها من اكبر اسباب نصرة المسلمين وقوتهم لانهن رددن جيشهم بعد انهزامه وذلك ان بعضهن كن يحملن

في بيت المقدس . فاجابت خولة اجل يا سلمى « ينصب الصراط ببيت المقدس ويؤتى بجهنم نعوذ بالله منها الى بيت المقدس وتزف الجنة يوم القيامة مثل العروس الى بيت المقدس . وتُزف الكعبة فيجاء بها الى بيت المقدس ويُقال لها : مرحباً بالزائرة والمزورة . ويزف الحجر الاسود الى بيت المقدس والحجر يومئذ اعظم من جبل ابي قبيس » (١) فقالت نعم ابنة فياض يا اخواتي فما افضل بيت المقدس . فقالت خولة اجل يا نعم ولها فضائل اخرى ايضاً « منها ان الله رفع نبيه الى السماء من بيت المقدس ورفع عيسى من بيت المقدس ويغلب المسيح الدجال على الارض كلها الا بيت المقدس والانبياء كلهم من بيت المقدس والابدال كلهم من بيت المقدس واوصى آدم وموسى ويوسف وجميع انبياء بني اسرائيل ان يُدفنوا في بيت المقدس (٢)

وهكذا لم يكن للمسلمين والمسلمات من حديث في تلك الليلة غير التشوق لفتح بيت المقدس والتحدث بآثارها

فبعد مدة وردهم جواب ابي عبيدة « يامرهم بالزحف وانه واصل في اثر الكتاب » * فاشرقت وجوههم * « وقد باتوا تلك الليلة كانهم ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال اهل بيت المقدس وكل امير يريد ان يُفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الانبياء . فلما اضاء الفجر أُذّن وصلت الناس صلاة الفجر فقرأ يزيد لاصحابه « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا » * (الآية) ومن غرائب الاتفاق ان باقي امراء الجند قرءوا في جندهم هذه الآية ايضاً فكأنهم كانوا على ميعاد واحد (٣) وبعد ذلك نادوا « النفير النفير يا خيل الله اركبي » * وبرزوا للقتال

اولادهن على ايديهن ويستقبلن المنهزمين فيحرضنهم على القتال عنهن وبعضهن كن يرددن الخيل بعمد يضربن وجوهها بها . وبما ان هذه الوقعة كانت مفتاح ابواب الشام فالفضل فيها يكون راجعاً للنساء العربيات الباسلات . وكان بعضهن يحارب في الجيش كخولة بنت الازور المذكورة آنفاً وعفيرة بنت غفار التي قال فيها الواقدي انها كانت من « المترجلات الباذلات » وهي التي حرّضت النساء على ردّ الرجال في هذه الوقعة كما تقدم . وروى الواقدي عن العباس بن سهل الساعدي الذي حضر هذه الوقعة انه قال يصف حملة المسلمين يومئذ على الروم بعد الهزيمة , ونظرتُ الى النساء وقد حملن معهم وقد رأيتهنّ يسابقن الرجال وبايديهنّ العمد بين ارجل الخيل ولقد رايت منهن امراة وقد اقبلت الى علج عظيم وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت حتى نكسته عن جواده وقتلته،

١ العقد الفريد وهو ايضاً من آراء العوام يقول ‹‹ يُقال › انها جرت على السنتهم ٢ العقد الفريد ٣ الواقدي

وكان اهل بيت المقدس قد استخفوا بالعرب ونبالهم ولذلك كانوا يتعرضون لها في بادىء الامر * وكان اول من برز للقتال حمير ونبالة اليمن * فاخذ الروم يرشقونهم بالنشاب من عن الاسوار فتفتك بهم والنبالة ترشق الروم بالنبال . فلما راى الروم ان النبال كانت تصيب رجالهم « فيتهافتون من سورهم كالغنم احترزوا منه (بعد اهمالهم امره) وستروا السور بالجحف والجلود وبما يرد النبل »* الا ان حامية المدينة كانت مع ذلك تحارب بجراءة وشجاعة وبشاشة . وهكذا مر اليوم الاول من القتال على غير طائل

« ولما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون فرضهم واخذوا في اصلاح شانهم وعشائهم . فلما فرغوا من ذلك اوقدوا النيران واستكثروا منها لان الحطب كان عندهم كثيراً . فبقي قوم يصلون وقوم يقرؤن وقوم يتضرعون وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل »* وفي اليوم التالي برزوا للقتال ايضاً وحامية المدينة يظهرون الفرح ويضحكون فمر هذا اليوم كاليوم الاول وهكذا الى اليوم العاشر* على غير طائل

وفي اليوم الحادي عشر اشرفت على بيت المقدس راية ابي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها الفرسان وقد احدقوا باميرهم ابي عبيدة وخالد بن الوليد عن يمينه وعبد الرحمن بن ابي بكر عن يساره وجاءت النساء والاموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فاجابتهم القبائل وارتجت المدينة لهذا الاستقبال الحافل * فضعفت قلوب المحصورين وقويت قلوب الحاصرين بهذا المدد العظيم الجديد . فذهب وجوه الجند والمدينة الى مقام البطريرك قرب كنيسة القيامة (١) ليتشاوروا في امرهم ويبلغوه مقدم امير العرب . فلما سمع البطريرك بهذا بُهت بغتة شديدة لانه حسب ان الامير الذي قدم هو الخليفة عمر بن الخطاب وكان يعلم ان الخليفة لا يقصد فتح بلد حتى يكون كل العرب وراءه . ولكنه لما علم ان الذي قدم هو ابو عبيدة عامل الشام سكّن خاطر الناس وشجّع قلوبهم بقرب وصول المدد اليهم فعادوا الى الحرب بالجراءة اللازمة (٢)

---

(١) في تاريخ الواقدي تارة ‹ الغمامة › وطوراً ‹ القمامة › وآونة ‹ الغمامة › وهو خطأ في النسخ ظاهر . وكنيسة القيامة اعظم كنائس القدس اذ فيها قبر المسيح وسميت كنيسة القيامة نسبة الى قيامة المسيح من القبر بعد صلبه

(٢) الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ولذلك لم نعبأ بها واوّلناها هذا التاويل

الفصل السادس عشر

﴿ بين استير وارميا وايليا ﴾

في اثناء الحصار

الجاسوس وابو عبيدة · حادثة مضحكة حدثت لارميا · حيلة لارميا لم تنجح · امبراطور لا اخو امبراطور فارس العرب عمرو بن معدي كرب وايليا · حيلة لارميا نجحت نجاحاً عظيماً

فاقام ابو عبيدة نحو اربعة اشهر * على حصر بيت المقدس على هذا المنوال · وكان جنده لانكشافهم امام اسوار عدوهم يلاقون بلاء اشد من بلاء المحصورين ولم تغن عنهم درقهم شيئاً · وكان الوقت وقت مطر و برد وثلج فعانى الفريقان من ذلك ما عاناه حتى سئما الحرب والقتال *

وفي ذات يوم بينما كان ابو عبيدة في مضربه ورحى القتال دائرة حول المدينة واذا برجل يقصده و يسأل الناس عنه · وكان وراءه عجوز على حمار · فلما وصل الى مضرب الامير انزل العجوز الى الارض وفرش لها رداء لتجلس عليه ثم دخل على الامير فسلم وناوله كتاباً صغيراً كان مخبوءاً في ثيابه · فلما قراءه ابو عبيدة بغت وصاح به : انت يوسف · فقال الرجل نعم ايها الامير · فقال اجلس ونص عليَّ ما تعلم فقد كُتب اليَّ في شانك منذ اشهر ولماذا لم تفد علينا قبل الآن · فاجاب الرجل لانني لم اجد قبل الآن عذراً يمكنني من الخروج من المدينة لملاقاتكم لان الروم دروا بامري · فقال ابو عبيدة ضاحكاً وهل قبضوا عليك · فغص الرجل بدمعه وقال قبضوا عليَّ وعلى ابنتي فاطلقوني واسروا ابنتي في دير لهم · وامس زرتُ هذا الدير بامر بطريركهم فعلمتُ منه ان ابنتي فرّت من الدير ولم يوقف لها على اثر · فقال ابو عبيدة وكيف تركوك تخرج الآن من المدينة · فقال الرجل · ان قائد الجند دعاني اليه بامر البطريرك واشارته فاظهر لي اللطف والمجاملة ثم عهد اليَّ ان اجيئكم واظهر انني فارٌّ منهم اليكم و بعد ذلك اخبركم بقوتهم وعزمهم على القتال وقرب وصول المدد اليهم حتى اوهن عزائمكم فتبدءوا بطلب الصلح منهم · و يظهر لي ان غرضهم من ذلك هو الصلح لياس البطريرك من ورود مدد الى المدينة من ملكهم

فاطرق ابو عبيدة يفكر ثم ساله : لقد مرَّ على قتالنا لهم بضعة اشهر بدون جدوى فما ظنك لو حاربناهم شهرين ايضاً · فتامل الرجل هنيهة ثم اجاب · هوءلاء النصارى لا يوءثر فيهم شيء مثل الضغط عليهم : فشد عليهم الوثاق ايها الامير ولا تقبل منهم الصلح اذا اية

فائدة لكم فيه · اما اذا اخذتم المدينة فتحاً بالسيف فانكم تغنمون كنوزهم واموالهم

فنظر حينئذ ابو عبيدة الى ذلك الرجل وقال في نفسه ان البغض بين هذين الفريقين من اهل الكتاب — اليهود والنصارى — لا يزول ابداً · وكان ضرار ابن الازور عائداً حينئذٍ من ساحة القتال لحاجة له فناداه الامير وقال له : خذ هذا الرجل الى خيمتك واصلح حاله في هذا الشتاء · فسار الرجل والعجوز وراء ضرار الى خيمته

وما كاد الثلاثة يصلون الى خيمة ضرار حتى سمعوا من الخيمة بكاء فقال ضرار لرفيقه اتعرف لغة الروم يا رجل فاجاب الرجل بالعربية وكان يعرفها كما تقدم · نعم اعرفها ايها الفارس الهمام فايّ امر تريد · فقال ضرار عندي فتاة من الروم اسرتها منذ مدّة على طريق مهد عيسى (١) مع رومي مجنون وهي لا تزال تبكي ليلاً ونهاراً · وقد احبّتها اختي خولة وعزمت على ادخالها في الاسلام لتكون لي زوجاً ولكنها لا تستطيع مخاطبتها لان الفتاة لا تفهم لغتنا

فقال الرجل مفكراً ساءراها الساعة · ثم بدأ يرطن بلغته مع العجوز فاستوت العجوز حينئذٍ على حمارها وقد ابرقت عيناها دهشةً وسار الجميع بخطى واسعة الى الخيمة والعجوز تتطاول نحوها

ولكن ما كاد الثلاثة يشرفون على الخيمة ويلقون نظرة الى داخلها حتى صاحت العجوز صيحة اجفل لها النساء والاولاد الذين كانوا في الخيام القريبة · وهرع الرجل والعجوز نحو الفتاة الاسيرة في الخيمة يقبّلانها وتقبلها باكين جميعاً

فعلم ضرار حينئذ ان هذه الفتاة نسيبة للشيخ والعجوز

اما القارىء فانه ولا شكّ علم انّ الفتاة هي استير والرجل ابوها والعجوز امها

اما ضرار فانه لما علم من الشيخ ابي استير ان الفتاة ابنته أُسقط في يده لانه كان يُطمع نفسه فيها · الاّ انه صار اكثر اكراماً للشيخ مما كان قبل علمه بذلك

وقد قصّت استير على ابيها وامها كل ما جرى لها وكيف انقذها شاب من مزرعة تحت جبل الزيتون ثم فرّت منها فاسرها العرب على بيت لحم · الا انها لم تذكر لها شيئاً مما حدث لها مع ايليا · وقد غصّت بدمعها مراراً وهي تحكي لها قصّتها من ذكرى ذلك الشاب الكريم الذي فارقته رغماً عنها

ومنذ هذا الحين اصبحت استير طليقة في حيّ العرب مع ابيها وامها

---

١ يريد على طريق بيت لحم

وكان اوّل شيء فكرت فيه استير بعد اطلاق سراحها انقاذ ارميا الذي احسن معاملتها واسر معها . فسأل ابوها ضرارًا عنه فاخبره انه اسير عند رجل من البادية لم يقدر احد غيره على كبح جماحه . فسارت استير مع ابيها وضرار الى خيمة الرجل . فلما اطلوا عليها ابصروا في احدى زواياها رجلاً مطروحًا كالجزع الممدود وهو موثق اليدين والرجلين بحبال ثخينة . فلما سمع هذا الرجل صوت حركة وراء الخيمة انتفض انتفاضًا شديدًا واخذ يصيح ملء فيه — يا قتلة الانبياء وآسري المرسلين . اهكذا تصنعون بي . كفى الارض ما فيها من الظلم فلا تزيدوا ظلمًا جديدًا فيها . اتظنون انها تُفتح لكم بالاضطهاد والاسر والقسوة . لا لا . فانكم اذا لم تعدلوا لم تسودوا . واذا كانت هذه فاتحة اعمالكم فخاتمتها بلاء وعذاب . تأسرون الانبياء وتطرحونهم على الارض كالكلاب . تأسرون الفتيات الضعيفات وتسيئون اليهنّ . اخذوها اخذوها . وحرموني اياها . ايليا ايليا . اظن هذا عقابًا لي لانني خنتك . وهذه عاقبة الخائن دائمًا . وانتم ايضًا تخونونني فستكون عاقبتكم كذلك

ولما ترجم الشيخ ابو استير لضرار هذا الكلام ضحك منه حتى استلقى لانه علم من استير وابيها ان الرجل معتوه . ثم دخل وحده على ارميا . فلما رآه ارميا هاج كالجمل الثائر وصاح : انت كبيرهم . انت ظالمهم . اين الفتاة . اما تخافون الله و يوم الحساب

فدنا حينئذ ضرار منه وفي يده سيفه فلما رأى ارميا السيف قامت قيامته وصار يعوي عواء الكلاب والذئاب خوفًا من القتل . فعلم ضرار خطأه فدعى الشيخ ابا استير فدخل وحده . فقال الشيخ لارميا بعد ان اسكته ان ضرارًا لا يقصد الا قطع وثاقه بالسيف . فلم يطمئن ارميا بل عاد الى العواء والصراخ وصار يدافع ضرارًا رفسًا برجليه وبصقًا بفيه كانه حسب البصاق حجارة مقلاع تدفع عنه . وكان ضرار في اثناء ذلك يضحك ضحكًا شديدًا . فلما رأى الشيخ خوف ارميا من ضرار اخذ السيف بيده ودنا من ارميا فعاد ارميا الى العواء والصراخ والرفس والبصق . فيظهر ان استير علمت وهي تراقب هذا المشهد من خارج الخيمة انه لا يحلّ هذه المشكلة غيرها فدخلت باسمة تختال بحلل الجمال والدلال

فلما وقع نظر ارميا على استير دُهش وصاح متنهدًا من اعماق قلبه قائلاً : من انقذك . هاها . . ما اقوى النساء الجميلات . فانهنّ ينقذن انفسهن دائمًا . . اعطوها السيف اعطوها السيف . فانني لا ائتمن غيرها على روحي . يا عزيزتي اذكري انني خلصتك فخلصيني

فاخذت استير السيف بيدها البيضاء الجميلة ودنت من ارميا وهو ممدّد فصار ارميا يضحك لها .

فقطعت استير بالسيف الحبال التي كانت توثق يديه ورجليه فنهض ارميا وصار يتمطّى كنمر كان مقيّداً واطلق من قيده

وبعدما أُصلح ارميا شأنه وملابسه دنا من استير باهتمام وقال لها: لقد اطلقونا الآن فهلمي بنا. فضحكت استير واجابت الى اين. فصاح ارميا كل الاماكن خير من هذا المكان. هلمي يا اختي لنعيش بالبرية معاً كالرعاة. فعبس ابوها وهزّ رأسه وهو يقول في نفسه انه صار يجب عليه انقاذ الفتاة لا من ضرار فقط بل من ارميا المعتوه ايضاً. ومنذ هذا الحين عرف صعوبة موقف الرجل بين بعض الرجال اذا كان يصحب فتاة متناهية في الجمال

اما ضرار فانه لما علم بطلب ارميا هزّ سيفه حتى دبّ الموت بافرنده وقال له: والله اذا ذكرتَ الرحيل مرة اخرى لاجعلنك مرتعاً له. — فابتعد عنه ارميا دون ان يفهم كلامه وهو يدير فيه عينين مذعورتين ويبحث بهما في الارض عن حجارة او اخشاب يدفع بها عن نفسه اذا هاجمه صاحب السيف

اما الشيخ ابو استير فانه خلا بارميا واخبره ان امير العرب امرهم ولا يأذن لهم بالرحيل. ولكنه اذن لارميا بذلك. وكان ارميا قد علم ان الشيخ هو ابو استير فقال له: انا مقيم معكم حيثما تقيمون

ومنذ هذا الحين صار ارميا يتجول في حي العرب بين الخيام لمشاهدة تلك المنازل البدوية الغريبة. وفي المساء يعود الى خيمة ضرار وينام في الليل على بابها واستير في داخلها مع ابيها كانه حارس لها

وفي ذات يوم بينما كان يدور بين الخيام متجنباً المضارب التي فيها نساء واولاد واصوات القتال واردة من جهة بيت المقدس واذا به قد بلغ خيمة رفيعة العمد عالية الاطناب. وكان حول هذه الخيمة خيام كثيرة تحيط بها على مسافات مختلفة. والناظر اليها يعرف لاول نظرة انها خيمة زعيم قومه. وفي الحقيقة انها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله لنصرة جند الشام مع مالك ابن الاشتر النخعي في اواخر خلافة ابي بكر (١)

---

(١) وقد كتب ابو بكر يومئذ في هذا الشان كتاباً الى خالد بن الوليد عامله في الشام لذلك العهد قال فيه قبل فتح دمشق „قد تقدَّم اليك ابطال اليمن وابطال مكة ويكفيك ابن معدي كرب الزبيدي ومالك ابن الاشتر“ ويقال ان عدة هذه النجدة كانت تسعة الاف

فلما دنا ارميا من هذه الخيمة الشائخة سمع فيها صوتاً يتكلم باللغة اليونانية فعجب من ذلك وتقدم متلصصاً فلما اطلّ على الخيمة ابصر في احدى زواياها ما اثار دهشته فرجع القهقرى مستغرباً

ذلك انه ابصر في تلك الزاوية «ايليا» جالساً مشدود اليدين شدّاً خفيفاً

وكان ايليا يحادث رجلاً آخر جالساً امامه لكنّ هيئته كانت تدل على انه ليس بعربي

وحينما تحقق ارميا وجود ايليا هناك ابتعد عن الخيمة وجلس يفكّر ملياً . ويظهر انه قرر في نفسه شيئاً لانه اول ما ابصر رفيق ايليا قد خرج من الخيمة لحاجة له نهض مسرعاً اليه . ولما صار بجانبه خاطبه باليونانية قائلاً . هل انت عربي ايها الاخ

فنظر اليه الرجل وقال اخبرني اولاً من انت لاخبرك من انا . فاجاب ارميا ما قصدتك لهذا وانما لاخبرك خبرًا عظيماً . اتحب ذلك . فاجاب الرجل وقد بدأ يتأمل في وجه ارميا . وما هو هذا الخبر . فقال ارميا باهتمام شديد . اما عرفت هذا الرجل المقيم في هذه الخيمة مشدود اليدين . فقال الرجل وقد بداء يهتمّ لحديث ارميا : لا ومن عساه يكون . فضحك ارميا وقال : انكم تقبضون على كنز ثمين بل على مفتاح المدينة دون ان تعلموا بذلك . فزاد اهتمام الرجل وقال ومن عساه يكون . فقال ارميا هذا الاسير ستفدون به عشرة الاف اسير منكم اذا شئتم . فصاح الرجل وقد فرغ صبره . الا تقول من هو . فدنا ارميا حينئذ من الرجل وانحنى على اذنه وهمس فيها قائلاً : هذا ثيودوروس اخو الامبراطور

فدهش الرجل ورجع القهقرى عجباً . ثم سأل ارميا . ومن اين عرفته . فضحك المعتوه وقال وهل احد منا يجهل اخا الامبراطور . فاحرصوا عليه جيداً اذا شئتم فتح المدينة فانه ربما افتداه الامبراطور منكم بالمدينة كلها

فعاد الرجل نحو الخيمة التي كان ايليا فيها وهو يفكّر كثيرًا اما ارميا فانه عاد عنها نحو خيمة ضرار وصار يبذل جهده ليمنع استير واباها من الذهاب نحو خيمة ايليا

والعادة ان علو المقام يجرُّ دائماً زيادة الاتعاب والاثقال . ولذلك ما انتشر بين تلك الخيام ان اخا الامير اسير في خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حتى تهافت الناس من كل جانب لمشاهدته . وادى هذا الامر الى التشديد في حراسته والتضييق عليه

اما ايليا فلم يكن يفهم شيئاً من ذلك الاكرام الجديد له والتألب عليه . حتى الترجمان نفسه الذي كان يقصده ويحادثه في الخيمة صار لا يقترب منه الا باكرام خاص

وكان غرض ارميا من صنع ما تقدم رغبته في ان يحول دون اطلاق سراح ايليا وابقائه بعيداً عن استير الى ان يتمكن من اخراجها من هذا المكان بالكلية . ولكنه ما درى ان هذه الحيلة ستؤدي الى عكس غرضه . فانه لما فشا بين المسلمين ان اخا الامبراطور وقع اسيراً في قبضة بعض من رجال عمرو بن معدى كرب الذين ساروا لارتياد الضواحي وراء القدس ووصل هذا الخبر الى الامير ابي عبيدة القائد العام امر ابو عبيدة في الحال بان يؤتى اليه باليهودي يوسف ليتحقق منه هذا الامر . وكان هذا الاسم اسم ابي استير كما تقدم . فلما حضر الشيخ بين يدي ابي عبيدة صحبه ابو عبيدة الى خيمة عمرو بن معدي كرب واراه ايليا ليعلم اهو اخو الامبراطور حقيقةً لعله يعرفه . ولكن ما وقع نظر الشيخ على ايليا حتى اسرع اليه صارخاً : هذا امبراطور لا اخو امبراطور . فانه امبراطور الشهامة والرفق والمروءة

ثم قصَّ ابو استير على ابي عبيدة ما صنعه ايليا معه ومع ابنته على طريق بيت لحم . فدنا حينئذ ابو عبيدة الرجل الكريم المحب للكرام وقطع وثاق ايليا بيده واطلق سراحه

وقد جرى كل ذلك دون ان يدري به ارميا واستير . فكأنَّ ارميا نفع ايليا من حيث قصد مضرَّته . وذلك مصداق لقول من قال « من حفر حفرة لاخيه وقع فيها »

اما ايليا فانه لما وقع نظره على ابي حبيبته خفق قلبه خفقاناً شديداً وكان اول سؤال وجَّهه اليه بعد انطلاق سراحه هو هذا -- هل وجدتَ السيدة استير . فوضع الشيخ يده في يده واجاب : هلمَّ بنا اليها

فيا ايها القارىء العزيز . هل اضعتَ يوماً قلباً لك على شاطىء البحر بين رماله وحجارته ثم وجدته محفوظاً في احدى اصدافه الجميلة كأنه درٌّ فيها مكنون . هل كنت في احدى الليالي مسافراً في ظلمة ليلاء واحاطت بك العواصف والامطار والوحوش واللصوص وانسدَّت الطريق في وجهك ثم بغتةً طلع لك القمر او الشمس تنير طريقك وتدفىء عظامك وتوءمن نفسك . هل كنتَ يوماً مريضاً مشرفاً على الهاوية وقد نضب ماء حياتك ورايتَ الموت بعينيك ثم انتفضتَ وعادت اليك قوتك وصحة شبابك الماضي -- اذا كنتَ قد لقيتَ يوماً شيئاً من ذلك فانك تعرف مبلغ السرور الذي حاق بايليا حينما قال له الشيخ عن استير « هلمَّ بنا اليها »

ولما وصل الشيخ وايليا الى خيمة ضرار حيث كانت استير كان قد امسى المساء واخذ العرب يعودون عن اسوار المدينة . وكانوا يطيلون النظر الى الاثنين في اثناء الطريق .

ولكن لم يبالوا بهما لتعوّدهم مشاهدة التراجمة والعيون من اليهود واحياناً من اذناب الروم في معسكراتهم · وهذا ايضاًهو السبب في تجوال ارميا بين المضارب قبل ذلك دون ان يتعرَّض احد له

وحين وصول ايليا مع الشيخ الى خيمة ضرار كان ضرار قد عاد من ساحة القتال وجاس في باب الخيمة يطيل النظر الى استير واخته خولة تضحك من نظراته واستير مطرقة تتورَّد وجنتاها خجلاً وتذوب حياء · فصاح الشيخ حين وصوله : استير اين استير · فهبت استير الى باب الخيمة · ولكن ما وقع نظرها على الشخص الذي يرافق اباها حتى صاحت صياحاً شديداً وتراجعت الى الوراء وقد انقلب لونها الفضي الورديّ الى لون الزعفران وصارت ترتجف · فادرك ضرار بذكائه العربي الفطري سرَّ استير في الحال فعبس وصار يقلّب طرفه في ايليا · اما ايليا فكان يتقدم والابتسام على شفتيه ولكن الالم الشديد في قلبه · وكانت جبهته تنصبب عرقاً مع شدة البرد ساعتئذٍ · فلما وصل الى استير نظر اليها نظرة هي وحدها كانت تعرف معناها · وقال : الحمد لله ايتها السيدة على انني وجدتك بخير وسلامة فانني خفتُ عليك من المعتوه الذي رحلتِ معه ولذلك ذهبتُ في طلبك

فادركت استير ان ايليا يريد بهذا الكلام تبرئة نفسه لديها عملاً بوصيتها له ان لا يتبعها · فحاولت الجواب فلم تستطع · ولكن عينيها جاوبتا عنها بدمعتين كلؤلؤتين ترقرقتا في حدقتيها

وفي هذه الدقيقة وصل ارميا لانه كان غائباً عن الخيمة

فلما وقع نظر ارميا على ايليا من بعيد صلّب على صدره ورجع القهقرى قائلاً « كيريا لا يسون كيريا لا يسون اي شيطان جاء به الى هنا »

ثم توارى لانه كان يخجل من مقابلة ايليا · اما ايليا فقد لمحه ولكنه تركه وشأنه لئلا ينفتح عليه باب جنونه فيفضح حبّه

ولم يكد ايليا يجلس في الخيمة حتى دخل بدوي وسأل عن ضرار · ثم ابلغه ان الامير ابا عبيدة يطلب اليهودي يوسف · فاستاء ابو استير من هذه الدعوة في تلك الساعة امام ايليا · اما ايليا فانه لم يفهم شيئاً · فقام ابو استير وذهب اجابة للدعوة فبقي في الخيمة ايليا واستير وامها وضرار وخولة · وكان ضرار ينظر الى استير ويقول في نفسه ما اجمل بنات الروم · وخولة تنظر الى ايليا وتقول في نفسها ما اضعف رجال الروم · وهكذا كان كل واحد منهما يقبس امة باسرها على فرد منها وهو الخطاء الذي كثيراً ما يقع الناس فيه

ولم يكد يخرج ابو استير من الخيمة حتى سُمع صوت من الخارج يقول « السلام على اهل الايمان» فنهض ضرار وخولة على عجل وصاح ضرار بعد رد السلام اهلاً بفارس العرب . فدخل حينئذ رجل معتقل سيفه وفي يده رمحه وكان كبير الهامة شامخ الرأس تكفي هيئته للدلالة على نجابته وشجاعته . وكان وراءه رجل غريب الزي . فقال الفارس القادم لضرار : أجاءكم اسيري يا ضرار . وكان ايليا قد هبَّ على صوت الفارس وقام اجلالاً له . فلما رآه الفارس بشَّ في وجهه والتفت الى الرجل الذي كان وراءه . فنطق حينئذٍ هذا الرجل باليونانية مخاطباً ايليا بقوله : ان فارس العرب عمرو بن معدي كرب قد ساءه تركك خيمته ولقد اذن بما اذن به ابو عبيدة من اطلاق سراحك ولكنه يريد ان تقيم عنده لافي مكان آخر لسروره بحديثك واخبارك . فاستاء ايليا في نفسه من هذا الاقتراح لانه يفصله عن استير وان كان قد سرَّه كرم العربي ورحابة صدره فاجاب . هذا أحبُّ شيءٍ اليَّ فساحظى في كل مساء بالمثول في حضرة الامير واما في النهار فانني مضطرٌ ان الزم اصدقاء لي في هذه الخيمة ما اقمتُ في هذا المعسكر

فلما علم عمرو بن معدي كرب بجواب ايليا التفت ليرى الاصدقاء الذين اشار اليهم الشاب فوقع نظره على استير . فلاحظ ضرار تلك النظرة لخوفه من عاقبتها اكثر من خوفه من عاقبة وداد ايليا

وكان ارميا حينئذ خارج الخيمـة يتنصَّت ويتجسَّس فلما رأى فارس العرب يقلّب نظره في استير قال في نفسه : لقد صرنا أربعة

اما عمرو بن معدي كرب فانه بعد ان اجال نظره في استير ملياً قال للترجمان : لماذا لا يصطحب اصدقاءه الى حيث يذهب . فغضب ضرار لهذا الجواب وظهر الغضب في وجهه . واما ايليا فانه لما فهم جواب الامير ابلغه ان رفيقه غائب وابنته هذه الفتاة لا تستطيع مفارقة ابيها

فيظهر ان الامير انقلب غرضه من اخذ ايليا الى اخذ استير ولذلك اجاب : ساعود غداً بعد عودة رفيقك فوالله يهمني ان تقصَّ عليَّ بقية قصة صاحبك ميكائيل

وكان الامير يعني « بميكائيل » الراهب ميخائيل استاذ ايليا

فلما انصرف الامير وترجمانه صار ايليا يفكّر في ماذا يصنع للخروج باستير وابيها من المعسكر خصوصاً بعدما رآه من اهتمام ضرار وعمرو بن معدي كرب بها اهتماماً خاصاً . وبينما هو يتأمل في ذلك واذا بارميا قد دخل على حين فجأة ودنا من ايليا واسرَّ اليه قوله : هل تريد يا كيريه ايليا ان احدثك على انفراد . فحوَّل ايليا وجهه عن ارميا دون ان يجاوبه . فقال ارميـا

همساً ايضاً . لا تغضب يا كيريه ايليا فانني فعلتُ ما فعلته بأمر استير نفسها . وعندي الآن لك حديث في غاية الاهمية فاسمعه مني وبعد ذلك اصنع ما تشاء

فنهض ايليا وخرج من الخيمة . ولما صار خارجاً صاح بارميا : ماذا تقول للشيخ سليمان غداً يا ارميا بعد خطفك الفتاة من مزرعته . فاجاب ارميا لم اخطفها وانما هي التي طلبت مني ان اذهب بها من المزرعة لتلتقي بابيها . ولكن دع عنك هذا فانه ليس في شيء من الاهمية . اعرفت يا كيريه ايليا ابا هذه الفتاة

فاجاب ايليا نعم عرفته . فقال ارميا مظهراً الاهتمام دائماً وهل عرفتَ ما بينه وبين العرب . فقال ايليا لا لم سأله عن ذلك بعد . فلعلهم اسروه كما اسروكما وكما اسروني . فهزّ ارميا حينئذ رأسه وقال همساً : كلا كلا يا كيريه ايليا . فانه جاسوس جاسوس

فهنا خطا ايليا خطوة الى الوراء لدهشته . وبقي مبهوتاً . ولما رأى ارميا ان كلامه اثّر في نفس ايليا تأثيراً شديداً اردف بقوله : وهل علمتَ الآن اين ذهب الرجل حين فارقكم ؟ انه ذهب الى القائد العام لانه طلب مع بدوي مقابلته . فلعلّه يقصد سؤاله عن بعض الامور .. يا كيريه ايليا . قد قيل لي انك انقذته على طريق بيت لحم . فانت اذاً انقذتَ جاسوساً على وطنك . وابنته استير الجميلة التي انقذتها انت مرة وانا انقذتها مرة هي ابنة جاسوس . يا كيريه ايليا حقاً ما كنتُ اظن اننا ننزل الى هذه الدركة من السفالة ونحب انتَ وانا ابنة جاسوس دنيء

فعند هذا الكلام انكشف غطاء كثيف عن عيني ايليا فذكر اقوال البطريرك وقصة استير تحت الارزة وذكر على الاخص استعانة ابي عبيدة بالشيخ ابي استير لمعرفته قبل اطلاق سراحه وبارسال ابي عبيدة الساعة في طلبه فلم تبقَ لديه شبهة في ان الرجل جاسوس . فلما تحقق ذلك في نفسه طارت نفسه شعاعاً فترك ارميا بنزق واخذ يهيم على وجهه بين الخيام كانه يطلب منفذاً ليأسه وانكسار قلبه

استير ابنة جاسوس ؟ يا للهول . ذلك المثال البديع للجمال وأدب النفس قد خرج من دم التجسس واللؤم ؟ يا للهول . اذاً اين يجد ايليا الطهارة والنقاء في العالم بعد اليوم؟ وما الذي يسلّيه بعد ذلك عن هذه الخسارة التي فقد بها احلامه وآماله في هذه الحياة

ايليا خان وطنه وساعد الجواسيس عليه ؟ يا للهول . نعم انه لم يكن شديد التعصب لوطنه ومملكته لان اليونان كانوا العنصر السائد المستبدّ فيها ولذلك قد يمكن ان يكون هذا الفتح مساعداً للامة السورية المغلوبة على العنصر المستبد الغالب . ولكن من يضمن

ان يكون العنصر الفاتح الجديد اقل استبداداً واكثر انصافاً للامة المغلوبة من العنصر الفاتح القديم . لا ريب في ان ايليا لم يكن يعتبر الدين جامعةً قوية بل هو يضع فوقها الجامعة البشرية اي جامعة « العدالة المطلقة والانصاف المطلق » ولكن من يضمن له انه لا يكون في هذا الاستبدال كالمستعين من الرمضاء بالنار وكالمنتقل من نير الى نير

وقد بقي ايليا يفكر ساعةً في موضوعه الجديد وبعد ان برّد هواء المساء جبهته التي كانت متقدة بهذه الافكار قر رأيه على السفر دون ان يشاهد استير ولا اباها . فانحرف عن خيمة ضرار وقصد خيمة الامير عمرو بن معدي كرب ليستأذن منه بالرحيل ويسأله رجلاً يرافقه الى خارج المعسكر . وكان غرضه من ذلك ايضاً زيادة التقرّب من هذا الامير لعله يستعين به على شيء يفيد بني وطنه اذا وقعت المدينة في ايدي العرب

ولما وصل ايليا الى خيمة الامير عمر بن معدي كرب وجده راجعاً من خيمة ابي عبيدة . ذلك ان ابا عبيدة كان قد جمع امراء الجيش ووجوه الجند ليستشيرهم في طول الحرب وما اصاب الجند من التعب والشدة للمطر والثلج والبرد (١) فاجمع رأيهم على انه لا سبيل لأخذ المدينة الا صلحاً او يبرز الروم من وراء الاسوار للقتال وجهاً لوجه . لاسيما وانه قد بلغهم ان الارطبون مقدم الجند الذي فرّ من اجنادين ولجأ الى بيت المقدس في اثناء الحصار معارضٌ في الصلح كل المعارضة . فلما علم الامير عمرو بن معدي كرب برغبة ايليا في الدخول الى المدينة استغرب ذلك وسأله بواسطة الترجمان . اين اصحابه . وقد عنى بهم استير واباها . فارتعد ايليا لهذا السؤال . اولاً لانه ذكّره امره وثانياً لانه تذكر ان استير ستبقى بعده هدفاً لميل ضرار وعمر بن معدي كرب وارميا

ولما ودّع ايليا الامير قال له الامير سنلتقي في المدينة بعد بضعة ايام . فابتسم ايليا وشكر للامير ما لقيه عنده من الكرامة وحسن الضيافة مدة الاسر . ثم سأله نصيحة لقومه يكون فيها فائدة للفريقين . فاطرق الامير يفكر . ويظهر انه بدا له امر مهم ولذلك اشرق وجهه . فقال لايليا : لقد استنصحتني ايها الشاب وانا اصدقك النصيحة . ان هذا الجيش اذا فتح مدينتكم هذه سيكون شديد الوطأة عليها لانه عانى في هذه الحرب مشقة شديدة . وها قد مرت اربعة اشهر والقتل فيه كل يوم . ولو كان المدد سيصلكم لوصلكم في اثناء هذه المدة الطويلة . فحرّض قومك على الصلح اذا كنتَ نافذ الرأي عندهم وكنتم تحبون سلامة مدينتكم . ولكي تعلم صدق نصيحتي اوصيك ان لا تقبلوا بالصلح الاّ على يد خليفتنا

١ بيت المقدس قائمة فوق الجبال وعلوها عن سطح البحر ٩٧٠ متراً اي هي اعلى من دمشق الشام بمائة متر

عمر بن الخطاب فانه هو الذي يقدر وحده على كبح جماح هذا الجيش بعد عقد الصلح اذا رام الجيش انتقاماً او اغتناماً

وكان الامير صادقاً في هذه النصيحة وان كان قد قصد بها تعجيل الصلح لمنفعة قومه . فشكره ايليا وكرر توديعه وانصرف قاصداً اسوار المدينة ومعه رجل من رجال الامير ليوصله اليها

وكان ايليا وهو سائر يتلفَّت نحو خيمة ضرار ويتنهَّد كلما التفت اليها كما تنهَّد آدم وتأفت الى الفردوس عند خروجه منه

الا ان ترك آدم فردوسه كان بكرهه وترك ايليا فردوسه كان بطوعه اتباعاً لصوت ضميره وكبريائه

والغريب ان ايليا لم يعاوده اليأس القديم بعد يأسه من هذا الحب الذي كان بنى عليه كل آماله في الحياة . فكأنَّ ما شاهده في هذه الحرب من آثار القتل والعذاب والشقاء البشري والعناء قد اذكره ان الحياة ليست بلعبةٍ يُتلهَّى بها بل هي واجب عظيم يجب القيام به باحسن ما يكون ومعالجة كل ما يعترضه من المصاعب والمتاعب والمصائب . ولذلك صار همّه مصروفاً الى نفع بني وطنه المحصورين لتخفيف شيءٍ من مصائبهم ومنع الفتك فيهم اذا فتح العرب مدينتهم . وبذلك وجدت نفسه شاغلاً يشغلها عن نفسها

وقد اذن حراس اسوار المدينة لايليا بالدخول اليها ولكنهم اخذوه توّاً الى البطريرك . وهذا ما كان ايليا يطلبه . فاختلى ايليا بالبطريرك ساعتين تقريباً

وفي اثناء ذلك كانت استير في خيمة ضرار تنتظر ايليا . . . .

الفصل السابع عشر

❊ مخابرات الصلح ❊

البطريرك وابو عبيدة . كلمة الشهادة بين الاثنين . اتباع البطريرك نصيحة ايليا . كتاب ابي عبيدة الى عمر

وكان اهل المدينة يومئذ في ضجر وملل من تأخر المدد عنهم وطول حصرهم . وكأنهم يئسوا من المدد بعد طول الحصار اربعة اشهر فاجتمع وجوههم عند البطريرك وقالوا له « يا ابانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا ان يأتينا مدد من قبل الملك ولا شكَّ انه اشتغل عنا بنفسه . وانهم اشهى منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقاراً منا لهم . والآن قد عظم علينا الامر . وانا نريد منك ان تشرف على

هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا · فان كان امرهم قريباً اجبنـا الى ما يريدون ويطلبون وان كان صعباً فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فاما ان نُقتل عن آخرنا واما نهزمهم عنا » (١) وكان البطريرك قد بداء يرى رأيهم ليأسه من المدد خصوصاً بعد اختلائه بايليا وسماعه راءي الامير عمرو بن معدي كرب (٢) · فاجابهم الى هذا الطلب « فاشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسس والرهبان حوله وبايديهم الاناجيل مفتحة والمباخر حتى اشرف على المكان الذي فيه ابو عبيدة »*« فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معشر العرب · ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد اقبل يخاطبكم فليدنُ منا اميركم » *فاخبروا ابا عبيدة فجاء ابو عبيدة « وجماعة من الامراء والصحابة ومعه ترجمان » * فلما التقى الفريقان تكلم البطريرك فقال « ما الذي تريدون منا » *فانبرى ابو عبيدة وقال « خصلة من ثلاث · اولها ان تقولوا لا اله الاّ الله وحده لا شريك له · وان محمداً عبده ورسوله · فان اجبتم الى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا » * « فقال البطريرك (٣) انها كلمة عظيمة ونحن قائلوهـا · الاّ ان نبيكم محمداً ما نقول انه رسول — فهذه خصلة لا نجيبكم اليها »*فعرض ابو عبيدة الخصلة الثانية وهي « تادية الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » * فقال البطريرك « ما كنـا بالذي يدخل تحت الذلّ والصغار ابداً » * فقـال ابو عبيدة اذن نقاتلكم حتى نفتح مدينتكم ونستعبدكم ونغنم اموالكم * فاجاب البطريرك بغضب · لو اقمتم على قتالنا عشرين عاماً لما فتحت المدينة لكم · وانا الآن اقول لكم كلمة واحدة · وهي ان المدينة لا تُفتح الا لاميركم عمر بن الخطاب · فابعثوا في طلبه لاقابله والقي اليه مفاتيحها اذا رمتم صلحاً حقيقياً فيه شرف لنا ولكم

فاطرق ابو عبيدة يفكر ملياً · وكان راغباً في الصلح حقناً لدماء رجاله · فقال « اني ابعث اليه بان يقدم علينا · افتحبون القتال ام نكفّ عنكم » * وقد قال ابو عبيدة هذا القول ليظهر للبطريرك ان قومه لا يبالون بالحرب · فاجاب البطريرك « معاشر العرب الا تدعون بغيكم · انطلب حقن الدماء وانتم تأبون الا القتـال » * فامر ابو عبيدة حينئذٍ

١) الواقدي · وكل ما كان في هذا الفصل ايضاً و باقي الفصول التالية بين قوسين وو راءه نجمة * فهو نص حرفي له

٢) غني عن البيان ان هذا الراءي لم يُنسب في التاريخ للامير عمرو بن معدي كرب بل للبطريرك نفسه رغبة في زيادة الاستيثاق من سلامة المدينة بعد الصلح

٣) في الاصل البترك وهي الكلمة العامية اليوم · واحياناً ترد في كتب العرب «البطريق»

بالكف عن القتال وانصرف البطريرك وحاشيته

وبعد ذلك اجتمع امراء المسلمين فابلغهم ابو عبيدة طلب البطريرك « فرفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير » * فرحاً بقرب انتهاء الحرب ودخولهم بيت المقدس . « وقالوا افعل ايها الامير واكتب الى امير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا ويفتح هذا البلد علينا » * وكان شرحبيل بن حسنة حاضراً فقال ان هذا الأمر يطول « فاصبر حتى نقول لهم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم فاذا نظروا اليه فتحوا الباب وكفينا التعب » *« وكان خالدبن الوليد اشبه الناس بعمر بن الخطاب » * ففعلوا ذلك . ولكن البطريرك واهل المدينة لم تنطل عليهم هذه الحيلة . فقال البطريرك « يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم . وحق المسيح لئن لم نرَ الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع احد منا يكلمكم ولو اقمتم علينا عشرين سنة . ثم ولى ولم يتكلم » *

فعند ذلك كتب ابو عبيده الى الامام عمر الكتاب التالي

« باسم الله الرحمن الرحيم . الى عبدالله امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله ابي عبيدة عامر بن الجراح . اما بعد السلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . واعلم يا امير المؤمنين انا منازلون لاهل مدينة ايلياء نقاتلهم اربعة اشهر . كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا . ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والامطار . الا انهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم . فلما كان اليوم الذي كتبت اليك الكتاب فيه اشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه وقال انهم يجدون في كتبهم انه لا يفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم . وقد سألنا حقن الدماء . فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله يفتح هذه البلدة علينا على يديك »*

ثم انه طوى الكتاب وختمه * وساءل المسلمين من ينطلق به . فاسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي * فامتطى ناقة له كوماء وسار يقصد « المدينة » في بلاد العرب وهي كرسي الخلافة الاسلامية يومئذٍ ومقر السلطنة العربية

الفصل الثامن عشر

الخليفة عمر بن الخطاب

وسفره الى الشام

الرسول في المدينة · رأي علي وعثمان · سفر الخليفة · مطيته · طعامه · ثلاثة حوادث رآها في طريقه · ابو استير في الجابية ونبوءته · عمر والقس الذي يعارضه في صلاته · بلال واذانه · اثارة بلال المسالة الاجتماعية · حركة جبلة لعمر يقبل بها افعى المدينة الهائلة

وطوى الرسول عدة ليال لم يذق فيها طعم الكرى * وكان وصوله الى « المدينة » ليلاً * فكره ان ينزل عند احد من الناس فاناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد فسلم على القبر النبوي وقبر ابي بكر ثم اتى مكاناً في المسجد ونام فيه نوماً عميقاً * · فلم يستيقظ الا على صوت عمر يؤذن وكان يغلس في الاذان * ثم دخل الامام الى المسجد وهو يقول « الصلاة رحمكم الله » * فنهض الرسول في من نهض وتوضاء وصلى خلف عمر صلاة الفجر · وبعد الصلاة انحرف عمر عن محرابه فقام الرسول اليه وسلم عليه · فلما نظر عمر اليه صافحه واستبشر وقال « ميسرة ورب الكعبة · ما وراءك يا ابن مسروق » * فدفع اليه الرسول الكتاب · فقرأه الامام على المسلمين الحاضرين في المسجد وفيهم الامراء والصحابة يتقدمهم علي وعثمان بن عفان * فاستبشر الجميع به لقرب وقوع عاصمة الروم الدينية وبلد الانبياء في ايديهم · فقال عمر يستشيرهم في الرحيل او الاقامة « ما ترون رحمكم الله فيما كتب ابو عبيدة » * وكان اول من تكلم عثمان بن عفان * فقال « يا امير المؤمنين ان الله قد اذلّ الروم واخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر اصحابنا مدينة ايلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلاً وضعفاً ورعباً · فان انتَ اقمتَ ولم تسرْ اليهم رأوا انك بامرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا يلبثون الاّ اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية » * فقال عمر « جزاك الله خيرًا » * ثم التفت الى باقي المشيرين وقال « هل عند احد منكم رأي غير هذا » * فيظهر ان المنافسة كانت موجودة بين علي وعثمان قبل وصول عثمان الى الخلافة ولذلك كان علي يتعرّض احياناً لعثمان كما تقدّم · فاجاب « نعم عندي غير هذا الرأي · وانا ابديه لك رحمك الله » * فقال عمر « ما هو يا ابا الحسن » * فاجاب علي « ان القوم قد سالوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين · وقد اصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام · واني ارى انك ان سرتَ اليهم فتح الله هذه المدينة على

بديك وكان في مسيرك الاجر العظيم في كل ظماء ومخمصة وفي قطع كل واد وصعود كل جبل حتى تقدم عليهم . فاذا انتَ قدمتَ كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح . ولستُ آمن ان ييأسوا (اي الروم) منك ومن الصلح ويملكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم فيدخل على المسلمين من ذلك الهمّ والبلاء . لا سيما بيت المقدس عندهم وهو معظّم واليه يحجّون فلا يتخلّفون عنه . والصواب ان تسير اليهم ان شاء الله تعالى»*(١) فقال عمر حينئذ « لقد احسن عثمان النظر في المكيدة للعدوّ واحسن عليّ المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرًا . ولست آخذ الا بمشورة عليّ » * ثم امر الناس بالاستعداد للمسير معه

فيا له من زمن صغير كبير ذلك الزمن الذي كانت فيه ملوك الامم وقوادها يرجعون الى رجال العقل والفكر في سياسة ممالكهم ويفصلون في الامور السياسية الجسام التي عليها تتوقف حياة ممالك ودول عظيمة في مسجد صغير ساذج في مدينة صغيرة ساذجة بدون كلفة بين افراد من الاصحاب والاصدقاء كأنهم عائلة واحدة

على طريق الشام

ولما فشا الخبر ان عمر مسافر الى الشام خرج الناس في المدينة لتوديعه وتشييعه * فاتى عمر المسجد فصلى فيه اربع ركعات ثم قام الى القبر النبوي فسلم عليه وعلى قبر ابي بكر * واستخلف على المدينة علي ابن ابي طالب * ثم خرج « على بعير (٢) له احمر وعليه غرارتان في احداهما سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد » * وكان مرتديًا « بمرقعة من صوف وفيها اربع عشرة رقعة بعضها من ادم » * « وعلى راسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها راسه » *

هكذا كان لباس الامير العظيم الذي فتحت له كنوز قيصر وكسرى

وكان معه جماعة من الصحابة ممن شهدوا وقعة اليرموك وعادوا الى المدينة بعدها في جملتهم الزبير وعبادة بن الصامت *

وانطلق بعير عمر ووراءه مطايا اصحابه في رمال بلاد العرب وقفارها وسهولها وجبالها يقصد بيت المقدس . وكان عمر اذا نزل منزلاً لا يبرح منه حتى يصلي الصبح . فاذا انفتل

---

١ اما رواية ابن الاثير فانها تناقض هذه الرواية . فانه روى ان عليًا قال لعمر اذ رام المسير الى الشام « اين تخرج بنفسك انك تريد عدوًا كلِبًا . فقال عمر ابادر بالجهاد قبل موت العباس . انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل »

٢ يقول ابن الاثير انه قدم على فرس

من الصلاة اقبل على المسلمين وخطب فيهم يحضهم على الاتحاد*وشكر الله على نعمه « ثم يأخذ الجفنة فيملأها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرّب للمسلمين ويقول : كلوا هنيئاً مريئاً . فيأكل ويأكل المسلمون معه »*

هذه كانت مائدة صاحب السلطنة العربية التي كانت آخذة بالامتداد من شاطىء البحر الاحمر الى ما وراء الفرات . فلا طباخ ولا تانقٌ ولا تمتع . وانما طعام طبيعي بسيط ياكله الانسان ليعيش بدل ان يعيش لياكل ويفعم جوفه بالاطعمة المختلفة التي تفسد صحة النفس والبدن

وبعد مدة وصل الامام الى ماء لجذام يُدعى « ذات المنار »*وكان هنالك طائفة من عرب جذام . فنزل الامير على الماء . فبعد حين جاءه قوم منهم وقالوا « يا امير المؤمنين ان عندنا رجلاً له امراتان وهما اختان لاب وام . فغضب عمر وقال عليَّ به . فاتي بالرجل اليه . فقال له عمر . ما هاتان المراتان . قال الرجل زوجتاي . قال فهل بينهما قرابة . قال نعم هما اختان . قال عمر . فما دينك . الست مسلماً . قال بلى . قال عمر او ما علمتَ ان هذا حرام عليك والله يقول في كتابه (وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف) فقال الرجل ما علمتُ . وما هما عليَّ حرام . فغضب عمر وقال . كذبتَ والله انه لحرام عليك . ولتخلينَّ سبيل احداها والا ضربتُ عنقك . قال الرجل افتحكم عليَّ . قال اي والله الذي لا اله الا هو . فقال الرجل ان هذا دين ما اصبنا فيه خيرًا ولقد كنتُ غنياً عن ان ادخل فيه . قال عمر ادنُ مني . فدنا منه . فخفق راسه بالدرة (السوط) خفقتين وقال له . اتتشاءم بالاسلام يا عدوَّ الله وعدو نفسه . خلِّ يا ويلك سبيل احداها والا جلدتك جلدة المفتري . فقال الرجل كيف اصنع بهما وانا احبهما ولكن اقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنتُ لها وهي لي وان كنتُ لهما جميعاً محباً . فامر عمر فاقترع . فوقعت القرعة على احداها فامسكها واطلق سبيل الثانية . ثم اقبل عليه عمر وقال له . اسمع ياذا الرجل . وعِ ما اقول لك . انه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه : فاياك ان تفارق الاسلام . واياك يبلغني انك قد اصبتَ اخت امراتك التي فارقتها فانك ان فعلتَ ذلك رجمتك »*(١)

ثم انطلق عمر فمرَّ في طريقه بحيٍّ من بني مرة « فاذا بقوم قد اقيموا في الشمس يُعذَّبون . فقال لهم عمر ما بال هؤلاء يعذَّبون . فقيل . عليهم خراج . قال فما يقولون . قال يقولون ما نجد ما نؤدي . فقال عمر دعوهم ولا تكلّفوهم ما لا يطيقون »* فخلوا سبيلهم ثم سار « حتى اذا كان بوادي القرى اخبروه ان شيخاً على الماء وله صديق يودّه

١ » رواه الواقدي نقلاً عن عمر بن مالك العبسي الذي كان مع عمر في هذا السفر

فقال له صديقه هل لك ان تجعل لي في زوجتك نصيباً واكفيك رعي ابلك والقيام عليها.
قال له الشيخ قد فعلتُ . فلما أُخبر عمر بذلك امربهما فاحضرا فقال : ويلكما ما دينكما .
فالا الاسلام . قال عمر فما الذي بلغني عنكما اما علمتما ان ذلك حرام في دين الاسلام.
قالا لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشاب ان بلغني عنك شيءٌ من ذلك بعدُ
ضربتُ عنقك »*

وكان عمر قد كتب الى امراء الجند في بيت المقدس ان يلاقوه بالجابية (١) ليوم سماه لهم. فلما بلغ جند الشام خبر قدومه « ارتجّ الناس وهموا ان يركبوا لاستقباله باجمعهم. فقال لهم ابو عبيدة « عزيمة على كل رجل ان لا يخرج من مركزه »* ثم سار ابو عبيدة في اناس من المهاجرين والانصار . فلما وصل عمر الى الجابية كان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد بن الوليد وهم على الخيول وعليهم الديباج والحرير * فنزل عمر واخذ الحجارة ورماهم بها للبسهم ملابس الروم وقال « ما اسرع ما رجعتم عن رايكم . اياي تستقبلون في هذا الزيّ . وانما شبعتم منذ سنتين . وبالله لو فعلتم هذا على راس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » (١) فقالوا « يا امير المؤمنين انها يلامعة » (اي سلاح يلمع) قال « فنعم اذن » (٢) ثم ركب حتى دخل الجابية

وما استقرّ المقام بعمر في الجابية ليستريح من وعثاء السفر حتى تقدَّم اليه رجل غريب الزي وقال « يا امير المؤمنين انك لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك ايلياء (٣) فالتفت عمر الى ابي عبيدة وساله من هذا الرجل (— فاجاب ابو عبيدة هو يوسف اليهودي الذي طلب ان يتقدمنا الى بيت المقدس . فلم يلتفت عمر اليه . وعند الفجر صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطب فيهم خطبة حسنة حضّ فيها الحاضرين على الاتحاد وشكر الله وقراء الآية « من يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن يجد له ولياً مرشداً » *وكان قس من المسيحيين حاضراً فقال« ان الله لا يضلُّ احداً » * (٤) فلما كرر القس هذا القول قال عمر « ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه »*فسكت القس*وحينئذ همس ابو عبيدة (— في اذن

---

١ » من اعمال دمشق في شمالي حوران

١ » ابن الاثير ٢ » ابن الاثير

٣ » روى ابن الاثير والطبري وغيرهما ان يهودياً اسمه يوسف لقي عمر بالجابية وقال له هذا القول . فجاء هنا محكم الانطباق على ابي اسنير

٤ الواقدي

الامير عمر : حيّا الله الامير وبيّاه فانه كره العقاب الا بعد الانذار مع ان الرجل عادٍ علينا . فلا عجب في ان يحبنا مخالفونا لتساهلنا الى هذا الحدّ

ثم اخذ ابو عبيدة « يحدث عمر بما لقي الجند من الروم وعمر باهت فتارة يبكي وتارة يهدأ . فلم يزل كذلك الى ان حضرت صلاة الظهر . فقال الناس يا امير المؤمنين اسأل بلالاً ان يؤذن لنا * وبلال هو العبد الذي كان مؤذن النبي وكان قد حضر الى بيت المقدس اغتناماً لاجر القتال في سبيل فتحها . فقال عمر لبلال « يا بلال ان اصحاب رسول الله يسألون ان تؤذن لهم وتذكّرهم اوقات نبيهم » * « فقال بلال نعم » * ثم اخذ يؤذن الظهر . « فلما قال الله اكبر خشعت جلودهم واقشعرّت ابدانهم . فلما قال اشهد ان لا اله الاّ الله اشهد ان محمداً رسول الله بكى الناس بكاءً شديداً حتى كادت قلوبهم تتصدع عند ذكر الله ورسوله » *

ويظهر ان بلالاً راى في جند المسلمين شيئاً جديداً لم يره من قبل . وفي الحقيقة ان هذا الشيء ليس بالجديد فانه ازلي لوجوده منذ وجود الانسان تقريباً . وهو ان اكابر المسلمين واجناد الشام كانوا « يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي » * والضعفاء كثيراً ما كانوا لا ينالون شيئاً . وبما ان بلالاً قد نشأ في احضان النبوة فقد راى لنفسه حق الشكوى من هذه الحالة الجديدة . فشكى ذلك بعد الاذان الى الامام عمر * مختتماً قوله بهذه العبارة « الكل يفنى ومآله الى التراب ومصيرنا اليه » * فاجابه يزيد بن ابي سفيان « انّا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به انفسنا مدة من الزمان في الحجاز لان الاسعار رخيصة في بلادنا هذه » * فقال عمر « ان الامر كما ذكرتَ فكلوا هنيئاً مريئاً » * ولكنه اردف ذلك بقوله انه سيفرض لكل اهل بيتٍ ما يكفيهم من البرّ والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون اليه

فنحن اذا رمنا ان نسمّي هذا الامر باسمه العلمي المألوف اليوم فاننا نقول ان الامام باهتمامه هذا كان يهتمّ بالمسالة الاجتماعية العظمى . وغنيّ عن البيان ان المبدأ المسيحي والمبداء الاسلامي في هذه المسالة مناقضان لمبداء المدنية الحاضرة القائمة على مبداء تنازع البقاء وبقاء الافضل . ولكن المدنيّة الحاضرة بدأت تعود الى المبداء المسيحي والمبداء الاسلامي من حيث اهتمام الهيئة الاجتماعية بجميع الافراد . وهو مبدأ الاشتراكية الجديد الذي قد طما سيله على اوروبا ولا يُعرف مستقبله الآن معرفة جليّة

ولما سمع ابو عبيدة جواب يزيد وحكم عمر انحرف نحو الامير وقال (— « لقد احسن

امير المؤمنين ورايه الموفق ان شاء الله في اسعاد احوال فقراء المسلمين · فان المسلمين اخوة وهم بعضهم لبعض كالبناء المرصوص · لا كالروم الذين يتمتع اغنياؤهم بملاذ الدنيا ويتركون فقراءهم كالكلاب »

ولكن ابا عبيدة كان يجهل ويا للاسف انَّ ما حلَّ بالروم في مدنيّتهم الواسعة سيحل بالمسلمين ايضاً عند اتساع مدنيّتهم ويقوم يومئذ « حق الملكية (١) المطلق » الذي عليه مدار المعاملات في هذا العصر مقام كل شيء

ولما همَّ عمر بالرحيل الى معسكر المسلمين قرب بيت المقدس وهو على بعيره وعليه مرقَّعته قال له بعض الامراء « يا امير المؤمنين لو ركبتَ بدل بعيرك جواداً ولبستَ ثياباً بيضاً » * لاستقبال الروم بها · فاجابهم عمر الى ذلك « فلبس ثياباً مصنوعة في مصر تساوي خمسة عشر درهماً (٢) وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه اليه ابو عبيدة وقُدّم اليه برذون اشهب من براذين الروم » * فلما صار عمر على ظهر البرذون صار البرذون يهملج به ويتجلجل ويختال · فاسرع عمر الى النزول عنه وضرب وجه البرذون وقال « لا اعلم من علّمك هذه الخيلاء » (٣) ثم التفت الى اصحابه وقال « اقيلوا عثرتي اقال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كاد اميركم ان يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر واني سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من الكبر ولقد كاد ان يهلكني ثوبكم الابيض وبرذونكم المهملج » * ثم ان عمر خلع الثوب الابيض وعاد الى مرقعته وبعيره

فيا لجمال هذه الحركة التي نبذ بها عمر الثوب المصري الابيض ليعود الى لبس المرقّعة الصوفية وأبعد الفرس المختال ليعود الى البعير الذلول المتضع · وربما يظهر ذلك لابناء هذا العصر حتى المسلمين انفسهم امراً غريباً صغيراً ولكن الذين يعرفون سرَّ فعل عمر لا يستغربون صنعه · نعم ان كل ما في الارض من شقاء وشرور وفساد مصدره شيء واحد وهو « كبرياء الانسان » فالانسان لا يحلّل كل المحرّمات في سبيل جمع المال وانماء الثروة الاَّ ارضاء لكبريائه · لا يسطو فرد على فرد او شعب على شعب لاذلاله وسلب ما في يده الا لارضاء كبريائه · لا يُرى الانسان متصدراً مختالاً فخوراً كانه مفرد في الدنيا كلها وكأنَّ الدنيا كلها ملك يده مع انه اصغر من فيها — الا ارضاء لكبريائه · لا تُسخَّر الالوف من البشر في بناء المدن

١ اي حرية الانسان في ان يمتلك ما يشاء ويتصرف به كما يشاء · وما دام هذا حقه المطلق ففرض الاحسان والزكاة عليه من قبيل العبث والغو لان ذلك معلّق بارادته ٢) الواقدي عن الزبير ٣) ابن الاثير

والقصور وصنع الزخارف وحشد الجنود واقامة المعامل التي تشقى فيها فئة من البشر لتسعد بها فئة اخرى — الارضاء لكبريائه · فمتى مُحيت هذه الكلمة « الكبرياء » من قواميس البشر ومن نفوسهم فحينئذ تصبح الارض مكاناً طيباً ويبطل اصل الفساد فيها · حينئذ لا يعود فيها سيد ومسود · وعبد وحر · وكبير وصغير · وغني وفقير · بل يكون الجميع اخوة في الاتضاع والدعة والسذاجة ومكارم الاخلاق كما يكون الاولاد في طور سذاجتهم · فلنخفضنَّ هنا رؤوسنا احتراماً للامام الجليل الذي رام بتلك الحركة الجميلة سحق افعى الكبرياء في نفسه ونفس امته · ولنؤاخينَّ بين هذه الحركة الجميلة وقول كتاب المسيحيين «ان لم ترجعوا وتصيروا كالاولاد فلا تدخلوا ملكوت السموات » — فان هذه بمعنى تلك وتلك بمعنى هذه

الفصل التاسع عشر

بين الامام عمر والبطريرك صفرونيوس

(فتح المدينة صلحاً)

معرفة البطريرك عمر من صفته · في ان نفس الاسكندر لم تكن اكبر من نفس عمر ·
حديث سرّي بين الامام والبطريرك · الرّق السري · صورة العهد ·
فتح العرب اورشليم كان بلاء على الشرق كله

ثم سار عمر من الجابية وحوله امراء المسلمين وما زال سائراً حتى اشرف على معسكر الجند وبيت المقدس · فلما ظهرت له المدينة صاح « الله اكبر اللهمَّ افتح لنا فتحاً يسيراً واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً » * وما اشرف عمر بموكبه على المعسكر حتى قامت العشائر والقبائل على ساق وقدم وهرعت لاستقباله بالتهليل والتكبير * فارتجت الارض واشرف اهل المدينة من عن الاسوار ليعلموا سبب تلك الضجة الهائلة · ولما علموا بقدم عمر ذهب احدهم واخبر البطريرك « فاطرق البطريرك ولم يتكلم » * اما عمر فانه نزل في خيمة من شعر * ضُربت له بجانب خيمة ابي عبيدة * « فجلس فيها هناك على التراب · ثم قام يصلي اربع ركعات » *

وبات العرب تلك الليلة فرحين بقدم اميرهم وخليفتهم · فلما كان الغد وصلى عمر صلاة الفجر قال لابي عبيدة « يا عامر تقدَّم الى القوم واعلمهم اني قد اتيت » * فذهب

ابو عبيدة وابلغ الواقفين على الاسوار هذا الخبر. فذهبوا واعلموا البطريرك «فخرج البطريرك من كنيسته وعليه المسوح وترجّل الرهبان والقسس والاساقفة معه وقد حُمل بين يديه صليبُ لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه والي المدينة وهو يقول للبطريرك . يا أَبانا ان كنتَ تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتحْ له ودعنا وهوءلاء العرب فاما ان نبيدهم واما ان يبيدونا »*
فاجابه البطريرك (- يا ولدي . انَّ ولدنا ايليا الذي تعرفه كان يطوف امس على الاسوار فابصر الفارس الذي ذكره لنا وهو ابن معدي كرب فارسل اليه هذا الفارس نبلة وقد ربط بها كتاباً فيه ثلاث كلمات باللغة اليونانية وهي هذه « لقد وفد عمر » ولستُ اشكُّ في صدق هذا الرجل بعد ما بلغني عنه . وفضلاً عن ذلك فان ولدنا يوحنا الغساني يعرف الامير لان بعض عرب المدينة وصفوه له . فقال الوالي وما صفته . فقال البطريرك : هو في الخامسة والخمسين من العمر (١) اصلع طويل يظهر لطوله كانه راكب . ابيض اشيب ابهق (اي شديد البياض) تعلوه حمرة وهو يصفر لحيته ويرجل راأسه » (٢)

فلما اشرف البطريرك ورجاله على ابي عبيدة من عن السور قال البطريرك « ما تشاء ايها الشيخ الباهي »* فاجاب ابو عبيدة « هذا امير المومنين عمر وليس عليه امير قد اتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الامان »* فقال البطريرك « يا ذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه امير قد اتى فدعه يدنو منا »* واقرأه عني السلام (- وقل له انني احبُّ مقابلته فاستغرب ابو عبيده هذه اللهجة الودادية الجديدة . فعاد الى عمر وابلغه جواب البطريرك ولكنه لم يبلغه سلامه الا همساً في اذنه . فاطرق عمر ثم همَّ بالقيام * « فقال له اصحابه يا امير المؤمنين . اتخرج اليهم منفرداً وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانّا نخشى عليك منهم غدراً او مكراً فينالون منك »* فلم يجب عمر ولكنه قرأ الآية * « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتكل المؤمنون » ثم استوى على بعيره وعليه مرقعته « وعلى راسه قطعة عباء قطوانية وقد عصب بها راسه وليس معه الا ابو عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قربَ من السور ووقف بازاء السور والبطريرك والوالي » *
وكان يوحنا الغساني الذي تقدَّم ذكره واقفاً وراءهما

فلما دنا عمر من السور ووقع نظر يوحنا عليه همس يوحنا في اذن البطريرك والوالي قائلاً : وحياة العذراء مريم هذا هو

---

١ كان عمر عمر يوم وفاته اي بعد ثماني سنوات من هذا التاريخ ٦٣ سنة برواية ابن الاثير

٢ ابن الاثير

فانحنى البطريرك رأسه مسلماً ونادى من اعلى السور : افتحوا الباب للامير

فلم يفهم عمر كلام البطريرك ولكنه لم يلبث ان ابصر الباب يُفتح في وجهه وخرج الناس منه * « فتواضع عمر حينئذ لله وخرّ ساجداً على قتب بعيره » * ثم نزل للاقاة البطريرك اذ اعلموه انه قادم لاستقباله

وبعد دقيقتين ظهر البطريرك صفرونيوس في الباب ومعه قس من اخصائه يعرف العربية ليترجم له . فلما رآه عمر وابو عبيدة تقدّم الاول وتنحّى الثاني

وكانت الاسوار حينئذ غاصة بالناس وهم يتطاولون ليشاهدوا ملتقى عميدي المسيحية والاسلام وكأنّ على رؤوسهم الطير

اما قبائل العرب من بعيد فانها كانت تهلل وتكبر ابتهاجاً بفتح بلد عيسى وموطن الانبياء

ولما دنا عمر من البطريرك مدّ البطريرك اليه يده مصافحاً فمدّ عمر يده اليه . وكان البطريرك ينظر في وجه عمر وعمر ينظر في وجه البطريرك . فيظهر ان نفسيهما اتفقتا الاول نظرة لانّ النفوس الكبيرة تتعارف حين التقائها بالنظر كما يتعارف باقي الناس بالكلام.

فابتدأ البطريرك الحديث بقوله : لقد طلبتُ ان يكون الامير الكريم متولي عقد الصلح بيننا لانني اذا وضعتُ هذه المدينة المقدّسة في عهده وذمته خاصةً اكون في امنٍ عليها وعلى اهلها من كل وجه . وانا الآن القي مفاتيحها اليه

فلما ترجم الترجمان هذا الكلام لعمر اشار عمر برأسه موافقاً على كلام البطريرك واجاب : المسلم من حفظ العهد ورعى الود . ونحن جميعاً عباد الله فعلينا ان نكفل بعضنا بعضاً

فسرّ البطريرك بهذا الجواب . وعلم انه وضع ثقته في من هو اهل لكلّ ثقة . فطلب من الامير ان يدخل معه الى غرفة قرب باب السور ليخلو به فيها بضع دقائق . فلم يتردد الامير في الدخول بل مدّ رجله وتخطّى عتبة الباب . فلما رآه ابو عبيدة يضع قدمه في تلك المدينة المدججة بالسلاح ليدخل اليها وحده اصفرّ وجهه خوفاً عليه . وكان البطريرك قد تنبَّه لذلك من تلقاء نفسه . فانه لما رأى اصفرار وجه ابي عبيدة تألّم من سوء الظن ووقف ممتنعاً عن الدخول بالامير . ففهم حينئذ عمر ذلك فنظر الى ابي عبيدة وابتسم ابتسامة تأنيب ثم دخل مع البطريرك

يروى في التاريخ القديم ان اسكندر الكبير كان يثق بطبيب له كل الثقة . ففي ذات يوم ورده كتاب فحواه ان هذا الطبيب عازم على تسميمه . واتفق ان الاسكندر فرغ من تلاوة هذا الكتاب حين دخول طبيبه عليه يحمل له كأس دواء . فتناول

الاسكندر الكأس في يد وناوله الكتاب في يدٍ اخرى . ثم شرب الكاس قبل ان يقرأ طبيبه ذلك الكتاب * فالمؤرخون والكتَّاب يهتفون هتاف الدهشة حين وقوفهم على هذا الامر اعجاباً بثقة الاسكندر وشجاعته ويقولون انه لا يصدر الا عن نفس عظيمة كنفس الاسكندر . ـ قلنا ولكن صنع عمر هذا ليس باقلّ من صنع الاسكندر

وكانت الغرفة التى اجتمع فيها عمر والبطريرك بجانب باب السور . ولم يكن معهما غير القس ترجمان البطريرك

فقال الامير بعد جلوسه موجهاً السؤال الى الترجمان ماذا يريد البترك

فاجاب البطريرك : اريد قبل كل شيءٍ صداقة امير مثلك . فاننا نحن معاشر رؤساء الامم تجمعنا جامعة الرئاسة وان فرَّقت بيننا المذاهب . وكلنا نعبد الهاً واحداً لا اله الا هو ولا شريك له وعلينا تدبير نفوس رعايانا لابقائها في سبيل الفضيلة والخير . فاذا اختلفنا في الجزئيات والظواهر فنحن متفقون في الكليات والبواطن . فعلينا اذاً ان ننظر الى ما يجمعنا لا الى ما يفرّقنا . ولذلك اطلب من الامير ثلاثة امور . الاول ان يكتب لنا عهداً بالصلح نحفظه عندنا للمستقبل . والثاني ان يوصي رجاله بان لا يتعرَّضوا لاحد منا في دينه . والثالث ان لا يصلّي بجانب قبر المسيح في كنيستنا الكبرى لانه يعلم انه اذا صلّى هناك طلب المسلمون جعل المكان مسجداً

فلما تُرجم هذا الكلام للامير أطرق ثم قال . أهذا كل ما يريده البترك . فقيل له نعم . فنهض عمر ووضع يده في يد البطريرك وقال : نحن كما قلتَ . اما العهد فساكتبه الساعة وارسله اليك . ولولا رغبتي في ان يشهد عليه شهود من المسلمين لئلا يُشتبه به في ما يأتي من الزمن لكتبته الآن . واما الوصية فوالله الذي نفس عمر في يده انكم لا تجدون احداً منا يعتدي على احد منكم بغياً وظلماً . وعندنا « لا اكراه في الدين » . واما الصلاة بجانب قبر عيسى عليه السلام فساءفعل ما ذكرتَ لانني اشد رغبةً منكم في اجتناب النزاع على قبر عيسى في مستقبل الزمان وانتم احقُّ منا به

ثم همَّ الامير بالخروج فمدَّ البطريرك حينئذ يده الى جيبه وتناول منها رقاً مطوياً . ثم ناوله للامير يداً بيد وقال للترجمان : اخبره ان هذا الرقَّ مكتوب بلغتنا وفيه امرٌ سري لا أُحبُّ ان يعلم احدٌ انني صاحبه . فليمعن فيه النظر ثم يعيده اليَّ غداً او بعده

فاخذ الامام عمر الرقَّ ووضعه في ثيابه ثم خرج مودعاً . ولما ظهر الامام لابي عبيدة من الباب تنفَّس ابو عبيدة الصعداء وحمد الله على سلامته . ثم سارا معاً عائدين الى

معسكر المسلمين . فاستقبلهما المسلمون بهتاف طبق السماء ابتهاجاً بفتح المدينة . وقبل الظهر كتب الامام عمر عهد الصلح وارسله مع احد رجاله الى البطريرك وهذه صورته (١)

, بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها و بريئها وسائر ملتها انهُ لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيّزهـا ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارُّ احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود . وعلى اهل ايلياء ان يُعطوا الجزية كما يُعطي اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم(٢) واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسهُ وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من اهل الارض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم قعد وعليهِ مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى اهله . فانهُ لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصدَ حصادهم . وعلى ما في هـذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان . وكتب وحضر سنة ١٥

فيا اورشليم استعدي فهذا عنصر جديد قد انضمَّ الى عناصرك . وكل محب للشرق يتمنى لو لم يكن هذا الانضمام لانه سيجرُّ على الشرق كله و يلات هائلة(٣) سيما متى يوم يأتي او رشليم الجميلة يُنسى فيه هذا العهد العمري فتشتدُّ دواعي الجهل والبغض بين عناصرك . وحينئذ يختل ميزان العدل بين الناس و يفشو الاضطهاد فيتخذ الغرب هذا الامر حجةً للزحف على شرقك رغبةً في استخلاصك . حينئذ تقوم حرب هائلة بين الشرق والغرب . وهي الحروب التي سيسمونها حروباً صليبية . وستجني هذه الحروب يا اورشليم على الشرق جناية هائلة لانها ستكون من اسباب زوال مدنيته العظمى وانتقالها الى الامم الغربية وزيادة الاحقاد بين العناصر البشرية زيادةً تشوّه وا اسفاه وجه الانسانية

---

١) كما رواه الطبري ٢) اي اليونان وهذا القول يدلُّ ابلغ دلالة على صحة استدلالنا السابق من ان العرب في زحفهم لفتح الشام كانوا مسالمين للامة السورية اي اهالي الشام ولم يكونوا معادين الا للروم « اليونان » ورؤسائهم ٣) هذا الراي جدير بالاعتبار اذ لو لا الرغبة في استخلاص قبر المسيح لما تمكّن رؤساء الغرب من اثارة نفوس العوام والجنود في اوربا لسوقهم على الشرق

الفصل العشرون

﴿في حيّز هيكل سليمان القديم﴾

(المسجد الاقصى — عود الى استير)

ترجمة الرّق السري . الجواب عليه بابتسامة . عودة الى استير بعد رحيل ايليا . تخاصم ضرار وابن معدي كرب فيها . في دائرة الهيكل . كعب الاحبار واسلامه . مراقبة عمر له . رسول البطريرك الى عمر . بين استير وايليا . ارميا يضرب ضربة ثانية

وبينما كان البطريرك يتلو صورة العهد الذي ارسله عمر اليه ويتأمل فيه وفي قوله « ان يخرجوا الروم » كان عمر منفرداً بابي عبيدة يسأله ترجماناً لترجمة ما في الرق الذي دفعه البطريرك اليه . فقال ابو عبيدة : العجب من انه لم يعهد البترك الى ترجمانه ترجمته لامير المؤمنين . فقال عمر : لعله يا عامر يكره ان يعلم به احد من قومه فهات من يترجمه لنا . فبعث ابو عبيدة في طلب اليهودي يوسف

فلما وفد الشيخ ابو استير كان مضطرباً دامع العين . فسأله ابو عبيدة عن سبب بكائه . فاشتد بكاؤه واجاب انه رام الرحيل بعيلته منذ مدة لمعالجة اعتلال ألمَّ بابنته فحالوا دون سفره . فسأله ابو عبيدة : ومن حال دون سفرك . فسكت يوسف

وكان الامام عمر يسمع الحديث فقال دون ان يلتفت الى يوسف : ياذا الرجل قل من حال دون سفرك

فاجاب الشيخ : ضرار وابن معدي كرب

فاصلح عمر جلوسه في مقعده وقال : مأرب لا حفاوة . ثم قال مخاطباً ابا عبيدة . ياعامر انظر في امر الرجل فانني ارى هنا ظلامة

فانفرد ابو عبيدة بالشيخ واستخبره الخبر . فعلم منه ان ضراراً وعمراً بن معدي كرب قد تبارزا في ذلك الصباح وكاد يجري دم احدهما لولا دخول بعض المسلمين بينهما . وسبب ذلك ان عمراً بن معدي كرب كان يطلب نقل الشيخ ابي استير الى خيمته من خيمة ضرار وضرار يأبى ذلك . فسأل ابو عبيدة الشيخ : وانت في اي الخيمتين تريد الاقامة . فاجاب الشيخ مضطرباً . اما انا فانني استأذن في السفر ايها الامير فان ابنتي في اعتلال شديد وقد سهرتُ طول الليلة عليها . فقال ابو عبيدة . متى شئت فارحل واذا منعك احد فاخبرني

لكن قبل رحيلك ينبغي ان تدخل معنا غداً الى بيت المقدس لتكون دليلنا فيها

ثم ذهب ابو عبيدة وهمس ببضع كلمات في اذن عمر . فانغض الامام راسه وقال "انهنّ فتنة للعالمين" . وبعد ذلك دفع ابو عبيدة « الرق السري » الى الشيخ وقال له . ترجم لنا هذا الرق واكتب ترجمته على رقٍ آخر وادفعهما الينا ثم عد من حيث اتيت

فاطاع الشيخ وفعل ذلك ثم عاد مسروراً بانه سينقذ ابنته من تخلي اسدين

ولكن الشيخ كان يتساءل وهو خارج من خيمة الامام بقوله : ترى من هو صاحب هذا الاقتراح الغريب الذي يُسقط آمالنا في مملكتنا . وبقي يفكّر في ذلك طول الطريق

اما عمر فبعد خروج الشيخ تناول ترجمة الرق باهتمام وصار يتلوها . وكان تارةً يبتسم في اثناء تلاوتها وطوراً يعبس . ولما اتى عليها اعاد النظر فيها . ثم بعد فراغه منها القاها الى ابي عبيدة وهو يبتسم فتلاها ابو عبيدة ثم نظر الى عمر مدهوشاً . فضحك عمر وقال : مزق الترجمة يا عامر وسأرد الاصل الى صاحبه

***

وبما اننا قد عدنا الى استير بعد التفاصيل الطويلة التي تقدّمت فيجب ان نذكر ما جرى لها بعد دخول ايليا الى المدينة

بقيتْ استير تنتظر ايليا في ذلك النهار حتى جنّ الليل . ولما ابطأَ ظنّت انه ذهب الى خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حسبما طلب الامير . فنامت تلك الليلة مضطربة . وقد راءت في الحلم في تلك الليلة ان ايليا جاثٍ امامها يعيد لها التصريح بحبه . فانتبهت في الصباح وقد زاد حبُّها له

لكن في الصباح لم يأتِ ايليا

فلما تعالت الشمس ولم يأتِ ايليا ايضاً ازداد قلق استير . وكان ارميا يُكثر التردد عليها وينظر اليها نظرات خصوصية لم تفهم معناها . وكان كأنه يقول لها بتلك النظرات « لقد ابعدتُه عنك الى الابد » . فلما انتصف النهار ولم يأتِ ايليا ايضاً قالت استير لارميا . يا كيريه ارميا اين ذهب كيريه ايليا هل بات الليلة عند عمرو بن معدي كرب . فابتسم حينئذ ارميا ابتسامة شيطانية وقال : كلا ايتها السيدة : ان كيريه ايليا قد رحل الى المدينة

فاجفلت استير لهذا الكلام . وشعر ارميا ببغتتها فقال ليجهز على آمالها : والارجح عندي ايتها السيدة انه لا يعود لانه ودّعني وداع فراق طويل

فصاحت استير ولماذا لم تخبرني بذلك قبل الآن . فاجاب ارميا وقد استشاط غضباً : لانكِ لم تسأليني عنه . وما اهمية رحيله فانّ الارض لا تزال ارضاً

نعم يا ارميا ان الارض عندك لا تزال ارضاً لم تتغيَّر ولم تتبدَّل ولكن قلب استير كان قد تغيَّر وتبدَّل . وليس شيء كالجفاء يغيِّر قلوب النساء . فان استير مع حبها لايليا في ما سبق قد قدرت على فراقه في المزرعة فراراً منه وقد شعرت يومئذ انها بفعلها هذا قد فعلت فعلاً جميلاً سامياً لان ذكر « واجباتها لدين آبائها ولامها » كان يعزّيها عن كل شيء . ولكن لما تركها ايليا وذهب عنها تغيَّر وجه المسألة عندها . فان هذا الجفاء منه احدث في نفسها حدثين عظيمين : الاول انه زاد حبها له وهذا شأن الجفاء على الدوام . والثاني انه جرح كبرياءها وانانيتها جرحاً بليغاً . ولهذين السببين صارت استير لا تطيق ترك ايليا قبل معرفة سبب جفائه هذا

ومنذ هذا اليوم بداءت استير تنحل و تذبل كزهرة انقطعت عنها مادة حياتها . وصارت تذهب في كل يوم الى طريق المدينة مع ابيها لعلها تجد ايليا راجعاً . وكان يذهب اكثر الليل وهي قاعدة في فراشها واذا نامت قبيل الصباح قليلاً فان صورة ايليا كانت تطاردها في رقادها . وكان يتمثل لها ايليا في احلامها هذه غاضباً عليها معرضاً عنها فتنتبه باكية مذعورة وتبقى النهار كله مفكرة متألمة

فلما مضت على استير بضعة ايام على هذا المنوال هزلت وانقلب لونها الوردي الى الاصفرار وقلّ طعامها . فجزع عليها ابوها وامها جزعاً شديداً . ولكنهما لم يقفا على سبب علّتها لان الآباء والامهات قلما يقفون على امثال هذه العلل

وفي اثناء ذلك اشتد التحاسد عليها بين ضرار وعمرو بن معدي كرب واغتاظت استير من تعرضهما لها فعزم ابوها على الرحيل بها عن معسكر العرب . الا ان استير رفضت السفر لغير المدينة المقدَّسة واقنعتْ امها العجوز المتدينة بالاقامة لحضور الحفلة الكبرى التي سيقيمها العرب لاعادة بناء هيكل اليهود القديم . فتمسكت العجوز بهذا المطلب لانه كان من اقصى امانيها كما تقدَّم

* * *

وكان اليوم الذي تم فيه عقد الصلح يوم احد من شهر اذار * في مساء اليوم التالي وهو يوم الاثنين عزم الامام عمر على دخول المدينة لتخطيط مسجد فيها * فوكب في نخبة من امراء المسلمين واعيانهم ودخل الى المدينة ليلاً * فاضطربت المدينة لدخولهم وصار

الناس يسترقون النظر اليهم من النوافذ . وكان الشيخ ابو استير معهم في دخولهم ليدلهم فيها وامامه حمار عليه زوجته العجوز وابنته استير وهي تكاد لا تستطيع الاستواء على مطيتها من الضعف والاعتلال

ومما لا يحتاج الى بيان ان ارميا كان وراء مطيتها بجانب ابيها

ولما صار عمر ورجاله في المدينة اخذهم الشيخ الى دائرة الحرم الحالية فلما اشرفوا على هذا المكان الذي فيه المسجد الاقصى وبيت المقدس هللوا وكبروا . وكان بيت المقدس (١) مدفونًا بالتراب وفضلات المنازل ولم يكن ظاهرًا منه غير الجدار الذي في زاوية سور الحرم الى الجنوب الغربي وهو من آثار هيرودوس الكبير * ولا يزال الى اليوم مناحة الاسرائيليين كما تقدم في موضع آخر

فترجّل عمر ورجاله ودخلوا دائرة بيت المقدس * ولم يلبث ان بزغ الفجر فصلوا فيها صلاة الفجر *

وما كاد عمر يصلي صلاة الفجر حتى قيل له ان رجلاً من اعيان الاسرائيليين قد وفد من احد بلدان فلسطين يريد لقاء الامام * ثم ادخل عليه كعب الاحبار * فسلم كعب * فردّ عمر السلام وقال له « من انتَ » * فاجاب الرجل « انا كعب الاحبار وانني جئتُ اريد الاسلام والدخول فيه » * فقال عمر « احقًا ما تقول يا كعب » * قال « الله يسمع ما اقول ويعلم ما تخفي الصدور . لكن يا امير المؤمنين هل ورد في كتابكم الذي انزل عليكم في امر دينكم ذكر ابرهيم » * فقال عمر نعم وقراء له الآيات التي ذُكر فيها ابرهيم . منها « ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابرهيم واسماعيل واسحق الهًا واحدًا ونحن له مسلمون » فاسلم حينئذ كعب وفرح المسلمون باسلامه *

اما ابو استير فانه اضطرب لاسلام كعب وقال في نفسه : اننا لا نستفيد شيئًا اذا كانت امتنا ستضيع في الاسلام كما تضيع جرة ماء في البحر . وهيكلنا سينتقل من يد عدوٍّ قديم الى يد عدو جديد

ولما اشرقت الشمس سأل عمر عن « بيت المقدس » (٢) وذهب اليه مع كعب الاحبار

---

١ اي هيكل سليمان القديم

٢) هيكل اليهود القديم كما تقدم والراجح ان هذا المكان هو مكان جامع عمر اليوم او هذا الجامع قسم منه واما المسجد الاقصى فهو بجانبه وكان يوم الفتح الاسلامي كنيسة للعذراء بناها الامبراطور جوستنيانوس

وجمهور المسلمين · وفي دخوله الى ذلك المكان قال « ارقبوا لي كعباً » ✲ ثم قال « ايها الناس اصنعوا كما اصنع » ✲ وبعد ذلك جثا الامام على تراب الارض واخذ فرجاً من فروج قبائه ووضع فيه التراب لينقله ويكشف عن آثار المكان ✲ واذا به يسمع تكبير اصحابه وراءه ✲ فقال ما هذا · فقالوا : كبَّر كعب وكبَّر الناس بتكبيره ✲ فطلب كعباً فأُتي به فسأله عن سبب تكبيره · فاجابه ان احد انبياء بني اسرائيل تنبأَ منذ عدة قرون بما يفعله الامير الآن من اكرام هذا المكان بعد اهانته وكان عمر قد قصد بكشف التراب تخطيط جامع هناك فوق الصخرة(١)وهو المعروف اليوم بجامعه ✲ فسأل كعباً « اين ترى ان نجعل المصلى » فاجاب كعب « الى الصخرة » فقال عمر « ضاهيتَ والله اليهودية يا كعب · وقد رأَيتك وخلعك نعليك » فاجاب « احببتُ ان اباشره بقدميَّ » فقال عمر قد رأَيتك · بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها · اذهب فانّا لم نؤمر بالصخرة ولكن أُمرنا بالكعبة ✲

ومنذ هذا اليوم ارتفعت تحت سماء اورشليم جدران هيكل سليمان القديم الذي هدمته المسيحية لانه كان السبب في صلب صاحب شريعتها

وقد اقام عمر في بيت المقدس من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ✲ فلما كان يوم الجمعة كان عمر قد فرغ من تخطيط مسجده وعزم على الصلاة فيه بالمسلمين ✲ فيظهر ان الروم بعد ان شاهدوا العرب من قريب ازدروا بهم واستضعفوهم وندموا على مصالحتهم فتآمر بعض غلاتهم على نقض الصلح والهجوم على امراء المسلمين في يوم الجمعة في المدينة فاذا قبضوا عليهم او قتلوهم بقي المسلمون بلا قواد فيضعف امرهم وتتفرق كلمتهم(٢) فلما علم البطريرك بهذه المؤامرة غضب وبعث يُنذر المحرضين عليها بسوء المنقلب اذا خانوا العهد · فبدا لهؤلاء المحرضين امر آخر وهو انهم اوعزوا الى فريق من اهل المدينة ان يبدوا زيناتهم واموالهم ويخرجوا الحسان الى الاسواق والشوارع لعلّ العرب يمدُّون ايديهم الى تلك

---

١ اختلفوا في اصل الصخرة · على انَّ في جهات شرقي الاردن على الخصوص آثارًا من قبل التاريخ هي عبارة عن حجرين مستطيلين قائمين عموديًا وفوقهما حجر مستطيل ايضًا قائم افقيًا · وبعضهم يقول ان هذه الآثار الحجرية كانت قبورًا بدليل وجود عظام في ارضها و بعضهم يقول بل انها مذابح كانت تُقدَّم عليها الذبائح قبل التاريخ · ويستدلون على هذا بان الحجر الافقي الممدود على الحجرين العموديين منحرف ومائل قليلاً ليجري عنه السيال دم الذبيحة · وربما كان بنو اسرائيل يقدمون الذبائح عليها للرب في الزمن القديم · والصخرة الحالية هي على الارجح احدها · وقد كانت جزءًا من هيكل سليمان القديم « رن، دوسو »

٢ لم نرَ في غير الواقدي اثرًا لهذا الغدر· ومبالغاته مشهورة

الاموال والنفائس فيكون لاهل المدينة عذر في نقض الصلح · فبينما كان عمر يستعد لصلاة الظهر في يوم الجمعة واذ قد وفد عليه رسول من قبل البطريرك ومعه القس الترجمان فادخلوهما على عمر · وكان الشيخ ابو استير واقفاً مع استير في ذلك الحين بعيداً عن مضرب الامير في دائرة الحرم يريها حدود هيكلهم القديم · فلما مرَّ الرسول والترجمان من امامهما صاحت استير وامتقع لونها · — ذلك لان هذا الرسول كان ايليا

ولكن ايليا لم ينتبه للفتاة وابيها فبقي داخلاً مع الترجمان على الامير عمر · ولما مثل بين يديه اخبره من قِبل البطريرك بما قصده بعض متحمسي العوام وسأله ان يوصي قومه بان لا يدعوا لهم سبيلاً الى ما يريدونه · فسرَّ عمر بصدق نصيحة البطريرك واوصى المسلمين في صلاة الجمعة بما أوصى · وبعد الصلاة ذهب ابو عبيدة يتجوَّل بنفسه في الاسواق مع بعض رجاله · وكلما وقعت انظارهم على الحلى والنفائس والنساء الحسان كانوا يقولون : «الحمد لله الذي اورثنا ديار قوم لهم مثل هذا»* · وهكذا لم يلمس احد من المسلمين متاعاً لاحد من اهل المدينة · فلما سمع البطريرك بذلك قال « لا يقوى احد على هؤلاء ما داموا على ما هم عليه من التزام الحق » (١)

وبعد ان ابلغ ايليا الامام عمر هذه الرسالة بقيت عليه رسالة اخرى تقتضي مقابلة الامير وحده · فاستأذن ايليا منه بالانفراد به فاذن عمر في ذلك · فلما صار ايليا امام الامير وحده قال له بلسان رفيقه الترجمان « انا موفد ايضاً من قِبل البطريرك لاسأل الامير ماذا فعل بالرقّ الذي دفعه اليه » — فلما سمع عمر ذلك مدَّ يده الى ثيابه واخرج الرق وقال « اقرىء البترك السلام وقل له ان هذا ما أتى او انه بعد وربما عدنا اليه » فتناول ايليا الرق مختوماً ووضعه في جيبه

ولما همَّ ايليا بالخروج من لدن الامير ليعود بالرق والجواب الى البطريرك قال له عمر : صبراً ايها الشاب فان لي اليك حاجة · فقال ايليا · انا طوعٌ لامر الامير · فقال له الامير · تربص هنا الى ما بعد الصلاة فاخبرك عن حاجتي

فامتثل ايليا امر عمر وخرج لينتظره خارج الخيمة

ولكن كان خارج الخيمة شخصان ينتظران ايليا ايضاً وهما استير وابوها

فلما وقع نظر ايليا على استير من بعيد سرت في جسمه كهربائيته القديمة · فتضعضعت

---

١ معنى هذه العبارة منسوب في الواقدي لابي الجعيد · وهنا نعيد المرة الثالثة قولنا ان الذي لا يوضع عليه علامة النجمة فليس من التاريخ في شيء الاَّ اذا نبهنا اليه

حواسه وانقدت النار في صدره ودماغه

فتقدم ابوها مسرعاً الى الشاب وسلَّم عليه ببشاشة . فردَّ ايليا سلامه بعبوسة لانه لم ينسَ انه كان جاسوساً وخدعه . وفي هذا الحين سمع ابو استير صياحاً فعلم انه صوت زوجته العجوز المقعدة وكانت تتألم من مرضها فاسرع اليها . فبقيت استير مع ايليا وجهاً لوجه

فتقدمت استير حينئذٍ نحو ايليا ببطء مترددة ولما صارت قريبة منه مدَّت اليه يدها وقالت : هل يسمح لي كيريه ايليا ان اصافحه كما يتصافح العرب

فرام ايليا الجواب ولكنه لم يقدر لشدة تاثره خصوصاً لما رآه على وجه استير من آثار الضعف والاصفرار والاعتلال . ولكنه جمع قواه بعد ذلك وصاح : ما بكِ يا سيدتي .

فابتسمت استير ابتسامةً يسميها كتَّاب الافرنج « صفراوية » وقالت بين شفتيها بصوتٍ منخفض « يسائلني ما بي . . . كانه لا يعلم ما بي . . . . » ثم اجابت ايليا « طرأ اعتلال على صحتي يا كيريه ايليا . . وانتَ كيف انت . . . انني اراك في صحة وعافية فيظهر انَّ هواء المدينة وافق مزاجك »

وقد قالت استير هذا القول متهكمةً لانها كانت ترى نحول ايليا واصفرار وجهه .

فابتسم ايليا لهذا التهكم من استير واجاب « اشفقي عليَّ ايتها السيدة لانني اشدُّ اعتلالاً منك »

فسكتت استير واطرقت . وبعد حين قالت بغتةً « يا كيريه ايليا لماذا ذهبتَ دون ان تودّعنا »

فسكت ايليا .

فقالت استير « كيف طاوعتك نفسك يا ايليا على تركي وحدي بين هؤلاء الاقوام بعد ذهابك من المزرعة في طلبي . وماذا طراء عليك فغيَّر عواطفك هذا التغيير »

فسكت ايليا ايضاً

غير انه رأى انه لا بدَّ من الكلام ففكَّر في ماذا يقول واذ وجد ضالته اجاب متلجلجاً : ياسيدتي انني بعد ان اطمأنَّ قلبي ووجدتك سالمة في حيّ العرب ذهب خوفي عليك واعدتُ قراءة كتابك الذي تعرفينه فرأيتُ من واجباتي الابتعاد عنكِ امتثالاً لارادتك

ولكن ايليا لم ينطق بهذا الكلام حتى سمع صائحاً يصيح من وراء خيمةٍ كانت قريبة منه ويقول بغضب « هذا كذب محض فلماذا لا تقول الصدق »

فالتفت ايليا واستير فابصرا ارميا

ذلك ان المعتوه كان مختبئاً وراء تلك الخيمة يسمع حديثهما . فلما راى ان ايليا

واستير يتدرّجان في حديث لطيف الى عواطفها القديمة خاف ان يعود ايليا الى استير ويضرب صفحاً عن حالة ابيها · ولذلك ثار من مكمنه كذئب كاسر وقطع حديثهما

فلما رآه ايليا وسمع قوله ازداد وجهه اصفراراً فغضب وصاح به « ما شأنك يا ابله اذهب في سبيلك »

فبهذا اخطاء ايليا خطاء عظيماً لانه زاد رغبة المعتوه في الانتقام منه وايذائه ابعاداً له عن استير · فصاح ارميا بغضب شديد · اذا كنتُ انا ابله فانتَ كاذب لئيم لا تستحقّ شعرة من رأس هذه الفتاة· اسمعي يا استير لاخبرك الحقيقة · ان هذا الشاب يحتقركِ · وقد تركك لاعتقاده بانك ابنة جاسوس دنيء باع شرفه للعرب وهذا ما فهمته منه يوم تركه معسكر العرب ودخوله الى المدينة

فلما سمعت استير هذا الكلام صاحت صيحة من اعماق صدرها وسقطت مغشياً عليها

فخرج الناس من خيامهم لهذا الصراخ واسرع ابو الفتاة على صوتها · ولما رأوها في تلك الحالة نقلوها الى خيمة قريبة لمعالجتها وابوها يبكي ويسأل ماذا اصابها

اما ايليا فانه كان في اشد حالات الاضطراب فطلب من رفيقه القس الترجمان ان يقبض على ارميا لمعاقبته على افترائه عليه · فتملّص ارميا من القس وصار يضربه ويهجم على الاثنين صائحاً بجنون · انا لست منكم ·· انا عرب عرب ·· لقد صرتُ مسلماً ··· دعوني وشأني ··· فانني لا اعرفكم ····

ومن ذلك يظهر انه من اوّل يوم من ايام الفتح الاسلامي بداء في جسم السلطة المسيحية في الشرق نوع جديد من الانحلال فيها كان يلجاء اليه كل مستاء منها · وكان هذا الالتجاء احياناً للانتصاف من ظلمٍ واحياناً للفرار من حق كما صنع ارميا هنا

الفصل الحادي والعشرون

في قبر المسيح

وبعد صلاة الظهر استدعى الامام عمر رسول البطريرك · فأتي اليه بايليا · وكان ايليا حينئذٍ كاسف البال لحادثة استير · فقال له عمر : ياذا الشاب · دُلّنا على قبر عيسى عليه السلام وادخل معنا اليه لتكون دليلنا فيه · فامتثل ايليا امر امير العرب وسار به

وبنخبة من رجاله قاصداً كنيسة القيامة

ولما بلغوا باب الكنيسة وقف عمر وقال : الفاتحة ايها المؤمنون على ذكر سيدنا عيسى . فخشع المسلمون ووقفوا يقرأون الفاتحة قبل دخولهم الباب . فعجب ايليا والقس رفيقه من ذلك الخشوع في صلاتهم

ثم دخلوا الكنيسة حتى اتوا قبر المسيح

فلما وقف عمر امام القبر جمد في مكانه وجمد المسلمون وراءه واخذوا يحدقون بالغرفة المحيطة بالقبر . ثم طلب عمر الدخول الى الغرفة للتسليم على « روح الله » فدخل اليها مع رجاله . ولما صار رئيس الاسلام المنظور في ذلك المكان الهادىء الكريم المحاط بالاكرام من كل جانب لانه ضم يوماً جسم رئيس المسيحية الغير المنظور دبت قشعريرة شديدة في نفوس الحاضرين . وتحركت قلوبهم للصلاة في ذلك المكان . ولما فطن عمر الى غرضهم تذكر طلب البطريرك فاسرع وقال : الفاتحة ايها المؤمنون . فقرءوا الفاتحة ثانيةً على قبر المسيح بدل الصلاة . وبعد ذلك استلم (١) كل واحد منهم البلاط الرخامي الذي على القبر ومسح وجهه وخرجوا . ولما صاروا بجانب باب الكنيسة الخارجي طاوع الامام نفسه حينئذ على الصلاة فقال : الصلاة ايها المؤمنون . ففرشوا ارديتهم على الارض وركعوا وراء الامام وصلوا هناك صلاة طويلة بخشوع يحق لجميع الامم ان يحسدهم عليه . — وهذا المكان هو الذي اقام فيه المسلمون بعد ذلك مسجداً تذكاراً لصلاة الامام هذه * وبذلك سوّى الامام عمر العادل بين الفريقين (٢)

ولما خرج الامام والمسلمون من كنيسة القيامة . قال الامام لايليا . ما اسمك ايها الشاب . فاجاب ايليا : ايليا ايها الامير . فقال الامام اسم مبارك . يا ايليا ولئن ابطأتَ على سيدك البترك دلنا على المكان الذي رُفع منه عيسى عليه السلام . فقال ايليا هو على جبل الزيتون خارج المدينة ايها الامير . فقال الامير لرجاله هلموا بنا الى جبل الزيتون

---

١ في اللغة استلم الحجر الاسود لمسه اما بالتقبيل او باليد او مسحه بالكف من السلمة وهي الحجر وربما استعمل في غير الحجر فيقال استلمت يده اذا مسحتها او قبلتها ومنهُ قول الفرزدق في الحسين

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلمُ

٢ بعض قصاصي العرب يقولون ان الامام عمر والبطريرك اتفقا على ان يطلب البطريرك كنيسة الحرم التي هي اليوم المسجد الاقصى و يعرض على العرب كنيسة القيامة وذلك لكي يرفض العرب ذلك و يطلبوا عكسهُ ولكن هذه الرواية بعيدة التصديق لان عمر كان قادراً على حمل العرب بأسه على ما يريده رغماً عنهم فلا حاجة لهذا التدبير

واجتاز الامام المدينة بموكبه مع ايليا قاصدين جبل الزيتون . وكان الامير في طريقه يمعن النظر في ما يبدو على المدينة واهلها ومنازلها من آثار البذخ والترف والجاه والثروة . فلما صار خارج المدينة قال لايليا . يا ايليا هل لك ان تقصّ علينا شيئاً من اخبار مملكتكم وقومكم خصوصاً حروبكم مع الفرس التي سمعتُ ببعضها . فانني ارى عندكم مملكة عظيمة واممًا عديدة وجنداً كثيفاً ومدنية واسعة فماذا صنع ولاتكم الروم حتى تقلّص هذا الظل ودالت هذه الدولة

فسكت ايليا ولم يجب اولاً لانه وجد انه لا يليق به الكلام بهذه الشؤون الداخلية مع امير اجنبيٍ لا يزال في حرب مع مملكته في جهات اخرى . ولكن لما آنسه لدى الامير من رقة الجانب والرفق ومكارم الاخلاق فضلاً عن معرفته ان هذا الفاتح الجديد قد حلّ محلّ الفاتح القديم قد رأى انه لا يخطئ اذا اغتنم هذه الفرصة لخطبة وداد رئيس الفتح الجديد وجر النفع لصاحبه الشيخ سليمان صاحب المزرعة . فاجاب الامير قائلاً . اذا شاء الامير دللته على شيخ جليل شهد حرب الفرس بنفسه وزار القسطنطينية ووقف على كل اخبارها فيستخبر الامير منه ما يروم الوقوف عليه . فصاح الامام عمر : احسنتَ يا ايليا . جئني بهذا الشيخ الذي شهد حروب الفرس فاننا ممن يكرمون الشيوخ وهو خير المخبرين

الفصل الثاني والعشرون

﴿ حديث سياسي للشيخ سليمان ﴾

الامام عمر يصغي الى ترجمة الامبراطور هرقل وحروبه الكبرى مع الفرس
واسباب ضعف سلطنة القسطنطينية (بزنطية او الروم)

فاستاذن ايليا حينئذ واعمل المهماز في شاكلة جواده قاصداً المزرعة وراء جبل الزيتون بعد ان تواعدوا على الالتقاء تحت الارزة التي على الجبل

ولا يقدر القلم على وصف السرور الذي حاق بالشيخ سليمان واهل المزرعة حين عودة ايليا اليهم بعد ان يئسوا من عودته كل تلك المدة الطويلة ولم يقفوا له على اثر مع كل بحثهم وتفتيشهم

وقد قص ايليا على الشيخ سليمان كل ما جرى له منذ وقوعه اسيراً في ايدي العرب والتقائه باستير وابيها وتركه اباها وشانها بعد التقائها بابيها وفتح المدينة وطلب رئيس الفتح الشيخ

سليمان ليسمع منه اخبار المملكة وتفاصيل الحرب الكبرى التي قامت بين الامبراطور والفرس . وان هذه خير فرصة تُغتنم للتقرب من هوءلاء الفاتحين

فركب الشيخ سليمان مع ايليا وقصدا الجبل فوجدا الامام عمر والمسلمين ينتظرونهما تحت الارزة

ولما وصل ايليا والشيخ سلّم الشيخ باحترام على الامير فردّ عليه الامير السلام وحادثه هنيهةً ثم طلب ان يرى المكان الذي رُفع منه عيسى فذهب ايليا به وبحاشيته الى هذا المكان . وبعد ان شاهدوه عادوا وجلسوا تحت الارزة

ولما اخذ كل واحد منهم مكانه قال الامام : ايها الشيخ قصّ علينا ما رايته في تلك الحروب الشديدة . وقبل ذلك اخبرنا عن اصل ملككم هرَقْل (١) فانني سمعتُ انه لم يكن ابن ملك

فقال الشيخ . بل هو ابن امير ايها الامير . وقد نال المملكة بهمته . وتفصيل ذلك (٢) انه في زمن الامبراطور موريس حدثت ثورة في بلاد الفرس اضطرت ملكها هرمز الى الفرار منها والالتجاء الى القسطنطينية . فاكرمه سلطانها موريس وامده بالجنود فعاد هرمز الى كرسيه وملك باسم كسرى برويز (٣) وكانت الحروب يومئذ قائمة بين الامبراطور موريس والتتر . وكان لدى ملك التتر الوف من اسرى الروم . فطلب ملك التتر نصف دينار فدية كل اسير . وكان الامبراطور موريس مشهورًا بالبخل مع شدة بأسه فأبى دفع هذا المبلغ فقتل حينئذٍ ملك التتر اولئك الاسرى نكاية له . فلما علم الشعب في القسطنطينية بذلك ثاروا على الامبراطور وخلعوه وولوا مكانه احد قواد الجند ويُدعى (فوكاس) (٤) فقبض فوكاس على موريس وابنائه وقتلهم . فلما بلغ هذا الامر الى مسامع ملك الفرس غضب ونهض لمحاربة فوكاس . وذلك لسببين . الاول الانتقام منه لموريس الذي احسن اليه والثاني لاغتنام هذه الفرصة وتوسيع املاكه . فدخل جيش

١) في الاصل « هراقليوس » وهرقل ماخوذة من Eracle وهي اسمه مصغر تحببًا

٢) كل ما يرد في هذا الفصل عن لسان الشيخ ملخص من تاريخ بزنطية وان لم يوضع عليه نجمة

٣) يسميه الافرنج خسرو الثاني اي كسرى الثاني او « الملك العظيم »

٤) هو المشهور في مصر بانه امر عامله فيها بمنع المصريين من تولي الوظائف الاميرية تخصيصها باليونان فثار لذلك المصريون بالاسكندرية بتحريض اليهود على الاكثر فانتقم الامبراطور من اليهود بان اجبرهم على التنصّر وعمّدهم قسرًا

الفرس يومئذ الى سوريا فاتحاً . وفي اثناء ذلك ظهر ضعف فوكاس وسخط عليه الناس فكاتبوا رجلاً من اكابر قواد الجيش كان والي افريقيا ويُدعى « هراقليوس » ان ياتي اليهم ليخلعوا فوكاس ويبوأوه . وكان لهذا الوالي ابن يُدعى ايضاً هراقليوس وابن اخ يُدعى نيستاس . فجهّز هراقليوس الابن اسطولاً عظيماً وحشد نيستاس جيشاً كثيفاً واتفقا على الزحف الى القسطنطينيّة لاسقاط فوكاس . الاول بحراً والثاني برّاً عن طريق مصر وسوريا . وتعاهدا على ان الذي يسبق الى العاصمة تكون المملكة له . فسبق اليها هراقليوس الابن باسطوله فخلع فوكاس اعداؤه وقتلوه وولوا هراقليوس مكانه وهو الامبراطور الحاضر

وما مرّت اربع سنوات على ملك الامبراطور حتى فتح الفرس سوريا ومصر واستولى قائدهم شهرباز الملقب « بالجاموس الملكي » على هذه المدينة (القدس) فاحرق كنيسة القيامة واخذ منها الصليب الحقيقي (١) . ثم اشتدّ الاضطراب في السلطنة وقام انصار فوكاس يطلبون ثأره وتوفيت زوجة الامبراطور فتزوج ثانية باخت زوجته خلافاً لنظام الكنيسة . وكان الامبراطور فقيراً لا يملك مالاً ينظّم به امور ملكه . فيئس من هذه المصاعب وعزم على الالتجاء الى قرطجنة (تونس اليوم) ليتخذها قاعدة ملكه بدل القسطنطينية استراحةً من الفتن . ولكن البطريرك سرجيوس شدّد عزائمه واخذه الى كنيسة آجيا صوفيا واجبره فيها على ان يقسم بانه لا يترك العاصمة . فقوي عزم الامبراطور وبعث برسالة خصوصية الى ملك الفرس يجامله فيها ويطلب منه الصليب ويسأله عقد الصلح . فاجابه كسرى برويز جواباً مهيناً ثارت له الامة كلها . ففتح البطريرك سرجيوس خزائن الكنيسة واخرج منها للامبراطور الاموال اللازمة لحشد الجند وتهافت الناس من كل صوب على التطوّع في سبيل استرداد الصليب . وفي ثاني يوم من عيد الفصح سنة ٦٢٢ تناول الامبراطور سرّ القربان في حفلة رسميّة حافلة وخرج من القسطنطينية بجيشه يطلب بلاد الفرس والحماس شديد في الامة . وقد نزل باسطوله وجيشه في عرصوص (قرب الاسكندرونه) وهو المكان الذي نزل فيه قبلاً اسكندر الكبير لما قصده داريوس . وقد احسن الامبراطور بهذا الاختيار لان المقاتل يستطيع من ذلك المكان اصابة سلطنة الفرس في قلبها

وكنتُ يومئذ ايها الامير الجليل قائد مئة في هذا الجيش . فاجبرنا الفرس على الانسحاب من مصر وسوريا واخذنا نطاردهم من مكان الى مكان والنصر حليفنا . وكانت الامبراطورة

١) سنة ٦١٤ م

معنا توافق الامبراطور لرغبتها في ان تكون اول من يسترد الصليب ٠ وكان كسرى برويز قد نزل في قنزكا من اعمال اتروباتينا (١) باربعين الف مقاتل وجعل باقي جنده تحت قيادة قائده الكبير سايس ٠ فهاجمهما الامبراطور وهو في طريقه يخرب المدن والقرى ويحرقها ٠ ولما بلغ قنزكا فرّ كسرى من وجهه فدخلها الامبراطور وهدم هيكل الشمس المشهور الذي كان فيها وحطم آلات صناعية كانت فيه تمثّل انقضاض الصاعقة ونزول المطر ٠ (٢) ولما خاف انضمام الاتراك الى الفرس تقرب الى « زبيل » زعيم الترك فقابله في تفليس ووعده بان يزوجه ابنته ٠ وبذلك جعل الاتراك من حزبه ٠ وبعد ست سنوات من سفره اي في سنة ٦٢٨ وصل دستجرد عاصمة الفرس ففرّ كسرى منها ايضاً فدخلها الامبراطور واحرق تلك العاصمة الفاخرة ٠ وبذلك تضعضعت مملكة الفرس فدبت بين اهلها عقارب الانحلال والفتنة ٠ واصيب كسرى بمرض عضال فاوصى بالملك لاحد ابنائه فقام عليه ابنٌ آخر فاستأثر بالامر وسجن اباه وعذّبه حتى مات ٠ وكتب هذا الابن فصالح الامبراطور ومن ذلك الحين اشتغلت مملكة الفرس بفتنها واضطراباتها الداخلية

اما الصليب فقد كان مخبوءًا في قنزكا عاصمة عبادة النار وقد دلّ عليه القائد شهرباز ٠ فلما وجده الامبراطور ودخل به الى القسطنطينية ظافراً ارتجت السلطنة من جهاتها الاربع ٠ ثم جاء به بنفسه ونصبه هنا في الجلجلة بيده

وكان الشيخ يتكلم والترجمان يترجم كلامه والحاضرون مصغون كأنّ على رؤوسهم الطير ٠ وكان خالد بن الوليد اشدهم اهتماماً بهذا الحديث لانه دخل بلاد الفرس وفتح كثيراً من بلدانها كما تقدم ٠ فلما فرغ الشيخ من كلامه ووقف يستريح انحنى خالد نحو ابي عبيدة وقال له (— كان مَثل الروم مَثل كلاب الصيد فانها اصطادت لنا لا لها ٠ اذ بسحقها سلطنة كسرى سهلت علينا الاستيلاء على بلاد فارس ٠ ولولا ذلك فربما تعذّر علينا فتحها

فالتفت حينئذ الامام عمر الى خالد وقال (— لقد سمعتك يا خالد فاتقِ الله فانه لا معين سواه

فسكت خالد ولم يبدِ جواباً

(١) هي اليوم توريس من اعمال اذربيجان ٠ ومعنى اذربيجان بلاد النار وقد سميت كذلك لان الفرس كانوا يومئذ يضعون فيها اعظم نيرانهم التي كانوا يعبدونها — وقد خبئوا يومئذ الصليب في هذا الموضع

(٢) هذا يدل على ارتقاء الفنون عند الفرس يومئذ

ثم التفت عمر الى الترجمان وقال (— سل الشيخ . فاذا كانت هذه قوة الملك وجنده يومئذ فما حلَّ بتلك القوة . ولقد سمعتُ ان الملك احتاج المال فاين ذهب بالغنائم التي غنمها جيشه من الفرس وهم مشهورون بالغنى والكنوز

فاجاب الشيخ اما الكنوز التي عاد بها من بلاد الفرس فانه دفعها كلها الى بطريرك القسطنطينيَّة وفاء للاموال التي اخذها منه لتعبئة الجيش والانفاق على الحرب كما تقدَّم . وهذا ما أسخط الجند والامة . وقد قال بعضهم ان ذلك حقٌّ لانه وفى ديناً عليه ولكن البعض الآخر يقول ان املاك واموال الاكليروس انما جُمعت من الامة فاذا أُنفقت في سبيل الامة كان انفاقها في خير الوجوه . فبدل اعادة تلك الاموال الى خزائن الاكليروس وحبسها فيها كان يجب اصلاح احوال الامة بها

فقال عمر احسنتَ ايها الشيخ البهي

فاردف الشيخ بقوله . اما ضعف المملكة بعد تلك القوة فله اسباب عديدة . واذا شئتم بسطتُ لكم تلك الاسباب كلها

فاجاب عمر تكلم ايها الشيخ

فقال الشيخ بعد ان تنحنح والقى نظرة الى ايليا

لما تغلَّب قسطنطين الكبير على رومه نقل كرسي الملك الى بزنطيه (١) فانشقت الامبراطورية الرومانية الى شطرين : شرقي وهو هذا وغربي وهو شطر رومه . وبما ان العنصر اليوناني كان حفظ نفسه في المستعمرات الرومانية اثناء الحكم الروماني فقد نمت امبراطوريته الشرقيَّة نموًا سريعاً . وكان سلاطين هذه الامبراطورية يسمون انفسهم « امبراطرة الرومان » ويجعلون اللغة اللاتينيَّة لغة رسميَّة الاَّ ان السلطنة مع ذلك كانت يونانية في الباطن . وهذا ما كان من اسباب قوَّتها . وهكذا بينما كانت رومه والامم التابعة لها تخضع للملك القوط وتصير اممًا بربرية كانت سلطنة الشرق بمركزها البزنطي الجامع بين يونان الغرب ويونان الشرق زاهية زاهرة لا سلطة لاحدٍ عليها

ولكن في مقابلة ذلك كان بين كنيستي رومة والقسطنطينية فرق كلي . فانَّ الاولى كانت تهتمُّ بالمسائل العمليَّة المفيدة فائدة اجتماعية وتطبّق عليها المبادىء الدينية . واما الثانية فانها انصرفت من سوء الحظ الى مجادلات عقيمة في لاهوت المسيح (٢) كما سيجيء

(١) الاستانة اليوم

٢ بابيت في تاريخ بزنطيه

ولما قام الامبراطور جوستنيانوس المشهور عدل عن السياسة اليونانية الى سياسة عمومية . فبدل ان يهتمّ ببلاده واهلها اليونان فيقوّيها ويقويهم ويصلح شؤونها وشؤونهم انصرف الى اعادة السلطنة الرومانية الى ما كانت عليه من الاتساع . فبعث لاسترداد افريقيا من ايدي الفنداليين الذين انشئوا فيها مملكة واسعة وناصب القوطيين الحرب في ايطاليا حتى مزقهم تمزيقاً . وكان ساعده في ذلك القائد بليزار المشهور انيبال العصر الجديد . ولكن الامبراطور لم يستفد من ذلك كثيراً لان السلطنة كانت تعجز عن حكم بلاد واسعة الاطراف الى هذا الحد . فكان كأنه افنى قواه في الغرب واهمل الشرق مع ان فيه حياة سلطنته . ولذلك كان يترضى الفرس بما يُسكتهم ويلهيهم عنه بينما البرابرة في شمال القارة الغربية يخربون الولايات والهونيون يبلغون حتى اسوار القسطنطينية (١)

هذا من جهة الخارج اما جهة الداخل فانه اضطهد العنصر اليوناني الذي هو قوة الامبراطورية وعضدها فقاوم المشتغلين بالعلوم القديمة وحذف درس الفلسفة والحقوق في آثينا واوجب اتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية . هذا فضلاً عن تضحيته لكنيسة رومه الاستقلال الذي كان يطلبه بطاركة الشرق منذ القرن الرابع (٢)

و بعد وفاته ثار مغاربة افريقيا واستولى اللومبارديون على شمالي ايطاليا واستمروا يحاربونها للاستيلاء على شبه الجزيرة كلها . ثم تحرّك الفرس يتهددون حياة المملكة في آسيا والسلافيون يتهددون حياتها في اوروبا . فلما قام الامبراطور هرافليوس كما تقدم الكلام وجد المملكة بين هذه الامم التي كانت تنازعها البقاء نزاعاً شديداً . وقد فصلتُ لكم ماذا فعل بالفرس وكيف سحق سلطنتهم . اما السلافيون فانهم لا يزالون يهاجمون سلطنته

فمن كل ما تقدم يظهر سببان عظيمان من اسباب ضعف السلطنة . « الاول » رغبتها في ان تحكم العالم اجمع ولذلك تفني قواها عبثاً ولا تحسن حكم نفسها . « والثاني » اعداؤها المحيطون بها ينازعونها الحياة دائماً

ولكن هنالك سبب ثالث ربما كان اصل الاسباب كلها وهو المسالة الدينية . واريد بها مداخلة الدنيا بالدين والدين بالدنيا

واصل البلاء في هذه المسألة مداخلة الاباطرة في شؤون الكنيسة لان ذلك جرّ بحكم الطبع مداخلة الكنيسة في شؤون الامبراطورية . وفي ذات يوم قال احد

---

١ بابيت . وكل هذه التفاصيل له

٢ بابيت

الامبراطرة لاحد البطاركة : دبّر انت الكنيسة ودعني ادبّر سلطنتي . فاجابه البطريرك . هذا قولٌ لم يُسمع بمثله فانه بمثابة قول الجسد للنفس دعيني وشأني فانني غير محتاج الى مساعدتك (١) فنشأ عن هذا سعي البطاركة والامبراطرة في وضع العقول كلها في قالب واحد ليجعلوها تعتقد اعتقاداً واحداً . وبما ان السلطنة كانت مؤلفة من عدة عناصر مختلفة الآراء والمشارب والمصالح فقد تحتم حدوث الشقاق فيها

فيومئذ قام آريوس يجحد لاهوت الكلمة والمكدونيون يجحدون لاهوت الروح القدس وقام النساطرة ينكرون اتحاد الطبيعتين في المسيح واوتيشيوس ينكر الطبيعة البشرية في المسيح بعد التجسد والقائلون بالمشيئة الواحدة ينكرون المشيئة البشرية مع اعترافهم بالطبيعتين . فجمع الامبراطرة المجامع للفصل في هذه المعتقدات فحكمت المجامع برفضها ونبذ اصحابها . ولكن بعض الامبراطرة كانوا يعودون الى بعضها فتعتقد رعيتهم فيهم الكفر فيقومون الى خلعهم . ولما كان يثور الشعب عليهم كان الامبراطرة يلجئون الى الكنيسة . والمقرر انه في هذه الحالة من حق البطريرك الاذن في تسليمهم للشعب او حمايتهم منه . وعلى ذلك كان الامبراطرة تحت سلطة البطاركة (٢)

وكما كان الاضطراب من حيث الامبراطرة فقد كان من حيث البطاركة . فقد كان للبطريركية الواحدة ثلاثة بطاركة (الاول) البطريرك الذي يُعزل لمقاومته الامبراطرة او الشعب . (والثاني) البطريرك الذي عُين مكانه (والثالث) البطريرك الذي يُرشح نفسه لان يكون بطريركاً . وكان لكل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة اعوان وانصار متحمّسون . ولكل فريق منهم آراء ومصالح واهواء . فكانوا في اضطراب دائم . واضطرابهم هذا كان يقلق كل السلطنة لما بين السلطتين من الاتصال (٣) كما تقدّم

ومما لا يحتاج الى بيان ان الرغبة في توحيد المعتقد تؤدي الى اضطهاد المخالف في المعتقد . وهذا ما جعل بعض الامبراطرة يضطهدون الطوائف المخالفة لهم والتي عاشت قبل ذلك في ظل الرومان بكل حرية كالسامرين واليهود والمانيشيين والسبتيين والمونتانيين والوثنيين الذين كانوا كثيرين في داخلية البلاد خصوصاً بين اهل الزراعة لاصرارهم على دينهم القديم .

---

١ » مونتسكيو الفيلسوف والشارع المشهور . ولكن هذا القول متاخر عن زمن الشيخ

٢ » مونتسكيو في كتابه اسباب عظمة الرومان واسباب سقوطهم

٣ » مونتسكيو

ولقد كنتُ احب ان يكون الامبراطور جوستنيانوس حيّاً الآن ليرى الخطاء الذي ارتكبه في افناء السامريين في هذه البلاد (فلسطين) واضطهاده اليهود فيها اضطهاداً جعلهم اعداء لمملكته واضعف منها هذا الجانب الذي دخلتم منه الى الشام وفلسطين مع انه كان من المصلحة تقويته (١) فانه حينئذ كان يعلم انه لم يكن بذلك الاضطهاد والقتل يزيد عدد المؤمنين بل كان يُنقص عدد الرجال اللازم بقاؤهم واستمالتهم للدفاع عن السلطنة ويربّي في قلب السلطنة عدوّاً شديداً لها. — وهذا الامر لازم دائماً عن المظالم والاضطهادات الدينية

ولو كان الخطب من هذا الوجه فقط لكان هيّناً بل كان هنالك خطبٌ اشدّ. فان الاديرة غصت بالرهبان والشبان الهاربين من تنازع الحياة لان الرهبانية تضمن رزق الراهب وتعطيه السيادة بثمن بخس. ولرغبة الرهبانيات في السيادة المطلقة كانت تتخذ السياسة الدينية آلةً لمحاربة البطاركة والامبراطرة. والذي جعل لهم هذه القوّة صرفهم الشعب الى ظاهر الدين عن باطنه وتحريضه على عبادة الصور والايقونات (٢) فشغف الشعب بهذه العبادة شغفاً ما بعده شغف. وكلما قويت شهوته هذه زادت سلطة الرهبان عليه. وسواء كانت هذه العبادة عبادةً او اكراماً فان الشعب انصرف اليها عن باطن الدين وصار عنده الفضل كل الفضل في تقديس الايقونات لا في فضائل النفس ومكارم الاخلاق. والذي زاد تمسك الشعب بهذا النوع من الظواهر الدينيّة انطباع البشر على حب الفنون وتمثيل هذه الفنون لهم الاشخاص والرجال الكرام الذين يحبونهم. فلما قام بعض الامبراطرة لمقاومة الايقونات والصور اعتبر الرهبان ان هذه المقاومة موجّهة اليهم (٣). وكان الامبراطرة ينسبون اولئك الرهبان الى « الوثنية » واولئك الرهبان ينسبون الامبراطرة الى السحر. وكانوا يشيرون الى الكنائس التي ازال منها الامبراطرة الصور والايقونات ويقولون لهم ان حكامهم لم يفعلوا بها هكذا الآ لكي يعبدوا فيها الشيطان (٤) فكان الشعب يهيج لذلك اشدّ هياج ويعتقد ان من واجباته خلع حكامه. ولم يكن هنالك ملوك يتخذون الطريق الوسط ويسكّنونه بتخفيف استعمال الصور والايقونات بدل حذفها واظهار الغرض الحقيقي

---

١ » مونتسكيو. وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني ان جوستنيانوس استأصل السامريين في فلسطين فصارت مقفرة بعدهم

٢ » بما اننا نتكلم هنا عن اسباب سقوط سلطنة بزنطية القديمة و الاستانة ؛ فقد راينا جمع كل تلك الاسباب في كلام الشيخ وان كان اكثرها منا اختراعه

٣ » مونتسكيو ٤ » مونتسكيو

منها. ولذلك كان النزاع الشديد مستمرًا بين الفريقين . وكثيرون من البطاركة والاساقفة انتصروا للامبراطرة على الرهبان لان الرهبان كانوا ينازعونهم كل سلطة وسيادة . وكان هؤلاء يغتنمون كل الفرص لرفع شأنهم لدى الشعب بالتزلف اليه واسقاط مزاحميهم . ولما كانت تُعاد الصور والايقونات الى الكنائس كان شأنهم يرتفع عند الشعب ارتفاعًا عظيمًا . وهكذا بلغوا بسذاجة الشعب اسمى درجات السلطة وطردوا باقي الاكليروس منها وصاروا عملكة في المملكة حتى ان الامبراطرة كانوا يضطرون الدفاع عنهم (١)

فماذا كانت نتيجة هذه التربية الرهبانية في المملكة

انكم تستغربون ولا شك اذا علمتم ان قائدًا من قواد السلطنة رفع الحصار عن مدينة كان يحصرها في مقابلة اثر ديني اعطوه اياه (٢)

ولا ريب انكم تدهشون ايضًا اذا اخبرتكم ان احد قواد الامبراطور موريس لما كان يومًا على وشك الدخول في قتال مع عدو له قبل المعركة اخذ يبكي حزنًا على الدم الذي سيسفك فيها (٣) ولست اجهل ان دموع هذا القائد جميلة للغاية لحبه الخير والسلام وكراهته للآثام . ولكن ما الحيلة . ان هذه العواطف لا تُستحسن الا في الاديرة والمجالس الادبية . لانه يجب على الجندي المدافع عن وطنه ان يُحسن وظيفته اي يجب ان يحسن ان يكون شديدًا قاسيًا غليظ القلب والحسام . وبدون ذلك لا تثبت المملكة اذا كان امامها اعداء اقوياء

ونهاية العجب والاستغراب ان امبراطورًا (٤) أهمل قواه البحرية لانهم اخبروه ان الله راضٍ عنه كل الرضى لغيرته على الكنيسة ولذلك فهو لا يسمح لاحدٍ بمهاجمة مملكته . وهذا الامبراطور نفسه كان يقول انه يخشى ان يناقشه الله الحساب عن الزمن الذي يصرفه في تدبير سلطنته اذ يجب عليه صرف جميع اوقاته في الاهتمام بالشؤون الروحية (٥)

هكذا كانت نتيجة السياسة حين مداخلتها في الدين . « فكان من اعظم اسباب مصائب اليونان جهلهم الحدود التي بين السلطة الاكليريكية والسلطة المدنية . ولذلك وقع الفريقان في اغلاط متواصلة . والفصل بين هاتين السلطتين الذي عليه تُبنى دعائم راحة الشعوب ليس اساسه الدين فقط ولكن اساسه ايضًا العقل والطبيعة . فانهما يقضيان

---

(١) لما فتح كانتاكوزينوس القسطنطينية وجد الامبراطور حنا والامبراطورة حنة مشغولين بمجمع ضد اعداء الرهبان . ولما حصرها محمد الفاتح بعد ذلك ليفتحها كما تمَّ له ذلك كان اهلها مهتمين بمجمع فلورنسا اكثر من اهتمامهم بجيش الاتراك (مونتسكيو) ٢ مونتسكيو ٣ مونتسكيو

٤) هو اندرونيكوس باليولوغوس وقد رواه مونتسكيو ولكن بايبت يقول ان آل باليولوغوس لم يهملوا بحريتهم واساطيلهم الا اعتمادًا على بحرية الجنوبيين محالفيهم ٥ مونتسكيو

بانّ الاشياء التي من طبيعتها الانفصال والتباعد والتي لا يمكن ان توجد معاً الا منفصلة متباعدة بعضها عن بعض — يجب ان لا تمتزج ابداً . وهذا الفصل كان معروفاً عند قدماء الرومان اكثر مما كان في القسطنطينية ولئن كان اكبر وسهم الوثني غير منفصل عن طبقات الهيئة الحاكمة . فانه لما وقف الامبراطور كلوديوس منزل « شيشرون » للحرية بعد نفيه وعاد شيشرون من منفاه طلب استرداد منزله فحكم رؤساء الكهنة بانه يمكن رد منزله اليه دون ان يكون في ذلك اهانة للدين اذا كان المنزل قد وُقف بلا أمر خصوصي من الشعب . قال شيشرون . وقد قالوا انهم ينظرون في صحة الوقف لا في صحة الشريعة التي سنها الشعب وانهم اذا كانوا نظروا في القضية الاولى كرؤساء كهنة فانهم ينظرون في هذه القضيّة كاعضاء مجلس الشيوخ » (١)

هذا هو اعظم الاسباب في ضعف سلطنة بزنطية . وانما يستمد هذا السبب اهميته الخصوصية من صرفه فكر الحكومة والامة عن الاصلاحات الاجتماعية والحوادث الخطيرة وشغلها بالمجادلات الدينية العقيمة

انظروا ايها السادة لاعطيكم برهاناً صغيراً يدلكم علينا احسن دلالة . قبل ان تصلوا الى هذه المدينة بيوم واحد لتحصروها كان شعبها يملاء الدنيا ضجيجاً على طريق بيت لحم طلباً لتعميد فتاة يهودية وجدها في طريقه . وكان يهتمُ بهذه الفتاة اكثر من اهتمامه بجنودكم الزاحفة الينا

ومن هنا تعلمون مبلغ ضعف تربيته السياسية . وعواطفه الوطنيــة . استغفر الله فانه يجب عليّ ان لا اذكر « الوطن » بشفتيّ اذ الوطن عندنا الدين . بل الدين عندنا فوق الوطن وفوق كل شيء

وهكذا بدل ان يقوم الشعب ويطلب اصلاحات اجتماعيّة كانشاء جمعيّات لمساعدة الزراع والصنّاع والعمال وفتح الترع لجرّ المياه للحقول وانشاء المدارس لتعليم ابناء الامـة ووضع نظامات جديدة لتقوية العائلة والسلطة الحاكمة ضد الرهبان الذين تقدّم ذكرهم ونقل معامل الفرس الى السلطنة او انشاء مثلها فيها — نراه اذا قالوا له مثلاً هذه قطعةٌ من حذاء بولس او بطرس او هذا أثر من مريم المجدليّة فانه ينسى كل تلك الاصلاحات ويبيعها كلها بهذا الاثر

فما اسهل ارضاء الشعب الديني ايها السادة

---

١ هذه الفقرة مترجمة حرفيًا عن مونتسكيو

ولكني اذا كنت ألوم الامبراطور لاهماله شعبه الى ذلك الحد فانا اشفق عليه . فان السلطنة متعددة الاحزاب الآن وهذا من اسباب ضعفها ايضاً . فان الاحزاب في البلاد الجمهورية تنفع الامة لظهور الحقائق بالبحث واحتكاك الافكار ولكنها في البلاد الملكيَّة المطلقة تكون سبب ضعف لها لان كل حزب منها يقدر ان يستبدّ بالحزب الآخر فيقوم هذا الى الثأر منه وهكذا دواليك الى ما شاء الله . واهمّ احزابنا الآن « الخضر » و« الزرق » واصل تسميتهم هكذا ان ساقة المركبات الذين كانوا يتسابقون الى الجوائز في حلبة السباق كان فريق منهم يلبسون ثياباً زرقاء وفريق ثياباً خضراء . فكان الحاضرون يتحزَّبون لهم حزبين يسمون « الخضر » « والزرق » (١) وقد انتشرت هذه القسمة في كل مدن الامبراطورية وصارت قسمة سياسية . ولما قام جوستنيانوس انتصر « للزرق » وظلم « الخضر » فقوي الزرق حتى صاروا يدوسون نظامات المملكة . وكذلك الخضر عبثوا بالنظامات لانهم رأوا ان رفاقهم الزرق لا يحترمونها . وكان كل قاتل وشرير في ذلك الزمن من حزب الزرق وكل مقتول من حزب الخضر (٢) فسادت الفوضى بين الناس وانتهكت حرمة النسب والصداقة والواجبات ومعرفة الجميل بقيام الناس والعائلات بعضهم على بعض يفنون بعضهم بعضاً .

ومما زاد الاضطراب واختلال الأمن اعتقاد شاع في المملكة وهو « انه من المحرم سفك الدم المسيحي » (٣) فكانت كل الجنايات والجرائم التي لا تتعلق بالدين يُعاقَب اصحابها عقاباً خفيفاً (٤)

وبما ان امراض العقل تتحوّل ولا تزول فقد اتخذ التنجيم والتنبوء صورة غير الصورة القديمة . فقد كان الوثنيون من اليونان والرومان يستطلعون البخت ويرون الغيب بنظرهم في احشاء الذبيحة او مراقبتهم طير الطيور يميناً او يساراً . فحلَّ عند المسيحيين محلّ هذه الطريقة استطلاع البخت والغيب بالنظر الى اشياء توضع في حوض ماء (٥)

وكانت حوادث المملكة السياسيَّة تضرم نار الطمع في النفوس حتى انه لم يكن في السلطنة رجل عظيم الا وقد تُنبيء له بانه سيتولى الامبراطورية . وكانت الثورات والفتن في الامبراطورية تتوالى بلا انقطاع . وبما ان الاسر المتنازعة على الملك كانت تمرّ على العرش بسرعة فلم يكن الناس مخلصين لواحدة منها . وكانوا يتخذون كل الطرق للوصول الى العرش . فتارة بالجند

١» مونتسكيو ٢» مونتسكيو ٣» شاع هذا الاعتقاد على الخصوص حين ظهور الاسلام ٤» مونتسكيو ٥» مونتسكيو

وطوراً بالاكليروس وآونة بشعب القسطنطينية واخرى بشعب باقي المدن (١)

ولما تكاثرت الفتن والثورات وحلّت بالمملكة المصائب في الخارج صار الناس ينسبون كل ذلك الى سوء تدبير ملوكهم فازدادت الفتن والمصائب بهذا الاعتقاد . وهكذا انتجت الثورات ثورات وصارت النتيجة سبباً (٢)

ومما كان يزيد ضعف الحكومة يومئذ انقيادها الى آراء النساء . فانه كان من المقرر في الشرق اتخاذ عدة نساء اضعافاً للسلطة العظيمة التي تكون للمرأة الواحدة على الرجل في هواء الشرق الحار . اما في عرش القسطنطينية فقد كانت المرأة واحدة تبعاً لنظام المسيحية . وهذا الامر كان من اسباب ضعف الحكومة احياناً (٣)

وبما ان الجيش كان له يد ورأي في السياسة فقد افضى هذا الامر الى تمرده احياناً . وبذلك ضعف نظام الجندية . وقد كان القائد بليزار يقول لجنوده في ساحة الحرب « ان جنود الفرس لا يفضلونكم في الشجاعة ولكنهم يفضلونكم في الطاعة لقوادهم » وفضلاً عن ذلك فان الترف والمدنية اضعفا نفوس الامة وميلها الى الحروب في حين ان باقي الامم التي تحيط بها لم يكن لها شغل غير الحرب . وبذلك وهن عزمها امام اعدائها وصار لا يجدّد قواها ونشاطها الا التحريض الديني كالحث مثلاً على استخلاص الصليب كما حدث في حروب الفرس

هذه أيها السادة اهمّ الاسباب التي أضعفت السلطنة . وقد فصلتها لكم باختصار . فلو تداركها اليونان لكان عندهم اجمل واقوى واعمر سلطنة في الارض ولما تمكن احد غيرهم من منازعتهم في شيء

لماذا

بقيت سلطنة بزنطيه (القسطنطينية) قروناً طوالاً

بعد مصائبها وامراضها المذكورة آنفاً

وهنا سكت الشيخ ليستريح من تعب الكلام . وكان الحاضرون في اثناء كلامه يتحادثون همساً ويتبادلون افكارهم وهم تارة يبتسمون وطوراً ينقبضون . اما الامام عمر فانه كان بينهم كالجبل الراسخ لا يحرّكه شيء ولا تبدو على وجهه دلالة

---

١) مونتسكيو ٢) مونتسكيو ٣) منقول حرفياً عن مونتسكيو . ولكن ليس الذنب في هذا الضعف " للمرأة الواحدة ،، بل لعدم وجود دستور ومجالس نيابية دستورية توقف الامبراطور والامبراطورة معاً عند حدودهما كالحال الآن في اوروبا واميركا حيث جميع الملوك والرؤساء بامرأة واحدة

ولكن لما سكت الشيخ همس الامام كلمتين في اذن ابي عبيدة . فقال ابو عبيدة للشيخ ايها الشيخ لقد احسنت الحديث . انما يؤخذ من حديثك هذا ان المملكة متهدمة فهل يظن انه قد دنت آخرتها على يدنا

فاطرق الشيخ سليمان ملياً ثم قال : انني ارى انكم لا تقدرون على هذه المملكة العظيمة في الغرب وان قدرتم عليها في آسيا . وذلك لعدة اسباب (اولاً) انكم فتحتم بلاد الفرس وستملكونها و تسقطون دولتها . فهذا الفتح سيقوّي الامبراطورية لانها ستستردّ كل جنودها القائمين على حدود الفرس وهم خيرة جنودها لتدافع بهم عن نفسها دفاعاً شديداً (ثانياً) انكم بعد فتح الشام وفارس لا بدّ ان تفعل فيكم مدنيتها وتجتذبكم الى الترف والتمتع وتثير الطمع والحسد في نفوس حكامكم لاتساع ملككم فتنقسم كلمتكم ويتنافس امراؤكم فتقفون عن الفتح حيث انتم

فهنا نظر الامراء بعضهم الى بعض وضحكوا من حرية فكر هذا الشيخ . اما الشيخ فاردف بقوله (ثالثاً) ان القسطنطينية لا تُفتح الا بالاساطيل البحرية . والامبراطور لديه ما يدفع اساطيلكم اذا كان لكم اساطيل . فان سورياً يُدعى «كالينيكشوس» اخترع له سيالاً اذا وُضع في اسطوانات ونُفخ على السفن احرقها ولم يدعها تدنو من الشاطىء . وتركيب هذه النار محسوب في جملة الاسرار الامبراطوريّة . واليونان يحرقون بها كل الاساطيل التي تدنو من بلادهم

(رابعاً) ان معامل الفرس الصناعية ستنتقل ولا شك الى الامبراطورية بعد فتحكم بلاد الفرس لانني اظن انكم في هذا الطور من الفتح لا تهتمون كثيراً بالمعامل والصنائع . اذ كفاكم منها ما لدى الشعوب المغلوبة التي تدخل تحت يدكم . وفضلاً عن ذلك فان اليونان هم سلاطين البحار الآن وتجارتهم اوسع التجارات . فلهذا كله سيبقى في مملكتهم من القوة الحيوية ما يمكنها من المقاومة والبقاء دهراً طويلاً

(خامساً) ان القبائل الذين اضعفوا السلطنة بحروبهم على شواطىء الدانوب قد اخذوا يتمدنون . اي اخذوا ببناء المدن على شواطىء هذا النهر . فدخولهم في طور الاقامة بعد طور الارتحال سيقوي السلطنة لانه يجعلهم بمثابة سور لها مانعاً عنها كل غارة جديدة(١)

فالذي اراه ان هذه الاسباب ستتغلب عليكم اذا لم تتغلبوا عليها

---

(١) هذه الاسباب اوردها مونتسكيو ليعلل بها بقاء سلطنة بزنطية قروناً بعد ظهور العرب واخذهم املاكها في الشام وفارس مع ما كان في السلطنة من الضعف والاعتلال

فانبرى حينئذ خالد بن الوليد وصاح : والله انني لاخوض الآن بجوادي البحر الى القسطنطينية اذا اذن لي امير المؤمنين . فابتسم عمر لشجاعة خالد . ولكن الشيخ وايليا ابتسما ايضاً

النبوءة (١)

عن مصير سلطنة بزنطية (القسطنطينية)

(دمعتا الامام عمر)

وكان ابو عبيدة في اثناء ذلك مصغياً . فقال حينئذٍ : ايها الشيخ انت قلت ان التنجيم والرجم بالغيب كثير في بلادكم . ا فلم يتنبأ احد عن مصير هذه السلطنة

فابتسم الشيخ واجاب بلى ان النبوءات كثيرة . وها انني اذكر لكم احداها

قال المنجم : ان السلطنة ستصير الى قوم مختونين . وهذه الولايات السورية التي هي اكثر الولايات عمراناً وفيها اليونان اقوى منهم في سواها ستدخل تحت حكمكم . واحد قوادكم (٢) سيصل في سنة ٦٦٩ حتى اسوار العاصمة (القسطنطينية) ويحصرها . ولكنه يرتدُّ عنها . وسيعبر البلغار احد فروع السلافيين نهر الدانوب ويؤسسون في ولايات الشمال مملكة قوية تنمو مدة ثلاثة قرون . ثم ينتشر السلافيون في ابيروس والتراس (٣) ومكدونيا وتساليا والاتيك والموره نفسها حتى سالونيك . فيقوم النزاع العظيم في الغرب بين العناصر السلافية والعنصر اليوناني . ومن سنة ٧١٦ الى سنة ٨٤٢ يقوم امبراطرة مصلحون (٤) فيفرغون جهدهم في اضعاف نفوذ الاكليروس وعلى الخصوص الرهبان وتنقية العبادات وتقوية السلطة المدنية وسلطة الامبراطرة . ومن الاسف انهم سيضطرون بحماسة النزاع الى بعض الاضطهادات ولكنهم مع ذلك يصلحون اصلاحات عديدة فيحسنون احوال الفلاحين والزراع ويلغون الرقيق ويصلحون نظامات العائلة . وسيكون لهم أعوان ومساعدون من جميع الطبقات المستنيرة من الامة ومن عقلاء الاكليروس ايضاً (٥) وهذه الاصلاحات السياسية والدينية يقتبلها الناس بهدوء ولا يثورون ضدها الا في احدى الجزر (٦) وفي زمن احد الامبراطرة (٧) يجتمع مجمع مؤلف من ٣٤٨ اسقفاً ويقررون ابطال الصور

---

١) وضعنا هنا هذه النبوءة لنتمكن من ذكر مستقبل سلطنة بزنطية بعد ذكرنا حاضرها وماضيها

٢) هو معاوية

٣) هي رومانيا و بلغاريا اليوم

٤) هم لاون الثالث وقسطنطين الخامس ولاون الرابع ولاون الخامس

٥) بابيت وكل هذه التفاصيل له

٦) جزيرة سيكلاده اليونانية في الارخبيل

٧) قسطنطين الخامس

والايقونات فتكون نتيجة هذا القرار سلخ ايطاليا والكنيسة الغربية عن السلطنة الشرقية ٠ لانه حين وصول خبر ابطال الايقونات الى ايطاليا يقوم في نفس الشعب ميل للانفصال عن سلطة القسطنطينية وطلب الاستقلال و يساعدهم على ذلك رئيس كنيسة رومه مقاومةً لقرار المجمع وسلطة الامبراطور ٠ ويومئذ يكون اللومبارديون مهددين ايطاليا والايطاليون يخضعون لرئيس كنيستهم اكثر من خضوعهم للامبراطور ٠ فلما يرى رئيس الكنيسة الغربية انه لا يُرجى من الامبراطور مساعدة على اللومبارديين يستعين بالفرنك عليهم فتسقط سلطة الامبراطور عن ايطاليا سقوطاً تاماً وتنضم ايطاليا الى املاك ملكين عظيمين للفرنك (١) ثم ان رئيس الكنيسة الغربية رغبة في تقوية نفوذه وسلطته يمنح اعظم هذين الملكين (٢) لقب « امبراطور » ويتوجه في سنة ٨٠٠ ٠ فيستاء من ذلك امبراطرة السلطنة الشرقية ولا يعترفون له بهذا اللقب ؛ ثم ان « الامبراطور الغربي الجديد » تحدثه نفسه بتوحيد الامبراطوريتين ليكون « سلطان العالم » فينوي الزواج بامبراطورة تكون على عرش السلطنة الشرقية (٣) ثم يقوم احد الامبراطرة (٤) ويعترف له بلقبه وان كان باقي الامبراطرة بعده ينكرونه عليه وفي سنة ٨٤٢ يجتمع مجمع في القسطنطينية ويقرر اعادة الصور ٠ وفي ختام القرن التاسع والعاشر تبلغ المملكة من السعة والقوة مبلغاً لم تدركه قبل ذلك ٠ حتى ان احد ملوكها (٥) يدحر السلافيين في بلاد الروس ويملي عليهم شروط الصلح ويصل الى ما وراء نهر الفرات ٠ ولكن هذا العدو الهائل — الروس وفرعهم من البلغار والسرب — يبقى في وجه السلطنة كجبار رابض على صدرها ٠ الا ان هذا الجبار يتلطف يوماً وينجذب الى المدنية اليونانية ٠ فتأتي في سنة ٩٥٧ ارملة الملك الذي هاجم القسطنطينية (٦) الى هذه العاصمة وتُعمَّد فيها ٠ وفي سنة ٩٨٨ يتزوج احد ملوك الروس (٧) باخت امبراطور (٨) ويُدخل الى بلاده الدين المسيحي والمدنية اليونانية ٠ فتصير مدينة كييف ثانية القسطنطينية من حيث نمو العمران والحضارة والمدنية ٠ ولكن امبراطورية اليونان تربي لنفسها في هذا الشعب الهائل الجديد الآخذ في التمدن عدواً لدوداً و « وارثاً » لقوتها وسلطتها وكأن الله يختار هذا الشعب الجديد لهذه الوظيفة لان الشعب اليوناني القديم يعجز عن اتمام وظيفته الى النهاية للامراض التي طرأت عليه ومما يزيد اعداءه وامراضه حروب يسمونها يومئذٍ حروباً صليبية ٠ فان المنجم يقول ان

١ بيبنوس وشارلمان ٢ شارلمان ٣ الامبراطورة ايرينا ٤ ميخائيل الاول
٥ يوحنا تزيمسيس ٦ اولغا ارملة ايكو ٧ فلاديمير ٨) باسيليوس الثاني

امراء الغرب سيتحدون يوماً على الشرق بتحريض رجال الدين . ويكون لهم يومئذ من هذا التحريض غرضان . الاول اسقاط سلطنة اليونان لما بين الفريقين من الخلافات الدينيّة والثاني افناء سلطة الاسلام واستخلاص القبر المقدس منها . وستكون هذه الحروب من اعظم الوسائل الى تمدين الغرب لان الصليبيين يجدون في القسطنطينية والشرق من آثار العمران والعلوم والفنون والحكمة والعظمة ما يبهر عقولهم فيتهافتون على اقتباسه . ولكنهم يجزون هذه الام الممدّنة في مقابلة ذلك شرّ جزاء لانهم يضعفونها بحروبهم ويفرغون جهدهم في اسقاطها ويستولون مدةً على القسطنطينية منصرفين اليها عن الشرق وعن الاسلام . مع انه لو يتحد الفريقان يومئذ لتغير وجه الكرة الارضية . ولكن اذا كان يمكن اتحاد الماء بالنار يمكن اتحاد اليوناني باللاتيني لتخالف مصالحهما السياسية والدينية معاً . ولما يظن احد الامبراطرة (١) ان النزاع بين السلطنتين وارد من جهة الاختلاف في الدين فقط يتقرّب من كنيسة رومه لازالة الخلاف . فيرسل نواباً من قِبله الى مجمع ليون (سنة ١٢٧٤) ولكن الشرق وكنيسته يرفضون الاتفاق . فكأنّ هذا الامبراطور يجهل ما يعرفه الجميع من ان كل امة تحب ان تعيش حرة في بلادها وتفهم دينها بعقول ابنائها لا بعقول غيرهم . ثم تصبح الحالة في القسطنطينية فوضى . ويكون للايطاليين فيها محاكم خصوصية وقناصل يحكمون بينهم كأنهم مملكة في المملكة . وتثور حرب اهلية بين شيخ وحفيده (٢) فيقوم خادم للشيخ (٣) ويغتصب الملك منهما ويحالف الاتراك عليهما (سنة ١٣٤٧ — ١٣٥٥) ويكون ملك هذا الخادم مقصوراً على النزاع على الملك بينه وبين الوارث الشرعي من آل الشيخ (٤) ولما يعود الملك الى الوارث الحقيقي يقوم عليه ابنه . وسيبذل البندقيون والجنويون والاتراك جهدهم للاستفادة من هذه الفتن الداخلية ويوسعونها . وحينئذ تبدأ سلطة عظيمة في الانتشار . فان الاتراك بعد الاضطرابات التي ستسقط خلافة بغداد (سنة ١٢٥٨) تشتدّ شوكتهم فينتشرون من شرقي جبال الاوليمب في وادي سنغاريوس حيث يقيمون ويزحفون الى القارة الغربية . ويساعدهم على انتشارهم هذا ان الاسرة المالكة (٥) بعد ان تترك القسطنطينية لعدوها الداخلي الذي قام عليها وتتخذ نيقية عاصمة لها حيث تقدر منها على مراقبة الاتراك والحرص على ولاياتها الاسيوية التي كانت كل قوة الامبراطورية منها — تعود فتترك نيقية لاسترداد القسطنطينيّة . فيخلو الجوّ حينئذ للاتراك ويثبون على البلاد . وبدل ان يتحد السلافيون واليونان واللاتين عليهم يستعين بهم

١ ميخائيل باليولوغوس ٢ اندرونيكوس الشيخ وحفيده اندرونيكوس الشاب
٣ كانتا كوزينوس ٤ يوحنا باليولوغوس ٥ آل باليولوغوس

الامبراطرة على سحق المملكة السربية التي اقامها السربيون . فيهدم سلطان تركي (١) مملكة السرب (سنة ١٣٨٩) وبذلك تقوى سلطة الاتراك قوة عظيمة . اما سلطنة بزنطيه فانها تصبح يومئذ عبارة عن بقايا ولايات منقطعة عن رأسها . ولكن بقاءها حينئذ انما يكون مسبباً عن تعدد سلاطين الاتراك وانقسام قواتهم . فلما يقوم فيها سلطان قوي (٢) و يوحّد قوتهم وسلطتهم باخضاعهم لسلطانه يهاجم القسطنطينية ويحصرها (١٣٩٧) ولكن انتصار سلطان المغول (٣) على جنوده قرب انقره يردّه عن هذه العاصمة . فيقوم بعده « التركي الفاتح » الذي كُتب للقسطنطينية ان تُفتح له (٤) فيحصرها ويفتحها (سنة ١٤٥٣) ويجلس على عرش القياصرة العظام بينما آخر امبراطرتها (٥) يموت بين جنوده موت الابطال دفاعاً عن عاصمته وعرشه . وحينئذ تقوم في القسطنطينية الجديدة سلطنة جديدة عظيمة تبلغ من بسطة الجاه والعظمة ان تصل جنودها الى قلب الغرب واساطيلها تستهزىء بشواطئه

فلما انتهى الشيخ الى هنا سكت ونظر الى ايليا فوجده مشغولاً عنه بالتأمل وعلى وجهه دلائل التألم من شيء يفكر فيه . اما امراء العرب فقد ساءهم ختام نبوءة الشيخ . وكان الزبير حاضراً بينهم فانبرى وقال : ان صاحبك المنجم يظن اننا سنصنع صنع الروماي نشتغل لغيرنا . فوالله الذي الا اله الا هو اننا سنملك القسطنطينية كما ملكنا بيت المقدس ولو توارت عنا في السحاب

فقال الشيخ وقد رام تخفيف غضب الزبير وغيره : ايها الفارس الشجاع . لا تغضب لنبوءة المنجم فانه يتكهن على غير هدى . اما نحن معاشر السوريين فسيان عندنا ملكتم السلطنة انتم او ملكها غيركم لاننا لا نطلب من ملكها غير العدل والحرية .

فابتسم ابو عبيدة وسأل الشيخ . وهل فرغت نبوءة المنجم . ام بقي منها شيء لعل نوبتنا تأتي بعدها . فاجاب الشيخ . بل بقي منها شيء . وهي ان الذين رشحوا انفسهم لوراثة سلطنة بزنطيه كما تقدم الكلام يغضبون لانتقال هذا الارث من يد اليونان الى يد امة « الفاتح » كما غضبتم الآن انتم من ذلك . فيقومون الى طلب هذا الارث

فقال ابو عبيدة : وبعدُ

فاجاب الشيخ : هنا سكت المنجم ولم يعد يذكر شيئاً جلياً . وانما يقول انه بعد اضطرابات

---

١ مراد الاول ٢ بايزيد ٣ تيمورلنك ٤ محمد الفاتح المعروف بمحمد الثاني ٥ قسطنطين دراجاليس

وحروب شديدة يُظهر فيها كل واحد من الفريقين منتهى البسالة والقوة تتحوّل سياسة العالم عن مجراها الاول . فانه يعد ان يكون كل الخلاف والنزاع محصورًا في سلطنة عظمى ينازعها جيرانها البقاء ويطمعون فيها تقوم سلطنات عظيمة اخرى على انقاض ايطاليا القديمة والسلطنة الغربية فتنصرف الاهمية السياسية عن بزنطيه الى عواصم سلطنات الغرب الجديدة . وبدل ان يكون حينئذ همّ « الوارث » مصروفًا الى منازعة « الفاتح » لطلب ارثه يكون مصروفًا الى مقاومة تلك السلطنات القوية الجديدة ليحفظ نفسه منها والى زيادة مستعمراته في جهات اخرى لان سياسة المستقبل سياسة فتوح استعمارية لا سياسة فتوح حربية واطماع فارغة . بل ان « الوارث » و « الفاتح » سيتفقان بازاء الخطر الجديد الوارد من باقي السلطنات الكبرى والصغرى ويعيشان جنبًا الى جنب بسلام وامان كجارين كريمين . فان الارض واسعة لا تضيق عن الناس الكرام

فقال ابو عبيدة . ولكن ألم يخبر المنجم شيئًا عن « الاصيل » صاحب الملك الاول . فاين يذهب

فاجاب الشيخ نعم اخبر عنه . فانه يقول ان هذا « الاصيل » يصغر بعد الكبر لانه لم يقدر على حفظ نفسه وينحصر في شبه جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية . ومن هناك يبقى متطالاً دائمًا الى عاصمته القديمة مفكرًا فيها ومراقبًا « الوارث » عدوه القديم لئلا يسطو عليها

فقال خالد ضاحكًا . والعجب من تعادي « الاصيل » و « الوارث » مع انهما من دين واحد

فضحك الشيخ واجاب . ان المنجم يقول ان « الاصيل » سيتفق يومًا مع « الفاتح » على « الوارث » وعناصره (١) حفظًا لمصالحه لان السياسة مبنية على المصالح لا على الاديان . والقرون القادمة سيكون الدين فيها اضعف العلائق بين الناس

ويظهر ان الامام عمر ضجر من هذا الحديث فظهرت دلائل الملل في وجهه فقال : لا عرافة ولا تنجيم في الاسلام . والله لم يدهشني شيء كغضب الزبير من تخرصات المنجم . فدعونا من هذه الاوهام . ايها الشيخ شكرًا لك لانك اوقفتنا على بعض اخبار المملكة . اتبعنا يا ايليا

ثم نهض عمر فنهض الجميع لنهوضه عائدين الى بيت المقدس وعمر كثير التفكير والاهتمام

---

١ هو اتفاق الباب العالي واليونان في العام الماضي على البلغار في المسألة المكدونية . ومما يجب ملاحظته هنا ان هذا الاتفاق جاء منطبقًا على سياسة اليونان الماضية لما استعانوا على سحق سلطنة السرب بمراد الاول كما تقدم

وكان ابو عبيدة يسير الى جانب الامام عمر في مسيره وهو يفكر ايضاً . وبعد حين قال (— ما قول امير المؤمنين في اسباب سقوط دولة الروم . والله ان نفسي في اثناء كلام الشيخ كانت تنتفض خوفاً من ان يصيبنا يوماً ما اصابهم

فسمع خالد كلام ابي عبيدة فدنا منه وقال (— ايها الامير نحن بعيدون عن كل ما اودى بالروم بعد الارض عن السماء . فلا رهبانية في الاسلام نخشى منها على ديننا وشعبنا . ولا تجبّر ولا تكبّر عندنا لنترك ضعفاءنا يموتون جوعاً وضعفاً واقوياءنا يحشدون الاموال ويسخّرون لانفسهم باقي الناس باجور قليلة . وخليفتنا انما يهتمّ بصلاح حال الشعب قبل اهتمامه بنفسه وبامراء امته . وكل واحد منا احبُّ شيءٍ اليه الموت في ساحة القتال طلباً للجهاد لانه مروض على الحرب منذ نعومة اظفاره . وقبائلنا ملأ الله قلوبها بروح الاسلام وغسلها من ادران الجاهلية فهي متحدة على اعلاء كلمة الله اتحاداً لا انفصام بعده . — فماذا نخاف بعد هذا

فسكت عمر ولم يجب . ولكنه بعد حين قال لابي عبيدة (— ادعُ لي ايليا . فاسرع ايليا ووراءه الترجمان . فسأله عمر (— يا ايليا هل ورد للرهبان والصور ذكر في انجيلكم . فاجاب ايليا كلا ايها الامير . فقال عمر (— هل يعلمكم انجيلكم التجبر والتكبر ويقسم امتكم قسمين : سائدين ومسودين . فقال ايليا . معاذ الله ايها الامير فانه يعلّمنا ان الكبير فينا صغير والصغير فينا كبير وان رئيسنا يغسل قدمي كل واحد منا دلالة على اتضاعه واهتمامه بامته

فقال خالد (— سبحان الله

فقال عمر وقد هزّ رأسه (— وهل يحضكم انجيلكم على اذخار الاموال والاستئثار بها وانفاقها في سبيل الشهوات والملاذ . فقال ايليا : ايها الامير ان سيدنا المسيح كان يشترط على كل رجل يتبعه ان يبيع املاكه ويجيء بثمنها الى صندوق الطائفة وهو « كبيت المال » عندكم

فقال خالد ايضاً (— سبحان الله

فقال عمر وهل يحضكم انجيلكم على التنافس والتباغض وقيام افرادكم بعضهم على بعض وشعوبكم بعضها على بعض . فقال ايليا . ايها الامير ان انجيلنا يقول « لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضربكم على خدكم الايمن فحوّلوا له الايسر . واحبوا اعداءكم وباركوا مبغضيكم لانكم اذا لم تحبوا غير محبيكم فاي اجرٍ لكم »

فصاح خالد هذه المرة بصوت اقوى مستغرباً (— يا سبحان الله

اما عمر فانه انغض رأسه وسكت . وبقي يسير بجانب ابي عبيدة وخالد متنحٍ عنهما .

وبعد برهةٍ رفع الامام الجليل كمه الى عينيه (ـ فنظر ابو عبيدة في وجهه فرأى دمعتين جميلتين تسطعان كلؤلؤتين في حدقتي الامام (ـ فصاح ابو عبيدة : ما ابكى اميرالمؤمنين . فازداد عمر بكاءً وقال (ـ يا عامر انني ابكي على امتي لانني لا اعلم ما يحلُّ بها بعدي . ياعامر انك تعلم انني لم اردعَ العرب واجمعهم بعد تفرق كلمتهم الا بعصا من حديد فاخشى ان تدب عقارب الشقاق بينهم بعدي . يا عامر قد سمعتَ من الشاب ايليا ما هي شريعة الروم وسمعتَ من الشيخ كيف خرجوا عنها فانا اخشى ان نخرج عن شريعتنا في مستقبل الزمان كما خرج الروم عن شريعتهم فيصيبنا ما اصابهم . يا عامر ان بلاد الله وعباد الله لا تُساس الا بالعدل والصدق والحق . واطلاق الحرية للغير لان لكل فرد وكل شعب حيزًا لا غنى له عن التحرك ضمنه . وانصاف الناس حتى اصغرهم واحقرهم . والاهتمام بالشعب قبل كل اهتمام . وتنزيه الدين عن اتخاذه دعامة للمصالح وللسياسة وآلة للبغض والشقاق . واعتبار الامم التي تقبلنا وندخل بلادها انسباء لنا . لها ما لنا وعليها ما علينا لانها في ذمة الله وذمتنا . فانا اخشى يا عامر ان نغيّر ما بانفسنا من هذا يوماً ما كما غيَّر الروم فيغير الله نعمته علينا وتنتقض اعمالنا

فيا تربة جبل الزيتون التي شربتِ تينك الدمعتين الجميلتين اللتين جرتا من عيني الامام العادل العظيم هل حفظتِهما في صدفة نفيسة كما يُحفظ الدرّ النفيس . يا طيف الكمال الذي يسكن جوّ ذلك الجبل الكريم منذ دوت في فضائه خطب ابن الناصرة الالهية ألم ترفرف حينئذ حمامتك السماوية على رأس ابن الخطاب حين لفظ هذا الكلام الجميل . ويا ايها المسلمون والمسيحيون في مشارق الارض ومغاربها خصوصاً يا اخواننا الشرقيين الا تنتفض عظامنا كلنا ـ انتفاض العصفور بلّله القطر ـ بعد وقوفنا على اسباب سقوط سلطنة بزنطيه وتأملنا في التي خلفتها وسماعنا الامام عمر بعد وقوفه على هذه الاسباب يقول ما قاله

الفصل الثالث والعشرون

استير

في البيت الاحمر

ولم يكد عمر يبلغ بركبه سفح الجبل حتى ظهر لهم من بعيد رجل يركض ركضاً شديداً . فلما وقع نظر ايليا على هذا الرجل عرف انه ارميا فقال في نفسه قبحاً لمنظر هذا الثقيل وللقاه

وكان الشيخ سليمان قد عاد الى المزرعة بعد ان ودع عمر وايليا يسير وراء الامراء منفرداً لان رفيقه القس الترجمان قد عاد الى البطريرك قبل قصدهم جبل الزيتون ليطلعه على نتيجة مهمة ايليا ويبلغه ان الامير امسك ايليا عنده

وكان ايليا يسير وفكره شارد عند استير وابيها . ولذلك استعاذ بالله لما نظر ارميا قادماً . فنوى ان لا يلتفت اليه فاطرق الى الارض وبقي سائراً في طريقه

اما ارميا فانه ما اقترب من الركب ولمح ايليا من بعيد حتى صاح باقوى صوته : كيريه ايليا كيريه ايليا . تعالَ تعالَ الي

فالتفتَ نحوه ايليا لفتةً ثم صرف وجهه عنه وسار في طريقه

وقد عجب الامراء من حالة هذا الرجل وصرف ايليا وجهه عنه . ولكن ابا عبيدة اخبر الامير انه معتوه فحلَّ الابتسام محل العجب عندهم

اما ارميا فانه هجم كالذئب الكاسر على ايليا واخذ به . ثم جثا على الارض صارخاً بكل قواه : كيريه ايليا كيريه ايليا . رحماك خلصنا . صديقي . اخي . حبيبي . لا تتركنا

فدهش ايليا من هذه اللهجة الجديدة فلم يرَ بداً من سؤال ارميا عن مراده وقصده فصاح ارميا والجنون يقصف ويعصف في عينيه

— ايليا . ايليا . اذا تركتَ استير فانني اقتلك . . ها ها . . هلمَّ معي اليها . . هي تنتظرك . . هي تنادي ايليا ايليا ولا احد يجاوبها . . . اسمع اسمع . ان البطريرك ارسلني اليك . . . وابوها عنده الآن . . وهو يطلب ان يراك . . ففتشت عليك المدينة كلها فلم اظفر بك الا هنا . . . ايليا ايليا . . لا تستغرب كلامي . . لا تظنني مجنوناً فانا اقول لك الحق . . نعم قد دخل الشيطان منذ مدة الى قلبي فصنعت ما صنعته معك . . . ولكن ما كنتُ اظن انها تحبك الى هذا الحد . . فاسمع يا صاحبي . . يا اخي في المسيح . الله يبارك لك فيها . . . انظر . . ها انني انفض يديَّ امامك منها . . خذها وحدك . . لك وحدك يا ايليا . . ولا آخذ منها انا غير خصلة من شعرها . . ولكن خلّصها . . آه لو كنتُ علمتُ انه سيحدث ما حدث لما كنت صنعتُ شيئاً . ولكن ما جرى جرى . . ولا نعود اليه . . . هلمَّ معي يا عزيزي لنخلّصها

فلما سمع ايليا هذا الكلام ونظر الى حالة ارميا اشتد جزعه على استير . فانهض المعتوه وسكّن باله واستخبره الخبر . ولما علم منه كل شيء طارت نفسه شعاعاً فاستأذن الامير وسار مسرعاً الى المدينة قاصداً المقام البطريركي

ولما دخل ايليا على البطريرك وجده جالساً على مقعدٍ وهو مطرق يفكّر . ويظهر ان الاشهر التي مرّت في اثناء الحصار وما تلا ذلك من فتح المدينة قد اثر في نفس البطريرك تأثيراً شديداً ولذلك كان لونه الناصع الوردي الاعتيادي مشوباً بالاصفرار . وجسمه قد نحل قليلاً . ولما وقع نظر البطريرك على ايليا صاح البطريرك : بمَ اجاب الامير يا ولدي . فمدّ ايليا يده الى جيبه وهي ترتجف واخرج له الرقّ السري وابلغه جواب الامير . فتناول البطريرك الرق بيد ترتجف ايضاً وقال بنزقٍ : من اين وصل هذا الرقّ الى يد ذلك اليهودي . فدهش ايليا وقال اي يهودي يا مولاي . فقال البطريرك : ابو الفتاة التي قبض عليها الشعب في طريق بيت لحم . ولذلك بعثتُ في طلبك مع ارميا لتدبّر هذه المسألة . فازدادت دهشة ايليا وظن ان ارميا كاذب بما قاله عن استير . فقال : وما شأن هذا اليهودي . فقال البطريرك اجلس يا ايليا

ثم ان البطريرك اخذ يقصّ على ايليا ماحدث . فعلم ايليا ان ابا استير جاء البطريرك باكياً منتحباً فانطرح على قدميه واخبره ان ايليا اساء الى ابنته وقد اشرفت على الموت ولذلك فهو يسأله ان يرسل اليها ايليا ليظهر لها الرضى ويعزيها حتى اذا شفيت من علتها وعاودتها صحتها سافر بها ابوها . فدهش البطريرك من هذا الاقتراح البارد وردّ الشيخ بخشونة . فذهب الشيخ باكياً وارسل اليه مع احد الشمامسة ورقة مختومة فيها هذه العبارة « اذا لم يفعل البطريرك ما ذكرته له وماتت ابنتي فانني انتقم لنفسي بان اكتب للامبراطور واطلعه على مسالة الرق السري الذي دفعه الى امير العرب »

فلما قراء البطريرك هذه الورقة اسقط في يده وارسل يسترجع الشيخ . فرجع الشيخ . وعلم منه البطريرك ما يريد علمه عن استير وايليا . وكانت السيدة تيوفانا التي ذهبت باستير الى دير العذراء على جبل الزيتون قد عادت من الدير بعد فتح المدينة فاستدعاها البطريرك وطلب منها ان تنقل استير من خيام العرب في حيّز بيت المقدس الى منزل موافق لصحتها وتحسن مداراتها . فاختارت تيوفانا فندق « البيت الاحمر » في بيت لحم فذهبت مع ابي الفتاة ونقلت استير اليه . وقد وعد البطريرك الشيخ بان يبعث اليه ايليا في المساء

وكان ارميا قد جاء مع الشيخ الى المقام البطريركي فارسله البطريرك في طلب ايليا . فذهب ارميا وجرى له مع ايليا ما جرى

فلما وقف ايليا على هذه التفاصيل خُيل له ان الارض اخذت تميد به . وسمع صوت استير في باطنه يناديه : ايليا ايليا . فما فرغ البطريرك من كلامه حتى وثب ايليا وقال : انا سائر

الى البيت الاحمر يا مولاي حسب امركم

فقال البطريرك مبتسماً مع اشتغال باله وكثرة همومه : لا بأس يا بني · فان انقاذ روحٍ محبةٍ من الموت كانقاذ نفس ضالةٍ من جحيم الضلال

وبعد خمس دقائق كان ايليا على جوادٍ يعدو على طريق بيت لحم ووراءه ارميا يركض كالكلب وراء صاحبه

ولما وصل ايليا الى « البيت الاحمر » نظر في الباب من بعيد ابا استير واقفاً ينتظره طبقاً لوعد البطريرك · وما وقع عليه نظر الشيخ حتى اسرع اليه والدموع في عينيه · فدخل ايليا الى الفندق مع الشيخ · اما ارميا فاهتمّ بتدبير مربط للجواد

وما صار الشيخ وايليا وحدهما في الحديقة التي امام الفندق حتى انطرح الشيخ على يد الفتى ليقبلها · فاجفل ايليا ورجع القهقرى · فقال الشيخ باكياً : يا كيريه ايليا لقد انقذتني مرةً فانقذني مرةً اخرى

فقال ايليا بجدٍّ وهدوءٍ : ماذا جرى

فقال الشيخ : جرى ما سيقتلني ويقتل امها اذا ماتت · فاذا كنتُ انا مذنباً فما ذنبها هي · يا كيريه ايليا لقد علمتُ كل شيء · فانها ذكرتْ في اثناء هذيانها وذهولها كل ما حدث لك معها في المزرعة · ووقفتُ من ارميا على سبب اغمائها ونفورك منا · فلنتحادث في ذلك الآن بهدوءٍ يا كيريه ايليا · ايّ جناية ارتكبتُ لاستحقّ احتقارك · نحن وانتم قوم نتنازع على هذه الارض وكلٌّ منا يحارب خصمه بكل سلاح يقع في يده · فلقد هدمتم هيكلنا وحرّمتم علينا الدنو من بيت مقدسنا وسفكتم دماءنا وجعلتمونا نهيم على وجوهنا في الارض كحيوانات سائمة · فهل يُنكر علينا بعد كل ذلك ان نحالف عليكم من يقوم لاستخلاص البلاد منكم · ولو كنتم في مكاننا وكنا في مكانكم افما كنتم تفعلون ما نفعله نحن الآن · بل انكم الآن تفعلون مثله مع اعدائكم العرب لانكم تبعثون اليهم من يتجسس احوالهم ويتنسّم اخبارهم · فلماذا تحمّلني وحدي يا ايليا عار الجاسوسيّة ما دامت هذه الوظيفة القبيحة من لوازم الحروب الاضطرابات

اما ايليا فلم يلتفت كثيراً لهذا الكلام ولا جاوب عنه بل سأل الشيخ دون ان ينظر اليه : اين السيدة استير ايها الشيخ فانني احب ان اراها لاثبت لها انني ما زلت احترمها كما كنتُ وان ما بلغها عني خطاءٌ محض

فاشرق وجه الشيخ واكبّ ثانية على يد ايليا صارخاً بدموع : بارك الله في شهامتك يا ايها الرجل الكريم · نعم يا ولدي · قل لها انك لا تحتقرها وانا على ثقة من شفائها ·

انظر يا بني انها منذ الصباح لا تفارقها نوبة الا وتقع في نوبة . وكلما تكاد تصحو يشتد هياجها فتلطم وجهها وتقطع شعرها . وفي احدى المرات عرفتني فصاحت صياحاً شديداً وصرفت عني وجهها نائحة معولة . وهي في اثناء كل ذلك تنادي « ايليا ايليا » وتقص على غير وعي كل ما جرى لك معها . فيخيل لسامعها والناظر اليها انها فقدت عقلها . فيا ولدي الكريم ليس لي ولامها في الارض احد نهتم به ويهتم بنا غير هذه الفتاة . فهي شمس آمالنا وعصا شيخوختنا . فساعدنا على تسكين اعصابها ورد عقلها اليها يكن لك الاجر والثواب عند الله والناس

وان القلم ليعجز عن وصف ما قام في نفس ايليا في اثناء هذا الكلام . فمد يده واخذ بيد الشيخ وقال : هلم بنا اليها

فدخل الشيخ وايليا الى الفندق يقصدان غرفة استير

ولم يفتحا باب الغرفة ليدخلا منه حتى انتصب في وجهيهما شبح امرأة وضعت اصبعها على شفتيها واشارت اليهما بالرجوع . فوقف ايليا والشيخ في مكانهما ولم يدخلا وصاح ايليا بدهشة : السيدة تيوفانا

فخرجت تيوفانا واغلقت الباب ثم سلمت على ايليا وقالت . يا كيريه ايليا لا يمكن ان اتركك تدخل على الفتاة الآن لانني اخشى عليها من البغتة . وفضلاً عن ذلك فهي الآن راقدة . وهذه اول مرة رقدت فيها واستراحت منذ اغمائها

فشعر ايليا بان كلام تيوفانا هذا لا يخلو من تهكم المرأة التي يلذها عذاب رجل وابعاده عن حبيبة له في قبضتها غيرةً منها

وفي هذا الحين وصل ارميا الى باب غرفة استير عائداً من الاسطبل . فلما سمع كلام تيوفانا عن راحة استير صلب وقال في نفسه « كيريالايسون . ان استير بمجرد دخول ايليا الى الفندق بدائت تستريح . فكانها مسحورة منه »

وكاد ايليا يمتثل لامر تيوفانا وحيلتها فينتظر الى ما بعد انتباه استير من رقادها لا سيما وانه سر بهذا الرقاد لانه يدل على تحسن صحتها . ولكنه لم يخط خطوة عائداً عن الباب حتى سمع من الغرفة صوتاً يصيح بذعر ويأس : ايليا ايليا

وكانت استير هي التي صاحت من الغرفة هذا الصياح في الحلم . ولكنها لم تلبث ان انتبهت مرتعدة لصياحها واخذت تبكي

فارتعد ايليا لهذا الصوت وبقي جامداً في مكانه . ولما سمع بعده بكاءها تقطعت احشاؤه

فدفع باب الغرفة ودخل اليها

فلما سمعت استير صوت حركة الباب رفعت رأسها عن وسادتها والتفتت نحوه بعينين ثائرتين منتفختين

وكانت العجوز امها بجانبها فلما رأتها تنتبه الى صوت الباب و تنظر بعينين واعيتين عرتها الدهشة . اذ كانت هذه اول مرة انتبهت فيها استير هذا الانتباه

وقد دخل ايليا الى الغرفة وحده وبقي الشيخ وارميا وتيوفانا خارجاً

فلما وقع نظر ايليا على نظر استير ابتسم لها ابتسامة كابتساماته القديمة وتقدم نحو فراشها

اما استير فانها الوت رأسها الاصفر النحيف وعادت الى وسادتها وهي تتلفظ بين شفتيها بكلام لم يسمعه احد

فدنا ايليا منها والابتسام لا يزال في شفتيه . ثم اخذ يدها ليجس نبضها

فلما التقت يده بيدها ارتعشتا معاً كما يرتعش سلكان كهربائيان مختلفان حين التقائهما

وكانت استير حينئذٍ بلون الاموات نحيلة كالخيال ضعيفة القوى كالطفل . وكانت تغض من طرفها وتحاول ستر وجهها من ايليا بيدها . فاثر ذلك في نفس ايليا تأثيراً بلل عينيه بالدمع . فقال لها : كيف حال السيدة استير . وهل ذهب ألمها

فاجابت استير برزانةٍ وجدٍ وصوتها في منتهى الضعف : نعم قد ذهب كل شيء

ففهم ايليا معنى كلامها فابتسم اخفاءً لتألمه وقال : فلماذا تبكين اذا كان الالم قد ذهب

فاظهرت استير الدهشة وقالت : انا ابكي ؟ معاذ الله . وانما تهيجت عيناي مما اصابني . . ثم تنهدت وقالت : اف اف فلقد كنتُ متوقعةً ذلك منذ الصباح . فانني انتبهتُ من النوم ورأسي مثقل وصدري ضيق . فلعلّ ذلك من عدم تعودي الرقاد في خيام العرب في ليالي البرد

فعجب ايليا حينئذ من انفة استير ورشاقة حيلتها في نسبة علتها الى غير سببها . وكان ابوها يسمع كلامها من وراء باب الغرفة فسرّ بجوابها الدال على عزة نفسها . اما امها فكانت بجانبها تنظر شزراً الى ذلك الشاب المسيحي

غير انّ ايليا رأى ان كتمان الداء لا يشفيه بل ربما زاده استفحالاً فعزم على مصادمته وجهاً لوجه . فانحنى نحو استير وقال : هـل تستاء فتاة عاقلة مثلك من كلام رجل معتوه كارميا . فهنا غضّت استير من نظرها وترقرق الدمع في عينيها . فقال ايليا : فلو كنتُ مكانك لضحكت من كلامه بدل ان أتأثر به . فانه مجنون ولا عتب على المجانين . واذا

شئتِ برهاناً على كذبه فانني اقول لك انه جاءني اليوم بعد الظهر واعتذر مني عن كذبه وافترائه . وهو حاضر خارجاً يشهد على ذلك . هل تريدين ان ادعوه لك

فلما رأت استير ان ايليا دخل في الموضوع الذي كرهت الدخول فيه صيانةً لكرامتها وشرفها تحوّل لونها بغتة من الاصفرار الى الاحمرار وبدت الدموع في عينيها . واذ رأى ايليا انها لم تجاوب عن سؤاله وكان يعلم ان السكوت في معرض الحاجة بيان نادى باعلى صوته — ارميا ارميا . ادخل بامر السيدة استير

وكان ارميا قد سمع من وراء الباب حديث ايليا مع استير . وكلما كان ايليا يذكر عن ارميا انه معتوه او مجنون كان ارميا يحرق الارم ويعضّ شفتيه من الحنق ويثور كالجمل قائلاً في نفسه — لقد سمحتُ له ان يأخذها ولكني لم اسمح له ان يهينني لديها . فلما سمع صوت ايليا يناديه دخل ونزق الجنون في عينيه . ولكنه ما وقع عليه نظر استير من وراء طرفها الكسير حتى تحوّل نزقه الى هدوء . فاحنى عنقه امام ايليا كالاولاد وقال : ماذا يأمر كيريه ايليا

فقال ايليا : يا ارميا اما جئتني اليوم واعتذرت الي عما فرط منك . فقال ارميا نعم يا كيريه ايليا . فقال ايليا اما ذكرتَ لي ايضاً انك لمّا كذبتَ كذبتك على مسمع من السيدة استير كنتَ مضطرب العقل . فتردد ارميا في الجواب ثم قال . نعم نعم قد قلتُ لك ذلك وانتَ قلتَ لي انك . . . فهنا خاف ايليا من فلتات ارميا فقطع كلامهُ قائلاً : انا لا اسألك عما قلتُ لك بل اسألكَ عما قلتَ لي . فاخرج الآن مشكوراً على اخلاصك

فاحنى ارميا المسكين عنقه ايضاً وخرج طائعاً كولد صغير . وبهذه الكذبة وهذه الطاعة في حال كهذه الحال لغرض كالغرض الذي اتفق عليه مع ايليا محا ارميا كل خشونته السابقة واظهر ان نفسه نفس رجل كريم . بل انه بهذا الامر الذي انكر فيه ذاته الى هذا الحد ارتقى بجنونه الى ما فوق العقل وفاق حبه حب ايليا

اما استير فانها كانت في اثناء ذلك ساكتةً هادئة لا تظهر على وجهها دلائل الرضى ولا دلائل السخط . وقد ظن ايليا انه اقنعها بهذه البراهين . وزاد عليها انه ذكر لها سبباً سياسياً لرحيله بسرعة من معسكر العرب كنصيحة عمرو بن معدي كرب ودعوة البطريرك له فضلا عن اتباع ما ذكرته له في كتابها . ولكن استير كانت تفكر في شيء آخر

وفي ذلك المساء تعشى ايليا في الفندق وتعشت استير براحة . وبعد العشاء خرج ايليا الى الحديقة مسروراً بانّ استير اخذت تتقدم من الصحة فوجد في الحديقة ارميا جالساً

على مقعد بعيد وهو حزين يتأمل ورأسه بين يديه · فعاد ايليا من حيث أتى اجتناباً لملقى ارميا · ولما علم انَّ استير نامت مستريحة بعد العشاء اطمأنَّ باله فطلب فرسه ليعود الى القدس على ان يعود في الغد · وقبل رحيله اختلى بابي استير وحادثه بما حادثه بشأن الرق السري ثم ركب وعاد الى القدس

ولم يكد ايليا يصل الى منتصف الطريق حتى لقي شرذمة من امراء العرب قادمين الى بيت لحم مع الامام عمر لانه رام مشاهدة المكان الذي ولد فيه المسيح كما شاهد قبره ومصعده · فاستأذن ايليا الامام باتمام سيره ليعود الى البطريرك بمهمة ارسله فيها فاذن الامام له

وفي اليوم التالي عاد ايليا الى البيت الاحمر فوجد استير على ما كانت عليه امس وقد ابتسمت له هذه المرة وحادثته وضاحكته

وفي اليوم الثالث اصبحت تقعد وتطلب دفاترها لتكتب فيها

وقد عجب ايليا من ان استير صارت في مرضها اكثر جمالاً مما كانت · ولكن ايليا نسي المبدأ المشهور « ان الجمال في عين الرائي » ولذلك لم يعلم ان ذلك الجمال الجديد الذي اصبح يجده لها كان في نفسه فقط وذلك من قبيل الشفقة على نحولها وضعفها والخوف على حياتها

واقامت استير خمسة ايام متتالية وعليها ظواهر الصحة مع صداع في راسها · وكان ايليا كلما زارها وجدها مشغولة بالكتابة في دفتر تضعه تحت وسادتها · وحين دخوله عليها كانت تطوي هذا الدفتر مبتسمةً وتدسه في قميصها

وفي اليوم السادس لما زارها ايليا طلبت ان تُحمل الى الحديقة تجلس ساعة فيها · وكان الوقت قبل منتصف النهار والشمس تكسر شوكة البرد بحرارتها المحيية · فاخرجوها الى مقعد تحت شجرة ظليلة فجلست هناك قريبة من امها ومن ايليا

وكانت هذه اول مرة تخرج فيها استير الى النور وتنتشق هواء السماء النقي بعد مرضها · فانشرح صدرها للذة الحياة وابرقت عيناها · ولكنها لم تلبث ان تغيرت فانقبضت وسطع في عينيها دمعتان جميلتان كنقط المطر الصافية التي كانت لا تزال على اغصان الاشجار تترقرق في نور الشمس الذهبي كاحجار ماسيّة معلّقة بها

فانتبه ايليا الى انقباضها هذا بعد الانشراح ولكنه لم يعلم له سبباً

اما استير فانها أسندت رأسها اللطيف الى يدها النحيفة وصارت تنظر بحزنٍ الى ما حولها من جمال السماء والارض

وبينما هي في تأملها هذا سقطت نقطتان من نقط المطر التي على الشجرة كأنَّ احد العصافير قصد مداعبة استير فرشقها بهما · فوقعت احدى النقطتين على يد استير والاخرى على التراب امامها

فحينئذٍ ابتسمت استير ونظرت الى ايليا وقالت : هل نظرتَ ما نظرتُ · فاجاب ايليا نعم نظرتُ · فقالت استير فبماذا تشبهها · فقال ايليا اشبهها بمذهبي الجاحد والمؤمن · فحملقت استير واشارت بعينها الى امها كانها ترجو منه ان لا يبحث في امر ديني على مسمع منها وان كانت لا تُحسن اليونانية : فعلم ايليا انها لم تفهم كلامه فقال : نعم اشبهها بمذهبي الجاحد والمؤمن · فان النقطة التي وقعت على الارض وصارت وحلاً دنيئاً رمزٌ الى مذهب الاول في مصير الانسان والنقطة التي وقعت على يدك وبقيت ماسةً صافية جميلة رمزٌ الى مذهب الثاني

فبهتت استير وسكتت تفتكر · فراب ايليا سكوتها فقال لها : وانتِ بمَ تشبهينهما

فرفعت استير رأسها وابتسمتْ ولم تزد على الابتسام

وفي هذا الحين وصل الشيخ ابوها فلما رآها جالسة في الحديقة وهي تكاد ترتعد من البرد اسرع اليها واعادها الى فراشها رغماً عنها · ويظهر ان هذه النزهة كان لها تأثير شديد على مرضها

فانه قبل دخول الليل اشتدّ صداعها وعاودها اغماؤها وهذيانها وكثر اضطرابها

ولم يدنُ الفجر حتى وصل ارميا الى مزرعة الشيخ سليمان مذعوراً وهو يلهث من التعب · فقرع باب غرفة ايليا حتى كاد يكسره فانتبه ايليا مبغوتاً فاخبره ارميا باكياً ان استير في خطر فطار ايليا الى بيت لحم · فوجد استير بلا حراكٍ في فراشها وحولها امها وابوها يبكيان بدمع سخين

وكان وجه الفتاة في سكونها هذا وجه ملاكٍ عابس وممدد في فراش كولد صغير

فعجب ايليا من هذا الانقلاب وسأل اباها وامها عن سببه فلم يستفد شيئاً

ذلك وا اسفاه ان الجميع كانوا يجهلون علتها

ولذلك كانت العلة كل الايام الماضية متمكنة منها ولم يشعروا بها

ولكن ما هي هذه العلّة ؟ الحب ؟

هذه علة قديمة فيها · ولكن هنالك علة جديدة

وما هي ؟

هي سمٌّ ينتشر في دم الانسان بهدوء وبطء فيسمّمه ويفني قواه وحياته . هو الداء الذي ما عرفوا اسمه وميكروبه الاَّ منذ زمن . هو الآفة التي ترتعد منها فرائص الامهات والآباء اذ كم اختطفت منهم عزيزات واعزاء

— هي الحمى التيفوئيدية

فيا ايها الميكروب القاتل الذي دخلتَ جسم استير النحيل وتمكنتَ منه دون ان يدري بك احد انك ستجري دموعاً وتكسر قلوباً

وقرب الظهر فتحتْ استير عينيها . فلم تعرف ايليا بل ظننته اباها . فقالت بصوت متقطع : ابتاه اما جاء كيريه ايليا

فوضع ايليا يده على عينيه ليمسح دموعه

فاردفت استير بقولها : انني راحلة يا ابتاه . وقد شعرتُ بدنو اجلي . فارجو منك ان تدعوه لي لاراه المرة الاخيرة .. اما انتِ يا اماه فصلّي من اجلي

فمسح ابوها دموعه واخبرها انَّ ايليا قد اتى وهو واقف امامها . فابتسمت استير ابتسامةً جرت عادة ملاك الموت ان يجعلها في منتهى الجمال والحلاوة على شفاه الراحلين . ثم مدَّت يدها الى ايليا فاخذت يده وقالت بصوت متقطع : يا كيريه ايليا شكرًا لك . ثم خنقتها العبرات وعاودتها النوبة

وكأن استير شعرت حينئذٍ انها شرعت في الدخول في دار الابدية فاستجمعت قواها كلها ومدَّت يدها الى قميصها فاخرجت منها دفترًا مطويًا ثم دفعته نحو ايليا قائلة بصوت ضعيف متقطع لا يُفهم كلامه الاَّ بصعوبة : هدية الى ايليا من عزيزته . فتناول ايليا الدفتر بيمناه بينما كان يمسح دموعه بيسراه . ويظهر ان الفتاة المسكينة قد رأت وهي في حشرجة النزع دموع ايليا فابتسمت سرورًا بانَّ ايليا يبكي من اجلها . ثم اشارت اليه اشارة ان يتقدم منها . فتقدم ايليا . فاستجمعت استير قواها وهي على ابواب الموت فقدرت ان تنطق بهذا الكلام : صلِّ من اجلي بدل البكاء .... ادفنوني في المزرعة ... قرب القبر ... لكي ابقى قريبة منك ابدًا ..

وهنا اطبقت الفتاة جفنيها واعادت روحها الى باريها

فيا ايها القارىء الكريم نرجو منك ان تعفينا من وصف حالة ايليا وارميا والشيخ والعجوز لما رأوا امامهم استير المسكينة جثة هامدة . فانَّ هذا الوصف يزيد اشجانك واشجاننا ويجفف ينابيع الدموع في عيوننا

ولقد انفذ الشيخ والعجوز وصية ابنتهما . فاذنا في دفنها في مزرعة الشيخ سليمان بجانب قبر الراهب ميخائيل . وقد صلى عليها ابوها واشترك اهل المزرعة جميعاً في جنازتها والبكاء عليها لانهم عرفوها كما تقدم

اما ايليا فسار في الجنازة كموجود غير حاضر وقد نفد الدمع من جفنيه . وبقي طول ذلك النهار كمن مسه خبل في عقله . ولما غيب التراب في المساء جسم عزيزته استير عاد الى غرفته فاقفل الباب ثم انطرح على وجهه يتذكر ماضي استير وتقلبات حياته : وبينما هو يتأمل في ذلك تذكّر الهدية . فارتعد وجلس ليراها . فلما فتح الدفتر وتصفحه وجد انه عبارة عن « يومية » كانت استير تسطر فيه عواطفها كل يوم . فوضع ايليا شفتيه على الدفتر حيث كان خط استير وعواطفها وقبّله مراراً وهو يبكي بكاء الاطفال . ثم ترك البكاء وشرع في القراءة فقرأ اولاً ما يلي

« يوم الاربعاء (اقراء هذا اولاً)

« خرجت اليوم معه الى الحديقة . فرأيته في النور اجمل منه في الظل . وشعرت بلذة الحياة في هذا العالم ... ولكن اواه انني لم اولد لاعيش فيه .. وهذا شأن البشر الذين يعطيهم الله نفوساً حساسة اكثر مما يجب .. يا الهي لا اعارض في احكامك وحمداً لك .. لما تأملتُ اليوم في جمال الكون ولذة الحياة اسفتُ لانني سافارق الدنيا .. خصوصاً بالطريقة الشنيعة التي عزمتُ عليها .. آه عفوك يا الهي مقدماً .. واذا صدق الحلم الذي رأيته في هذا الليل اعتبرته نعمة منك .. فانني رأيتُ رسولك جبرائيل هبط اليّ وقال : ايها الفتاة ان الله تحنّن عليكِ ورأف بك ولذلك سيغنيك عن جناية الانتحار . وقد ارسلني استدعيك اليه في زمن قصير ... فانتبهتُ من النوم مذعورة ولكنني سررت لانني ساموت موتاً .. لا انتحاراً . ولكن أصحيح هذا ..

. . . .

يا الله . يظهر ان الحلم سيصدق . فماذا حدث لي يا الهي ... نعم كنتُ اشعر في الايام الماضية بضعف وصداع وارتخاء في كل جسمي ولكنني كنت اقدر على الجلوس والوقوف . اما الآن بعد عودتي من الحديقة فقد صرت عاجزة عن امتلاك حواسي .. فهل هذا بدء الرحيل .. هل اقترب الملاك جبرائيل .

ايليا ايليا . لقد شعرتُ الآن انني منحدرة الى هوة الموت .. آه . انني اخافه واتمناه .

اخافه لانه سيبعدني عنك واتمناه لانني لم اعد اقدر ان اعيش بدونك .. ولا تقل احيي لاكون لك فانني ذكرتُ لك في مقدمة هذا الدفتر الاسباب التي تحول دون ذلك . فاشفق عليَّ وصلِّ من اجلي

. . . .

(فهنا مسح ايليا دموعه لانها صارت تستر سطور الدفتر عنه وطلب المقدمة . فقرأ فيها)

. . . .

« يوم السبت

« اول ما فتحتُ عينيَّ امس وجدته امامي باسماً . ولكنه كان اشدَّ اصفرارًا مما عهدته . فدنا مني واخذ يدي .. آه . انني شعرتُ حينئذ بنار تحرق كبدي .. ولقد سألني هل ذهب الالم فقلتُ له قد ذهب كل شيء .. نعم قد ذهب كل شيء .. وعبثاً يحاول تعزيتي وتخفيف مصيبتي فانني اشعر بانه لم يبقَ لي صبر على الحياة .. فقد أُضيف الى الاسوار التي بيني وبينه سور جديد لا يُهدم ابدًا . هو مسيحي وانا اسرائيلية فامته عدوة امتي خصوصاً في هذا العصر الذي كثرت فيه الدماء بينهما . فاقتراني به يكون عارًا عليَّ عند قومي . بل انا نفسي لا ارضاه لنفسي لانني لا اقدر ان انسى مصائب امتي واحالف اعداءها عليها . وفضلاً عن هذا فمن يعقد عقد القران ؟ .. فلا أَهله وكهنته يتركون يد كاهن يهودي ترتفع على راسه ولا اهلي وكهنتي يتركون يد كاهن مسيحي توضع على رأسي ... واولادنا ماذا يكونون ؟ .. واي عار يلحقهم حتى ذريتهم كما قيل لهم عند اليهود ان اباكم مسيحي وعند المسيحيين ان امكم يهودية ... اف ما اشد طياشتي . لقد وصلتُ في الفكر الى الاولاد ..

« ثم ماذا يحل بامي متى علمتْ بفعلي . انني اعرف غضبها ولا اقدر على احتمال سخط عجوز ضعيفة على شفا القبر .. وقد سمعتها مرة تقول : خير لها ان تموت من ان ينقذها مسيحي

ولكن كل هذا يا ايليا شيء يسير بالقياس على السرّ الجديد الذي فضحه ارميا على مسمع مني . انا ابنة جاسوس ؟؟ انا يُجرَبي للوصول الى اسرار الناس وخفاياهم ؟ تقول انك لم تصدّق ذلك ولم تعبأ به وتستشهد بارميا على قولك هذا . ولكن انا انا ماذا افعل بضميري . ماذا افعل باعتقادي بنفسي .. آه آه . ان هذه الضربة قطعتْ حبل آمالي في هذه الحياة . ومنذ اصابتني لم تبقَ لي قوة على النظر اليك . لما فررتُ منك من المزرعة يا ايليا فررتُ وانا شامخة الراس لانني علمتُ انك تفهم قصدي هذا وتثني عليه

ويزداد اكرامك لذكري . اما الآن فانني صرتُ اشعر بكل جوانحي انني صرتُ صغيرة ذليلة في نظرك وفي نظر نفسي . واذا كنتَ انت شهمًا كريمًا تتجاهل ذلك وتتناساه اكرامًا لي فانا لا يمكن ان انساه ابدًا ... انني كلما وقع نظري عليك اقول في نفسي « انه الآن يتذكر انني كنتُ من بنات الجاسوسية وقد اتجرتُ بجمال وجهي » . فيا ايليا سامحني على الامر الذي عزمتُ عليه . لقد عزمتُ على الفرار منك مرة ثانية . ولكنني هذه المرة سارحل الى مكانٍ لا تستطيع ان تتبعني اليه ...

آه يا ايليا . انني هذه المرة سافارقك الى الابد فراقًا حقيقيًا ...

. . . .

قلتُ آنفًا ان فراقنا الى الابد . فعفوك يا الهي . انني كفرتُ بنعمك ولم ادرِ . ليس فراقنا الى الابد يا عزيزي ايليا بل الى الملتقى . نعم الى الملتقى هناك فوق يا ايليا حيث لا مسيحي ولا يهودي ولا وثني بل كلنا بشر متساوون نستريح او نتعب تبعًا لاعمالنا الصالحة او السيئة في هذه الحياة . اضحك معي هنا من انني صرت فيلسوفة مثلك . آه انني لا انسى حتى في الدار الاخرى خطبتك بجانب قبر الراهب ميخائيل . وان يدي لترتجف اذا رمتُ ان اسطر لك الآن رائي فيها . ولقد تأملتُ كثيرًا في موضوعها بعد رحيلي عن المزرعة فوجدتُ انني لو بقيتُ فيها لما كتبتُ لك الكتاب الذي كتبته

نعم الى الملتقى يا صديقي وهذا هو الامر الذي يقويني على فعلي . لانني لو كنتُ اعتقد انه لا ملتقى لنا بعد فراقي هذه الدنيا لارتعدت فرائصي واحجمتُ عن الامر الذي عزمتُ عليه . اذ اين اجد حينئذ القوة على فراقه فراقًا لا لقاء بعده . اما الآن فانني قوية على ذلك راغبة فيه لانني اعلم ان دمي سيغسلني في نظره ونظر نفسي . واذا حال هذا الدم دون سعادتنا هنا فسيجعلني قادرة ان اكون سعيدة معه هناك واعيش بجانبه دون ان اخجل منه او يستحي بي . ولا ريب ان الله يسامحني على فعلي

. . . .

« يوم الاحد

بما انني عازمة على فراقه فقد صرتُ اجد في نفسي قوة على محادثته ومضاحكته . ولقد دخل عليَّ اليوم ضاحكًا مسرورًا فاستقبلته ضاحكة مسرورة ايضًا . لماذا اجلب له الكآبة والحزن منذ الآن . اما يكفيه منهما ما سيصيبه بعدي .. آه . ايليا ايليا .. ان كل دمعة تنحدر من عينيك على قبري ستبرد لها عظامي .. ايليا ايليا ان كل مرة تراني فيها في

احلامك فانني ارسل اليك بدلها بركةً سماوية من منزلي الابدي . فبحياة عينيك لا تنسني .. انني اعرف قلوب الرجال .. فهم يقولون انهم يحبون الى الابد ولا تمرُّ عليهم سنة او شهر حتى ينسوا حبهم وعهدهم . آه يا ايليا لا اطلب منك كل يوم الا زهرة واحدة على قبري

. . . .

يا ايليا . اين تدفنونني آه انني اشعر منذ الا ن ببرودة وثقل التراب الذي سينهال على جسمي النحيف .. اف . لقد ضاق صدري .. واوشك ان يغمى عليَّ .. آه يا الهي ارحمني ..... لكن وافرجاه وافرجاه ان صدري يتسع ونفسي ترتفع حينما اذكر في موقف كهذا الموقف كلمة « الهي » آه ما احلى هذه الكلمة يا ايليا في افواهنا وقلوبنا في حال كحالتي . اسمع ها انني بعد ان تلفظتُ بها واحضرتها في فكري وقلبي صرتُ قادرة على سحق الموت بقدمي . فتعالَ ايها الموت انني لا اخشاك لان نفسي الخالدة اقوى منك تعالَ ايها التراب البارد الثقيل فانك لستَ بابرد ولا اثقل من جسدي .. لكن .. لكن يا ايليا اين تدفنونني

هل تدفنوني خارج المدينة في مكان مهمل مجهول . لا لا انني ارتعد من وحشة القفر ويخيفني رقص الذئاب والضباع فوق قبري في ظلام الليالي المدلهّة . هل تدفنونني في « طبريا » حيث يولد المسيح وفي « صفد » حيث يُقام عرشه (١) لا لا انني لا اريد الابتعاد عن ايليا مسيحي . فادفنوني في مزرعته بجانب قبر الراهب ميخائيل . هناك يراني ايليا في كل يوم ويسلّم عليَّ في كل صباح ومساء . وانني اذا كنتُ قريبة منه هكذا فلا اكون وحدي بل يكون لي بجانبي مؤنس اذا مرَّ قرب قبري دفأت عظامي بحرارة انفاسه وهشت له حجارة قبري

. . . .

(وكان ايليا في اثناء هذه القراءة يجهش في البكاء عند كل سطر او سطرين كأنَّ عينيه وجدتا نبعاً جديداً من الدمع . فلما انتهى الى هنا عاد الى خاتمة الدفتر ليقف على آخر عواطف استير بعد وقوفه على الاسباب التي ذكرتها فقرأ في الصفحتين الاخيرتين ما يلي)

. . . .

. نعم نعم .. انني ارى الموت آتياً . حمداً لك يا الهي فانك انقذتني من جناية الانتحار وقتل النفس .. بل انك يا الهي انقذتني من الحياة نفسها لانني لم اكن على ثقة من مقدرتي على الانتحار .. فكنتُ اخشى ان اجبن حين الشروع فيه او تعود اليَّ غريزة

(١) رنه روسو

الحياة بعد تمام عافيتي فاعود الى التمسك بها .. اما الآن فلا جبن ولا ضعف ولا خوف... غداً ستطلع الشمس ولكن تكون استير غائبة . غداً يناديها امها وابوها فتكون جثة باردة و « هو » ماذا يصنع حينئذ . وما يقول ... وبمَ يفتكر ... آه انني لم اعد اقدر على لفظ اسمه بفمي .. يا الهي احرسه بعدي .. اواه هل يكون سعيداً اوتعيساً في مستقبل حياته . وا اسفاه انني اختبرت الحياة ورايتُ ما فيها من الشناعة والقبح والدناءة .. فمن الصعب فيها على محبي الجمال المطلق والنقاء وطهارة الاخلاق ان يعيشوا مسرورين مرتاحين . افٍ انني لا ازال اذكر ما رأيتـه من افعال الناس في حياتي . لا ازال اذكر الوحوش البشرية الشرهة المرتدية بملابس جميلة تحيط بي وتصرف انظارها اليّ كأنها تريد ابتلاعي . لا ازال اذكر تنازع هذه النفوس الصغيرة واقتتالها على الامور الارضية التافهة اقتتالاً يسقط فيه الخجول الظريف اللطيف العفيف ويقوم الخشن الغليظ الوحشي الكثيف . لا لا . ما احلاك ايها الموت فتعالَ وارحني من هذه الحياة الدنيئة . ان حفرتك الهادئة الجميلة هي ملجاء امين من كل فظائع وشرور هذه الحياة . هي مكان الراحة الابدي الذي يرفرف عليه ملاك الجمال جمال الهدوء والسكون والسلام بعد شناعة القلق والاضطراب . فما احلى واطيب الرقاد في ذلك المكان .. ولكن يا اللذة العظمى والحلاوة الكبرى لو كان « هو » معي ...

. . . .

فمسح ايليا دموعه هذه المرة ايضاً وهو يشهق شهيقاً شديداً . وكان قد اتى على آخر الدفتر ولم يبقَ في الصفحة الاخيرة غير عبارة واحدة مسطّرة بحروف مضطربة لان اليد التي كتبتها كانت ترتجف من دبيب الحمى والموت . فقرأها ايليا فكانت كما يلي

« الوداع .. صرتُ عاجزة عن الكتابة ... فاقرأ من قبيل الوداع الفقرات الثلاث الاخيرة من كتابي اليك لما كنت في المزرعة »

فتذكر حينئذ ايليا هذا الكتاب (١) فاخرجه من جيبه واخذ يتلوه ويقبله باكياً . ولما لم يعد قادراً على اتمام تلاوة الدفتر لشدة تأثره طواه ووضعه في جيبه وهو يبكي بكاء الاولاد ثم خرج مسرعاً من الغرفة يقصد قبر استير . ولكنه لم يصل اليه حتى وجد هناك فوق التراب الذي لم تكن مرت بعدُ ساعتان على انهياله على نعش الفتاة — رجلاً ممدداً على الارض بطول القبر وهو يبكي . فعرف ايليا ارميا لاول نظرة . ولما وقعت عين احدهما على الاخر اجهشا كلاهما في البكاء

(١) الصفحة ٩٩ السطر ١٢

فمن يعلم ان استير لم يسرّها وهي تحت التراب هذا الاخلاص من محب عاقل ومحب مجنون

الفصل الرابع والعشرون

الخاتمة

ماذا حدث لايليا بعد ذلك . الامام عمر والفروض . تسريحه الجيوش لاتمام الفتح . عودته من الشام . مراثي ارميا في اورشليم . القبور الثلاثة

هكذا كانت نهاية هذه القصة المؤلمة التي مزج فيها المؤلف دموعه بدموع ايليا . وربما بدموع القارىء ايضاً

وفي تلك الليلة لم يزر الكرى جفن ايليا ولما اصبح الصباح لزم فراشه لاعتلال طرا عليه . ومنذ هذا اليوم عاوده ضجره القديم فصار سكوتاً منقبضاً لا يلتفت الى شيء ولا يبالي بشيء . ولما سمع الشيخ سليمان باعتلاله اسرع اليه شديد الاهتمام بامره

ذلك ان الشيخ سليمان كان كثير الخبرة في الحياة

ذلك انه كان يعلم تأثير بعض الامراض

فقد كان له في شبابه طفلان مات احدهما بعلة سرية في الاسبوع الاول وتبعه الثاني في الاسبوع الثاني

فيا استير ليتك لم تهبي ايليا دفترك . فانكِ وضعتِ له مع عواطفك ميكروبات مرضك

ولما كان يقبّل فيه عواطفك بشفتيه كان يلتقط بهما ميكروباتك

فافتحوا يا اهل المزرعة قبراً ثالثاً بجانب قبري استير والراهب ميخائيل

ويا استير سري وافرحي ان عزيزك ايليا راحل اليك

وهو ايضاً كان مسروراً بذلك

انه قبل معرفتك ضجر من هذه الحياة الباردة وسئم اهتماماتها الباطلة فلما عرفك اصبح يراها لذيذة جميلة . فهل من غرابة ان يكرهها بعدك كما كرهها قبلك

***

وفي اليوم الثالث من مرض ايليا بينما هو طريح الفراش يعاني الحمى التيفوئيدية ويهذي باسم استير ويراها في احلامه كان الامام عمر يودع امراء الجيش ليعود الى « المدينة » المنورة في بلاد العرب حيث كان الناس قد استبطئوه وظنوا انه سيقيم في الشام لكثرة خيرها ورخص اسعارها وطيب فاكتها ولانها بلد الانبياء ولذلك كانوا يخرجون الى

المدينة في كل يوم لاستطلاع اخباره(١)* فركب الامام عمر على بعيره وركب امراء المسلمين معه وضجت القبائل بالتهليل والتكبير . ولما وصل عمر الى الجابية اقام بها حيناً فاخذ خمس الفيء (٢) لبيت المال حسب العادة * . ولما رأى الامام كثرة الاموال والخيرات التفت الى ابي عبيدة وقال (— ياعامر لقد آن لنا ان ندون الدواوين ونفرض الفروض والعطاء للمسلمين فان الشام وفارس ملاءت خزائننا بالمال . فسأل ابو عبيدة (— وكيف يكون العطاء يا امير المؤمنين . فاجاب عمر (— « على السابقة في الاسلام » ابتداءً من المهاجرين والانصار فمن بعدهم الى اليوم . فقال ابو عبيدة (— والمساكين يا امير المؤمنين . فقال عمر (— ساجمع ستين مسكيناً واطعمهم الخبز ثم احصي ما اكلوا وافرض لكل انسان منهم ولعياله على هذا التقدير (٣) فلا ادع في المسلمين محتاجاً

ثم انه شرع في تسريح الجند لاتمام الفتح « وقسم الشام قسمين . فاعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها وامره بالمسير الى حلب وان يقاتل اهلها . واعطى ارض فلسطين وارض القدس والساحل ليزيد بن ابي سفيان وجعل ابا عبيدة والياً عليه . وامر يزيد ان يحارب اهل قيسارية الى ان يفتحها الله على يديه . وسيَّر عمراً بن العاص الى مصر »(٤) « وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين واسكنه الرملة وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر واسكنه ايلياء » (٥) ثم ان الامام ودع الامراء واوصاهم بالاتحاد والنشاط وعاد مع رجاله على بعيره قافلاً الى « المدينة » عاصمته وهو يحمد الله على الفتح ومعه كعب الاحبار*

فبتسيير الرجال هذا التسيير الى اقطار الارض لفتحها وتوحيدها اشبه الامام عمر السيد المسيح لما ارسل تلامذته الى العالم ليفتحوه و يوحدوه وينشروا فيه الوداعة والمحبة والسلام بقوة الكلام فقط . ولكن كأن الكلام لم يفعل في العالم الفعل المقصود ولذلك قام السيف الآن . واذا كان الكلام لم ينجع فالسيف لا ينجع ايضاً

* * *

وفي اثناء ذلك بينما كانت فلسطين قائمة قاعدة لحركات الجند المختلفة فيها كان رجل جالساً تحت الارزة على جبل الزيتون وفي يده كتاب يقرأ فيه بصوتٍ جهوري قراءة جدية

---

١) الواقدي ٢) الغنيمة او الخراج او الجزية ٣) كذا فعل الامام بعد عودته الى المدينة في رواية ابن الاثير ٤) الواقدي . وروى درابيرون في ترجمته «هيراقليوس» ان بطريرك الاسكندرية وعد الامام عمر بان يزوجه ابنة الامبراطور هرقل و يؤدي الجزية اذا امسك عن مصر ولم يبعث ليفتحها فلما درى بذلك الامبراطور استدعاه واهانه وعذبه
٥ اي بيت المقدس (ابن الاثير)

وينظر الى اوروشليم امامه

وكان هذا الرجل ارميا والكتاب الذي في يده نسخة من التوراة

وكان ارميا يقرأ فيها نبوءة(سميه) ارميا ورثاءه اوروشليم . فكان صوته يدوي في جو المدينة المقدسة كانه بوق ينذر بسقوط المدينة العظيمة ـ وكان في فكره يرثي اوروشليم واستير معاً

ويا للعجب العجاب ان كثيراً من تلك النبوءات كان كأنه كتب عن الامة الفاتحة . وهذا بعض ما كان يتلوه ارميا :

« يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع فابكي نهاراً وليلا قتلى بنت شعبي (١)

« كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب . كيف صارت كارملة العظيمة في الامم . كيف صارت السيدة في البلدان تحت الجزية (٢)

« كيف غطى السيد بالظلام ابنة صهيون . كيف القى من السماء الى الارض فخر اسرائيل (٣)

« كيف اكدرّ الذهب وتغيّر الابريز الجيد (٤)

« هكذا قال الرب . هوذا شعب قادم من ارض الشمال وامة عظيمة تقوم من اقاصي الارض . تمسك القوس والرمح . هي قاسية لا ترحم . صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب . مصطفة كانسان لمحاربتك يا ابنة صهيون — امة قوية امة منذ القديم . امة لا تعرف لسانها (يا اسرائيل) ولا تفهم ما تتكلم . جعبتهم كقبر مفتوح . كلهم جبابرة — سمعنا خبرها فارتخت ايدينا . اصابنا ضيق ووجع كالماخض . لا تخرجوا الى اسفل وفي الطريق لا تمشوا لان سيف العدو من كل جهة (٥) وخيله اسرع من النسور (٦)

« من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة (٧)

« ويل لنا لاننا قد هلكنا . اغسلي من الشر قلبك يا اوروشليم لكي تخلصي . الى متى تبقى في باطنك افكارك الباطلة (٨)

« طوفوا شوارع اوروشليم وانظروا واعزقوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً او يوجد فيها عامل بالعدل طالب الحق فاصفح عنها (٩)

« هم من صغيرهم الى كبيرهم كل واحد مولع بالربح الحرام ومن النبي الى الكاهن كلٌ يعمل بالكذب

« بينهم منافقون يرصدون وهم كامنون كالصيادين . وقد نصبوا الفخ لاقتناص

١ نبوءة ارميا ص ٩ ع ١ ٢ مراثي ارميا ص ١ ع ١ ٣ مراثي ارميا ص ٢ ع ١
٤ المراثي ص ٤ ع ١ ٥ ارميا ص ٦ ع ٢٢ وص ٥ ع ١٥ ٦ ارميا ص ٤ ع ١٣
٧ ارميا ص ٤ ع ١٣ و١٤ ٨ ارميا ص ٤ ع ٢٣ ٩ ارميا ص ٥ ع ١

الناس . بيوتهم امتلأت من الغش كالقفص المملوء طيوراً ولذلك عظموا واستغنوا . سمان لامعون وهم يتعدون وصاياي شرّ تعدٍ ولا يقضون بينهم دعوى اليتيم ولا يجرون حكم المساكين . اعلى هذا لا اعاقبهم ؟ قد حدث في الارض دهش فظيع : الانبياء يتنبأون زوراً والكهنة يتسلّطون بايديهم وشعبي يحب مثل هذه الامور . فكيف تكون الآخرة (١)

« ويل لمن يبني بيته بغير عدل وقصوره بغير حق (٢)

« ويل للرعاة الذين يُهلكون ويبدّدون غنم رعيتي (٣)

« يا رب اذكر ماذا صار لنا . اشرف وانظر الى عارنا . قد صار ميراثنا للغرباء وبيوتنا للاجانب . صرنا ايتاماً بلا أب وامهاتنا كارامل . شربنا ماءنا بثمنه واخذنا حطبنا بثمنه . اباؤنا اخطأوا وذهبوا ونحن نحمل آثامهم . مضى فرح قلبنا . سقط اكليل رأسنا . اعدنا يا رب اليك فنعود . جدّد ايامنا كالقديم (٤)

هكذا كان ارميا يخطب على جبل الزيتون ويرثي اورشليم حين دخول حامية العرب اليها لتولي شأنها . ولو سمعه حينئذ الاسرائيليون الذين كانوا يرافقون جيوش العرب لقالوا له انه قد جاءت نوبة قومه في هذا الرثاء بعد ان صرف قومهم فيه عدة قرون

***

ولم يكد ارميا يطوي الكتاب الذي بين يديه ويترك الرثاء حزيناً متألماً حتى طلع عليه بعض فرسان العرب . فعرف ارميا منهم عمراً بن معدي كرب وقد جاء بطلب ايليا لغرض له . فاخبره ارميا عن مرض ايليا ودله على المزرعة . ولما وصل الامير اليها كان ايليا غائباً عن الرشد وهو على اهبة الرحيل

ذلك ان الحمى التيفوئيدية فعلت فيه ما فعلته باستير

وكان الشيخ واهل المزرعة حينئذ في منتهى الحزن والغم لحالة ايليا وهم من ذلك في بكاء مستديم

ولما علم الامير بموت استير ومرض ايليا الى هذا الحد حزن حزناً شديداً . وقبل عودته من المزرعة سال الشيخ سليمان ان يدله على قبر الراهب ميخائيل الذي كان ايليا قد اخبره خبره كما تقدم . فذهب به الشيخ اليه . وقبل رحيل الامير ساله الشيخ ماذا يريد من ايليا ليبلغه اياه بعد انتباهه من نوبته . فاجاب الامير بلسان ترجمانه . هي مسالة كتاب سري بين خليفتنا عمر وبتركُكم لم يدرِ بها احد غير ايليا . فاحببت ان اقف منه على فحواه

١ ارمياص ٥ ع ٢٦ ٢ ارمياص ٢٢ ع ١٣ ٣ ارمياص ٢٣ ع ١
٤ خاتمة مراثي ارميا

لامرٍ ما . وساراه مرة اخرى

ولكن هذا السر بقي في صدر ايليا ومات بموته . لا سيما وان ابا استير الذي وقف عليه ايضاً قد توفي بعد شهر من وفاة ابنته

وقد فاتنا ان نقول ان زوجته العجوز توفيت في ذات الاسبوع الذي توفيت فيه استير من حزنها على ابنتها

وقد دفنوا ايليا بين قبر استير وقبر استاذه الراهب ميخائيل . وكان يوم دفنه يوم عويل وحزن عظيم عند اهل المزرعة كباراً وصغاراً حتى الاولاد

فيا ايتها القبور الثلاثة التي تعانقت رفاتها في جوف الارض تعانق الاحياء وضمت الحكمة والجمال والشباب والعقل : سلام عليكم من كاتب قصتكم وقارئها

سلام عليكم وهنيئاً لكم لانكم رقدتم براحةٍ وسلام قبل زمن الاضطرابات التالية . هنيئاً لكم لانكم خلصتم من مشاهد الحياة الباردة واهتماماتها الباطلة وشهواتها الفارغة واعتداءاتها الوحشيّة . انكم خلصتم من مشهد الصغير النفس يجرُّ ذيل الكبر منتصراً . والدميم خلقاً وخلقاً يتيه دلالاً ويمشي اختيالاً . والسالب يتمتع بما سلب مكرماً محترماً بين قومه لان الناس لم يتعودوا شم رائحة الذهب قبل اكرام صاحبه ليعلموا هل كان كسبه حراماً او حلالاً . والوقح يبلغ ما ربه بوقاحته و يزدري كل الفضائل والاخلاق اللطيفة لانها بين الحيوانات البشرية في الدنيا لا تجرّ مغنماً ولا تدفع مغرماً

هنيئاً لكم ايضاً لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها الى بعض ليفني بعضها بعضاً . انكم يا ايتها الجواهر الثلاثة قد شهدتم سقوط اورشليم الجميلة عاصمة العواصم وزينة الدنيا وعروس العالم . ولكن كل هذا ليس بالشيء الذي يُذكر بازاء الاهوال الآتية . ان عنصرين جديدين من البشر سيشتبكان ويتخالطان ويتماسكان وكل منهما يطلب اذلال الآخر او نبذه من الدنيا . فاشفقوا على اخوانكم الضعفاء الآتين بعدكم في هذا النزاع الهائل . اشفقوا على الدماء التي ستسفك من الفريقين والمظالم والفظائع والصبيانيات التي ستحدث في الجانبين . وبما انكم قد خرجتم عن دائرة النزاع والعراك في الحياة واصبحت نفوسكم نفوس ملائكة لا نفوس حيوانات بشرية فاوحي الى الشرقيين يا ايتها النفوس الكريمة المبادىء الجميلة الشريفة التي تريهم اباطيل نزاعهم . ثم ارسلي الى حكامهم روح العدل والحق والنزاهة والمحبة والالفة والسلام ليعيش الجميع في هذه الارض التي اصبحت مشتركة بينهم والتي سقوها بالدماء والدموع معيشة هادئة لا يسبّون معها الارض ولا يشكون من السماء

تمت

